سورة الفاتحة

سُورة الفـاتِـحَةِ
مكِيّة وآياتها سَبْع

الآية : 1

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمـَنِ الرّحِيمِ

القول فـي تأويـل بِسْمِ.

قال أبو جعفر: إن الله تعالـى ذكره وتقدست أسماؤه, أدّب نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم بتعلـيـمه تقديـم ذكر أسمائه الـحسنى أمام جميع أفعاله, وتقدم إلـيه فـي وصفه بها قبل جميع مهماته, وجعل ما أدبه به من ذلك وعلـمه إياه منه لـجميع خـلقه سنةً يستنون بها, وسبـيلاً يتبعونه علـيها, فـي افتتاح أوائل منطقهم وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم حتـى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل «بسم الله», علـى من بطن من فراده الذي هو مـحذوف. وذلك أن البـاء من «بسم الله» مقتضيةٌ فعلاً يكون لها جالبـا, ولا فعل معها ظاهر, فأغنت سامع القائل «بسم الله» معرفته بـمراد قائله من إظهار قائل ذلك مراده قولاً, إذ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمرا قد أحضر منطقه به, إما معه وإما قبله بلا فصل, ما قد أغنى سامعه من دلالة شاهدة علـى الذي من أجله افتتـح قـيـله به. فصار استغناءُ سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه, نظير استغنائه إذا سمع قائلاً قـيـل له: ما أكلت الـيوم؟ فقال: طعاما, عن أن يكرّر الـمسؤول مع قوله «طعاما» أكلت لـما قد ظهر لديه من الدلالة علـى أن ذلك معناه بتقدم مسألة السائل إياه عما أكل. فمعقول إذا أن قول القائل إذا قال: «بِسم الله الرحمن الرحيـم» ثم افتتـح تالـيا سورة, أن إتبـاعه «بسم الله الرحمن الرحيـم» تلاوةَ السورة, ينبىء عن معنى قوله: «بسم الله الرحمن الرحيـم» ومفهوم به أنه مريد بذلك أقرأ بسم الله الرحمن الرحيـم.

وكذلك قوله: «بسم الله» عند نهوضه للقـيام أو عند قعوده وسائر أفعاله, ينبىء عن معنى مراده بقوله «بسم الله», وأنه أراد بقـيـله «بسم الله»: أقوم بسم الله, وأقعد بسم الله وكذلك سائر الأفعال.

وهذا الذي قلنا فـي تأويـل ذلك, هو معنى قول ابن عبـاس, الذي:

1ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس, قال: إن أول ما نزل به جبريـل علـى مـحمد, قال: يا مـحمد, قل أستعيذ بـالسميع العلـيـم من الشيطان الرجيـم ثم قال: قل بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيـمِ قال: قال له جبريـل: قل بسم الله يا مـحمد. يقول: اقرأ بذكر الله ربك, وقم واقعد بذكر الله.

قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: فإن كان تأويـل قوله «بسم الله» ما وصفت, والـجالب «البـاء» فـي «بسم الله» ما ذكرت, فكيف قـيـل «بسم الله», بـمعنى «اقرأ بسم الله», أو «أقوم أو أقعد بسم الله»؟ وقد علـمت أن كل قارىء كتاب الله, فبعون الله وتوفـيقه قراءتُه, وأن كل قائم أو قاعد أو فـاعل فعلاً, فبـالله قـيامُه وقعوده وفعله؟ وهلاّ إذا كان ذلك كذلك, قـيـل: «بسم الله الرحمن الرحيـم», ولـم يقل «بسم الله» فإن قول القائل: أقوم وأقعد بـالله الرحمن الرحيـم, أو أقرأ بـالله, أوضح معنى

لسامعه من قوله «بسم الله», إذ كان قوله أقوم وأقعد بسم الله, يوهم سامعه أن قـيامه وقعوده بـمعنى غير الله.

قـيـل له: إن الـمقصود إلـيه من معنى ذلك, غير ما توهمته فـي نفسك. وإنـما معنى قوله «بسم الله»: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء, أو أقرأ بتسمية الله, أو أقوم وأقعد بتسمية الله وذكره لا أنه يعنـي بقـيـله «بسم الله»: أقوم بـالله, أو أقرأ بـالله فـيكون قول القائل: «أقرأ بـالله», و«أقوم وأقعد بـالله», أولـى بوجه الصواب فـي ذلك من قوله «بسم الله».

فإن قال: فإن كان الأمر فـي ذلك علـى ما وصفتَ, فكيف قـيـل «بسم الله» وقد علـمت أن الاسم اسم, وأن التسمية مصدر من قولك سَمّيت؟.

قـيـل: إن العرب قد تـخرج الـمصادر مبهمةً علـى أسماء مختلفة, كقولهم: أكرمت فلانا كرامةً, وإنـما بناء مصدر «أفعلتُ» إذا أُخرج علـى فعله: «الإفعالُ», وكقولهم: أهنت فلانا هوانا, وكلـمته كلاما. وبناء مصدر «فعّلت» التفعيـل, ومن ذلك قول الشاعر:

أكُفْرا بَعْدَ رَدّ الـمَوْتِ عَنّيوبَعْدَ عَطائِكَ الـمِائَةَ الرّتاعا

يريد: إعطائك. ومنه قول الآخر:

وَإنْ كانَ هَذا البُخْـلُ مِنْكَ سَجِيّةًلَقَدْ كُنْتُ فـي طَوْلـي رَجاءَكَ أشْعَبـا

يريد: فـي إطالتـي رجاءك. ومنه قول الآخر:

أظَلُومُ إنّ مُصَابَكُمْ رَجُلاأهْدَى السّلامَ تَـحِيّةً ظُلْـمُ

يريد إصابتكم. والشواهد فـي هذا الـمعنى تكثر, وفـيـما ذكرنا كفـاية, لـمن وفق لفهمه. فإذا كان الأمر علـى ما وصفنا من إخراج العرب مصادر الأفعال علـى غير بناء أفعالها كثـيرا, وكان تصديرها إياها علـى مخارج الأسماء موجودا فـاشيا, تبـين بذلك صواب ما قلنا من التأويـل فـي قول القائل: «بسم الله», أن معناه فـي ذلك عند ابتدائه فـي فعل أو قول: أبدأ بتسمية الله, قبل فعلـي, أو قبل قولـي.

وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: «بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيـمِ» إنـما معناه: أقرأ مبتدئا بتسمية الله, أو أبتدىء قراءتـي بتسمية الله فجعل الاسم مكان التسمية, كما جعل الكلام مكان التكلـيـم, والعطاء مكان الإعطاء.

وبـمثل الذي قلنا من التأويـل فـي ذلك, رُوي الـخبر عن عبد الله بن عبـاس.

2ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس, قال: أول ما نزل جبريـل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم, قال: يا مـحمد, قل أستعيذ بـالسميع العلـيـم من الشيطان الرجيـم ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيـم.

قال ابن عبـاس: «بسم الله», يقول له جبريـل: يا مـحمد اقرأ بذكر الله ربك, وقم واقعد بذكر الله.

وهذا التأويـل من ابن عبـاس ينبىء عن صحة ما قلنا من أنه يراد بقول القائل مفتتـحا قراءته: «بسم الله الرحمن الرحيـم»: أقرأ بتسمية الله وذكره, وافتتـح القراءة بتسمية الله, بأسمائه الـحسنى, وصفـاته العلـى وفسادِ قول من زعم أن معنى ذلك من قائله: بـالله الرحمن الرحيـم فـي كل شيء, مع أن العبـاد إنـما أمروا أن يبتدئوا عند فواتـح أمورهم بتسمية

الله لا بـالـخبر عن عظمته وصفـاته, كالذي أمروا به من التسمية علـى الذبـائح والصيد, وعند الـمطعم والـمشرب, وسائر أفعالهم, وكذلك الذي أمروا به من تسميته عند افتتاح تلاوة تنزيـل الله وصدور رسائلهم وكتبهم.

ولا خلاف بـين الـجميع من علـماء الأمة, أن قائلاً لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام: «بـالله», ولـم يقل «بسم الله», أنه مخالف بتركه قـيـل «بسم الله» ما سُنّ له عند التذكية من القول. وقد علـم بذلك أنه لـم يرد بقوله «بسم الله», «بـالله» كما قال الزاعم أن اسم الله فـي قول الله: «بسم الله الرحمن الرحيـم», هو الله لأن ذلك لو كان كما زعم, لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبـيحته «بـالله» قائلاً ما سُنّ له منّ القول علـى الذبـيحة. وفـي إجماع الـجميع علـى أن قائل ذلك تارك ما سُنّ له من القول علـى ذبـيحته, إذْ لـم يقل «بسم الله», دلـيـل واضح علـى فساد ما ادعى من التأويـل فـي قول القائل «بسم الله» وأنه مراد به بـالله, وأن اسم الله هو الله.

ولـيس هذا الـموضع من مواضع الإكثار فـي الإبـانة عن الاسم, أهو الـمسمى أم غيره أم هو صفة له؟ فنطيـل الكتاب به, وإنـما هو موضع من مواضع الإبـانة عن الاسم الـمضاف إلـى الله, أهو اسم أم مصدر بـمعنى التسمية؟ فإن قال قائل: فما أنت قائل فـي بـيت لبـيد بن ربـيعة:

إلـى الـحَوْلِ ثُمّ اسْمُ السّلامِ عَلَـيْكُمَاوَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فقَدِ اعْتَذَرْ

فقد تأوّله مقدم فـي العلـم بلغة العرب, أنه معنـيّ به: ثم السلام علـيكما, وأن اسم السلام هو السلام.

قـيـل له: لو جاز ذلك وصحّ تأويـله فـيه علـى ما تأوّل, لـجاز أن يقال: رأيت اسم زيد, وأكلت اسم الطعام, وشربت اسم الشراب. وفـي إجماع جميع العرب علـى إحالة ذلك ما ينبىء عن فساد تأويـل من تأوّل قول لبـيد: «ثم اسم السلام علـيكما», أنه أراد: ثم السلام علـيكما, وادعائه أن ادخال الاسم فـي ذلك وإضافته إلـى السلام إنـما جاز, إذْ كان اسم الـمسمى هو الـمسمى بعينه.

ويُسأل القائلون قول من حكينا قوله هذا, فـيقال لهم: أتستـجيزون فـي العربـية أن يقال أكلت اسم العسل, يعنـي بذلك أكلت العسل, كما جاز عندكم اسم السلام علـيك, وأنتـم تريدون السلام علـيك؟ فإن قالوا: نعم خرجوا من لسن العرب, وأجازوا فـي لغتها ما تـخطئه جميع العرب فـي لغتها. وإن قالوا لا سئلوا الفرق بـينهما, فلن يقولوا فـي أحدهما قولاً إلاّ ألزموا فـي الآخر مثله.

فإن قال لنا قائل: فما معنى قول لبـيد هذا عندك؟ قـيـل له: يحتـمل ذلك وجهين, كلاهما غير الذي قاله من حكينا قوله. أحدهما: أن «السلام» اسم من أسماء الله فجائز أن يكون لبـيد عنى بقوله: «ثم اسم السلام علـيكما»: ثم الْزَمَا اسم الله وذكره بعد ذلك, ودعا ذكري والبكاء علـيّ علـى وجه الإغراء. فرفع الاسم, إذْ أخّر الـحرف الذي يأتـي بـمعنى الإغراء. وقد تفعل العرب ذلك إذا أخرت الإغراء وقدمت الـمُغْرَى به, وإن كانت قد تنصب به وهو مؤخر. ومن ذلك قول الشاعر:

يا أيّها الـمَائِحُ دَلْوِي دُونَكاإنـي رأيْتُ النّاس يَحْمَدُونَكا

فأغرى ب«دونك», وهي مؤخرة وإنـما معناه: دونك دلوي. فذلك قول لبـيد:

إلـى الـحَوْلِ ثُمّ اسْمُ السّلامِ عَلَـيْكُمَا

يعنـي: علـيكما اسم السلام, أي: الزما ما ذكر الله, ودعا ذكري والوجد بـي لأن من بكى حولاً علـى امرىء ميت فقد اعتذر. فهذا أحد وجهيه.

والوجه الآخر منهما: ثم تسميتـي الله علـيكما, كما يقول القائل للشيء يراه فـيعجبه: «اسم الله علـيك» يعوّذه بذلك من السوء, فكأنه قال: ثم اسم الله علـيكما من السوء. وكأن الوجه الأول أشبه الـمعنـيـين بقول لبـيد.

ويقال لـمن وجّه بـيت لبـيد هذا إلـى أن معناه: «ثم السلام علـيكما»: أترى ما قلنا من هذين الوجهين جائزا, أو أحدهما, أو غير ما قلت فـيه؟ فإن قال: لا أبـان مقداره من العلـم بتصاريف وجوه كلام العرب, وأغنى خصمه عن مناظرته. وإن قال: بلـى قـيـل له: فما برهانك علـى صحة ما ادّعيت من التأويـل أنه الصواب دون الذي ذكرت أنه مـحتـمله من الوجه الذي يـلزمنا تسلـيـمه لك؟ ولا سبـيـل إلـى ذلك. وأما الـخبر الذي:

3ـ حدثنا به إسماعيـل بن الفضل, قال: حدثنا إبراهيـم بن العلاء بن الضحاك, قال: حدثنا إسماعيـل بن عياش, عن إسماعيـل بن يحيى عن ابن أبـي ملـيكة, عمن حدثه عن ابن مسعود, ومسعر بن كدام, عن عطية, عن أبـي سعيد, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عِيسى ابْنَ مَرْيَـمَ أسْلَـمَتْهُ أُمّهُ إلـى الكُتّابِ لِـيُعَلّـمَهُ, فَقالَ لَهُ الـمُعَلّـمُ: اكْتُبْ بِسْمِ فَقَالَ له عِيسَى: وَما بِسْمِ؟ فَقالَ لَهُ الـمُعَلّـمُ: ما أدْرِي فَقالَ عِيسىَ: البَـاءُ: بَهاءُ اللّهِ, وَالسّينُ: سَناؤُهُ, وَالـمِيـمُ: مَـمْلَكَتُهُ».

فأخشى أن يكون غلطا من الـمـحدث, وأن يكون أراد: «ب س م», علـى سبـيـل ما يعلـم الـمبتدى من الصبـيان فـي الكتاب حروفَ أبـي جاد. فغلط بذلك, فوصله فقال: «بسم» لأنه لا معنى لهذا التأويـل إذا تُلـي «بسم الله الرحمن الرحيـم» علـى ما يتلوه القارىء فـي كتاب الله, لاستـحالة معناه علـى الـمفهوم به عند جميع العرب وأهل لسانها, إذا حمل تأويـله علـى ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:{الله}.

قال أبو جعفر: وأما تأويـل قول الله: «الله», فإنه علـى معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عبـاس: هو الذي يَأْلَهه كل شيء, ويعبده كل خـلق. وذلك أن أبـا كريب:

4ـ حدثنا قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس, قال: الله ذو الألوهية والـمعبودية علـى خـلقه أجمعين.

فإن قال لنا قائل: فهل لذلك فـي «فَعَلَ ويَفْعَل» أصل كان منه بناء هذا الاسم؟ قـيـل: أما سماعا من العرب فلا, ولكن استدلالاً.

فإن قال: وما دلّ علـى أن الألوهية هي العبـادة, وأن الإله هو الـمعبود, وأن له أصلاً فـي فعل ويفعل؟ قـيـل: لا تـمانُعَ بـين العرب فـي الـحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبـادة ويطلب مـما عند الله جل ذكره: تألّه فلان بـالصحة ولا خلاف. ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

لِلّهِ دَرّ الغانِـياتِ الـمُدّةِسَبّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِنْ تألّهِي

يعنـي من تعبدي وطلبـي الله بعمل. ولا شك أن التأله «التفعّل» من: أَلَهَ يَأْلَهُ, وأن معنى «أَلَه» إذا نُطق به: عَبَد الله. وقد جاء منه مصدر يدل علـى أن العرب قد نطقت منه ب«فَعَل يفعل» بغير زيادة. وذلك ما:

5ـ حدثنا به سفـيان بن وكيع, قال حدثنا أبـي, عن نافع بن عمر, عن عمرو بن دينار, عن ابن عبـاس, أنه قرأ: «وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَكَ» قال: عبـادتك, ويُقال: إنه كان يُعْبَد ولا يَعْبَد.
وحدثنا سفـيان, قال: حدثنا ابن عيـينة, عن عمرو بن دينار, عن مـحمد بن عمرو بن الـحسن, عن ابن عبـاس: «وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَكَ» قال: إنـما كان فرعون يُعْبَد ولا يَعْبد. وكذلك كان عبد الله يقرؤها ومـجاهد.
6ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: أخبرنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد, قوله: («وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَكَ») قال: وعبـادتك. ولا شك أن الإلاهة علـى ما فسره ابن عبـاس ومـجاهد, مصدرٌ من قول القائل أَلَهَ اللّهَ فلانٌ إلاهةً, كما يقال: عبد الله فلانٌ عبـادة, وعَبَر الرؤيا عبـارةً. فقد بـيّن قول ابن عبـاس ومـجاهد هذا أن أله: عبد, وأن الإلاهة مصدره.
فإن قال: فإن كان جائزا أن يقال لـمن عبد الله: أَلِهه, علـى تأويـل قول ابن عبـاس ومـجاهد, فكيف الواجب فـي ذلك أن يقال, إذا أراد الـمخبر الـخبر عن استـيجاب الله ذلك علـى عبده؟ قـيـل: أما الرواية فلا رواية عندنا, ولكن الواجب علـى قـياس ما جاء به الـخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم, الذي:
7ـ حدثنا به إسماعيـل بن الفضل, قال: حدثنا إبراهيـم بن العلاء, قال: حدثنا إسماعيـل بن عياش, عن إسماعيـل بن يحيى, عن ابن أبـي ملـيكة, عمن حدثه, عن ابن مسعود, ومسعر بن كدام, عن عطية العوفـي, عن أبـي سعيد, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ عِيسَى أسْلَـمَتْهُ أُمّهُ إلـى الكُتّابِ لِـيُعَلّـمَهُ, فَقالَ لَهُ الـمُعَلّـمُ: اكْتُبْ اللّهُ, فَقالَ لَهُ عِيسَى: أتَدْرِي ما اللّهُ؟ اللّهُ إلَهُ الاَلِهَةِ».
أن يقال: الله جل جلاله أَلَهَ العَبْدَ, والعبدُ ألهه. وأن يكون قول القائل «الله» من كلام العرب أصله «الإله».
فإن قال: وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك مع اختلاف لفظيهما؟ قال: كما جاز أن يكون قوله: لَكِنّ هُوَ اللّهُ رَبّـي أصله: «لكن أنا هو الله ربـي» كما قال الشاعر:
وَتَرْمِينِنِـي بـالطّرْفِ أيْ أنْتَ مُذْنِبٌوتَقْلِـينَنِـي لَكِنّ إيّاكِ لا أَقْلِـي
يريد: «لكنْ أنا إياك لا أقلـي» فحذف الهمزة من «أنا», فـالتقت نون «أنا» ونون «لكن» وهي ساكنة, فأدغمت فـي نون أنا, فصارتا نونا مشددة, فكذلك الله, أصله الإله, أسقطت الهمزة, التـي هي فـاء الاسم, فـالتقت اللام التـي هي عين الاسم, واللام الزائدة التـي دخـلت مع الألف الزائدة, وهي ساكنة, فأدغمت فـي الأخرى التـي هي عين الاسم, فصارتا فـي اللفظ لاما واحدة مشددة, كما وصفنا من قول الله: لَكِنّ هُوَ اللّهُ رَبّـي.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: الرّحْمنِ الرّحِيـمِ.
قال أبو جعفر: أما الرحمن, فهو «فعلان», من رحم, والرحيـم فعيـل منه. والعرب كثـيرا ما تبنى الأسماء من فعل يفعل علـى فعلان, كقولهم من غضب غضبـان, ومن سكر سكران, ومن عطش عطشان, فكذلك قولهم رحمَن من رحم, لأن «فَعِلَ» منه: رَحِمَ يَرْحم.
وقـيـل «رحيـم» وإن كانت عين فعل منها مكسورة, لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنـية الأسماء إذا كان فـيها مدح أو ذمّ علـى فعيـل, وإن كانت عين فَعِلَ منها مكسورة أو مفتوحة, كما قالوا من عَلِـمَ: عالـم

وعلـيـم, ومن قدَر: قادر وقدير. ولـيس ذلك منها بناءً علـى أفعالها لأن البناء من «فَعِلَ يَفْعَل» «وَفَعَلَ يَفْعَلُ» فـاعل. فلو كان الرحمن والرحيـم خارجين عن بناء أفعالهما لكانت صورتهما الراحم.

فإن قال قائل: فإذا كان الرحمَن والرحيـم اسمين مشتقـين من الرحمة, فما وجه تكرير ذلك وأحدهما مؤّد عن معنى الآخر؟

قـيـل له: لـيس الأمر فـي ذلك علـى ما ظننت, بل لكل كلـمة منهما معنى لا تؤَدي الأخرى منهما عنها. فإن قال: وما الـمعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما, فصارت إحداهما غير مؤدية الـمعنى عن الأخرى؟ قـيـل: أما من جهة العربـية, فلا تـمانع بـين أهل الـمعرفة بلغات العرب أن قول القائل «الرحمن» عن أبنـية الأسماء من «فَعِلَ يَفْعَل» أشد عدولاً من قوله «الرحيـم». ولا خلاف مع ذلك بـينهم أن كل اسم كان له أصل فـي «فَعِلَ يَفْعَل», ثم كان عن أصله من فعل ويفعل أشدّ عدولاً, أن الـموصوف به مفضل علـى الـموصوف بـالاسم الـمبنـي علـى أصله من «فَعِلَ يَفْعل» إذا كانت التسمية به مدحا أو ذما. فهذا ما فـي قول القائل «الرحمَن» من زيادة الـمعنى علـى قوله: «الرحيـم» فـي اللغة.

وأما من جهة الأثر والـخبر, ففـيه بـين أهل التأويـل اختلاف.

8ـ فحدثنـي السريّ بن يحيى التـميـمي, قال: حدثنا عثمان بن زفر, قال: سمعت العرزمي يقول: «الرحمن الرحيـم» قال: الرحمن بجميع الـخـلق. «الرحيـم» قال: بـالـمؤمنـين.

9ـ وحدثنا إسماعيـل بن الفضل, قال: حدثنا إبراهيـم بن العلاء, قال: حدثنا إسماعيـل بن عياش, عن إسماعيـل بن يحيى, عن ابن أبـي ملـيكة, عمن حدثه, عن ابن مسعود, ومسعر بن كدام, عن عطية العوفـي, عن أبـي سعيد يعنـي الـخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَـمَ قالَ: الرّحْمَنُ: رَحْمَنُ الآخِرَةِ والدّنْـيَا, والرّحِيـمُ: رَحِيـمُ الآخِرَةِ».

فهذان الـخبران قد أنبآ عن فرق ما بـين تسمية الله جل ثناؤه بـاسمه الذي هو «رحمن», وتسميته بـاسمه الذي هو «رحيـم». واختلاف معنى الكلـمتـين, وإن اختلفـا فـي معنى ذلك الفرق, فدل أحدهما علـى أن ذلك فـي الدنـيا, ودل الآخر علـى أنه فـي الآخرة.

فإن قال: فأيّ هذين التأويـلـين أولـى عندك بـالصحة؟ قـيـل: لـجميعهما عندنا فـي الصحة مخرج, فلا وجه لقول قائل: أيهما أولـى بـالصحة. وذلك أن الـمعنى الذي فـي تسمية الله بـالرحمن, دون الذي فـي تسميته بـالرحيـم هو أنه بـالتسمية بـالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خـلقه, وأنه بـالتسمية بـالرحيـم موصوف بخصوص الرحمة بعض خـلقه, إما فـي كل الأحوال, وإما فـي بعض الأحوال. فلا شكّ إذا كان ذلك كذلك, أن ذلك الـخصوص الذي فـي وصفه بـالرحيـم لا يستـحيـل عن معناه, فـي الدنـيا كان ذلك أو فـي الآخرة, أو فـيهما جميعا. فإذا كان صحيحا ما قلنا من ذلك وكان الله جل ثناؤه قد خص عبـاده الـمؤمنـين فـي عاجل الدنـيا بـما لطف بهم فـي توفـيقه إياهم لطاعته, والإيـمان به وبرسله, واتبـاع أمره واجتناب معاصيه مـما خذل عنه من أشرك به فكفر, وخالف ما أمره به وركب معاصيه, وكان مع ذلك قد جعل جل ثناؤه ما أعد فـي أجل الآخرة فـي جناته من النعيـم الـمقـيـم والفوز الـمبـين لـمن آمن به وصدق رسله وعمل

بطاعته خالصا دون من أشرك وكفر به كان بـيّنا أن الله قد خص الـمؤمنـين من رحمته فـي الدنـيا والآخرة, مع ما قد عمهم به والكفـار فـي الدنـيا, من الإفضال والإحسان إلـى جميعهم, فـي البسط فـي الرزق, وتسخير السحاب بـالغيث, وإخراج النبـات من الأرض, وصحة الأجسام والعقول, وسائر النعم التـي لا تـحصى, التـي يشترك فـيها الـمؤمنون والكافرون. فربنا جل ثناؤه رحمنُ جميع خـلقه فـي الدنـيا والآخرة, ورحيـم الـمؤمنـين خاصة فـي الدنـيا والآخرة.

فأما الذي عمّ جميعهم به فـي الدنـيا من رحمته, فكان رحمانا لهم به, فما ذكرنا مع نظائره التـي لا سبـيـل إلـى إحصائها لأحد من خـلقه, كما قال جل ثناؤه: (وإنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُـحْصُوها. وأما فـي الآخرة, فـالذي عم جميعهم به فـيها من رحمته. فكان لهم رحمانا. تسويته بـين جميعهم جل ذكره فـي عدله وقضائه, فلا يظلـم أحدا منهم مِثْقَالَ ذَرّةٍ, وَإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْرا عَظِيـما, وتُوفّـى كل نفس ما كسبت. فذلك معنى عمومه فـي الآخرة جميعهم برحمته الذي كان به رحمانا فـي الآخرة.

وأما ما خص به الـمؤمنـين فـي عاجل الدنـيا من رحمته الذي كان به رحيـما لهم فـيها, كما قال جل ذكره: وكانَ بـالـمُؤْمِنِـينَ رَحِيـما فما وصفنا من اللطف لهم فـي دينهم, فخصهم به دون من خذله من أهل الكفر به.

وأما ما خصهم به فـي الآخرة, فكان به رحيـما لهم دون الكافرين. فما وصفنا آنفـا مـما أعدّ لهم دون غيرهم من النعيـم والكرامة التـي تقصر عنها الأمانـي. وأما القول الآخر فـي تأويـله, فهو ما:

10ـ حدثنا به أبو كريب. قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس, قال: الرحمن الفعلان من الرحمة, وهو من كلام العرب. قال: الرحمن الرحيـم: الرقـيق الرفـيق بـمن أحبّ أن يرحمه, والبعيد الشديد علـى من أحبّ أن يعنف علـيه. وكذلك أسماؤه كلها.

وهذا التأويـل من ابن عبـاس, يدل علـى أن الذي به ربنا رحمن هو الذي به رحيـم, وإن كان لقوله «الرحمن» من الـمعنى ما لـيس لقوله «الرحيـم» لأنه جعل معنى الرحمن بـمعنى الرقـيق علـى من رقّ علـيه, ومعنى الرحيـم بـمعنى الرفـيق بـمن رفق به.

والقول الذي رويناه فـي تأويـل ذلك عن النبـي صلى الله عليه وسلم وذكرناه عن العرزمي, أشبه بتأويـله من هذا القول الذي روينا عن ابن عبـاس وإن كان هذا القول موافقا معناه معنى ذلك, فـي أن للرحمن من الـمعنى ما لـيس للرحيـم, وأن للرحيـم تأويلاً غير تأويـل الرحمن.

والقول الثالث فـي تأويـل ذلك, ما:

11ـ حدثنـي به عمران بن بكار الكلاعي, قال: حدثنا يحيى بن صالـح, قال: حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمرو اللـخمي من أهل فلسطين, قال: سمعت عطاء الـخراسانـي, يقول: كان الرحمن, فلـما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحمن الرحيـم.

والذي أراد إن شاء الله عطاء بقوله هذا: أن الرحمن كان من أسماء الله التـي لا يتسمى بها أحد من خـلقه, فلـما تسمى به الكذّاب مسيـلـمة وهو اختزاله إياه, يعنـي اقتطاعه من أسمائه لنفسه أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه الرحمن الرحيـم, لـيفصل بذلك لعبـاده اسمه من اسم من قد تسمى

بأسمائه, إذ كان لا يُسمّى أحد الرحمن الرحيـم فـيجمع له هذان الاسمان غيره جل ذكره وإنـما تسمى بعض خـلقه إما رحيـما, أو يتسمى رحمن, فأما «رحمَن رحيـم», فلـم يجتـمعا قط لأحد سواه, ولا يجمعان لأحد غيره. فكأن معنى قول عطاء هذا: أن الله جل ثناؤه إنـما فصل بتكرير الرحيـم علـى الرحمن بـين اسمه واسم غيره من خـلقه, اختلف معناهما أو اتفقا.

والذي قال عطاء من ذلك غير فـاسد الـمعنى, بل جائز أن يكون جل ثناؤه خص نفسه بـالتسمية بهما معا مـجتـمعين إبـانة لها من خـلقه, لـيعرف عبـاده بذكرهما مـجموعين أنه الـمقصود بذكرهما دون من سواه من خـلقه, مع ما فـي تأويـل كل واحد منهما من الـمعنى الذي لـيس فـي الآخر منهما.

وقد زعم بعض أهل الغبـاء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن ولـم يكن ذلك فـي لغتها ولذلك قال الـمشركون للنبـي صلى الله عليه وسلم: وَمَا الرّحْمَنُ أنَسْجُدُ لـما تَأْمُرُنَا إنكارا منهم لهذا الاسم. كأنه كان مـحالاً عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالـمين بصحته, أو كأنه لـم يتل من كتاب الله قولَ الله: الّذِينَ آتَـيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ يعنـي مـحمدا كَما يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ وهم مع ذلك به مكذبون, ولنبّوته جاحدون. فـيعلـم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقـيقة ما قد ثبت عندهم صحته واستـحكمت لديهم معرفته. وقد أنشد لبعض الـجاهلـية الـجهلاء:

ألاَ ضَرَبَتْ تِلْكَ الفَتاةُ هَجِينَهاألاَ قَضَبَ الرّحْمَنُ رَبّـي يَـمِينَها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجِلْتُـمْ عَلَـيْنَا عَجْلَتَـيْنا عَلَـيْكُمُوَما يَشاء الرّحْمَنُ يَعْقِدْ ويُطْلِقِ

وقد زعم أيضا بعض من ضعفت معرفته بتأويـل أهل التأويـل, وقلت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير, أن «الرحمن» مـجازه «ذو الرحمة», و«الرحيـم» مـجازه «الراحم». ثم قال: قد يقدرون اللفظين من لفظ والـمعنى واحد, وذلك لاتساع الكلام عندهم. قال: وقد فعلوا مثل ذلك, فقالوا: ندمان ونديـم. ثم استشهد بقول بُرْج بن مسهر الطائي:

ونَدْمانٍ يَزِيدُ الكأسَ طِيبَـاسَقَـيْتُ وقَدْ تَغَوّرَتِ النّـجُومُ

واستشهد بأبـيات نظائر له فـي النديـم والندمان. ففرق بـين معنى الرحمن والرحيـم فـي التأويـل, لقوله: الرحمن ذو الرحمة, والرحيـم: الراحم. وإن كان قد ترك بـيان تأويـل معنـيهما علـى صحته. ثم مثل ذلك بـاللفظين يأتـيان بـمعنى واحد, فعاد إلـى ما قد جعله بـمعنـيـين, فجعله مثال ما هو بـمعنى واحد مع اختلاف الألفـاظ. ولا شك أن ذا الرحمة هو الذي ثبت أن له الرحمة وصح أنها له صفة, وأن الراحم هو الـموصوف بأنه سيرحم, أو قد رحم فـانقضى ذلك منه, أو هو فـيه. ولا دلالة له فـيه حينئذ أن الرحمة له صفة, كالدلالة علـى أنها له صفة إذا وصفه بأنه ذو الرحمة. فأين معنى الرحمن الرحيـم علـى تأويـله من معنى الكلـمتـين يأتـيان مقدرتـين من لفظ واحد بـاختلاف الألفـاظ واتفـاق الـمعانـي؟

ولكن القول إذا كان غير أصل معتـمد علـيه كان واضح عُوَارُه.

وإن قال لنا قائل: ولـم قدم اسم الله الذي هو الله علـى اسمه الذي هو الرحمن, واسمه الذي هو الرحمن علـى اسمه الذي هو الرحيـم؟

قـيـل: لأن من شأن العرب إذا أرادوا الـخبر عن مخبر عنه أن يقدموا اسمه, ثم يُتبعوه صفـاته ونعوته. وهذا هو الواجب فـي الـحكم: أن يكون الاسم مقدما قبل نعته وصفته, لـيعلـم السامع الـخبر عمن الـخبر فإذا كان

ذلك كذلك, وكان لله جل ذكره أسماء قد حرم علـى خـلقه أن يتسموا بها خص بها نفسه دونهم, ذلك مثل «الله», و«الرحمن» و«الـخالق» وأسماء أبـاح لهم أن يسمي بعضهم بعضا بها, وذلك كالرحيـم, والسميع, والبصير, والكريـم, وما أشبه ذلك من الأسماء كان الواجب أن يقدم أسماءه التـي هي له خاصة دون جميع خـلقه, لـيعرف السامع ذلك من توجه إلـيه الـحمد والتـمـجيد ثم يتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره, بعد علـم الـمخاطب أو السامع من توجه إلـيه ما يتلو ذلك من الـمعانـي.

فبدأ الله جل ذكره بـاسمه الذي هو الله لأن الألوهية لـيست لغيره جل ثناؤه بوجه من الوجوه, لا من جهة التسمي به, ولا من جهة الـمعنى. وذلك أنا قد بـينا أن معنى الله هو الـمعبود, ولا معبود غيره جل جلاله, وأن التسمي به قد حرمه الله جل ثناؤه, وإن قصد الـمتسمي به ما يقصد الـمتسمي بسعيد وهو شقـيّ, وبحَسَن وهو قبـيح.

أوَ لا ترى أن الله جل جلاله قال فـي غير آية من كتابه: (أإله مَعَ الله) فـاستكبر ذلك من الـمقرّ به, وقال تعالـى فـي خصوصية نفسه بـالله وبـالرحمن: (قُلِ ادْعُوا اللّهَ أو ادْعُوا الرّحْمَنَ أيّا ما تَدْعُو فَلَهُ الأسْماءُ الْـحُسْنَى) ثم ثنّى بـاسمه, الذي هو الرحمن, إذْ كان قد منع أيضا خـلقه التسمي به, وإن كان من خـلقه من قد يستـحق تسميته ببعض معانـيه وذلك أنه قد يجوز وصف كثـير مـمن هو دون الله من خـلقه ببعض صفـات الرحمة, وغير جائز أن يستـحق بعض الألوهية أحد دونه فلذلك جاء الرحمَن ثانـيا لاسمه الذي هو الله».

وأما اسمه الذي هو «الرحيـم» فقد ذكرنا أنه مـما هو جائز وصف غيره به. والرحمة من صفـاته جل ذكره, فكان إذ كان الأمر علـى ما وصفنا, واقعا مواقع نعوت الأسماء اللواتـي هن توابعها بعد تقدم الأسماء علـيها. فهذا وجه تقديـم اسم الله الذي هو «الله» علـى اسمه الذي هو «الرحمن», واسمه الذي هو «الرحمن» علـى اسمه الذي هو «الرحيـم».

وقد كان الـحسن البصري يقول فـي الرحمن مثل ما قلنا, أنه من أسماء الله التـي منع التسمي بها لعبـاده.

12ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا حماد بن مسعدة, عن عوف, عن الـحسن, قال: الرحمن اسم مـمنوع.

مع أن فـي إجماع الأمة مِن منع التسمي به جميع الناس ما يغنـي عن الاستشهاد علـى صحة ما قلنا فـي ذلك بقول الـحسن وغيره.

الآية : 2

القول فـي تأويـل فـاتـحة الكتاب:

{الْحَمْدُ للّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ }

قال أبو جعفر: معنى: الـحَمْدُ لِلّهِ: الشكر خالصا لله جل ثناؤه دون سائر ما يُعْبَد من دونه, ودون كل ما برأ من خـلقه, بـما أنعم علـى عبـاده من النعم التـي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد, فـي تصحيح الآلات لطاعته, وتـمكين جوارح أجسام الـمكلفـين لأداء فرائضه, مع ما بسط لهم فـي دنـياهم من الرزق وغذاهم به من نعيـم العيش من غير استـحقاق منهم لذلك علـيه, ومع ما نبههم علـيه ودعاهم إلـيه من الأسبـاب الـمؤدية إلـى دوام الـخـلود فـي دار الـمقام فـي النعيم الـمقـيـم. فلربنا الـحمد علـى ذلك كله أولاً وآخرا.

وبـما ذكرنا من تأويـل قول ربنا جل ذكره وتقدست أسماؤه: الـحَمْدُ لِلّهِ جاء الـخبر عن ابن عبـاس وغيره:

13ـ حدثنا مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: قال جبريـل لـمـحمد: «قل يا مـحمد: الـحمد لله».

قال ابن عبـاس: الـحمد لله: هو الشكر, والاستـخذاء لله, والإقرار بنعمته وهدايته وابتدائه, وغير ذلك.

14ـ وحدثنـي سعيد بن عمرو السكونـي, قال: حدثنا بقـية بن الولـيد, قال: حدثنـي عيسى بن إبراهيـم, عن موسى بن أبـي حبـيب, عن الـحكم بن عمير وكانت له صحبة قال: قال النبـي صلى الله عليه وسلم: «إذَا قُلْتَ الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العَالَـمِينَ, فَقَدْ شَكَرْتَ اللّهَ فَزَادَكَ».

قال: وقد قـيـل إن قول القائل: الـحَمْدُ لِلّهِ ثناء علـى الله بأسمائه وصفـاته الـحسنى, وقوله: «الشكر لله» ثناء علـيه بنعمه وأياديه.

وقد رُوي عن كعب الأحبـار أنه قال: الـحمد لله ثناء علـى الله. ولـم يبـين فـي الرواية عنه من أيّ معنـيـي الثناء اللذين ذكرنا ذلك.

15ـ حدثنا يونس بن عبد الأعلـى الصدفـي, قال: أنبأنا ابن وهب, قال: حدثنـي عمر بن مـحمد, عن سهيـل بن أبـي صالـح, عن أبـيه, قال: أخبرنـي السلولـي, عن كعب قال: من قال: «الـحمد لله» فذلك ثناء علـى الله.

16ـ وحدثنـي علـيّ بن الـحسن الـخراز, قال: حدثنا مسلـم بن عبد الرحمن الـجرمي, قال: حدثنا مـحمد بن مصعب القرقسانـي, عن مبـارك بن فضالة, عن الـحسن, عن الأسود بن سريع, أن النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال: «لَـيْسَ شَيْءٌ أحَبّ إلَـيْهِ الـحَمْدُ مِنَ اللّهِ تَعالـى, ولِذَلِكَ أثْنَى علـى نَفْسِهِ فَقالَ: الـحَمْدُ لِلّهِ».

قال أبو جعفر: ولا تَـمَانُعَ بـين أهل الـمعرفة بلغات العرب من الـحكم لقول القائل: الـحَمْدُ لِلّهِ شكرا بـالصحة. فقد تبـين إذ كان ذلك عند جميعهم صحيحا, أن الـحمد لله قد يُنْطَق به فـي موضع الشكر, وأن الشكر قد يوضع موضع الـحمد, لأن ذلك لو لـم يكن كذلك لـما جاز أن يقال الـحمد لله شكرا, فـيخرج من قول القائل «الـحمد لله» مُصدّر «أشكُر», لأن الشكر لو لـم يكن بـمعنى الـحمد, كان خطأ أن يصدر من الـحمد غير معناه وغير لفظه.

فإن قال لنا قائل: وما وجه إدخال الألف واللام فـي الـحمد؟ وهلاّ قـيـل: حمدا لله ربّ العالـمين قـيـل: إن لدخول الألف واللام فـي الـحمد معنى لا يؤديه قول القائل «حمدا», بإسقاط الألف واللام وذلك أن دخولهما فـي الـحمد منبىءٌ علـى أن معناه: جميع الـمـحامد والشكر الكامل لله. ولو أسقطتا منه لـما دلّ إلا علـى أن حَمْدَ قائلِ ذلك لله, دون الـمـحامد كلها. إذْ كان معنى قول القائل: «حمدا لله» أو «حمدٌ الله»: أحمد الله حمدا, ولـيس التأويـل فـي قول القائل: الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العَالَـمِينَ تالـيا سورة أم القرآن أحمد الله, بل التأويـل فـي ذلك ما وصفنا قبل من أن جميع الـمـحامد لله بألوهيته وإنعامه علـى خـلقه, بـما أنعم به علـيهم من النعم التـي لا كفـء لها فـي الدين والدنـيا والعاجل والآجل.

ولذلك من الـمعنى, تتابعت قراءة القراءة وعلـماء الأمة علـى رفع الـحمد من: الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العَالَـمينَ دون نصبها, الذي يؤدي إلـى الدلالة علـى أن

معنى تالـيه كذلك: أحمد الله حمدا. ولو قرأ قارىء ذلك بـالنصب, لكان عندي مـحيلاً معناه ومستـحقّا العقوبة علـى قراءته إياه كذلك إذا تعمد قراءته كذلك وهو عالـم بخطئه وفساد تأويـله.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: الـحمد لله؟ أَحَمَد اللّهُ نفسَه جل ثناؤه فأثنى علـيها, ثم عَلّـمناه لنقول ذلك كما قال ووصف به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك, فما وجه قوله تعالـى ذكره إذا: إيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ وهو عز ذكره معبود لا عابد؟ أم ذلك من قـيـل جبريـل أو مـحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقد بطل أن يكون ذلك لله كلاما.

قـيـل: بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى علـيها بـما هو له أهل, ثم عَلّـم ذلك عبـاده وفرض علـيهم تلاوته, اختبـارا منه لهم وابتلاء, فقال لهم: قولوا «الـحمد لله ربّ العالـمين» وقولوا: «إياك نعبد وإياك نستعين» فقوله: إياك نعبد, مـما عَلّـمَهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بـمعناه. وذلك موصول بقوله الـحمد لله ربّ العالـمين, وكأنه قال: قولوا هذا وهذا.

فإن قال: وأين قوله: «قولوا» فـيكون تأويـل ذلك ما ادّعيت؟ قـيـل: قد دللنا فـيـما مضى أن العرب من شأنها إذا عرفت مكان الكلـمة ولـم تشك أن سامعها يعرف بـما أظهرت من منطقها ما حذفت, حَذْفُ ما كفـى منه الظاهر من منطقها, ولا سيـما إن كانت تلك الكلـمة التـي حذفت قولاً أو تأويـل قول, كما قال الشاعر:

واعْلَـمُ أنّنـي سأكُونُ رَمْساإذَا سارَ النّوَاعجُ لا يَسيرُ
فَقالَ السّائلُونَ لِـمَنْ حَفَرْتُـمْفَقالَ الـمُخْبِرُونَ لَهُمْ وَزيرُ

قال أبو جعفر: يريد بذلك: فقال الـمخبرون لهم: الـميت وزير, فأسقط «الـميت», إذ كان قد أتـى من الكلام بـما يدل علـى ذلك. وكذلك قول الآخر:

ورَأيْتِ زَوْجَكِ فـي الوَغَىمُتَقَلّدا سَيْفـا وَرُمْـحَا

وقد علـم أن الرمـح لا يتقلد, وإنـما أراد: وحاملاً رمـحا. ولكن لـما كان معلوما معناه اكتفـى بـما قد ظهر من كلامه عن إظهار ما حذف منه. وقد يقولون للـمسافر إذا ودّعوه: مُصَاحَبـا مُعافـى, يحذفون سِرْ واخْرُجْ إذْ كان معلوما معناه وإن أسقط ذكره. فكذلك ما حُذِف من قول الله تعالـى ذكره: الـحمدُ لِلّهِ ربّ العَالـمينَ لـمّا عُلِـم بقوله جل وعزّ: إياك نَعْبُد ما أراد بقوله: الـحمد لله ربّ العالـمين من معنى أمره عبـاده, أغنت دلالة ما ظهر علـيه من القول عن إبداء ما حُذف.

وقد روينا الـخبر الذي قدمنا ذكره مبتدأ فـي تفسير قول الله: الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العالَـمِينَ عن ابن عبـاس, وأنه كان يقول: إن جبريـل قال لـمـحمد: قل يا مـحمد: الـحمد لله ربّ العالـمين. وبَـيّنا أن جبريـل إنـما عَلّـمَ مـحَمّدا صلى الله عليه وسلم ما أُمِر بتعلـيـمه إياه. وهذا الـخبر ينبىء عن صحة ما قلنا فـي تأويـل ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:{رَبّ}.

قال أبو جعفر: قد مضى البـيان عن تأويـل اسم الله الذي هو «الله» فـي «بسم الله», فلا حاجة بنا إلـى تكراره فـي هذا الـموضع. وأما تأويـل قوله «رَبّ», فإن الربّ فـي كلام العرب متصرف علـى معان: فـالسيد الـمطاع فـيها يدعى ربّـا, ومن ذلك قول لبـيد بن ربـيعة:

وأهْلَكْنَ يَوْما رَبّ كِنْدَةَ وابنَهوَرَبّ مَعَدّ بـينَ خَبْتٍ وعَرْعَرِ
يعنـي بربّ كندة: سيدَ كندة. ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:
تَـخُبّ إلـى النّعْمانِ حَتّـى تَنالَهُفِدًى لَكَ منْ رَبَ طَرِيفـي وتالِدِي
والرجل الـمصلـح للشيء يدعى رَبّـا. ومنه قول الفرزدق بن غالب:
كانُوا كسَالِئَةٍ حَمْقاءَ إذْ حَقَنَتْسِلأها فـي أدِيـمٍ غَيْرِ مَرْبُوبِ
يعنـي بذلك فـي أديـم غير مصلـح. ومن ذلك قـيـل: إن فلانا يَرُبّ صنـيعته عند فلان, إذا كان يحاول إصلاحها وإدامتها. ومن ذلك قول علقمة بن عبدة:
فكنْتَ امْرَأً أفْضَتْ إلَـيْكَ رِبـابَتـيوقَبْلَكَ رَبّتْنـي فَضِعْتُ رُبُوبُ
يعنـي بقوله أفضت إلـيك: أي أوصلت إلـيك ربـابتـي, فصرت أنت الذي ترب أمري فتصلـحه لـما خرجتُ من ربـابة غيرك من الـملوك الذين كانوا قبلك علـيّ, فضيعوا أمري وتركوا تفقده. وهم الرّبوب واحدهم رَبّ والـمالك للشيء يدعى رَبّه. وقد يتصرّف أيضا معنى الرب فـي وجوه غير ذلك, غير أنها تعود إلـى بعض هذه الوجوه الثلاثة.
فربنا جل ثناؤه, السيد الذي لا شِبْه له, ولا مثل فـي سؤدده, والـمصلـح أمر خـلقه بـما أسبغ علـيهم من نعمه, والـمالك الذي له الـخـلق والأمر.
وبنـحو الذي قلنا فـي تأويـل قوله جل ثناؤه رَبّ العالَـمِينَ جاءت الرواية عن ابن عبـاس.
17ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: قال جبريـل لـمـحمد: «يا مـحمد قل الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العالَـمِينَ». قال ابن عبـاس: يقول قل الـحمد لله الذي له الـخـلق كله, السموات كلهن ومن فـيهن, والأرَضون كلهن ومن فـيهن وما بـينهن, مـما يُعلـم ومـما لا يُعلـم. يقول: اعلـم يا مـحمد أن ربك هذا لا يشبهه شيء.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {العَالَـمِينَ}.
قاله أبو جعفر: والعالَـمون جمع عالـم, والعالَـم جمع لا واحد له من لفظه, كالأنام والرهط والـجيش ونـحو ذلك من الأسماء التـي هي موضوعات علـى جماع لا واحد له من لفظه. والعالَـم اسم لأصناف الأمـم, وكل صنف منها عالَـم, وأهل كل قرن من كل صنف منها عالَـم ذلك القرن وذلك الزمان, فـالإنس عالـم وكل أهل زمان منهم عالَـم ذلك الزمان. والـجن عالَـم, وكذلك سائر أجناس الـخـلق, كل جنس منها عالـم زمانه. ولذلك جُمِع فقـيـل «عالَـمون», وواحده جمع لكون عالَـم كل زمان من ذلك عالَـم ذلك الزمان. ومن ذلك قول العجاج:
فَخِنْدِفُ هامَةُ هَذَا العالَـمِ
فجعلهم عالـم زمانه. وهذا القول الذي قلناه قولُ ابن عبـاس وسعيد بن جبـير, وهو معنى قول عامة الـمفسرين.
18ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: {الـحمد لله ربّ العالـمين} الـحمد لله الذي له الـخـلق كله, السموات والأرض ومن فـيهن وما بـينهن, مـما يُعلـم ولا يُعلـم.
19ـ وحدثنـي مـحمد بن سنان القزاز, قال: حدثنا أبو عاصم, عن شبـيب, عن عكرمة, عن ابن عبـاس: ربّ العالـمين: الـجنّ والإنس.

وحدثني علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم بن عبد الرحمن, قال: حدثنا مصعب, عن قـيس بن الربـيع, عن عطاء بن السائب, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, فـي قول الله جل وعزّ: ربّ العالـمين: قال: ربّ الـجن والإنس.

20ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق بن عيسى الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا قـيس, عن عطاء بن السائب, عن سعيد بن جبـير, قوله: {رب العالـمين} قال: الـجن والإنس.

21ـ وحدثنـي أحمد بن عبد الرحيـم البرقـي, قال: حدثنـي ابن أبـي مريـم, عن ابن لهيعة, عن عطاء بن دينار, عن سعيد بن جبـير, قوله: رَبّ العالَـمِينَ قال: ابن آدم, والـجن والإنس كل أمة منهم عالَـم علـى حِدَته.

22ـ وحدثنـي مـحمد بن حميد, قال: حدثنا مهران, عن سفـيان, عن مـجاهد: الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العالَـمِينَ قال: الإنس والـجنّ.

وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد: بـمثله.

23ـ وحدثنا بشر بن معاذ العقدي, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: رَبّ العالَـمِينَ قال: كل صنف: عالَـم.

24ـ وحدثنـي أحمد بن حازم الغفـاري, قال: حدثنا عبـيد الله بن موسى, عن أبـي جعفر, عن ربـيع بن أنس, عن أبـي العالـية, فـي قوله: {رَبّ العالَـمِينَ} قال: الإنس عالَـم, والـجن عالَـم, وما سوى ذلك ثمانـية عشر ألف عالَـم, أو أربعة عشر ألف عالـم وهو يشك من الـملائكة علـى الأرض, وللأرض أربع زوايا, فـي كل زاوية ثلاثة آلاف عالـم وخمسمائة عالـم, خـلقهم لعبـادته.

25ـ وحدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, فـي قوله: رَبّ العالَـمِينَ قال: الـجن والإنس.

الآية : 3

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{الرّحْمَـنِ الرّحِيمِ }

قال أبو جعفر: قد مضى البـيان عن تأويـل قوله «الرحمن الرحيـم», فـي تأويـل «بسم الله الرحمن الرحيـم», فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـموضع. ولـم يحتـج إلـى الإبـانة عن وجه تكرير الله ذلك فـي هذا الـموضع, إذ كنا لا نرى أن «بسم الله الرحمن الرحيـم» من فـاتـحة الكتاب آية, فـيكون علـينا لسائلٍ مسألة بأن يقول: ما وجه تكرير ذلك فـي هذا الـموضع, وقد مضى وصف الله عزّ وجلّ به نفسه فـي قوله «بسم الله الرحمن الرحيـم», مع قرب مكان إحدى الآيتـين من الآخرى ومـجاورتها لصاحبتها؟ بل ذلك لنا حجة علـى خطأ دعوى من ادعى أن بسم الله الرحمن الرحيـم من فـاتـحة الكتاب آية, إذ لو كان ذلك كذلك لكان ذلك إعادة آية بـمعنى واحد ولفظ واحد مرتـين من غير فصل يفصل بـينهما. وغير موجود فـي شيء من كتاب الله آيتان متـجاورتان مكرّرتان بلفظ واحد ومعنى واحد, لا فصل بـينهما من كلام يخالف معناه معناهما, وإنـما يأتـي بتكرير آية بكمالها فـي السورة الواحدة, مع فصول تفصل بـين ذلك, وكلام يُعترض به بغير معنى الآيات الـمكرّرات أو غير ألفـاظها, ولا فـاصل بـين قول الله

تبـارك وتعالـى اسمه «الرحمن الرحيـم» من «بسم الله الرحمن الرحيـم», وقول الله: «الرحمن الرحيـم», من «الـحمد لله رب العالـمين».
فإن قال قائل: فإن «الـحمد لله رب العالـمين» فـاصل بـين ذلك. قـيـل: قد أنكر ذلك جماعةٌ من أهل التأويـل, وقالوا: إن ذلك من الـموخّر الذي معناه التقديـم, وإنـما هو: الـحمد لله الرحمن الرحيـم رب العالـمين ملك يوم الدين. واستشهدوا علـى صحة ما ادّعوا من ذلك بقوله: «مَلِكِ يَوْم الدّين» فقالوا: إن قوله: «ملك يوم الدين» تعلـيـم من الله عبده أن يصفه بـالـمُلْك فـي قراءة من قرأ مَلِك, وبـالـمِلْك فـي قراءة من قرأ «مالك».
قالوا: فـالذي هو أولـى أن يكون مـجاور وَصْفه بـالـمُلْك أو الـمِلْك ما كان نظير ذلك من الوصف, وذلك هو قوله «رَبّ العالـمين», الذي هو خبر عن ملكه جميع أجناس الـخـلق, وأن يكون مـجاور وصفه بـالعظمة والألوهة ما كان له نظيرا فـي الـمعنى من الثناء علـيه, وذلك قوله: الرّحْمَنِ الرّحِيـمِ. فزعموا أن ذلك لهم دلـيـل علـى أن قوله «الرحمن الرحيـم» بـمعنى التقديـم قبل «رب العالـمين», وإن كان فـي الظاهر مؤخرا. وقالوا: نظائر ذلك من التقديـم الذي هو بـمعنى التأخير والـمؤخر الذي هو بـمعنى التقديـم فـي كلام العرب أفشى وفـي منطقها أكثر من أن يحصى, من ذلك قول جرير بن عطية:

طافَ الـخَيالُ وأيْنَ منْكَ لِـمَامافـارْجِعْ لزَوْرِكَ بـالسّلام سَلاما

بـمعنى طاف الـخيال لـماما وأين هو منك. وكما قال جل ثناؤه فـي كتابه: {الـحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أنْزَلَ علـى عَبْدِهِ الكتابَ وَلـمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجا قَـيّـما} الـمعنى: الـحمد لله الذي أنزل علـى عبده الكتاب قـيـما يجعل له عوجا, وما أشبه ذلك. ففـي ذلك دلـيـل شاهد علـى صحة قول من أنكر أن تكون «بسم الله الرحمن الرحيـم» من فـاتـحة الكتاب آية.

الآية : 4

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{مَـلِكِ يَوْمِ الدّينِ }
قال أبو جعفر: القراء مختلفون فـي تلاوة «ملك يوم الدين», فبعضهم يتلوه: «مَلِكِ يوم الدين», وبعضهم يتلوه: مالك يوم الدين وبعضهم يتلوه: مالِكَ يوم الدين بنصف الكاف. وقد استقصينا حكاية الرواية عمن رُوي عنه فـي ذلك قراءةٌ فـي «كتاب القراءات», وأخبرنا بـالذي نـختار من القراءة فـيه, والعلة الـموجبة صحة ما اخترنا من القراءة فـيه, فكرهنا إعادة ذلك فـي هذا الـموضع, إذ كان الذي قصدنا له فـي كتابنا هذا البـيانَ عن وجوه تأويـل آي القرآن دون وجوه قراءتها.
ولا خلاف بـين جميع أهل الـمعرفة بلغات العرب, أن الـمَلِكَ من «الـمُلْك» مشتقّ, وأن الـمالك من «الـمِلْك» مأخوذ. فتأويـل قراءة من قرأ ذلك: مَالِكِ يَوْمِ الدّين أن لله الـملك يوم الدين خالصا دون جميع خـلقه الذين كانوا قبل ذلك فـي الدنـيا ملوكا جبـابرة ينازعونه الـمُلْك ويدافعونه الانفراد بـالكبرياء والعظمة والسلطان والـجبرية. فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصّغَرة الأذلة, وأن له دونهم ودون غيرهم الـمُلْك والكبرياء والعزّة والبهاء, كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه فـي تنزيـله: يَوْمَ هُمْ بَـارِزُونَ لاَ يَخْفَـى علـى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِـمَنِ الـمُلْكُ الـيَوْمَ لِلّهِ الوَاحِدِ القَهّارِ فأخبر تعالـى أنه

الـمنفرد يومئذٍ بـالـمُلْك دون ملوك الدنـيا الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلـى ذلة وصَغَار, ومن دنـياهم فـي الـمعاد إلـى خسار.

وأما تأويـل قراءة من قرأ: مالكِ يَوْمِ الدّينِ, فما:

26ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس: مالكِ يَوْمِ الدّينِ يقول: لا يـملك أحد فـي ذلك الـيوم معه حكما كملكهم فـي الدنـيا. ثم قال: لاَ يَتَكَلّـمُونَ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرّحْمَنُ وقالَ صَوَابـا, وقال: وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ للرّحْمَنِ, وقال: وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِـمَنِ ارْتَضَى.

قال أبو جعفر: وأولـى التأويـلـين بـالآية وأصحّ القراءتـين فـي التلاوة عندي التأويـل الأول وهي قراءة من قرأ «مَلِك» بـمعنى «الـمُلْك» لأن فـي الإقرار له بـالانفراد بـالـملك إيجابـا لانفراده بـالـملك وفضيـلة زيادة الـملك علـى الـمالك, إذ كان معلوما أن لا ملِك إلا وهو مالك, وقد يكون الـمالك لا مَلِكا.

وبعد: فإن الله جل ذكره قد أخبر عبـاده فـي الآية التـي قبل قوله: مَالِكِ يَوْمِ الدينِ أنه مالك جميع العالـمين وسيدهم, ومصلـحهم والناظر لهم, والرحيـم بهم فـي الدنـيا والآخرة بقوله: {الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العَالَـمِينَ الرّحْمَنِ الرّحِيـمِ}.

فإذا كان جل ذكره قد أنبأهم عن مُلْكِهِ إياهم كذلك بقوله: {رَبّ العَالَـمينَ} فأولـى الصفـات من صفـاته جل ذكره, أن يتبع ذلك ما لـم يحوه قوله: رَبّ العَالَـمِينَ الرّحْمَنِ الرّحِيـمِ مع قرب ما بـين الآيتـين من الـمواصلة والـمجاورة, إذ كانت حكمته الـحكمة التـي لا تشبهها حكمة.

وكان فـي إعادة وصفه جل ذكره بأنه مالك يوم الدين, إعادة ما قد مضى من وصفه به فـي قوله: رَبّ العَالَـمِينَ مع تقارب الآيتـين وتـجاور الصفتـين. وكان فـي إعادة ذلك تكرار ألفـاظ مختلفة بـمعانٍ متفقة, لا تفـيد سامع ما كرّر منه فـائدة به إلـيها حاجة. والذي لـم يحوه من صفـاته جل ذكره ما قبل قوله: مالِكِ يَوْمِ الدّينِ الـمعنى الذي فـي قوله: «ملك يوم الدين», وهو وصفه بأنه الـمَلِك. فبـينٌ إذا أن أولـى القراءتـين بـالصواب وأحق التأويـلـين بـالكتاب: قراءة من قرأه: «ملك يوم الدين», بـمعنى إخلاص الـملك له يوم الدين, دون قراءة من قرأ: مالك يوم الدين بـمعنى: أنه يـملك الـحكم بـينهم وفصل القضاء متفرّدا به دون سائر خـلقه.

فإن ظنّ ظانّ أن قوله: رَبّ العَالَـمِينَ نبأ عن ملكه إياهم فـي الدنـيا دون الآخرة يوجب وصله بـالنبأ عن نفسه أنه قد ملكهم فـي الآخرة علـى نـحو مِلْكه إياهم فـي الدنـيا بقوله: مالك يوم الدين, فقد أغفل وظن خطأ وذلك أنه لو جاز لظانّ أن يظنّ أن قوله: رب العالـمين مـحصور معناه علـى الـخبر عن ربوبـية عالـم الدنـيا دون عالـم الآخرة مع عدم الدلالة علـى أن معنى ذلك كذلك فـي ظاهر التنزيـل, أو فـي خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم به منقول, أو بحجة موجودة فـي الـمعقول, لـجاز لآخر أن يظن أن ذلك مـحصور علـى عالـم الزمان الذي فـيه نزل قوله: رب العالـمين دون سائر ما يحدث بعده فـي الأزمنة الـحادثة من العالـمين, إذ كان صحيحا بـما قد قدمنا من البـيان أن عالـم كل زمان غير عالـم الزمان الذي بعده.

فإن غَبِـيَ عن علـم صحة ذلك بـما قد قدمنا ذو غبـاء, فإن فـي قول الله جل ثناؤه: {ولَقَدْ آتَـيْنَا بَنِـي إِسْرَائِيـلَ الكِتابَ وَالـحُكْمَ والنبُوّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

الطّيّبـاتِ وَفَضّلْناهُمْ علـى العَالَـمِينَ} دلالة واضحة علـى أن عالَـم كل زمان غير عالـم الزمان الذي كان قبله وعالَـم الزمان الذي بعده. إذ كان الله جل ثناؤه قد فضل أمة نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى سائر الأمـم الـخالـية, وأخبرهم بذلك فـي قوله: كُنْتُـمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ الآية. فمعلوم بذلك أن بنـي إسرائيـل فـي عصر نبـينا, لـم يكونوا مع تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم أفضل العالـمين, بل كان أفضل العالـمين فـي ذلك العصر وبعده إلـى قـيام الساعة, الـمؤمنون به الـمتبعون منهاجه, دونَ منْ سواهم من الأمـم الـمكذّبة الضالّة عن منهاجه. فإذ كان بـينا فساد تأويـل متأوّل لو تأوّل قوله: رب العالـمين أنه معنـيّ به: أن الله ربّ عالـميْ زمن نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم دون عالـمي سائر الأزمنة غيره, كان واضحا فساد قول من زعم أن تأويـله: رب عالـم الدنـيا دون عالـم الاَخرة, وأن مالك يوم الدين استـحق الوصل به لـيُعلـم أنه فـي الاَخرة من ملكهم وربوبـيتهم بـمثل الذي كان علـيه فـي الدنـيا. وَيُسْألُ زاعم ذلك الفرق بـينه وبـين متـحكّمٍ مثله فـي تأويـل قوله: رب العالـمين تَـحَكّم, فقال: إنه إنـما عنـي بذلك أنه رب عالـمي زمان مـحمد دون عالـمي غيره من الأزمان الـماضية قبله والـحادثة بعده, كالذي زعم قائلُ هذا القول إنه عنى به عالـم الدنـيا دون عالـم الاَخرة لله من أصل أو دلالة. فلن يقول فـي أحدهما شيئا إلا أُلزم فـي الاَخر مثله.

وأما الزاعم أن تأويـل قوله: مالِكِ يَوْمِ الدّينِ أنه الذي يـملك إقامة يوم الدين, فإن الذي ألزمْنا قائل هذا القول الذي قبله له لازم, إذ كانت إقامة القـيامة إنـما هي إعادة الـخـلق الذين قد بـادوا لهيئاتهم التـي كانوا علـيها قبل الهلاك فـي الدار التـي أعد الله لهم فـيها ما أعدّ. وهم العالَـمون الذين قد أخبر جل ذكره عنهم أنه ربهم فـي قوله: رَبّ العَالَـمِينَ.

وأما تأويـل ذلك فـي قراءة من قرأ: مالِكِ يَوْمِ الدّينِ فإنه أراد: يا مالك يوم الدين, فنصبه بنـيّة النداء والدعاء, كما قال جل ثناؤه: {يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هَذَا} بتأويـل: يا يوسف أعرض عن هذا. وكما قال الشاعر من بنـي أسد, وهو شعر فـيما يقال جاهلـي:

إنْ كُنْتَ أزْنَنْتَنِـي بِها كَذِبـاجَزْءُ, فَلاقَـيْتَ مِثْلَها عَجِلاَ

يريد: يا جزءُ. وكما قال الاَخر:

كَذَبْتُـمْ وبَـيْتِ اللّهِ لا تَنْكِحُونَهابَنِـي شابَ قَرْناها تَصُرّ وتَـحْلُبُ

يريد: يا بنـي شاب قرناها.

وإنـما أورطه فـي قراءة ذلك بنصب الكاف من «مالك» علـى الـمعنى الذي وصفت حيرته فـي توجيه قوله: إِيّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِينُ وجهته مع جرّ: مالِكِ يَوْمِ الدّين وخفضه, فظن أنه لا يصح معنى ذلك بعد جره: مالِكِ يَوْمِ الدّينِ فنصب: «مالكَ يَوْم الدّين» لـيكون إياكَ نعبد له خطابـا, كأنه أراد: يا مالكَ يوم الدين, إياك نعبد, وإياك نستعين. ولو كان علـم تأويـل أول السورة وأن «الـحمد لله ربّ العالـمين», أمر من الله عبده بقـيـل ذلك كما ذكرنا قبل من الـخبر عن ابن عبـاس: أن جبريـل قال للنبـيّ صلى الله عليه وسلم, عن الله: قل يا مـحمد: الـحمد لله ربّ العالـمين الرحمن الرحيـم مالك يوم الدين وقل أيضا يا مـحمد: إياك نعبد وإياك نستعين وكان عَقَل عن العرب أن من شأنها إذا حكت أو أمرت بحكاية خبر يتلو القول, أن تـخاطب ثم تـخبر عن غائب, وتـخبر عن الغائب ثم تعود إلـى الـخطاب لـما فـي

الـحكاية بـالقول من معنى الغائب والـمخاطب, كقولهم للرجل: قد قلت لأخيك: لو قمتَ لقمتُ, وقد قلت لأخيك: لو قام لقمتُ لسهل علـيه مخرج ما استصعب علـيه وجهته من جر: مالك يَوْمِ الدّينِ ومن نظير «مالك يوم الدين» مـجرورا, ثم عوده إلـى الـخطاب بـ«إيّاكَ نعبد» لـما ذكرنا قبل, البـيتُ السائر من شعر أبـي كبـير الهُذَلـي:

يا لَهْفَ نَفْسِي كانَ جِدّةُ خالِدٍوبَـياضُ وَجْهِكَ للتّرَابِ الأعْفَرِ

فرجع إلـى الـخطاب بقوله: «وبـياض وجهك», بعد ما قد قضى الـخبر عن خالد علـى معنى الـخبر عن الغائب. ومنه قول لبـيد بن ربـيعة:

بـاتَتْ تَشْتَكّي إلـيّ النّفْسُ مُـجْهِشَةًوقَدْ حَمَلْتُكِ سَبْعا بَعْد سَبْعِينا

فرجع إلـى مخاطبة نفسه, وقد تقدم الـخبر عنها علـى وجه الـخبر عن الغائب. ومنه قول الله وهو أصدق قـيـل وأثبتُ حجة: { حتّـى إذا كُنْتُـمْ فـي الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيّبَةٍ} فخاطب ثم رجع إلـى الـخبر عن الغائب, ولـم يقل: «وجرين بكم». والشواهد من الشعر وكلام العرب فـي ذلك أكثر من أن تـحصى, وفـيـما ذكرنا كفـاية لـمن وفق لفهمه. فقراءة: «مَالِكَ يَوْمِ الدّينِ» مـحظورة غير جائزة, لإجماع جميع الـحجة من القرّاء وعلـماء الأمة علـى رفض القراءة بها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {يَوْم الدّينِ}.

قال أبو جعفر: والدين فـي هذا الـموضع بتأويـل الـحساب والـمـجازاة بـالأعمال, كما قال كعب بن جُعَيْـل:

إذَا ما رَمَوْنا رَمَيْنَاهُمُوَدِنّاهُمْ مِثْلَ ما يُقْرِضُونا

وكما قال الآخر:

واعْلَـمْ وأيْقِنْ أنّ مُلْكَكَ زَائِلٌواعْلَـمْ بأنّكَ ما تَدِينُ تُدَانُ

يعنـي ما تَـجْزي تـجازى. ومن ذلك قول الله جل ثناؤه: { كَلاّ بَلْ تُكَذّبُونَ بـالدّينِ يعنـي بـالـجزاء وَإنّ عَلَـيْكُمْ لـحَافِظِينَ يحصون ما تعملون من الأعمال.} وقوله تعالـى: { فَلَوْلاَ إنْ كُنْتُـمْ غَيْرَ مَدِينِـينَ} يعنـي غير مـجزيّـين بأعمالكم ولا مـحاسبـين. وللدين معان فـي كلام العرب غير معنى الـحساب والـجزاء سنذكرها فـي أماكنها إن شاء الله.

وبـما قلنا فـي تأويـل قوله: يَوْمِ الدّينِ جاءت الآثار عن السلف من الـمفسرين, مع تصحيح الشواهد لتأويـلهم الذي تأوّلوه فـي ذلك.

27ـ حدثنا أبو كريب مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس: يَوْمِ الدّين قال: يوم حساب الـخلائق هو يوم القـيامة, يدينهم بأعمالهم, إن خيرا فخير وإن شرّا فشر, إلا من عفـا عنه, فـالأمرُ أمره. ثم قال: ألاَ لَه الـخَـلْقُ والأمْرُ.

28ـ وحدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن حماد القنّاد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر الهمدانـي, عن إسماعيـل بن عبد الرحمن السدي, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرّة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: «ملك يوم الدين»: هو يوم الـحساب.

29ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: مالكِ يَوْمِ الدّينِ قال: يَوم يدين الله العبـاد بأعمالهم.

30ـ وحدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: مالِكِ يَوْمِ الدّينِ قال: يوم يُدان الناس بـالـحساب.

الآية : 5

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ }

قال أبو جعفر: وتأويـل قوله: إيّاكَ نَعْبُدُ: لك اللهم نـخشع, ونذلّ, ونستكين, إقرارا لك يا ربنا بـالربوبـية لا لغيرك. كما:

31ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس, قال: قال جبريـل لـمـحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا مـحمد: إياك نعبد, إياك نوحد ونـخاف ونرجو يا ربّنا لا غيرك.

وذلك من قول ابن عبـاس بـمعنى ما قلنا, وإنـما اخترنا البـيان عن تأويـله بأنه بـمعنى نـخشع, ونذل, ونستكين, دون البـيان عنه بأنه بـمعنى نرجو ونـخاف, وإن كان الرجاء والـخوف لا يكونان إلا مع ذلة لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلّة, وأنها تسمي الطريقَ الـمُذَلّل الذي قد وطئته الأقدام وذللته السابلة: مُعَبّدا. ومن ذلك قول طَرَفة بن العبد:

تُبـارِي عِتَاقا ناجياتٍ وأتْبَعَتْوَظِيفـا وَظِيفـا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبّدِ

يعنـي بـالـمَوْر: الطريق, وبـالـمعبّد: الـمذلّل الـموطوء. ومن ذلك قـيـل للبعير الـمذلل بـالركوب فـي الـحوائج: مُعَبّد, ومنه سمي العبد عبدا لذلّته لـمولاه. والشواهد من أشعار العرب وكلامها علـى ذلك أكثر من أن تـحصى, وفـيـما ذكرناه كفـاية لـمن وفق لفهمه إن شاء الله تعالـى.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ.

قال أبو جعفر: ومعنى قوله: وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ وإيّاك ربنا نستعين علـى عبـادتنا إياك وطاعتنا لك وفـي أمورنا كلها لا أحد سواك, إذ كان من يكفر بك يستعين فـي أموره معبوده الذي يعبده من الأوثان دونك, ونـحن بك نستعين فـي جميع أمورنا مخـلصين لك العبـادة. كالذي:

32ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنـي بشر بنِ عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس: وإيّاكَ نَسْتَعِينُ قال: إياك: نستعين علـى طاعتك وعلـى أمورنا كلها.

فإن قال قائل: وما معنى أمر الله عبـاده بأن يسألوه الـمعونة علـى طاعته؟ أوَ جائز وقد أمرهم بطاعته أن لا يعينهم علـيها؟ أم هل يقول قائل لربه: إياك نستعين علـى طاعتك, إلا وهو علـى قوله ذلك معان, وذلك هو الطاعة, فما وجه مسألة العبد ربه ما قد أعطاه إياه؟ قـيـل: إن تأويـل ذلك علـى غير الوجه الذي ذهبت إلـيه وإنـما الداعي ربه من الـمؤمنـين أن يعينه علـى طاعته إياه, داعٍ أن يعينه فـيـما بقـي من عمره علـى ما كلفه من طاعته, دون ما قد تَقَضّى ومضى من أعماله الصالـحة فـيـما خلا من عمره. وجازت مسألة العبد ربّه ذلك لأن إعطاء الله عبده ذلك مع تـمكينه جوارحه لأداء ما كلفه من طاعته وافترض علـيه من فرائضه, فضل منه جل ثناؤه تفضّل به علـيه, ولطف منه لطف له فـيه ولـيس فـي تركه التفضل علـى بعض عبـيده بـالتوفـيق مع اشتغال عبده بـمعصيته وانصرافه عن مـحبته, ولا فـي بسطه فضله علـى بعضهم مع إجهاد العبد نفسه فـي مـحبته

ومسارعته إلـى طاعته, فساد فـي تدبـير ولا جور فـي حكم, فـيجوز أن يجهل جاهل موضع حكم الله, وأمره عبده بـمسألته عونه علـى طاعته.
وفـي أمر الله جل ثناؤه عبـاده أن يقولوا: إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ بـمعنى مسألتهم إياه الـمعونة علـى العبـادة أدل الدلـيـل علـى فساد قول القائلـين بـالتفويض من أهل القدر, الذين أحلوا أن يأمر الله أحدا من عبـيده بأمر أو يكلفه فرض عمل إلا بعد إعطائه الـمعونة علـى فعله وعلـى تركه.
ولو كان الذي قالوا من ذلك كما قالوا لبطلت الرغبة إلـى الله فـي الـمعونة علـى طاعته, إذ كان علـى قولهم مع وجود الأمر والنهي والتكلـيف حقا واجبـا علـى الله للعبد إعطاؤه الـمعونة علـيه, سأله عبده ذلك أو ترك مسألة ذلك بل ترك إعطائه ذلك عندهم منه جور. ولو كان الأمر فـي ذلك علـى ما قالوا, لكن القائل: إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ إنـما يسأل ربه أن لا يجور. وفـي إجماع أهل الإسلام جميعا علـى تصويب قول القائل: اللهم إنا نستعينك وتـخطئتهم قول القائل: اللهم لا تـجر علـينا, دلـيـل واضح علـى خطأ ما قال الذين وصفت قولهم, إذْ كان تأويـل قول القائل عندهم: اللهم إنا نستعينك, اللهم لا تترك معونتنا التـي تَرْكُهَا جور منك.
فإن قال قائل: وكيف قـيـل: إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ فقدم الـخبر عن العبـادة, وأخرت مسألة الـمعونة علـيها بعدها؟ وإنـما تكون العبـادة بـالـمعونة, فمسألة الـمعونة كانت أحق بـالتقديـم قبل الـمعان علـيه من العمل والعبـادة بها. قـيـل: لـما كان معلوما أن العبـادة لا سبـيـل للعبد إلـيها إلا بـمعونة من الله جل ثناؤه, وكان مـحالاً أن يكون العبد عابدا إلا وهو علـى العبـادة معانٌ, وأن يكون معانا علـيها إلا وهو لها فـاعل كان سواء تقديـم ما قدم منهما علـى صاحبه, كما سواء قولك للرجل إذا قضى حاجتك فأحسن إلـيك فـي قضائها: قضيت حاجتـي فأحسنت إلـيّ, فقدمت ذكر قضائه حاجتك. أو قلت: أحسنت إلـيّ فقضيت حاجتـي, فقدمت ذكر الإحسان علـى ذكر قضاء الـحاجة لأنه لا يكون قاضيا حاجتك إلا وهو إلـيك مـحسن, ولا مـحسنا إلـيك إلا وهو لـحاجتك قاض. فكذلك سواء قول القائل: اللهم إنا إياك نعبد فأعنّا علـى عبـادتك, وقوله: اللهم أعنا علـى عبـادتك فإنا إياك نعبد.
قال أبو جعفر: وقد ظن بعض أهل الغفلة أن ذلك من الـمقدّم الذي معناه التأخير, كما قال امرؤ القـيس:
ولَوْ أنّ ما أسْعَى لأدنَى مَعِيشَةٍكَفـانِـي ولَـمْ أَطْلُبْ قَلِـيـلٌ مِنَ الـمَالِ
يريد بذلك: كفـانـي قلـيـل من الـمال ولـم أطلب كثـيرا. وذلك من معنى التقديـم والتأخير, ومن مشابهة بـيت امرىء القـيس بـمعزل من أجل أنه قد يكفـيه القلـيـل من الـمال ويطلب الكثـير, فلـيس وجود ما يكفـيه منه بـموجب له ترك طلب الكثـير. فـيكون نظير العبـادة التـي بوجودها وجود الـمعونة علـيها, وبوجود الـمعونة علـيها وجودها, ويكون ذكر أحدهما دالاًّ علـى الاَخر, فـيعتدل فـي صحة الكلام تقديـم ما قدم منهما قبل صاحبه أن يكون موضوعا فـي درجته ومرتبـا فـي مرتبته. فإن قال: فما وجه تكراره: إيّاكَ مع قوله: نَسْتَعِينُ وقد تقدم ذلك قبل نعبد؟ وهلا قـيـل: إياك نعبد ونستعين, إذْ كان الـمخبر عنه أنه الـمعبود هو الـمخبر عنه أنه الـمستعان؟ قـيـل له: إن الكاف التـي مع «إيّا», هي الكاف التـي كانت تتصل بـالفعل, أعنـي بقوله: نَعْبُدُ لو كانت مؤخرة بعد الفعل. وهي كناية اسم الـمخاطب

الـمنصوب بـالفعل, فكُثّرتْ ب«إيّا» متقدمة, إذ كانت الأسماء إذا انفردت بأنفسها لا تكون فـي كلام العرب علـى حرف واحد, فلـما كانت الكاف من «إياك» هي كناية اسم الـمخاطب التـي كانت تكون كافـا وحدها متصلة بـالفعل إذا كانت بعد الفعل, ثم كان حظها أن تعاد مع كل فعل اتصلت به, فـيقال: اللهم إنا نعبدك ونستعينك ونـحمدك ونشكرك وكان ذلك أفصح فـي كلام العرب من أن يقال: اللهم إنا نعبدك ونستعين ونـحمد كان كذلك إذا قدمت كناية اسم الـمخاطب قبل الفعل موصولة ب«إيّا», كان الأفصح إعادتها مع كل فعل. كما كان الفصيح من الكلام إعادتها مع كل فعل, إذا كانت بعد الفعل متصلة به, وإن كان ترك إعادتها جائزا. وقد ظن بعض من لـم يـمعن النظر أن إعادة «إياك» مع «نستعين» بعد تقدمها فـي قوله: إياكَ نَعْبُدُ بـمعنى قول عديّ بن زيد العبـادي:

وجاعلُ الشّمْس مِصْرا لا خَفَـاءَ بِهِبـينَ النّهارِ وبـينَ اللّـيْـل قَدْ فَصَلاَ

وكقول أعشى همدان:

بـينَ الأشَجّ وبـينَ قَـيْسٍ بـاذِخٌبَخْ بَخْ لَوَالدِه وللـمَوْلُودِ

وذلك جهل من قائله من أجل أن حظ «إياك» أن تكون مكرّرة مع كل فعل لـما وصفنا آنفـا من العلة, ولـيس ذلك حكم «بـين» لأنها لا تكون إذا اقتضت اثنـين إلاّ تكريرا إذا أعيدت, إذ كانت لا تنفرد بـالواحد. وأنها لو أفردت بأحد الاسمين فـي حال اقتضائها اثنـين كان الكلام كالـمستـحيـل وذلك أن قائلاً لو قال: الشمس قد فصلت بـين النهار, لكان من الكلام خـلْفـا لنقصان الكلام عما به الـحاجة إلـيه من تـمامه الذي يقتضيه «بـين». ولو قال قائل: «اللهم إياك نعبد» لكان ذلك كلاما تاما. فكان معلوما بذلك أن حاجة كل كلـمة كانت نظيرة «إياك نعبد» إلـى «إياك» كحاجة «نعبد» إلـيها, وأن الصواب أن تكرّر معها «إياك», إذ كانت كل كلـمة منها جملة خبر مبتدأ, وبـينا حكم مخالفة ذلك حكم «بـين» فـيـما وفق بـينهما الذي وصفنا قوله.

الآية : 6

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{اهْدِنَا الصّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }

قال أبو جعفر: ومعنى قوله: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـم فـي هذا الـموضع عندنا: وَفّقنا للثبـات علـيه, كما رُوي ذلك عن ابن عبـاس.

33ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس قال: قال جبريـل لـمـحمد: «قل يا مـحمد اهدنا الصراط الـمستقـيـم», يقول: ألهمنا الطريق الهادي.

وإلهامه إياه ذلك هو توفـيقه له كالذي قلنا فـي تأويـله. ومعناه نظير معنى قوله: إيّاكَ نَسْتَعِينُ فـي أنه مسألة العبد ربه التوفـيق للثبـات علـى العمل بطاعته, وإصابة الـحقّ والصواب فـيـما أمره به, ونهاه عنه فـيـما يستقبل من عمره دون ما قد مضى من أعماله, وتقضى فـيـما سلف من عمره, كما فـي قوله: إيّاكَ نَسْتَعِينُ مسألة منه ربه الـمعونة علـى أداء ما قد كلفه من طاعته فـيـما بقـي من عمره. فكان معنى الكلام: اللهم إياك نعبد وحدك لا شريك لك, مخـلصين لك العبـادة دون ما سواك من الآلهة والأوثان, فأعنا علـى عبـادتك, ووفقنا لـما وفقت له من أنعمت علـيه من أنبـيائك وأهل طاعتك من السبـيـل والـمنهاج.

فإن قال قائل: وأنّـي وجدت الهداية فـي كلام افلعرب بـمعنى التوفـيق؟
قـيـل له: ذلك فـي كلامها أكثر وأظهر من أن يحصى عدد ما جاء عنهم فـي ذلك من الشواهد, فمن ذلك قول الشاعر:

لا تَـحْرِمَنّـي هَدَاكَ اللّهُ مَسْءَالتـيولا أكُونَنْ كمَنْ أوْدَى بِهِ السّفَرُ

يعنـي به: وفقك الله لقضاء حاجتـي. ومنه قول الآخر:

وَلا تُعْجِلَنّـي هَدَاكَ الـمَلِـيكُفإنّ لِكُلّ مَقامٍ مَقالاَ

فمعلوم أنه إنـما أراد: وفقك الله لإصابة الـحقّ فـي أمري. ومنه قول الله جل ثناؤه: واللّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظّالِـمِينَ فـي غير آيَةٍ من تنزيـله. وقد علـم بذلك أنه لـم يعن أنه لا يبـين للظالـمين الواجب علـيهم من فرائضه. وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه, وقد عمّ بـالبـيان جميع الـمكلفـين من خـلقه؟ ولكنه عنى جلّ وعز, أنه لا يوفقهم, ولا يشرح للـحق والإيـمان صدورهم.

وقد زعم بعضهم أن تأويـل قوله: اهْدِنا زدنا هداية. ولـيس يخـلو هذا القول من أحد أمرين: إما أن يكون قائله قد ظنّ أن النبـي صلى الله عليه وسلم أمر بـمسألة ربه الزيادة فـي البـيان, أو الزيادة فـي الـمعونة والتوفـيق. فإن كان ظن أنه أمر بـمسألة الزيادة فـي البـيان فذلك ما لا وجه له لأن الله جل ثناؤه لا يكلف عبدا فرضا من فرائضه إلا بعد تبـيـينه له وإقامة الـحجة علـيه به. ولو كان معنى ذلك معنى مسألته البـيان, لكان قد أمر أن يدعو ربه أن يبـين له ما فرض علـيه, وذلك من الدعاء خـلْف لأنه لا يفرض فرضا إلا مبـينا لـمن فرضه علـيه, أو يكون أمر أن يدعو ربه أن يفرض علـيه الفرائض التـي لـم يفرضها. وفـي فساد وجه مسألة العبد ربه ذلك ما يوضح عن أن معنى: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ غير معنى بـين لنا فرائضك وحدودك, أو يكون ظن أنه أمر بـمسألة ربه الزيادة فـي الـمعونة والتوفـيق. فإن كان ذلك كذلك, فلن تـخـلو مسألته تلك الزيادة من أن تكون مسألة للزيادة فـي الـمعونة علـى ما قد مضى من عمله, أو علـى ما يحدث. وفـي ارتفـاع حاجة العبد إلـى الـمعونة علـى ما قد تَقَضّى من عمله ما يعلـم أن معنى مسألة تلك الزيادة إنـما هو مسألته الزيادة لـما يحدث من عمله. وإذا كان ذلك كذلك صار الأمر إلـى ما وصفنا وقلنا فـي ذلك من أنه مسألة العبد ربه التوفـيق لأداء ما كلف من فرائضه فـيـما يستقبل من عمره. وفـي صحة ذلك فساد قول أهل القدر الزاعمين أن كل مأمور بأمر أو مكلف فرضا, فقد أعطي من الـمعونة علـيه ما قد ارتفعت معه فـي ذلك الفرض حاجته إلـى ربه لأنه لو كان الأمر علـى ما قالوا فـي ذلك لبطل معنى قول الله جل ثناؤه: إِيّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ وفـي صحة معنى ذلك علـى ما بـينا فسادُ قولهم.

وقد زعم بعضهم أن معنى قوله: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ: أَسْلِكْنا طريق الـجنة فـي الـمعاد, أي قدمنا له وامض بنا إلـيه, كما قال جل ثناؤه: فـاهْدُوهُمْ إلـى صِرَاطِ الـجَحِيـم أي أدخـلوهم النار كما تُهدى الـمرأة إلـى زوجها, يعنـي بذلك أنها تدخـل إلـيه, وكما تُهدى الهدية إلـى الرجل, وكما تَهْدِي الساقَ القدمُ نظير قول طرفة بن العبد:

لَعِبَتْ بَعْدِي السّيُولُ بِهوجَرَى فـي رَوْنَقٍ رِهَمُهْ
للفَتـى عَقْلٌ يَعِي بِهِحَيْثُ تَهْدِي ساقَهُ قَدَمَهُ

أي ترد به الـموارد. وفـي قول الله جل ثناؤه: إيّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِينُ ما ينبىء عن خطأ هذا التأويـل مع شهادة الـحجة من الـمفسرين علـى

تـخطئته وذلك أن جميع الـمفسرين من الصحابة والتابعين مـجمعون علـى أن معنى «الصراط» فـي هذا الـموضع غير الـمعنى الذي تأوله قائل هذا القول, وأن قوله: إِيّاكَ نَسْتَعِينُ مسألة العبد ربه الـمعونة علـى عبـادته, فكذلك قوله «اهدنا», إنـما هو مسألة الثبـات علـى الهدى فـيـما بقـي من عمره. والعرب تقول: هديت فلانا الطريق, وهديته للطريق, وهديته إلـى الطريق: إذا أرشدته إلـيه وسددته له. وبكل ذلك جاء القرآن, قال الله جل ثناؤه: وقالُوا الـحَمْدُ لِلّهِ الّذِي هَدَانَا لَهَذَا وقال فـي موضع آخر: اجْتَبَـاهُ وَهَدَاهُ إلـى صِرَاطٍ مسْتَقِـيـمٍ وقال: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ وكل ذلك فـاش فـي منطقها موجود فـي كلامها, من ذلك قول الشاعر:

أسْتَغْفِرُ اللّهَ ذَنْبـا لَسْتُ مُـحْصِيَهُرَبّ العِبـادِ إلَـيْهِ الوَجْهُ والعَمَلُ

يريد: أستغفر الله لذنب, كما قال جل ثناؤه: وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:

فَـيَصِيدُنا العَيَر الـمُدِلّ بِحُضْرِهِقَبْلَ الوَنى والأشْعَب النّبّـاحا

يريد: فـيصيد لنا. وذلك كثـير فـي أشعارهم وكلامهم, وفـيـما ذكرنا منه كفـاية.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ.

قال أبو جعفر: أجمعت الأمة من أهل التأويـل جميعا علـى أن الصراط الـمستقـيـم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فـيه. وكذلك ذلك فـي لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الـخطفـي:

أمِيرُ الـمُؤْمِنِـينَ علـى صِرَاطٍإذا اعْوَجّ الـمَوَارِدُ مُسْتَقِـيـمِ

يريد علـى طريق الـحقّ. ومنه قول الهذلـي أبـي ذؤيب:

صَبَحْنا أرضَهُمْ بـالـخَيْـلِ حتّـىتَرَكْناها أدَقّ مِنَ الصّرَاطِ

ومنه قول الراجز:

فَصُدّ عَنْ نَهْجِ الصّرَاطِ القَاصِدِ

والشواهد علـى ذلك أكثر من أن تـحصى, وفـيـما ذكرنا غنى عما تركنا. ثم تستعير العرب الصراط فتستعلـمه فـي كل قول وعمل وصف بـاستقامة أو اعوجاج, فتصف الـمستقـيـم بـاستقامته, والـمعوجّ بـاعوجاجه.

والذي هو أولـى بتأويـل هذه الآية عندي, أعنـي: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ أن يكونا معنـيا به: وَفّقنا للثبـات علـى ما ارتضيته ووفقتَ له من أنعمتَ علـيه من عبـادك, من قول وعمل. وذلك هو الصراط الـمستقـيـم, لأن من وفق لـما وفق له من أنعم الله علـيه من النبـيـين والصديقـين والشهداء, فقد وفق للإسلام, وتصديق الرسل, والتـمسك بـالكتاب, والعمل بـما أمر الله به, والانزجار عما زجره عنه, واتبـاع منهج النبـي صلى الله عليه وسلم, ومنهاج أبـي بكر وعمر وعثمان وعلـيّ, وكل عبد لله صالـح. وكل ذلك من الصراط الـمستقـيـم.

وقد اختلفت تراجمة القرآن فـي الـمعنى بـالصراط الـمستقـيـم, يشمل معانـي جميعهم فـي ذلك ما اخترنا من التأويـل فـيه.

ومـما قالته فـي ذلك, ما رُوي عن علـيّ بن أبـي طالب رضي الله عنه, عن النبـي صلى الله عليه وسلم أنه قال وذَكَرَ القُرآنَ فَقَال: «هُوَ الصّرَاطُ الْـمُسْتَقِـيـمُ».

34ـ حدثنا بذلك موسى بن عبد الرحمن الـمسروقـي قال: حدثنا حسين الـجعفـي, عن حمزة الزيات, عن أبـي الـمختار الطائي, عن ابن أخي الـحارث, عن الـحارث, عن علـيّ, عن النبـي صلى الله عليه وسلم.

وحدثنا عن إسماعيـل بن أبـي كريـمة, قال: حدثنا مـحمد بن سلـمة, عن أبـي سنان, عن عمرو بن مرة, عن أبـي البختري, عن الـحارث, عن علـيّ, عن النبـي صلى الله عليه وسلم مثله.

وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا حمزة الزيات, عن أبـي الـمختار الطائي, عن ابن أخي الـحارث الأعور, عن الـحارث, عن علـيّ, قال: «الصّرَاطُ الـمُسْتَقِـيـمُ كِتابُ اللّهِ تَعالـى».

35ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان ح. وحدثنا مـحمد بن حميد الرازي, قال: حدثنا مهران, عن سفـيان, عن منصور عن أبـي وائل, قال: قال عبد الله: «الصراط الـمستقـيـم كتاب الله».

36ـ حدثنـي مـحمود بن خداش الطالقانـي, قال: حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي, قال: حدثنا علـيّ والـحسن ابنا صالـح جميعا, عن عبد الله بن مـحمد بن عقـيـل, عن جابر بن عبد الله. اهدنا الصراط الـمستقـيـم قال: الإسلام, قال: هو أوسع مـما بـين السماء والأرض.

37ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمار, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن عبد الله بن عبـاس, قال: قال جبريـل لـمـحمد: قل يا مـحمد: اهدنا الصراط الـمستقـيـم, يقول ألهمنا الطريق الهادي وهو دين الله الذي لا عوج له.

38ـ وحدثنا موسى بن سهل الرازي, قال: حدثنا يحيى بن عوف, عن الفرات بن السائب, عن ميـمون بن مهران, عن ابن عبـاس فـي قوله: اهْدِنا الصرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ قال: ذلك الإسلام.

39ـ وحدثنـي مـحمود بن خداش, قال: حدثنا مـحمد بن ربـيعة الكلابـي, عن إسماعيـل الأزرق, عن أبـي عمر البزار, عن ابن الـحنفـية فـي قوله: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ قال: هو دين الله الذي لا يقبل من العبـاد غيره.

40ـ وحدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن طلـحة القناد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن أناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ قال: هو الإسلام.

41ـ وحدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج قال: قال ابن عبـاس فـي قوله: اهْدِنا الصرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ قال: الطريق.

42ـ حدثنا عبد الله بن كثـير أبو صديف الآمَلـي, قال: حدثنا هاشم بن القاسم, قال: حدثنا حمزة بن أبـي الـمغيرة, عن عاصم, عن أبـي العالـية فـي قوله: اهْدِنَا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ قال: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبـاه من بعده: أبو بكر وعمر. قال: فذكرت ذلك للـحسن, فقال: صدق أبو العالـية ونصح.

43ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلـم: اهْدِنا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ قال: الإسلام.

44ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, أن عبد الرحمن بن جبـير, حدثه عن أبـيه, عن نواس بن سمعان الأنصاري, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً صرَاطا مُسْتَقِـيـما». وَالصّرَاطُ: الإسْلامُ.

حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا اللـيث عن معاوية بن صالـح, عن عبد الرحمن بن جبـير بن نفـير, عن أبـيه عن نواس بن سمعان الأنصاري, عن النبـي صلى الله عليه وسلم بـمثله.

قال أبو جعفر: وإنـما وصفه الله بـالاستقامة, لأنه صواب لا خطأ فـيه. وقد زعم بعض أهل الغبـاء أنه سماه مستقـيـما لاستقامته بأهله إلـى الـجنة, وذلك تأويـلٌ لتأويـل جميع أهل التفسير خلاف, وكفـى بإجماع جميعهم علـى خلافه دلـيلاً علـى خطئه.

الآية : 7

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضّآلّينَ }

وقوله: صِرَاطَ الذينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ إبـانة عن الصراط الـمستقـيـم أيّ الصراط هو, إذ كان كل طريق من طرق الـحقّ صراطا مستقـيـما, فقـيـل لـمـحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا مـحمد: اهدنا يا ربنا الصراط الـمستقـيـم, صراط الذين أنعمت علـيهم, بطاعتك وعبـادتك من ملائكتك, وأنبـيائك, والصديقـين, والشهداء, والصالـحين. وذلك نظير ما قال ربنا جل ثناؤه فـي تنزيـله: وَلَوْ أنّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكان خَيْرا لَهُمْ وأشَدّ تَثْبِـيتا وإذا لاَتَـيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنّا أجْرا عَظِـيـما ولَهَدَيْناهُمْ صِرَاطا مُسْتَقِـيـما وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرّسُولَ فَـاولَئِكَ مَعَ الّذِينَ أنْعَمَ اللّهُ عَلَـيْهِمْ مِنَ النّبِـيّـينَ وَالصّدّيقِـينَ والشهَدَاءِ وَالصالِـحِينَ.

قال أبو جعفر: فـالذي أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يسألوه ربهم من الهداية للطريق الـمستقـيـم, هي الهداية للطريق الذي وصف الله جل ثناؤه صفته. وذلك الطريق هو طريق الذي وصفهم الله بـما وصفهم به فـي تنزيـله, ووعد من سَلَكه فـاستقام فـيه طائعا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم, أن يورده مواردهم, والله لا يخـلف الـميعاد. وبنـحو ما قلنا فـي ذلك رُوي الـخبر عن ابن عبـاس وغيره.

45ـ حدثنا مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمار, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمَتَ عَلَـيْهِمْ يقول: طريق من أنعمت علـيـم بطاعتك وعبـادتك من الـملائكة والنبـيـين والصديقـين والشهداء والصالـحين, الذين أطاعوك وعبدوك.

46ـ وحدثنـي أحمد بن حازم الغفـاري, قال: أخبرنا عبـيد الله بن موسى, عن أبـي جعفر عن ربـيع: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ قال: النبـيون.

47ـ وحدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ قال: الـمؤمنـين.

48ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: قال وكيع أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ: الـمسلـمين.

49ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد فـي قول الله: صِرَاطَ الذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ قال: النبـي صلى الله عليه وسلم ومن معه.

قال أبو جعفر: وفـي هذه الآية دلـيـل واضح علـى أن طاعة الله جل ثناؤه لا ينالها الـمطيعون إلا بإنعام الله بها علـيهم وتوفـيقه إياهم لها. أوَ لا يسمعونه يقول: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبـادة إلـى أنه إنعام منه علـيهم؟

فإن قال قائل: وأين تـمام هذا الـخبر, وقد علـمت أن قول القائل لآخر: أنعمت علـيك, مقتض الـخبر عما أنعم به علـيه, فأين ذلك الـخبر فـي قوله: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ وما تلك النعمة التـي أنعمها علـيهم؟ قـيـل له: قد قدمنا البـيان فـيـما مضى من كتابنا هذا عن اجتزاء العرب فـي منطقها ببعض من بعض إذا كان البعض الظاهر دالاّ علـى البعض البـاطن وكافـيا منه, فقوله: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ من ذلك لأن أمر الله جل ثناؤه عبـاده بـمسألته الـمعونة وطلبهم منه الهداية للصراط الـمستقـيـم لـما كان متقدما قوله: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ الذي هو إبـانة عن الصراط الـمستقـيـم, وإبدالٌ منه, كان معلوما أن النعمة التـي أنعم الله بها علـى من أمرنا بـمسألته الهداية لطريقهم هو الـمنهاج القويـم والصراط الـمستقـيـم الذي قد قدمنا البـيان عن تأويـله آنفـا, فكان ظاهر ما ظهر من ذلك مع قرب تـجاور الكلـمتـين مغنـيا عن تكراره كما قال نابغة بنـي ذبـيان:

كأنكَ منْ جِمالِ بَنـي أُقَـيْشٍيُقَعْقَعُ خَـلْفَ رِجْلَـيْهِ بِشَنّكشع

يريد كأنك من جمال بنـي أقـي 5جمل يقعقع خـلف رجلـيه بشنّ, فـاكتفـى بـما ظهر من ذكر الـجمال الدال علـى الـمـحذوف من إظهار ما حذف. وكما قال الفرزدق بن غالب:

تَرَى أرْبـاقَهُمْ مُتَقَلّدِيهاإذَا صَدِىءَ الـحَديدُ علـى الكُماةِ

يريد: متقلديها هم, فحذف «هم» إذ كان الظاهر من قوله: «أربـاقهم» دالاّ علـيها.

والشواهد علـى ذلك من شعر العرب وكلامها أكثر من أن تـحصى, فكذلك ذلك فـي قوله: صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: غَيْرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ.

قال أبو جعفر: والقراء مـجمعة علـى قراءة «غير» بجرّ الراء منها. والـخفض يأتـيها من وجهين: أحدهما أن يكون غير صفة للذين ونعتا لهم فتـخفضها, إذ كان «الذين» خفضا وهي لهم نعت وصفة وإنـما جاز أن يكون «غير» نعتا ل«الذين», و«الذين» معرفة وغير نكرة لأن «الذين» بصلتها لـيست بـالـمعرفة الـمؤقتة كالأسماء التـي هي أمارات بـين الناس, مثل: زيد وعمرو, وما أشبه ذلك وإنـما هي كالنكرات الـمـجهولات, مثل: الرجل والبعير, وما أشبه ذلك فما كان «الذين» كذلك صفتها, وكانت غير مضافة إلـى مـجهول من الأسماء نظير «الذين» فـي أنه معرفة غير مؤقتة كما «الذين» معرفة غير مؤقتة, جاز من أجل ذلك أن يكون: غير الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ نعتا ل الذين أنعمت علـيهم كما يقال: لا أجلس إلا إلـى العالـم غير الـجاهل, يراد: لا أجلس إلا إلـى من يعلـم, لا إلـى من يجهل. ولو كان الذين أنعمت علـيهم معرفة مؤقتة كان غير جائز أن يكون غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ لها نعتا, وذلك أنه خطأ فـي كلام العرب إذا وصفت معرفة مؤقتة بنكرة أن

تلزم نعتها النكرة إعراب الـمعرفة الـمنعوت بها, إلا علـى نـية تكرير ما أعرب الـمنعت بها. خطأ فـي كلامهم أن يقال: مررت بعبد الله غير العالـم, فتـخفض «غير» إلا علـى نـية تكرير البـاء التـي أعربت عبد الله, فكان معنى ذلك لو قـيـل كذلك: مررت بعبد الله, مررت بغير العالـم. فهذا أحد وجهي الـخفض فـي: غيرَ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ.

والوجه الآخر من وجهي الـخفض فـيها أن يكون «الذين» بـمعنى الـمعرفة الـمؤقتة. وإذا وجه إلـى ذلك, كانت غير مخفوضة بنـية تكرير الصراط الذي خفض الذين علـيها, فكأنك قلت: صراط الذين أنعمت علـيهم صراط غير الـمغضوب علـيهم.

وهذان التأويلان فـي غير الـمغضوب علـيهم, وإن اختلفـا بـاختلاف معربـيهما, فإنهما يتقارب معناهما من أجل أن من أنعم الله علـيه فهداه لدينه الـحق فقد سلـم من غضب ربه ونـجا من الضلال فـي دينه, فسواءٌ إذ كان سامع قوله: اهْدِنَا الصّرَاطَ الـمُسْتَقِـيـمَ صِرَاطَ الّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَـيْهِمْ غير جائز أن يرتاب مع سماعه ذلك من تالـيه فـي أن الذين أنعم الله علـيهم بـالهداية للصراط, غير غاضب ربهم علـيهم مع النعمة التـي قد عظمت منته بها علـيهم فـي دينهم, ولا أن يكونوا ضلالاً وقد هداهم للـحق ربهم, إذْ كان مستـحيلاً فـي فطرهم اجتـماع الرضا من الله جل ثناؤه عن شخص والغضب علـيه فـي حال واحدة واجتـماع الهدى والضلال له فـي وقت واحد أوُصِف القوم مع وصف الله إياهم بـما وصفهم به من توفـيقه إياهم وهدايته لهم وإنعامه علـيهم بـما أنعم الله به علـيهم فـي دينهم بأنهم غير مغضوب علـيهم ولا هم ضالون, أم لـم يوصفوا بذلك لأن الصفة الظاهرة التـي وصفوا بها قد أنبأت عنهم أنهم كذلك وإن لـم يصرّح وصفهم به. هذا إذا وجهنا «غير» إلـى أنها مخفوضة علـى نـية تكرير الصراط الـخافض الذين, ولـم نـجعل غير الـمغضوب علـيهم ولا الضالـين من صفة الذين أنعمت علـيهم بل إذا جعلناهم غيرهم وإن كان الفريقان لا شك مُنْعَما علـيهما فـي أديانهم. فأما إذا وجهنا: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ وَلاَ الضّالّـينَ إلـى أنها من نعت الذين أنعمت علـيهم فلا حاجة بسامعه إلا الاستدلال, إذْ كان الصريح من معناه قد أغنى عن الدلـيـل, وقد يجوز نصب «غير» فـي غير الـمغضوب علـيهم وإن كنت للقراءة بها كارها لشذوذها عن قراءة القراء. وإن ما شذّ من القراءات عما جاءت به الأمة نقلاً ظاهرا مستفـيضا, فرأي للـحق مخالف وعن سبـيـل الله وسبـيـل رسوله صلى الله عليه وسلم وسبـيـل الـمسلـمين متـجانف, وإن كان له لو كانت القراءة جائزة به فـي الصواب مخرج.

وتأويـل وجه صوابه إذا نصبتَ: أن يوجه إلـى أن يكون صفة للهاء والـميـم اللتـين فـي «علـيهم» العائدة علـى «الذين», لأنها وإن كانت مخفوضة ب«علـى», فهي فـي مـحل نصب بقوله: «أنعمت». فكأن تأويـل الكلام إذا نصبت «غير» التـي مع «الـمغضوب علـيهم»: صراط الذين هديتهم إنعاما منك علـيهم غير مغضوب علـيهم, أي لا مغضوبـا علـيهم ولا ضالـين. فـيكون النصب فـي ذلك حينئذٍ كالنصب فـي «غير» فـي قولك: مررت بعبد الله غير الكريـم ولا الرشيد, فتقطع غير الكريـم من عبد الله, إذ كان عبد الله معرفة مؤقتة وغير الكريـم نكرة مـجهولة.

وقد كان بعض نـحويـي البصريـين يزعم أن قراءة من نصب «غير» فـي غير الـمغضوب علـيهم علـى وجه استثناء غير الـمغضوب علـيهم من معانـي صفة الذين أنعمت علـيهم, كأنه كان يرى أن معنى الذين قرءوا ذلك نصبـا: اهدنا الصراط الـمستقـيـم صراط الذين أنعمت علـيهم إلا الـمغضوب علـيهم الذين لـم تنعم علـيهم فـي أديانهم ولـم تهدهم للـحق, فلا تـجعلنا منهم كما قال نابغة بنـي ذبـيان:

وَقَـفْتُ فـيها أُصَيْلالاً أُسائلُهاأعْيَتْ جَوَابـا وَما بـالرّبْعِ منْ أحَدِ

إلاّ أوَارِيّ ءَلايا مَا أُبَـيّنُهاوالنّءْويُ كالـحَوْضِ بـالـمَظْلُومَةِ الـجَلَدِ

وألاواري معلوم أنها لـيست من عداد أحد فـي شيء. فكذلك عنده استثنى غير الـمغضوب علـيهم من الذين أنعمت علـيهم, وإن لـم يكونوا من معانـيهم فـي الدين فـي شيء.

وأما نـحويو الكوفـيـين فأنكروا هذا التأويـل واستـخطئوه, وزعموا أن ذلك لو كان كما قاله الزاعم من أهل البصرة لكان خطأ أن يقال: ولا الضالـين لأن «لا» نفـي وجحد, ولا يعطف بجحد إلا علـى جحد وقالوا: لـم نـجد فـي شيء من كلام العرب استثناء يعطف علـيه بجحد, وإنـما وجدناهم يعطفون علـى الاستثناء بـالاستثناء, وبـالـجحد علـى الـجحد فـيقولون فـي الاستثناء: قام القوم إلا أخاك وإلا أبـاك وفـي الـجحد: ما قام أخوك, ولا أبوك وأما قام القوم إلا أبـاك ولا أخاك, فلـم نـجده فـي كلام العرب قالوا: فلـما كان ذلك معدوما فـي كلام العرب وكان القرآن بأفصح لسان العرب نزوله, علـمنا إذ كان قوله: ولا الضالـين معطوفـا علـى قوله: غير الـمغضوب علـيهم أن «غير» بـمعنى الـجحد لا بـمعنى الاستثناء, وأن تأويـل من وجهها إلـى الاستثناء خطأ. فهذه أوجه تأويـل غير الـمغضوب علـيهم. بـاختلاف أوجه إعراب ذلك.

وإنـما اعترضنا بـما اعترضْنا فـي ذلك من بـيان وجوه إعرابه, وإن كان قصدنا فـي هذا الكتاب الكشف عن تأويـل آي القرآن, لـما فـي اختلاف وجوه إعراب ذلك من اختلاف وجوه تأويـله, فـاضطرّتنا الـحاجة إلـى كشف وجوه إعرابه, لتنكشف لطالب تأويـله وجوه تأويـله علـى قدر اختلاف الـمختلفة فـي تأويـله وقراءته.

والصواب من القول فـي تأويـله وقراءته عندنا القول الأول, وهو قراءة: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ بخفض الراء من «غير» بتأويـل أنها صفة للذين أنعمت علـيهم ونعت لهم لـما قد قدمنا من البـيان إن شئت, وإن شئت فبتأويـل تكرار «صراط» كل ذلك صواب حسن.

فإن قال لنا قائل: فمن هؤلاء الـمغضوب علـيهم الذين أمرنا الله جل ثناؤه بـمسألته أن لا يجعلنا منهم؟ قـيـل: هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه فـي تنزيـله فقال: قُلْ هَلْ أُنَبّئُكُمْ بِشَرّ مِنْ ذلكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ وغَضِبَ عَلَـيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ القِرَدَةَ والـخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرّ مَكانا وأضَلّ عَنْ سَوَاءِ السّبِـيـلِ فأعلـمنا جل ذكره بـمنه ما أحلّ بهم من عقوبته بـمعصيتهم إياه, ثم علـمنا, مِنّةً منه علـينا, وجه السبـيـل إلـى النـجاة, من أن يحل بنا مثل الذي حلّ بهم من الـمَثُلات, ورأفة منه بنا.

فإن قـيـل: وما الدلـيـل علـى أنهم أولاء الذين وصفهم الله وذكر نبأهم فـي تنزيـله علـى ما وصفت قـيـل:

50ـ حدثنـي أحمد بن الولـيد الرملـي, قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الرقـي, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, عن إسماعيـل بن أبـي خالد, عن الشعبـي, عن عديّ بن حاتـم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الـمَغْضُوبُ عَلَـيْهِمْ: الـيَهُودُ».
وحدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا مـحمد بن جعفر, قال: حدثنا شعبة عن سماك بن حرب, قال: سمعت عبـاد بن حبـيش يحدّث عن عديّ بن حاتـم قال: قال لـي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الـمَغْضُوبَ عَلَـيْهِمْ: الـيَهُودُ».
وحدثنـي علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم بن عبد الرحمن, قال: حدثنا مـحمد بن مصعب, عن حماد بن سلـمة, عن سماك بن حرب, عن مُرّي بن قَطَري, عن عدي بن حاتـم قال: سألت النبـي صلى الله عليه وسلم عن قول الله جل وعز: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ قال: «هُمُ الـيَهُودُ».
51ـ وحدثنا حميد بن مسعدة الشامي, قال: حدثنا بشر بن الـمفضل, قال: حدثنا الـجريري عن عبد الله بن شقـيق: أن رجلاً أتـى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مـحاصرٌ وادي القرى فقال: من هؤلاء الذين تـحاصر يا رسول الله؟ قال: «هَولاءِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ: الـيَهُودُ».
وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن سعيد الـجريري, عن عروة, عن عبد الله بن شقـيق, أن رجلاً أتـى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نـحوه.
52ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر, عن بديـل العقـيـلـي, قال: أخبرنـي عبد الله بن شقـيق أنه أخبره من سمع النبـي صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى وهو علـى فرسه وسأله رجل من بنـي القـين, فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: «الـمَغْضُوبُ عَلَـيْهِمْ» وأشار إلـى الـيهود.
وحدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا خالد الواسطي, عن خالد الـحذاء, عن عبد الله بن شقـيق, أن رجلاً سأل النبـي صلى الله عليه وسلم, فذكر نـحوه.
53ـ وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمار, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ يعنـي الـيهود الذين غضب الله علـيهم.
54ـ وحدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن طلـحة, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ هم الـيهود.
55ـ وحدثنا ابن حميد الرازي, قال: حدثنا مهران, عن سفـيان, عن مـجاهد, قال: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ قال: هم الـيهود.
56ـ حدثنا أحمد بن حازم الغفـاري, قال: حدثنا عبد الله, عن أبـي جعفر, عن ربـيع: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ قال: الـيهود.
57ـ وحدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: غيرِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ قال: الـيهود.

58ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب. قال: قال ابن زيد: غير الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ الـيهود.

59ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنـي ابن زيد, عن أبـيه, قال: الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ الـيهود.

قال أبو جعفر: واختلف فـي صفة الغضب من الله جل ذكره فقال بعضهم: غضب الله علـى من غضب علـيه من خـلقه إحلالُ عقوبته بـمن غضب علـيه, إما فـي دنـياه, وإما فـي آخرته, كما وصف به نفسه جل ذكره فـي كتابه فقال: {فَلَـمّا آسَفُونا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجمَعينَ} وكما قال: قُلْ هَلْ أنَبئُكُمْ بشَرّ منْ ذلكَ مَثُوبَةً عنْدَ اللّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ وغَضِبَ عَلَـيْهِ وَجَعَلَ منهُمُ القِرَدَةَ والـخَنازِيرَ. وقال بعضهم: غضب الله علـى من غضب علـيه من عبـاده ذمّ منه لهم ولأفعالهم, وشتـم منه لهم بـالقول. وقال بعضهم: الغضب منه معنى مفهوم, كالذي يعرف من معانـي الغضب. غير أنه وإن كان كذلك من جهة الإثبـات, فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميـين الذين يزعجهم ويحركهم ويشقّ علـيهم ويؤذيهم لأن الله جل ثناؤه لا تـحل ذاته الآفـات, ولكنه له صفة كما العلـم له صفة, والقدرة له صفة علـى ما يعقل من جهة الإثبـات, وإن خالفت معانـي ذلك معانـي علوم العبـاد التـي هي معارف القلوب وقواهم التـي توجد مع وجود الأفعال وتُعدم مع عدمها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلا الضّالِـينَ.

قال أبو جعفر: كان بعض أهل البصرة يزعم أن «لا» مع «الضالـين» أدخـلت تتـمـيـما للكلام والـمعنى إلغاؤها, ويستشهد علـى قـيـله ذلك ببـيت العجاج:

فـي بِئْرٍ لا حُورً سَرَى وَما شَعَرْ

ويتأوله بـمعنى: فـي بئر حُورٍ سَرَى, أي فـي بئر هلكة, وأنّ «لا» بـمعنى الإلغاء والصلة. ويعتل أيضا لذلك يقول أبـي النـجم:

فَمَا ألُوم البِـيضَ أنْ لا تَسْخَرَا لَـمّا رأيْنَ الشّمَطَ القَـفَنْدَرَا

وهو يريد: فما ألوم البـيض أن تسخر. وبقول الأحوص:

ويَـلْـحَيْنَنِـي فـي اللّهْوِ أنْ لا أحِبّهُولَلّهْوِ داعٍ دائِبٌ غَيْرُ غَافِلِ

يريد: ويـلـحينَنـي فـي اللهو أن أحبه. وبقوله تعالـى: ما مَنَعَكَ أنْ لا تَسْجُدَ يريد أن تسجد. وحكي عن قائل هذه الـمقالة أنه كان يتأول «غير» التـي «مع الـمغضوب علـيهم» أنها بـمعنى «سوى», فكأن معنى الكلام كان عنده: اهدنا الصراط الـمستقـيـم صراط الذين أنعمت علـيهم الذين هم سوى الـمغضوب علـيهم والضالـين.

وكان بعض نـحويـي الكوفة يستنكر ذلك من قوله, ويزعم أن «غير» التـي «مع الـمغضوب علـيهم» لو كانت بـمعنى «سوى» لكان خطأ أن يعطف علـيها ب«لا», إذ كانت «لا» لا يعطف بها إلا علـى جحد قد تقدمها, كما كان خطأ قول القائل: عندي سوى أخيك, ولا أبـيك لأن «سوى» لـيست من حروف النفـي والـجحود ويقول: لـما كان ذلك خطأ فـي كلام العرب, وكان القرآن بأفصح اللغات من لغات العرب, كان معلوما أن الذي زعمه القائل أن «غير مع الـمغضوب» علـيهم بـمعنى: «سوى الـمغضوب علـيهم» خطأ, إذ كان قد كرّ علـيه الكلام ب«لا». وكان يزعم أن «غير» هنالك إنـما هي بـمعنى الـجحد, إذ كان صحيحا فـي كلام العرب وفـاشيا ظاهرا فـي منطقها

توجيه «غير» إلـى معنى النفـي ومستعملاً فـيهم: أخوك غير مـحسن ولا مـجمل, يراد بذلك أخوك لا مـحسن, ولا مـجمل, ويستنكر أن تأتـي «لا» بـمعنى الـحذف فـي الكلام مبتدأً ولـمّا يتقدمها جحد, ويقول: لو جاز مـجيئها بـمعنى الـحذف مبتدأ قبل دلالة تدل علـى ذلك من جحد سابق, لصح قول قائل قال: أردت أن لا أكرم أخاك, بـمعنى: أردت أن أكرم أخاك. وكان يقول: ففـي شهادة أهل الـمعرفة بلسان العرب علـى تـخطئه قائل ذلك دلالة واضحة علـى أن «لا» لا تأتـي مبتدأة بـمعنى الـحذف, ولـمّا يتقدمها جحد. وكان يتأول فـي «لا» التـي فـي بـيت العجاج الذي ذكرنا أن البصري استشهد به بقوله إنها جحد صحيح, وأن معنى البـيت: سرى فـي بئر لا تُـحِيرُ علـيه خيرا, ولا يتبـين له فـيها أثرُ عمل, وهو لا يشعر بذلك ولا يدري به. من قولهم: طحنت الطاحنة فما أحارت شيئا أي لـم يتبـين لها أثر عمل. ويقول فـي سائر الأبـيات الأخر, أعنـي مثل بـيت أبـي النـجم:

فَمَا أُلُومُ البِـيضَ أنْ لا تَسْخَرَا

إنـما جاز أن تكون «لا» بـمعنى الـحذف, لأن الـجحد قد تقدمها فـي أول الكلام, فكان الكلام الآخر مواصلاً للأول, كما قال الشاعر:

ما كانَ يَرْضَى رَسُولُ اللّهِ فِعْلَهُمُوَالطّيّبـانِ أبُو بَكْرٍ وَلا عُمَرُ

فجاز ذلك, إذ كان قد تقدم الـجحد فـي أول الكلام.

قال أبو جعفر: وهذا القول الآخر أولـى بـالصواب من الأول, إذ كان غير موجود فـي كلام العرب ابتداء الكلام من غير جحد تقدمه ب«لا» التـي معناها الـحذف, ولا جائز العطف بها علـى «سوى», ولا علـى حرف الاستثناء. وإنـما ل«غير» فـي كلام العرب معان ثلاثة: أحدها الاستثناء, والآخر الـجحد, والثالث سوى, فإذا ثبت خطأ «لا» أن يكون بـمعنى الإلغاء مبتدأ وفسد أن يكون عطفـا علـى «غير» التـي مع «الـمغضوب علـيهم», لو كانت بـمعنى «إلا» التـي هي استثناء, ولـم يجز أيضا أن يكون عطفـا علـيها لو كانت بـمعنى «سوى», وكانت «لا» موجودة عطفـا بـالواو التـي هي عاطفة لها علـى ما قبلها, صحّ وثبت أن لا وجه ل«غير» التـي مع «الـمغضوب علـيهم» يجوز توجيهها إلـيه علـى صحة إلا بـمعنى الـجحد والنفـي, وأن لا وجه لقوله: «ولا الضالـين», إلا العطف علـى «غير الـمغضوب علـيهم». فتأويـل الكلام إذا إذ كان صحيحا ما قلنا بـالذي علـيه استشهدنا: اهدنا الصراط الـمستقـيـم صراط الذين أنعمت علـيهم لا الـمغضوب علـيهم ولا الضالـين.

فإن قال لنا قائل: ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بـالاستعاذة بـالله أن يسلك بنا سبـيـلهم, أو نضل ضلالهم؟ قـيـل: هم الذين وصفهم الله فـي تنزيـله, فقال: يا أهْلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا فـي دِينِكُمْ غيرَ الـحَقّ ولا تَتّبِعُوا أهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلّوا منْ قَبْلُ وأضَلّوا كَثِـيرا وضَلّوا عَنْ سَوَاء السّبِـيـلِ فإن قال: وما برهانك علـى أنهم أولاء؟ قـيـل:

60ـ حدثنا أحد بن الولـيد الرملـي, قال: حدثنا عبد الله بن جعفر, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, عن إسماعيـل بن أبـي خالد, عن الشعبـي, عن عديّ بن أبـي حاتـم, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا الضّالّـينَ قال: «النّصارى».

حدثنا مـحمد بن الـمثنى, أنبأنا مـحمد بن جعفر, أنبأنا شعبة عن سماك, قال: سمعت عبـاد بن حبـيش يحدث عن عديّ بن حاتـم, قال: قال لـي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الضّالّـينَ: النّصَارَى».

وحدثنـي علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم وعبد الرحمن, قال: حدثنا مـحمد بن مصعب, عن حماد بن سلـمة, عن سماك بن حرب, عن مري بن قطري, عن عديّ بن حاتـم, قال: سألت النبـيّ صلى الله عليه وسلم عن قول الله وَلا الضّالّـينَ قال: «النّصَارَى هُمُ الضّالونَ».

61ـ وحدثنا حميد بن مسعدة الشامي, قال: حدثنا بشر بن الـمفضل, قال: حدثنا الـجريري, عن عبد الله بن شقـيق: أن رجلاً أتـى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مـحاصر وادي القرى قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: «هَؤُلاءِ الضّالونَ: النّصَارَى».

وحدثنا يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن سعيد الـجريري, عن عروة, يعنـي ابن عبد الله بن قـيس, عن عبد الله بن شقـيق, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنـحوه.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن بديـل العقـيـلـي, قال: أخبرنـي عبد الله بن شقـيق, أنه أخبره من سمع النبـي صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى وهو علـى فرسه وسأله رجل من بنـي القـين فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: «هَؤلاءِ الضّالّونَ», يَعْنِـي النّصَارَى.

وحدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا خالد الواسطي, عن خالد الـحذاء, عن عبد الله بن شقـيق, أن رجلاً سأل النبـي صلى الله عليه وسلم, وهو مـحاصر وادي القرى وهو علـى فرس من هؤلاء؟ قال: «الضّالونَ» يَعْنِـي النّصَارَى.

62ـ وحدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا مهران, عن سفـيان, عن مـجاهد: ولا الضالـين قال: النصارى.

63ـ وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمار, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: ولا الضالـين قال: وغير طريق النصارى الذين أضلهم الله بِفِرْيتهم علـيه. قال: يقول: فألهمنا دينك الـحقّ, وهو لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له, حتـى لا تغضبَ علـينا كما غضبت علـى الـيهود ولا تضلّنا كما أضللت النصارى فتعذّبنا بـما تعذبهم به. يقول: امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك وقدرتك.

64ـ وحدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس الضالـين: النصارى.

65ـ وحدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن إسماعيـل السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: ولا الضالـين: هم النصارى.

66ـ وحدثنـي أحمد بن حازم الغفـاري, قال: أخبرنا عبـيد الله بن موسى, عن أبـي جعفر, عن ربـيع: ولا الضالـين: النصارى.

67ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد: ولا الضالـين النصارى.

68ـ وحدثنا يونس قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد, عن أبـيه. قال: ولا الضالـين النصارى.

قال أبو جعفر: وكل حائد عن قصد السبـيـل وسالك غير الـمنهج القويـم فضالّ عند العرب لإضلاله وجه الطريق, فلذلك سَمّى الله جل ذكره النصارى ضُلاّلاً لـخطئهم فـي الـحق منهج السبـيـل, وأخذهم من الدين فـي غير الطريق الـمستقيـم.

فإن قال قائل: أو لـيس ذلك أيضا من صفة الـيهود؟ قـيـل: بلـى. فإن قال: كيف خصّ النصارى بهذه الصفة, وخص الـيهود بـما وصفهم به من أنهم مغضوب علـيهم؟ قـيـل: إن كلا الفريقـين ضُلاّل مغضوب علـيهم, غير أن الله جل ثناؤه وَسَم كل فريق منهم من صفته لعبـاده بـما يعرفونه به إذا ذكره لهم, أو أخبرهم عنه, ولـم يَسِمْ واحدا من الفريقـين إلا بـما هو له صفة علـى حقـيقته, وإن كان له من صفـات الذم زيادات علـيه. وقد ظن بعض أهل الغبـاء من القدرية أن فـي وصف الله جل ثناؤه النصارى بـالضلال بقوله: وَلا الضالّـين وإضافته الضلال إلـيهم دون إضافة إضلالهم إلـى نفسه, وتركه وصفهم بأنهم الـمضللون كالذي وصف به الـيهود أنهم الـمغضوب علـيهم, دلالةً علـى صحة ما قاله إخوانه من جَهَلَةِ القدرية جهلاً منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه. ولو كان الأمر علـى ما ظنه الغبـيّ الذي وصفنا شأنه لوجب أن يكون شأن كل موصوف بصفة أو مضاف إلـيه فعل لا يجوز أن يكون فـيه سبب لغيره, وأن يكون كل ما كان فـيه من ذلك لغيره سبب فـالـحق فـيه أن يكون مضافـا إلـى مسببه, ولو وجب ذلك لوجب أن يكون خطأ قول القائل: «تـحركت الشجرةُ» إذا حركتها الرياح, و«اضطربت الأرضُ» إذا حركتها الزلزلة, وما أشبه ذلك من الكلام الذي يطول بإحصائه الكتاب.

وفـي قول الله جل ثناؤه: حتّـى إذا كُنْتُـمْ فـي الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بإضافته الـجري إلـى الفلك, وإن كان جَرْيُها بإجراء غيرها إياها, ما يدل علـى خطأ التأويـل الذي تأوله من وصفنا قوله فـي قوله: وَلا الضّالـينَ, وادعائه أن فـي نسبة الله جل ثناؤه الضلالةَ إلـى من نسبها إلـيه من النصارى تصحيحا لـما ادعى الـمنكرون أن يكون لله جل ثناؤه فـي أفعال خـلقه سببٌ من أجله وُجدت أفعالهم, مع إبـانة الله عز ذكره نصّا فـي آي كثـيرة من تنزيـله أنه الـمضلّ الهادي فمن ذلك قوله جل ثناؤه: أفَرأيْتَ مَنِ اتّـخَذَ إلهَهُ هَوَاهُ وأضَلّهُ اللّهُ علـى عِلْـمٍ وخَتَـمَ علـى سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وجَعَلَ علـى بَصَرِهِ غَشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مَنْ بَعْدِ اللّهِ أفَلا تَذَكرُونَ فأنبأ جل ذكره أنه الـمضلّ الهادي دون غيره.

ولكن القرآن نزل بلسان العرب, علـى ما قد قدمنا البـيان عنه فـي أول الكتاب. ومن شأن العرب إضافة الفعل إلـى من وُجد منه, وإن كان مسببه غير الذي وجد منه أحيانا, وأحيانا إلـى مسببه, وإن كان الذي وجد منه الفعل غيرُه. فكيف بـالفعل الذي يكتسبه العبد كسبـا ويوجده الله جل ثناؤه عينا مُنْشأةً؟ بل ذلك أحرى أن يضاف إلـى مكتسبه كسبـا له بـالقوة منه علـيه والاختـيار منه له, وإلـى الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبـيرا.

مسئلة يسأل عنها أهل الإلـحاد الطاعنون فـي القرآن

إن سألنا منهم سائل فقال: إنك قد قدمت فـي أول كتابك هذا فـي وصف البـيان بأن أعلاه درجة وأشرفه مرتبة, أبلغه فـي الإبـانة عن حاجة الـمبـين

به عن نفسه وأبْـينُه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه, وقلت مع ذلك إن أولـى البـيان بأن يكون كذلك كلام الله جل ثناؤه بفضله علـى سائر الكلام وبـارتفـاع درجته علـى أعلـى درجات البـيان. فما الوجه إذ كان الأمر علـى ما وصفتَ فـي إطالة الكلام بـمثل سورة أمّ القرآن بسبع آيات؟ وقد حوت معانـي جميعها منها آيتان, وذلك قوله: مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ إذ كان لا شك أن من عرف: مَلِكِ يَوْمِ الدّينِ فقد عرفه بأسمائه الـحسنى وصفـاته الـمثلـى. وأنّ من كان للّه مطيعا, فلا شك أنه لسبـيـل من أنعم الله علـيه فـي دينه متبع, وعن سبـيـل من غضب علـيه وضل منعدل, فما فـي زيادة الآيات الـخمس البـاقـية من الـحكمة التـي لـم تـحوها الآيتان اللتان ذكرنا؟

قـيـل له: إن الله تعالـى ذكره جمع لنبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم ولأمته بـما أنزل إلـيه من كتابه معانـي لـم يجمعهن بكتاب أنزله إلـى نبـي قبله ولا لأمة من الأمـم قبلهم. وذلك أن كل كتاب أنزله جل ذكره علـى نبـي من أنبـيائه قبله, فإنـما أنزل ببعض الـمعانـي التـي يحوي جميعها كتابه الذي أنزله إلـى نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم, كالتوراة التـي هي مواعظ وتفصيـل, والزّبُور الذي هو تـحميد وتـمـجيد, والإنـجيـل الذي هو مواعظ وتذكير لا معجزة فـي واحد منها تشهد لـمن أنزل إلـيه بـالتصديق. والكتابُ الذي أنزل علـى نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم يحوي معانـي ذلك كله, ويزيد علـيه كثـيرا من الـمعانـي التـي سائر الكتب غيره منها خالٍ, وقد قدمنا ذكرها فـيـما مضى من هذا الكتاب. ومن أشرف تلك الـمعانـي التـي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله: نظمه العجيب, ورصفه الغريب, وتألـيفه البديع, الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الـخطبـاءُ, وكلّتْ عن وصف شكل بعضه البلغاء, وتـحيرت فـي تألـيفه الشعراء, وتبلّدت قصورا عن أن تأتـي بـمثله لديه أفهام الفهماء. فلـم يجدوا له إلا التسلـيـم, والإقرار بأنه من عند الواحد القهار, مع ما يحوي مع ذلك من الـمعانـي التـي هي ترغيب, وترهيب. وأمر, وزجر, وقصص, وجدل, ومثل, وما أشبه ذلك من الـمعانـي التـي لـم تـجتـمع فـي كتاب أنزل إلـى الأرض من السماء.

فمهما يكن فـيه من إطالة علـى نـحو ما فـي أم القرآن, فلـما وصفت قبلُ من أن الله جل ذكره أراد أن يجمع برصفه العجيب, ونظمه الغريب, الـمنعدل عن أوزان الأشعار, وسجع الكهان, وخطب الـخطبـاء, ورسائل البلغاء, العاجز عن وصف مثله جميع الأنام, وعن نظم نظيره كل العبـاد الدلالة علـى نبوّة نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما فـيه من تـحميد وتـمـجيد وثناء علـيه, تنبـيه للعبـاد علـى عظمته وسلطانه وقدرته وعظم مـملكته, لـيذكروه بآلائه ويحمدوه علـى نعمائه, فـيستـحقوا به منه الـمزيد ويستوجبوا علـيه الثوابَ الـجزيـل. وبـما فـيه من نعت من أنعم علـيه بـمعرفته, وتفضل علـيه بتوفـيقه لطاعته, تعريف عبـاده أن كل ما بهم من نعمة فـي دينهم ودنـياهم فمنه, لـيصرفوا رغبتهم إلـيه, ويبتغوا حاجاتهم من عنده دون ما سواه من الآلهة والأنداد, وبـما فـيه من ذكره ما أحل بـمن عصاه من مثلاته, وأنزل بـمن خالف أمره من عقوبـاته ترهيب عبـاده عن ركوب معاصيه, والتعرّض لـما لا قبل لهم به من سخطه, فـيسلك بهم فـي النكال والنقمات سبـيـل من ركب ذلك من الهلاك. فذلك وجه إطالة البـيان

فـي سورة أم القرآن, وفـيـما كان نظيرا لها من سائر سور الفرقان, وذلك هو الـحكمة البـالغة والـحجة الكاملة.

69ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا الـمـحاربـي, عن مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي العلاء بن عبد الرّحمن بن يعقوب, عن أبـي السائب مولـى زهرة, عن أبـي هريرة, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذَا قالَ العَبْدُ: الـحَمْدُ لِلّهِ رَرّب العالَـمِينَ, قالَ اللّهُ: حَمَدَنِـي عَبْدِي, وَإذَا قالَ: الرحْمَنُ الرّحِيـمِ, قال: أثنى عَلـيّ عَبْدِي, وَإذَا قالَ: مالِكِ يَوْمِ الدّين, قالَ: مَـجّدَنِـي عَبْدِي, فَهَذَا لـي. وَإذَا قالَ: إياكَ نَعْبُدُ وَإياكَ نَسْتَعِينُ إلـى أنْ يَخْتِـمَ السورَةَ قالَ: فَذَاكَ لَهُ».

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عبدة, عن ابن إسحاق, عن العلاء بن عبد الرحمن, عن أبـي السائب, عن أبـي هريرة, قال: إذا قال العبد: الـحمد لله, فذكر نـحوه, ولـم يرفعه.

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا أبو أسامة, قال: حدثنا الولـيد بن كثـير, قال: حدثنـي العلاء بن عبد الرحمن مولـى الـحرقة, عن أبـي السائب, عن أبـي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله.

70ـ حدثنـي صالـح بن مسمار الـمروزي, قال: حدثنا زيد بن الـحبـاب, قال: حدثنا عنبسة بن سعيد, عن مطرف بن طريف, عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة, عن جابر بن عبد الله الأنصاري, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عَزّ وَجَلّ: قَسَمْتُ الصّلاةَ بَـيْنـي وبـينَ عَبْدِي نِصْفَـيْنِ وَلَهُ ما سألَ, فإذَا قالَ العَبْدُ: الـحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العالَـمِينَ, قالَ الله: حَمِدَنـي عَبْدِي, وَإذَا قالَ الرّحْمَنِ الرّحِيـمِ, قالَ: أثْنى عَلـيّ عَبْدِي, وَإذَا قالَ: مالكِ يَوْمِ الدّين, قالَ: مَـجّدَنِـي عَبْدِي, قالَ: هَذَا لـي وَلَهُ ما بَقـيَ».

سورة البقرة

مدنـية

وآياتها ست وثمانون ومائتان

القول فـي تأويـل السورة التـي يذكر فـيها البقرة

الآية : 1

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{الَـمَ }

قال أبو جعفر: اختلفت تراجمة القران فـي تأويـل قول الله تعالـى ذكره: الـم فقال بعضهم: هو اسم من أسماء القران. ذكر من قال ذلك:

71ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: الـم قال: اسم من أسماء القران.

72ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم الآملـي, قال: حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد قال: الـم اسم من أسماء القران.

73ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج قال: الـم اسم من أسماء القران.

وقال بعضهم: هو فواتـح يفتـح الله بها القران. ذكر من قال ذلك:

74ـ حدثنـي هارون بن إدريس الأصم الكوفـي, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مـحمد الـمـحاربـي, عن ابن جريج, عن مـجاهد, قال: الـم فواتـح يفتـح الله بها القران.
حدثنا أحمد بن حازم الغفـاري, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, عن مـجاهد, قال: الـم فواتـح.
حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن يحيى بن ادم, عن سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد, قال: الـم وحم والـمص وص فواتـح افتتـح الله بها.
حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد مثل حديث هارون بن إدريس.
وقال بعضهم: هو اسم للسورة. ذكر من قال ذلك:
75ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أنبأنا عبد الله بن وهب, قال: سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلـم, عن قول الله: الـم ذلك الكتابُ والـم تَنْزِيـلُ والـمر تِلْكَ فقال: قال أبـي: إنـما هي أسماء السور.
وقال بعضهم: هو اسم الله الأعظم. ذكر من قال ذلك:
76ـ حدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, قال: حدثنا شعبة, قال: سألت السديّ عن حم وطسم والـم فقال: قال ابن عبـاس: هو اسم الله الأعظم.
حدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنـي أبو النعمان, قال: حدثنا شعبة عن إسماعيـل السدي, عن مرة الهمدانـي, قال: قال عبد الله فذكر نـحوه.
77ـ حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن عبـيد الله بن موسى, عن إسماعيـل, عن الشعبـي قال: فواتـح السور من أسماء الله.
وقال بعضهم: هو قَسَمٌ أقسم الله به وهي من أسمائه. ذكر من قال ذلك:
78ـ حدثنـي يحيى بن عثمان بن صالـح السهمي, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس, قال: هو قَسَم أقسم الله به وهو من أسماء الله.
79ـ حدثنا يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, قال: حدثنا خالد الـحذاء عن عكرمة قال: الـم قسم.
وقال بعضهم: هو حروف مقطعة من أسماء وأفعال, كل حرف من ذلك لـمعنى غير معنى الـحرف الآخر. ذكر من قال ذلك:
80ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, وحدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا ابن أبـي شريك, عن عطاء بن السائب, عن أبـي الضحى, عن ابن عبـاس: الـم فقال: أنا الله أعلـم.
81ـ وحدثت عن أبـي عبـيد قال: حدثنا أبو الـيقظان, عن عطاء بن السائب, عن سعيد بن جبـير, قال قوله: الـم قال: أنا الله أعلـم.
82ـ حدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن حماد القناد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن إسماعيـل السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: الـم قال: أما: الـم فهو حرف اشتق من حروف هجاء أسماء الله جل ثناؤه.

83ـ حدثنا مـحمد بن معمر, قال: حدثنا عبـاس بن زياد البـاهلـي, قال: حدثنا شعبة, عن أبـي بشر, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس فـي قوله: الـم وحم ون قال: اسم مقطع.

وقال بعضهم: هي حروف هجاء موضوع. ذكر من قال ذلك:

84ـ حدثت عن منصور بن أبـي نويرة, قال: حدثنا أبو سعيد الـمؤدب, عن خصيف, عن مـجاهد, قال: فواتـح السور كلها ق وص وحم وطسم والر وغير ذلك هجاء موضوع.

وقال بعضهم: هي حروف يشتـمل كل حرف منها علـى معان شتـى مختلفة. ذكر من قال ذلك:

85ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم الطبري, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن عبد الله بن أبـي جعفر الرازي قال: حدثنـي أبـي, عن الربـيع بن أنس فـي قول الله تعالـى ذكره: الـم قال: هذه الأحرف من التسعة والعشرين حرفـا, دارت فـيها الألسن كلها, لـيس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه, ولـيس منها حرف إلا وهو فـي آلائه وبلائه, ولـيس منها حرف إلا وهو مدة قوم وآجالهم. وقال عيسى ابن مريـم: «وعجيب ينطقون فـي أسمائه, ويعيشون فـي رزقه, فكيف يكفرون»؟ قال: الألف: مفتاح اسمه «الله», واللام: مفتاح اسمه «لطيف», والـميـم: مفتاح اسمه «مـجيد» والألف: آلاء الله, واللام: لطفه, والـميـم: مـجده الألف: سنة, واللام ثلاثون سنة, والـميـم: أربعون سنة.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا حكام عن أبـي جعفر, عن الربـيع بنـحوه.

وقال بعضهم: هي حروف من حساب الـجمل, كرهنا ذكر الذي حكي ذلك عنه, إذ كان الذي رواه مـمن لا يُعتـمد علـى روايته ونقله, وقد مضت الرواية بنظير ذلك من القول عن الربـيع بن أنس.

وقال بعضهم: لكل كتاب سرّ, وسرّ القرآن فواتـحه.

وأما أهل العربـية فإنهم اختلفوا فـي معنى ذلك, فقال بعضهم: هي حروف من حروف الـمعجم استُغنـي بذكر ما ذكر منها فـي أوائل السور عن ذكر بواقـيها التـي هي تتـمة الثمانـية والعشرين حرفـا, كما استغنَى الـمخبرُ عمن أخبر عنه أنه فـي حروف الـمعجم الثمانـية والعشرين بذكر «أ ب ت ث» عن ذكر بواقـي حروفها التـي هي تتـمة الثمانـية والعشرين, قال: ولذلك رفع ذلك الكتابُ لأن معنى الكلام: الألف واللام والـميـم من الـحروف الـمقطعة ذلك الكتاب الذي أنزلته إلـيه مـجموعا لا ريب فـيه....

فإن قال قائل: فإن «أ ب ت ث» قد صارت كالاسم فـي حروف الهجاء كما صارت الـحمد اسما لفـاتـحة الكتاب قـيـل له: لـما كان جائزا أن يقول القائل: ابنـي فـي «ط ظ», وكان معلوما بقـيـله ذلك لو قاله إنه يريد الـخبر عن ابنه أنه فـي الـحروف الـمقطعة, علـم بذلك أن «أ ب ت ث» لـيس لها بـاسم, وإن كان ذلك آثَرَ فـي الذكر من سائرها. قال: وإنـما خولف بـين ذكر حروف الـمعجم فـي فواتـح السور, فذكرت فـي أوائلها مختلفة, وذِكْرُها إذا ذُكرت بأوائلها التـي هي «أ ب ت ث» مؤتلفة لـيفصل بـين الـخبر عنها, إذا أريد بذكر ما ذكر منها مختلفـا الدلالة علـى الكلام الـمتصل, وإذا أريد بذكر ما ذكر منها مؤتلفـا الدلالة علـى الـحروف الـمقطعة بأعيانها. واستشهدوا لإجازة قول القائل: ابنـي فـي «ط ظ», وما أشبه ذلك من

الـخبر عنه أنه فـي حروف الـمعجم, وأن ذلك من قـيـله فـي البـيان يقوم مقام قوله: «ابنـي فـي أ ب ت ث» برجز بعض الرجاز من بنـي أسد:

لَـمّا رأيْتُ أمْرَها فـي حُطّيوفَتَكَتْ فـي كَذِبٍ ولَطِّ
أخَذْتُ منْها بِقُرُونٍ شُمْطِفَلَـمْ يَزَلْ ضَرْبـي بها ومَعْطِي
حتـى عَلا الرأسَ دَمٌ يُغَطِّي

فزعم أنه أراد بذلك الـخبر عن الـمرأة أنها فـي «أبـي جاد», فأقام قوله: «لـما رأيت أمرها فـي حُطي» مقام خبره عنها أنها فـي «أبـي جاد», إذ كان ذاك من قوله يدل سامعه علـى ما يدله علـيه قوله: لـما رأيت أمرها فـي أبـي جاد.

وقال آخرون: بل ابتدئت بذلك أوائل السور لـيفتـح لاستـماعه أسماع الـمشركين, إذ تواصوا بـالإعراض عن القرآن, حتـى إذا استـمعوا له تُلـي علـيهم الـمؤلف منه.

وقال بعضهم: الـحروف التـي هي فواتـح السور حروف يستفتـح الله بها كلامه.

فإن قـيـل: هل يكون من القرآن ما لـيس له معنى؟ فإن معنى هذا أنه افتتـح بها لـيعلـم أن السورة التـي قبلها قد انقضت, وأنه قد أخذ فـي أخرى, فجعل هذا علامة انقطاع ما بـينهما, وذلك فـي كلام العرب ينشد الرجل منهم الشعر فـيقول:

بل....وَبَلْدَةٍ ما الإنْسُ مِنْ آهالِهَا

ويقول: لا بل...

ما هاجَ أحْزَانا وشَجَوْا قَدْ شَجا

و«بل» لـيست من البـيت ولا تعدّ فـي وزنه, ولكن يقطع بها كلاما ويستأنف الآخر.

قال أبو جعفر: ولكل قول من الأقوال التـي قالها الذين وصفنا قولهم فـي ذلك وجه معروف. فأما الذين قالوا: الـم اسم من أسماء القرآن, فلقولهم ذلك وجهان: أحدهما أن يكونوا أرادوا أن: الـم اسم للقرآن كما الفرقان اسم له. وإذا كان معنى قائل ذلك كذلك, كان تأويـل قوله: الـم: ذلكَ الكِتابُ علـى معنى القسم كأنه قال: والقرآن هذا الكتاب لا ريب فـيه. والآخر منهما أن يكونوا أرادوا أنه اسم من أسماء السورة التـي تعرف به كما تعرف سائر الأشياء بأسمائها التـي هي لها أمارات تعرف بها, فـيفهم السامع من القائل يقول: قرأت الـيوم الـمص ون أي السورة التـي قرأها من سور القرآن, كما يفهم عنه إذا قال: لقـيت الـيوم عمرا وزيدا, وهما بزيد وعمر وعارفـان مَنِ الذي لقـي من الناس. وإن أشكل معنى ذلك علـى امرىء فقال: وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك ونظائر الـم الـمر فـي القرآن جماعة من السور؟ وإنـما تكون الأسماء أمارات, إذا كانت مـميزة بـين الأشخاص, فأما إذا كانت غير مـميزة فلـيست أمارات. قـيـل: إن الأسماء وإن كانت قد صارت لاشتراك كثـير من الناس فـي الواحد منها غير مـميزة إلا بـمعان أخر معها من ضم نسبة الـمسمى بها إلـيها أو نعته أو صفته بـما يفرق بـينه وبـين غيره من أشكالها, فإنها وضعت ابتداء للتـميـيز لا شك ثم احتـيج عند الاشتراك إلـى الـمعانـي الـمفرّقة بـين الـمسمّى بها. فكذلك ذلك فـي أسماء السور, جعل كل اسم فـي قول قائل هذه الـمقالة أمارةً للـمسمى به من السور. فلـما شارك الـمسمّى به فـيه غيره من سور

القرآن احتاج الـمخبر عن سورة منها أن يضم إلـى اسمها الـمسمى به من ذلك ما يفرق به للسامع بـين الـخبر عنها وعن غيرها من نعت وصفة أو غير ذلك, فـيقول الـمخبر عن نفسه إنه تلا سورة البقرة إذا سماها بـاسمها الذي هو الـم: قرأت الـم البقرة, وفـي آل عمران: قرأت الـم آل عمران, والـم ذَلِكَ الكِتابُ والـم اللّهُ لا إلَهَ إلاّ هُوَ الـحَيّ القَـيّومُ. كما لو أراد الـخبر عن رجلـين اسم كل واحد منهما عمرو, غير أن أحدهما تـميـميّ والآخر أزدي, للزمه أن يقول لـمن أراد إخبـاره عنهما: لقـيت عمرا التـميـمي وعمرا الأزدي, إذ كان لا فرق بـينهما وبـين غيرهما مـمن يشاركهما فـي أسمائهما إلا بنسبتهما كذلك, فكذلك ذلك فـي قول من تأول فـي الـحروف الـمقطعة أنها أسماء للسور.

وأما الذين قالوا: ذلك فواتـح يفتتـح الله عز وجل بها كلامه, فإنهم وجهوا ذلك إلـى نـحو الـمعنى الذي حكيناه عمن حكينا عنه من أهل العربـية أنه قال: ذلك أدلة علـى انقضاء سورة وابتداء فـي أخرى وعلامة لانقطاع ما بـينهما, كما جعلت «بل» فـي ابتداء قصيدة دلالة علـى ابتداء فـيها وانقضاء أخرى قبلها كما ذكرنا عن العرب إذا أرادوا الابتداء فـي إنشاد قصيدة, قال:

بل...ما هاجَ أحْزَانا وشَجْوا قَدْ شَجا

و«بل» لـيست من البـيت ولا داخـلة فـي وزنه, ولكن لـيدل به علـى قطع كلام وابتداء آخر.

وأما الذين قالوا: ذلك حروف مقطعة بعضها من أسماء الله عزّ وجل, وبعضها من صفـاته, ولكل حرف من ذلك معنى غير معنى الـحرف الآخر. فإنهم نـحوا بتأويـلهم ذلك نـحو قول الشاعر:

قُلْنا لَهَا قِـفِـي لنا قالَتْ قافْلا تَـحْسِبِـي أنّا نَسِينا الإيجَافْ

يعنـي بقوله: قالت قاف: قالت قد وقـفت. فدلّت بإظهار القاف من «وقـفت» علـى مرادها من تـمام الكلـمة التـي هي «وقـفت», فصرفوا قوله: الـم وما أشبه ذلك إلـى نـحو هذا الـمعنى, فقال بعضهم: الألف ألف «أنا», واللام لام «الله», والـميـم ميـم «أعلـم», وكل حرف منها دال علـى كلـمة تامة. قالوا: فجملة هذه الـحروف الـمقطعة إذا ظهر مع كل حرف منهن تـمام حروف الكلـمة «أنا الله أعلـم». قالوا: وكذلك سائر جميع ما فـي أوائل سور القرآن من ذلك, فعلـى هذا الـمعنى وبهذا التأويـل. قالوا: ومستفـيض ظاهر فـي كلام العرب أن ينقص الـمتكلـم منهم من الكلـمة الأحرف إذا كان فـيـما بقـي دلالة علـى ما حذف منها, ويزيد فـيها ما لـيس منها إذا لـم تكن الزيادة مُلَبّسة معناها علـى سامعها كحذفهم فـي النقص فـي الترخيـم من «حارث» «الثاء» فـيقولون: يا حار, ومن «مالك» «الكاف» فـيقولون: يا مال, وأما أشبه ذلك. وكقول راجزهم:

ما للظّلِـيـمِ عَالَ كَيْفَ لاَ يايَنْقَدّ عَنْهُ جِلْدُهُ إذَا يا

كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا, فـاكتفـى بـالـياء من «يفعل». وكما قال آخر منهم:

بـالـخَيْرِ خَيْرَاتٌ وَإنْ شَرّا فَـا

يريد فشرّا.

ولا أُرِيدُ الشّرّ إلاّ أنْ تَا

يريد إلا أن تشاء. فـاكتفـى بـالتاء والفـاء فـي الكلـمتـين جميعا من سائر حروفهما, وما أشبه ذلك من الشواهد التـي يطول الكتاب بـاستـيعابه. وكما

86ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن أيوب وابن عون, عن مـحمد, قال: لـما مات يزيد بن معاوية, قال لـي عبدة: إنـي لا أراها إلا كائنة فتنة فـافزع من ضيعتك والـحق بأهلك قلت: فما تأمرنـي؟ قال: أحبّ إلـيّ لك أن تا قال أيوب وابن عون بـيده تـحت خده الأيـمن يصف الاضطجاع حتـى ترى أمرا تعرفه.

قال أبو جعفر: يعنـي ب «تا» تضطجع, فـاجتزأ بـالتاء من تضطجع. وكما قال الاَخر فـي الزيادة فـي الكلام علـى النـحو الذي وصفت:

أقولُ إذْ خَرّتْ علـى الكَلْكالِيا ناقَتِـي ما جُلْتِ مِن مَـجَالِ

يريد الكلكل. وكما قال الاَخر:

إنّ شَكْلِـي وإنّ شَكْلَكِ شَتّـىفـالزَمِي الـخُصّ واخْفِضي تَبْـيَضِضّي

فزاد ضادا ولـيست فـي الكلـمة.

قالوا: فكذلك ما نقص من تـمام حروف كل كلـمة من هذه الكلـمات التـي ذكرنا أنها تتـمة حروف الـم ونظائرها, نظير ما نقص من الكلام الذي حكيناه عن العرب فـي أشعارها وكلامها.

وأما الذين قالوا: كل حرف من الـم ونظائرها دالّ علـى معان شتـى نـحو الذي ذكرنا عن الربـيع بن أنس, فإنهم وجهوا ذلك إلـى مثل الذي وجهه إلـيه من قال هو بتأويـل: «أنا الله أعلـم» فـي أن كل حرف منه بعض حروف كلـمة تامة استُغنـي بدلالته علـى تـمامه عن ذكر تـمامه, وإن كانوا له مخالفـين فـي كل حرف من ذلك, أهو من الكلـمة التـي ادعى أنه منها قائلو القول الأول أم من غيرها؟ فقالوا: بل الألف من الـم من كلـمات شتـى هي دالة علـى معانـي جميع ذلك وعلـى تـمامه. قالوا: وإنـما أفرد كل حرف من ذلك وقصر به عن تـمام حروف الكلـمة أن جميع حروف الكلـمة لو أظهرت لـم تدل الكلـمة التـي تظهر بعض هذه الـحروف الـمقطعة بعضٌ لها, إلاّ علـى معنى واحد لا علـى معنـيـين وأكثر منهما. قالوا: وإذا كان لا دلالة فـي ذلك لو أظهر جميعها إلا علـى معناها الذي هو معنى واحد, وكان الله جل ثناؤه قد أراد الدلالة بكل حرف منها علـى معان كثـيرة لشيء واحد, لـم يجز إلا أن يفرد الـحرف الدال علـى تلك الـمعانـي, لـيعلـم الـمخاطبون به أن الله عز وجل لـم يقصد قصد معنى واحد ودلالة علـى شيء واحد بـما خاطبهم به, وأنه إنـما قصد الدلالة به علـى أشياء كثـيرة. قالوا: فـالألف من الـم مقتضية معانـي كثـيرة, منها: إتـمام اسم الربّ الذي هو الله, وتـمام اسم نعماء الله التـي هي آلاء الله, والدلالة علـى أجَلِ قوم أنه سنة, إذا كانت الألف فـي حساب الـجُمّل واحدا. واللام مقتضية تـمام اسم الله الذي هو لطيف, وتـمام اسم فضله الذي هو لطف, والدلالة علـى أجل قوم أنه ثلاثون سنة. والـميـم مقتضية تـمام اسم الله الذي هو مـجيد, وتـمام اسم عظمته التـي هي مـجد, والدلالة علـى أجل قوم أنه أربعون سنة. فكان معنى الكلام فـي تأويـل قائل القول الأول: أن الله جل ثناؤه افتتـح كلامه بوصف نفسه بأنه العالـم الذي لا يخفـى علـيه شيء, وجعل ذلك لعبـاده منهجا يسلكونه فـي مفتتـح خطبهم ورسائلهم ومهمّ أمورهم, وابتلاء منه لهم لـيستوجبوا به عظيـم الثواب فـي دار الـجزاء, كما افتتـح بـالـحمد لله رب العالـمين, والـحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَـلَقَ السموَاتِ وَالأرْضَ وما أشبه ذلك من السور التـي جعل مفـاتـحها الـحمد لنفسه. وكما جعل مفـاتـح بعضها تعظيـم نفسه وإجلالها بـالتسبـيح كما قال جل ثناؤه: سُبْحانَ الّذِي أسْرَى

بعَبْدِهِ لَـيْلاً وما أشبه ذلك من سائر سور القرآن التـي جعل مفـاتـح بعضها تـحميد نفسه, ومفـاتـح بعضها تـمـجيدها, ومفـاتـح بعضها تعظيـمها وتنزيهها. فكذلك جعل مفـاتـح السور الأخرى التـي أوائلها بعض حروف الـمعجم مدائح نفسه أحيانا بـالعلـم, وأحيانا بـالعدل والإنصاف, وأحيانا بـالإفضال والإحسان بإيجاز واختصار, ثم اقتصاص الأمور بعد ذلك. وعلـى هذا التأويـل يجب أن يكون الألف واللام والـميـم فـي أماكن الرفع مرفوعا بعضها ببعض دون قوله: ذلكَ الكِتابُ ويكون ذلك الكتاب خبر مبتدأ منقطعا عن معنى الـم, وكذلك «ذلك» فـي تأويـل قول قائل هذا القول الثانـي مرفوعٌ بعضه ببعض, وإن كان مخالفـا معناه معنى قول قائل القول الأول.

وأما الذين قالوا: هن حروف من حروف حساب الـجُمّل دون ما خالف ذلك من الـمعانـي, فإنهم قالوا: لا نعرف للـحروف الـمقطعة معنى يفهم سوى حساب الـجمل وسوى تَهَجّي قول القائل: الـم. وقالوا: غير جائز أن يخاطب الله جل ثناؤه عبـادَهُ إلا بـما يفهمونه ويعقلونه عنه. فلـما كان ذلك كذلك وكان قوله: الـم لا يعقل لها وجهه تُوجّه إلـيه إلا أحد الوجهين اللذين ذكرنا, فبطل أحد وجهيه, وهو أن يكون مرادا بها تهجي الـم صحّ وثبت أنه مراد به الوجه الثانـي وهو حساب الـجمل لأن قول القائل: الـم لا يجوز أن يـلـيه من الكلام ذلك الكتاب لاستـحالة معنى الكلام وخروجه عن الـمعقول إذا ولـي الـم ذلك الكتاب. واحتـجوا لقولهم ذلك أيضا بـما:

87ـ حدثنا به مـحمد بن حميد الرازي, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل. قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي الكلبـي, عن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, عن جابر بن عبد الله بن رئاب, قال: مرّ أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فـاتـحة سورة البقرة: الـم ذَلِكَ الكِتابُ لاَ رَيْبَ فِـيهِ فأتـى أخاه حيـيّ بن أخطب فـي رجال من يهود فقال: تعلـمون والله لقد سمعت مـحمدا يتلو فـيـما أنزل الله عز وجل علـيه: الـم ذَلِكَ الكِتابُ فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم. فمشى حيـيّ بن أخطب فـي أولئك النفر من يهود إلـى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقالوا: يا مـحمد ألـم يذكر لنا أنك تتلو فـيـما أنزل علـيك: الـم ذَلِكَ الكِتابُ؟ فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَلَـى» فقالوا: أجاءك بهذا جبريـل من عند الله؟ قال: «نَعَمْ» قالوا: لقد بعث الله جل ثناؤه قبلك أنبـياء ما نعلـمه بـين لنبـيّ منهم ما مدة ملكه وما أَجَل أمته غيرك فقال حيـيّ بن أخطب: وأقبل علـى من كان معه, فقال لهم: الألف واحدة, واللام ثلاثون, والـميـم أربعون, فهذه إحدى وسبعون سنة, قال: فقال لهم: أتدخـلون فـي دين نبـي إنـما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ قال: ثم أقبل علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال: يا مـحمد هل مع هذه غيره؟ قال: «نَعَمْ» قال: ماذا؟ قال: «الـمص» قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة, واللام ثلاثون, والـميـم أربعون, والصاد تسعون. فهذه مائة وإحدى وستون سنة هل مع هذا يا مـحمد غيره؟ قال: «نَعَمْ» قال: ماذا؟ قال: «الر» قال: هذه أثقل وأطول الألف واحدة, واللام ثلاثون, والراء مائتان, فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة فقال: هل مع هذا غيره يا مـحمد؟ قال: «نَعَمْ الـمر», قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون, والـميـم أربعون, والراء مائتان, فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة. ثم قال: لقد لُبّس علـينا أمرك يا مـحمد, حتـى ما ندري أقلـيلاً أعطيتَ أم كثـيرا ثم قاموا عنه, فقال أبو ياسر

لأخيه حيـي بن أخطب ولـمن معه من الأحبـار: ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لـمـحمد: إحدى وسبعون, وإحدى وستون ومائة, ومائتان وإحدى وثلاثون, ومائتان وإحدى وسبعون, فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون, فقالوا: لقد تشابه علـينا أمره. ويزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فـيهم: هُوَ الذِي أنْزَلَ عَلَـيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٍ مُـحْكماتٌ هُنّ أُمّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ.

فقالوا: قد صرّح هذا الـخبر بصحة ما قلنا فـي ذلك من التأويـل وفساد ما قاله مخالفونا فـيه.

والصواب من القول عندي فـي تأويـل مفـاتـح السور التـي هي حروف الـمعجم: أن الله جل ثناؤه جعلها حروفـا مقطعة ولـم يصل بعضها ببعض فـيجعلها كسائر الكلام الـمتصل الـحروف لأنه عز ذكره أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منه علـى معان كثـيرة لا علـى معنى واحد, كما قال الربـيع بن أنس, وإن كان الربـيع قد اقتصر به علـى معان ثلاثة دون ما زاد علـيها. والصواب فـي تأويـل ذلك عندي أن كل حرف منه يحوي ما قاله الربـيع وما قاله سائر الـمفسرين غيره فـيه, سوى ما ذكرت من القول عمن ذكرت عنه من أهل العربـية أنه كان يوجّه تأويـل ذلك إلـى أنه حروف هجاء استُغنـي بذكر ما ذكر منه فـي مفـاتـح السور عن ذكر تتـمة الثمانـية والعشرين حرفـا من حروف الـمعجم بتأويـل: أن هذه الـحروف, ذلك الكتاب, مـجموعةٌ لا ريب فـيه, فإنه قول خطأ فـاسد لـخروجه عن أقوال جميع الصحابة والتابعين, ومن بعدهم من الـخالفـين من أهل التفسير والتأويـل, فكفـى دلالة علـى خطئه شهادة الـحجة علـيه بـالـخطأ مع إبطال قائل ذلك قوله الذي حكيناه عنه, إذ صار إلـى البـيان عن رفع ذلك الكتاب بقوله مرة إنه مرفوع كل واحد منهما بصاحبه ومرة أخرى أنه مرفوع بـالراجع من ذكره فـي قوله: لاَ رَيْبَ فِـيهِ ومرة بقوله: هُدًى لِلْـمُتّقِـينَ وذلك ترك منه لقوله إن الـم رافعة ذَلِكَ الكِتَابُ وخروج من القول الذي ادّعاه فـي تأويـل الـم ذَلِكَ الكِتَابُ وأن تأويـل ذلك: هذه الـحروف ذلك الكتاب.

فإن قال لنا قائل: وكيف يجوز أن يكون حرف واحد شاملاً الدلالة علـى معان كثـيرة مختلفة؟ قـيـل: كما جاز أن تكون كلـمة واحدة تشتـمل علـى معان كثـيرة مختلفة كقولهم للـجماعة من الناس: أمة, وللـحين من الزمان: أمة, وللرجل الـمتعبد الـمطيع لله: أمة, وللدين والـملة: أمة. وكقولهم للـجزاء والقصاص: دين, وللسلطان والطاعة: دين, وللتذلل: دين, وللـحساب: دين فـي أشبـاه لذلك كثـيرة يطول الكتاب بإحصائها, مـما يكون من الكلام بلفظ واحد, وهو مشتـمل علـى معان كثـيرة. وكذلك قول الله جل ثناؤه: «الـم والـمر», و«الـمص» وما أشبه ذلك من حروف الـمعجم التـي هي فواتـح أوائل السور, كل حرف منها دالّ علـى معان شتـى, شامل جميعها من أسماء الله عز وجل وصفـاته ما قاله الـمفسرون من الأقوال التـي ذكرناها عنهم وهن مع ذلك فواتـح السور كما قاله من قال ذلك. ولـيس كونُ ذلك من حروف أسماء الله جل ثناؤه وصفـاته بـمانعها أن تكون للسور فواتـح لأن الله جل ثناؤه قد افتتـح كثـيرا من سور القرآن بـالـحمد لنفسه والثناء علـيها, وكثـيرا منها بتـمـجيدها وتعظيـمها, فغير مستـحيـل أن يبتدىء بعض ذلك بـالقسم بها. فـالتـي ابتُدىء أوائلها بحروف الـمعجم أحد معانـي أوائلها أنهنّ فواتـح ما افتتـح بهنّ من سور القرآن, وهنّ

مـما أقسم بهن لأن أحد معانـيهن أنهن من حروف أسماء الله تعالـى ذكره وصفـاته علـى ما قدمنا البـيان عنها, ولا شك فـي صحة معنى القسم بـالله وأسمائه وصفـاته, وهن من حروف حساب الـجمل, وهنّ للسور التـي افتتـحت بهن شعار وأسماء. فذلك يحوي معانـي جميع ما وصفنا مـما بـينا من وجوهه, لأن الله جل ثناؤه لو أراد بذلك أو بشيء منه الدلالة علـى معنى واحد مـما يحتـمله ذلك دون سائر الـمعانـي غيره, لأبـان ذلك لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إبـانة غير مشكلة, إذ كان جل ثناؤه إنـما أنزل كتابه علـى رسوله صلى الله عليه وسلم لـيبـين لهم ما اختلفوا فـيه. وفـي تركه صلى الله عليه وسلم إبـانة ذلك أنه مراد به من وجوه تأويـله البعض دون البعض أوضح الدلـيـل علـى أنه مراد به جميع وجوهه التـي هو لها مـحتـمل, إذ لـم يكن مستـحيلاً فـي العقل وجهٌ منها أن يكون من تأويـله ومعناه كما كان غير مستـحيـل اجتـماع الـمعانـي الكثـيرة للكلـمة الواحدة بـاللفظ الواحد فـي كلام واحد.

ومن أبى ما قلناه فـي ذلك سئل الفرق بـين ذلك وبـين سائر الـحروف التـي تأتـي بلفظ واحد مع اشتـمالها علـى الـمعانـي الكثـيرة الـمختلفة كالأمة والدين وما أشبه ذلك من الأسماء والأفعال. فلن يقول فـي أحد ذلك قولاً إلا أُلزم فـي الآخر مثله. وكذلك يُسأل كل من تأوّل شيئا من ذلك علـى وجه دون الأوجه الأخر التـي وصفنا عن البرهان علـى دعواه من الوجه الذي يجب التسلـيـم له ثم يعارض بقوله يخالفه فـي ذلك, ويسأل الفرق بـينه وبـينه: من أصْلٍ, أو مـما يدل علـيه أصلٌ, فلن يقول فـي أحدهما قولاً إلا ألزم فـي الآخر مثله. وأما الذي زعم من النـحويـين أن ذلك نظير, «بل» فـي قول الـمنشد شعرا:

بل...ما هاجَ أحْزَانا وَشَجْوا قَدْ شَجا

وأنه لا معنى له, وإنـما هو زيادة فـي الكلام معناه الطرح فإنه أخطأ من وجوه شتـى:

أحدها: أنه وصف الله تعالـى ذكره بأنه خاطب العرب بغير ما هو من لغتها وغير ما هو فـي لغة أحد من الآدميـين, إذ كانت العرب وإن كانت قد كانت تفتتـح أوائل إنشادها ما أنشدت من الشعر ب«بل», فإنه معلوم منها أنها لـم تكن تبتدىء شيئا من الكلام ب«الـم» و«الر» و«الـمص» بـمعنى ابتدائها ذلك ب«بل». وإذ كان ذلك لـيس من ابتدائها, وكان الله جل ثناؤه إنـما خاطبهم بـما خاطبهم من القرآن بـما يعرفون من لغاتهم ويستعملون بـينهم من منطقهم فـي جميع آيِهِ, فلا شك أن سبـيـل ما وصفنا من حروف الـمعجم التـي افتتـحت بها أوائل السور التـي هن لها فواتـح سبـيـل سائر القرآن فـي أنه لـم يعدل بها عن لغاتهم التـي كانوا بها عارفـين ولها بـينهم فـي منطقهم مستعملـين لأن ذلك لو كان معدولاً به عن سبـيـل لغاتهم ومنطقهم كان خارجا عن معنى الإبـانة التـي وصف الله عز وجل بها القرآن, فقال تعالـى ذكره: نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمِينُ علـى قَلْبِكَ لِتَكَونَ مِنَ الـمُنْذِرِينِ بِلسانٍ عَرَبِـيّ مُبِـينٍ. وأنّى يكون مبـينا ما لا يعقله ولا يفقهه أحد من العالـمين فـي قول قائل هذه الـمقالة, ولا يعرف فـي منطق أحد من الـمخـلوقـين فـي قوله؟ وفـي إخبـار الله جل ثناؤه عنه أنه عربـيّ مبـين ما يكذّب هذه الـمقالة, وينبىء عنه أن العرب كانوا به عالـمين وهو لها مستبـين. فذلك أحد أوجه خطئه.

والوجه الثانـي من خطئه فـي ذلك: إضافته إلـى الله جل ثناؤه أنه خاطب عبـاده بـما لا فـائدة لهم فـيه ولا معنى له من الكلام الذي سواء الـخطاب به وترك الـخطاب به, وذلك إضافة العبث الذي هو منفـي فـي قول جميع الـموحدين عن الله, إلـى الله تعالـى ذكره.

والوجه الثالث من خطئة: أن «بل» فـي كلام العرب مفهوم تأويـلها ومعناها, وأنها تدخـلها فـي كلامها رجوعا عن كلام لها قد تقضى كقولهم: مَا جاءنـي أخوك بل أبوك وما رأيت عمرا بل عبد الله, وما أشبه ذلك من الكلام, كما قال أعشى بنـي ثعلبة:

وَءَلاشْرَبَنّ ثَمَانِـيا وثَمَانِـياوَثَلاثَ عَشْرَةَ وَاثْنَتَـيْنَ وَأرْبَعا

ومضى فـي كلـمته حتـى بلغ قوله:

بـالـجُلّسانِ وَطَيّبٌ أرْدَانُهُبـالوَنّ يَضْرِبُ لـي يَكُرّ ألاصْبُعا

ثم قال:

بَلْ عُدّ هَذَا فـي قَرِيضِ غَيْرِهِوَاذْكُرْ فَتًـى سَمْـحَ الـخَـلِـيقَةِ أرْوَعا

فكأنه قال: دع هذا وخذ فـي قريض غيره. ف«بل» إنـما يأتـي فـي كلام العرب علـى هذا النـحو من الكلام. فأما افتتاحا لكلامها مبتدأ بـمعنى التطويـل والـحذف من غير أن يدل علـى معنى, فذلك مـما لا نعلـم أحدا ادعاه من أهل الـمعرفة بلسان العرب ومنطقها, سوى الذي ذكرت قوله, فـيكون ذلك أصلاً يشبّه به حروف الـمعجم التـي هي فواتـح سور القرآن التـي افتتـحت بها لو كان له مشبهة, فكيف وهي من الشبه به بعيدة؟

الآية : 2

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لّلْمُتّقِينَ }

قال عامة الـمفسرين: تأويـل قول الله تعالـى: ذَلِكَ الكِتَابُ: هذا الكتاب.

ذكر من قال ذلك:

88ـ حدثنـي هارون بن إدريس الأصم الكوفـي, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مـحمد الـمـحاربـي, عن ابن جريج, عن مـجاهد: ذلك الكتاب, قال: هو هذا الكتاب.

89ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, قال: أخبرنا خالد الـحذاء, عن عكرمة, قال: ذلك الكتاب: هذا الكتاب.

90ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا الـحكم بن ظهير, عن السدّي فـي قوله: ذَلِكَ الكِتابُ قال: هذا الكتاب.

91ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج قوله: ذَلِكَ الكِتابُ: هذا الكتاب. قال: قال ابن عبـاس: ذِلِكَ الكِتابُ: هذا الكتاب.

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يكون «ذلك» بـمعنى «هذا»؟ و«هذا» لا شك إشارة إلـى حاضر معاين, و«ذلك» إشارة إلـى غائب غير حاضر ولا معاين؟ قـيـل: جاز ذلك لأن كل ما تقضي وقَرُب تقضيه من الأخبـار فهو وإن صار بـمعنى غير الـحاضر, فكالـحاضر عند الـمخاطب وذلك كالرجل يحدّث الرجل الـحديث, فـيقول السامع: إن ذلك والله لكما قلت, وهذا والله كما قلت, وهو والله كما ذكرت. فـيخبر عنه مرة بـمعنى الغائب إذ كان قد تقضّى ومضى, ومرة بـمعنى الـحاضر لقرب جوابه من كلام مخبره كأنه غير

منقضٍ, فكذلك ذلك فـي قوله: ذَلِكَ الكِتابُ لأنه جل ذكره لـما قدم قبل ذلك الكتابَ الـم التـي ذكرنا تصرّفها فـي وجوهها من الـمعانـي علـى ما وصفنا, قال لنبـيه صلى الله عليه وسلم: يا مـحمد هذا الذي ذكرته وبـينته لك الكتابُ. ولذلك حسن وضع «ذلك» فـي مكان «هذا», لأنه أشير به إلـى الـخبر عما تضمنه قوله: الـم من الـمعانـي بعد تقضي الـخبر عنه بألـم, فصار لقرب الـخبر عنه من تقضيه كالـحاضر الـمشار إلـيه, فأخبر عنه بذلك لانقضائه ومصير الـخبر عنه كالـخبر عن الغائب. وترجمه الـمفسرون أنه بـمعنى «هذا» لقرب الـخبر عنه من انقضائه, فكان كالـمشاهد الـمشار إلـيه بهذا نـحو الذي وصفنا من الكلام الـجاري بـين الناس فـي مـحاوراتهم, وكما قال جل ذكره: واذْكُرْ إسمَاعِيـلَ والـيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلّ مِنَ الأخْيار هَذَا ذِكْرٌ فهذا ما فـي «ذلك» إذا عنى بها «هذا». وقد يحتـمل قوله جل ذكره: ذَلِكَ الكِتَابُ أن يكون معنـيا به السور التـي نزلت قبل سورة البقرة بـمكة والـمدينة, فكأنه قال جل ثناؤه لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم: يا مـحمد اعلـم أن ما تضمنته سور الكتاب التـي قد أنزلتها إلـيك هو الكتاب الذي لا ريب فـيه. ثم ترجمه الـمفسرون بأن معنى «ذلك»: «هذا الكتاب», إذ كانت تلك السور التـي نزلت قبل سورة البقرة من جملة جميع كتابنا هذا الذي أنزله الله عز وجل علـى نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم. وكان التأويـل الأول أولـى بـما قاله الـمفسرون لأن ذلك أظهر معانـي قولهم الذي قالوه فـي ذلك. وقد وجه معنى ذلك بعضهم إلـى نظير معنى بـيت خُفـاف بن نُدبة السلـمي:

فإنْ تَكُ خَيْـلـي قَدْ أُصِيبَ صَمِيـمُهافَعَمْدا علـى عَيْنٍ تَـيَـمّـمْتُ مالكا
أقُولُ لَهُ والرّمْـحُ يَأطِرُ مَتْنَهُتَأمّلْ خُفـافـا إنّنـي أنا ذَلِكا

كأنه أراد: تأملنـي أنا ذلك. فرأى أن «ذلك الكتاب» بـمعنى «هذا» نظير ما أظهر خفـاف من اسمه علـى وجه الـخبر عن الغائب وهو مخبر عن نفسه, فكذلك أظهر «ذلك» بـمعنى الـخبر عن الغائب, والـمعنى فـيه الإشارة إلـى الـحاضر الـمشاهد. والقول الأول أولـى بتأويـل الكتاب لـما ذكرنا من العلل.

وقد قال بعضهم: ذَلِكَ الكِتابُ: يعنـي به التوراة والإنـجيـل, وإذا وجه تأويـل ذلك إلـى هذا الوجه فلا مؤنة فـيه علـى متأوله كذلك لأن «ذلك» يكون حينئذٍ إخبـارا عن غائب علـى صحة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لا رَيْبَ فِـيهَ.

قوتأويـل قوله: لا رَيْبَ فِـيهِ: «لا شك فـيه», كما:

92ـ حدثنـي هارون بن إدريس الأصم, قال: حدثنا عبد الرحمن الـمـحاربـي, عن ابن جريج, عن مـجاهد لا رَيْبَ فِـيهِ, قال: لا شك فـيه.

93ـ حدثنـي سلام بن سالـم الـخزاعي, قال: حدثنا خـلف بن ياسين الكوفـي, عن عبد العزيز بن أبـي روّاد عن عطاء: لا رَيْبَ فِـيهِ قال: لا شك فـيه.

94ـ حدثنـي أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا الـحكم بن ظهير, عن السدّي, قال: لا رَيْبَ فِـيهِ: لا شك فـيه.

95ـ حدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: لا رَيْبَ فِـيهِ: لا شك فـيه.

96ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: لا رَيْبَ فِـيهِ قال: لا شك فـيه.

حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: لا رَيْبَ فِـيهِ يقول لا شك فـيه.

97ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن قتادة: لا رَيْبَ فِـيهِ يقول: لا شك فـيه.

98ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه عن الربـيع بن أنس قوله: لا رَيْبَ فِـيهِ يقول: لا شك فـيه.

وهو مصدر من قولك: رابنـي الشيء يريبنـي ريبـا. ومن ذلك قول ساعدة بن جُؤذيّة الهذلـي:

فَقَالُوا تَرَكْنا الـحَيّ قَدْ حَصِرُوا بهِفَلا رَيْبَ أنْ قَدْ كانَ ثمّ لَـحِيـمُ

ويروى: «حصروا», و«حَصِروا», والفتـح أكثر, والكسر جائز. يعنـي بقوله: «احصروا به»: أطافوا به, ويعنـي بقوله: لا رَيْبَ فِـيهِ لا شك فـيه, وبقوله: «إن قد كان ثم لـحيـم», يعنـي قتـيلاً, يقال: قد لُـحم إذا قتل. والهاء التـي فـي «فـيه» عائدة علـى الكتاب, كأنه قال: لا شك فـي ذلك الكتاب أنه من عند الله هدى للـمتقـين. القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

هُدًى.

99ـ حدثنـي أحمد بن حازم الغفـاري, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, عن بـيان, عن الشعبـي: هُدًى قال: هدى من الضلالة.

100ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن إسماعيـل السدي, فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: هُدًى للـمتّقِـينَ يقول: نور للـمتقـين.

والهدى فـي هذا الـموضع مصدر من قولك: هديت فلانا الطريق إذا أرشدته إلـيه, ودللته علـيه, وبـينته له أهديه هُدًى وهداية.

فإن قال لنا قائل: أو ما كتاب الله نورا إلا للـمتقـين ولا رشادا إلا للـمؤمنـين؟ قـيـل: ذلك كما وصفه ربنا عز وجل, ولو كان نورا لغير الـمتقـين, ورشادا لغير الـمؤمنـين لـم يخصص الله عز وجل الـمتقـين بأنه لهم هدى, بل كان يعم به جميع الـمنذرين ولكنه هدى للـمتقـين, وشفـاء لـما فـي صدور الـمؤمنـين, ووَقْرٌ فـي آذان الـمكذّبـين, وعمي لأبصار الـجاحدين, وحجة لله بـالغة علـى الكافرين فـالـمؤمن به مهتد, والكافر به مـحجوج.

وقوله: هُدًى يحتـمل أوجها من الـمعانـي أحدها: أن يكون نصبـا لـمعنى القطع من الكتاب لأنه نكرة والكتاب معرفة, فـيكون التأويـل حينئذٍ: الـم ذلك الكتاب هاديا للـمتقـين. و«ذلك» مرفوع ب«الـم», و«الـم» به, و«الكتاب» نعت ل«ذلك». وقد يحتـمل أن يكون نصبـا علـى القطع من راجع ذكر الكتاب الذي فـي «فـيه», فـيكون معنى ذلك حينئذٍ: الـم الذي لا ريب فـيه هاديا. وقد يحتـمل أن يكون أيضا نصبـا علـى هذين الوجهين, أعنـي علـى وجه القطع من الهاء التـي فـي «فـيه», ومن الكتاب علـى أن «الـم» كلام تام, كما قال ابن عبـاس. إن معناه: أنا الله أعلـم. ثم يكون

«ذلك الكتاب» خبرا مستأنفـا, ويرفع حينئذٍ الكتاب ب«ذلك» و«ذلك» بـالكتاب, ويكون «هدى» قطعا من الكتاب, وعلـى أن يرفع «ذلك» بـالهاء العائدة علـيه التـي فـي «فـيه», والكتاب نعت له, والهدى قطع من الهاء التـي فـي «فـيه». وإن جعل الهدى فـي موضع رفع لـم يجز أن يكون «ذلك الكتاب» إلا خبرا مستأنفـا و«الـم» كلاما تاما مكتفـيا بنفسه إلاّ من وجه واحد وهو أن يرفع حينئذٍ «هدى» بـمعنى الـمدح كما قال الله جل وعز: {الـم تِلْكَ آيَاتُ الكِتابِ الـحَكِيـمِ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْـمُـحْسِنِـينَ} فـي قراءة من قرأ «رحمة» بـالرفع علـى الـمدح للآيات.

والرفع فـي «هدى» حينئذٍ يجوز من ثلاثة أوجه, أحدها: ما ذكرنا من أنه مدح مستأنف. والآخر: علـى أن يجعل الرافع «ذلك», والكتاب نعت ل«ذلك». والثالث: أن يجعل تابعا لـموضع «لا ريب فـيه», ويكون «ذلك الكتاب» مرفوعا بـالعائد فـي «فـيه», فـيكون كما قال تعالـى ذكره: وَهَذَا كتابٌ أنْزَلْنَاهُ مُبـارَكٌ.

وقد زعم بعض الـمتقدمين فـي العلـم بـالعربـية من الكوفـيـين أن «الـم» رافع «ذلك الكتاب» بـمعنى: هذه الـحروف من حروف الـمعجم, ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إلـيك. ثم نقض ذلك من قوله فأسرع نقضَه, وهدم ما بنى فأسرع هدمَه, فزعم أن الرفع فـي «هدى» من وجهين والنصب من وجهين, وأن أحد وجهي الرفع أن يكون «الكتاب» نعتا ل«ذلك», و«الهدى» فـي موضع رفع خبر ل«ذلك» كأنك قلت: ذلك لا شك فـيه. قال: وإن جعلت «لا ريب فـيه» خبره رفعت أيضا «هدى» بجعله تابعا لـموضع «لا ريب فـيه» كما قال الله جل ثناؤه: {وَهَذَا كِتابٌ أنْزَلْنَاهُ مُبـارَكٌ} كأنه قال: وهذا كتاب هدى من صفته كذا وكذا. قال: وأما أحد وجهي النصب, فأن تـجعل «الكتاب» خبرا ل«ذلك» وتنصب «هدى» علـى القطع لأن «هدى» نكرة اتصلت بـمعرفة وقد تـمّ خبرها فتنصبها, لأن النكرة لا تكون دلـيلاً علـى معرفة, وإن شئت نصبت «هدى» علـى القطع من الهاء التـي فـي «فـيه» كأنك قلت: لا شكّ فـيه هاديا.

قال أبو جعفر: فترك الأصل الذي أصّله فـي «الـم» وأنها مرفوعة ب«ذلك الكتاب» ونبذه وراء ظهره. واللازم له علـى الأصل الذي كان أصّله أن لا يجيز الرفع فـي «هدى» بحال إلا من وجه واحد, وذلك من قبل الاستئناف إذ كان مدحا. فأما علـى وجه الـخبر لذلك, أو علـى وجه الإتبـاع لـموضع «لا ريب فـيه», فكان اللازم له علـى قوله إن يكون خطأ, وذلك أن «الـم» إذا رفعت «ذلك الكتاب» فلا شك أن «هدى» غير جائز حينئذٍ أن يكون خبرا ل«ذلك» بـمعنى الرافع له, أو تابعا لـموضع لا ريب فـيه, لأن موضعه حينئذٍ نصب لتـمام الـخبر قبله وانقطاعه بـمخالفته إياه عنه. ه 1القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

لِلْـمُتّقِـينَ.

101ـ حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي عن سفـيان, عن رجل, عن الـحسن قوله: لِلْـمُتّقِـينَ قال: اتقوا ما حرم علـيهم وأدّوا ما افترض علـيهم.

102ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: لِلْـمُتّقِـينَ أي الذين يحذرون من الله عز

وجل عقوبته فـي ترك ما يعرفون من الهدى, ويرجون رحمته بـالتصديق بـما جاء به.
103ـ حدثنـي موسى بن هارون قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: هُدى لِلْـمُتّقِـينَ قال: هم الـمؤمنون.
104ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا أبو بكر بن عياش, قال: سألنـي الأعمش عن الـمتقـين, قال: فأجبته, فقال لـي: سل عنها الكلبـي فسألته فقال: الذين يجتنبون كبـائر الإثم. قال: فرجعت إلـى الأعمش, فقال: نرى أنه كذلك ولـم ينكره.
105ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم الطبري, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج عن عبد الرحمن بن عبد الله, قال: حدثنا عمر أبو حفص, عن سعيد بن أبـي عروبة, عن قتادة: هُدًى لِلْـمُتّقِـينَ هم مَنْ نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم فقال: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بـالغَيْبِ وَيُقِـيـمُونَ الصّلاةَ ومِـمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.
106ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: لِلْـمُتّقِـينَ قال: الـمؤمنـين الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعتـي.
وأولـى التأويلات بقول الله جل ثناؤه: هُدًى لِلْـمُتّقِـينَ تأويـل من وصف القوم بأنهم الذين اتقوا الله تبـارك وتعالـى فـي ركوب ما نهاهم عن ركوبه, فتـجنبوا معاصيه واتقوه فـيـما أمرهم به من فرائضه فأطاعوه بأدائها. وذلك أن الله عز وجل إنـما وصفهم بـالتقوى فلـم يحصر تقواهم إياه علـى بعضها من أهل منهم دون بعض. فلـيس لأحد من الناس أن يحصر معنى ذلك علـى وصفهم بشيء من تقوى الله عز وجل دون شيء إلا بحجة يجب التسلـيـم لها, لأن ذلك من صفة القوم لو كان مـحصورا علـى خاصّ من معانـي التقوى دون العام منها لـم يَدَع الله جل ثناؤه بـيان ذلك لعبـاده, إما فـي كتابه, وإما علـى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذْ لـم يكن فـي العقل دلـيـل علـى استـحالة وصفهم بعموم التقوى. فقد تبـين إذا بذلك فساد قول من زعم أن تأويـل ذلك إنـما هو: الذين اتقوا الشرك وبرءوا من النفـاق لأنه قد يكون كذلك وهو فـاسق غير مستـحق أن يكون من الـمتقـين. إلا أن يكون عند قائل هذا القول معنى النفـاق ركوب الفواحش التـي حرمها الله جل ثناؤه وتضيـيع فرائضه التـي فرضها علـيه, فإن جماعة من أهل العلـم قد كانت تسمي من كان يفعل ذلك منافقا, فـيكون وإن كان مخالفـا فـي تسميته من كان كذلك بهذا الاسم مصيبـا تأويـل قول الله عز وجل للـمتقـين.

الآية : 3

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاةَ وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }
107ـ حدثنا مـحمد بن حميد الرازي, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ قال: يصدقون.

حدثنـي يحيى بن عثمان بن صالـح السهمي, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: يُؤْمِنُونَ يصدّقون.

108ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: يُؤْمِنُونَ يخشون.

109ـ حدثنا مـحمد بن عبد الأعلـى الصنعانـي, قال: حدثنا مـحمد بن ثور عن معمر, قال: قال الزهري: الإيـمان: العمل.

110ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر عن أبـيه عن العلاء بن الـمسيب بن رافع, عن أبـي إسحاق, عن أبـي الأحوص عن عبد الله, قال: الإيـمان: التصديق.

ومعنى الإيـمان عند العرب: التصديق, فـيُدْعَى الـمصدّق بـالشيء قولاً مؤمنا به, ويُدْعَى الـمصدّق قوله بفعله مؤمنا. ومن ذلك قول الله جل ثناؤه: وَما أنْتَ بِـمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِـينَ يعنـي: وما أنت بـمصدق لنا فـي قولنا. وقد تدخـل الـخشية لله فـي معنى الإيـمان الذي هو تصديق القول بـالعمل. والإيـمان كلـمة جامعة للإقرار بـالله وكتبه ورسله, وتصديق الإقرار بـالفعل. وإذا كان ذلك كذلك, فـالذي هو أولـى بتأويـل الآية وأشبه بصفة القوم: أن يكونوا موصوفـين بـالتصديق بـالغيب, قولاً, واعتقادا, وعملاً, إذ كان جل ثناؤه لـم يحصرهم من معنى الإيـمان علـى معنى دون معنى, بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شيء من معانـية أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل. القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بـالغَيْبِ.

111ـ حدثنا مـحمد بن حميد الرازي, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: بـالغيب قال: بـما جاء به, يعنـي من الله جل ثناؤه.

112ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي: بـالغيب أما الغيب: فما غاب عن العبـاد من أمر الـجنة وأمر النار, وما ذكر الله تبـارك وتعالـى فـي القرآن. لـم يكن تصديقهم بذلك يعنـي الـمؤمنـين من العرب من قِبَلِ أصل كتاب أو علـم كان عندهم.

113ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان عن عاصم, عن زر, قال: الغيب: القرآن.

114ـ حدثنا بشر بن معاذ العقدي, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد بن أبـي عروة, عن قتادة فـي قوله: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بـالغَيْب قال: آمنوا بـالـجنة والنار والبعث بعد الـموت وبـيوم القـيامة, وكل هذا غيب.

115ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بـالغَيْبِ: آمنوا بـالله وملائكته ورسله والـيوم الآخر وجنته وناره ولقائه, وآمنوا بـالـحياة بعد الـموت, فهذا كله غيب. وأصل الغيب: كل ما غاب عنك من شيء, وهو من قولك: غاب فلان يغيب غيبـا.

وقد اختلف أهل التأويـل فـي أعيان القوم الذين أنزل الله جل ثناؤه هاتـين الآيتـين من أول هذه السورة فـيهم, وفـي نعتهم وصفتهم التـي وصفهم بها

من إيـمانهم بـالغيب, وسائر الـمعانـي التـي حوتها الآيتان من صفـاتهم غيره. فقال بعضهم: هم مؤمنوا العرب خاصة, دون غيرهم من مؤمنـي أهل الكتاب. واستدلوا علـى صحة قولهم ذلك وحقـيقة تأويـلهم بـالآية التـي تتلو هاتـين الآيتـين, وهو قول الله عز وجل: {وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إِلَـيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}. قالوا: فلـم يكن للعرب كتاب قبل الكتاب الذي أنزله الله عز وجل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم تدين بتصديقه والإقرار والعمل به, وإنـما كان الكتاب لأهل الكتابـين غيرها. قالوا: فلـما قص الله عز وجل نبأ الذين يؤمنون بـما أنزل إلـى مـحمد وما أنزل من قبله بعد اقتصاصه نبأ الـمؤمنـين بـالغيب, علـمنا أن كل صنف منهم غير الصنف الآخر, وأن الـمؤمنـين بـالغيب نوع غير النوع الـمصدّق بـالكتابـين اللذين أحدهما منزل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم, والآخر منهما علـى من قبله من رسل الله تعالـى ذكره. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك صح ما قلنا من أن تأويـل قول الله تعالـى: {الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بـالغَيْبِ} إنـما هم الذين يؤمنون بـما غاب عنهم من الـجنة والنار والثواب والعقاب والبعث, والتصديق بـالله وملائكته وكتبه ورسله وجميع ما كانت العرب لا تدين به فـي جاهلـيتها, بـما أوجب الله جل ثناؤه علـى عبـاده الدينونة به دون غيرهم. ذكر من قال ذلك:

116ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم أما: الذين يؤمنون بـالغيب فهم الـمؤمنون من العرب, {وَيقِـيـمُونَ الصلاةَ وَمِـمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ} أما الغيب: فما غاب عن العبـاد من أمر الـجنة والنار, وما ذكر الله فـي القرآن. لـم يكن تصديقهم بذلك من قِبَلِ أصلِ كتابٍ أو علـم كان عندهم. {وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إِلَـيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِـالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} هؤلاء الـمؤمنون من أهل الكتاب.

وقال بعضهم: بل نزلت هذه الآيات الأربع فـي مؤمنـي أهل الكتاب خاصة, لإيـمانهم بـالقرآن عند إخبـار الله جل ثناؤه إياهم فـيه عن الغيوب التـي كانوا يخفونها بـينهم ويسرّونها, فعلـموا عند إظهار الله جل ثناؤه نبـيه صلى الله عليه وسلم علـى ذلك منهم فـي تنزيـله أنه من عند الله جل وعز, فآمنوا بـالنبـي صلى الله عليه وسلم وصدقوا بـالقرآن وما فـيه من الإخبـار عن الغيوب التـي لا علـم لهم بها لـما استقرّ عندهم بـالـحجة التـي احتـجّ الله تبـارك وتعالـى بها علـيهم فـي كتابه, من الإخبـار فـيه عما كانوا يكتـمونه من ضمائرهم أن جميع ذلك من عند الله.

وقال بعضهم: بل الآيات الأربع من أول هذه السورة أنزلت علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم بوصف جميع الـمؤمنـين الذين ذلك صفتهم من العرب والعجم وأهل الكتابـين و سواهم, وإنـما هذه صفة صنف من الناس, والـمؤمن بـما أنزل الله علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله هو الـمؤمن بـالغيب. قالوا: وإنـما وصفهم الله بـالإيـمان بـما أنزل إلـى مـحمد وبـما أنزل إلـى من قبله بعد تَقَضّي وصفه إياهم بـالإيـمان بـالغيب لأن وصفه إياهم بـما وصفهم به من الإيـمان بـالغيب كان معنـيا به أنهم يؤمنون بـالـجنة والنار والبعث, وسائر الأمور التـي كلفهم الله جل ثناؤه بـالإيـمان بها مـما لـم يروه ولـم يأت بَعْدُ مـما هو آت, دون الإخبـار عنهم

أنهم يؤمنون بـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم ومن قبله من الرسل والكتب. قالوا: فلـما كان معنى قوله: {وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إلَـيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} غير موجود فـي قوله: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـالغَيْبِ كانت الـحاجة من العبـاد إلـى معرفة صفتهم بذلك لـيعرفهم نظير حاجتهم إلـى معرفتهم بـالصفة التـي وصفوا بها من إيـمانهم بـالغيب لـيعلـموا ما يرضي الله من أفعال عبـاده, ويحبه من صفـاتهم, فـيكونوا به إن وفقهم له ربهم. مؤمنـين.
ذكر من قال ذلك:

117ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو بن العبـاس البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخـلد, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون الـمكي, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: أربع آيات من سورة البقرة فـي نعت الـمؤمنـين وآيتان فـي نعت الكافرين وثلاث عشرة فـي الـمنافقـين.

حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد بـمثله.

وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال حدثنا موسى بن مسعود, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

118ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه عن الربـيع بن أنس, قال: أربع آيات من فـاتـحة هذه السورة يعنـي سورة البقرة فـي الذين آمنوا, وآيتان فـي قادة الأحزاب.

وأولـى القولـين عندي بـالصواب وأشبههما بتأويـل الكتاب, القول الأول, وهو: أن الذين وصفهم الله تعالـى ذكره بـالإيـمان بـالغيب, وما وصفهم به جل ثناؤه فـي الآيتـين الأوّلَتـين غير الذين وصفهم بـالإيـمان بـالذي أنزل علـى مـحمد والذي أنزل إلـى من قبله من الرسل لـما ذكرت من العلل قبل لـمن قال ذلك, ومـما يدل أيضا مع ذلك علـى صحة هذا القول إنه جَنّسَ بعد وصف الـمؤمنـين بـالصفتـين اللتـين وصف, وبعد تصنـيفه لـي كل صنف منهما علـى ما صنف الكفـار جِنْسَين, فجعل أحدهما مطبوعا علـى قلبه مختوما علـيه مأيوسا من إيـمانه, والآخر منافقا يرائي بإظهار الإيـمان فـي الظاهر, ويستسرّ النفـاق فـي البـاطن, فصير الكفـار جنسين كما صير الـمؤمنـين فـي أول السورة جنسين. ثم عرّف عبـاده نعت كل صنف منهم وصفتهم وما أعدّ لكل فريق منهم من ثواب أو عقاب, وذمّ أهل الذمّ منهم, وشكر سعي أهل الطاعة منهم. القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{ويُقِـيـمُونَ}.

إقامتها: أداؤها بحدودها وفروضها والواجب فـيها علـى ما فُرضت علـيه, كما يقال: أقام القوم سوقهم, إذا لـم يعطلوها من البـيع والشراء فـيها, وكما قال الشاعر:

أقَمْنا لأهْلِ العِرَاقَـيْنِ سُوقَ الضّضِرابِ فخَافُوا ووَلّوْا جَمِيعَا

119ـ وكما حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَيُقِـيـمُونَ الصّلاةَ قال: الذين يقـيـمون الصلاة بفروضها.

120ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَيُقِـيـمُونَ الصّلاةَ قال: إقامة الصلاة: تـمام الركوع والسجود والتلاوة والـخشوع والإقبال علـيها فـيها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {الصّلاةَ}.

121ـ حدثنـي يحيى بن أبـي طالب, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا جويبر عن الضحاك فـي قوله: الّذِينَ يُقِـيـمُونَ الصّلاةَ يعنـي الصلاة الـمفروضة.

وأما الصلاة فـي كلام العرب فإنها الدعاء كما قال الأعشى:

لَهَا حَارِسٌ لا يَبْرَحُ الدّهْرَ بَـيْتَهَاوَإنْ ذُبِحَتْ صَلّـى عَلَـيْهَا وَزَمْزَما

يعنـي بذلك: دعا لها, وكقول الآخر أيضا:

وَقابَلَها الرّيحَ فـي دَنّهاوَصَلّـى علـى دَنّها وَارْتَسَمَ

وأرى أن الصلاة الـمفروضة سميت صلاة لأن الـمصلـي متعرّض لاستنـجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه فـيها من حاجاته تعرض الداعي بدعائه ربه استنـجاح حاجاته وسؤله. القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {ومِـمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ}.

اختلف الـمفسرون فـي تأويـل ذلك, فقال بعضهم بـما:

122ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: ومِـمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ قال: يؤتون الزكاة احتسابـا بها.

123ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, عن معاوية, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: ومـمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقوُنَ قال: زكاة أموالهم.

124ـ حدثنـي يحيى بن أبـي طالب, قال: حدثنا يزيد, قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك: وَمِـمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ قال: كانت النفقات قربـات يتقرّبون بها إلـى الله علـى قدر ميسورهم وجهدهم, حتـى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات فـي سورة براءة, مـما يذكر فـيهن الصدقات, هن الـمثبتات الناسخات.

وقال بعضهم بـما:

125ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: ومـمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ هي نفقة الرجل علـى أهله, وهذا قبل أن تنزل الزكاة.

وأولـى التأويلات بـالآية وأحقها بصفة القوم أن يكونوا كانوا لـجميع اللازم لهم فـي أموالهم, مؤدين زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل وعيال وغيرهم, مـمن تـجب علـيهم نفقته بـالقرابة والـملك وغير ذلك لأن الله جل ثناؤه عمّ وصفهم, إذ وصفهم بـالإنفـاق مـما رزقهم, فمدحهم بذلك من صفتهم, فكان معلوما أنه إذ لـم يخصص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات الـمـحمود علـيها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره أنهم موصوفون بجميع معانـي النفقات الـمـحمود علـيها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم, وذلك الـحلال منه الذي لـم يشبه حرام.

الآية : 4

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{والّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }

قد مضى البـيان عن الـمنعوتـين بهذا النعت, وأيّ أجناس الناس هم. غير أنا نذكر ما روي فـي ذلك عمن روي عنه فـي تأويـله قول:

126ـ فحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: {وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إلَـيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} أي يصدقونك بـما جئت به من الله جل وعز, وما جاء به من قبلك من الـمرسلـين, لا يفرقون بـينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من عند ربهم.

127ـ حدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إلَـيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبـالاَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ هؤلاء الـمؤمنون من أهل الكتاب. القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

وبـالاَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

قال أبو جعفر: أما الاَخرة, فإنها صفة للدار, كما قال جل ثناؤه: وَإِنّ الدّارَ الاَخِرَةِ لَهِيَ الـحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ وإنـما وصفت بذلك لـمصيرها آخرة لأولـى كانت قبلها كما تقول للرجل: أنعمت علـيك مرة بعد أخرى فلـم تشكر لـي الأولـى ولا الاَخرة. وإنـما صارت الاَخرة آخرة للأولـى, لتقدم الأولـى أمامها, فكذلك الدار الاَخرة سميت آخرة لتقدم الدار الأولـى أمامها, فصارت التالـية لها آخرة. وقد يجوز أن تكون سميت آخرة لتأخرها عن الـخـلق, كما سميت الدنـيا دنـيا لدنوّها من الـخـلق. وأما الذي وصف الله جل ثناؤه به الـمؤمنـين بـما أنزل إلـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم, وما أنزل إلـى من قبله من الـمرسلـين من إيقانهم به من أمر الاَخرة, فهو إيقانهم بـما كان الـمشركون به جاحدين, من البعث والنشر والثواب والعقاب والـحساب والـميزان, وغير ذلك مـما أعدّ الله لـخـلقه يوم القـيامة. كما:

128ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن مـحمد بن إسحاق عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وبـالاَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أي بـالبعث والقـيامة والـجنة والنار والـحساب والـميزان, أي لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بـما كان قبلك, ويكفرون بـما جاءك من ربك.

وهذا التأويـل من ابن عبـاس قد صرّح عن أن السورة من أولها وإن كانت الاَيات التـي فـي أولها من نعت الـمؤمنـين تعريض من الله عز وجل بذم الكفـار أهل الكتاب, الذين زعموا أنهم بـما جاءت به رسل الله عز وجل الذين كانوا قبل مـحمد صلوات الله علـيهم وعلـيه مصدقون وهم بـمـحمد علـيه الصلاة والسلام مكذبون, ولـما جاء به من التنزيـل جاحدون, ويدعون مع جحودهم ذلفك أنهم مهتدون وأنه لن يدخـل الـجنة إلا من كان هودا أو نصارى. فأكذب الله جل ثناؤه ذلك من قـيـلهم بقوله: {الـم ذَلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِـيهِ هُدًى لِلْـمُتّقِـينَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بـالغَيْبِ وَيُقِـيـمُونَ الصّلاةَ ومـمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَا أُنْزِلَ إلَـيكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبـالاَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}. وأخبر جل ثناؤه عبـاده أن هذا الكتاب هدى لأهل الإيـمان بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به الـمصدقـين بـما أنزل إلـيه

وإلـى من قبله من رسله من البـينات والهدى خاصة, دون من كذب بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به, وادعى أنه مصدق بـمن قبل مـحمد علـيه الصلاة والسلام من الرسل وبـما جاء به من الكتب. ثم أكد جل ثناؤه أمر الـمؤمنـين من العرب ومن أهل الكتاب الـمصدقـين بـمـحمد علـيه الصلاة والسلام وبـما أنزل إلـيه وإلـى من قبله من الرسل بقوله: {أُولَئِكَ علـى هدَىً مِنْ رَبّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الـمُفْلِـحُونَ} فأخبر أنهم هم أهل الهدى والفلاح خاصة دون غيرهم, وأن غيرهم هم أهل الضلال والـخسار.

الآية : 5

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{أُوْلَـَئِكَ عَلَىَ هُدًى مّن رّبّهِمْ وَأُوْلَـَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

اختلف أهل التأويـل فـيـمن عنى الله جل ثناؤه بقوله: أُولَئِكَ عَلَـى هُدًى مِنْ رَبّهِمْ فقال بعضهم: عَنَى بذلك أهل الصفتـين الـمتقدمتـين, أعنـي الـمؤمنـين بـالغيب من العرب والـمؤمنـين وبـما أنزل إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم وإلـى من قبله من الرسل, وإياهم جميعا وصف بأنهم علـى هدى منهم وأنهم هم الـمفلـحون. ذكر من قال ذلك من أهل التأويـل:

129ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: أما الذين يؤمنون بـالغيب, فهم الـمؤمنون من العرب, والذين يؤمنون بـما أنزل إلـيك: الـمؤمنون من أهل الكتاب. ثم جمع الفريقـين فقال: أُولَئِكَ علـى هدَىً مِنْ رَبّهِمْ وأُولَئِكَ هُمُ الـمُفْلِـحُونَ.

وقال بعضهم: بل عَنَى بذلك الـمتقـين الذين يؤمنون بـالغيب وهم الذين يؤمنون بـما أنزل إلـى مـحمد, وبـما أنزل إلـى من قبله من الرسل.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الذي يؤمنون بـما أنزل إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما أنزل إلـى من قبله من الرسل.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الذين يؤمنون بـما أنزل إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما أنزل إلـى من قبله, وهم مؤمنوا أهل الكتاب الذين صدقوا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به, وكانوا مؤمنـين من قبلُ بسائر الأنبـياء والكتب.

وعلـى هذا التأويـل الاَخر, يحتـمل أن يكون: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إلَـيْكَ فـي مـحل خفض, ومـحل رفع فأما الرفع فـيه فإنه يأتـيها من وجهين:
أحدهما من قبل العطف علـى ما فـي يُؤْمِنُونَ بِـالغَيْبِ من ذكر «الذين».
والثانـي: أن يكون خبر مبتدأ, ويكون: أُولَئِكَ علـى هُدىً مِنْ رَبّهِمْ رافعها.
وأما الـخفض فعلـى العطف علـى الـمُتّقِـينَ. وإذا كانت معطوفة علـى «الذين» اتـجه لها وجهان من الـمعنى, أحدهما: أن تكون هي «والذين» الأولـى من صفة الـمتقـين, وذلك علـى تأويـل من رأى أن الاَيات الأربع بعد الـم نزلت فـي صنف واحد من أصناف الـمؤمنـين. والوجه الثانـي: أن تكون «الذين» الثانـية معطوفة فـي الإعراب علـى «الـمتقـين» بـمعنى الـخفض, وهم فـي الـمعنى صنف غير الصنف الأول. وذلك علـى مذهب من رأى أن الذين نزلت فـيهم الاَيتان الأوّلتان من الـمؤمنـين بعد قوله الـم غير الذين نزلت فـيهم الاَيتان الاَخرتان اللتان تلـيان الأوّلتـين. وقد يحتـمل أن تكون «الذين» الثانـية مرفوعة فـي هذا الوجه بـمعنى الاستئناف, إذ كانت مبتدأ

بها بعد تـمام آية وانقضاء قصة. وقد يجوز الرفع فـيها أيضا بنـية الاستئناف إذ كانت فـي مبتدأ آية وإن كانت من صفة الـمتقـين. فـالرفع إذا يصح فـيها من أربعة أوجه, والـخفض من وجهين.

وأولـى التأويلات عندي بقوله: أُولَئِكَ عَلـى هُدىً مِنْ رَبّهِمْ ما ذكرت من قول ابن مسعود وابن عبـاس, وأن تكون «أولئك» إشارة إلـى الفريقـين, أعنـي الـمتقـين وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إلَـيْكَ, وتكون «أولئك» مرفوعة بـالعائد من ذكرهم فـي قوله: علـى هُدًى مِن رَبّهِمْ وأن تكون «الذين» الثانـية معطوفة علـى ما قبل من الكلام علـى ما قد بـيناه.

وإنـما رأينا أن ذلك أولـى التأويلات بـالآية, لأن الله جل ثناؤه نعت الفريقـين بنعتهم الـمـحمود ثم أثنى علـيهم فلـم يكن عزّ وجل لـيخص أحد الفريقـين بـالثناء مع تساويهما فـيـما استـحقا به الثناء من الصفـات, كما غير جائز فـي عدله أن يتساويا فـيـما يتسحقان به الـجزاء من الأعمال فـيخص أحدهما بـالـجزاء دون الاَخر ويحرم الاَخر جزاء عمله, فكذلك سبـيـل الثناء بـالأعمال لأن الثناء أحد أقسام الـجزاء. وأما معنى قوله: أُولَئِكَ علـى هُدًى مِنْ رَبّهِمْ فإن معنى ذلك أنهم علـى نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم وتوفـيقه لهم كما:

130ـ حدثنـي ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: أُولَئِكَ علـى هُدىً مِنْ رَبّهِمْ أي علـى نور من ربهم, واستقامة علـى ما جاءهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأُولَئِكَ هُمُ الـمُفْلِـحُونَ.

وتأويـل قوله: وأُولَئِكَ هُمُ الـمُفْلِـحُونَ أي أولئك هم الـمُنْـجِحُون الـمدركون ما طلبوا عند الله تعالـى ذكره بأعمالهم وإيـمانهم بـالله وكتبه ورسله, من الفوز بـالثواب, والـخـلود فـي الـجنان, والنـجاة مـما أعد الله تبـارك وتعالـى لأعدائه من العقاب. كما:

131ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة. قال: حدثنا ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وأُولَئِكَ هُمُ الـمُفْلِـحُونَ أي الذين أدركوا ما طلبوا, ونـجوا من شرّ ما منه هربوا. ومن الدلالة علـى أن أحد معانـي الفلاح إدراك الطلبة والظفر بـالـحاجة, قول لبـيد بن ربـيعة:

اعْقِلِـي إنْ كُنْتِ لَـمّا تَعْقِلِـيولَقَدْ أفْلَـحَ مَنْ كانَ عَقَلْ

يعنـي ظفر بحاجته وأصاب خيرا. ومنه قول الراجز:

عَدِمْتُ أُمّا وَلَدَتْ رَبـاحاجاءَتْ بِهِ مُفَرْكَحا فِرْكَاحَا
تَـحْسَبُ أنْ قَدْ وَلَدَتْ نَـجاحاأشْهَدُ لاَ يَزِيدُهَا فَلاحا

يعنـي خيرا وقربـا من حاجتها. والفلاح: مصدر من قولك: أفلـح فلان يُفلـح إفلاحا, وفلاحا, وفَلَـحا. والفلاح أيضا البقاء, ومنه قول لبـيد:

نـحُلّ بلادا كُلّها حُلّ قَبْلَنَاوَنَرْجُو الفَلاَحَ بَعْدَ عادٍ وحِمْيَرِ

يريد البقاء. ومنه أيضا قول عَبـيد:

أفْلِـحْ بـما شِئْتَ فَقَدْ يَبْلُغُ بـالضّعْفِ وَقَدْ يُخْدَعُ ألارِيبُ

يريد: عش وابق بـما شئت. وكذلك قول نابغة بنـي ذبـيان:

وكُلّ فَتًـى سَتَشْعَبُهُ شَعُوبٌوَإنْ أثْرَى وَإنْ لاقـى فَلاحا

أي نـجاحا بحاجته وبقاءً.

الآية : 6
القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{إِنّ الّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }
اختلف أهل التأويـل فـيـمن عنى بهذه الآية, وفـيـمن نزلت, فكان ابن عبـاس يقول, كما:

132ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: إنّ الّذِينَ كَفَرُوا أي بـما أنزل إلـيك من ربك, وإن قالوا إنا قد آمنا بـما قد جاءنا من قبلك. وكان ابن عبـاس يرى أن هذه الآية, نزلت فـي الـيهود الذين كانوا بنواحي الـمدينة علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم توبـيخا لهم فـي جحودهم نبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم, وتكذيبهم به, مع علـمهم به ومعرفتهم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلـيهم وإلـى الناس كافة.

وهذه الآية من أوضح الأدلة علـى فساد قول الـمنكرين تكلـيف ما لا يطاق إلا بـمعونة الله لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه ختـم علـى قلوب صنف من كفـار عبـاده وأسماعهم, ثم لـم يسقط التكلـيف عنهم ولـم يضع عن أحد منهم فرائضه ولـم يعذره فـي شيء مـما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الـختـم والطبع علـى قلبه وسمعه, بل أخبر أن لـجميعهم منه عذابـا عظيـما علـى تركهم طاعته فـيـما أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه مع حتـمه القضاء مع ذلك بأنهم لا يؤمنون.

الآية : 7
القول فـي تأويـل جل ثناؤه:{خَتَمَ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِهمْ وَعَلَىَ سَمْعِهِمْ وَعَلَىَ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ }.
وقوله: وَعلـى أبْصَارِهِمْ غشِاوَة خبر مبتدأ بعد تـمام الـخبر عما ختـم الله جل ثناؤه علـيه من جوارح الكفـار الذين مضت قصصهم, وذلك أن غِشاوَة مرفوعة بقوله: وَعلـى أبْصَارِهِمْ فذلك دلـيـل علـى أنه خبر مبتدأ, وأن قوله: خَتـمَ اللّهُ علـى قُلُوبِهِمْ قد تناهى عند قوله: وَعلـى سَمْعِهِمْ. وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا لـمعنـيـين, أحدهما: اتفـاق الـحجة من القراء والعلـماء علـى الشهادة بتصحيحها, وانفراد الـمخالف لهم فـي ذلك وشذوذه عما هم علـى تـخطئته مـجمعون وكفـى بإجماع الـحجة علـى تـخطئة قراءته شاهدا علـى خطئها. والثانـي: أن الـختـم غير موصوفة به العيون فـي شيء من كتاب الله, ولا فـي خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم, ولا موجود فـي لغة أحد من العرب. وقد قال تبـارك وتعالـى فـي سورة أخرى: وَختَـمَ علـى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ثم قال: وَجَعَلَ علـى بَصَرِهِ غِشاوَة فلـم يدخـل البصر فـي معنى الـختـم, وذلك هو الـمعروف فـي كلام العرب. فلـم يجز لنا ولا لأحد من الناس القراءة بنصب الغشاوة لـما وصفت من العلتـين اللتـين ذكرت, وإن كان لنصبها مخرج معروف فـي العربـية.
وبـما قلنا فـي ذلك من القول والتأويـل, رُوى الـحَبر عن ابن عبـاس.

133ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي الـحسين بن الـحسن, عن أبـيه, عن جده, عن ابن عبـاس: ختـم الله علـى قلوبهم وعلـى سمعهم والغشاوة علـى أبصارهم.

فإن قال قائل: وما وجه مخرج النصب فـيها؟ قـيـل له: إن نصبها بإضمار «جعل» كأنه قال: وجعل علـى أبصارهم غشاوة ثم أسقط «جعل» إذ كان فـي أول الكلام ما يدل علـيه. وقد يحتـمل نصبها علـى إتبـاعها موضع السمع إذ كان موضعه نصبـا, وإن لـم يكن حسنا إعادة العامل فـيه علـى «غشاوة» ولكن علـى إتبـاع الكلام بعضه بعضا, كما قال تعالـى ذكره: يَطُوفُ عَلَـيْهِمْ وُلْدَانٌ مُخَـلّدُونَ بأكْوَابٍ وأبـارِيقَ ثم قال: وَفَـاكِهَة مِـمّا يَتَـخَيّرُونَ وَلَـحْمِ طَيْرٍ مِـمّا يَشْتَهُونَ وحُورٍ عينٍ فخفض اللـحم والـحور علـى العطف به علـى الفـاكهة إتبـاعا لآخر الكلام أوّله. ومعلوم أن اللـحم لا يطاف به ولا بـالـحور, ولكن ذلك كما قال الشاعر يصف فرسه:

عَلَفْتُها تِبْنا وَماءً بـارِدًاحَتّـى شَتَتْ هَمّالَةً عَيْناها

ومعلوم أن الـماء يشرب ولا يعلف به, ولكنه نصب ذلك علـى ما وصفت قبل. وكما قال الآخر:

وَرَأيْتُ زَوْجَكِ فـي الوَغَىمُتَقَلّدًا سَيْفـا وَرُمْـحَا

وكان ابن جريج يقول فـي انتهاء الـخبر عن الـختـم إلـى قوله: وَعلـى سَمْعِهِمْ وابتداء الـخبر بعده بـمثل الذي قلنا فـيه, ويتأول فـيه من كتاب الله: فإنْ يَشأ اللّهُ يَخْتِـم علـى قَلْبِكَ.

134ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: حدثنا ابن جريج, قال: الـختـم علـى القلب والسمع, والغشاوة علـى البصر, قال الله تعالـى ذكره: فإنْ يَشأ اللّهُ يَخْتِـمْ علـى قَلْبِكَ وقال: وخَتَـمَ علـى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ علـى بَصَرِهِ غِشاوَةً والغشاوة فـي كلام العرب: الغطاء, ومنه قول الـحارث بن خالد بن العاص:

تَبِعْتُكَ إذْ عَيْنِـي عَلَـيْها غِشاوَةٌفَلـمّا انْـجَلَتْ قَطّعْتُ نَفْسِي ألُومُها

ومنه يقال: تغشاه الهم: إذا تـجلّله وركبه. ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:

هَلا سألْتِ بَنِـي ذُبْـيانَ ما حَسَبِـيإذَا الدّخانُ تَغَشّى الأشمَطَ البَرِمَا

يعنـي بذلك: إذا تـجلله وخالطه.

وإنـما أخبر الله تعالـى ذكره نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم عن الذين كفروا به من أحبـار الـيهود, أنه قد ختـم علـى قلوبهم وطبع علـيها فلا يعقلون لله تبـارك وتعالـى موعظة وعظهم بها فـيـما آتاهم من علـم ما عندهم من كتبه, وفـيـما حدّد فـي كتابه الذي أوحاه وأنزله إلـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم, وعلـى سمعهم فلا يسمعون من مـحمد صلى الله عليه وسلم نبـيّ الله تـحذيرا ولا تذكيرا ولا حجة أقامها علـيهم بنبوّته, فـيتذكروا ويحذروا عقاب الله عز وجل فـي تكذيبهم إياه, مع علـمهم بصدقه وصحة أمره وأعلـمه مع ذلك أن علـى أبصارهم غشاوة عن أن يبصروا سبـيـل الهدى فـيعلـموا قبح ما هم علـيه من الضلالة والردي.

وبنـحو ما قلنا فـي ذلك رُوي الـخبر عن جماعة من أهل التأويـل.

135ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: خَتَـمَ اللّهُ علـى قُلُوبِهِمْ وَعلـى سَمْعِهِمْ وَعلـى أبْصَارِهِمْ غِشاوَة أي عن الهدى أن يصيبوه أبدا بغير ما كذبوكَ به من الـحقّ الذي جاءك من ربك, حتـى يؤمنوا به, وإن آمنوا بكل ما كان قبلك.

136ـ حدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي

صالح عن ابن عباس, وعن مرة الهمداني, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: خَتَمَ اللّهُ علـى قُلُوبِهِمْ وَعلـى سَمْعِهِمْ يقول فلا يعقلون, ولا يسمعون. ويقول: وجعل علـى أبصارهم غشاوة, يقول: علـى أعينهم فلا يبصرون.

وأما آخرون فإنهم كانوا يتأوّلون أن الذين أخبر الله عنهم من الكفـار أنه فعل ذلك بهم هم قادة الأحزاب الذين قتلوا يوم بدر.

137ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس, قال: هاتان الاَيتان إلـي: وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيـمٌ هم: الّذِينَ بَدّلُوا نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرا وأحَلّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَار وهم الذين قتلوا يوم بدر فلـم يدخـل من القادة أحد فـي الإسلام إلا رجلان: أبو سفـيان بن حرب, والـحكم بن أبـي العاص.

138ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس, عن الـحسن, قال: أما القادة فلـيس فـيهم مـجيب, ولا ناج, ولا مهتد, وقد دللنا فـيـما مضى علـى أولـى هذين التأويـلـين بـالصواب كرهنا إعادته.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيـمٌ.

وتأويـل ذلك عندي كما قاله ابن عبـاس وتأوّله.

139ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: ولهم بـما هم علـيه من خلافك عذاب عظيـم, قال: فهذا فـي الأحبـار من يهود فـيـما كذّبوك به من الـحق الذي جاءك من ربك بعد معرفتهم.

الآية : 8

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَمِنَ النّاسِ مَن يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الاَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ }

قال أبو جعفر: أما قوله: وَمِنَ النّاسِ فإن فـي الناس وجهين: أحدهما أن يكون جمعا لا واحد له من لفظه, وإنـما واحده إنسان وواحدته إنسانة.

والوجه الاَخر: أن يكون أصله «أناس» أسقطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها, ثم دخـلتها الألف واللام الـمعرّفتان, فأدغمت اللام التـي دخـلت مع الألف فـيها للتعريف فـي النون, كما قـيـل فـي: لكنّ هُوَ اللّهُ رَبـي علـى ما قد بـينا فـي اسم الله الذي هو الله.

وقد زعم بعضهم أن الناس لغة غير أناس, وأنه سمع العرب تصغره نُوَيْس من الناس, وأن الأصل لو كان أناس لقـيـل فـي التصغير: أُنَـيْس, فردّ إلـى أصله.

وأجمع جميع أهل التأويـل علـى أن هذه الآية نزلت فـي قوم من أهل النفـاق, وأن هذه الصفة صفتهم. ذكر بعض من قال ذلك من أهل التأويـل بأسمائهم:

140ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالْـيَوْمِ الاَخِرِ وَما هُمْ بِـمُؤْمِنـينَ يعنـي الـمنافقـين من الأوس والـخزرج, ومن كان علـى

أمرهم. وقد سُمّي فـي حديث ابن عبـاس هذا أسماؤهم عن أبـيّ بن كعب, غير أنـي تركت تسميتهم كراهة إطالة الكتاب بذكرهم.

141ـ حدثنا الـحسين بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالْـيَوْمِ الآخِرِ وَما هُم بِـمُؤْمِنِـينَ حتـى بلغ: فَمَا رَبِحَتْ تِـجارَتُهُمْ وَما كَانُوا مُهْتَدِينَ قال: هذه فـي الـمنافقـين.

142ـ حدثنا مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: هذه الآية إلـى ثلاث عشرة فـي نعت الـمنافقـين.

حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

حدثنا سفـيان, قال: حدثنا أبـي, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد مثله.

143ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن إسماعيـل السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرّة, وعن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وَمِنَ الناسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِـمؤْمِنِـينَ هم الـمنافقون.

144ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, عن ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس فـي قوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالْـيَوْمِ الآخِرِ إلـى: فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرضا وَلَهُمُ عَذَابٌ أَلِـيـمٌ قال: هؤلاء أهل النفـاق.

145ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج فـي قوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ قال: هذا الـمنافق يخالف قولُه فعلَه وسرّه علانـيَته ومدخـلُه مخرجَه ومشهدُه مغيَبه.

وتأويـل ذلك أن الله جل ثناؤه لـمّا جمع لرسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم أمره فـي دار هجرته واستقر بها قرارُه وأظهر الله بها كلـمته, وفشا فـي دور أهلها الإسلام, وقهر بها الـمسلـمون من فـيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان, وذلّ بها من فـيها من أهل الكتاب أظهر أحبـار يهودها لرسول الله صلى الله عليه وسلم الضغائن وأبدوا له العداوة والشنآن حسدا وبغيا إلا نفرا منهم, هداهم الله للإسلام فأسلـموا, كما قال الله جل ثناؤه: وَدّ كَثِـيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَوْ يَردّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيـمانِكُمْ كُفّـارا حَسَدا منْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لَهُمْ الـحَقّ وطابقهم سرّا علـى معاداة النبـي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبغيهم الغوائل قومٌ من أراهط الأنصار الذي آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه وكانوا قد عتوا فـي شركهم وجاهلـيتهم قد سُمّوا لنا بأسمائهم, كرهنا تطويـل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم. وظاهروهم علـى ذلك فـي خفـاء غير جهار حذار القتل علـى أنفسهم والسبـاء من رسول اللهصلى الله عليه وسلم وأصحابه, وركونا إلـى الـيهود, لـما هم علـيه من الشرك وسوء البصيرة بـالإسلام. فكانوا إذا لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيـمان به من أصحابه, قالوا لهم حذارا علـى أنفسهم: إنا مؤمنون بـالله وبرسوله وبـالبعث, وأعطوهم بألسنتهم كلـمة الـحق لـيدرءوا عن أنفسهم حكم الله فـيـمن اعتقد ما هم علـيه مقـيـمون من الشرك لو أظهروا بألسنتهم ما هم معتقدوه من

شركهم, وإذا لقوا إخوانهم من الـيهود وأهل الشرك والتكذيب بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به فخـلوا بهم, قالوا: إنّا مَعَكُمْ إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءونَ فإياهم عنى جل ذكره بقوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الاَخِرِ وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ يعنـي بقوله تعالـى خبرا عنهم «آمّنا بـالله»: صدقنا بـالله. وقد دللنا علـى أن معنى التصديق فـيـما مضى قبل من كتابنا هذا. وقوله: وَبـالـيَوْمِ الاَخِرِ يعنـي بـالبعث يوم القـيامة. وإنـما سُمِي يوم القـيامة الـيوم الاَخرَ: لأنه آخر يوم, لا يوم بعده سواه.

وهذه الآية من أوضح الأدلة علـى فساد قول الـمنكرين تكلـيف ما لا يطاق إلا بـمعونة الله لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه ختـم علـى قلوب صنف من كفـار عبـاده وأسماعهم, ثم لـم يسقط التكلـيف عنهم ولـم يضع عن أحد منهم فرائضه ولـم يعذره فـي شيء مـما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الـختـم والطبع علـى قلبه وسمعه, بل أخبر أن لـجميعهم منه عذابـا عظيـما علـى تركهم طاعته فـيـما أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه مع حتـمه القضاء مع ذلك بأنهم لا يؤمنون.

فإن قال قائل: وكيف لا يكون بعده يوم, ولا انقطاع للاَخرة, ولا فناء, ولا زوال؟.

قـيـل: إن الـيوم عند العرب إنـما سمي يوما بلـيـلته التـي قبله, فإذا لـم يتقدم النهار لـيـل لـم يسمّ يوما, فـيوم القـيامة يوم لا لـيـل له بعده سوى اللـيـلة التـي قامت فـي صبـيحتها القـيامة, فذلك الـيوم هو آخر الأيام, ولذلك سماه الله جل ثناؤه: الـيَوْم الاَخر, ونعته بـالعقـيـم, ووصفه بأنه يوم عقـيـم لأنه لا لـيـل بعده.

وأما تأويـل قوله:: وَما هُمْ بِـمُؤْمنـينَ ونفـيه عنهم جل ذكره اسم الإيـمان, وقد أخبر عنهم أنهم قد قالوا بألسنتهم آمنّا بـالله وبـالـيوم الاَخر فإن ذلك من الله جل وعز تكذيب لهم فـيـما أخبروا عن اعتقادهم من الإيـمان والإقرار بـالبعث, وإعلام منه نبـيه صلى الله عليه وسلم أن الذي يبدونه له بأفواههم خلاف ما فـي ضمائر قلوبهم, وضد ما فـي عزائم نفوسهم. وفـي هذه الآية دلالة واضحة علـى بطول ما زعمته الـجهمية من أن الإيـمان هو التصديق بـالقول دون سائر الـمعانـي غيره. وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم فـي كتابه من أهل النفـاق أنهم بألسنتهم: آمَنّا بـاللّهِ وَبـالْـيَوْمِ الاَخرِ ثم نفـى عنهم أن يكونوا مؤمنـين, إذ كان اعتقادهم غير مصدق قـيـلهم ذلك. وقوله: وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ يعنـي بـمصدقـين فـيـما يزعمون أنهم به مصدقون.

الآية : 9

القول فـي تأويـل قوله تعالـى.

{يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ }

قال أبو جعفر: وخداع الـمنافق ربه والـمؤمنـين إظهاره بلسانه من القول والتصديق خلاف الذي فـي قلبه من الشك والتكذيب لـيدرأ عن نفسه بـما أظهر بلسانه حُكْمَ الله عز وجل اللازمَ من كان بـمثل حاله من التكذيب لو لـم يظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار من القتل والسبـاء, فذلك خداعه ربه وأهل الإيـمان بـالله.

فإن قال قائل: وكيف يكون الـمنافق لله وللـمؤمنـين مخادعا وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقـية؟ قـيـل: لا تـمتنع العرب أن تسمي من

أعطى بلسانه غير الذي هو فـي ضميره تقـية لـينـجو مـما هو له خائف, فنـجا بذلك مـما خافه مخادعا لـمن تـخـلص منه بـالذي أظهر له من التقـية, فكذلك الـمنافق سمي مخادعا لله ولـلـمؤمنـين بـاظهاره ما أظهر بلسانه تقـية مـما تـخـلص به من القتل والسبـاء والعذاب العاجل, وهو لغير ما أظهر مستبطن, وذلك من فعله وإن كان خداعا لـلـمؤمنـين فـي عاجل الدنـيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنـيتها ويسقـيها كأس سرورها, وهو موردها به حياض عطبها, ومـجرّعها به كأس عذابها, ومذيقها من غضب الله وألـيـم عقابه ما لا قبل لها به. فذلك خديعته نفسه ظنّا منه مع إساءته إلـيها فـي أمر معادها أنه إلـيها مـحسن, كما قال جل ثناؤه: وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ وَما يَشْعَرُونَ إعلاما منه عبـاده الـمؤمنـين أن الـمنافقـين بإساءتهم إلـى أنفسهم فـي إسخاطهم ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين, ولكنهم علـى عمياء من أمرهم مقـيـمون.

وبنـحو ما قلنا فـي تأويـل ذلك كان ابن زيد يقول.

146ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب قال: سألت عبد الرحمن بن زيد, عن قول الله جل ذكره: يُخادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا إلـى آخر الآية, قال: هؤلاء الـمنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا, أنهم مؤمنون بـما أظهروا.

وهذه الآية من أوضح الدلـيـل علـى تكذيب الله جل ثناؤه قول الزاعمين: إن الله لا يعذب من عبـاده إلا من كفر به عنادا, بعد علـمه بوحدانـيته, وبعد تقرّر صحة ما عاند ربه تبـارك وتعالـى علـيه من توحيده والإقرار بكتبه ورسله عنده لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عن الذين وصفهم بـما وصفهم به من النفـاق وخداعهم إياه والـمؤمنـين أنهم لا يشعرون أنهم مبطلون فـيـما هم علـيه من البـاطل مقـيـمون, وأنهم بخداعهم الذي يحسبون أنهم به يخادعون ربهم وأهل الإيـمان به مخدوعون. ثم أخبر تعالـى ذكره أن لهم عذابـا ألـيـما بتكذيبهم بـما كانوا يكذبونه من نبوّة نبـيه واعتقاد الكفر به, وبـما كانوا يكذبون فـي زعمهم أنهم مؤمنون, وهم علـى الكفر مصرّون.

فإن قال لنا قائل: قد علـمت أن الـمفـاعلة لا تكون إلا من فـاعلـين, كقولك: ضاربت أخاك, وجالست أبـاك إذا كان كل واحد مـجالس صاحبه ومضاربه. فأما إذا كان الفعل من أحدهما فإنـما يقال: ضربت أخاك وجلست إلـى أبـيك, فمن خادع الـمنافق فجاز أن يقال فـيه: خادع الله والـمؤمنـين. قـيـل: قد قال بعض الـمنسوبـين إلـى العلـم بلغات العرب: إن ذلك حرف جاء بهذه الصورة, أعنـي «يُخادع» بصورة «يُفـاعل» وهو بـمعنى «يَفْعل» فـي حروف أمثالها شاذّة من منطق العرب, نظير قولهم: قاتلك الله, بـمعنى قتلك الله.

ولـيس القول فـي ذلك عندي كالذي قال, بل ذلك من التفـاعل الذي لا يكون إلا من اثنـين كسائر ما يعرف من معنى «يُفـاعل ومُفـاعل» فـي كل كلام العرب, وذلك أن الـمنافق يخادع الله جل ثناؤه بكذبه بلسانه علـى ما قد تقدم وصفه, والله تبـارك اسمه خادعه بخذلانه عن حسن البصيرة بـما فـيه نـجاة نفسه فـي آجل معاده, كالذي أخبر فـي قوله: {وَلا يَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا أنّـمَا نُـمْلـي لَهُمْ خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ إنّـمَا نُـمْلِـي لَهُمْ لِـيَزْدادُوا إثْما} وبـالـمعنى الذي أخبر أنه فـاعل به فـي الآخرة بقوله: {يَوْمَ يَقُولُ

الـمُنافِقُونَ وَالـمُنافِقَاتُ لِلّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} الآية, فذلك نظير سائر ما يأتـي من معانـي الكلام بـيفـاعل ومفـاعل. وقد كان بعض أهل النـحو من أهل البصرة يقول: لا تكون الـمفـاعلة إلا من شيئين, ولكنه إنـما قـيـل: يخادعون الله عند أنفسهم بظنهم أن لا يعاقبوا, فقد علـموا خلاف ذلك فـي أنفسهم بحجة الله تبـارك اسمه الواقعة علـى خـلقه بـمعرفته وما يخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ. قال: وقد قال بعضهم: وما يخدعون يقول: يخدعون أنفسهم بـالتـخـلـية بها. وقد تكون الـمفـاعلة من واحد فـي أشياء كثـيرة. القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ.

إن قال لنا قائل: أولـيس الـمنافقون قد خدعوا الـمؤمنـين بـما أظهروا بألسنتهم من قـيـل الـحقّ عن أنفسهم وأموالهم وذراريهم حتـى سلـمت لهم دنـياهم وإن كانوا قد كانوا مخدوعين فـي أمر آخرتهم؟ قـيـل: خطأ أن يقال إنهم خدعوا الـمؤمنـين لأنا إذا قلنا ذلك أوجبنا لهم حقـيقة خدعة جازت لهم علـى الـمؤمنـين, كما أنا لو قلنا: قتل فلان فلانا, أوجبنا له حقـيقة قتل كان منه لفلان. ولكنا نقول: خادع الـمنافقون ربهم والـمؤمنـين, ولـم يخدعوهم بل خدعوا أنفسهم, كما قال جل ثناؤه, دون غيرها, نظير ما تقول فـي رجل قاتل آخر فقتل نفسه ولـم يقتل صاحبه: قاتل فلان فلانا ولـم يقتل إلا نفسه, فتوجب له مقاتلة صاحبه, وتنفـي عنه قتله صاحبه, وتوجب له قتل نفسه. فكذلك تقول: خادع الـمنافق ربه والـمؤمنـين, ولـم يخدع إلا نفسه, فتثبت منه مخادعة ربه والـمؤمنـين, وتنفـي عنه أن يكون خدع غير نفسه لأن الـخادع هو الذي قد صحت له الـخديعة ووقع منه فعلها.

فـالـمنافقون لـم يخدعوا غير أنفسهم, لأن ما كان لهم من مال وأهل فلـم يكن الـمسلـمون ملكوه علـيهم فـي حال خداعهم إياه عنه بنفـاقهم ولا قبلها فـيستنقذوه بخداعهم منهم, وإنـما دافعوا عنه بكذبهم وإظهارهم بألسنتهم غير الذي فـي ضمائرهم, ويحكم الله لهم فـي أموالهم وأنفسهم وذراريهم فـي ظاهر أمورهم بحكم ما انتسبوا إلـيه من الـملة, والله بـما يخفون من أمورهم عالـم. وإنـما الـخادع من خَتَلَ غيره عن شيئه, والـمخدوع غير عالـم بـموضع خديعة خادعه. فأما والـمخادَع عارف بخداع صاحبه إياه, وغير لاحقه من خداعه إياه مكروه, بل إنـما يتـجافـى للظان به أنه له مخادع استدراجا لـيبلغ غاية يتكامل له علـيه الـحجة للعقوبة التـي هو بها موقع عند بلوغه إياها. والـمستدرج غير عالـم بحال نفسه عند مستدرجه, ولا عارف بـاطلاعه علـى ضميره, وأن إمهال مستدرجيه إياه تركه معاقبته علـى جرمه لـيبلغ الـمخاتل الـمخادع من استـحقاقه عقوبة مستدرجه بكثرة إساءته وطول عصيانه إياه وكثرة صفح الـمستدرج وطول عفوه عنه أقصى غاية, فإنـما هو خادع نفسه لا شك دون من حدثته نفسه أنه له مخادع. ولذلك نفـى الله جل ثناؤه عن الـمنافق أن يكون خدعه غير نفسه, إذ كانت الصفة التـي وصفنا صفته. وإذ كان الأمر علـى ما وصفنا من خداع الـمنافق ربه وأهل الإيـمان به, وأنه غير سائر بخداعه ذلك إلـى خديعة صحيحة إلا لنفسه دون غيرها لـما يورطها بفعله من الهلاك والعطب, فـالواجب إذا أن يكون الصحيح من القراءة: وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ دون: «وما يخادعون», لأن لفظ الـمخادع غير موجب تثبـيت خديعة علـى صحة, ولفظ خادع موجب تثبـيت خديعة علـى صحة. ولا شك أن الـمنافق قد أوجب خديعة الله عز وجل لنفسه بـما ركب من خداعه ربه ورسوله

والـمؤمنـين بنفـاقه, فلذلك وجبت الصحة لقراءة من قرأ: وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ.
ومن الدلالة أيضا علـى أن قراءة من قرأ: وما يَخْدَعُونَ أولـى بـالصحة من قراءة من قرأ: «وما يخادعون» أن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يخادعون الله والـمؤمنـين فـي أول الآية, فمـحال أن ينفـي عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه, لأن ذلك تضادّ فـي الـمعنى, وذلك غير جائز من الله جل وعز. القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَما يَشْعُرُونَ.
يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَما يَشْعُرُونَ: وَما يدرون, يقال: ما شعر فلان بهذا الأمر, وهو لا يشعر به إذا لـم يدر ولـم يعلـم شعرا وشعورا, كما قال الشاعر:

عَقّوا بِسَهْمٍ ولَـمْ يَشْعُرْ بِهِ أحَدٌثّمّ اسْتَفـاءُوا وَقالُوا حَبّذَا الوَضَحُ

يعنـي بقوله: «لـم يشعر به»: لـم يدر به أحد ولـم يعلـم. فأخبر الله تعالـى ذكره عن الـمنافقـين, أنهم لا يشعرون بأن الله خادعهم بإملائه لهم واستدراجه إياهم الذي هو من الله جل ثناؤه إبلاغ إلـيهم فـي الـحجة والـمعذرة, ومنهم لأنفسهم خديعة, ولها فـي الآجل مضرّة. كالذي:
147ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سألت ابن زيد عن قوله: وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ قال: ما يشعرون أنهم ضرّوا أنفسهم بـما أسرّوا من الكفر والنفـاق. وقرأ قول الله: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعا قال: هم الـمنافقون, حتـى بلغ وَيحْسَبُونَ أنّهُمْ علـى شَيءٍ قد كان الإيـمان ينفعهم عندكم.

الآية : 10

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }
وأصل الـمرض: السقم, ثم يقال ذلك فـي الأجساد والأديان فأخبر الله جل ثناؤه أن فـي قلوب الـمنافقـين مرضا. وإنـما عنى تبـارك وتعالـى بخبره عن مرض قلوبهم الـخبر عن مرض ما فـي قلوبهم من الاعتقاد ولكن لـما كان معلوما بـالـخبر عن مرض القلب أنه معنىّ به مرض ما هم معتقدوه من الاعتقاد استغنى بـالـخبر عن القلب بذلك والكناية عن تصريح الـخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم كما قال عمر بن لـجأ:

وَسَبّحَتِ الـمَدِينَةُ لا تَلُـمْهاأرأتْ قَمَرا بِسُوقِهِمُ نَهارا

يريد وسبح أهل الـمدينة. فـاستغنى بـمعرفة السامعين خبره بـالـخبر عن الـمدينة عن الـخبر عن أهلها. ومثله قول عنترة العبسيّ:

هَلاّ سألْتِ الـخَيْـلَ يا ابْنَةَ مالِكٍإنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِـمَا لَـمْ تَعْلَـمِي

يريد: هلا سألت أصحاب الـخيـل؟ ومنه قولهم: يا خيـل الله اركبـي, يراد: يا أصحاب خيـل الله اركبوا.
والشواهد علـى ذلك أكثر من أن يحصيها كتاب, وفـيـما ذكرنا كفـاية لـمن وفق لفهمه. فكذلك معنى قول الله جل ثناؤه: فـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إنـما يعنـي فـي اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه فـي الدين والتصديق بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به من عند الله مرض وسقم. فـاجتزأ بدلالة الـخبر عن قلوبهم علـى معناه عن تصريح الـخبر عن اعتقادهم. والـمرض الذي ذكر الله جل ثناؤه أنه فـي اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه هو شكهم فـي أمر مـحمد, وما جاء به من عند الله وتـحيرهم فـيه, فلا هم به موقنون إيقان

إيـمان, ولا هم له منكرون إنكار إشراك ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل مذبذبون بـين ذلك لا إلـى هؤلاء ولا إلـى هؤلاء, كما يقال: فلان تـمرض فـي هذا الأمر, أي يضعف العزم ولا يصحح الروية فـيه. وبـمثل الذي قلنا فـي تأويـل ذلك تظاهر القول فـي تفسيره من الـمفسرين ذكر من قال ذلك:

148ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: فـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي شكّ.

149ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: الـمرض: النفـاق.

150ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يقول: فـي قلوبهم شك.

151ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلَـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد فـي قوله: فـي قُلُوبِهِمْ مَرَض قال: هذا مرض فـي الدين ولـيس مرضا فـي الأجساد. قال: هم الـمنافقون.

152ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم قال: حدثنا سويد بن نصر, قال: أخبرنا ابن الـمبـارك قراءة عن سعيد عن قتادة فـي قوله: فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: فـي قلوبهم ريبة وشك فـي أمر الله جل ثناؤه.

153ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: هؤلاء أهل النفـاق, والـمرض الذي فـي قلوبهم الشكّ فـي أمر الله تعالـى ذكره.

154ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد: وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الاَخِرِ حتـى بلغ: فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال الـمرض: الشك الذي دخـلهم فـي الإسلام.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا.

قد دللنا آنفـا علـى أن تأويـل الـمرض الذي وصف الله جل ثناؤه أنه فـي قلوب الـمنافقـين: هو الشكّ فـي اعتقادات قلوبهم وأديانهم وما هم علـيه فـي أمر مـحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر نبوّته وما جاء به مقـيـمون.

فـالـمرض الذي أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنه زادهم علـى مرضهم هو نظير ما كان فـي قلوبهم من الشك والـحيرة قبل الزيادة, فزادهم الله بـما أحدث من حدوده وفرائضه التـي لـم يكن فرضها قبل الزيادة التـي زادها الـمنافقـين من الشك والـحيرة إذْ شكوا وارتابوا فـي الذي أحدث لهم من ذلك إلـى الـمرض والشك الذي كان فـي قلوبهم فـي السالف من حدوده وفرائضه التـي كان فرضها قبل ذلك, كما زاد الـمؤمنـين به إلـى إيـمانهم الذي كانوا علـيه قبل ذلك بـالذي أحدث لهم من الفرائض والـحدود إذ آمنوا به, إلـى إيـمانهم بـالسالف من حدوده وفرائضه إيـمانا. كالذي قال جل ثناؤه فـي تنزيـله: {وَإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أيّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيـمَانا فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيـمَانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأمّا الّذِينَ فـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسا إلـى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كافِرُونَ} فـالزيادة التـي زيدها الـمنافقون من الرجاسة إلـى رجاستهم هو ما وصفنا, والزيادة

التـي زيدها الـمؤمنون إلـى إيـمانهم هو ما بـينا, وذلك هو التأويـل الـمـجمع علـيه. ذكر بعض من قال ذلك من أهل التأويـل:

155ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت. عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا قال: شكّا.

156ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: أخبرنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرّة الهمدانـي عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا يقول: فزادهم الله ريبة وشكا.

157ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا سويد بن نصر, قال: أخبرنا ابن الـمبـارك قراءة عن سعيد عن قتادة: فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا يقول: فزادهم الله ريبة وشكا فـي أمر الله.

158ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قول الله: فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا قال: زادهم رجسا. وقرأ قول الله عزّ وجلّ: {فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيـمَانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأمّا الّذِينَ فـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسا إلـى رِجْسِهِمْ} قال: شرّا إلـى شرّهم, وضلالة إلـى ضلالتهم.

159ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا قال زادهم الله شكا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلهُمْ عَذَابٌ ألِـيـمٌ.

قال أبو جعفر: والألـيـم: هو الـموجع, ومعناه: ولهم عذاب مؤلـم, فصرف «مؤلـم» إلـى «ألـيـم», كما يقال: ضرب وجيع بـمعنى موجع, والله بديع السموات والأرض بـمعنى مبدع. ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبـيدي:

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدّاعِي السّمِيعُيُؤَرّقُنِـي وأصْحابـي هُجُوعُ

بـمعنى الـمُسْمِع. ومنه قول ذي الرمة:

وَيَرْفَعُ مِنْ صُدُور شَمَرْدلاتٍيَصُدّ وُجُوهَها وَهَجٌ ألِـيـمُ

ويروى «يصك», وإنـما الألـيـم صفة للعذاب, كأنه قال: ولهم عذاب مؤلـم. وهو مأخوذ من الألـم, والألـم: الوجع. كما:

160ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر عن أبـيه عن الربـيع, قال: الألـيـم: الـموجع.

161ـ حدثنا يعقوب, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا جويبر, عن الضحاك قال: الألـيـم, الـموجع.

162ـ وحدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك فـي قوله ألِـيـمٌ قال: هو العذاب الـموجع, وكل شيء فـي القرآن من الألـيـم فهو الـموجع.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بِـمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

اختلفت القراءة فـي قراءة ذلك, فقرأه بعضهم: بِـمَا كانُوا يَكْذِبُونَ مخففة الذال مفتوحة الـياء, وهي قراءة معظم أهل الكوفة. وقرأه آخرون: يُكَذّبُونَ بضم الـياء وتشديد الذال, وهي قراءة معظم أهل الـمدينة والـحجاز والبصرة. وكأن الذين قرءوا ذلك بتشديد الذال وضم الـياء رأوا أن الله جل ثناؤه إنـما أوجب للـمنافقـين العذاب الألـيـم بتكذيبهم نبـيهم مـحمدا صلى

الله عليه وسلم وبـما جاء به, وأن الكذب لولا التكذيب لا يوجب لأحد الـيسير من العذاب, فكيف بـالألـيـم منه؟

ولـيس الأمر فـي ذلك عندي كالذي قالوا وذلك أن الله عزّ وجلّ أنبأ عن الـمنافقـين فـي أول النبأ عنهم فـي هذه السورة بأنهم يكذبون بدعواهم الإيـمان وإظهارهم ذلك بألسنتهم خداعا لله عزّ وجلّ ولرسوله ولـلـمؤمنـين, فقال: {وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا} بذلك من قـيـلهم مع استسرارهم الشك والريبة, وما يخدعون بصنـيعهم ذلك إلا أنفسهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم والـمؤمنـين, وما يشعرون بـموضع خديعتهم أنفسهم واستدراج الله عزّ وجل إياهم بإملائه لهم فـي قلوبهم شك أي نفـاق وريبة, والله زائدهم شكّا وريبة بـما كانوا يكذبون الله ورسوله والـمؤمنـين بقولهم بألسنتهم: آمَنّا بـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الآخِرِ وهم فـي قـيـلهم ذلك كَذَبة لاستسرارهم الشك والـمرض فـي اعتقادات قلوبهم. فـي أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم, فأولـى فـي حكمة الله جل جلاله أن يكون الوعيد منه لهم علـى ما افتتـح به الـخبر عنهم من قبـيح أفعالهم وذميـم أخلاقهم, دون ما لـم يجز له ذكر من أفعالهم إذ كان سائر آيات تنزيـله بذلك نزل. وهو أن يفتتـح ذكر مـحاسن أفعال قوم ثم يختـم ذلك بـالوعيد علـى ما افتتـح به ذكره من أفعالهم, ويفتتـح ذكر مساوىء أفعال آخرين ثم يختـم ذلك بـالوعيد علـى ما ابتدأ به ذكره من أفعالهم. فكذلك الصحيح من القول فـي الآيَات التـي افتتـح فـيها ذكر بعض مساوىء أفعال الـمنافقـين أن يختـم ذلك بـالوعيد علـى ما افتتـح به ذكره من قبـائح أفعالهم, فهذا مع دلالة الآية الأخرى علـى صحة ما قلنا وشهادتها بأن الواجب من القراءة ما اخترنا, وأن الصواب من التأويـل ما تأوّلنا من أن وعيد الله الـمنافقـين فـي هذه الآية العذاب الألـيـم علـى الكذب الـجامع معنى الشك والتكذيب, وذلك قول الله تبـارك وتعالـى: {إذَا جاءَكَ الـمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إنّكَ لَرَسُولُ اللّهِ وَاللّهُ يَعْلَـمُ إنّكَ لَرَسُولُهُ واللّهُ يَشْهَدُ إنّ الـمُنافِقِـينَ لَكاذِبُونَ اتّـخَذُوا أيـمَانَهُمْ جُنّةً فَصَدّوا عَنْ سَبِـيـلِ اللّهِ إنّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ} والآية الأخرى فـي الـمـجادلة: {اتّـخَذُوا أيْـمَانَهُمْ جُنّةً فَصَدّوا عَنْ سَبِـيـلِ اللّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} فأخبر جلّ ثناؤه أن الـمنافقـين بقـيـلهم ما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم, مع اعتقادهم فـيه ما هفم معتقدون, كاذبون. ثم أخبر تعالـى ذكره أن العذاب الـمهين لهم علـى ذلك من كذبهم. ولو كان الصحيح من القراءة علـى ما قرأه القارئون فـي سورة البقرة: وَلهُمْ عَذَابٌ ألـيِـمٌ بِـمَا كانُوا يُكَذّبّوُنَ لكانت القراءة فـي السورة الأخرى: {والله يشهد إن الـمنافقـين لـمكذّبون}, لـيكون الوعيد لهم الذي هو عقـيب ذلك وعيدا علـى التكذيب, لا علـى الكذب.

وفـي إجماع الـمسلـمين علـى أن الصواب من القراءة فـي قوله: وَاللّهُ يَشْهَدُ إنّ الـمُنافَقِـينَ لَكاذِبُونَ بـمعنى الكذب, وأن إيعاد الله تبـارك وتعالـى فـيه الـمنافقـين العذاب الألـيـم علـى ذلك من كذبهم, أوضح الدلالة علـى أن الصحيح من القراءة فـي سورة البقرة: بـما كَانُوا يَكْذِبُون بـمعنى الكذب, وأن الوعيد من الله تعالـى ذكره للـمنافقـين فـيها علـى الكذب حق, لا علـى التكذيب الذي لـم يجز له ذكر نظير الذي فـي سورة الـمنافقـين سواء.

وقد زعم بعض نـحويـي البصرة أن «ما» من قول الله تبـارك اسمه: بِـمَا كانُوا يَكْذِبُون اسم لـلـمصدر, كما أن أن والفعل اسمان لـلـمصدر فـي قولك: أحبّ أن تأتـينـي, وأن الـمعنى إنـما هو بكذبهم وتكذيبهم. قال: وأدخـل «كان» لـيخبر أنه كان فـيـما مضى, كما يقال: ما أحسن ما كان عبد الله. فأنت تعجب من عبد الله لا من كونه, وإنـما وقع التعجب فـي اللفظ علـى كونه. وكان بعض نـحويـي الكوفة ينكر ذلك من قوله ويستـخطئه ويقول: إنـما ألغيت «كان» فـي التعجب لأن الفعل قد تقدمها, فكأنه قال: «حسنا كان زيد», «وحسن كان زيد» يبطل «كان», ويعمل مع الأسماء والصفـات التـي بألفـاظ الأسماء إذا جاءت قبل «كان» ووقعت «كان» بـينها وبـين الأسماء.

وأما العلة فـي إبطالها إذا أبطلت فـي هذه الـحال فشبه الصفـات والأسماء بفعل ويفعل اللتـين لا يظهر عمل كان فـيهما, ألا ترى أنك تقول: «يقوم كان زيد», ولا يظهر عمل «كان» فـي «يقوم», وكذلك «قام كان زيد». فلذلك أبطل عملها مع فـاعل تـمثـيلاً بفعل ويفعل, وأعملت مع فـاعل أحيانا لأنه اسم كما تعمل فـي الأسماء. فأما إذا تقدمت «كان» الأسماء والأفعال وكان الاسم والفعل بعدها, فخطأ عنده أن تكون «كان» مبطلة فلذلك أحال قول البصري الذي حكيناه, وتأوّل قوله الله عزّ وجل: بِـمَا كانُوا يَكْذِبُوْنَ أنه بـمعنى: الذي يكذبونه.

الآية : 11

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرْضِ قَالُوَاْ إِنّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل هذه الآية, فروي عن سلـمان الفـارسي أنه كان يقول: لـم يجيءْ هؤلاء بعد.

163ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثام بن علـيّ, قال: حدثنا الأعمش, قال: سمعت الـمنهال بن عمرو يحدّث عن عبـاد بن عبد الله, عن سلـمان, قال: ما جاء هؤلاء بعد, الذين إذَا قـيـلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فـي الأرْضِ قالُوا إنّـمَا نَـحْنُ مُصْلِـحُونَ.

حدثنـي أحمد بن عثمان بن حكيـم, قال: حدثنا عبد الرحمن بن شريك, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي الأعمش, عن زيد بن وهب وغيره, عن سلـمان أنه قال فـي هذه الآية: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فـي الأرْضِ قالُوا إنّـمَا نَـحْنُ مُصْلِـحُونَ قال ما جاء هؤلاء بعد. وقال آخرون بـما:

164ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فـي الأرْض قالُوا إنّـمَا نَـحْنُ مُصْلِـحُونَ هم الـمنافقون. أما لا تفسدوا فـي الأرض فإن الفساد هو الكفر والعمل بـالـمعصية.

165ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فـي الأرْضِ يقول: لا تعصوا فـي الأرض. قال: فكان فسادهم علـى أنفسهم ذلك معصية الله جل ثناؤه, لأن من عصى الله فـي الأرض أو أمر بـمعصيته فقد أفسد فـي الأرض, لأن إصلاح الأرض والسماء بـالطاعة.

وأولـى التأويـلـين بـالآية تأويـل من قال: إن قول الله تبـارك اسمه: وَإِذَا قِـيـلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فـي الأرْضِ قالُوا إنّـمَا نَـحْنُ مُصْلِـحُونَ نزلت فـي الـمنافقـين الذين كانوا علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم, وإن كان معنـيا بها كل من كان بـمثل صفتهم من الـمنافقـين بعدهم إلـى يوم القـيامة. وقد يحتـمل قول سلـمان عند تلاوة هذه الآية: «ما جاء هؤلاء بعد» أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهذه الصفة علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا منه عمن جاء منهم بعدهم ولـما يجيء بعد, لا أنه عنى أنه لـم يـمض مـمن هذه صفته أحد.

وإنـما قلنا أولـى التأويـلـين بـالآية ما ذكرنا, لإجماع الـحجة من أهل التأويـل علـى أن ذلك صفة من كان بـين ظهرانـي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الـمنافقـين, وأن هذه الآيات فـيهم نزلت. والتأويـل الـمـجمع علـيه أولـى بتأويـل القرآن من قول لا دلالة علـى صحته من أصل ولا نظير. والإفساد فـي الأرض: العمل فـيها بـما نهى الله جل ثناؤه عنه, وتضيـيع ما أمر الله بحفظه. فذلك جملة الإفساد, كما قال جل ثناؤه فـي كتابه مخبرا عن قـيـل ملائكته: {قالُوا أتَـجْعَلُ فِـيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ} يعنون بذلك: أتـجعل فـي الأرض من يعصيك ويخالف أمرك؟ فكذلك صفة أهل النفـاق مفسدون فـي الأرض بـمعصِيتهم فـيها ربهم, وركوبهم فـيها ما نهاهم عن ركوبه, وتضيـيعهم فرائضه وشكهم فـي دين الله الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بـالتصديق به والإيقان بحقّـيته, وكذبهم الـمؤمنـين بدعواهم غير ما هم علـيه مقـيـمون من الشك والريب, وبـمظاهرتهم أهل التكذيب بـالله وكتبه ورسله علـى أولـياء الله إذا وجدوا إلـى ذلك سبـيلاً.

فذلك إفساد الـمنافقـين فـي أرض الله, وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلـحون فـيها. فلـم يسقط الله جل ثناؤه عنهم عقوبته, ولا خفف عنهم ألـيـم ما أعدّ من عقابه لأهل معصيته بحسبـانهم أنهم فـيـما أتوا من معاصي الله مصلـحون, بل أوجب لهم الدرك الأسفل من ناره والألـيـمَ من عذابه والعارَ العاجل بسبّ الله إياهم وشتـمه لهم, فقال تعالـى: ألاّ إنّهُمْ هُمُ الـمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ وذلك من حكم الله جل ثناؤه فـيهم أدلّ الدلـيـل علـى تكذيبه تعالـى قول القائلـين: إن عقوبـات الله لا يستـحقها إلا الـمعاند ربه فـيـما لزمه من حقوقه وفروضه بعد علـمه وثبوت الـحجة علـيه بـمعرفته بلزوم ذلك إياه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قالُوا إنّـمَا نَـحْنُ مُصْلِـحُونَ.

وتأويـل ذلك كالذي قاله ابن عبـاس, الذي:

166ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس قوله: إنّـمَا نَـحْنُ مُصْلِـحُونَ أي قالوا: إنـما نريد الإصلاح بـين الفريقـين من الـمؤمنـين وأهل الكتاب. وخالفه فـي ذلك غيره.

167ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: وَإِذَا قِـيـلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِـي الأرْضِ قال: إذا ركبوا معصية الله, فقـيـل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا, قالوا: إنـما نَـحن علـى الهدى مصلـحون.

قال أبو جعفر: وأيّ الأمرين كان منهم فـي ذلك أعنـي فـي دعواهم أنهم مصلـحون فهم لا شكّ أنهم كانوا يحسبون أنهم فـيـما أتوا من ذلك مصلـحون. فسواء بـين الـيهود والـمسلـمين كانت دعواهم الإصلاح أو فـي أديانهم, وفـيـما ركبوا من معصية الله, وكذبهم الـمؤمنـين فـيـما أظهروا لهم من القول وهم لغير ما أظهروا مستبطنون, لأنهم كانوا فـي جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم مـحسنـين, وهم عند الله مسيئون, ولأمر الله مخالفون لأن الله جل ثناؤه قد كان فرض علـيهم عداوة الـيهود وحربهم مع الـمسلـمين, وألزمهم التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به من عند الله كالذي ألزم من ذلك الـمؤمنـين, فكان لقاؤهم الـيهود علـى وجه الولاية منهم لهم, وشكهم فـي نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفـيـما جاء به أنه من عند الله أعظم الفساد, وإن كان ذلك كان عندهم إصلاحا وهدى: فـي أديانهم, أو فـيـما بـين الـمؤمنـين والـيهود, فقال جل ثناؤه فـيهم: ألا إنّهُمْ هُمُ الـمُفْسِدُونَ دون الذين ينهونهم من الـمؤمنـين عن الإفساد فـي الأرض ولكن لا يشعرون.

الآية : 12

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَلآ إِنّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـَكِن لاّ يَشْعُرُونَ }

وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للـمنافقـين فـي دعواهم إذا أمروا بطاعة الله فـيـما أمرهم الله به, ونُهوا عن معصية الله فـيـما نهاهم الله عنه. قالوا: إنـما نـحن مصلـحون لا مفسدون, ونـحن علـى رشد وهدى فـيـما أنكرتـموه علـينا دونكم لا ضالون. فكذبهم الله عزّ وجلّ فـي ذلك من قـيـلهم, فقال: ألا إنّهُمْ هُمُ الـمُفْسِدُونَ الـمخالفون أمر الله عزّ وجل, الـمتعدّون حدوده الراكبون معصيته, التاركون فروضه وهم لا يشعرون ولا يدرون أنهم كذلك, لا الذين يأمرونهم بـالقسط من الـمؤمنـين وينهونهم عن معاصي الله فـي أرضه من الـمسلـمين.

الآية : 13

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَآ آمَنَ النّاسُ قَالُوَاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السّفَهَآءُ أَلآ إِنّهُمْ هُمُ السّفَهَآءُ وَلَـَكِن لاّ يَعْلَمُونَ }

قال أبو جعفر: وتأويـل قوله: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ آمِنُوا كما آمَنَ النّاسُ يعنـي: وإذا قـيـل لهؤلاء الذين وصفهم الله ونعتهم بأنهم يقولون آمَنّا بـاللّهِ وَبِـالـيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ: صَدّقوا بـمـحمد وبـما جاء به من عند الله كما صدّق به النّاس. ويعنـي ب«الناس» الـمؤمنـين الذين آمنوا بـمـحمد ونبوّته وما جاء به من عند الله. كما:

168ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس فـي قوله: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ آمَنُوا كما آمَنَ النّاسُ يقول: وإذا قـيـل لهم صدّقوا كما صدّق أصحاب مـحمد, قولوا: إنه نبـيّ ورسول, وإن ما أنزل علـيه حق. وصَدّقوا بـالآخرة, وأنكم مبعوثون من بعد الـموت.

وإنـما أدخـلت الألف واللام فـي «الناس» وهم بعض الناس لا جميعهم لأنهم كانوا معروفـين عند الذين خوطبوا بهذه الآية بأعيانهم. وإنـما معناه: آمنوا كما آمن الناس الذين تعرفونهم من أهل الـيقـين والتصديق بـالله

وبـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وما جاء به من عند الله وبـالـيوم الآخر, فلذلك أدخـلت الألف واللام فـيه كما أدخـلتا فـي قوله: {الّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فـاخْشُوهُمْ} لأنه أشير بدخولها إلـى ناس معروفـين عند من خوطب بذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قَالوا أنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السّفَهَاءُ.

قال أبو جعفر: والسفهاء جمع سفـيه, كالعلـماء جمع علـيـم, والـحكماء جمع حكيـم. والسفـيه: الـجاهل الضعيف الرأي, القلـيـل الـمعرفة بـمواضع الـمنافع والـمضارّ ولذلك سمى الله عزّ وجل النساء والصبـيان سفهاء, فقال تعالـى: {وَلا تُؤْتُوا السّفَهَاء أمْوَالَكُمْ الّتِـي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ} قِـياما فقال عامة أهل التأويـل: هم النساء والصبـيان لضعف آرائهم, وقلة معرفتهم بـمواضع الـمصالـح والـمضارّ التـي تصرف إلـيها الأموال. وإنـما عنى الـمنافقون بقـيـلهم أنؤمن كما آمن السفهاء, إذْ دُعوا إلـى التصديق بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به من عند الله, والإقرار بـالبعث, فقال لهم: آمنوا كما آمن أصحاب مـحمد وأتبـاعه من الـمؤمنـين الـمصدقـين به أهل الإيـمان والـيقـين والتصديق بـالله وبـما افترض علـيهم علـى لسان رسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم وفـي كتابه وبـالـيوم الآخر, فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الـجهل ونصدق بـمـحمد صلى الله عليه وسلم كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام كالذي:

169ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم, قالوا: أنُؤْمِنُ كما آمَنَ السّفَهاءُ يعنون أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم.

170ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه عن الربـيع بن أنس: قالوا أنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السّفَهاءُ يعنون أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم.

171ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أنبأنا ابن وهب, قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلـم فـي قوله: قالُوا أنُؤْمِنُ كمَا آمَنَ السّفَهاءُ قال: هذا قول الـمنافقـين, يريدون أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم.

172ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: قالوا أنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السّفَهاءُ يقولون: أنقول كما تقول السفهاء؟ يعنون أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم, لـخلافهم لدينهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ألا إنّهُمُ هُمْ السّفَهاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَـمُونَ.

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالـى عن الـمنافقـين الذين تقدم نعته لهم ووصْفُه إياهم بـما وصفهم به من الشك والتكذيب, أنهم هم الـجهال فـي أديانهم, الضعفـاء الآراء فـي اعتقاداتهم واختـياراتهم التـي اختاروها لأنفسهم من الشك والريب فـي أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوّته, وفـيـما جاء به من عند الله, وأمر البعث, لإساءتهم إلـى أنفسهم بـما أتوا من ذلك, وهم يحسبون أنهم إلـيها يحسنون. وذلك هو عين السفه, لأن السفـيه إنـما يفسد من حيث يرى أنه يصلـح ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ. فكذلك

الـمنافق يعصي ربه من حيث يرى أنه يطيعه, ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به, ويسيء إلـى نفسه من حيث يحسب أنه يحسن إلـيها, كما وصفهم به ربنا جل ذكره فقال: ألا إنّهُمْ هُمُ الـمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ وقال: ألا إنهم هم السفهاء دون الـمؤمنـين الـمصدّقـين بـالله وبكتابه وبرسوله وثوابه وعقابه, ولكن لا يعلـمون. وكذلك كان ابن عبـاس يتأوّل هذه الآية.

173ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس يقول الله جل ثناؤه: ألا إنّهُمْ هُمُ السّفَهاءُ يقول الـجهال, ولَكِنْ لا يَعْلَـمُونَ يقول: ولكن لا يعقلون. وأما وجه دخول الألف واللام فـي «السفهاء» فشبـيه بوجه دخولهما فـي «الناس» فـي قوله: وَإذَا قِـيـلَ لَهمْ آمِنُوا كمَا آمَنَ النّاسُ وقد بـينا العلة فـي دخولهما هنالك, والعلة فـي دخولهما فـي السفهاء نظيرتها فـي دخولهما فـي الناس هنالك سواء. والدلالة التـي تدل علـيه هذه الآية من خطأ قول من زعم أن العقوبة من الله لا يستـحقها إلا الـمعاند ربه مع علـمه بصحة ما عانده فـيه نظير دلالة الاَيات الأخر التـي قد تقدّم ذكرنا تأويـلَها فـي قوله: وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ونظائر ذلك.

الآية : 14

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذَا لَقُواْ الّذِينَ آمَنُواْ قَالُوَاْ آمَنّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىَ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوَاْ إِنّا مَعَكْمْ إِنّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }

قال أبو جعفر: وهذه الآية نظير الآية الأخرى التـي أخبر الله جل ثناؤه فـيها عن الـمنافقـين بخداعهم الله ورسوله والـمؤمنـين, فقال: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وَبـالـيَوْمِ الاَخِرِ ثم أكذبهم تعالـى ذكره بقوله: وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ وأنهم بقـيلهم ذلك يخادعون الله والذين آمنوا. وكذلك أخبر عنهم فـي هذه الآية أنهم يقولون للـمؤمنـين الـمصدقـين بـالله وكتابه ورسوله بألسنتهم: آمنا وصدّقنا بـمـحمدٍ وبـما جاء به من عند الله, خداعا عن دمائهم وأموالهم وذراريهم, ودرءا لهم عنها, وأنهم إذا خـلوا إلـى مَرَدَتِهم وأهل العتوّ والشرّ والـخبث منهم ومن سائر أهل الشرك الذين هم علـى مثل الذي هم علـيه من الكفر بـالله وبكتابه ورسوله وهم شياطينهم. وقد دللنا فـيـما مضى من كتابنا علـى أن شياطين كل شيء مردته قالوا لهم: إنّا مَعَكُمْ أي إنا معكم علـى دينكم, وظهراؤكم علـى من خالفكم فـيه, وأولـياؤكم دون أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم, إنـما نـحن مستهزئون بـالله وبكتابه ورسوله وأصحابه. كالذي:

174ـ حدثنا مـحمد بن العلاء: قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال حدثنا بشر بن عمار عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا قال: كان رجال من الـيهود إذا لقوا أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم أو بعضهم, قالوا: إنا علـى دينكم, وإذا خـلوا إلـى أصحابهم وهم شياطينهم قالُوا إنّا مَعَكُمْ إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَإذَا لَقُوا اللّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وإذا خَـلَوْا إلـى شَياطِينِهِمْ قال: إذا خـلوا إلـى شياطينهم من يهود الذين يأمرونهم

بـالتكذيب, وخلاف ما جاء به الرسول قالُوا إنّا مَعَكُمْ أي إنا علـى مثل ما أنتـم علـيه إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ.
175ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطِينِهِمْ أما شياطينهم, فهم رءوسهم فـي الكفر.
176ـ حدثنا بشر بن معاذ العقدي, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطِينِهِمْ أي رؤسائهم وقادتهم فـي الشرّ, قالُوا إنـما نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ.
177ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شياطينِهِمْ قال: الـمشركون.
178ـحدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله عز وجل: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطِينِهِمْ قال: إذا خلا الـمنافقون إلـى أصحابهم من الكفـار.
حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, عن شبل بن عبـاد, عن عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطِينِهِمْ قال أصحابهم: من الـمنافقـين والـمشركين.
179ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطِينهمْ قال إخوانهم من الـمشركين, قالُوا إنا مَعَكُم إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزُءُونَ.
180ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج فـي قوله: وَإذَا لَقُوا الذِينَ آمَنوا قالُوا آمَنا قال: إذا أصاب الـمؤمنـين رخاء, قالوا: إنا نـحن معكم إنـما نـحن إخوانكم, وإذا خـلوا إلـى شياطينهم استهزءوا بـالـمؤمنـين.
حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال مـجاهد: شياطينهم: أصحابهم من الـمنافقـين والـمشركين.
فإن قال لنا قائل: أرأيت قوله: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطينهم فكيف قـيـل «خـلوا إلـى شياطينهم» ولـم يقل «خـلوا بشياطينهم»؟ فقد علـمت أن الـجاري بـين الناس فـي كلامهم «خـلوت بفلان» أكثر وأفشى من «خـلوت إلـى فلان», ومن قولك: إن القرآن أفصح البـيان قـيـل: قد اختلف فـي ذلك أهل العلـم بلغة العرب, فكان بعض نـحويـي البصرة يقول: يقال خـلوت إلـى فلان, إذا أريد به: خـلوت إلـيه فـي حاجة خاصة لا يحتـمل إذا قـيـل كذلك إلا الـخلاء إلـيه فـي قضاء الـحاجة. فأما إذا قـيـل: خـلوت به احتـمل معنـيـين: أحدهما الـخلاء به فـي الـحاجة, والاَخر: فـي السخرية به, فعلـى هذا القول وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطينهمْ لا شك أفصح منه لو قـيـل: «وإذا خـلوا بشياطينهم» لـما فـي قول القائل: «إذا خـلوا بشياطينهم» من التبـاس الـمعنى علـى سامعيه الذي هو منتف عن قوله: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطينهمْ فهذا أحد الأقوال. والقول الاَخر أن تُوَجّه معنى قوله: وَإذَا خَـلَوْا إلـى شَياطينهم أي إذا خـلوا مع شياطينهم, إذ كانت حروف الصفـات يعاقب بعضها بعضا كما قال الله مخبرا عن عيسى ابن مريـم أنه قال للـحواريـين:

مَنْ أنْصَارِي إلـى اللّهِ يريد مع الله, وكما توضع «علـى» فـي موضع «من» و«فـي» و«عن» و«البـاء», كما قال الشاعر:
إذَا رَضِيَتْ عَلـيّ بَنُو قُشَيْرٍلَعَمْرُ اللّهِ أعْجَبَنِـي رِضَاها
بـمعنى «عنّـي».
وأما بعض نـحويـي أهل الكوفة فإنه كان يتأوّل أن ذلك بـمعنى: وَإذَا لَقُوا الذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنا وإذا صرفوا خلاءهم إلـى شياطينهم فـيزعم أن الـجالب «إلـى» الـمعنى الذي دل علـيه الكلام: من انصراف الـمنافقـين عن لقاء الـمؤمنـين إلـى شياطينهم خالـين بهم, لا قوله «خـلوا». وعلـى هذا التأويـل لا يصلـح فـي موضع «إلـى» غيرها لتغير الكلام بدخول غيرها من الـحروف مكانها.
وهذا القول عندي أولـى بـالصواب, لأن لكل حرف من حروف الـمعانـي وجها هو به أولـى من غيره, فلا يصلـح تـحويـل ذلك عنه إلـى غيره إلا بحجة يجب التسلـيـم لها. ول«إلـى» فـي كل موضع دخـلت من الكلام حكم وغير جائز سلبها معانـيها فـي أماكنها.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ.
أجمع أهل التأويـل جميعا لا خلاف بـينهم, علـى أن معنى قوله: إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ: إنـما نـحن ساخرون. فمعنى الكلام إذا: وإذا انصرف الـمنافقون خالـين إلـى مردتهم من الـمنافقـين والـمشركين قالوا: إنا معكم عن ما أنتـم علـيه من التكذيب بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به ومعاداته ومعاداة أتبـاعه, إنـما نـحن ساخرون بأصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم فـي قـيلنا لهم إذا لقـيناهم آمَنّا بـاللّهِ وبـالـيَوْمِ الآخِرِ. كما:
181ـ حدثنا مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: قالوا: إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهزِءُونَ ساخرون بأصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم.
182ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ: أي إنـما نـحن نستهزىء بـالقوم ونلعب بهم.
183ـ حدثنا بشر بن معاذ العقدي, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ: إنـما نستهزىء بهؤلاء القوم ونسخر بهم.
184ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ أي نستهزىء بأصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم.

الآية : 15

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
قال أبو جعفر: اختلف فـي صفة استهزاء الله جل جلاله الذي ذكر أنه فـاعله بـالـمنافقـين الذين وصف صفتهم. فقال بعضهم: استهزاؤه بهم كالذي أخبرنا تبـارك اسمه أنه فـاعل بهم يوم القـيامة فـي قوله تعالـى:
{يَوْمَ يَقُولُ الـمُنافِقُونَ والـمُنافِقاتُ للّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم} قـيـل {ارجعُوا وراءكم فـالْتَـمِسُوا نُورا فَضُرِبَ بَـيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بـابٌ بـاطِنُهُ فِـيهِ الرّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ يُنادُونَهُمْ أَلَـمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلَـى}

الآية, وكالذي أخبرنا أنه فعل بـالكفـار بقوله: {وَلا يَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا أنّـمَا نُـمْلِـي لَهُمْ خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ إنّـمَا نُـمْلِـي لَهُمْ لِـيَزْدَادُوا إثما}. فهذا وما أشبهه من استهزاء الله جل وعز وسخريته ومكره وخديعته للـمنافقـين وأهل الشرك به, عند قائلـي هذا القول ومتأوّلـي هذا التأويـل. وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم: توبـيخه إياهم ولومه لهم علـى ما ركبوا من معاصي الله والكفر به, كما يقال: إن فلانا لـيهزأ منه الـيوم ويسخر منه يراد به توبـيخ الناس إياه ولومهم له, أو إهلاكه إياهم وتدميره بهم, كما قال عَبِـيد بن الأبرص:

سائِلْ بِنا حُجْرَ ابْنَ أُمّ قَطامِ إذْظَلّتْ بِهِ السّمْرُ النّوَاهلُ تَلْعَبُ

فزعموا أن السمر وهي القَنا لا لعب منها, ولكنها لـما قتلتهم وشردتهم جعل ذلك من فعلها لعبـا بـمن فعلت ذلك به قالوا: فكذلك استهزاء الله جل ثناؤه بـمن استهزأ به من أهل النفـاق والكفر به, إما إهلاكه إياهم وتدميره بهم, وإما إملاؤه لهم لـيأخذهم فـي حال أمنهم عند أنفسهم بغتة, أو توبـيخه لهم ولائمته إياهم. قالوا: وكذلك معنى الـمكر منه والـخديعة والسخرية.

وقال آخرون: قوله: {يُخادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ} علـى الـجواب, كقول الرجل لـمن كان يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك ولـم تكن منه خديعة, ولكن قال ذلك إذْ صار الأمر إلـيه. قالوا: وكذلك قوله: {ومَكَرُوا ومَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الـمَاكِرِينَ} والله يستهزىء بهم علـى الـجواب, والله لا يكون منه الـمكر ولا الهزء. والـمعنى: أن الـمكر والهزء حاق بهم.

وقال آخرون: قوله: {إنّـمَا نَـحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ} وقوله: {يُخادِعُونَ اللّهَ وهُوَ خادِعُهُمْ} وقوله: {فَـيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَنَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} أشبه ذلك, إخبـار من الله أنه مـجازيهم جزاء الاستهزاء, ومعاقبهم عقوبة الـخداع. فأخرج خبره عن جزائه وما إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي علـيه استـحقوا العقاب فـي اللفظ وإن اختلف الـمعنـيان, كما قال جل ثناؤه: وَجَزَاءُ سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مِثْلُها ومعلوم أن الأولـى من صاحبها سيئة إذ كانت منه لله تبـارك وتعالـى معصية, وأن الأخرى عدل لأنها من الله جزاء للعاصي علـى الـمعصية. فهما وإن اتفق لفظاهما مختلفـا الـمعنى. وكذلك قوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَـيْكُمْ فَـاعْتَدوا عَلَـيْهِ}. فـالعدوان الأول ظلـم, والثانـي جزاء لا ظلـم, بل هو عدل لأنه عقوبة للظالـم علـى ظلـمه وإن وافق لفظه لفظ الأول. وإلـى هذا الـمعنى وجهوا كل ما فـي القرآن من نظائر ذلك مـما هو خبر عن مكر الله جلّ وعزّ بقوم, وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: إن معنى ذلك أن الله جل وعز أخبر عن الـمنافقـين أنهم إذا خـلوا إلـى مردتهم قالوا: إنا معكم علـى دينكم فـي تكذيب مـحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به, وإنـما نـحن بـما نظهر لهم من قولنا لهم صدّقنا بـمـحمد علـيه الصلاة والسلام وما جاء به مستهزءون. يعنون: إنّا نظهر لهم ما هو عندنا بـاطل لا حقّ ولا هُدًى. قالوا: وذلك هو معنى من معانـي الاستهزاء. فأخبر الله أنه يستهزىء بهم فـيظهر لهم من أحكامه فـي الدنـيا خلاف الذي لهم عنده فـي الآخرة, كما أظهروا للنبـي صلى الله عليه وسلم والـمؤمنـين فـي الدين ما هم علـى خلافه فـي سرائرهم.

والصواب فـي ذلك من القول والتأويـل عندنا, أن معنى الاستهزاء فـي كلام العرب: إظهار الـمستهزىء للـمستهزإ به من القول والفعل ما يرضيه ويوافقه ظاهرا, وهو بذلك من قـيـله وفعله به مورثه مساءة بـاطنا, وكذلك معنى الـخداع والسخرية والـمكر. وإذا كان ذلك كذلك, وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفـاق فـي الدنـيا من الأحكام بـما أظهروا بألسنتهم من الإقرار بـالله وبرسوله وبـما جاء به من عند الله الـمُدْخِـلِ لهم فـي عداد من يشمله اسم الإسلام وإن كانوا لغير ذلك مستبطنـين من أحكام الـمسلـمين الـمصدقـين إقرارهم بألسنتهم بذلك بضمائر قلوبهم وصحائح عزائمهم وحميد أفعالهم الـمحققة لهم صحة إيـمانهم, مع علـم الله عز وجل بكذبهم, واطلاعه علـى خبث اعتقادهم وشكهم فـيـما ادعوا بألسنتهم أنهم مصدقون حتـى ظنوا فـي الآخرة إذ حشروا فـي عداد من كانوا فـي عدادهم فـي الدنـيا أنهم واردون موردهم وداخـلون مدخـلهم, الله جلّ جلاله مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام الـملـحقهم فـي عاجل الدنـيا وآجل الآخرة إلـى حال تـميـيزه بـينهم وبـين أولـيائه وتفريقه بـينهم وبـينهم معدّ لهم من ألـيـم عقابه ونكال عذابه ما أعدّ منه لأعدى أعدائه وأشرّ عبـاده, حتـى ميز بـينهم وبـين أولـيائه فألـحقهم من طبقات جحيـمه بـالدرك الأسفل. كان معلوما أنه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم, وإن كان جزاء لهم علـى أفعالهم وعدلاً ما فعل من ذلك بهم لاستـحقاقهم إياه منه بعصيانهم له كان بهم بـما أظهر لهم من الأمور التـي أظهرها لهم من إلـحاقه أحكامهم فـي الدنـيا بأحكام أولـيائه وهم له أعداء, وحشره إياهم فـي الآخرة مع الـمؤمنـين وهم به من الـمكذّبـين إلـى أن ميز بـينهم وبـينهم, مستهزئا وساخرا ولهم خادعا وبهم ماكرا. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والـمكر والـخديعة ما وصفنا قبل, دون أن يكون ذلك معناه فـي حال فـيها الـمستهزىء بصاحبه له ظالـم أو علـيه فـيها غير عادل, بل ذلك معناه فـي كل أحواله إذا وجدت الصفـات التـي قدمنا ذكرها فـي معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره. وبنـحو ما قلنا فـيه رُوي الـخبر عن ابن عبـاس.

185ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وأما الذين زعموا أن قول الله تعالـى ذكره: اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ إنـما هو علـى وجه الـجواب, وأنه لـم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة فنافون علـى الله عز وجل ما قد أثبته الله عز وجل لنفسه وأوجبه لها.

وسواء قال قائل: لـم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية بـمن أخبر أنه يستهزىء ويسخر ويـمكر به, أو قال: لـم يخسف الله بـمن أخبر أنه خسف به من الأمـم, ولـم يغرق من أخبر أنه أغرقه منهم. ويقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكر بقوم مضوا قبلنا لـم نرهم, وأخبر عن آخرين أنه خسف بهم, وعن آخرين أنه أغرقهم, فصدقنا الله تعالـى ذكره فـيـما أخبرنا به من ذلك, ولـم نفرّق بـين شيء منه, فما برهانك علـى تفريقك ما فرقت بـينه بزعمك أنه قد أغرق وخسف بـمن أخبر أنه أغرق وخسف به, ولـم يـمكر به أخبر أنه قد مكر به؟ ثم نعكس القول علـيه فـي ذلك فلن يقول فـي أحدهما شيئا إلا ألزم فـي الآخر مثله. فإن لـجأ إلـى أن يقول إن الاستهزاء عبث ولعب, وذلك عن الله عزّ وجلّ منفـيّ.

قـيـل له: إن كان الأمر عندك علـى ما وصفت من معنى الاستهزاء, أفلست تقول: اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وسخر الله منهم مكر الله بهم, وإن لـم يكن من الله عندك هزء ولا سخرية؟ فإن قال: «لا» كذّب بـالقرآن وخرج عن ملة الإسلام, وإن قال: «بلـى», قـيـل له: أفتقول من الوجه الذي قلت: اللّهُ يَسْتَهْزِىء بِهِمْ وسخر الله منهم يـلعب الله بهم ويعبث, ولا لعب من الله ولا عبث؟ فإن قال: «نعم», وصف الله بـما قد أجمع الـمسلـمون علـى نفـيه عنه وعلـى تـخطئة واصفه به, وأضاف إلـيه ما قد قامت الـحجة من العقول علـى ضلال مضيفه إلـيه. وإن قال: لا أقول يـلعب الله به ولا يعبث, وقد أقول يستهزىء بهم ويسخر منهم قـيـل: فقد فرقت بـين معنى اللعب, والعبث, والهزء, والسخرية, والـمكر, والـخديعة. ومن الوجه الذي جازَ قِـيـلُ هذا ولـم يَجُزْ قِـيـلُ هذا افترق معنـياهما, فعلـم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر.

وللكلام فـي هذا النوع موضع غير هذا كرهنا إطالة الكتاب بـاستقصائه, وفـيـما ذكرنا كفـاية لـمن وفق لفهمه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيَـمُدّهُمْ.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله ويَـمُدّهُمْ فقال بعضهم بـما:

186ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: يـمُدّهُمْ: يُـملـي لهم.

وقال آخرون بـما:

187ـ حدثنـي به الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا سويد بن نصر, عن ابن الـمبـارك, عن ابن جريج, قراءة عن مـجاهد: يَـمُدّهُمْ قال: يزيدهم.

وكان بعض نـحويـي البصرة يتأوّل ذلك أنه بـمعنى: يـمدّ لهم, ويزعم أن ذلك نظير قول العرب: الغلام يـلعب الكعاب, يراد به يـلعب بـالكعاب. قال: وذلك أنهم قد يقولون قد مددت له وأمددت له فـي غير هذا الـمعنى, وهو قول الله: وأمْدَدْناهُمْ وهذا من أمددناهم, قال: ويقال قد مدّ البحر فهو مادّ, وأمدّ الـجرح فهو مُـمِدّ.

وحكي عن يونس الـجرمي أنه كان يقول: ما كان من الشرّ فهو «مددت», وما كان من الـخير فهو «أمددت». ثم قال: وهو كما فسرت لك إذا أردت أنك تركته فهو مددت له, وإذا أردت أنك أعطيته قلت: أمددت.

وأما بعض نـحويـي الكوفة فإنه كان يقول: كل زيادة حدثت فـي الشيء من نفسه فهو «مددت» بغير ألف, كما تقول: مدّ النهر, ومدّه نهر آخر غيره: إذا اتصل به فصار منه. وكل زيادة أحدثت فـي الشيء من غيره فهو بألف, كقولك: «أمدّ الـجرح», لأن الـمدة من غير الـجرح, وأمددت الـجيش بـمدد.

وأولـى هذه الأقوال بـالصواب فـي قوله: ويـمُدّهُمْ أن يكون بـمعنى يزيدهم, علـى وجه الإملاء والترك لهم فـي عتوّهم وتـمرّدهم, كما وصف ربنا أنه فعل بنظرائهم فـي قوله: وَنُقَلّبُ أفْئِدَتَهُمْ وأبْصَارَهُمْ كما لـم يُؤْمِنوا بِهِ أوّل مرّةٍ ونَذرُهُمْ فـي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ يعنـي نذرهم ونتركهم فـيه ونـملـي لهم لـيزدادوا إثما إلـى إثمهم. ولا وجه لقول من قال ذلك بـمعنى

«يـمدّ لهم» لأنه لا تَدَافُع بـين العرب وأهل الـمعرفة بلغتها أن يستـجيزوا قول القائل: مدّ النهر نهر آخر, بـمعنى: اتصل به فصار زائدا ماء الـمتصل به بـماء الـمتصل من غير تأوّل منهم, ذلك أن معناه مدّ النهر نهر آخر, فكذلك ذلك فـي قول الله: وَيَـمُدّهُمْ فِـي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فـي طُغْيانِهِمْ.

قال أبو جعفر: والطغيان الفُعْلان, من قولك: طغى فلان يَطْغَى طغيانا إذا تـجاوز فـي الأمر حده فبغى. ومنه قوله الله: كَلاّ إنّ الإنْسانَ لَـيَطْغَى أنْ رآهُ اسْتَغْنى: أي يتـجاوز حدّه. ومنه قول أمية بن أبـي الصلت:

ودعا اللّهَ دَعْوَةً لاتَ هَنّابَعْدَ طُغْيانِهِ فَظَلّ مُشِيرا

وإنـما عنى الله جل ثناؤه بقوله: ويـمُدّهُمْ فـي طُغْيانِهِمْ أنه يـملـي لهم ويذرهم يبغون فـي ضلالهم وكفرهم حيارى يترددون. كما:

188ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: فـي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ قال: فـي كفرهم يترددون.

189ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: فـي طُغْيانِهِمْ: فـي كفرهم.

190ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: فـي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهونَ أي فـي ضلالتهم يعمهون.

191ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: فـي طُغْيانِهِمْ فـي ضلالتهم.

192ـ وحدثنا يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: فـي طُغْيانِهِمْ قال: طغيانهم, كفرهم وضلالتهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يَعْمَهُونَ.

قال أبو جعفر: والعَمَهُ نفسه: الضلال, يقال منه: عَمِهَ فلانٌ يَعْمَهُ عَمَهانا وعُمُوها: إذا ضل. ومنه قول رؤبة بن العجاج يصف مَضَلّةً من الـمهامة:

ومُخْفِقٍ مِنْ لُهْلُهٍ ولُهْلُهِمِنْ مَهْمَه يُجْتَبْنَهُ فـي مَهْمَهِ
أعمَى الهدى بـالـجاهلِـينَ العُمّهِ

والعُمّهُ: جمع عامِهٍ, وهم الذين يضلون فـيه فـيتـحيرون. فمعنى قوله جل ثناؤه: وَيَـمُدّهُمْ فـي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ فـي ضلالهم وكفرهم الذي قد غمرهم دنسه, وعلاهم رجسه, يترددون حيارى ضُلاّلاً لا يجدون إلـى الـمخرج منه سبـيلاً لأن الله قد طبع علـى قلوبهم وختـم علـيها, فأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها, فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبـيلاً. وبنـحو ما قلنا فـي «العَمَه» جاء تأويـل الـمتأولـين.

193ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: يَعْمَهُونَ: يتـمادون فـي كفرهم.

194ـ وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, عن معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: يَعْمَهُونَ قال: يتـمادون.

195ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله يَعْمَهُونَ قال: يترددون.

196ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: يَعْمَهُونَ: الـمتلدد.

197ـ وحدثنا مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, قال: حدثنا ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: فـي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ قال: يترددون.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

وحدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد مثله.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا سويد بن نصر عن ابن الـمبـارك, عن ابن جريج قراءة عن مـجاهد مثله.

198ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: يَعْمَهُونَ قال: يترددون.

الآية : 16

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أوْلَـَئِكَ الّذِينَ اشْتَرُواْ الضّلاَلَةَ بِالْهُدَىَ فَمَا رَبِحَتْ تّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ }

قال أبو جعفر: إن قال قائل: وكيف اشترى هؤلاء القوم الضلالة بـالهدى, وإنـما كانوا منافقـين لـم يتقدم نفـاقهم إيـمان فـيقال فـيهم بـاعوا هداهم الذي كانوا علـيه بضلالتهم حتـى استبدلوها منه؟ وقد علـمت أن معنى الشراء الـمفهوم اعتـياض شيء ببذل شيء مكانه عوضا منه, والـمنافقون الذين وصفهم الله بهذه الصفة لـم يكونوا قط علـى هدى فـيتركوه ويعتاضوا منه كفرا ونفـاقا؟ قـيـل: قد اختلف أهل التأويـل فـي معنى ذلك, فنذكر ما قالوا فـيه, ثم نبـين الصحيح من التأويـل فـي ذلك إن شاء الله.

199ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوا الضّلاَلَةَ بـالهُدَى أي الكفر بـالإيـمان.

200ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوا الضّلاَلَةَ بـالهُدَى يقول أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

201ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوا الضّلاَلَةَ بـالهُدَى: استـحبّوا الضلالة علـى الهدى.

202ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد فـي قوله: أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَروا الضّلاَلَةَ بـالهُدَى آمنوا ثم كفروا.

وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

قال أبو جعفر: فكأن الذين قالوا فـي تأويـل ذلك: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى, وجهوا معنى الشراء إلـى أنه أخذ الـمشتري مكان الثمن الـمشترى به, فقالوا: كذلك الـمنافق والكافر قد أخذا مكان الإيـمان الكفر, فكان ذلك منهما شراء للكفر والضلالة اللذين أخذاهما بتركهما ما تركا من الهدى, وكان الهدى الذي تركاه هو الثمن الذي جعلاه عوضا من الضلالة التـي أخذاها.

وأما الذين تأولوا أن معنى قوله: «اشتروا»: «استـحبوا», فإنهم لـما وجدوا الله جل ثناؤه قد وصف الكفـار فـي موضع آخر فنسبهم إلـى استـحبـابهم الكفر علـى الهدى, فقال: وأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهمْ فـاسْتَـحَبّوا العَمَى علـى الهُدَى صرفوا قوله: اشْتَروا الضّلالَةَ بـالهُدَى إلـى ذلك وقالوا: قد تدخـل البـاء مكان «علـى», و«علـى» مكان البـاء, كما يقال: مررت بفلان ومررت علـى فلان بـمعنى واحد, وكقول الله جل ثناؤه: وَمِنْ أهْلِ الكِتابِ مَنْ إنْ تأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤدّهِ إلَـيْكَ أي: علـى قنطار. فكان تأويـل الآية علـى معنى هؤلاء: أولئك الذين اختاروا الضلالة علـى الهدى. وأراهم وجهوا معنى قول الله جل ثناؤه: اشْتَروا إلـى معنى «اختاروا», لأن العرب تقول: اشتريت كذا علـى كذا, و«استريته» يعنون اخترته علـيه. ومن الاشتراء قول أعشى بنـي ثعلبة:

فقَدْ أُخْرِجُ الكاعبَ الـمُشْتَراةَ مِنْ خِدْرِها وأُشْيِعُ القِمَارا

يعنـي بـالـمشتراة: الـمختارة. وقال ذو الرمة فـي الاشتراء بـمعنى الاختـيار:

يَذُبّ القَصَايا عَنْ شَراةٍ كأنّهاجماهيرُ تـحتَ الـمُدْجِنَاتِ الهَوَاضِبِ

يعنـي بـالشّراة: الـمختارة. وقال آخر فـي مثل ذلك:

إنّ الشّرَاةَ رُوقَةُ الأمْوَالِوحَزْرَةُ القَلْبِ خِيارُ الـمَالِ

قال أبو جعفر: وهذا وإن كان وجها من التأويـل فلست له بـمختار, لأن الله جل ثَناؤه قال فَمَا رَبِحَتْ تِـجارَتُهُمْ فدل بذلك علـى أن معنى قوله أولَئِكَ الّذِينَ اشْتَروا الضّلالَةَ بـالهُدَى معنى الشراء الذي يتعارفه الناس من استبدال شيء مكان شيء وأخذ عوض علـى عوض.

وأما الذين قالوا: إن القوم كانوا مؤمنـين وكفروا, فإنه لا مؤنة علـيهم لو كان الأمر علـى ما وصفوا به القوم لأن الأمر إذا كان كذلك فقد تركوا الإيـمان, واستبدلوا به الكفر عوضا من الهدى. وذلك هو الـمعنى الـمفهوم من معانـي الشراء والبـيع, ولكن دلائل أول الآيات فـي نعوتهم إلـى آخرها دالة علـى أن القوم لـم يكونوا قط استضاءوا بنور الإيـمان ولا دخـلوا فـي ملة الإسلام, أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه من لدن ابتدأ فـي نعتهم إلـى أن أتـى علـى صفتهم إنـما وصفهم بإظهار الكذب بألسنتهم بدعواهم التصديق بنبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به, خداعا لله ولرسوله وللـمؤمنـين عند أنفسهم واستهزاءً فـي نفوسهم بـالـمؤمنـين, وهم لغير ما كانوا يظهرون مستبطنون, لقول الله جل جلاله: {وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِـاللّهِ وَبِـالـيَوْمِ الاَخِرِ وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ} ثم اقتصّ قصصهم إلـى قوله: أوْلَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوا الضّلالَةَ بـالهُدَى فأين الدلالة علـى أنهم كانوا مؤمنـين فكفروا؟.

فإن كان قائل هذه الـمقالة ظنّ أن قوله: أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتروا الضّلالَةَ بـالهُدَى هو الدلـيـل علـى أن القوم قد كانوا علـى الإيـمان فـانتقلوا عنه

إلـى الكفر, فلذلك قـيـل لهم: اشتروا فإن ذلك تأويـل غير مسلـم له, إذ كان الاشتراء عند مخالفـيه قد يكون أخذ شيء بترك آخر غيره, وقد يكون بـمعنى الاختـيار وبغير ذلك من الـمعانـي. والكلـمة إذا احتـملت وجوها لـم يكن لأحد صرف معناها إلـى بعض وجوهها دون بعض إلا بحجة يجب التسلـيـم لها.

قال أبو جعفر: والذي هو أولـى عندي بتأويـل الآية ما روينا عن ابن عبـاس وابن مسعود من تأويـلهما قوله: اشْتَرَوا الضّلالَةَ بـالهُدَى أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وذلك أن كل كافر بـالله فإنه مستبدل بـالإيـمان كفرا بـاكتسابه الكفر الذي وجد منه بدلاً من الإيـمان الذي أمر به. أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه يقول فـيـمن اكتسب كفرا به مكان الإيـمان به وبرسوله: وَمَنْ يَتَبَدّلِ الكُفْرَ بـالإيـمَانِ فَقَدْ ضَلّ سَوَاءَ السّبِـيـلِ وذلك هو معنى الشراء, لأن كل مشترٍ شيئا فإنـما يستبدل مكان الذي يؤخذ منه من البدل آخر بدلاً منه, فكذلك الـمنافق والكافر استبدلا بـالهدى الضلالة والنفـاق, فأضلهما الله وسلبهما نور الهدى فترك جميعَهم فـي ظلـمات لا يبصرون.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَمَا رَبحَتْ تِـجارَتُهُمْ.

قال أبو جعفر: وتأويـل ذلك أن الـمنافقـين بشرائهم الضلالة بـالهدى خسروا ولـم يربحوا, لأن الرابح من التـجار الـمستبدل من سلعته الـمـملوكة علـيه بدلاً هو أنفس من سلعته أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به. فأما الـمستبدل من سلعته بدلاً دونها ودون الثمن الذي يبتاعها به فهو الـخاسر فـي تـجارته لا شك. فكذلك الكافر والـمنافق لأنهما اختارا الـحيرة والعمى علـى الرشاد والهدى والـخوف والرعب علـى الـحفظ والأمن, فـاستبدلا فـي العاجل بـالرشاد الـحيرة, وبـالهدى الضلالة, وبـالـحفظ الـخوف, وبـالأمن الرعب مع ما قد أعدّ لهما فـي الآجل من ألـيـم العقاب وشديد العذاب, فخابـا وخسرا, ذلك هو الـخسران الـمبـين.

وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك كان قتادة يقول.

203ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: فَمَا رَبِحَتْ تِـجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ قد والله رأيتـموهم خرجوا من الهدى إلـى الضلالة, ومن الـجماعة إلـى الفرقة, ومن الأمن إلـى الـخوف, ومن السنة إلـى البدعة.

قال أبو جعفر: فإن قال قائل: فما وجه قوله: فَمَا رَبِحَتْ تِـجارَتُهُمْ وهل التـجارة مـما تربح أو تنقص فـيقال ربحت أو وُضِعَتْ؟ قـيـل: إن وجه ذلك علـى غير ما ظننت وإنـما معنى ذلك: فما ربحوا فـي تـجارتهم لا فـيـما اشتروا ولا فـيـما شروا. ولكن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عربـا فسلك فـي خطابه إياهم وبـيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضا وبـيانهم الـمستعمل بـينهم. فلـما كان فصيحا لديهم قول القائل لآخر: خاب سعيك, ونام لـيـلك, وخسر بـيعك, ونـحو ذلك من الكلام الذي لا يخفـى علـى سامعه ما يريد قائله خاطبهم بـالذي هو فـي منطقهم من الكلام فقال: فَمَا رَبِحَتْ تِـجارَتُهُمْ إذ كان معقولاً عندهم أن الربح إنـما هو فـي التـجارة كما النوم فـي اللـيـل, فـاكتفـى بفهم الـمخاطبـين بـمعنى ذلك عن أن يقال: فما ربحوا فـي تـجارتهم, وإن كان ذلك معناه, كما قال الشاعر:

وَشَرّ الـمَنايا مَيّتٌ وَسْطَ أهْلِهِكهُلْكِ الفَتاةِ أسْلَـم الـحَيّ حاضِرُهْ

يعنـي بذلك: وشرّ الـمنايا منـية ميت وسط أهله فـاكتفـى بفهم سامع قـيـلـه مراده من ذلك عن إظهار ما ترك إظهاره. وكما قال رؤبة بن العجاج:

حارِثُ قَدْ فَرّجْتَ عَنـي هَمّيفَنامَ لَـيْـلِـي وَتَـجَلّـى غَمّي

فوصف بـالنوم اللـيـل, ومعناه أنه هو الذي نام. وكما قال جرير بن الـخَطَفَـي:

وأعْوَرَ مِن نَبهانَ أما نَهارُهُفأعْمَى وأمّا لَـيْـلُهُ فَبَصِيرُ

فأضاف العمى والإبصار إلـى اللـيـل والنهار, ومراده وصف النبهانـي بذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَما كانُوا مُهْتَدِين.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَما كانُوا مُهْتَدِينَ ما كانوا رشداء فـي اختـيارهم الضلالة علـى الهدى, واستبدالهم الكفر بـالإيـمان, واشترائهم النفـاق بـالتصديق والإقرار.

الآية : 17

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاّ يُبْصِرُونَ }

قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: وكيف قـيـل: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا وقد علـمت أن الهاء والـميـم من قوله: مَثَلُهُمْ كناية جماعة من الرجال أو الرجال والنساء. «والذي» دلالة علـى واحد من الذكور؟ فكيف جعل الـخبر عن واحد مثلاً لـجماعة؟ وهلاّ قـيـل: مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارا وإن جاز عندك أن تـمثل الـجماعة بـالواحد فتـجيز لقائل رأى جماعة من الرجال فأعجبته صورهم وتـمام خـلقهم وأجسامهم أن يقول: كأن هؤلاء, أو كأن أجسام هؤلاء, نـخـلة.

قـيـل: أما فـي الـموضع الذي مثل ربنا جل ثناؤه جماعة من الـمنافقـين بـالواحد الذي جعله لأفعالهم مثلاً فجائز حسن, وفـي نظائره كما قال جل ثناؤه فـي نظير ذلك: تَدُورُ أعْيُنُهُمْ كالّذِي يُغْشَى عَلَـيْهِ مِنَ الـمَوْتِ يعنـي كدوران عين الذي يغشى علـيه من الـموت, وكقوله: ما خَـلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ بـمعنى إلا كبعث نفس واحدة.

وأما فـي تـمثـيـل أجسام الـجماعة من الرجال فـي طول وتـمام الـخـلق بـالواحدة من النـخيـل, فغير جائز ولا فـي نظائره لفرق بـينهما.

فأما تـمثـيـل الـجماعة من الـمنافقـين بـالـمستوقد الواحد, فإنـما جاز لأن الـمراد من الـخبر عن مثل الـمنافقـين الـخبر عن مثل استضاءتهم بـما أظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيره مستبطنون من اعتقاداتهم الرديئة, وخـلطهم نفـاقهم البـاطن بـالإقرار بـالإيـمان الظاهر. والاستضاءةُ وإن اختلفت أشخاص أهلها معنى واحد لا معان مختلفة. فـالـمثل لها فـي معنى الـمَثَل للشخص الواحد من الأشياء الـمختلفة الأشخاص. وتأويـل ذلك: مثل استضاءة الـمنافقـين بـما أظهروه من الإقرار بـالله وبـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به قولاً وهم به مكذّبون اعتقادا, كمثل استضاءة الـموقد نارا. ثم أسقط ذكر الاستضاءة وأضيف الـمثل إلـيهم, كما قال نابغة بنـي جعدة:

وكَيْفَ تُواصِلُ مَن أصْبَحَتْخِلالَتُهُ كأبـي مَرْحَبِ

يريد كخلالة أبـي مرحب, فأسقط «خلالة», إذ كان فـيـما أظهر من الكلام دلالة لسامعيه علـى ما حذف منه. فكذلك القول فـي قوله: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ

الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا لـما كان معلوما عند سامعيه بـما أظهر من الكلام أن الـمثل إنـما ضرب لاستضاءة القوم بـالإقرار دون أعيان أجسامهم حسن حذف ذكر الاستضاءة وإضافة الـمثل إلـى أهله. والـمقصود بـالـمثل ما ذكرنا, فلـما وصفنا جاز وحسن قوله: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا ويشبه مثل الـجماعة فـي اللفظ بـالواحد, إذ كان الـمراد بـالـمثل الواحد فـي الـمعنى. وأما إذا أريد تشبـيه الـجماعة من أعيان بنـي آدم أو أعيان ذوي الصور والأجسام بشيء, فـالصواب من الكلام تشبـيه الـجماعة بـالـجماعة والواحد بـالواحد, لأن عين كل واحد منهم غير أعيان الاَخرين. ولذلك من الـمعنى افترق القول فـي تشبـيه الأفعال والأسماء, فجاز تشبـيه أفعال الـجماعة من الناس وغيرهم إذا كانت بـمعنى واحد بفعل الواحد, ثم حذف أسماء الأفعال, وإضافة الـمثل والتشبـيه إلـى الذين لهم الفعل, فـيقال: ما أفعالكم إلا كفعل الكلب, ثم يحذف فـيقال: ما أفعالكم إلا كالكلب أو كالكلاب, وأنت تعنـي: إلا كفعل الكلب وإلا كفعل الكلاب. ولـم يجز أن تقول: ما هم إلا نـخـلة, وأنت تريد تشبـيه أجسامهم بـالنـخـل فـي الطول والتـمام. وأما قوله: اسْتَوْقَدَ نارا فإنه فـي تأويـل أوقد, كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَايا مَنْ يُجِيبُ إلـى النّدَىفَلَـمْ يَسْتَـجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُـجِيبُ

يريد: فلـم يجبه. فكان معنى الكلام إذا مثل استضاءة هؤلاء الـمنافقـين فـي إظهارهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولـلـمؤمنـين بألسنتهم من قولهم: آمنا بـالله وبـالـيوم الاَخر وصدقنا بـمـحمد, وبـما جاء به, وهم للكفر مستبطنون فـيـما الله فـاعل بهم, مثل استضاءة موقد نار بناره حتـى أضاءت له النار ما حوله, يعنـي ما حول الـمستوقد.

وقد زعم بعض أهل العربـية من أهل البصرة أن «الذي» فـي قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا بـمعنى «الذين» كما قال جل ثناؤه: وَالّذِي جاءَ بـالصّدْقِ وصَدّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الـمُتّقُونَ. وكما قال الشاعر:

فَإنّ الّذِي حَانَتْ بِفَلْـجٍ دِمَاؤُهُمْهُمُ الْقَوْمُ كُلّ الْقَوْمِ يَا أمّ خَالِدِ

قال أبو جعفر: والقول الأول هو القول لـما وصفنا من العلة, وقد أغفل قائل ذلك فرق ما بـين الذي فـي الاَيتـين وفـي البـيت, لأن «الذي» فـي قوله: وَالّذِي جاءَ بـالصّدقِ قد جاءت الدلالة علـى أن معناها الـجمع, وهو قوله: أُولَئِكَ هُمُ الـمُتّقُونَ وكذلك الذي فـي البـيت, وهو قوله: دماؤهم. ولـيست هذه الدلالة فـي قوله: كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا. فذلك فرق ما بـين «الذي» فـي قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا وسائر شواهده التـي استشهد بها علـى أن معنى «الذي» فـي قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا بـمعنى الـجماعة, وغير جائز لأحد نقل الكلـمة التـي هي الأغلب فـي استعمال العرب علـى معنى إلـى غيره إلا بحجة يجب التسلـيـم لها.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك, فروي عن ابن عبـاس فـيه أقوال أحدها ما:

204ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: ضرب الله للـمنافقـين مثلاً فقال: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فـي ظُلُـماتٍ لا يُبْصِرُونَ أي يبصرون الـحق ويقولون به, حتـى إذا خرجوا به من ظلـمة الكفر أطفئوه

بكفرهم ونفـاقهم فـيه, فتركهم فـي ظلـمات الكفر فهم لا يبصرون هدى ولا يستقـيـمون علـى حق. والآخر ما:
205ـ حدثنا به الـمثنى به إبراهيـم, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنا معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا إلـى آخر الآية. هذا مثل ضربه الله للـمنافقـين أنهم كانوا يعتزون بـالإسلام فـيناكحهم الـمسلـمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفـيء, فلـما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم فـي ظلـمات, يقول فـي عذاب. والثالث ما:
206ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فـي ظُلُـماتٍ لا يُبْصِرُونَ: زعم أن أناسا دخـلوا فـي الإسلام مَقْدَم النبـي صلى الله عليه وسلم الـمدينة, ثم إنهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان فـي ظلـمة فأوقد نارا فأضاءت له ما حوله من قذى أو أذى, فأبصره حتـى عرف ما يتقـي, فبـينا هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدري ما يتقـي من أذى, فكذلك الـمنافق كان فـي ظلـمة الشرك فأسلـم فعرف الـحلال من الـحرام, والـخير من الشرّ. فبـينا هو كذلك إذ كفر, فصار لا يعرف الـحلال من الـحرام, ولا الـخير من الشر. وأما النور فـالإيـمان بـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم, وكانت الظلـمة نفـاقهم. والآخر ما:
207ـ حدثنـي به مـحمد بن سعيد, قال: حدثنـي أبـي سعيد بن مـحمد, قال: حدثنـي عمي عن أبـيه عن جده عن ابن عبـاس قوله: مَثَلَهُمُ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَارا إلـى: فَهُمُ لاَ يَرْجِعُونَ ضربه الله مثلاً للـمنافق, وقوله: ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ قال: أما النور فهو إيـمانهم الذي يتكلـمون به. وأما الظلـمة: فهي ضلالتهم وكفرهم, يتكلـمون به وهم قوم كانوا علـى هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك. وقال آخرون بـما.
208ـ حدثنـي به بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِـي ظُلُـمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ وإن الـمنافق تكلـم بلا إلَه إلا الله فأضاءت له فـي الدنـيا فناكح بها الـمسلـمين وغازى بها الـمسلـمين ووارث بها الـمسلـمين وحقن بها دمه وماله. فلـما كان عند الـموت سُلبها الـمنافق لأنه لـم يكن لها أصل فـي قلبه ولا حقـيقة فـي علـمه.
وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ هي لا إلَه إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا فـي الدنـيا ونكحوا النساء وحقنوا بها دماءهم, حتـى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فـي ظلـمات لا يبصرون.
209ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي أبو نـميـلة, عن عبـيد بن سلـيـمان, عن الضحاك بن مزاحم قوله: كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ قال: أما النور فهو إيـمانهم الذي يتكلـمون به وأما الظلـمات, فهي ضلالتهم وكفرهم.
وقال آخرون بـما:

210ـ حدثنـي به مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, قال: حدثنا ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد فـي قول الله: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ قال: أما إضاءة النار: فإقبـالهم إلـى الـمؤمنـين والهدى وذهاب نورهم: إقبـالهم إلـى الكافرين والضلالة.

وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, عن شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ: أما إضاءة النار: فإقبـالهم إلـى الـمؤمنـين والهدى وذهاب نورهم: إقبـالهم إلـى الكافرين والضلالة.

حدثنـي القاسم, قال: حدثنـي الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد مثله.

211ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس, قال: ضرب مثل أهل النفـاق فقال: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا قال: إنـما ضوء النار ونورها ما أوقدتها, فإذا خمدت ذهب نورها, كذلك الـمنافق كلـما تكلـم بكلـمة الإخلاص أضاء له, فإذا شك وقع فـي الظلـمة.

212ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنـي عبد الرحمن بن زيد فـي قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا إلـى آخر الآية. قال: هذه صفة الـمنافقـين, كانوا قد آمنوا حتـى أضاء الإيـمان فـي قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ثم كفروا, فذهب الله بنورهم, فـانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار, فتركهم فـي ظلـمات لا يبصرون.

وأولـى التأويلات بـالآية ما قاله قتادة والضحاك, وما رواه علـيّ بن أبـي طلـحة عن ابن عبـاس. وذلك أن الله جل ثناؤه إنـما ضرب هذا الـمثل للـمنافقـين الذين وصف صفتهم وقصّ قصصهم من لدن ابتدأ بذكرهم بقوله: مِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وبَـالـيَوْمِ الاَخِرِ وَمَا هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ لا الـمعلنـين بـالكفر الـمـجاهرين بـالشرك.

ولو كان الـمثل لـمن آمن إيـمانا صحيحا ثم أعلن بـالكفر إعلانا صحيحا علـى ما ظنّ الـمتأول قول الله جل ثناؤه: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فـي ظُلُـمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ أن ضوء النار مثل لإيـمانهم الذي كان منهم عنده علـى صحة, وأن ذهاب نورهم مثل لارتدادهم وإعلانهم الكفر علـى صحة لـم يكن هنالك من القوم خداع ولا استهزاء عند أنفسهم ولا نفـاق, وأنى يكون خداع ونفـاق مـمن لـم يبدلك قولاً ولا فعلاً إلا ما أوجب لك العلـم بحاله التـي هو لك علـيها, وبعزيـمة نفسه التـي هو مقـيـم علـيها؟ إن هذا بغير شك من النفـاق بعيد ومن الـخداع بريء, فإن كان القوم لـم تكن لهم إلا حالتان: حال إيـمان ظاهر, وحال كفر ظاهر, فقد سقط عن القوم اسم النفـاق لأنهم فـي حال إيـمانهم الصحيح كانوا مؤمنـين, وفـي حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين, ولا حالة هناك ثالثة كانوا بها منافقـين. وفـي وصف الله جل ثناؤه إياهم بصفة النفـاق ما ينبىء عن أن القول غير القول الذي زعمه من زعم أن القوم كانوا مؤمنـين ثم ارتدوا إلـى الكفر فأقاموا علـيه, إلا أن يكون قائل ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيـمانهم الذي كانوا علـيه إلـى الكفر الذي هو نفـاق, وذلك قول إن قاله لـم تدرك صحته إلا بخير مستفـيض أو ببعض الـمعانـي الـموجبة

صحته. فأما فـي ظاهر الكتاب, فلا دلالة علـى صحته لاحتـماله من التأويـل ما هو أولـى به منه. فإذا كان الأمر علـى ما وصفنا فـي ذلك, فأولـى تأويلات الآية بـالآية مثل استضاءة الـمنافقـين بـما أظهروا بألسنتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإقرار به, وقولهم له وللـمؤمنـين: آمَنا بـاللّهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ, حتـى حُكم لهم بذلك فـي عاجل الدنـيا بحكم الـمسلـمين فـي حقن الدماء والأموال والأمن علـى الذرية من السبـاء, وفـي الـمناكحة والـموارثة كمثل استضاءة الـموقد النار بـالنار, حتـى إذا ارتفق بضيائها وأبصر ما حوله مستضيئا بنوره من الظلـمة, خمدت النار وانطفأت, فذهب نوره, وعاد الـمستضيء به فـي ظلـمة وحيرة. وذلك أن الـمنافق لـم يزل مستضيئا بضوء القول الذي دافع عنه فـي حياته القتل والسبـاء مع استبطانه ما كان مستوجبـا به القتل وسلب الـمال لو أظهره بلسانه, تُـخيّـل إلـيه بذلك نفسه أنه بـالله ورسوله والـمؤمنـين مستهزىء مخادع, حتـى سوّلت له نفسه, إذ ورد علـى ربه فـي الآخرة, أنه ناج منه بـمثل الذي نـجا به فـي الدنـيا من الكذب والنفـاق. أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه يقول إذ نعتهم ثم أخبرهم عند ورودهم علـيه: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعا فَـيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أنّهُمْ علـى شَيْءٍ ألاَ إنّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ} ظنا من القوم أن نـجاتهم من عذاب الله فـي الآخرة فـي مثل الذي كان به نـجاتهم من القتل والسبـاء وسلب الـمال فـي الدنـيا من الكذب والإفك, وأن خداعهم نافعهم هنالك نفعه إياهم فـي الدنـيا. حتـى عاينوا من أمر الله ما أيقنوا به أنهم كانوا من ظنونهم فـي غرور وضلال, واستهزاء بأنفسهم وخداع, إذ أطفأ الله نورهم يوم القـيامة فـاستنظروا الـمؤمنـين لـيقتبسوا من نورهم, فقـيـل لهم: ارجعوا وراءكم فـالتـمسوا نورا واصلوا سعيرا. فذلك حين ذهب الله بنورهم وتركهم فـي ظلـمات لا يبصرون, كما انطفأت نار الـمستوقد النار بعد إضاءتها له, فبقـي فـي ظلـمته حيران تائها يقول الله جل ثناؤه: يَوْمَ يَقُولُ الـمُنَافِقُونَ والـمُنَافِقَاتُ لِلّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِـيـلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَـالْتَـمِسُوا نُورا فَضُرِبَ بَـيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَـابٌ بـاطِنُهُ فِـيهِ الرّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ يُنادونَهُمْ ألَـم نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَـى وَلَكِنّكُمْ فَتَنْتُـمْ أنْفُسَكُمْ وَتَرَبّصْتُـمْ وَارْتَبْتُـمْ وَغَرّتْكُمُ الأمانِـيّ حتـى جاءَ أمْرُ اللّهِ وَغَرّكُمْ بـاللّهِ الغَرُورُ فـالـيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا مأْوَاكُمُ النّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الـمَصِير.

فإن قال لنا قائل: إنك ذكرت أن معنى قول الله تعالـى ذكره: كمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نارا فَلَـما أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ: خمدت وانطفأت, ولـيس ذلك بـموجود فـي القرآن, فما دلالتك علـى أن ذلك معناه؟ قـيـل: قد قلنا إن من شأن العرب الإيجاز والاختصار إذا كان فـيـما نطقت به الدلالة الكافـية علـى ما حذفت وتركت, كما قال أبو ذؤيب الهذلـي:

عَصَيْتُ إلَـيْهَا القَلْبَ إنـي لأمْرِهاسَمِيعٌ فَمَا أدْرِي أرُشْدٌ طِلاُبها

يعنـي بذلك: فما أدري أرشد طلابها أم غيّ, فحذف ذكر «أم غيّ», إذ كان فـيـما نطق به الدلالة علـيها. وكما قال ذو الرمة فـي نعت حمير:

فَلَـمّا لَبِسْنَ اللّـيْـلَ أوْ حِينَ نَصّبَتْلَهُ مِنْ خَذَا آذَانها وَهْوَ جانِـحُ

يعنـي: أو حين أقبل اللـيـل. فـي نظائر لذلك كثـيرة كرهنا إطالة الكتاب بذكرها. فكذلك قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَارا فَلَـمّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ لـما

كان فـيه وفـيـما بعده من قوله: ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِـي ظُلُـمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ دلالة علـى الـمتروك كافـية من ذكره اختصر الكلام طلب الإيجاز. وكذلك حذف ما حذف واختصار ما اختصر من الـخبر عن مثل الـمنافقـين بعده, نظير ما اختصر من الـخبر عن مثل الـمستوقد النار لأن معنى الكلام: فكذلك الـمنافقون ذهب الله بنورهم وتركهم فـي ظلـمات لا يبصرون بعد الضياء الذي كانوا فـيه فـي الدنـيا بـما كانوا يظهرون بألسنتهم من الإقرار بـالإسلام وهم لغيره مستبطنون, كما ذهب ضوء نار هذا الـمستوقد بـانطفـاء ناره وخمودها فبقـي فـي ظلـمة لا يبصر, والهاء والـميـم فـي قوله: ذَهَبَ الله بنُورِهمْ عائدة علـى الهاء والـميـم فـي قوله: مَثَلُهُمْ.

الآية : 18

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ }

قال أبو جعفر: وإذ كان تأويـل قول الله جل ثناؤه: ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فـي ظُلُـماتٍ لا يُبْصِرُونَ هو ما وصفنا من أن ذلك خبر من الله جل ثناؤه عما هو فـاعل بـالـمنافقـين فـي الآخرة, عند هتك أستارهم, وإظهاره فضائح أسرارهم, وسلبه ضياء أنوارهم من تركهم فـي ظلـم أهوال يوم القـيامة يترددون, وفـي حنادسها لا يبصرون فبـينٌ أن قوله جل ثناؤه: صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ من الـمؤخر الذي معناه التقديـم, وأن معنى الكلام: أولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرُوا الضّلاَلَةَ بـالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِـجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ, صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لاَ يَرْجِعُونَ مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَارا فَلَـمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِـي ظُلُـماتٍ لا يَبْصِرُونَ, أوْ كمثل صيب من السّماءِ. وإذ كان ذلك معنى الكلام, فمعلوم أن قوله: صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ يأتـيه الرفع من وجهين, والنصب من وجهين. فأما أحد وجهي الرفع, فعلـى الاستئناف لـما فـيه من الذم, وقد تفعل العرب ذلك فـي الـمدح والذم, فتنصب وترفع وإن كان خبرا عن معرفة, كما قال الشاعر:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الّذِينَ هُمُسُمّ العُداةِ وآفَةُ الـجُزْرِ
النّازِلِـينَ بِكُلّ مُعْتَرَكٍوَالطّيّبِـينَ مَعَاقِدَ ألازْرِ

فـيروي: «النازلون والنازلـين» وكذلك «الطيبون والطيبـين», علـى ما وصفت من الـمدح. والوجه الآخر علـى نـية التكرير من أولئك, فـيكون الـمعنى حينئذٍ: أولَئِكَ الّذِينَ اشْتَروا الضّلاَلَةَ بـالهدَى فَمَا رَبِحَتْ تِـجارَتُهُمْ وَما كَانُوا مُهْتَدِينَ أولئك صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ.

وأما أحد وجهي النصب, فأن يكون قطعا مـما فـي «مهتدين», من ذكر «أولئك», لأن الذي فـيه من ذكرهم معرفة, والصمّ نكرة. والآخر أن يكون قطعا من «الذين», لأن «الذين» معرفة والصم نكرة. وقد يجوز النصب فـيه أيضا علـى وجه الذم فـيكون ذلك وجها من النصب ثالثا. فأما علـى تأويـل ما روينا عن ابن عبـاس من غير وجه رواية علـيّ بن أبـي طلـحة عنه, فإنه لا يجوز فـيه الرفع إلا من وجه واحد وهو الاستئناف.

وأما النصب فقد يجوز فـيه من وجهين: أحدهما الذمّ, والآخر القطع من الهاء والـميـم اللتـين فـي «تركهم», أو من ذكرهم فـي «لا يبصرون». وقد بـينا القول الذي هو أولـى بـالصواب فـي تأويـل ذلك. والقراءةُ التـي هي قراءةُ الرفعُ دون النصب, لأنه لـيس لأحد خلاف رسوم مصاحب الـمسلـمين, وإذا قرىء نصبـا كانت قراءة مخالفة رسم مصاحفهم.

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن الـمنافقـين, أنهم بـاشترائهم الضلالة بـالهدى, لـم يكونوا للهدى والـحق مهتدين, بل هم صمّ عنهما فلا يسمعونهما لغلبة خذلان الله علـيهم, بُكْمٌ عن القـيـل بهما, فلا ينطقون بهما والبكم: الـخُرْس, وهو جمع أبكم عميٌ عن أن يبصروهما فـيعقلوهما لأن الله قد طبع علـى قلوبهم بنفـاقهم فلا يهتدون. وبـمثل ما قلنا فـي ذلك قال علـماء أهل التأويـل.

213ـ حدثنا عبد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: صمّ بُكْمٌ عُمْيٌ عن الـخير.

214ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ يقول: لا يسمعون الهدى, ولا يبصرونه, ولا يعقلونه.

215ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: بُكْمٌ: هم الـخرس.

216ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: صمّ بُكْمٌ عُمْيٌ: صم عن الـحق فلا يسمعونه, عمي عن الـحق فلا يبصرونه, بكم عن الـحق فلا ينطقون به.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ.

قال أبو جعفر: وقوله: فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ إخبـار من الله جل ثناؤه عن هؤلاء الـمنافقـين الذين نعتهم الله بـاشترائهم الضلالة بـالهدى, وصمـمهم عن سماع الـخير والـحق, وبكمهم عن القـيـل بهما, وعماهم عن إبصارهما أنهم لا يرجعون إلـى الإقلاع عن ضلالتهم, ولا يتوبون إلـى الإنابة من نفـاقهم, فآيس الـمؤمنـين من أن يبصر هؤلاء رشدا, ويقولوا حقا, أو يسمعوا داعيا إلـى الهدى, أو أن يذكروا فـيتوبوا من ضلالتهم, كما آيس من توبة قادة كفـار أهل الكتاب والـمشركين وأحبـارهم الذين وصفهم بأنه قد ختـم علـى قلوبهم وعلـى سمعهم وغَشّى علـى أبصارهم. وبـمثل الذي قلنا فـي تأويـل ذلك قال أهل التأويـل.

217ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ أي لا يتوبون ولا يذكرون.

218ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ إلـى الإسلام.

وقد رُوي عن ابن عبـاس قول يخالف معناه معنى هذا الـخبر وهو ما:

219ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ: أي فلا يرجعون إلـى الهدى ولا إلـى خير, فلا يصيبون نـجاة ما كانوا علـى ما هم علـيه.

وهذا تأويـل ظاهر التلاوة بخلافه, وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن القوم أنهم لا يرجعون عن اشترائهم الضلالة بـالهدى إلـى ابتغاء الهدى وإبصار

الـحق من غير حصر منه جل ذكره ذلك من حالهم إلـى وقت دون وقت وحال دون حال. وهذا الـخبر الذي ذكرناه عن ابن عبـاس ينبىء عن أن ذلك من صفتهم مـحصور علـى وقت وهو ما كانوا علـى أمرهم مقـيـمين, وأن لهم السبـيـل إلـى الرجوع عنه. وذلك من التأويـل دعوى بـاطلة لا دلالة علـيها من ظاهر ولا من خبر تقوم بـمثله الـحجة فـيسلـم لها.

الآية : 19

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{أَوْ كَصَيّبٍ مّنَ السّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِيَ آذَانِهِم مّنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ }
قال أبو جعفر: والصيّب الفـيعل, من قولك: صاب الـمطر يصوب صَوْبـا: إذا انـحدر ونزل, كما قال الشاعر:
فَلَسْتَ لاَنْسِيَ وَلَكِنْ لـمَءَلاكٍتَنَزّلَ مِنْ جَوّ السمّاءِ يَصُوبُ
وكما قال علقمة بن عبدة:
كأنّهُمُ صَابَتْ عَلَـيْهِمْ سَحَابَةٌصَوَاعِقُها لِطَيْرِهِنّ دَبِـيبُ
فَلا تَعْدِلـي بَـيْنِـي وَبَـيْنَ مُغَمّرٍسُقِـيتِ رَوَايا الـمُزْنِ حِينَ تَصُوبُ
يعنـي: حين تنـحدر. وهو فـي الأصل: صيوب, ولكن الواو لـما سبقتها ياء ساكنة صيرتا جميعا ياء مشددة, كما قـيـل: سيد من ساد يسود, وجيد من جاد يجود. وكذلك تفعل العرب بـالواو إذا كانت متـحركة وقبلها ياء ساكنة تصيرهما جميعا ياء مشددة. وبـما قلنا من القول فـي ذلك قال أهل التأويـل.
220ـ حدثنـي مـحمد بن إسماعيـل الأحمسي, قال: حدثنا مـحمد بن عبـيد, قال: حدثنا هارون بن عنترة, عن أبـيه, عن ابن عبـاس فـي قوله: أو كَصَيّبٍ مِنَ السّمَاءِ قال: القطر.
221ـ وحدثنـي عبـاس بن مـحمد, قال: حدثنا حجاج, قال: قال ابن جريج, قال لـي عطاء: الصيب: الـمطر.
222ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ عن ابن عبـاس, قال: الصيب: الـمطر.
223ـ وحدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: الصيب: الـمطر.
وحدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي سعد, قال: حدثنـي عمي الـحسين, عن أبـيه, عن جده, عن ابن عبـاس مثله.
224ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: أو كصيب قال: الـمطر.
وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر, عن قتادة مثله.
225ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, وعمرو بن علـي, قالا: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: الصيب: الـمطر.
وحدثنـي الـمثنى قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: الصيب: الـمطر.

226ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق عن ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: الصيب: الـمطر.

وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس قال: الصيب: الـمطر.

227ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد: أوْ كَصَيّبٍ مِنَ السمّاءِ قال: أو كغيث من السماء.

228ـ وحدثنا سوار بن عبد الله العنبري, قال: قال سفـيان: الصيب: الذي فـيه الـمطر.

حدثنا عمرو بن علـي, قال: حدثنا معاوية, قال: حدثنا ابن جريج, عن عطاء فـي قوله: أو كصيب من السماء قال: الـمطر.

قال أبو جعفر: وتأويـل ذلك: مثل استضاءة الـمنافقـين بضوء إقرارهم بـالإسلام مع استسرارهم الكفر, مثل إضاءة موقد النار بضوء ناره علـى ما وصف جل ثناؤه من صفته, أو كمثل مطر مظلـم وَدْقُه تـحدّر من السماء تـحمله مزنة ظلـماء فـي لـيـلة مظلـمة, وذلك هو الظلـمات التـي أخبر الله جل ثناؤه أنها فـيه.

فإن قال لنا قائل: أخبرنا عن هذين الـمثلـين, أهما مثلان للـمنافقـين أو أحدهما؟ فإن يكونا مثلـين للـمنافقـين فكيف قـيـل: أوْ كَصَيّبٍ, و«أو» تأتـي بـمعنى الشك فـي الكلام, ولـم يقل: وكصيب, بـالواو التـي تلـحق الـمثل الثانـي بـالـمثل الأول؟ أو يكون مثل القوم أحدهما, فما وجه ذكر الاَخر ب«أو», وقد علـمت أن «أو» إذا كانت فـي الكلام فإنـما تدخـل فـيه علـى وجه الشك من الـمخبر فـيـما أخبر عنه, كقول القائل: لقـينـي أخوك أو أبوك, وإنـما لقـيه أحدهما, ولكنه جهل عين الذي لقـيه منهما, مع علـمه أن أحدهما قد لقـيه وغير جائز فـي الله جل ثناؤه أن يضاف إلـيه الشك فـي شيء أو عزوب علـم شيء عنه فـيـما أخبر أو ترك الـخبر عنه. قـيـل له: إن الأمر فـي ذلك بخلاف الذي ذهبت إلـيه, و«أو» وإن كانت فـي بعض الكلام تأتـي بـمعنى الشك, فإنها قد تأتـي دالة علـى مثل ما تدلّ علـيه الواو إما بسابق من الكلام قبلها, وإما بـما يأتـي بعدها كقول توبة بن الـحُمَيّر:

وَقَدْ زَعَمَتْ لَـيْـلَـى بأنَى فـاجِرٌلِنَفْسِي تُقاها أوْ عَلَـيْهَا فُجُورُها

ومعلوم أن ذلك من توبة علـى غير وجه الشك فـيـما قال. ولكن لـما كانت «أو» فـي هذا الـموضع دالة علـى مثل الذي كانت تدل علـيه الواو لو كانت مكانها, وَضَعَها موضعها. وكذلك قول جرير:

جاءَ الـخِلاَفَةَ أوْ كَانَتْ لَهُ قَدَراكما أتـى رَبّهُ مُوسَى علـى قَدَرِ

قال آخر

فَلَوْ كانَ البُكاءُ يَرُدّ شَيْئابَكَيْتُ علـى جُبَـيرٍ أوْ عَناقِ

عَلـى الـمَرأيْنِ إذْ مَضَيا جَمِيعالِشأنِهِما بِحُزْنٍ وَاشْتِـياقِ

أوْ كَصَيّبٍ منَ السمّاءِ لـما كان معلوما أن «أو» دالة فـي ذلك علـى مثل الذي كانت تدل علـيه الواو, ولو كانت مكانها كان سواء نطق فـيه ب«أو» أو بـالواو. وكذلك وجه حذف الـمثل من قوله: أوْ كَصَيّبٍ لـما كان قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا دالاّ علـى أن معناه: كمثل صيب, حذف الـمثل واكتفـى بدلالة ما مضى من الكلام فـي قوله: كمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا علـى أن معناه: أو كمثل صيب, من إعادة ذكر الـمثل طلب الإيجاز والاختصار.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: { فِـيهِ ظُلُـماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِـي آذَانِهِمْ مِنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الـمَوْتِ وَاللَّهُ مُـحِيطٌ بـالكافِرِينَ يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِـيهِ وَإذَا أظْلَـمَ عَلَـيْهِمْ قَامُوا}.

قال أبو جعفر: فأما الظلـمات فجمع, واحدها ظلـمة وأما الرعد فإن أهل العلـم اختلفوا فـيه فقال بعضهم: هو ملك يزجر السحاب. ذكر من قال ذلك:

229ـ حدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا مـحمد بن جعفر, قال: حدثنا شعبة عن الـحكم, عن مـجاهد, قال: الرعد ملك يزجر السحاب بصوته.

وحدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا ابن أبـي عديّ, عن شعبة عن الـحكم عن مـجاهد مثله.

وحدثنـي يحيى بن طلـحة الـيربوعي, قال: حدثنا فضيـل بن عياض, عن لـيث, عن مـجاهد مثله.

230ـ وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم قال: أنبأنا إسماعيـل بن سالـم عن أبـي صالـح, قال: الرعد ملك من الـملائكة يسبح.

231ـ وحدثنـي نصر بن عبد الرحمن الأودي, قال: حدثنا مـحمد بن يعلـى, عن أبـي الـخطاب البصري, عن شهر بن حوشب قال: الرعد: ملك موكل بـالسحاب, يسوقه كما يسوق الـحادي الإبل, يسبح كلـما خالفت سحابة سحابة صاح بها, فإذا اشتد غضبه طارت النار من فـيه, فهي الصواعق التـي رأيتـم.

232ـ وحدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: الرعد: ملك من الـملائكة اسمه الرعد, وهو الذي تسمعون صوته.

233ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا عبد الـملك بن حسين عن السدي, عن أبـي مالك, عن ابن عبـاس, قال: الرعد: ملك يزجر السحاب بـالتسبـيح والتكبـير.

234ـ وحدثنا الـحسن بن مـحمد, قال: حدثنا علـيّ بن عاصم, عن ابن جريج, عن مـجاهد, عن ابن عبـاس, قال: الرعد: اسم ملك, وصوته هذا تسبـيحه, فإذا اشتدّ زجره السحاب اضطرب السحاب واحتك فتـخرج الصواعق من بـينه.

235ـ حدثنا الـحسن, قال: حدثنا عفـان, قال: حدثنا أبو عوانة, عن موسى البزار, عن شهر بن حوشب عن ابن عبـاس, قال: الرعد: ملك يسوق السحاب بـالتسبـيح, كما يسوق الـحادي الإبل بحدائه.

حدثنا الـحسن بن مـحمد, قال: حدثنا يحيى بن عبـاد وشبـابة قالا: حدثنا شعبة, عن الـحكم, عن مـجاهد, قال: الرعد: ملك يزجر السحاب.

236ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا عتاب بن زياد, عن عكرمة, قال: الرعد: ملك فـي السحاب يجمع السحاب كما يجمع الراعي الإبل.

237ـ وحدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: الرعد: خَـلْقٌ من خَـلْقِ الله جل وعز سامع مطيع لله جل وعز.

238ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن عكرمة, قال: إن الرعد ملك يؤمر بـازجاء السحاب فـيؤلف بـينه, فذلك الصوت تسبـيحه.

239ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاح, عن ابن جريج, عن مـجاهد, قال: الرعد: ملك.

240ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحجاج بن الـمنهال, قال: حدثنا حماد بن سلـمة, عن الـمغيرة بن سالـم, عن أبـيه أو غيره, أن علـي بن أبـي طالب قال: الرعد: ملك.

241ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا حجاج, قال: حدثنا حماد, قال: أخبرنا موسى بن سالـم أبو جهضم مولـى ابن عبـاس, قال: كتب ابن عبـاس إلـى أبـي الـجَلْد يسأله عن الرعد؟ فقال: الرعد: ملك.

242ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا مسلـم بن إبراهيـم, قال: حدثنا عمر بن الولـيد السنـي, عن عكرمة, قال: الرعد: ملك يسوق السحاب كما يسوق الراعي الإبل.

243ـ حدثنـي سعد بن عبد الله بن عبد الـحكم, قال: حدثنا حفص بن عمر, قال: حدثنا الـحكم بن أبـان, عن عكرمة, قال: كان ابن عبـاس إذا سمع الرعد, قال: سبحان الذي سبحت له, قال: وكان يقول: إن الرعد: ملك ينعق بـالغيث كما ينعق الراعي بغنـمه.

وقال آخرون: إن الرعد: ريح تـختنق تـحت السحاب, فتصاعد فـيكون منه ذلك الصوت ذكر من قال ذلك:

244ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا بشر بن إسماعيـل, عن أبـي كثـير, قال: كنت عند أبـي الـجَلْد, إذ جاءه رسول ابن عبـاس بكتاب إلـيه, فكتب إلـيه: كتبت تسألنـي عن الرعد, فـالرعد: الريح.

245ـ حدثنـي إبراهيـم بن عبد الله, قال: حدثنا عمران بن ميسرة, قال: حدثنا ابن إدريس عن الـحسن بن الفرات, عن أبـيه, قال: كتب ابن عبـاس إلـى أبـي الـجلد يسأله عن الرعد, فقال: الرعد: ريح.

قال أبو جعفر: فإن كان الرعد ما ذكره ابن عبـاس ومـجاهد, فمعنى الآية: أو كصيب من السماء فـيه ظلـمات وصوت رعد لأن الرعد إنْ كان ملكا يسوق السحاب, فغير كائن فـي الصيب لأن الصّيب إنـما هو ما تـحدّر من صوب السحاب والرعد: إنـما هو فـي جوّ السماء يسوق السحاب, علـى أنه لو كان فـيه يـمر لـم يكن له صوت مسموع, فلـم يكن هنالك رعب يرعب به أحد لأنه قد قـيـل: إن مع كل قطرة من قطر الـمطر ملكا, فلا يعدو الـملك الذي اسمه الرعد لو كان مع الصيب إذا لـم يكن مسموعا صوته أن يكون كبعض تلك الـملائكة التـي تنزل مع القطر إلـى الأرض فـي أن لا رعب علـى أحد بكونه فـيه. فقد عُلـم إذْ كان الأمر علـى ما وصفنا من قول ابن عبـاس إن معنى الآية: أو كمثل غيث تـحدر من السماء فـيه ظلـمات وصوت رعد إن كان الرعد هو ما قاله ابن عبـاس, وأنه استغنى بدلالة ذكر الرعد بـاسمه علـى الـمراد فـي الكلام من ذكر صوته. وإن كان الرعد ما قاله أبو الـخـلد فلا شيء فـي قوله: «فـيه ظلـمات ورعد» متروك, لأن معنى الكلام حينئذٍ: فـيه ظلـمات ورعد الذي هو وما وصفنا صفته.

وأما البرق, فإن أهل العلـم اختلفوا فـيه فقال بعضهم بـما:

246ـ حدثنا مطر بن مـحمد الضبـي, قال: حدثنا أبو عاصم ح وحدثنـي مـحمد بن بشار قال: حدثنـي عبد الرحمن بن مهدي وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قالوا جميعا: حدثنا سفـيان الثوري, عن سلـمة بن كهيـل, عن سعيد بن أشوع, عن ربـيعة بن الأبـيض, عن علـيّ قال: البرق: مخاريق الـملائكة.

247ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا عبد الـملك بن الـحسين, عن السدي عن أبـي مالك, عن ابن عبـاس: البرق مخاريق بأيدي الـملائكة يزجرون بها السحاب.

248ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحجاج, قال: حدثنا حماد, عن الـمغيرة بن سالـم, عن أبـيه أو غيره أن علـيّ بن أبـي طالب قال: الرعد: الـملك, والبرق: ضربه السحاب بـمخراق من حديد.

وقال آخرون: هو سوط من نور يزجر به الـملك السحاب.

حدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس بذلك.

وقال آخرون: هو ماء. ذكر من قال ذلك:

249ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا بشر بن إسماعيـل, عن أبـي كثـير, قال: كنت عند أبـي الـجَلَد إذ جاءه رسول ابن عبـاس بكتاب إلـيه, فكتب إلـيه: تسألنـي عن البرق, فـالبرق: الـماء.

250ـ حدثنا إبراهيـم بن عبد الله, قال: حدثنا عمران بن ميسرة, قال: حدثنا ابن إدريس, عن الـحسن بن الفرات, عن أبـيه, قال: كتب ابن عبـاس إلـى أبـي الـجَلَد يسأله عن البرق, فقال: البرق: ماء.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن عطاء, عن رجل من أهل البصرة من قرائهم, قال: كتب ابن عبـاس إلـى أبـي الـجَلَد رجل من أهل هجر يسأله عن البرق, فكتب إلـيه: كتبت إلـيّ تسألنـي عن البرق: وإنه من الـماء.

وقال آخرون: هو مَصْعُ مَلَكٍ.

251ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, قال: حدثنا سفـيان عن عثمان بن الأسود, عن مـجاهد, قال: البرق: مَصْع مَلَك.

252ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا هشام, عن مـحمد بن مسلـم الطائفـي, قال: بلغنـي أن البرق ملك له أربعة أوجه: وجه إنسان, ووجه ثور, ووجه نسر, ووجه أسد, فإذا مصع بأجنـحته فذلك البرق.

253ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن وهب بن سلـيـمان, عن شعيب الـجبـائي, قال: فـي كتاب الله الـملائكة حملة العرش, لكل ملك منهم وجه إنسان, وثور, وأسد, فإذا حركوا أجنـحتهم فهو البرق. وقال أمية بن أبـي الصلت:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَـحْتَ رِجْلِ يَـمِينِهِوالنّسْرُ للاخْرَى وَلَـيْثٌ مُرْصِدُ

254ـ حدثنا الـحسين بن مـحمد, قال: حدثنا علـيّ بن عاصم, عن ابن جريج, عن مـجاهد, عن ابن عبـاس: البرق: ملك.

255ـ وقد حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: الصواعق ملك يضرب السحاب بـالـمخاريق يصيب منه من يشاء.

قال أبو جعفر: وقد يحتـمل أن يكون ما قاله علـيّ بن أبـي طالب وابن عبـاس ومـجاهد بـمعنى واحد وذلك أن تكون الـمخاريق التـي ذكر علـيّ رضي الله عنه أنها هي البرق هي السياط التـي هي من نور التـي يزجي بها الـملك السحاب, كما قال ابن عبـاس. ويكون إزجاء الـملك السحاب: مَصْعَهُ إياه بها, وذاك أن الـمِصَاعَ عند العرب أصله الـمجالدة بـالسيوف, ثم تستعمله فـي كل شيء جُولد به فـي حرب وغير حرب, كما قال أعشى بنـي ثعلبة وهو يصف جواري يـلعبن بحلـيهن ويجالدن به.

إذَا هُنّ نازَلْنَ أقْرَانَهُنّوكانَ الـمِصَاعُ بِـمَا فـي الـجُوَنْ

يقال منه: ماصعه مِصَاعا. وكأن مـجاهدا إنـما قال: «مصع ملك», إذ كان السحاب لا يـماصع الـملك, وإنـما الرعد هو الـمـماصع له, فجعله مصدرا من مصعه يَـمْصَعُه مصعا, وقد ذكرنا ما فـي معنى الصاعقة ما قال شهر بن حوشب فـيـما مضى.

وأما تأويـل الآية, فإن أهل التأويـل مختلفون فـيه. فرُوي عن ابن عبـاس فـي ذلك أقوال أحدها ما:

256ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: أوْ كَصَيّبٍ مِنَ السمّاءِ فِـيهِ ظُلُـمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فـي آذَانِهِمْ مِنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الـمَوْتِ أي هم من ظلـمات ما هم فـيه من الكفر والـحذر من القتل علـى الذي هم علـيه من الـخلاف, والتـخوّف منكم علـى مثل ما وصف من الذي هو فـي ظلـمة الصيب, فجعل أصابعه فـي أذنـيه من الصواعق حذر الـموت يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ أي لشدة ضوء الـحق, كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِـيهِ وَإذَا أظْلَـمَ عَلَـيْهِمْ قَامُوا أي يعرفون الـحق ويتكلـمون به, فهم من قولهم به علـى استقامة, فإذا ارتكسوا منه إلـى الكفر قاموا متـحيرين. والآخر ما:

257ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: أوْ كَصَيّبٍ مِنَ السمّاءِ فِـيهِ ظُلُـماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ إلـى: إنّ اللّهَ علـى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: أما الصيب والـمطر. كانا رجلان من الـمنافقـين من أهل الـمدينة هربـا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلـى الـمشركين, فأصابهما هذا الـمطر الذي ذكر الله فـيه رعد شديد وصواعق وبرق, فجعلا كلـما أضاء لهما الصواعق جعلا أصابعهما فـي آذانهما من الفَرَق أن تدخـل الصواعق فـي مسامعهما فتقتلهما, وإذ لـمع البرق مشيا فـي ضوئه, وإذا لـم يـلـمع لـم يبصرا وقاما مكانهما لا يـمشيان, فجعلا يقولان: لـيتنا قد أصبحنا فنأتـي مـحمدا فنضع أيدينا فـي يده فأصبحا فأتـياه فأسلـما ووضعا أيديهما فـي يده وحسن إسلامهما. فضرب الله شأن هذين الـمنافقـين الـخارجين مثلاً للـمنافقـين الذين بـالـمدينة. وكان الـمنافقون إذا حضروا مـجلس النبـي صلى الله عليه وسلم, جعلوا أصابعهم فـي آذانهم فَرَقا من كلام النبـي صلى الله عليه وسلم أن ينزل فـيهم شيء أو يذكروا بشيء فـيقتلوا, كما كان ذانك الـمنافقان الـخارجان يجعلان أصابعهما فـي آذانهما, وإذا أضاء لهم مشوا فـيه. فإذا كثرت أموالهم وولد لهم الغلـمان وأصابوا غنـيـمة أو فتـحا مشوا فـيه, وقالوا: إن دين مـحمد صلى الله عليه وسلم

دين صدق فـاستقاموا علـيه, كما كان ذانك الـمنافقان يـمشيان إذا أضاء لهم البرق مشوا فـيه, وإذا أظلـم علـيهم قاموا. فكانوا إذا هلكت أموالهم, وولد لهم الـجواري, وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين مـحمد, فـارتدّوا كفـارا كما قام ذانك الـمنافقان حين أظلـم البرق علـيهما. والثالث ما:

258ـ حدثنـي به مـحمد بن سعد قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, عن أبـيه, عن جده, عن ابن عبـاس: أوْ كَصَيّبٍ مِنَ السمّاءِ كمطر فـيه ظلـمات ورعد وبرق إلـى آخر الآية, هو مثل الـمنافق فـي ضوء ما تكلـم بـما معه من كتاب الله وعمل, مراءاةً للناس, فإذا خلا وحده عمل بغيره. فهو فـي ظلـمة ما أقام علـى ذلك. وأما الظلـمات فـالضلالة, وأما البرق فـالإيـمان, وهم أهل الكتاب. وإذا أظلـم علـيهم, فهو رجل يأخذ بطرف الـحق لا يستطيع أن يجاوزه. والرابع ما:

259ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: أوْ كَصَيّبٍ منَ السمّاءِ وهو الـمطر, ضرب مثله فـي القرآن يقول: «فـيه ظلـمات», يقول: ابتلاء. «ورعد» يقول: فـيه تـخويف, وبرق يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ يقول: يكاد مـحكم القرآن يدلّ علـى عورات الـمنافقـين, كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِـيهِ يقول: كلـما أصاب الـمنافقون من الإسلام عزّا اطمأنوا, وإن أصابوا الإسلام نكبة, قالوا: ارجعوا إلـى الكفر. يقول: وَإذَا أظْلَـمَ عَلَـيْهِمْ قامُوا كقوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ علـى حَرْفٍ فإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأنّ بِهِ وَإنْ أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ إلـى آخر الآية.

ثم اختلف سائر أهل التأويـل بعد ذلك فـي نظير ما رُوي عن ابن عبـاس من الاختلاف.

260ـ فحدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: إضاءة البرق وإظلامه علـى نـحو ذلك الـمثل.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد مثله.

261ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زُريع, عن سعيد, عن قتادة فـي قول الله: فِـيهِ ظُلُـمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ إلـى قوله: وَإذَا أظْلَـمَ عَلَـيْهِمْ قامُوا, فـالـمنافق إذا رأى فـي الإسلام رخاء أو طمأنـينة أو سلوة من عيش, قال: أنا معكم وأنا منكم وإذا أصابته شدة حقحق والله عندها فـانقُطع به فلـم يصبر علـى بلائها, ولـم يحتسب أجرها, ولـم يَرْجُ عاقبتها.

262ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: فِـيهِ ظُلُـماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يقول: أخبر عن قوم لا يسمعون شيئا إلا ظنوا أنهم هالكون فـيه حذرا من الـموت, والله مـحيط بـالكافرين. ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال: يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِـيهِ يقول: هذا الـمنافق, إذا كثر ماله وكثرت ماشيته وأصابته عافـية قال: لـم يصبنـي منذ دخـلت فـي دينـي هذا إلاّ خير, وَإذَا أظْلَـمَ عَلَـيْهِمْ قامُوا يقول: إذا ذهبت أموالهم وهلكت مواشيهم وأصابهم البلاء قاموا متـحيرين.

263ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, عن عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: فِـيهِ ظُلُـمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ قال: مثلهم كمثل قوم ساروا فـي لـيـلة مظلـمة ولها مطر ورعد وبرق علـى جادة, فلـما أبرقت أبصروا الـجادّة فمضوا فـيها, وإذا ذهب البرق تـحيروا. وكذلك الـمنافق كلـما تكلـم بكلـمة الإخلاص أضاء له, فإذا شك تـحير ووقع فـي الظلـمة, فكذلك قوله: كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِـيهِ وَإذَا أظْلَـمَ عَلَـيْهِمْ قَامُوا ثم قال: فـي أسماعهم وأبصارهم التـي عاشوا بها فـي الناس وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمَعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ قال أبو جعفر:

264ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا أبو تُـميـلة, عن عبـيد بن سلـيـمان البـاهلـي, عن الضحاك بن مزاحم: فِـيهِ ظُلُـماتٌ قال: أما الظلـمات فـالضلالة, والبرق: الإيـمان.

265ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنـي عبد الرحمن بن زيد فـي قوله: فِـيهِ ظُلُـماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ فقرأ حتـى بلغ: إنّ اللّهَ علـى كُلّ شَيْءٍ قَدِير قال: هذا أيضا مثل ضربه الله للـمنافقـين, كانوا قد استناروا بـالإسلام كما استنار هذا بنور هذا البرق.

266ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: لـيس شيءٌ فـي الأرض سمعه الـمنافق إلا ظنّ أنه يراد به وأنه الـموت كراهية له, والـمنافق أكره خـلق الله للـموت, كما إذا كانوا بـالبَراز فـي الـمطر فرّوا من الصواعق.

267ـ حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا أبو معاوية, قال: حدثنا ابن جريج, عن عطاء فـي قوله: أوْ كَصَيبٍ مِنَ السمّاءِ فِـيهِ ظُلُـمات وَرَعْد وَبَرْق قال: مثل ضُربَ للكفـار.

وهذه الأقوال التـي ذكرنا عمن رويناها عنه, فإنها وإن اختلفت فـيها ألفـاظ قائلـيها متقاربـات الـمعانـي لأنها جميعا تنبىء عن أن الله ضرب الصيب لظاهر إيـمان الـمنافق مثلاً, ومثّل ما فـيه من ظلـمات بضلالته, وما فـيه من ضياء برق بنور إيـمانه, واتقاءه من الصواعق بتصيـير أصابعه فـي أذنـيه بضعف جنانه ونَـخْبِ فؤاده من حلول عقوبة الله بساحته, ومشيه فـي ضوء البرق بـاستقامته علـى نور إيـمانه, وقـيامه فـي الظلام بحيرته فـي ضلالته وارتكاسه فـي عمهه.

فتأويـل الآية إذا إذا كان الأمر علـى ما وصفنا: أَوَ مَثَلُ ما استضاء به الـمنافقون من قـيـلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللـمؤمنـين بألسنتهم: آمنا بـالله وبـالـيوم الآخر وبـمـحمد وما جاء به, حتـى صار لهم بذلك فـي الدنـيا أحكام الـمؤمنـين, وهم مع إظهارهم بألسنتهم ما يظهرون بـالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم, وما جاء به من عند الله وبـالـيوم الآخر, مكذّبون, ولـخلاف ما يظهرون بـالألسن فـي قلوبهم معتقدون, علـى عَمًى منهم وجهالة بـما هم علـيه من الضلالة لا يدرون أيّ الأمرين اللذين قد شرعا لهم فـيه الهداية فـي الكفر الذي كانوا علـيه قبل إرسال الله مـحمدا صلى الله عليه وسلم بـما أرسله به إلـيهم, أم فـي الذي أتاهم به مـحمد صلى الله عليه وسلم من عند ربهم؟ فهم من وعيد الله إياهم علـى لسان مـحمد صلى الله عليه وسلم وَجِلُون, وهم مع وجلهم من ذلك فـي حقـيقته شاكون فـي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا. كمثل غيث سرى لـيلاً فـي مزنة ظلـماء ولـيـلة مظلـمة يحدوها رعد ويستطير فـي حافـاتها برق شديد

لـمعانه كثـير خَطَرانه, يكاد سنا برقه يذهب بـالأبصار, ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه وينهبط منها نارات صواعق تكاد تدع النفوس من شدة أهوالها زواهق. فـالصيب مثلٌ لظاهر ما أظهر الـمنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق, والظلـمات التـي هي فـيه لظلـمات ما هم مستبطنون من الشك والتكذيب ومرض القلوب. وأما الرعد والصواعق فلـما هم علـيه من الوجل من وعيد الله إياهم علـى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فـي آي كتابه, إما فـي العاجل وإما فـي الآجل, أي يحل بهم مع شكهم فـي ذلك: هل هو كائن, أم غير كائن, وهل له حقـيقة أم ذلك كذب وبـاطل؟ مَثَلٌ. فهم من وجلهم أن يكون ذلك حقا يتقونه بـالإقرار بـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم بألسنتهم مخافة علـى أنفسهم من الهلاك ونزول النقمات. وذلك تأويـل قوله جل ثناؤه: يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِـي آذَانِهِمْ مِنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الـمَوْتِ يعنـي بذلك يتقون وعيد الله الذي أنزله فـي كتابه علـى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بـما يبدونه بألسنتهم من ظاهر الإقرار, كما يتقـي الـخائف أصوات الصواعق بتغطية أذنـيه وتصيـير أصابعه فـيها حذرا علـى نفسه منها.

وقد ذكرنا الـخبر الذي رُوي عن ابن مسعود وابن عبـاس أنهما كانا يقولان: إن الـمنافقـين كانوا إذا حضروا مـجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخـلوا أصابعهم فـي آذانهم فَرَقا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل فـيهم شيء, أو يُذكروا بشيء فـيقتلوا. فإن كان ذلك صحيحا, ولست أعلـمه صحيحا, إذ كنت بإسناده مرتابـا فإن القول الذي روي عنهما هو القول. وإن يكن غير صحيح, فأولـى بتأويـل الآية ما قلنا لأن الله إنـما قص علـينا من خبرهم فـي أول مبتدأ قصصهم أنهم يخادعون الله ورسوله والـمؤمنـين بقولهم آمنا بـالله وبـالـيوم الآخر, مع شك قلوبهم ومرض أفئدتهم فـي حقـيقة ما زعموا أنهم به مؤمنون مـما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند ربهم, وبذلك وصفهم فـي جميع آي القرآن التـي ذكر فـيها صفتهم. فكذلك ذلك فـي هذه الآية.

وإنـما جعل الله إدخالهم أصابعهم فـي آذانهم مثلاً لاتقائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والـمؤمنـين بـما ذكرنا أنهم يتقونهم به كما يتقـي سامع صوت الصاعقة بإدخال أصابعه فـي أذنـيه. وذلك من الـمَثَلِ نظير تـمثـيـل الله جل ثناؤه ما أنزل فـيهم من الوعيد فـي آي كتابه بأصوات الصواعق, وكذلك قوله: حَذَرَ الـمَوْت جعله جل ثناؤه مثلاً لـخوفهم وإشفـاقهم من حلول عاجل العقاب الـمهلك الذي توعده بساحتهم, كما يجعل سامع أصوات الصواعق أصابعه فـي أذنـيه حذر العطب والـموت علـى نفسه أن تزهق من شدتها. وإنـما نصب قوله: حذر الـموت علـى نـحو ما تنصب به التكرمة فـي قولك: زرتَكَ تكرمَةَ لك, تريد بذلك: من أجل تكرمتك, وكما قال جل ثناؤه: وَيَدْعُونَنَا رَغَبـا وَرَهَبـا علـى التفسير للفعل. وقد رُوي عن قتادة أنه كان يتأوّل قوله: حَذَرَ الـمَوْت: حذرا من الـموت.

268ـ حدثنا بذلك الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر عنه.

وذلك مذهب من التأويـل ضعيف, لأن القوم لـم يجعلوا أصابعهم فـي آذانهم حذرا من الـموت فـيكون معناه ما قال إنه مراد به حذرا من الـموت, وإنـما جعلوها من حذار الـموت فـي آذانهم.

وكان قتادة وابن جريج يتأوّلان قوله:طط يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فـي آذَانِهِمْ مِنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الـمَوْتِ أن ذلك من الله جل ثناؤه صفةٌ للـمنافقـين بـالهلع. وضعف القلوب, وكراهة الـموت, ويتأوّلان فـي ذلك قوله: يَحْسَبُونَ كُلّ صَيْحَةٍ عَلَـيْهِمْ. ولـيس الأمر فـي ذلك عندي كالذي قالا. وذلك أنه قد كان فـيهم من لا تنكر شجاعته ولا تدفع بسالته كقزمان الذي لـم يقم مقامه أحد من الـمؤمنـين بـاحُد أو دونه. وإنـما كانت كراهتهم شُهود الـمشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم معاونته علـى أعدائه لأنهم لـم يكونوا فـي أديانهم مستبصرين ولا برسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقـين, فكانوا للـحضور معه مشاهده كارهين, إلا بـالتـخذيـل عنه. ولكن ذلك وصف من الله جل ثنائهم لهم بـالإشفـاق من حلول عقوبة الله بهم علـى نفـاقهم, إما عاجلاً, وإما آجلاً.

ثم أخبر جل ثناؤه أن الـمنافقـين الذين نعتهم النعت الذي ذكر وضرب لهم الأمثال التـي وصف وإن اتقوا عقابه وأشفقوا عذابه إشفـاق الـجاعل فـي أذنـيه أصابعه حِذَار حلول الوعيد الذي توعدهم به فـي آي كتابه, غير منـجيهم ذلك من نزوله بعَقْوَتهم وحلوله بساحتهم, إما عاجلاً فـي الدنـيا, وإما آجلاً فـي الآخرة, للذي فـي قلوبهم من مرضها والشك فـي اعتقادها, فقال: وَاللّهُ مُـحِيطٌ بـالكافِرِينَ بـمعنى جامعهم فمـحلّ بهم عقوبته.

وكان مـجاهد يتأوّل ذلك كما:

269ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم عن عيسى بن ميـمون, عن عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَاللّهُ مُـحِيطٌ بـالكافِرِينَ قال: جامعهم فـي جهنـم.

وأما ابن عبـاس فروي عنه فـي ذلك ما:

270ـ حدثنـي به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَاللّهُ مُـحِيطٌ بـالكافِرِينَ يقول: الله منزل ذلك بهم من النقمة.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج, عن مـجاهد فـي قوله: وَاللّهُ مُـحِيطٌ بـالكافِرِينَ قال: جامعهم.

ثم عاد جل ذكره إلـى نعت إقرار الـمنافقـين بألسنتهم, والـخبر عنه وعنهم وعن نفـاقهم, وإتـمام الـمثل الذي ابتدأ ضربه لهم ولشكهم ومرض قلوبهم, فقال: يَكَادُ البَرْقُ يعنـي بـالبرق: الإقرار الذي أظهروه بألسنتهم بـالله وبرسوله وما جاء به من عند ربهم, فجعل البرق له مثلاً علـى ما قدمنا صفته. يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ يعنـي: يذهب بها ويستلبها ويـلتـمعها من شدة ضيائه ونور شعاعه. كما:

271ـ حدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمار, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, فـي قوله: يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ قال: يـلتـمع أبصارَهم ولـمّا يفعل.

قال أبو جعفر: والـخطف: السلب, ومنه الـخبر الذي رُوي عن النبـي صلى الله عليه وسلم «أنه نهى عن الـخطفة» يعنـي بها النّهْبَة ومنه قـيـل للـخُطاف الذي يخرج به الدلو من البئر خُطّاف لاختطافه واستلابه ما علق به. ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:

خطَاطِيفُ حُجْنٌ فِـي حبـالٍ مَتِـينَةٍتَـمُدّ بِها أيْدٍ إلَـيْكَ نَوَازِعُ

فجعل ضوء البرق وشدة شعاع نوره كضوء إقرارهم بألسنتهم وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به من عند الله والـيوم الآخر وشعاع نوره, مثلاً.

ثم قال تعالـى ذكره: كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ يعنـي أن البرق كلـما أضاء لهم, وجعل البرق لإيـمانهم مثلاً. وإنـما أراد بذلك أنهم كلـما أضاء لهم الإيـمان وإضاءتهم لهم أن يروا فـيه ما يعجبهم فـي عاجل دنـياهم من النصرة علـى الأعداء, وإصابة الغنائم فـي الـمغازي, وكثرة الفتوح, ومنافعها, والثراء فـي الأموال, والسلامة فـي الأبدان والأهل والأولاد, فذلك إضاءته لهم لأنهم إنـما يظهرون بألسنتهم ما يظهرونه من الإقرار ابتغاء ذلك, ومدافعة عن أنفسهم وأموالهم وأهلـيهم وذراريهم, وهم كما وصفهم الله جل ثناؤه بقوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ علـى حَرْفٍ فَـانْ أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأنّ وَإنْ أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ علـى وَجْهِهِ.

ويعنـي بقوله: مَشَوْا فِـيهِ مشوا فـي ضوء البرق. وإنـما ذلك مثل لإقرارهم علـى ما وصفنا. فمعناه: كلـما رأوا فـي الإيـمان ما يعجبهم فـي عاجل دنـياهم علـى ما وصفنا, ثبتوا علـيه وأقاموا فـيه, كما يـمشي السائر فـي ظلـمة اللـيـل وظلـمة الصيب الذي وصفه جل ثناؤه, إذا برقت فـيها بـارقة أبصر طريقه فـيها وَإذَا أظْلَـمَ يعنـي ذهب ضوء البرق عنهم. ويعنـي بقوله: «علـيهم»: علـى السائرين فـي الصيب الذي وصف جل ذكره, وذلك للـمنافقـين مثل. ومعنى إظلام ذلك: أن الـمنافقـين كلـما لـم يروا فـي الإسلام ما يعجبهم فـي دنـياهم عند ابتلاء الله مؤمنـي عبـاده بـالضرّاء وتـمـحيصه إياهم بـالشدائد والبلاء من إخفـاقهم فـي مغزاهم وإنالة عدوّهم منهم, أو إدبـار من دنـياهم عنهم أقاموا علـى نفـاقهم وثبتوا علـى ضلالتهم كما قام السائر فـي الصيب الذي وصف جل ذكره إذا أظلـم وخفت ضوء البرق, فحار فـي طريقه فلـم يعرف منهجه.

الآية : 20

القول فـي تأويل قوله تعالـى:{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلّمَا أَضَآءَ لَهُمْ مّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

قال أبو جعفر: وإنـما خص جل ذكره السمع والأبصار بأنه لو شاء أذهبها من الـمنافقـين دون سائر أعضاء أجسامهم للذي جرى من ذكرها فـي الآيتـين, أعنـي قوله: يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِـي آذَانِهِمْ مِنَ الصّوَاعِقِ وقوله: يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ كُلّـما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِـيهِ فجرى ذكرها فـي الآيتـين علـى وجه الـمثل. ثم عقب جل ثناؤه ذكر ذلك بأنه لو شاء أذهبه من الـمنافقـين عقوبة لهم علـى نفـاقهم وكفرهم, وعيدا من الله لهم, كما توعدهم فـي الآية التـي قبلها بقوله: وَاللّهُ مُـحِيطٌ بـالكافِرِينَ واصفـا بذلك جل ذكره نفسه أنه الـمقتدر علـيهم وعلـى جمعهم, لإحلال سخطه بهم, وإنزال نقمته علـيهم, ومـحذرهم بذلك سطوته, ومخوّفهم به عقوبته, لـيتقوا بأسه, ويسارعوا إلـيه بـالتوبة. كما:

272ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَلَوْ شاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ لـما تركوا من الـحق بعد معرفته.

273ـ وحدثني المثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبي جعفر, عن أبيه, عن الربيع بن أنس, قال: ثم قال يعني قال الله في أسماعهم يعني أسماع المنافقين وأبصارهم التي عاشوا بها في الناس: وَلَوْ شاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ.

قال أبو جعفر: وإنما معنى قوله: لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ لأذهب سمعهم وأبصارهم, ولكن العرب إذا أدخلوا الباء في مثل ذلك قالوا: ذهبت ببصره, وإذا حذفوا الباء قالوا: أذهبت بصره, كما قال جل ثناؤه: آتنا غَدَاءَنَا ولو أدخلت الباء في الغداء لقيل: ائتنا بغدائنا.

قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ فوحد, وقال: وأبْصَارِهِمْ فجمع؟ وقد علمت أن الخبر في السمع خبر عن سمع جماعة, كما الخبر في الأبصار خبر عن أبصار جماعة؟ قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك, فقال بعض نحويي الكوفي: وحد لسمع لأنه عنى به المصدر وقصد به الخرق, وجمع الأبصار لأنه عنى به الأعين. وكان بعض نحويي البصرة يزعم أن السمع وإن كان في لفظ واحد فإنه بمعنى جماعة, ويحتجّ في ذلك بقول الله: لا يَرْتَدّ إلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ يريد لا ترتد إليهم أطرافهم, وبقوله: وَيُوَلونَ الدّبُرَ يراد به أدبارهم. وإنما جاز ذلك عندي لأن في الكلام ما يدلّ على أنه مراد به الجمع, فكان فيه دلالة على المراد منه, وأداء معنى الواحد من السمع عن معنى جماعة مغنيا عن جِماعِهِ, ولو فعل بالبصر نظير الذي فعل بالسمع, أو فعل بالسمع نظير الذي فعل بالأبصار من الجمع والتوحيد, كان فصيحا صحيحا لما ذكرنا من العلة كما قال الشاعر:

كُلُوا فـي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفّوافإنّ زَمانَنا زَمَنٌ خَمِيصُ

فوحد البطن, والمراد منه البطون لما وصفنا من العلة.

القول في تأويل قوله تعالى: إنّ اللّهَ على كُلّ شَيْءٍ قَدِير.

قال أبو جعفر: وإنما وصف الله نفسه جل ذكره بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع, لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير, ثم قال: فاتقوني أيها المنافقون واحذروا خداعي وخداع رسولي وأهل الإيمان بي لا أحل بكم نقمتي فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير. ومعنى قدير: قادر, كما معنى عليم: عالم, على ما وصفت فيما تقدم من نظائره من زيادة معنى فعيل على فاعل في المدح والذم.

الآية : 21

القول في تأويل قوله تعالى:

{يَأَيّهَا النّاسُ اعْبُدُواْ رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ }

قال أبو جعفر: فأمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه سواء عليهم أأنذروا أم لم يُنذروا أنهم لا يؤمنون, لطبعه على قلوبهم, وعلى سمعهم وأبصارهم, وعن الاَخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدي بلسانه من قيله: آمنا بالله واليوم الاَخر, مع استبطانه خلاف ذلك, ومرض قلبه, وشكه في حقيقة ما يبدي من ذلك وغيرهم من سائر خلقه المكلفين, بالاستكانة والخضوع له بالطاعة, وإفراد الربوبية له, والعبادة دون الأوثان والأصنام والاَلهة لأنه جل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم, وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم, فقال لهم

جل ذكره: فـالذي خـلقكم وخـلق آبـاءكم وأجدادكم وسائر الـخـلق غيركم وهو يقدر علـى ضركم ونفعكم أولـى بـالطاعة مـمن لا يقدر لكم علـى نفع ولا ضر. وكان ابن عبـاس فـيـما رُوي لنا عنه يقول فـي ذلك نظير ما قلنا فـيه, غير أنه ذكر عنه أنه كان يقول فـي معنى: اعْبُدُوا رَبكُمْ وَحّدوا ربكم. وقد دللنا فـيـما مضى من كتابنا هذا علـي أن معنى العبـادة الـخضوع لله بـالطاعة والتذلل له بـالاستكانة. والذي أراد ابن عبـاس إن شاء الله بقوله فـي تأويـل قوله: اعْبُدُوا رَبّكُمْ وَحّدُوه: أي أفردوا الطاعة والعبـادة لربكم دون سائر خـلقه.

274ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: قال الله: يا أيها الناسُ اعْبُدُوا رَبّكُمْ للفريقـين جميعا من الكفـار والـمنافقـين, أي وحدوا ربكم الذي خـلقكم والذين من قبلكم.

275ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, عن أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: يا أيّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمْ الّذِي خَـلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ يقول: خـلقكم وخـلق الذين من قبلكم.

قال أبو جعفر: وهذه الآية من أدلّ دلـيـل علـى فساد قول من زعم أن تكلـيف ما لا يطاق إلا بـمعونة الله غير جائز إلا بعد إعطاء الله الـمكلف الـمعونة علـى ما كلفه. وذلك أن الله أمر من وصفنا بعبـادته والتوبة من كفره, بعد إخبـاره عنهم أنهم لا يؤمنون وأنهم عن ضلالتهم لا يرجعون.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ.

قال أبو جعفر: وتأويـل ذلك: لعلكم تتقون بعبـادتكم ربكم الذي خـلقكم, وطاعتكم إياه فـيـما أمركم به ونهاكم عنه, وإفرادكم له العبـادة, لتتقوا سخطه وغضبه أن يحل علـيكم, وتكونوا من الـمتقـين الذين رضي عنهم ربهم.

وكان مـجاهد يقول فـي تأويـل قوله: لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ: تطيعون.

276ـ حدثنا ابن وكيع, قال: حدثنـي أبـي عن سفـيان, عن ابن نـجيح عن مـجاهد فـي قوله: لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ قال: لعلكم تطيعون.

قال أبو جعفر: والذي أظن أن مـجاهدا أراد بقوله هذا: لعلكم أن تتقوا ربكم بطاعتكم إياه وإقلاعكم عن ضلالتكم.

قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: فكيف قال جل ثناؤه: لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ؟ أوَ لـم يكن عالـما بـما يصير إلـيه أمرهم إذا هم عبدوه وأطاعوه, حتـى قال لهم: لعلكم إذا فعلتـم ذلك أن تتقوا, فأخرج الـخبر عن عاقبة عبـادتهم إياه مخرج الشك؟ قـيـل له: ذلك علـى غير الـمعنى الذي توهمت, وإنـما معنى ذلك: اعبدوا ربكم الذي خـلقكم والذين من قبلكم, لتتقوه بطاعته وتوحيده وإفراده بـالربوبـية والعبـادة, كما قال الشاعر:

وقُلْتُـمْ لَنا كُفّوا الـحُرُوبَ لَعَلّنَاكَفُـكّ وَوَثّقْتُـمْ لَنا كُلّ مَوْثِقِ

فلَـمّا كَفَفْنَا الـحَرْبَ كانَتْ عُهُودُكُمْكَلَـمْـحِ سَرَابٍ فِـي الفَلاَ مُتَألّقِ

يريد بذلك: قلتـم لنا كفوا لنكفّ. وذلك أن «لعلّ» فـي هذا الـموضع لو كان شكّا لـم يكونوا وثقوا لهم كُلّ موثق.

الآية : 22

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِرَاشاً وَالسّمَاءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

وقوله: الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِرَاشا مردود علـى «الذي» الأولـى فـي قوله: اعْبُدُوا رَبّكُمُ الّذِي خَـلَقَكُمْ وهما جميعا من نعت «ربكم», فكأنه قال: اعبدوا ربكم الـخالقكم, والـخالق الذي من قبلكم, الـجاعل لكم الأرض فراشا. يعنـي بذلك أنه جعل لكم الأرض مهادا وموطئا وقرارا يستقرّ علـيها. يذكّر ربنا جل ذكره بذلك من قـيـله زيادة نعمه عندهم وآلائه لديهم, لـيذكروا أياديه عندهم فـينـيبوا إلـى طاعته, تعطفـا منه بذلك علـيهم, ورأفة منه بهم, ورحمة لهم, من غير ما حاجة منه إلـى عبـادتهم, ولكن لـيتـم نعمته علـيهم ولعلهم يهتدون. كما:

277ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السديّ فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: الّذِي جَعَلَ لَكُمُ ألارْضَ فِرَاشا فهي فراش يُـمْشَى علـيها, وهي الـمهاد والقرار.

278ـوحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: الّذِي جَعَلَ لَكُمُ ألارْضَ فِرَاشا قال: مهادا لكم.

279ـوحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, عن عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِرَاشا: أي مهادا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَالسّماءَ بِناءً.

قال أبو جعفر: وإنـما سميت السماء سماءً لعلوّها علـى الأرض وعلـى سكانها من خـلقه, وكل شيء كان فوق شيء آخر فهو لـما تـحته سماءٌ. ولذلك قـيـل لسقـف البـيت سماؤه, لأنه فوقه مرتفع علـيه, ولذلك قـيـل: سما فلان لفلان: إذا أشرف له وقصد نـحوه عالـيا علـيه, كما قال الفرزدق:

سَمَوْنَا لِنَـجْرَانَ الـيَـمانِـي وأهْلِهِوَنَـجْرَانُ أرْضٌ لَـمْ تُدَيّثْ مَقاوِلُه

وكما قال نابغة بنـي ذبـيان:

سَمَتْ لـي نَظْرَةٌ فَرأيْتُ مِنْهَاتُـحَيْتَ الـخِدْرِ وَاضِعَةَ القِرَامِ

يريد بذلك: أشرفت لـي نظرة وبدت, فكذلك السماء: سُميت الأرض سماءً, لعلوّها وإشرافها علـيها. كما:

280ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وَالسّماءَ بِناءً, فبناء السماء علـى الأرض كهيئة القبة, وهي سقـف علـى الأرض.

281ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة فـي قول الله وَالسّمَاءَ بِنَاءً قال: جعل السماء سقـفـا لك.

وإنـما ذكر السماء والأرض جل ثناؤه فـيـما عدّد علـيهم من نعمه التـي أنعمها علـيهم, لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم, وبهما قوام دنـياهم, فأعلـمهم أن الذي خـلقهما وخـلق جميع ما فـيهما وما هم فـيه من النعم هو الـمستـحقّ علـيهم الطاعة, والـمستوجب منهم الشكر والعبـادة دون الأصنام والأوثان التـي لا تضرّ ولا تنفع.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ ماءً فأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقا لَكُمْ.

يعنـي بذلك أنه أنزل من السماء مطرا, فأخرج بذلك الـمطر مـما أنبتوه فـي الأرض من زرعهم وغرسهم ثمرات رزقا لهم غذاءً وأقواتا. فنبههم بذلك علـى قدرته وسلطانه, وذكرهم به آلاءه لديهم, وأنه هو الذي خـلقهم وهو الذي يرزقهم ويكفلهم دون من جعلوه له نِدّا وعِدْلاً من الأوثان والآلهة, ثم زجرهم عن أن يجعلوا له ندّا مع علـمهم بأن ذلك كما أخبرهم, وأنه لا ندّ له ولا عدل, ولا لهم نافعٌ ولا ضارّ ولا خالقٌ ولا رازق سواه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَلا تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا.

قال أبو جعفر: والأنداد, جمع ندّ, والندّ: العِدْل والـمثل, كما قال حسان بن ثابت:

أتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدَفَشَرّكما لـخَيْرِكُما الفِداءُ

يعنـي بقوله: «ولست له بند»: لست له بـمثل ولا عدل. وكل شيء كان نظيرا لشيء وشبـيها فهو له ندّ. كما:

282ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: فَلاَ تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا أي عدلاء.

283ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: فَلاَ تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا أي عدلاء.

284ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي عن خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: فَلاَ تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا قال: أكفـاء من الرجال تطيعونهم فـي معصية الله.

285ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد فـي قول الله: فَلاَ تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا قال: الأنداد: الآلهة التـي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له.

286ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: فَلاَ تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا قال: أشبـاها.

287ـ حدثنـي مـحمد بن سنان, قال: حدثنا أبو عاصم عن شبـيب عن عكرمة: فلا تـجعلوا لله أندادا أي تقولوا: لولا كلبنا لدخـل علـينا اللصّ الدار, لولا كلبنا صاح فـي الدار ونـحو ذلك.

فنهاهم الله تعالـى أن يشركوا به شيئا, وأن يعبدوا غيره, أو يتـخذوا له ندا وعدلاً فـي الطاعة, فقال: كما لا شريك لـي فـي خـلقكم وفـي رزقكم الذي أرزقكم, وملكي إياكم, ونعمتـي التـي أنعمتها علـيكم, فكذلك فأفردوا لـي الطاعة, وأخـلصوا لـي العبـادة, ولا تـجعلوا لـي شريكا وندّا من خـلقـي, فإنكم تعلـمون أن كل نعمة علـيكم منّـي.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ.

اختلف أهل التأويـل فـي الذين عُنوا بهذه الآية, فقال بعضهم: عنـي بها جميع الـمشركين, من مشركي العرب وأهل الكتاب. وقال بعضهم: عنـي بذلك أهل الكتابـين: التوراة, والإنـجيـل.

ذكر من قال: عنـي بها جميع عبدة الأوثان من العرب وكفـار أهل الكتابـين:

288ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: نزل ذلك فـي الفريقـين جميعا من الكفـار والـمنافقـين. وإنـما عَنَى بقوله: فَلاَ تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ أي لا تشركوا بـالله غيره من الأنداد التـي لا تنفع ولا تضرّ, وأنتـم تعلـمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره, وقد علـمتـم أن الذي يدعوكم إلـيه الرسول من توحيده هو الـحقّ لا شك فـيه.

289ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد عن سعيد, عن قتادة فـي قوله: وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ أي تعلـمون أن الله خـلقكم وخـلق السموات والأرض, ثم تـجعلون له أندادا.

ذكر من قال: عَنَى بذلك أهْلَ الكتابـين:

290ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد: فَلا تَـجْعَلُوا لِلّهِ أنْدَادا وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ أنه إله واحد فـي التوراة والإنـجيـل.

وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا قبـيصة, قال: حدثنا سفـيان عن مـجاهد مثله.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ يقول: وأنتـم تعلـمون أنه لا ندّ له فـي التوراة والإنـجيـل.

قال أبو جعفر: وأحسب أن الذي دعا مـجاهدا إلـى هذا التأويـل, وإضافة ذلك إلـى أنه خطاب لأهل التوراة والإنـجيـل دون غيرهم, الظنّ منه بـالعرب أنها لـم تكن تعلـم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانـية ربها, وإشراكها معه فـي العبـادة غيره. وإن ذلك لقولٌ ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر فـي كتابه عنها أنها كانت تقرّ بوحدانـية, غير أنها كانت تشرك فـي عبـادته ما كانت تشرك فـيها, فقال جل ثناؤه: وَلِئِنْ سألْتَهُمْ مَنْ خَـلَقَهُمْ لَـيَقُولُنّ اللّهُ, وقال: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السّمَاءِ والأرْضِ أمْ مَنْ يَـمْلِكُ السّمْعَ وَالأبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الـحَيّ مِنَ الـمَيّتِ ويُخْرِجُ الـمَيّتَ مِنَ الـحَيّ وَمَنْ يُدَبّرُ الأمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أفَلا تَتّقُونَ.

فـالذي هو أولـى بتأويـل قوله: وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ إذ كان ما كان عند العرب من العلـم بوحدانـية الله, وأنه مبدع الـخـلق وخالقهم ورازقهم, نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابـين. ولـم يكن فـي الآية دلالة علـى أن الله جل ثناؤه عنى بقوله: وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ أحد الـحزبـين, بل مخرج الـخطاب بذلك عام للناس كافة لهم, لأنه تـحدّى الناس كلهم بقوله: يا أيّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمْ أن يكون تأويـله ما قاله ابن عبـاس وقتادة, من أنه يعنـي بذلك كل مكلف عالـم بوحدانـية الله, وأنه لا شريك له فـي خـلقه يشرك معه فـي عبـادته غيره, كائنا من كان من الناس, عربـيا كان أو أعجميا, كاتبـا أو أميا, وإن كان الـخطاب لكفـار أهل الكتاب الذين كانوا حوالـي دار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم, وأهل النفـاق منهم وممن بـين ظهرانـيهم مـمن كان مشركا فـانتقل إلـى النفـاق بـمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الآية : 23

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مّمّا نَزّلْنَا عَلَىَ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مّن مّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

قال أبو جعفر: وهذا من الله عزّ وجلّ احتـجاج لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى مشركي قومه من العرب ومنافقـيهم وكفـار أهل الكتاب وضلالهم الذين افتتـح بقصصهم قوله جل ثناؤه: إنّ الّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَـيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَـمْ تُنْذِرْهُمْ وإياهم يخاطب بهذه الآيات, وضُربـاءَهم يعنـي بها, قال الله جل ثناؤه: وإن كنتـم أيها الـمشركون من العرب والكفـار من أهل الكتابـين فـي شكّ وهو الريب مـما نزّلنا علـى عبدنا مـحمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي, وأنـي الذي أنزلته إلـيه, فلـم تؤمنوا به ولـم تصدّقوه فـيـما يقول, فأتوا بحجة تدفع حجته لأنكم تعلـمون أن حجة كل ذي نبوّة علـى صدقه فـي دعواه النبوّة أن يأتـي ببرهان يعجز عن أن يأتـي بـمثله جميع الـخـلق, ومن حجة مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى صدقه وبرهانه علـى نبوّته, وأن ما جاء به من عندي, عَجْزُ جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة من مثله. وإذا عجزتـم عن ذلك, وأنتـم أهل البراعة فـي الفصاحة والبلاغة والدراية, فقد علـمتـم أن غيركم عما عجزتـم عنه من ذلك أعجز. كما كان برهان من سلف من رسلـي وأنبـيائي علـى صدقه وحجته علـى نبوّته من الآيات ما يعجز عن الإتـيان بـمثله جميع خـلقـي. فـيتقرّر حينئذ عندكم أن مـحمدا لـم يتقوّله ولـم يختلقه, لأن ذلك لو كان منه اختلافـا وتقوّلاً لـم يعجزوا وجميع خـلقه عن الإتـيان بـمثله, لأن مـحمدا صلى الله عليه وسلم لـم يَعْدُ أن يكون بشرا مثلكم, وفـي مثل حالكم فـي الـجسم وبسطة الـخـلق وذرابة اللسان, فـيـمكن أن يظن به اقتدار علـى ما عجزتـم عنه, أو يتوهم منكم عجز عما اقتدر علـيه.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

291ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ يعنـي من مثل هذا القرآن حقّا وصدقا لا بـاطل فـيه ولا كذب.

292ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ يقول: بسورة مثل هذا القرآن.

293ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى بن ميـمون, عن عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ مثل القرآن.

وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد مثله.

وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ قال: مثله, مثل القرآن.

فمعنى قول مـجاهد وقتادة اللذين ذكرنا عنهما, أن الله جل ذكره قال لـمن حاجّه فـي نبـيه صلى الله عليه وسلم من الكفـار: فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العرب, كما أتـى به مـحمد بلغاتكم ومعانـي منطقكم.

وقد قال قوم آخرون: إن معنى قوله: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ: من مثل مـحمد من البشر, لأنه مـحمدا بشر مثلكم.

قال أبو جعفر: والتأويـل الأوّل الذي قاله مـجاهد وقتادة هو التأويـل الصحيح لأن الله جل ثناؤه قال فـي سورة أخرى: أمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فأتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ. ومعلوم أن السورة لـيست لـمـحمد بنظير ولا شبـيه, فـيجوز أن يقال: فأتوا بسورة مثل مـحمد.

فإن قال قائل: إنك ذكرت أن الله عنى بقوله: فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ من مثل هذا القرآن, فهل للقرآن من مثل فـيقال: ائتوا بسورة من مثله؟ قـيـل: إنه لـم يعن به: ائتوا بسورة من مثله فـي التألـيف والـمعانـي التـي بـاين بها سائر الكلام غيره, وإنـما عنى: ائتوا بسورة من مثله فـي البـيان لأن القرآن أنزله الله بلسان عربـي, فكلام العرب لا شكّ له مثل فـي معنى العربـية فأما فـي الـمعنى الذي بـاين به القرآن سائر كلام الـمخـلوقـين, فلا مثل له من ذلك الوجه ولا نظير ولا شبـيه. وإنـما احتـجّ الله جل ثناؤه علـيهم لنبـيه صلى الله عليه وسلم بـما احتـجّ به له علـيهم من القرآن, إذ ظهر القوم عن أن يأتوا بسورة من مثله فـي البـيان, إذ كان القرآن بـيانا مثل بـيانهم, وكلاما نزل بلسانهم, فقال لهم جل ثناؤه: وإن كنتـم فـي ريب من أنّ ما أنزلت علـى عبدي من القرآن من عندي, فأتوا بسورة من كلامكم الذي هو مثله فـي العربـية, إذْ كنتـم عربـا, وهو بـيان نظير بـيانكم, وكلام شبـيه كلامكم. فلـم يكلفهم جل ثناؤه أن يأتوا بسورة من غير اللسان الذي هو نظير اللسان الذي نزل به القرآن, فـيقدروا أن يقولوا: كلفتنا ما لو أحسنّاه أتـينا به, وإنا لا نقدر علـى الإتـيان به, لأنا لسنا من أهل اللسان الذي كلفتنا الإتـيان به, فلـيس لك علـينا حجة بهذا لأنا وإن عجزنا عن أن نأتـي بـمثله من غير ألسنتنا لأنا لسنا بأهله, ففـي الناس خـلق كثـير من غير أهل لساننا يقدر علـى أن يأتـي بـمثله من اللسان الذي كلفتنا الإتـيان به. ولكنه جل ثناؤه قال لهم: ائتوا بسورة مثله, لأن مثله من الألسن ألسنتكم, وأنتـم إن كان مـحمد اختلقه وافتراه, إذا اجتـمعتـم وتظاهرتـم علـى الإتـيان بـمثل سورة منه من لسانكم وبـيانكم أقدر علـى اختلاقه ووضعه وتألـيفه من مـحمد صلى الله عليه وسلم, وإن لـم تكونوا أقدر علـيه منه فلن تعجزوا وأنتـم جميع عما قدر علـيه مـحمد من ذلك وهو وحده, إن كنتـم صادقـين فـي دعواكم وزعمكم أن مـحمدا افتراه واختلقه وأنه من عند غيري.

واختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ فقال ابن عبـاس بـما:

294ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد, عن ابن عبـاس: وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ يعنـي أعوانكم علـى ما أنتـم علـيه, إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ.

295ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن نـجيح, عن مـجاهد: وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ناس يشهدون.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد مثله.

وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد, قال: قوم يشهدون لكم.

وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاح, عن ابن جريج, عن مـجاهد: وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ قال: ناس يشهدون. قال ابن جريج: شهداءكم علـيها إذا أتـيتـم بها أنها مثله مثل القرآن.

وذلك قول الله لـمن شك من الكفـار فـيـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم. وقوله: فـادْعُوا يعنـي استنصروا واستعينوا, كما قال الشاعر:

فَلَـمّا الْتَقَتْ فُرْسانُنا وَرِجَالُهُمْدَعَوْا يا لَكَعْبٍ واعْتَزَيْنا لِعامِرِ

يعنـي بقوله: دعوا يالكعب: استنصروا كعبـا واستعانوا بهم.

وأما الشهداء فإنها جمع شهيد, كالشركاء جمع شريك, والـخطبـاء جمع خطيب. والشهيد يسمى به الشاهد علـى الشيء لغيره بـما يحقق دعواه, وقد يسمى به الـمشاهد للشيء كما يقال فلان جلـيس فلان, يعنـي به مـجالسه, ونديـمه يعنـي به منادمه, وكذلك يقال: شهيده يعنـي به مشاهده. فإذا كانت الشهداء مـحتـملة أن تكون جمع الشهيد الذي هو منصرف للـمعنـيـين اللذين وصفت, فأولـى وجهيه بتأويـل الآية ما قاله ابن عبـاس, وهو أن يكون معناه: واستنصروا علـى أن تأتوا بسورة من مثله أعوانَكم وشهداءَكم الذين يشاهدونكم ويعاونونكم علـى تكذيبكم الله ورسوله ويظاهرونكم علـى كفركم ونفـاقكم إن كنتـم مـحقـين فـي جحودكم أن ما جاءكم به مـحمد صلى الله عليه وسلم اختلاق وافتراء, لتـمتـحنوا أنفسكم وغيركم: هل تقدرون علـى أن تأتوا بسورة من مثله, فـيقدر مـحمد علـى أن يأتـي بجميعه من قبل نفسه اختلاقا؟

وأما ما قاله مـجاهد وابن جريج فـي تأويـل ذلك فلا وجه له لأن القوم كانوا علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصنافـا ثلاثة: أهل إيـمان صحيح, وأهل كفر صحيح, وأهل نفـاق بـين ذلك. فأهل الإيـمان كانوا بـالله وبرسوله مؤمنـين, فكان من الـمـحال أن يدّعي الكفـار أن لهم شهداء علـى حقـيقة ما كانوا يأتون به لو أتوا بـاختلاق من الرسالة, ثم ادعوا أنه للقرآن نظير من الـمؤمنـين. فأما أهل النفـاق والكفر فلا شك أنهم لو دُعوا إلـى تـحقـيق البـاطل وإبطال الـحق لسارعوا إلـيه مع كفرهم وضلالهم, فمن أيّ الفريقـين كانت تكون شهداءكم لو ادّعوا أنهم قد أتوا بسورة من مثل القرآن؟ ولكن ذلك كما قال جل ثناؤه: قُلْ لَئِنْ اجْتَـمَعَتِ الإنْسُ والـجِنّ علـى أنْ يأتُوا بِـمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يأتُونَ بِـمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا فأخبر جل ثناؤه فـي هذه الآية أن مثل القرآن لا يأتـي به الـجن والإنس ولو تظاهروا وتعاونوا علـى الإتـيان به وتـحدّاهم بـمعنى التوبـيخ لهم فـي سورة البقرة, فقال تعالـى: وَإنْ كُنْتُـمْ فـي رَيْبٍ مِـمّا نَزّلْنَا علـى عَبْدِنَا فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـين يعنـي بذلك: إن كنتـم فـي شك فـي صدق مـحمد فـيـما جاءكم به من عندي أنه من عندي, فأتوا بسورة من مثله, ولـيستنصر بعضكم بعضا علـى ذلك إن كنتـم صادقـين فـي زعمكم حتـى تعلـموا أنكم إذا عجزتـم عن ذلك أنه لا يقدر علـى أن يأتـي به مـحمد صلى الله عليه وسلم ولا من البِشر أحد, ويصح عندكم أنه تنزيلـي ووحيـي إلـى عبدي.

الآية : 24

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{فَإِن لّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتّقُواْ النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ }

قال أبو جعفر: يعنـي تعالـى بقوله: فإنْ لَـمْ تَفْعَلُوا: إن لـم تأتوا بسورة من مثله, وقد تظاهرتـم أنتـم وشركاؤكم علـيه وأعوانكم. فتبـين لكم بـامتـحانكم واختبـاركم عجزكم وعجز جميع خـلقـي عنه, وعلـمتـم أنه من عندي, ثم أقمتـم علـى التكذيب به. وقوله: وَلَنْ تَفْعَلُوا أي لن تأتوا بسورة من مثله أبدا. كما:

296ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: فإنْ لَـمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا أي لا تقدرون علـى ذلك ولا تطيقونه.

297ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: فإنْ لَـمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فقد بـين لكم الـحقّ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فـاتقُوا النّارَ الّتِـي وَقُودُها النّاسِ وَالْـحِجَارَةُ.

قال أبو جعفر: يعنـي جل ثناؤه بقوله: فـاتّقُوا النّارَ يقول: فـاتقوا أن تَصْلَوا النار بتكذيبكم رسولـي بـما جاءكم به من عندي أنه من وحيـي وتنزيلـي, بعد تبـينكم أنه كتابـي ومن عندي, وقـيام الـحجة علـيكم بأنه كلامي ووحيـي, بعجزكم وعجز جميع خـلقـي عن أن يأتوا بـمثله. ثم وصف جل ثناؤه النار التـي حذرهم صِلِـيّها, فأخبرهم أن الناس وقودها, وأن الـحجارة وقودها, فقال: الّتِـي وَقُودُهَا النّاسُ والـحِجارَةُ يعنـي بقوله وقودها: حطبها, والعرب تـجعله مصدرا, وهو اسم إذا فتـحت الواو بـمنزلة الـحطب, فإذا ضمت الواو من الوقود كان مصدرا من قول القائل: وقدت النار فهي تقد وُقودا وقِدَةً وَوَقَدَانا ووَقْدا, يراد بذلك أنها التهبت.

فإن قال قائل: وكيف خُصّت الـحجارة فقرنت بـالناس حتـى جعلت لنار جهنـم حطبـا؟ قـيـل: إنها حجارة الكبريت, وهي أشدّ الـحجارة فـيـما بلغنا حرّا إذا أحميت. كما:

298ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا أبو معاوية, عن مسعر, عن عبد الـملك بن ميسرة الزراد, عن عبد الرحمن بن سابط, عن عمرو بن ميـمون, عن عبد الله فـي قوله: وَقُودُهَا النّاسُ وَالـحجارَةُ قال: هي حجارة من كبريت خـلقها الله يوم خـلق السموات والأرض فـي السماء الدنـيا يعدّها للكافرين.

299ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا ابن عيـينة, عن مسعر عن عبد الـملك الزرّاد عن عمرو بن ميـمون, عن ابن مسعود فـي قوله: وَقُودُها النّاسُ والـحجارَةُ قال: حجارة الكبريت جعلها الله كما شاء.

300ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: اتّقُوا النّارَ الّتِـي وَقُودُها النّاسُ وَالـحِجَارَةِ أما الـحجارة فهي حجارة فـي النار من كبريت أسود يعذّبون به مع النار.

301ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج فـي قوله: وَقُودُها النّاسُ والـحجارَةُ قال: حجارة من كبريت أسود فـي النار. قال: وقال لـي عمرو بن دينار: حجارة أصلب من هذه وأعظم.

حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي عن مسعر, عن عبد الـملك بن ميسرة, عن عبد الرحمن بن سابط, عن عمرو بن ميـمون عن عبد الله بن مسعود, قال: حجارة من الكبريت خـلقها الله عنده كيف وشاء وكما شاء.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أُعِدّتْ للكافِرِينَ.
قد دللنا فـيـما مضى من كتابنا هذا علـى أن الكافر فـي كلام العرب هو الساتر شيئا بغطاء, وأن الله جل ثناؤه إنـما سمى الكافر كافرا لـجحوده آلاءه عنده, وتغطيته نعماءه قبله فمعنى قوله إذا: أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ: أعدّت النار للـجاحدين أن الله ربهم الـمتوحد بخـلقهم وخَـلْق الذين من قبلهم, الذي جعل لهم الأرض فراشا, والسماء بناءً, وأنزل من السماء ماءً, فأخرج به من الثمرات رزقا لهم, الـمشركين معه فـي عبـادته الأنداد والآلهة, وهو الـمتفرّد لهم بـالإنشاء والـمتوحد بـالأقوات والأرزاق. كما:
302ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد, عن ابن عبـاس: أُعِدّتْ لِلْكافِرِينَ أي لـمن كان علـى مثل ما أنتـم علـيه من الكفر.

الآية : 25

القول فـي تأويـل قوله تعالـي:
{وَبَشّرِ الّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ كُلّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رّزْقاً قَالُواْ هَـَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مّطَهّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
أما قوله تعالـى: وَبَشّرْ فإنه يعنـي: أخبرهم. والبشارة أصلها الـخبر بـما يسر الـمخبر به, إذا كان سابقا به كل مخبر سواه. وهذا أمر من الله نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم بإبلاغ بشارته خـلقه الذين آمنوا به وبـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـماء جاء به من عند ربه, وصدقوا إيـمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالـحة, فقال له: يا مـحمد بَشّرْ من صدقك أنك رسولـي وأن ما جئت به من الهدى والنور فمن عندي, وحقق تصديقه ذلك قولاً بأداء الصالـح من الأعمال التـي افترضتها علـيه وأوجبتها فـي كتابـي علـى لسانك علـيه, أن له جنات تـجري من تـحتها الأنهار خاصة, دون من كذّب بك وأنكر ما جئت به من الهدى من عندي وعاندك, ودون من أظهر تصديقك وأقرّ بأن ما جئته به فمن عندي قولاً, وجحده اعتقادا ولـم يحققه عملاً. فإن لأولئك النار التـي وقودها الناس والـحجارة معدة عندي.
والـجنات جمع جنة, والـجنة: البستان. وإنـما عنى جل ذكر بذكر الـجنة ما فـي الـجنة من أشجارها وثمارها وغروسها دون أرضها, فلذلك قال عزّ ذكره: تَـجْرِي مِنْ تَـحْتِهَا الأنْهَارُ لأنه معلوم أنه إنـما أرَادَ جل ثناؤه الـخبر عن ماء أنهارها أنه جار تـحت أشجارها وغروسها وثمارها, لا أنه جار تـحت أرضها لأن الـماء إذا كان جاريا تـحت الأرض, فلا حظّ فـيها لعيون من فوقها إلا بكشف الساتر بـينها وبـينه.
علـى أن الذي توصف به أنهار الـجنة أنها جارية فـي غير أخاديد. كما:
303ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا الأشجعي, عن سفـيان, عن عمرو بن مرة, عن أبـي عبـيدة, عن مسروق, قال: نـخـل الـجنة نضيد من أصلها إلـى فرعها, وثمرها أمثال القِلال, كلـما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى, وماؤها يجري فـي غير أخدود.

وحدثنا مـجاهد, قال: حدثنا يزيد, قال: أخبرنا مسعر بن كدام, عن عمرو بن مرة, عن أبـي عبـيدة بنـحوه.

وحدثنا مـحمد بن بشار قال: حدثنا ابن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, قال: سمعت عمرو بن مرة يحدث عن أبـي عبـيدة, فذكر مثله. قال: فقلت لأبـي عبـيدة: من حدثك, فغضب وقال: مسروق.

فإذا كان الأمر كذلك فـي أن أنهارها جارية فـي غير أخاديد, فلا شك أن الذي أريد بـالـجنات أشجار الـجنات وغروسها وثمارها دون أرضها, إذ كانت أنهارها تـجري فوق أرضها وتـحت غروسها وأشجارها, علـى ما ذكره مسروق. وذلك أولـى بصفة الـجنة من أن تكون أنهارها جارية تـحت أرضها. وإنـما رغب الله جل ثناؤه بهذه الآية عبـاده فـي الإيـمان وحضهم علـى عبـادته, بـما أخبرهم أنه أعدّه لأهل طاعته والإيـمان به عنده, كما حذرهم فـي الآية التـي قبلها بـما أخبر من إعداده ما أعدّ لأهل الكفر به الـجاعلـين معه الاَلهة والأنداد من عقابه عن إشراك غيره معه, والتعرّض لعقوبته بركوب معصيته وترك طاعته.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: كُلـمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقا قالُوا هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِها.

قال أبو جعفر: يعنـي: كُلّـما رُزِقُوا مِنْهَا من الـجنات, والهاء راجعة علـى «الـجنات», وإنـما الـمعنـيّ أشجارها, فكأنه قال: كلـما رزقوا من أشجار البساتـين التـي أعدّها الله للذين آمنوا وعملوا الصالـحات فـي جناته من ثمرة من ثمارها رزقا قالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قبل.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: هَذَا الّذِي رزِقْنا مِنْ قَبْلُ فقال بعضهم: تأويـل ذلك هذا الذي رزقنا من قبل هذا فـي الدنـيا. ذكر من قال ذلك:

304ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم قالوا: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْل قال: إنهم أتوا بـالثمرة فـي الـجنة, فلـما نظروا إلـيها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل فـي الدنـيا.

305ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة, قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل: أي فـي الدنـيا.

306ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم عن عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قالوا: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قبْل يقولون: ما أشبهه به.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد مثله.

307ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد, قالوا: هَذَا الّذِي رزِقْنا مِنْ قَبْل فـي الدنـيا, قال: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها يعرفونه.

قال أبو جعفر: وقال آخرون: بل تأويـل ذلك: هذا الذي رزقنا من ثمار الـجنة من قبل هذا, لشدة مشابهة بعض ذلك فـي اللون والطعم بعضا. ومن علة قائل هذا القول إن ثمار الـجنة كلـما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله. كما:

308ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا ابن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, قال: سمعت عمرو بن مرّة يحدث عن أبـي عبـيدة, قال: نـخـل الـجنة نضيد من أصلها إلـى فرعها, وثمرها مثل القلال, كلـما نزعت منها ثمرة عادة مكانها أخرى. قالوا: فإنـما اشتبهت عند أهل الـجنة, لأن التـي عادت نظيرة التـي نزعت فأكلت فـي كل معانـيها. قالوا: ولذلك قال الله جل ثناؤه: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها لاشتبـاه جميعه فـي كل معانـيه.

وقال بعضهم: بل قالوا: هَذَا الّذِي رزِقْنا مِنْ قَبْلُ لـمشابهته الذي قبله فـي اللون وإن خالفه فـي الطعم. ذكر من قال ذلك:

309ـ حدثنا القاسم بن الـحسين, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنا شيخ من الـمَصّيصة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبـي كثـير, قال: يؤتـي أحدهم بـالصحفة فـيأكل منها, ثم يؤتـي بأخرى فـيقول: هذا الذي أُتـينا به من قبل, فـيقول الـمَلَكُ: كل فـاللون واحد والطعم مختلف.

وهذا التأويـل مذهب من تأوّل الآية. غير أنه يدفع صحته ظاهر التلاوة. والذي يدل علـى صحته ظاهر الآية ويحقق صحته قول القائلـين إن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبل فـي الدنـيا. وذلك أن الله جل ثناؤه قال: كُلّـما رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقا فأخبر جل ثناؤه أن من قـيـل أهل الـجنة كلـما رزقوا من ثمر الـجنة رزقا أن يقولوا: هذا الذي رُزقنا من قبل. ولـم يخصص بأن ذلك من قـيـلهم فـي بعض ذلك دون بعض. فإذْ كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قـيـلهم فـي كل ما رزقوا من ثمرها, فلا شك أن ذلك من قـيـلهم فـي أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الـجنة واستقرارهم فـيها, الذي لـم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة. فإذْ كان لا شك أن ذلك من قـيـلهم فـي أوله, كما هو من قـيـلهم فـي وسطه وما يتلوه, فمعلوم أنه مـحال أن يكون من قـيـلهم لأوّل رزق رزقوه من ثمار الـجنة: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ هذا من ثمار الـجنة. وكيف يجوز أن يقولوا لأوّل رزق رزقوه من ثمارها ولـما يتقدمه عندهم غيره: هذا هو الذي رزقناه من قبل إلا أن ينسبهم ذو غرّة وضلال إلـى قـيـل الكذب الذي قد طهرهم الله منه, أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قـيـلهم لأول رزق رزقوه منها من ثمارها, فـيدفع صحة ما أوجب الله صحته بقوله: كُلّـما رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقا من غير نصب دلالة علـى أنه معنـيّ به حال من أحوال دون حال. فقد تبـين بـما بـينا أن معنى الآية: كلـما رزق الذين آمنوا وعملوا الصالـحات من ثمرة من ثمار الـجنة فـي الـجنة رزقا, قالوا: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ هذا فـي الدنـيا.

فإن سألنا سائل فقال: وكيف قال القوم: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ والذي رُزقوه من قبل قد عدم بأكلهم إياه؟ وكيف يجوز أن يقول أهل الـجنة قولاً لا حقـيقة له؟ قـيـل: إن الأمر علـى غير ما ذهبت إلـيه فـي ذلك, وإنـما معناه: هذا من النوع الذي رزقناه من قبل هذا من الثمار والرزق, كالرجل يقول لآخر: قد أعدّ لك فلان من الطعام كذا وكذا من ألوان الطبـيخ والشواء والـحلوى, فـيقول الـمقول له ذاك: هذا طعامي فـي منزلـي. يعنـي بذلك أن النوع الذي ذكر له صاحبه أنه أعده له من الطعام هو طعامه, لأن أعيان ما أخبره صاحبه أنه قد أعدّه له هو طعامه. بل ذلك مـما لا يجوز لسامع سمعه يقول ذلك أن يتوهم أنه أراده أو قصده لأن ذلك خلاف مخرج كلام الـمتكلـم وإنـما يوجه كلام كل متكلـم إلـى الـمعروف فـي الناس من

مخارجه دون الـمـجهول من معانـيه. فكذلك ذلك فـي قوله: قالُوا هَذَا الّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ إذ كان ما كانوا رزقوه من قبل قد فنـي وعدم فمعلوم أنهم عنوا بذلك هذا من النوع الذي رزقناه من قبل, ومن جنسه فـي السّمات والألوان علـى ما قد بـينا من القول فـي ذلك فـي كتابنا هذا.

القول فـي تأول قوله: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها.

قال أبو جعفر: والهاء فـي قوله: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها عائدة علـى الرزق, فتأويـله: وأُتوا بـالذي رزقوا من ثمارها متشابها.

وقد اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل الـمتشابه فـي ذلك, فقال بعضهم: تشابهه أن كله خيار لا رذل فـيه. ذكر من قال ذلك:

310ـ حدثنا خلاد بن أسلـم, قال: أخبرنا النضر بن شميـل, قال: أخبرنا أبو عامر عن الـحسن فـي قوله: مُتَشابِها قال: خيارا كلها لا رذل فـيها.

311ـ وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن أبـي رجاء: قرأ الـحسن آيات من البقرة, فأتـى علـى هذه الآية: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها قال: ألـم تروا إلـى ثمار الدنـيا كيف ترذلون بعضه؟ وإن ذلك لـيس فـيه رَذْل

312ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, قال: قال الـحسن: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها قال: يشبه بعضه بعضا لـيس فـيه من رَذْل.

313ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها أي خيارا لا رذل فـيه, وأن ثمار الدنـيا ينقـى منها ويرذل منها, وثمار الـجنة خيار كله لا يرذل منه شيء.

314ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: ثمر الدنـيا منه ما يرذل ومنه نُقاوة, وثمر الـجنة نقاوة كله يشبه بعضه بعضا فـي الطيب لـيس منه مرذول.

وقال بعضهم: تشابهه فـي اللون وهو مختلف فـي الطعم. ذكر من قال ذلك:

315ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النّبـي صلى الله عليه وسلم: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها فـي اللون والـمرأى, ولـيس يشبه الطعم.

316ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها مثل الـخيار.

وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وأُتُوا بِه مُتَشابِها لونه, مختلفـا طعمه, مثل الـخيار من القثاء.

317ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر. عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها يشبه بعضه بعضا ويختلف الطعم.

318ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا الثوري, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: مُتَشابِها قال: مشتبها فـي اللون ومختلفـا فـي الطعم.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, عن مـجاهد: وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِها مثل الـخيار.

وقال بعضهم: تشابه فـي اللون والطعم. ذكر من قال ذلك:

319ـ حدثنا ابن وكيع. قال: حدثنا أبـي, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد قوله: مُتَشَابِها قال: اللون والطعم.
320ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الرزاق, عن الثوري, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد ويحيى بن سعيد: مُتَشابِها قالا: فـي اللون والطعم.
وقال بعضهم: تشابهه تشابه ثمر الـجنة وثمر الدنـيا فـي اللون وإن اختلف طعومهما. ذكر من قال ذلك:
321ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: وأتُوا بِهِ مُتَشابِها قال: يشبه ثمر الدنـيا غير أن ثمر الـجنة أطيب.
322ـ وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: قال حفص بن عمر, قال: حدثنا الـحكم بن أبـان عن عكرمة فـي قوله: وأتُوا بِهِ مُتَشابِها قال: يشبه ثمر الدنـيا, غير أن ثمر الـجنة أطيب.
وقال بعضهم: لا يشبه شيء مـما فـي الـجنة ما فـي الدنـيا إلا الأسماء. ذكر من قال ذلك:
323ـ حدثنـي أبو كريب, قال: حدثنا الأشجعي ح, وحدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا مؤمل, قالا جميعا: حدثنا سفـيان عن الأعمش, عن أبـي ظبـيان, عن ابن عبـاس قال أبو كريب فـي حديثه عن الأشجعي: لا يشبه شيء مـما فـي الـجنة ما فـي الدنـيا إلا الأسماء. وقال ابن بشار فـي حديثه عن مؤمل قال: لـيس فـي الدنـيا مـما فـي الـجنة إلا الأسماء.
حدثنا عبـاس بن مـحمد, قال: حدثنا مـحمد بن عبـيد عن الأعمش, عن أبـي ظبـيان, عن ابن عبـاس, قال: لـيس فـي الدنـيا من الـجنة شيء إلا الأسماء.
324ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أنبأنا ابن وهب, قال: قال عبد الرحمن بن زيد فـي قوله: وأتُوا بِهِ مُتَشابِها قال: يعرفون أسماءه كما كانوا فـي الدنـيا, التفـاح بـالتفـاح, والرمان بـالرمان, قالوا فـي الـجنة: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فـي الدنـيا, وأتُوُا بِهِ مُتَشابِها يعرفونه, ولـيس هو مثله فـي الطعم.
قال أبو جعفر: وأولـى هذه التأويلات بتأويـل الآية, تأويـل من قال: وأُوتُوا بِهِ مُتَشابِها فـي اللون والـمنظر, والطعمُ مختلفٌ. يعنـي بذلك اشتبـاه ثمر الـجنة وثمر الدنـيا فـي الـمنظر واللون, مختلفـا فـي الطعم والذوق لـما قدمنا من العلة فـي تأويـل قوله: كُلـما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقا قالُوا هَذَا الّذِي رزقنا مِنْ قَبْلُ وأن معناه: كلـما رزقوا من الـجنان من ثمرة من ثمارها رزقا قالُوا: هَذَا الّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ هذا فـي الدنـيا. فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك من أجل أنهم أُتوا بـما أتوا به من ذلك فـي الـجنة متشابها, يعنـي بذلك تشابه ما أتوا به فـي الـجنة منه والذي كانوا رزقوه فـي الدنـيا فـي اللون والـمرأى والـمنظر وإن اختلفـا فـي الطعم والذوق فتبـاينا, فلـم يكن لشيء مـما فـي الـجنة من ذلك نظير فـي الدنـيا.
وقد دللنا علـى فساد قول من زعم أن معنى قوله: قالُوا هَذَا الّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ إنـما هو قول من أهل الـجنة فـي تشبـيههم بعض ثمرات الـجنة ببعض, وتلك الدلالة علـى فساد ذلك القول هي الدلالة علـى فساد قول من خالف قولنا فـي تأويـل قوله: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها لأن الله جل ثناؤه إنـما أخبر

عن الـمعنى الذي من أجله قال القوم: هَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ بقوله: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها.
ويُسأل من أنكر ذلك فـيزعم أنه غير جائز أن يكون شيء مـما فـي الـجنة نظير الشيء مـما فـي الدنـيا بوجه من الوجوه, فـيقال له: أيجوز أن يكون أسماء ما فـي الـجنة من ثمارها وأطعمتها وأشربتها نظائر أسماء ما فـي الدنـيا منها؟ فإن أنكر ذلك خالف نصّ كتاب الله, لأن الله جل ثناؤه إنـما عرّف عبـاده فـي الدنـيا ما هو عنده فـي الـجنة بـالأسماء التـي يسمي بها ما فـي الدنـيا من ذلك. وإن قال: ذلك جائز, بل هو كذلك قـيـل: فما أنكرت أن يكون ألوان ما فـيها من ذلك نظائر ألوان ما فـي الدنـيا منه بـمعنى البـياض والـحمرة والصفرة وسائر صنوف الألوان وإن تبـاينت فتفـاضلت بفضل حسن الـمرآة والـمنظر, فكان لـما فـي الـجنة من ذلك من البهاء والـجمال وحسن الـمرآة والـمنظر خلاف الذي لـما فـي الدنـيا منه كما كان جائزا ذلك فـي الأسماء مع اختلاف الـمسميات بـالفضل فـي أجسامها؟ ثم يعكس علـيه القول فـي ذلك, فلن يقول فـي أحدهما شيئا إلا ألزم فـي الآخر مثله.
وكان أبو موسى الأشعري يقول فـي ذلك بـما:
325ـ حدثنـي به ابن بشار, قال: حدثنا ابن أبـي عديّ وعبد الوهاب, ومـحمد بن جعفر, عن عوف عن قسامة عن الأشعري, قال: إن الله لـما أخرج آدم من الـجنة زوّده من ثمار الـجنة, وعلـمه صنعة كل شيء, فثماركم هذه من ثمار الـجنة, غير أن هذه تَغَيّرُ وتلك لا تَغَيّرُ.
وقد زعم بعض أهل العربـية أن معنى قوله: وأُتُوا بِهِ مُتَشابِها أنه متشابه فـي الفضل: أي كل واحد منه له من الفضل فـي نـحوه مثل الذي للآخر فـي نـحوه.
قال أبو جعفر: ولـيس هذا قولاً نستـجيز التشاغل بـالدلالة علـى فساده لـخروجه عن قول جميع علـماء أهل التأويـل, وحسب قول بخروجه عن قول أهل العلـم دلالة علـى خطئه.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَهُمْ فِـيهَا أزْواجٌ مُطَهّرَةٌ.
قال أبو جعفر: والهاء والـميـم اللتان فـي «لهم» عائدتان علـى الذين آمنوا وعملوا الصالـحات, والهاء والألف اللتان فـي «فـيها» عائدتان علـى الـجنات. وتأويـل ذلك: وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالـحات أن لهم جنات فـيها أزواج مطهرة. والأزواج جمع زوج, وهي امرأة الرجل, يقال: فلانة زوج فلان وزوجته. وأما قوله مُطَهّرَةٌ فإن تأويـله أنهن طهرن من كل أذى وقَذًى وريبة, مـما يكون فـي نساء أهل الدنـيا من الـحيض والنفـاس والغائط والبول والـمخاط والبصاق والـمنـيّ, وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والـمكاره. كما:
326ـ حدثنا به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر. ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم, أما أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ فإنهن لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنـخمن.
327ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنا معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ يقول: مطهرة من القذر والأذى.

328ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا يحيى القطان, عن سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: ولَهُمْ فِـيهَا أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: لا يبلن ولا يتغوّطن ولا يَـمْذِين.
329ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد نـحوه, إلا أنه زاد فـيه: ولا يُـمنـين ولا يحضن.
330ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَلَهُمْ فِـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: مطهرة من الـحيض والغائط والبول والنـخام والبزاق والـمنـيّ والولد.
وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا سويد بن نصر, قال: حدثنا ابن الـمبـارك, عن ابن جريج, عن مـجاهد مثله.
331ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا الثوري, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: لا يبلن ولا يتغوّطن, ولا يحضن, ولا يـلدن, ولا يـمنـين, ولا يبزقن.
أخبرنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد نـحو حديث مـحمد بن عمرو, عن أبـي عاصم.
332ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: وَلَهُمْ فِـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ إي والله من الإثم والأذى.
333ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَلَهُمْ فِـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: طهرهن الله من كل بول وغائط وقذر, ومن كل مأثم.
334ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن قتادة قال: مطهرة من الـحيض, والـحبل, والأذى.
335ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنـي ابن أبـي جعفر عن أبـيه, عن لـيث, عن مـجاهد, قال: الـمطهرة من الـحيض والـحبل.
336ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, عن عبد الرحمن بن زيد: وَلَهُمْ فـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: الـمطهرة: التـي لا تـحيض قال: وأزواج الدنـيا لـيست بـمطهرة, ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام؟ قال ابن زيد: وكذلك خـلقت حوّاء حتـى عصت, فلـما عصت قال الله: إنـي خـلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة.
337ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع عن الـحسن فـي قوله وَلَهُمْ فِـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: يقول: مطهرة من الـحيض.
حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا خالد بن يزيد, قال: حدثنا أبو جعفر الرازي, عن الربـيع بن أنس, عن الـحسن فـي قوله: وَلَهُمْ فـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: من الـحيض.
338ـ وحدثنا عمرو, قال: حدثنا أبو معاوية, قال: حدثنا ابن جريج, عن عطاء قوله: لَهُمْ فِـيها أزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ قال: من الولد والـحيض والغائط والبول, وذكر أشياء من هذا الـنـحو.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَهُمْ فـيها خالدُونَ.
قال أبو جعفر: يعنـي تعالـى ذكره بذلك: والذين آمنوا وعملوا الصالـحات فـي الـجنات خالدون, فـالهاء والـميـم من قوله وَهُمْ عائدة علـى الذين

آمنوا وعملوا الصالـحات, والهاء والألف فـي «فـيها» علـى الـجنات, وخـلودهم فـيها: دوام بقائهم فـيها علـى ما أعطاهم الله فـيها من الـحَبْرَة والنعيـم الـمقـيـم.

الآية : 26

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{إِنّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمّا الّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنّهُ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللّهُ بِهَـَذَا مَثَلاً يُضِلّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلّ بِهِ إِلاّ الْفَاسِقِينَ }

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي الـمعنى الذي أنزل الله جل ثناؤه فـيه هذه الآية وفـي تأويـلها.

فقال بعضهم بـما:

339ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: لـما ضرب الله هذين الـمثلـين للـمنافقـين, يعنـي قوله: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نارا وقوله: أوْ كَصَيّبٍ مِنَ السّماءِ الآيات الثلاث, قال الـمنافقون: الله أعلـى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل الله إنّ اللّهَ لا يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً إلـى قوله: أُولَئِكَ هُمُ الـخَاسِرُونَ.

وقال آخرون بـما:

340ـ حدثنـي به أحمد بن إبراهيـم, قال: حدثنا قُراد عن أبـي جعفر الرازي, عن الربـيع بن أنس, فـي قوله تعالـى: إنّ اللّهَ لا يَسْتَـحِيِـي أنْ يَضرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا قال: هذا مثل ضربه الله للدنـيا, إن البعوضة تـحيا ما جاعت, فإذا سمنت ماتت, وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا الـمثل فـي القرآن, إذا امتلئوا من الدنـيا رِيّا أخذهم الله عند ذلك. قال: ثم تلا فلَـمّا نَسُوا ما ذُكّرُوا بِهِ فَتَـحْنَا عَلَـيْهِمْ أبْوَابَ كُلّ شَيْءٍ الآية.

341ـ وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس بنـحوه, إلا أنه قال: فإذا خـلت آجالهم, وانقطعت مدتهم, صاروا كالبعوضة تـحيا ما جاعت وتـموت إذا رويت فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا الـمثل إذا امتلئوا من الدنـيا ريّا أخذهم الله فأهلكهم, فذلك قوله: حَتّـى إذَا فَرِحُوا بِـمَا أُوتُوا أخَذْناهُمْ بَغْتَةً فإذا هُمْ مُبْلِسُونَ.

وقال آخرون بـما:

342ـ حدثنا به بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة قوله: إن اللّهَ لا يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا أي إن الله لا يستـحيـي من الـحقّ أن يذكر منه شيئا ما قل منه أو كثر. إن الله حين ذكر فـي كتابه الذبـاب والعنكبوت, قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: إنّ اللّهَ لا يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.

وحدثنا الـحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, قال: لـما ذكر الله العنكبوت والذبـاب, قال الـمشركون: ما بـال

العنكبوت والذبـاب يذكران؟ فأنزل الله: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها.

وقد ذهب كل قائل مـمن ذكرنا قوله فـي هذه الآية وفـي الـمعنى الذي نزلت فـيه مذهبـا, غير أن أولـى ذلك بـالصواب وأشبهه بـالـحقّ ما ذكرنا من قول ابن مسعود وابن عبـاس. وذلك أن الله جل ذكره أخبر عبـاده أنه لا يستـحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها عقـيب أمثال قد تقدمت فـي هذه السورة ضربها للـمنافقـين دون الأمثال التـي ضربها فـي سائر السور غيرها. فلأن يكون هذا القول, أعنـي قوله: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما جوابـا لنكير الكفـار والـمنافقـين ما ضُرب لهم من الأمثال فـي هذه السورة أحقّ وأولـى من أن يكون ذلك جوابـا لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال فـي غيرها من السور.

فإن قال قائل: إنـما أوجب أن يكون ذلك جوابـا لنكيرهم ما ضرب من الأمثال فـي سائر السور لأن الأمثال التـي ضربها الله لهم ولاَلهتهم فـي سائر السور أمثال موافقة الـمعنى, لـما أخبر عنه أنه لا يستـحي أن يضربه مثلاً, إذْ كان بعضها تـمثـيلاً لاَلهتهم بـالعنكبوت وبعضها تشبـيها لها فـي الضعف والـمهانة بـالذبـاب, ولـيس ذكر شيء من ذلك بـموجود فـي هذه السورة فـيجوز أن يقال: إن الله لا يستـحيـي أن يضرب مثلاً ما فإن ذلك بخلاف ما ظن, وذلك أن قول الله جل ثناؤه: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا إنـما هو خبر منه جل ذكره أنه لا يستـحيـي أن يضرب فـي الـحقّ من الأمثال صغيرها وكبـيرها ابتلاءً بذلك عبـاده واختبـارا منه لهم لـيـميز به أهل الإيـمان والتصديق به من أهل الضلال والكفر به, إضلالاً منه به لقوم وهداية منه به لاَخرين كما:

343ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: مَثَلاً مَا بَعُوضَةً يعنـي الأمثال صغيرها وكبـيرها, يؤمن بها الـمؤمنون, ويعلـمون أنها الـحقّ من ربهم, ويهديهم الله بها, ويضلّ بها الفـاسقـين. يقول: يعرفه الـمؤمنون فـيؤمنون به, ويعرفه الفـاسقون فـيكفرون به.

وحدثنـي الـمثنى, قال حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بـمثله.

وحدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد مثله.

قال أبو جعفر: لا أنه جل ذكره قصد الـخبر عن عين البعوضة أنه لا يستـحيـي من ضرب الـمثل بها, ولكن البعوضة لـما كانت أضعف الـخـلق كما:

344ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا أبو سفـيان, عن معمر, عن قتادة, قال: البعوضة أضعف ما خـلق الله.

345ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج بنـحوه. خصها الله بـالذكر فـي القلة, فأخبر أنه لا يستـحيـي أن يضرب أقلّ الأمثال فـي الـحقّ وأحقرها وأعلاها إلـى غير نهاية فـي الارتفـاع جوابـا منه جل ذكره لـمن أنكر من منافقـي خـلقه ما ضرب لهم من الـمثل بـموقد النار والصيّب من السماء علـى ما نَعَتهما به من نَعْتهما.

فإن قال لنا قائل: وأين ذكر نكير الـمنافقـين الأمثال التـي وصفت الذي هذا الـخبر جوابه, فنعلـم أن القول فـي ذلك ما قلت؟ قـيـل: الدلالة علـى ذلك بـينها جلّ ذكره فـي قوله: فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَـيَعْلَـمُونَ أنّهُ الـحَقّ مِنْ رَبّهِمْ وأمّا الّذِينَ كَفَرُوا فَـيَقُولُونَ ماذَا أرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً وأن القوم الذين ضرب لهم الأمثال فـي الآيتـين الـمقدمتـين, اللتـين مثّل ما علـيه الـمنافقون مقـيـمون فـيهما بـمُوقِدِ النار وبـالصيب من السماء علـى ما وصف من ذلك قبل قوله: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً قد أنكروا الـمثل وقالوا: ماذَا أرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً, فأوضح خطأ قـيـلهم ذلك, وقبح لهم ما نطقوا به وأخبرهم بحكمهم فـي قـيـلهم ما قالوا منه, وأنه ضلال وفسوق, وأن الصواب والهدى ما قاله الـمؤمنون دون ما قالوه.

وأما تأويـل قوله: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي فإن بعض الـمنسوبـين إلـى الـمعرفة بلغة العرب كان يتأول معنى: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي إن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً, ويستشهد علـى ذلك من قوله بقول الله تعالـى: وَتَـخْشَى الناسَ وَاللّهُ أحَقّ أنْ تَـخْشاهُ ويزعم أن معنى ذلك: وتستـحي الناسَ والله أحقّ أن تستـحيه فـيقول: الاستـحياء بـمعنى الـخشية, والـخشية بـمعنى الاستـحياء.

وأما معنى قوله: أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً فهو أن يبـين ويصف, كما قال جل ثناؤه: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أنْفُسِكُمْ بـمعنى وصف لكم, وكما قال الكميت:

وذَلِكَ ضَرْبُ أخْماسٍ أُرِيدَتْلأِسْدَاسٍ عَسَى أنْ لا تَكُونا

بـمعنى وصف أخماس. والـمثل: الشبه, يقال: هذا مَثَلُ هذا ومِثْلُه, كما يقال: شَبَهُه وشِبْهُه, ومنه قول كعب بن زهير:

كانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاًوَمَا مَوَاعِيدُها إلاّ الأبـاطِيـلُ

يعنـي شَبَهاً.

فمعنى قوله إذا: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً: إن الله لا يخشى أن يصف شبها لـما شبه به وأما «ما» التـي مع «مثل» فإنها بـمعنى «الذي», لأن معنى الكلام: إن الله لا يستـحيـي أن يضرب الذي هو بعوضة فـي الصغر والقلة فما فوقها مثلاً.

فإن قال لنا قائل: فإن كان القول فـي ذلك كما قلت فما وجه نصب البعوضة, وقد علـمت أن تأويـل الكلام علـى ما تأوّلت: إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَـحْيِـي أن يَضْرِبَ مَثَلاً الذي هو بعوضة, فـالبعوضة علـى قولك فـي مـحل الرفع, فأنّى أتاها النصب؟ قـيـل: أتاها النصب من وجهين: أحدهما أن ما لـما كانت فـي مـحل نصب بقوله: يَضْرِب وكانت البعوضة لها صلة أعربت بتعريبها فألزمت إعرابها كما قال حسان بن ثابت:

وكَفَـى بِنا فَضْلاً علـى مَنْ غَيْرِناحُبّ النّبِـيّ مُـحَمّدٍ إيّانا

فعرّبت غير بإعراب «مَنْ», فـالعرب تفعل ذلك خاصة فـي «من» و«ما» تعرب صلاتهما بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة أحيانا ونكرة أحيانا.

وأما الوجه الآخر, فأن يكون معنى الكلام: إن الله لا يستـحيـي أن يضرب مثلاً ما بـين بعوضة إلـى ما فوقها, ثم حذف ذكر «بـين» و«إلـى», إذ كان فـي نصب البعوضة ودخول الفـاء فـي «ما» الثانـية دلالة علـيهما, كما قالت العرب: «مُطرنا ما زبـالة فـالثعلبـية», و«له عشرون ما ناقة فجملاً», و«هي أحسن الناس ما قرنا فقدما», يعنون: ما بـين قرنها إلـى قدمها, وكذلك يقولون فـي كل ما حسن فـيه من الكلام دخول «ما بـين كذا إلـى

كذا», ينصبون الأول والثانـي لـيدلّ النصب فـيهما علـى الـمـحذوف من الكلام. فكذلك ذلك فـي قوله: ما بعوضة فما فوقها.

وقد زعم بعض أهل العربـية أن «ما» التـي مع الـمَثَل صلة فـي الكلام بـمعنى التطوّل, وأن معنى الكلام: إن الله لا يستـحيـي أن يضرب بعوضة مثلاً فما فوقها. فعلـى هذا التأويـل يجب أن تكون بعوضة منصوبة ب«يضرب», وأن تكون «ما» الثانـية التـي فـي «فما فوقها» معطوفة علـى البعوضة لا علـى «ما».

وأما تأويـل قوله: فَمَا فَوْقَهَا: فما هو أعظم منها عندي لـما ذكرنا قبل من قول قتادة وابن جريج أن البعوضة أضعف خـلق الله, فإذا كانت أضعف خـلق الله فهي نهاية فـي القلة والضعف, وإذ كانت كذلك فلا شك أن ما فوق أضعف الأشياء لا يكون إلا أقوى منه, فقد يجب أن يكون الـمعنى علـى ما قالاه فما فوقها فـي العظم والكبر, إذ كانت البعوضة نهاية فـي الضعف والقلة.

وقـيـل فـي تأويـل قوله: فَمَا فَوْقَها فـي الصغر والقلة, كما يقال فـي الرجل يذكره الذاكر فـيصفه بـاللؤم والشحّ, فـيقول السامع: نعم, وفوق ذاك, يعنـي فوق الذي وصف فـي الشحّ واللؤم. وهذا قول خلاف تأويـل أهل العلـم الذين تُرتضى معرفتهم بتأويـل القرآن, فقد تبـين إذا بـما وصفنا أن معنى الكلام: إن الله لا يستـحيـي أن يصف شبها لـما شبه به الذي هو ما بـين بعوضة إلـى ما فوق البعوضة. فأما تأويـل الكلام لو رفعت البعوضة فغير جائز فـي ما إلا ما قلنا من أن تكون اسما لا صلة بـمعنى التطول.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَأما الّذِينَ آمَنُوا فَـيَعْلَـمُونَ أنهُ الـحَقّ مِنْ رَبّهِمْ وأما الّذِينَ كَفَروا فَـيَقُولُونَ ماذَا أرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً.

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل ذكره: فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فأما الذين صدقوا الله ورسوله. وقوله: فَـيَعْلَـمُونَ أنّهُ الـحَقّ مِنْ رَبّهِمْ يعنـي فـيعرفون أن الـمثل الذي ضربه الله لـما ضربه له مثل. كما.

346ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَـيَعْلَـمُونَ أنّهُ الـحَقّ مِنْ رَبّهِمْ أن هذا الـمثل الـحق من ربهم أنه كلام الله ومن عنده. وكما:

347ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة, قوله: فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَـيَعْلَـمُونَ أنّهُ الـحَقّ مِنْ رَبّهِمْ: أي يعلـمون أنه كلام الرحمن وأنه الـحقّ من الله.

وأمّا الّذِينَ كَفَرُوا فَـيَقُولُونَ ماذَا أرَادَ اللّهُ بِهَذا مَثَلاً قال أبو جعفر: وقوله: وأما الّذِينَ كَفَرُوا يعنـي الذين جحدوا آيات الله وأنكروا ما عرفوا وستروا ما علـموا أنه حقّ. وذلك صفة الـمنافقـين, وإياهم عنى الله جل وعزّ ومن كان من نظرائهم وشركائهم من الـمشركين من أهل الكتاب وغيرهم بهذه الآية, فـيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً, كما قد ذكرنا قبل من الـخبر الذي رويناه عن مـجاهد الذي.

348ـ حدثنا به مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: فأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَـيَعْلَـمُونَ أنّهُ الـحَق مِنْ رَبّهِمْ الآية, قال: يؤمن بها الـمؤمنون, ويعلـمون أنها الـحقّ من ربهم, ويهديهم

الله بها ويضلّ بها الفـاسقون. يقول: يعرفه الـمؤمنون فـيؤمنون به, ويعرفه الفـاسقون فـيكفرون به.
وتأويـل قوله: ماذَا أرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً ما الذي أراد الله بهذا الـمثل مثلاً, ف«ذا» الذي مع «ما» فـي معنى «الذي» وأراد صلته, وهذا إشارة إلـى الـمثل.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يضلّ به كَثِـيرا ويَهْدِي بِهِ كَثِـيرا.
قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل وعزّ: يُضِلَّ بِهِ كَثِـيرا يضلّ الله به كثـيرا من خـلقه, والهاء فـي «به» من ذكر الـمثل. وهذا خبر من الله جل ثناؤه مبتدأ, ومعنى الكلام: أن الله يضلّ بـالـمثل الذي يضرّبه كثـيرا من أهل النفـاق والكفر. كما:
349ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: يُضِلّ بِهِ كَثِـيرا يعنـي الـمنافقـين, وَيَهْدِي بِهِ كَثِـيرا يعنـي الـمؤمنـين فـيزيد هؤلاء ضلالاً إلـى ضلالهم لتكذيبهم بـما قد علـموه حقا يقـينا من الـمثل الذي ضربه الله لـما ضربه له وأنه لـما ضربه له موافق, فذلك إضلال الله إياهم به. ويهدي به يعنـي بـالـمثل كثـيرا من أهل الإيـمان والتصديق, فـيزيدهم هدى إلـى هداهم وإيـمانا إلـى إيـمانهم, لتصديقهم بـما قد علـموه حقا يقـينا أنه موافق ما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به, وذلك هداية من الله لهم به.
وقد زعم بعضهم أن ذلك خبر عن الـمنافقـين, كأنهم قالوا: ماذا أراد الله بـمثل لا يعرفه كل أحد يضلّ به هذا ويهدي به هذا. ثم استؤنف الكلام والـخبر عن الله فقال الله: وَما يُضِلّ بِهِ إلاّ الفـاسِقِـينَ وفـيـما فـي سورة الـمدثر من قول الله: وَلِـيَقُولَ الّذِينَ فِـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُونَ ماذَا أرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلّ اللّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ما ينبىء عن أنه فـي سورة البقرة كذلك مبتدأ, أعنـي قوله: يُضِلّ بِهِ كَثِـيرا وَيَهْدِي بِهِ كَثِـيرا.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَما يُضِلِ بِهِ إلاّ الفَـاسِقِـينَ.
وتأويـل ذلك ما:
350ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وَما يُضِلّ بِهِ إلاّ الفَـاسِقِـينَ: هم الـمنافقون.
351ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: وَمَا يُضِلّ بِهِ إلاّ الفَـاسِقِـينَ فسقوا فأضلهم الله علـى فسقهم.
352ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: وَما يُضِل بِهِ إلاّ الفَـاسِقِـينَ: هم أهل النفـاق.
قال أبو جعفر: وأصل الفسق فـي كلام العرب: الـخروج عن الشيء, يقال منه: فسقت الرطبة, إذا خرجت من قشرها ومن ذلك سميت الفأرة فويسقة, لـخروجها عن جحرها. فكذلك الـمنافق والكافر سُميا فـاسقـين لـخروجهما عن طاعة ربهما, ولذلك قال جل ذكره فـي صفة إبلـيس: إلاّ إبْلِـيسَ كَانَ مِنَ الـجِنّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبّهِ يعنـي به: خرج عن طاعته واتبـاع أمره. كما:

353ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق عن داود بن الـحصين, عن عكرمة مولـى ابن عبـاس, عن ابن عبـاس فـي قوله: بِـمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أي بـما بعدوا عن أمري.

فمعنى قوله: وَمَا يُضِلّ بِهِ إلاّ الفـاسِقِـينَ: وما يضلّ الله بـالـمثل الذي يضربه لأهل الضلال والنفـاق إلا الـخارجين عن طاعته والتاركين اتبـاع أمره من أهل الكفر به من أهل الكتاب وأهل الضلال من أهل النفـاق.

الآية : 27

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{الّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ أُولَـَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }

قال أبو جعفر: وهذا وصف من الله جل ذكره الفـاسقـين الذين أخبر أنه لا يضلّ بـالـمثل الذي ضربه لأهل النفـاق غيرهم, فقال: وَمَا يُضِلّ اللّهُ بـالـمثل الذي يضربه علـى ما وصف قبل فـي الاَيات الـمتقدمة إلا الفـاسقـين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

ثم اختلف أهل الـمعرفة فـي معنى العهد الذي وصف الله هؤلاء الفـاسقـين بنقضه, فقال بعضهم: هو وصية الله إلـى خـلقه, وأمره إياهم بـما أمرهم به من طاعته, ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فـي كتبه وعلـى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم, ونقضهم ذلك تركهم العمل به.

وقال آخرون: إنـما نزلت هذه الاَيات فـي كفـار أهل الكتاب والـمنافقـين منهم, وإياهم عنى الله جل ذكره بقوله: إنّ الّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَـيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ وبقوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِـاللّهِ وَبـالْـيَوْمِ الاَخِرِ فكل ما فـي هذه الاَيات فعذل لهم وتوبـيخ إلـى انقضاء قصصهم. قالوا: فعهد الله الذي نقضوه بعد ميثاقه: هو ما أخذه الله علـيهم فـي التوراة من العمل بـما فـيها, واتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث, والتصديق به وبـما جاء به من عند ربهم. ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقـيقته, وإنكارهم ذلك, وكتـمانهم علـم ذلك عن الناس, بعد إعطائهم الله من أنفسهم الـميثاق لـيبـيننه للناس ولا يكتـمونه. فأخبر الله جل ثناؤه أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قلـيلاً.

وقال بعضهم: إن الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفـاق وعهده إلـى جميعهم فـي توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالز علـى ربوبـيته وعهده إلـيهم فـي أمره ونهيه ما احتـج به لرسله من الـمعجزات التـي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتـي بـمثلها الشاهدة لهم علـى صدقهم. قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بـما قد تبـينت لهم صحته بـالأدلة, وتكذيبهم الرسل والكتب, مع علـمهم أن ما أتوا به حق.

وقال آخرون: العهد الذي ذكره الله جل ذكره, هو العهد الذي أخذه علـيهم حين أخرجهم من صلب آدم, الذي وصفه فـي قوله: وَإذْ أخَذَ رَبّكَ مِنْ بَنِـي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرّيّتَهُمْ وأشْهَدَهُمْ علـى أنْفُسِهِمْ الاَيتـين, ونقضُهم ذلك, تركهم الوفـاء به. وأولـى الأقوال عندي بـالصواب فـي ذلك, قول من قال: إن هذه الاَيات نزلت فـي كفـار أحبـار الـيهود الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم, وما قرب منها من بقايا بنـي إسرائيـل, ومن كان علـى شركه من أهل النفـاق الذين قد بـينا قصصهم فـيـما مضى من كتاب هذا. وقد دللنا علـى أن قول الله جل ثناؤه: إنّ الّذِينَ

كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَـيْهِمْ وقوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِـاللّهِ وَبـالْـيَوْمِ الاَخِرِ فـيهم أنزلت, وفـيـمن كان علـى مثل الذي هم علـيه من الشرك بـالله. غير أن هذه الاَيات عندي وإن كانت فـيهم نزلت, فإنه معنـيّ بها كل من كان علـى مثل ما كانوا علـيه من الضلال, ومعنـيّ بـما وافق منها صفة الـمنافقـين خاصةً جميعُ الـمنافقـين, وبـما وافق منها صفة كفـار أحبـار الـيهود جميع من كان لهم نظيرا فـي كفرهم. وذلك أن الله جل ثناؤه يعمّ أحيانا جميعهم بـالصفة لتقديـمه ذكر جميعها فـي أول الاَيات التـي ذكرتْ قصصهم, ويخصّ أحيانا بـالصفة بعضهم لتفصيـله فـي أول الاَيات بـين فريقـيهم, أعنـي فريق الـمنافقـين من عبدة الأوثان وأهل الشرك بـالله, وفريق كفـار أحبـار الـيهود, فـالذين ينقضون عهد الله: هم التاركون ما عهد الله إلـيهم من الإقرار بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به وتبـيـين نبوّته للناس الكاتـمون بـيان ذلك بعد علـمهم به وبـما قد أخذ الله علـيهم فـي ذلك, كما قال الله جل ذكره: وَإذْ أخَذَ الله مِيثاقَ الّذِينَ أوتُوا الكِتابَ لَتُبَـيّنُنّهُ للنّاسِ ولا تَكْتُـمُونَهُ فَنبذوهُ وراءَ ظُهُورِهِمْ ونبذهم ذلك وراء ظهورهم: هو نقضهم العهد الذي عهد إلـيهم فـي التوراة الذي وصفناه, وتَرْكُهم العمل به.

وإنـما قلت: إنه عنى بهذه الاَيات من قلت إنه عَنَى بها, لأن الاَيات من ابتداء الاَيات الـخمس والستّ من سورة البقرة فـيهم نزلت إلـى تـمام قصصهم, وفـي الآية التـي بعد الـخبر عن خـلق آدم وبـيانه فـي قوله: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ اذْكُروا نِعْمَتِـيَ الّتِـي أنْعَمْتُ عَلَـيْكُمْ وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وخطابه إياهم جلّ ذكره بـالوفـاء فـي ذلك خاصة دون سائر البشر ما يدلّ علـى أن قوله: الّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ مقصود به كفـارهم ومنافقوهم, ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان علـى ضلالهم. غير أن الـخطاب وإن كان لـمن وصفت من الفريقـين فداخـل فـي أحكامهم وفـيـما أوجب الله لهم من الوعيد والذمّ والتوبـيخ كل من كان علـى سبـيـلهم ومنهاجهم من جميع الـخـلق وأصناف الأمـم الـمخاطبـين بـالأمر والنهي. فمعنى الآية إذا: وما يضلّ به إلا التاركين طاعة الله, الـخارجين عن اتبـاع أمره ونهيه, الناكثـين عهود الله التـي عهدها إلـيهم فـي الكتب التـي أنزلها إلـى رسله وعلـى ألسن أنبـيائه بـاتبـاع أمر رسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به, وطاعة الله فـيـما افترض علـيهم فـي التوراة من تبـيـين أمره للناس, وإخبـارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوبـا عندهم أنه رسول من عند الله مفترضة طاعته وترك كتـمان ذلك لهم. ونَكْثُهم ذلك ونَقْضُهم إياه, هو مخالفتهم الله فـي عهده إلـيهم فـيـما وصفت أنه عهد إلـيهم بعد إعطائهم ربهم الـميثاق بـالوفـاء بذلك كما وصفهم به جل ذكره بقوله: فَخَـلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَـلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يأخُذونَ عَرَضَ هَذَا الأدنى ويَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإنْ يأتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ ألَـمْ يُؤْخَذْ عَلَـيْهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أنْ لا يَقُولُوا علـى اللّهِ إلاّ الـحَقّ.

وأما قوله: مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ فإنه يعنـي من بعد توثق الله فـيه بأخذ عهوده بـالوفـاء له بـما عهد إلـيهم فـي ذلك, غير أن التوثق مصدر من قولك: توثقت من فلان توثّقا, والـميثاق اسم منه, والهاء فـي الـميثاق عائدة علـى اسم الله.

وقد يدخـل فـي حكم هذه الآية كل من كان بـالصفة التـي وصف الله بها هؤلاء الفـاسقـين من الـمنافقـين والكفـار فـي نقض العهد وقطع الرحم والإفساد فـي الأرض. كما:

354ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة قوله: الّذِينَ يَنْقُضونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ فإياكم ونقض هذا الـميثاق, فإن الله قد كره نقضه وأوعد فـيه وقدم فـيه فـي آي القرآن حجة وموعظة ونصيحة, وإنا لا نعلـم الله جل ذكره أوعد فـي ذنب ما أوعد فـي نقض الـميثاق, فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فلـيف به لله.

355ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: الّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ ويُفْسِدُونَ فـي الأرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الـخَاسِرُونَ فهي ست خلال فـي أهل النفـاق إذا كانت لهم الظّهَرَة أظهروا هذه الـخلال الستّ جميعا: إذا حدّثوا كذبوا, وإذا وعدوا أخـلفوا, وإذا اؤتـمنوا خانوا, ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه, وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل, وأفسدوا فـي الأرض. وإذا كانت علـيهم الظّهَرَة أظهروا الـخلال الثلاث: إذا حدّثوا كذبوا, وإذا وعدوا أخـلفوا, وإذا اؤتـمنوا خانوا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيَقْطَعُونَ ما أمَرَ اللّهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ.

قال أبو جعفر: والذي رغب الله فـي وصله وذمّ علـى قطعه فـي هذه الآية: الرحم, وقد بـين ذلك فـي كتابه فقال تعالـى: فَهَلْ عَسَيْتُـمْ إنْ تَوَلّـيْتُـمْ أنْ تُفْسِدُوا فِـي الأرْضِ وتُقَطّعُوا أرْحَامَكُمْ وإنـما عنى بـالرحم: أهل الرجل الذين جمعتهم وإياهَ رحم والدة واحدة, وقطع ذلك ظلـمه فـي ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها وأوجب من برّها ووصلها أداء الواجب لها إلـيها: من حقوق الله التـي أوجب لها, والتعطف علـيها بـما يحقّ التعطف به علـيها. و«أن» التـي مع «يوصل» فـي مـحل خفض بـمعنى ردّها علـى موضع الهاء التـي فـي «به» فكان معنى الكلام: ويقطعون الذي أمر الله بأن يوصل. والهاء التـي فـي «به» هي كناية عن ذكر «أن يوصل».

وبـما قلنا فـي تأويـل قوله: وَيَقْطَعُونَ ما أمَرَ اللّهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ وأنه الرحم كان قتادة يقول:

356ـ حدثنا بشر بن معاذ. قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: وَيَقْطَعُونَ ما أمَرَ اللّهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ فقطع والله ما أمر الله به أن يوصل بقطيعة الرحم والقرابة.

وقد تأوّل بعضهم ذلك أن الله ذمهم بقطعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والـمؤمنـين به وأرحامهم, واستشهد علـى ذلك بعموم ظاهر الآية, وأن لا دلالة علـى أنه معنـيّ بها: بعض ما أمر الله بوصله دون بعض.

قال أبو جعفر: وهذا مذهب من تأويـل الآية غير بعيد من الصواب, ولكن الله جل ثناؤه قد ذكر الـمنافقـين فـي غير آية من كتابه, فوصفهم بقطع الأرحام. فهذه نظيرة تلك, غير أنها وإن كانت كذلك فهي دالة علـى ذمّ الله كل قاطع قطع ما أمر الله بوصله رحما كانت أو غيرها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيُفْسِدُونَ فـي الأرْضِ.

قال أبو جعفر: وفسادهم فـي الأرض هو ما تقدم وَصْفُنَاه قبل من معصيتهم ربهم وكفرهم به, وتكذيبهم رسوله, وجحدهم نبوّته, وإنكارهم ما أتاهم به من عند الله أنه حق من عنده.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أُولَئِكَ هُمُ الـخاسِرُونَ.
قال أبو جعفر: والـخاسرون جمع خاسر, والـخاسرون: الناقصون أنفسهم حظوظها بـمعصيتهم الله من رحمته, كما يخسر الرجل فـي تـجارته بأن يوضَع من رأس ماله فـي بـيعه. فكذلك الكافر والـمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التـي خـلقها لعبـاده فـي القـيامة أحوج ما كان إلـى رحمته, يقال منه: خَسِرَ الرجل يَخْسَر خَسْرا وخُسْرانا وخَسَارا, كما قال جرير بن عطية:
إنّ سَلِـيطا فِـي الـخسَارِ إنّهْأوْلادُ قَوْمٍ خُـلِقُوا أقِنّهْ
يعنـي بقوله فـي الـخسار: أي فـيـما يوكسهم حظوظهم من الشرف والكرم.
وقد قـيـل: إن معنى أُولَئِكَ هُمُ الـخاسِرُونَ: أولئك هم الهالكون. وقد يجوز أن يكون قائل ذلك أراد ما قلنا من هلاك الذي وصف الله صفته بـالصفة التـي وصفه بها فـي هذه الآية بحرمان الله إياه ما حرمه من رحمته بـمعصيته إياه وكفره به. فحمل تأويـل الكلام علـى معناه دون البـيان عن تأويـل عين الكلـمة بعينها, فإن أهل التأويـل ربـما فعلوا ذلك لعلل كثـيرة تدعوهم إلـيه.
وقال بعضهم فـي ذلك بـما:
357ـ حدثت به عن الـمنـجاب. قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: كل شيء نسبه الله إلـى غير أهل الإسلام من اسم مثل «خاسر», فإنـما يعنـي به الكفر, وما نسبه إلـى أهل الإسلام فإنـما يعنـي به الذنب.

الآية : 28

القول في تأويل قوله تعالى

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك

فقال بعضهم بما حدثني به موسى بن هارون قال حدثنا عمرو بن حماد قال حدثنا أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن بن عباس وعن مرة عن بن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي كيف تكفرون بالله

وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم يقول لم تكونوا شيئا فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة

وحدثنا محمد بن بشار قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال هي كالتي في البقرة كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم

وحدثني أبو حصين عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن يونس قال حدثنا عبثر قال حدثنا حصين عن أبي مالك في قوله أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال خلقتنا ولم نكن شيئا ثم أمتنا ثم أحييتنا

وحدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا هشيم عن حصين عن أبي مالك في قوله أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال كانوا أمواتا فأحياهم الله ثم أماتهم ثم أحياهم

وحدثنا القاسم قال حدثنا الحسين بن داود قال حدثني حجاج عن بن جريج عن مجاهد في قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم قال لم تكونوا شيئا حين خلقكم ثم يميتكم الموتة الحق ثم يحييكم

وقوله أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين مثلها

وحدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن بن جريج قال حدثني عطاء الخرساني عن بن عباس قال هو قوله أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين

وحدثت عن عمار بن الحسن قال حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قال حدثني أبو العالية في قول الله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا يقول حين لم يكونوا شيئا ثم أحياهم حين خلقهم ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة ثم رجعوا إليه بعد الحياة

وحدثت عن المنجاب قال حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن بن عباس في قوله أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه إحياءة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه إحياءة فهما ميتتان وحياتان فهو قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون

وقال آخرون بما حدثنا به أبو كريب قال حدثنا وكيع عن سفيان عن السدي عن أبي صالح كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون قال يحييكم في القبر ثم يميتكم

وقال آخرون بما حدثنا به بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا الآية

قال كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله وخلقهم ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهما حياتان وموتتان

وقال بعضهم بما حدثني به يونس قال أنبأنا بن وهب قال قال بن زيد في قول الله تعالى ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق وقرأ : وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم حتى بلغ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون قال فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق

قال وانتزع ضلعا من أضلاع آدم القصيري فخلق منه حواء ذكره عن النبي

قال وذلك قول الله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء قال وبث منهما بعد ذلك في الأرحام خلقا كثيرا وقرأ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق قال خلقا بعد ذلك ، قال : فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة فذلك قول الله ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ، وقرأ قول الله : وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ؛ قال يومئذ ، قال : وقرأ قول الله : واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا

قال أبو جعفر ولكل قول من هذه الأقوال التي حكيناها عمن رويناها عنه وجه ومذهب من التأويل

فأما وجه تأويل من تأول قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم أي لم تكونوا شيئا فإنه ذهب إلى نحو قول العرب للشيء الدارس والأمر الخامل الذكر هذا شيء

ميت وهذا أمر ميت يراد بوصفه بالموت خمول ذكره ودروس أثره من الناس ، وكذلك يقال في ضد ذلك وخلافه هذا أمر حي وذكر حي يراد بوصفه بذلك أنه نابه متعالم في الناس كما قال أبو نخيلة السعدي

فأحييت لي ذكري وما كنت خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

يريد بقوله فأحييت لي ذكري أي رفعته وشهرته في الناس حتى نبه فصار مذكورا حيا بعد أن كان خاملا ميتا ، فكذلك تأويل قول من قال في قوله وكنتم أمواتا لم تكونوا شيئا أي كنتم خمولا لا ذكر لكم وذلك كان موتكم فأحياكم فجعلكم بشرا أحياء تذكرون وتعرفون ثم يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم كالذي كنتم قبل أن يحييكم من دروس ذكركم وتعفي آثاركم وخمول أموركم ثم يحييكم بإعادة أجسامكم إلى هيئاتها ونفخ الروح فيها وتصييركم بشرا كالذي كنتم قبل الإماتة لتعارفوا في بعثكم وعند حشركم وأما وجه تأويل من تأول ذلك أنه الإماتة التي هي خروج الروح من الجسد فإنه ينبغي أن يكون ذهب بقوله وكنتم

أمواتا إلى أنه خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم في قبورهم ، وذلك معنى بعيد لأن التوبيخ هنالك إنما هو توبيخ على ما سلف وفرط من إجرامهم لا استعتاب واسترجاع

وقوله جل ذكره كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا توبيخ مستعتب عباده وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصي إلى الطاعة ومن الضلالة إلى الإنابة ولا إنابة في القبور بعد الممات ولا توبة فيها بعد الوفاة

وأما وجه تأويل قول قتادة ذلك أنهم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم ؛ فإنه عنى بذلك أنهم كانوا نطفا لا أرواح فيها فكانت بمعنى سائر الأشياء الموات التي لا أرواح فيها

وإحياؤه إياها تعالى ذكره نفخه الأرواح فيها وإماتته إياهم بعد ذلك قبضه أرواحهم وإحياؤه إياهم بعد ذلك نفخ الأرواح في أجسامهم يوم ينفخ في الصور ويبعث الخلق للموعود

وأما بن زيد فقد أبان عن نفسه ما قصد بتأويله ذلك وأن الإماتة الأولى عند إعادة الله جل ثناؤه عباده في أصلاب آبائهم بعد ما أخذهم من صلب آدم وأن الإحياء الآخر هو نفخ الأرواح فيهم في بطون أمهاتهم وأن الإماتة الثانية هي

قبض أرواحهم للعود إلى التراب والمصير في البرزخ إلى اليوم البعث وأن الإحياء الثالث هو نفخ الأرواح فيهم لبعث الساعة ونشر القيامة ، وهذا تأويل إذا تدبره المتدبر وجده خلافا لظاهر قول الله الذي زعم مفسره أن الذي وصفنا من قوله تفسيره ، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر في كتابه عن الذين أخبر عنهم من خلقه أنهم قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين وزعم بن زيد في تفسيره أن الله أحياهم ثلاث إحياءات وأماتهم ثلاث إماتات ، والأمر عندنا وإن كان فيما وصف من استخراج الله جل ذكره من صلب آدم ذريته وأخذه ميثاقه عليهم كما وصف فليس ذلك من تأويل هاتين الآيتين أعني قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا الآية وقوله ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين في شيء لأن أحدا لم يدع أن الله أمات من ذرأ يومئذ غير الإماتة التي صار بها في البرزخ إلى يوم البعث فيكون جائزا أن يوجه تأويل الآية إلى ما وجهه إليه بن زيد

وقال بعضهم الموتة الأولى مفارقة نطفة الرجل جسده إلى رحم المرأة فهي ميتة من لدن فراقها جسده إلى نفخ

الروح فيها ثم يحييها الله بنفخ الروح فيها فيجعلها بشرا سويا بعد تارات تأتي عليها ثم يميته الميتة الثانية بقبض الروح منه فهو في البرزخ ميت إلى يوم ينفخ في الصور فيرد في جسده روحه فيعود حيا سويا لبعث القيامة فذلك موتتان وحياتان

وإنما دعا هؤلاء إلى هذا القول لأنهم قالوا موت ذي الروح مفارقة الروح إياه فزعموا أن كل شيء من بن آدم حي ما لم يفارق جسده الحي ذا الروح فكل ما فارق جسده الحي ذا الروح فارقته الحياة فصار ميتا كالعضو من أعضائه مثل اليد من يديه والرجل من رجليه لو قطعت وأبينت

والمقطوع ذلك منه حي كان الذي بان من جسده ميتا لا روح فيه بفراقه سائر جسده الذي فيه الروح ، قالوا فكذلك نطفته حية بحياته ما لم تفارق جسده ذا الروح فإذا فارقته مباينة له صارت ميتة نظير ما وصفنا من حكم اليد والرجل وسائر أعضائه وهذا قول ووجه من التأويل لو كان به قائل من أهل القدوة الذين يرتضي للقرآن تأويلهم

وأولى ما ذكرنا من الأقوال التي بينا بتأويل قول الله جل ذكره كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم الآية القول الذي ذكرناه عن بن مسعود وعن بن عباس من أن معنى قوله وكنتم أمواتا أموات الذكر خمولا في أصلاب آبائكم نطفا لا تعرفون ولا تذكرون فأحياكم بانشائكم بشرا سويا حتى ذكرتم وعرفتم وحييتم ثم يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رفاتا لا تعرفون ولا تذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصيحة القيامة ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك كما قال ثم إليه ترجعون لأن الله جل ثناؤه يحييهم في قبورهم قبل حشرهم ثم يحشرهم لموقف الحساب كما قال جل ذكره يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون وقال ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون

والعلة التي من أجلها اخترنا هذا التأويل ما قد قدمنا ذكره للقائلين به وفساد ما خالفه بما قد أوضحناه قبل

وهذه الآية توبيخ من الله جل ثناؤه للقائلين آمنا بالله وباليوم الآخر الذين أخبر الله عنهم أنهم مع قيلهم ذلك بأفواههم غير مؤمنين به وأنهم إنما يقولون ذلك خداعا لله وللمؤمنين

فعذلهم الله بقوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ووبخهم واحتج عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة فقال كيف تكفرون بالله فتجحدون قدرته على إحيائكم بعد إماتتكم وإعادتكم بعد إفنائكم وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم

ثم عدد ربنا عليهم وعلى أوليائهم من أحبار اليهود الذين جمع بين قصصهم وقصص المنافقين في كثير من آي هذه السورة التي افتتح الخبر عنهم فيها بقوله إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون نعمه التي سلفت منه إليهم وإلى آبائهم التي عظمت منهم مواقعها ثم سلب كثيرا منهم كثيرا منها بما ركبوا من الآثام واجترموا من الإجرام وخالفوا من الطاعة إلى المعصية يحذرهم بذلك تعجيل العقوبة لهم كالتي عجلها للأسلاف

والأفراط قبلهم ويخوفهم حلول مثلاته بساحتهم كالذي أحل بأوليهم ويعرفهم مالهم من النجاة في سرعة الأوبة إليه وتعجيل التوبة من الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب ؛ فبدأ بعد تعديده عليهم ما عدد من نعمه التي هم فيها مقيمون بذكر أبينا وأبيهم آدم أبي البشر صلوات الله عليه وما سلف منه من كرامته إليه وآلائه لديه وما أحل به وبعدوه إبليس من عاجل عقوبته بمعصيتهما التي كانت منهما ومخالفتهما أمره الذي أمرهما به وما كان من تغمده آدم برحمته إذ تاب وأناب إليه وما كان من إحلاله بإبليس من لعنته في العاجل وإعداده له ما أعد له من العذاب المقيم في الآجل إذا استكبر وأبى التوبة إليه والإنابة منبها لهم على حكمه في المنيبين إليه بالتوبة وقضائه في المستكبرين عن الإنابة إعذارا من الله بذلك إليهم وإنذارا لهم ليتدبروا آياته وليتذكر منهم أولو الألباب ، وخاصا أهل الكتاب بما ذكر من قصص آدم وسائر القصص التي ذكرها معها وبعدها مما علمه أهل الكتاب وجهلته الأمة الأمية من مشركي عبدة الأوثان بالاحتجاج عليهم دون غيرهم من

سائر أصناف الأمم الذين لا علم عندهم بذلك لنبيه محمد ليعلموا بإخباره إياهم بذلك أنه لله رسول مبعوث وأن ما جاءهم به فمن عنده إذ كان ما اقتص عليهم من هذه القصص من مكنون علومهم ومصون ما في كتبهم وخفي أمورهم التي لم يكن يدعي معرفة علمها غيرهم وغير من أخذ عنهم وقرأ كتبهم ، وكان معلوما من محمد أنه لم يكن قط كاتبا ولا لأسفارهم تاليا ولا لأحد منهم مصاحبا ولا مجالسا فيمكنهم أن يدعوا أنه أخذ ذلك من كتبهم أو عن بعضهم فقال جل ذكره في تعديده عليهم ما هم فيه مقيمون من نعمه مع كفرهم به وتركهم شكره عليها مما يجب له عليهم من طاعته

الآية : 29

تأويل قوله تعالى:{هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مّا فِي الأرْضِ جَمِيعاً ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

فأخبرهم جل ذكره أنه خـلق لهم ما فـي الأرض جميعا, لأن الأرض وجميع ما فـيها لبنـي آدم منافع. أما فـي الدين فدلـيـل علـى وحدانـية ربهم, وأما فـي الدنـيا فمعاش وبلاغ لهم إلـى طاعته وأداء فرائضه فلذلك قال جل ذكره: هُوَ الّذِي خَـلَقَ لَكُمْ ما فِـي الأرْضِ جَمِيعا. وقوله: «هو» مكنى من اسم الله جل ذكره, عائد علـى اسمه فـي قوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِـاللّهِ. ومعنى خـلقه ما خـلق جل ثناؤه: إنشاؤه عينه, وإخراجه من حال العدم إلـى الوجود. و«ما» بـمعنى «الذي». فمعنى الكلام إذا: كيف تكفرون بـالله وقد كنتـم نطفـا فـي أصلاب آبـائكم, فجعلكم بشرا أحياء, ثم يـميتكم, ثم هو مـحيـيكم بعد ذلك, وبـاعثكم يوم الـحشر للثواب والعقاب, وهو الـمنعم علـيكم بـما خـلق لكم فـي الأرض من معايشكم وأدلتكم علـى وحدانـية ربكم. و«كيف» بـمعنى التعجب والتوبـيخ لا بـمعنى الاستفهام, كأنه قال:

ويحكم كيف تكفرون بـالله, كما قال: فأين تذهبون. وحل قوله: وكُنْتُـمْ أمْوَاتا فأحْياكُمْ مـحلّ الـحال, وفـيه إضمار «قد», ولكنها حذفت لـما فـي الكلام من الدلـيـل علـيها. وذلك أن «فعل» إذا حلت مـحلّ الـحال كان معلوما أنها مقتضية «قد», كما قال جل ثناؤه: أوْ جاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ بـمعنى: قد حصرت صدورهم. وكما تقول للرجل: أصبحت كثرت ماشيتك, تريد: قد كثرت ماشيتك.

وبنـحو الذي قلنا فـي قوله: هوَ الّذِي خَـلَقَ لَكُمْ ما فِـي الأرْضِ جَمِيعا كان قتادة يقول:

368ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة قوله: هُوَ الّذِي خَـلَقَ لَكُمْ ما فِـي الأرْضِ جَمِيعا نعم والله سخر لكم ما فـي الأرض.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ثُم اسْتَوَى إلـى السّمَاءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ.

قال أبو جعفر: اختلف فـي تأويـل قوله: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّماءِ فقال بعضهم: معنى استوى إلـى السماء, أقبل علـيها, كما تقول: كان فلان مقبلاً علـى فلان ثم استوى علـيّ يشاتـمنـي واستوى إلـيّ يشاتـمنـي, بـمعنى: أقبل علـيّ وإلـيّ يشاتـمنـي. واستشهد علـى أن الاستواء بـمعنى الإقبـال بقول الشاعر:

أقُولُ وَقَدْ قَطَعْنَ بِنا شَرَوْرَىسَوَامِدَ وَاسْتَوَيْنَ مِنَ الضّجُوعِ

فزعم أنه عنى به أنهن خرجن من الضّجوع, وكان ذلك عنده بـمعنى أقبلن. وهذا من التأويـل فـي هذا البـيت خطأ, وإنـما معنى قوله: «واستوين من الضجوع» عندي: استوين علـى الطريق من الضجوع خارجات, بـمعنى استقمن علـيه.

وقال بعضهم: لـم يكن ذلك من الله جل ذكره بتـحوّل, ولكنه بـمعنى فعله, كما تقول: كان الـخـلـيفة فـي أهل العراق يوالـيهم ثم تـحوّل إلـى الشام, إنـما يريد تـحوّل فعله.

وقال بعضهم: قوله ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّمَاءِ يعنـي به: استوت, كما قال الشاعر:

أقُولُ لَهُ لَـمّا اسْتَوَى فـي تُرَابِهِعلـى أيّ دِينٍ قَتّلَ الناسَ مُصْعَبُ

وقال بعضهم: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّماءِ: عمد إلـيها. وقال: بل كل تارك عملاً كان فـيه إلـى آخره فهو مستو لـما عمد ومستو إلـيه.

وقال بعضهم: الاستواء: هو العلوّ, والعلوّ: هو الارتفـاع.

ومـمن قال ذلك الربـيع بن أنس.

369ـ حدثت بذلك عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّماءِ يقول: ارتفع إلـى السماء.

ثم اختلف متأوّلو الاستواء بـمعنى العلوّ والارتفـاع فـي الذي استوى إلـى السماء, فقال بعضهم: الذي استوى إلـى السماء وعلا علـيها: هو خالقها ومنشئها.

وقال بعضهم: بل العالـي إلـيها الدخان الذي جعله الله للأرض سماء.

قال أبو جعفر: الاستواء فـي كلام العرب منصرف علـى وجوه: منها انتهاء شبـاب الرجل وقوّته, فـيقال إذا صار كذلك: قد استوى الرجل, ومنها

استقامة ما كان فـيه أَوَدٌ من الأمور والأسبـاب, يقال منه: استوى لفلان أمره: إذا استقام له بعد أود. ومنه قول الطرماح بن حكيـم:

طالَ علـى رَسْمٍ مَهْدَدٍ أبَدُهْوعَفـا واسْتَوَى بِهِ بَلَدُهْ

يعنـي: استقام به.

ومنها الإقبـال علـى الشيء بـالفعل, كما يقال: استوى فلان علـى فلان بـما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إلـيه. ومنها الاحتـياز والاستـيلاء كقولهم: استوى فلان علـى الـمـملكة, بـمعنى احتوى علـيها وحازها. ومنها العلوّ والارتفـاع, كقول القائل: استوى فلان علـى سريره, يعنـي به علوّه علـيه.

وأولـى الـمعانـي بقول الله جل ثناؤه: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السماءِ فَسَوّاهُنْ علا علـيهنّ وارتفع فدبرهن بقدرته وخـلقهنّ سبع سموات.

والعجب مـمن أنكر الـمعنى الـمفهوم من كلام العرب فـي تأويـل قول الله: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّماءِ الذي هو بـمعنى العلوّ والارتفـاع هربـا عند نفسه من أن يـلزمه بزعمه إذا تأوله بـمعناه الـمفهم كذلك أن يكون إنـما علا وارتفع بعد أن كان تـحتها, إلـى أن تأوله بـالـمـجهول من تأويـله الـمستنكر, ثم لـم ينـج مـما هرب منه. فـيقال له: زعمت أن تأويـل قوله: اسْتَوَى أقْبَلَ, أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إلـيها؟ فإن زعم أن ذلك لـيس بإقبـال فعل ولكنه إقبـال تدبـير, قـيـل له: فكذلك فقل: علا علـيها علوّ ملك وسلطان لا علوّ انتقال وزوال. ثم لن يقول فـي شيء من ذلك قولاً إلا ألزم فـي الآخر مثله, ولولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بـما لـيس من جنسه لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال فـي ذلك قولاً لقول أهل الـحقّ فـيه مخالفـا, وفـيـما بـينا منه ما يشرف بذي الفهم علـى ما فـيه له الكفـاية إنه شاء الله تعالـى.

قال أبو جعفر: وإن قال لنا قائل: أخبرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلـى السماء, كان قبل خـلق السماء أم بعده؟ قـيـل: بعده, وقبل أن يسوّيهنّ سبع سموات, كما قال جل ثناؤه: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّمَاءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأرْضِ ائْتِـيا طَوْعا أوْ كَرْها والاستواء كان بعد أن خـلقها دخانا, وقبل أن يسوّيها سبع سموات.

وقال بعضهم: إنـما قال استوى إلـى السماء ولا سماء, كقول الرجل لآخر: «اعمل هذا الثوب» وإنـما معه غزلٌ. وأما قوله فَسَوّاهُنّ فإنه يعنـي هيأهنّ وخـلقهنّ ودبرهنّ وقوّمهنّ, والتسوية فـي كلام العرب: التقويـم والإصلاح والتوطئة, كما يقال: سوّى فلان لفلان هذا الأمر: إذا قوّمه وأصلـحه ووطأه له. فكذلك تسوية الله جل ثناؤه سمواته: تقويـمه إياهن علـى مشيئته, وتدبـيره لهن علـى إرادته, وتفتـيقهن بعد ارتاقهن كما:

370ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ يقول: سوى خـلقهن وهو بكل شيء علـيـم.

وقال جل ذكره: فَسَوّاهُنّ فأخرج مكنـيّهن مخرج مكنى الـجمع. وقد قال قبل: ثم استوى إلـى السماء فأخرجها علـى تقدير الواحد. وإنـما أخرج مكنـيهن مخرج مكنـيّ الـجمع. لأن السماء جمع واحدها سماوة, فتقدير واحدتها وجمعها إذا تقدير بقرة وبقر, ونـخـلة ونـخـل وما أشبه ذلك ولذلك أُنّثَتْ مرة, فقـيـل: هذه سماء, وذُكّرتْ أخرى فقـيـل: السماء منفطر به كما يفعل ذلك بـالـجمع الذي لا فرق بـينه وبـين واحدة غير دخول الهاء

وخروجها, فـيقال: هذا بقر وهذه بقر, وهذا نـخـل وهذه نـخـل, وما أشبه ذلك. وكان بعض أهل العربـية يزعم أن السماء واحدة, غير أنها تدلّ علـى السموات, فقـيـل: فَسَوّاهُنّ يراد بذلك التـي ذكرت, وما دلت علـيه من سائر السموات التـي لـم تذكر معها. قال: وإنـما تذكّر إذا ذكّرت وهي مؤنثة, فـيقال: السماء منفطر به كما يذكر الـمؤنث, وكما قال الشاعر:

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهاولا أرْضٌ أبْقَلَ إبْقَالَهَا

وكما قال أعشى بنـي ثعلبة:

فإمّا تَرَيْ لِـمّتِـي بُدّلَتْفإنّ الـحَوَادِثَ أزْرَى بِهَا

وقال بعضهم: السماء وإن كانت سماء فوق سماء, وأرضا فوق أرض, فهي فـي التأويـل واحدة إن شئت, ثم تكون تلك الواحدة جماعا, كما يقال: ثوب أخلاق وأسمال, وبرمة أعشار للـمتكسرة, وبرمة أكسار وأجبـار, وأخلاق: أي أن نواحيه أخلاق.

فإن قال لنا قائل: فإنك قد قلت: إن الله جل ثناؤه استوى إلـى السماء وهي دخان قبل أن يسوّيها سبع سموات, ثم سوّاها سبعا بعد استوائه إلـيها, فكيف زعمت أنها جماع؟ قـيـل: إنهنّ كنّ سبعا غير مستويات, فلذلك قال جلّ ذكره: فسوّاهنّ سبعا: كما:

371ـ حدثنـي مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قال: قال مـحمد بن إسحاق: كان أوّل ما خـلق الله تبـارك وتعالـى: النور والظلـمة, ثم ميز بـينهما فجعل الظلـمة لـيلاً أسود مظلـما, وجعل النور نهارا مضيئا مبصرا, ثم سمك السموات السبع من دخان يقال والله أعلـم من دخان الـماء حتـى استقللن ولـم يحبكهن, وقد أغطش فـي السماء الدنـيا لـيـلها وأخرج ضحاها, فجرى فـيها اللـيـل والنهار, ولـيس فـيها شمس ولا قمر ولا نـجوم, ثم دحى الأرض, وأرساها بـالـجبـال, وقدّر فـيها الأقوات, وبثّ فـيها ما أراد من الـخـلق, ففرغ من الأرض وما قدّر فـيها من أقواتها فـي أربعة أيام. ثم استوى إلـى السماء وهي دخان كما قال فحبكهن, وجعل فـي السماء الدنـيا شمسها وقمرها ونـجومها, وأوحى فـي كل سماء أمرها, فأكمل خـلقهنّ فـي يومين. ففرغ من خـلق السموات والأرض فـي ستة أيام, ثم استوى فـي الـيوم السابع فوق سمواته, ثم قال للسموات والأرض: ائْتِـيا طَوْعا أوْ كَرْها لـما أردت بكما, فـاطمئنا علـيه طوعا أو كرها, قَالَتَا: أتَـيْنا طائِعِينَ.

فقد أخبر ابن إسحاق أن الله جل ثناؤه استوى إلـى السماء بعد خـلقه الأرض وما فـيها وهنّ سبع من دخان, فسوّاهنّ كما وصف. وإنـما استشهدنا لقولنا الذي قلنا فـي ذلك بقول ابن إسحاق لأنه أوضح بـيانا عن خبر السموات أنهنّ كنّ سبعا من دخان قبل استواء ربنا إلـيها بتسويتها من غيره, وأحسن شرحا لـما أردنا الاستدلال به من أن معنى السماء التـي قال الله فـيها: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّماءِ بـمعنى الـجمع علـى ما وصفنا, وأنه إنـما قال جل ثناؤه: فسوّاهنّ إذ كانت السماء بـمعنى الـجمع علـى ما بـينا.

قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: فما صفة تسوية الله جل ثناؤه السموات التـي ذكرها فـي قوله: فَسَوّاهُنّ إذ كن قد خـلقن سبعا قبل تسويته إياهن؟ وما وجه ذكر خـلقهن بعد ذكر خـلق الأرض, ألأنها خـلقت قبلها, أم بـمعنى غير ذلك؟ قـيـل: قد ذكرنا ذلك فـي الـخبر الذي رويناه عن ابن إسحاق,

ونزيد ذلك توكيدا بـما انضمّ إلـيه من أخبـار بعض السلف الـمتقدمين وأقوالهم.

372ـ فحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: هُوَ الّذِي خَـلَقَ لَكُمْ ما فِـي الأرْضِ جَمِيعا ثُم اسْتَوَى إلـى السماء فَسَوّاهُن سَبْعَ سَمَوَاتٍ قال: إن الله تبـاركَ وتعالـى كان عرشه علـى الـماء, ولـم يخـلق شيئاً غير ما خـلق قبل الـماء, فلـما أراد أن يخـلق الـخـلق أخرج من الـماء دخانا, فـارتفع فوق الـماء فسما علـيه, فسماه سماءً, ثم أيبس الـماء فجعله أرضا واحدة, ثم فتقها فجعل سبع أرضين فـي يومين فـي الأحد والاثنـين, فخـلق الأرض علـى حوت, والـحوت هو النون الذي ذكره الله فـي القرآن: ن والقَلَـم والـحوت فـي الـماء والـماء علـى ظهر صفـاة, والصفـاة علـى ظهر ملك, والـملك علـى صخرة, والصخرة فـي الريح وهي الصخرة التـي ذكر لقمان لـيست فـي السماء ولا فـي الأرض. فتـحرّك الـحوت فـاضطرب, فتزلزت الأرض, فأرسى علـيها الـجبـال فقرّت, فـالـجبـال تفخر علـى الأرض, فذلك قوله: وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ أنْ تَـمِيدَ بِكُمْ وخـلق الـجبـال فـيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها فـي يومين فـي الثلاثاء والأربعاء, وذلك حين يقول: أئِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِـالّذِي خَـلَقَ الارْضَ فِـي يَوْمَيْنِ وَتَـجْعَلُونَ لَهُ أنْدَادا ذَلِكَ رَبّ العَالَـمِينَ وَجَعَلَ فِـيها رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَـارَكَ فِـيها يقول: أنبت شجرها وَقَدّرَ فِـيها أقْواتها يقول أقواتها لأهلها فـي أرْبَعَةِ أيّامٍ سَواء للسّائِلِـينَ يقول: قل لـمن يسألك هكذا الأمر ثمّ اسْتَوى إلَـى السّماءِ وَهِيَ دُخانٌ وكان ذلك الدخان من تنفس الـماء حين تنفس, فجعلها سماء واحدة, ثم فتقها فجعلها سبع سموات فـي يومين فـي الـخميس والـجمعة, وإنـما سمي يوم الـجمعة لأنه جمع فـيه خـلق السموات والأرض وأوْحَى فـي كُل سماءٍ أمْرَها قال: خـلق فـي كل سماء خـلقها من الـملائكة والـخـلق الذي فـيها, من البحار وجبـال البَرَدِ وما لا يعلـم. ثم زين السماء الدنـيا بـالكواكب, فجعلها زينة وحفظا تـحفظ من الشياطين. فلـما فرغ من خـلق ما أحبّ استوى علـى العرش, فذلك حين يقول: خـلق السموات والأرض فـي ستة أيام يقول: كانَتا رَتْقا فَفَتَقْناهُما.

373ـ وحدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: هُوَ الّهذي خَـلَقَ لَكُمْ ما فِـي الأرْضِ جَمِيعا ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّمَاءِ قال: خـلق الأرض قبل السماء, فلـما خـلق الأرض ثار منها دخان, فذلك حين يقول: ثُمّ اسْتَوَى إلـى السّمَاءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَواتٍ قال: بعضهنّ فوق بعض, وسبع أرضين بعضهنّ تـحت بعض.

374ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَواتٍ قال: بعضهنّ فوق بعض, بـين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام.

375ـ وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس فـي قوله حيث ذكر خـلق الأرض قبل السماء, ثم ذكر السماء قبل الأرض, وذلك أن الله خـلق الأرض

بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء, ثم استوى إلـى السماء فسوّاهنّ سبع سموات, ثم دحا الأرض بعد ذلك, فذلك قوله: وَالأرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها.

376ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي أبو معشر, عن سعيد بن أبـي سعيد, عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الـخـلق يوم الأحد, فخـلق الأرضين فـي الأحد والاثنـين, وخـلق الأقوات والرواسي فـي الثلاثاء والأربعاء, وخـلق السموات فـي الـخميس والـجمعة, وفرغ فـي آخر ساعة من يوم الـجمعة, فخـلق فـيها آدم علـى عجل فتلك الساعة التـي تقوم فـيها الساعة.

قال أبو جعفر: فمعنى الكلام إذا: هو الذي أنعم علـيكم, فخـلق لكم ما فـي الأرض جميعا وسخره لكم تفضلاً منه بذلك علـيكم, لـيكون لكم بلاغا فـي دنـياكم, ومتاعا إلـى موافـاة آجالكم, ودلـيلاً لكم علـى وحدانـية ربكم. ثم علا إلـى السموات السبع وهي دخان, فسوّاهن وحبكهن, وأجرى فـي بعضهن شمسه وقمره ونـجومه, وقدّر فـي كل واحدة منهنّ ما قدّر من خـلقه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وهُوَ بِكُلّ شيْءٍ عَلِـيـمٌ.

يعنـي بقوله جلّ جلاله: وهو نفسه, وبقوله: بِكُلّ شَيْءٍ عَلِـيـمٌ: أن الذي خـلقكم وخـلق لكم ما فـي الأرض جميعا, وسّوى السموات السبع بـما فـيهن, فأحكمهن من دخان الـماء وأتقن صنعهن, لا يخفـى علـيه أيها الـمنافقون والـملـحدون الكافرُونَ به من أهل الكتاب, ما تبدون وما تكتـمون فـي أنفسكم, وإن أبدى منافقوكم بألسنتهم قولهم: آمَنّا بِـاللّهِ وبـالـيَوْمِ الاَخِرِ وهم علـى التكذيب به منطوون. وكذبت أحبـاركم بـما أتاهم به رسولـي من الهدى والنور وهم بصحته عارفون, وجحدوا وكتـموا ما قد أخذت علـيهم ببـيانه لـخـلقـي من أمر مـحمد ونبوّته الـمواثـيق, وهم به عالـمون بل أنا عالـم بذلك وغيره من أموركم, وأمور غيركم, إنـي بكل شيء علـيـم. وقوله: عَلِـيـمٌ بـمعنى عالـم. ورُوي عن ابن عبـاس أنه كان يقول: هو الذي قد كمل فـي علـمه.

377ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنا معاوية بن صالـح, قال: حدثنـي علـيّ بن أبـي طلـحة عن ابن عبـاس قال: العالـم الذي قد كمل فـي علـمه.

الآية : 30

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً قَالُوَاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إِنّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

قال أبو جعفر: زعم بعض الـمنسوبـين إلـى العلـم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويـل قوله: وَإذْ قَالَ رَبكَ وقال ربك, وأن «إذ» من الـحروف الزوائد, وأن معناها الـحذف. واعتلّ لقوله الذي وصفنا عنه فـي ذلك ببـيت الأسود بن يعفر:

فإذَا وَذَلِكَ لامَهاهَ لِذِكْرِهِوَالدّهْرُ يُعْقِبُ صَالِـحا بِفَسادِ

ثم قال: ومعناها: وذلك لامهاه لذكره. وببـيت عبد مناف بن ربع الهذلـي:

حَتّـى إذَا أسْلَكُوهُمْ فـي قُتائِدَةٍشَلاّ كمَا تَطْرُدُ الـجَمّالَةُ الشّرُدَا

وقال: معناه: حتـى أسلكوهم.

قال أبو جعفر: والأمر فـي ذلك بخلاف ما قال وذلك أن «إذ» حرف يأتـي بـمعنى الـجزاء, ويدل علـى مـجهول من الوقت, وغير جائز إبطال حرف كان دلـيلاً علـى معنى فـي الكلام. إذ سواء قـيـلُ قائلٍ هو بـمعنى التطوّل, وهو فـي الكلام دلـيـل علـى معنى مفهوم. وقـيـلُ آخرٍ فـي جميع الكلام الذي نطق به دلـيلاً علـى ما أريد به وهو بـمعنى التطول. ولـيس لـمدّعي الذي وصفنا قوله فـي بـيت الأسود بن يعفر, أن «إذا» بـمعنى التطوّل وجه مفهوم بل ذلك لو حذف من الكلام لبطل الـمعنى الذي أراده الأسود بن يعفر من قوله:

فإذَا وَذَلِكَ لامَهَاهَ لِذِكْرِهِ

وذلك أنه أراد بقوله: فإذا الذي نـحن فـيه, وما مضى من عيشنا. وأشار بقوله ذلك إلـى ما تقدم وصفه من عيشه الذي كان فـيه لامهاه لذكره, يعنـي لا طعم له ولا فضل, لإعقاب الدهر صالـح ذلك بفساد. وكذلك معنى قول عبد مناف بن ربع:

حتّـى إذَا أسْلَكُوهُمْ فِـي قُتائِدَةٍشَلاّت

لو أسقط منه «إذا» بطل معنى الكلام لأن معناه: حتـى إذا أسلكوهم فـي قتائدة سلكوا شلاًّ. فدل قوله: «أسلكوهم شلاّ» علـى معنى الـمحذوف, فـاستغنى عن ذكره بدلالة «إذا» علـيه, فحذف. كما قد ذكرنا فـيـما مضى من كتابنا علـى ما تفعل العرب فـي نظائر ذلك, وكما قال النـمر بن تولب:

فإنّ الـمَنِـيّةَ مَنْ يَخْشَهَافَسَوْفَ تُصَادِفُه أيْنَـما

وهو يريد: أينـما ذهب. وكما تقول العرب: أتـيتك من قبل ومن بعد تريد: من قبل ذلك ومن بعد ذلك. فكذلك ذلك فـي «إذا» كما يقول القائل: إذا أكرمك أخوك فأكرمه وإذا لا فلا يريد: وإذا لـم يكرمك فلا تكرمه. ومن ذلك قول الآخر:

فإذَا وَذَلِكَ لاَ يَضُرّكَ ضُرّهُفـي يَوْمِ أسألُ أوْ أُنْكَرُ

نظير ما ذكرنا من الـمعنى فـي بـيت الأسود بن يعفر. وكذلك معنى قول الله جل ثناؤه: وَإذْ قالَ رَبّكَ للْـمَلاَئِكَة لو أبطلت «إذ» وحذفت من الكلام, لاستـحال عن معناه الذي هو به وفـيه «إذ».

فإن قال قائل: فما معنى ذلك؟ وما الـجالب ل«إذْ», إذ لـم يكن فـي الكلام قبله ما يعطف به علـيه؟ قـيـل له: قد ذكرنا فـيـما مضى أن الله جل ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بـالله وكُنْتُـمْ أمْوَاتا فأحْياكُمْ بهذه الآيات والتـي بعدها موبخهم مقبحا إلـيهم سوء فعالهم ومقامهم علـى ضلالهم مع النعم التـي أنعمها علـيهم وعلـى أسلافهم, ومذكرهم بتعديد نعمه علـيهم وعلـى أسلافهم بأسه أن يسلكوا سبـيـل من هلك من أسلافهم فـي معصية الله, فـيسلك بهم سبـيـلهم فـي عقوبته ومعرّفهم ما كان منه من تعطفه علـى التائب منهم استعتابـا منه لهم. فكان مـما عدد من نعمه علـيهم, أنه خـلق لهم ما فـي الأرض جميعا, وسخر لهم ما فـي السموات من شمسها وقمرها ونـجومها وغير ذلك من منافعها التـي جعلها لهم ولسائر بنـي آدم معهم منافع, فكان فـي قوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بـاللّهِ وكُنْتُـمْ أمْوَاتا فأحْياكُمْ ثُمّ يُـمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِـيكُمْ ثُمّ إلَـيْهِ تُرْجَعُونَ معنى: اذكروا نعمتـي التـي أنعمت علـيكم, إذ خـلقتكم ولـم تكونوا شيئا, وخـلقت لكم ما فـي الأرض جميعا, وسوّيت لكم ما فـي السماء. ثم عطف بقوله: وَإذْ قالَ رَبكَ للْـمَلائِكَةِ علـى الـمعنى الـمقتضَى بقوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِـاللّهِ

إذ كان مقتضيا ما وصفت من قوله: اذكروا نعمتـي إذْ فعلت بكم وفعلت, واذكروا فعلـى بأبـيكم آدم, إذ قلت للـملائكة إنـي جاعل فـي الأرض خـلـيفة.

فإن قال قائل: فهل لذلك من نظير فـي كلام العرب نعلـم به صحة ما قلت؟ قـيـل: نعم, أكثر من أن يحصى, من ذلك قول الشاعر:

أجِدّكَ لَنْ تَرَى بِثُعَيْـلَبـاتٍوَلا بَـيْدَانَ ناجيَةً ذَمُولاَ

وَلا مُتَدَارِكٍ وَالشّمْسُ طِفْلٌببَعْضِ نَوَاشغِ الوَادي حُمُولا

فقال: ولا متدارك, ولـم يتقدمه فعل بلفظه يعطف علـيه, ولا حرف معرّب إعرابه فـيردّ «متدارك» علـيه فـي إعرابه. ولكنه لـما تقدمه فعل مـجحود ب«لن» يدل علـى الـمعنى الـمطلوب فـي الكلام وعلـى الـمـحذوف, استغنى بدلالة ما ظهر منه عن إظهار ما حذف, وعاملَ الكلامَ فـي الـمعنى والإعراب معاملته أن لو كان ما هو مـحذوف منه ظاهرا. لأن قوله:

أجِدّكَ لَنْ تَرَى بِثُعَيْـلبَـاتٍ

بـمعنى: أجدك لست براءٍ, فردّ «متداركا» علـى موضع «ترى» كأن «لست» والبـاء موجودتان فـي الكلام, فكذلك قوله: وَإذْ قَالَ رَبكَ لـما سلف قبله تذكير الله الـمخاطبـين به ما سلف قِبَلهم وقِبَل آبـائهم من أياديه وآلائه, وكان قوله: وَإذْ قَالَ رَبّكَ للـمَلائِكَةِ مع ما بعده من النعم التـي عدّدها علـيهم ونبههم علـى مواقعها, ردّ إذ علـى موضع: وكُنتـم أمواتا فأحياكم لأن معنى ذلك: اذكروا هذه من نعمي, وهذه التـي قلت فـيها للـملائكة. فلـما كانت الأولـى مقتضية «إذ» عطف ب«إذْ» علـى موضعها فـي الأولـى كما وصفنا من قول الشاعر فـي «ولا متدارك».

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: للْـمَلائِكَةِ.

قال أبو جعفر: والـملائكة جمع ملك, غير أن واحدهم بغير الهمز أكثر وأشهر فـي كلام العرب منه بـالهمز, وذلك أنهم يقولون فـي واحدهم مَلَك من الـملائكة, فـيحذفون الهمز منه, ويحرّكون اللام التـي كانت مسكنة لو همز الاسم. وإنـما يحركونها بـالفتـح, لأنهم ينقلون حركة الهمزة التـي فـيه بسقوطها إلـى الـحرف الساكن قبلها, فإذا جمعوا واحدهم ردّوا الـجمع إلـى الأصل وهمزوا, فقالوا: ملائكة. وقد تفعل العرب نـحو ذلك كثـيرا فـي كلامها, فتترك الهمز فـي الكلـمة التـي هي مهموزة فـيجري كلامهم بترك همزها فـي حال, وبهمزها فـي أخرى, كقولهم: رأيت فلانا, فجرى كلامهم بهمز رأيت, ثم قالوا: نرى وترى ويرى, فجرى كلامهم فـي يفعل ونظائرها بترك الهمز, حتـى صار الهمز معها شاذّا مع كون الهمز فـيها أصلاً. فكذلك ذلك فـي مَلَك وملائكة, جرى كلامهم بترك الهمز من واحدهم, وبـالهمز فـي جميعهم. وربـما جاء الواحد مهموزا كما قال الشاعر:

فَلَسْتَ لانْسِيّ وَلَكِنْ لِـمِءَلاكٍتَـحَدّرَ مِنْ جَوّ السمّاءِ يَصُوبُ

وقد يقال فـي واحدهم: مألك, فـيكون ذلك مثل قولهم: جبذ وجذب, وشأمل وشمأل, وما أشبه ذلك من الـحروف الـمقلوبة. غير أن الذي يجب إذا سمي واحدهم مألك, أن يجمع إذ جمع علـى ذلك: مآلك, ولست أحفظ جمعهم كذلك سماعا, ولكنهم قد يجمعون ملائك وملائكة, كما يجمع أشعث: أشاعث وأشاعثه, ومسمع: مسامع ومسامعة. قال أمية بن أبـي الصلت فـي جمعهم كذلك:

وَفِـيها مِنْ عِبـادِ اللّهِ قَوْمٌمَلائِكُ ذلّلُوا وَهُمُ صِعابُ

وأصل الـملأك: الرسالة, كما قال عديّ بن زيد العبـادي:
أبْلِغِ النّعْمَانَ عَنّـي مَلأكاأنّهُ قَدْ طالَ حَبْسِي وَانْتِظارِي
وقد ينشد «مألكا» علـى اللغة الأخرى, فمن قال: ملأكا, فهو مفعل من لأك إلـيه يلأكُ: إذا أرسل إلـيه رسالة ملأكة. ومن قال: مألكا, فهو مفعل من ألكت إلـيه آلكُ: إذا أرسلت إلـيه مألكة وألوكا, كما قال لبـيد بن ربـيعة:
وَغُلامٍ أرْسَلَتْهُ أمّهُبألُوكٍ فَبَذَلْنا ما سألْ
فهذا من ألكت. ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:
ألِكْنِـي يا عُيَـيْنَ إلَـيْكَ قَوْلاًسَتُهْدِيهِ الرّوَاةُ إلَـيْكَ عَنّـي
وقال عبد بنـي الـحسحاس:
ألِكْنِـي إلَـيْها عَمْرَكَ اللّهُ يا فَتَـىبِآيَةِ ما جاءَتْ إلَـيْنَا تَهادِيا
يعنـي بذلك: أبلغها رسالتـي. فسميت الـملائكة ملائكة بـالرسالة, لأنها رسل الله بـينه وبـين أنبـيائه ومن أرسلت إلـيه من عبـاده.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنّـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ.
اختلف أهل التأويـل فـي قوله: إنّـي جاعِلٌ, فقال بعضهم: إنـي فـاعل. ذكر من قال ذلك:
378ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن جرير بن حازم, ومبـارك عن الـحسن, وأبـي بكر, يعنـي الهذلـي عن الـحسن وقتادة, قالوا: قال الله للـملائكة: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً قال لهم: إنـي فـاعل.
وقال آخرون: إنـي خالق. ذكر من قال ذلك:
379ـ حدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, قال: كل شيء فـي القرآن «جعل» فهو خـلق.
قال أبو جعفر: والصواب فـي تأويـل قوله: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَة أي مستـخـلف فـي الأرض خـلـيفة ومصير فـيها خـلفـا, وذلك أشبه بتأويـل قول الـحسن وقتادة. وقـيـل إن الأرض التـي ذكرها الله فـي هذه الآية هي مكة. ذكر من قال ذلك:
380ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن عطاء, عن ابن سابط أن النبـي صلى الله عليه وسلم قال: «دُحِيَتْ الأرْضُ مِنْ مَكّةَ. وكانت الـملائكة تطوف بـالبـيت, فهي أول من طاف به, وهي الأرض التـي قال الله: إنـي جاعل فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً, وكان النبـي إذا هلك قومه ونـجا هو والصالـحون أتـى هو ومن معه فعبدوا الله بها حتـى يـموتوا, فإن قبر نوح وهود وصالـح وشعيب بـين زمزم والركن والـمقام».
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: خَـلِـيفَةً.
والـخـلـيفة الفعلـية, من قولك: خـلف فلان فلانا فـي هذا الأمر إذا قام مقامه فـيه بعده, كما قال جل ثناؤه: ثُمّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فـي الأرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ يعنـي بذلك: أنه أبدلكم فـي الأرض منهم فجعلكم خـلفـاء بعدهم ومن ذلك قـيـل للسلطان الأعظم: خـلـيفة, لأنه خـلف الذي كان قبله, فقام بـالأمر مقامه, فكان منه خـلفـا, يقال منه: خـلف الـخـلـيفة يخـلُف خلافة وخـلـيفـا, وكان ابن إسحاق يقول بـما:
381ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً يقول: ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خـلقا لـيس منكم. ولـيس الذي قال ابن إسحاق فـي معنى الـخـلـيفة بتأويـلها, وإن كان الله

جل ثناؤه إنـما أخبر ملائكته أنه جاعل فـي الأرض خـلـيفة يسكنها, ولكن معناها ما وصفت قبل.
فإن قال لنا قائل: فما الذي كان فـي الأرض قبل بنـي آدم لها عامرا فكان بنو آدم بدلاً منه وفـيها منه خـلفـا؟ قـيـل: قد اختلف أهل التأويـل فـي ذلك.
382ـ فحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: أوّل من سكن الأرض الـجنّ, فأفسدوا فـيها, وسفكوا فـيها الدماء, وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إلـيهم إبلـيس فـي جند من الـملائكة, فقتلهم إبلـيس ومن معه, حتـى ألـحقهم بجزائر البحور وأطراف الـجبـال ثم خـلق آدم فأسكنه إياها, فلذلك قال: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً.
فعلـى هذا القول إنـي جاعل فـي الأرض خـلـيفة من الـجنّ يخـلفونهم فـيها فـيسكنونها ويعمرونها.
383ـ وحدثنـي الـمثنى قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس فـي قوله: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً الآية, قال: إن الله خـلق الـملائكة يوم الأربعاء, وخـلق الـجن يوم الـخميس, وخـلق آدم يوم الـجمعة, فكفر قوم من الـجن, فكانت الـملائكة تهبط إلـيهم فـي الأرض فتقاتلهم, فكانت الدماء وكان الفساد فـي الأرض.
وقال آخرون فـي تأويـل قوله: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَة أي خـلفـا يخـلف بعضهم بعضا, وهم ولد آدم الذين يخـلفون أبـاهم آدم, ويخـلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله.
وهذا قول حكي عن الـحسن البصري, ونظير له ما:
384ـ حدثنـي به مـحمد بن بشار, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان عن عطاء بن السائب, عن ابن سابط فـي قوله: إنـي جاعلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً قالُوا أتـجْعَلُ فِـيهَا مَنْ يُفْسِدُ فـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ قال: يعنون به بنـي آدم.
385ـ وحدثنـي يونس قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد, قال الله للـملائكة: إنـي أريد أن أخـلق فـي الأرض خـلقا, وأجعل فـيها خـلـيفة, ولـيس لله يومئذ خـلق إلا الـملائكة والأرض لـيس فـيها خـلق.
وهذا القول يحتـمل ما حُكي عن الـحسن, ويحتـمل أن يكون أراد ابن زيد أن الله أخبر الـملائكة أنه جاعل فـي الأرض خـلـيفة له, يحكم فـيها بـين خـلقه بحكمه, نظير ما:
386ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: أن الله جل ثناؤه قال للـملائكة: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً قالوا: ربنا وما يكون ذلك الـخـلـيفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فـي الأرض ويتـحاسدون ويقتل بعضهم بعضا. فكان تأويـل الآية علـى هذه الرواية التـي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عبـاس: إنـي جاعل فـي الأرض خـلـيفة منـي يخـلفنـي فـي الـحكم بـين خـلقـي, وذلك الـخـلـيفة هو آدم ومن قام مقامه فـي طاعة الله والـحكم بـالعدل بـين خـلقه.
وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خـلفـائه, ومن غير آدم ومن قام مقامه فـي عبـاد الله لأنهما أخبرا أن الله جل ثناؤه قال لـملائكته

إذ سألوه: ما ذاك الـخـلـيفة: إنه خـلـيفة يكون له ذرية يفسدون فـي الأرض ويتـحاسدون ويقتل بعضهم بعضا. فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلـى ذرية خـلـيفته دونه وأخرج منه خـلـيفته.

وهذا التأويـل وإن كان مخالفـا فـي معنى الـخـلـيفة ما حُكي عن الـحسن من وجه, فموافق له من وجه. فأما موافقته إياه فصرف متأوّلـيه إضافة الإفساد فـي الأرض وسفك الدماء فـيها إلـى غير الـخـلـيفة. وأما مخالفته إياها فإضافتهما الـخلافة إلـى آدم بـمعنى استـخلاف الله إياه فـيها, وإضافة الـحسن الـخلافة إلـى ولده بـمعنى خلافة بعضهم بعضا, وقـيام قرن منهم مقام قرن قبلهم, وإضافة الإفساد فـي الأرض وسفك الدماء إلـى الـخـلـيفة. والذي دعا الـمتأوّلـين قوله: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً فـي التأويـل الذي ذكر عن الـحسن إلـى ما قالوا فـي ذلك أنهم قالوا إن الـملائكة إنـما قالت لربها إذ قال لهم ربهم: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً قَالُوا أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفكُ الدّماءَ إخبـارا منها بذلكَ عن الـخـلـيفة الذي أخبر الله جل ثناؤه أنه جاعله فـي الأرض لا غيره لأن الـمـحاورة بـين الـملائكة وبـين ربها عنه جرت. قالوا: فإذا كان ذلك كذلك, وكان الله قد برأ آدم من الإفساد فـي الأرض وسفك الدماء وطهره من ذلك, علـم أن الذي عنى به غيره من ذرّيته, فثبت أن الـخـلـيفة الذي يفسد فـي الأرض ويسفك الدماء هو غير آدم, وأنهم ولده الذين فعلوا ذلك, وأن معنى الـخلافة التـي ذكرها الله إنـما هي خلافة قرن منهم قرنا غيرهم لـما وصفنا. وأغفل قائلو هذه الـمقالة ومتأوّلو الآية هذا التأويـل سبـيـل التأويـل, وذلك أن الـملائكة إذ قال لها ربها: إنّـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً لـم تضف الإفساد وسفك الدماء فـي جوابها ربها إلـى خـلـيفته فـي أرضه, بل قالت: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها, وغير منكر أن يكون ربها أعلـمها أنه يكون لـخـلـيفته ذلك ذرية يكون منهم الإفساد وسفك الدماء, فقالت: يا ربنا أتـجعل فـيها من يفسد فـيها ويسفك الدماء؟ كما قال ابن مسعود وابن عبـاس, ومن حكينا ذلك عنه من أهل التأويـل.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قالُوا أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ.

قال أبو جعفر: إن قال قائل: وكيف قالت الـملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل فـي الأرض خـلـيفة: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ ولـم يكن آدم بعد مخـلوقا ولا ذرّيته, فـيعلـموا ما يفعلون عيانا؟ أعلـمت الغيب فقالت ذلك, أم قالت ما قالت من ذلك ظنّا, فذلك شهادة منها بـالظن وقول بـما لا تعلـم, وذلك لـيس من صفتها, فما وجه قـيـلها ذلك لربها؟ قـيـل: قد قالت العلـماء من أهل التأويـل فـي ذلك أقوالاً ونـحن ذاكرو أقوالهم فـي ذلك, ثم مخبرون بأصحها برهانا وأوضحها حجة.

فروي عن ابن عبـاس فـي ذلك ما:

387ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: كان إبلـيس من حيّ من أحياء الـملائكة, يقال لهم «الـجن» خـلقوا من نار السموم من بـين الـملائكة, قال: وكان اسمه الـحرث. قال: وكان خازنا من خزان الـجنة. قال: وخـلقت الـملائكة كلهم من نور غير هذا الـحيّ. قال: وخـلقت الـجنّ الذين ذكروا فـي القرآن من مارج من نار, وهو لسان النار الذي يكون فـي

طرفها إذ ألهبت. قال: وخـلق الإنسان من طين, فأوّل من سكن الأرض الـجنّ, فأفسدوا فـيها وسفكوا الدماء, وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إلـيهم إبلـيس فـي جند من الـملائكة, وهم هذا الـحيّ الذين يقال لهم «الـجنّ», فقتلهم إبلـيس ومن معه حتـى ألـحقهم بجزائر البحور وأطراف الـجبـال. فلـما فعل إبلـيس ذلك اغترّ فـي نفسه, وقال: قد صنعت شيئا لـم يصنعه أحد. قال: فـاطلع الله علـى ذلك من قلبه, ولـم تطلع علـيه الـملائكة الذين كانوا معه فقال الله للـملائكة الذين معه: إنـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً فقالت الـملائكة مـجيبـين له: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماء كما أفسدت الـجن وسفكت الدماء؟ وإنـما بُعثنا علـيهم لذلك. فقال: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ يقول: إنـي قد اطلعت من قلب إبلـيس علـى ما لـم تطلعوا علـيه من كبره واغتراره, قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت, فخـلق الله آدم من طين لازب واللازب: اللزج الصلب من حمأ مسنون منتن. قال: وإنـما كان حمأ مسنونا بعد التراب. قال: فخـلق منه آدم بـيده. قال فمكث أربعين لـيـلة جسدا ملقـى, فكان إبلـيس يأتـيه فـيضربه برجله فـيصلصل أي فـيصوّت قال: فهو قول الله: مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخّارِ يقول: كالشيء الـمنفوخ الذي لـيس بـمُصْمِتٍ, قال: ثم يدخـل فـي فـيه ويخرج من دبره, ويدخـل من دبره ويخرج من فـيه, ثم يقول: لست شيئا للصلصلة, ولشيء ما خـلقت لئن سلطت علـيك لأهلكنك, ولئن سلطت علـيّ لأعصينك. قال: فلـما نفخ الله فـيه من روحه, أتت النفخة من قِبَل رأسه, فجعل لا يجري شيء منها فـي جسده إلا صار لـحما ودما. فلـما انتهت النفخة إلـى سرّته نظر إلـى جسده, فأعجبه ما رأى من حسنه, فذهب لـينهض فلـم يقدر, فهو قول الله: وكانَ الإنْسانُ عَجُولاً قال: ضَجِرا لا صبر له علـى سرّاء ولا ضرّاء. قال: فلـما تـمت النفخة فـي جسده, عطس فقال: الـحمد لله ربّ العالـمين, بإلهام من الله تعالـى. فقال الله له: يرحمك الله يا آدم. قال: ثم قال الله للـملائكة الذين كانوا مع إبلـيس خاصة دون الـملائكة الذين فـي السموات: اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبلـيس أبى واستكبر لـما كان حدّث به نفسه من كبره واغتراره, فقال: لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنّا وأقوى خـلقا, خـلقتنـي من نار وخـلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلـما أبى إبلـيس أن يسجد أبلسه الله, وآيسه من الـخير كله, وجعله شيطانا رجيـما عقوبة لـمعصيته, ثم علّـم آدم الأسماء كلها, وهي هذه الأسماء التـي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار, وأشبـاه ذلك من الأمـم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء علـى أولئك الـملائكة, يعنـي الـملائكة الذين كانوا مع إبلـيس الذين خـلقوا من نار السموم, وقال لهم: أنْبِئُونِـي بأسْماءِ هَولاءِ يقول: أخبرونـي بأسماء هؤلاء إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ إن كنتـم تعلـمون أنـي لِـمَ أجعل فـي الأرض خـلـيفة. قال: فلـما علـمت الـملائكة مؤاخذة الله علـيهم فـيـما تكلـموا به من علـم الغيب الذي لا يعلـمه غيره الذي لـيس لهم به علـم, قالوا: سبحانك تنزيها لله من أن يكون أحد يعلـم الغيب غيره, تبنا إلـيك لا علـم لنا إلا ما علـمتنا تبريا منهم من علـم الغيب, إلا ما علـمتنا كما علـمت آدم. فقال: يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بأسْمَائِهِمْ يقول: أخبرهم بأسمائهم فَلَـمّا أنْبأهُمْ بأسْمائِهِمْ قالَ ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ أيها الـملائكة خاصة إنّـي أعْلَـمُ غَيْبَ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ ولا يعلـمه غيري وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ يقول: ما تظهرون وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ يقول: أعلـم

السرّ كما أعلـم العلانـية, يعنـي ما كتـم إبلـيس فـي نفسه من الكبر والاغترار.
وهذه الرواية عن ابن عبـاس تنبىء عن أن قول الله جل ثناؤه: وَإذْ قَالَ رَبّكَ للْـمَلاَئِكَةِ إنّـي جَاعل فِـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً خطاب من الله جل ثناؤه لـخاصّ من الـملائكة دون الـجميع, وأن الذين قـيـل لهم ذلك من الـملائكة كانوا قبـيـلة إبلـيس خاصة, الذين قاتلوا معه جنّ الأرض قبل خـلق آدم. وأن الله إنـما خصهم بقـيـل ذلك امتـحانا منه لهم وابتلاءً لـيعرفهم قصور علـمهم وفضل كثـير مـمن هو أضعف خـلقا منهم من خـلقه علـيهم, وأن كرامته لا تنال بقوى الأبدان وشدة الأجسام كما ظنه إبلـيس عدوّ الله. ويصرّح بأن قـيـلهم لربهم: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسفِكُ الدّماءَ كانت هفوة منهم ورجما بـالغيب, وأن الله جل ثناؤه أطلعهم علـى مكروه ما نطقوا به من ذلك, ووقـفهم علـيه حتـى تابوا وأنابوا إلـيه مـما قالوا ونطقوا من رجم الغيب بـالظنون, وتبرّءوا إلـيه أن يعلـم الغيب غيره, وأظهر لهم من إبلـيس ما كان منطويا علـيه من الكبر الذي قد كان عنهم مستـخفـيا.
وقد رُوي عن ابن عبـاس خلاف هذه الرواية, وهو ما:
388ـ حدثنـي به موسى بن هارون قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: لـما فرغ الله من خـلق ما أحبّ, استوى علـى العرش, فجعل إبلـيس علـى ملك سماء الدنـيا, وكان من قبـيـلة من الـملائكة يقال لهم الـجنّ وإنـما سموا الـجنّ لأنهم خزّان الـجنة. وكان إبلـيس مع ملكه خازنا, فوقع فـي صدره كبر وقال: ما أعطانـي الله هذا إلا لـمزية لـي هكذا قال موسى بن هارون, وقد حدثنـي به غيره, وقال: لـمزية لـي علـى الـملائكة فلـما وقع ذلك الكبر فـي نفسه, اطلع الله علـى ذلك منه, فقال الله للـملائكة: إنّـي جاعِل فِـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً قالوا: ربنا وما يكون ذلك الـخـلـيفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فـي الأرض ويتـحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالُوا رَبّنا أتـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها ويَسْفِكُ الدّماءَ ونَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إنّـي أعْلَـمُ مَا لاَ تَعْلَـمُونَ يعنـي من شأن إبلـيس. فبعث جبريـل إلـى الأرض لـيأتـيه بطين منها, فقالت الأرض: إنـي أعوذ بـالله منك أن تنقص منـي أو تشيننـي فرجع ولـم يأخذ وقال: ربّ إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث الله ميكائيـل, فعاذت منه فأعاذها, فرجع فقال كما قال جبريـل. فبعث ملك الـموت, فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بـالله أن أرجع ولـم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخـلط, فلـم يأخذ من مكان واحد, وأخذ من تربة حمراء وبـيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفـين, فصعد به فبلّ التراب حتـى عاد طينا لازبـا واللازب: هو الذي يـلتزق بعضه ببعض ثم ترك حتـى أنتن وتغير, وذلك حين يقول: مِنْ حَماٍ مَسْنُونٍ قال: منتن, ثم قال للـملائكة إنّـي خالِق بَشَرا مِن طِين فإذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِـيهِ منْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجدِينَ فخـلقه الله بـيديه لكيلا يتكبر إبلـيس علـيه لـيقول له: تتكبر عما عملت بـيدي ولـم أتكبر أنا عنه؟ فخـلقه بشرا, فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الـجمعة. فمرّت به الـملائكة ففزعوا منه لـما رأوه, وكان أشدّهم منه فزعا إبلـيس, فكان يـمرّ فـيضربه, فـيصوّت الـجسد كما يصوّت الفخار وتكون له صلصلة, فذلك حين يقول:

مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخّارِ ويقول لأمر مّا خُـلقت ودخـل فـيه فخرج من دبره, فقال للـملائكة: لا ترهبوا من هذا, فإن ربكم صَمَد وهذا أجوف, لئن سلطت علـيه لأهلكنّه فلـما بلغ الـحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فـيه الروح, قال للـملائكة: إذا نفخت فـيه من روحي فـاسجدوا له فلـما نفخ فـيه الروح, فدخـل الروح فـي رأسه عطس, فقالت له الـملائكة: قل الـحمد لله فقال: الـحمد لله, فقال له الله: رحمك ربك فلـما دخـل الروح فـي عينـيه, نظر إلـى ثمار الـجنة, فلـما دخـل فـي جوفه اشتهَى الطعام, فوثب قبل أن تبلغ الروح رجلـيه عجلان إلـى ثمار الـجنة, فذلك حين يقول: خُـلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ فَسَجَدَ الـمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ إلاّ إبْلِـيسَ أبى أنْ يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ أي اسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ قال الله له: ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ إذ أمرتك لِـمَا خَـلَقْتُ بِـيَدَيّ قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ لـم أكن لأسجد لبشر خـلقته من طين, قال الله له: اخْرُجْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ يعنـي ما ينبغي لك أنْ تَتَكَبّر فِـيها فـاخْرُجْ إنّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ والصغار هو الذلّ. قال: وعلّـم آدم الأسماء كلها, ثم عرض الـخـلق علـى الـملائكة فقال: أنْبِئُونِـي بأسْماءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أن بنـي آدم يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء, فقالوا له: سُبْحَانَكَ لا عِلْـمَ لَنا إلاّ مَا عَلّـمْتَنا إنّكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ قالَ الله: يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بِأسْمَائِهِمْ قالَ ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ إنـي أعْلَـمُ غَيْبَ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وأعْلَـمُ مَا تُبْدِونَ وَمَا كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ قال: قولهم: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها فهذا الذي أبدوا, وأعلـم ما كنتـم تكتـمون, يعنـي ما أسرّ إبلـيس فـي نفسه من الكبر.

قال أبو جعفر: فهذا الـخبر أوّله مخالف معناه معنى الرواية التـي رويت عن ابن عبـاس من رواية الضحاك التـي قد قدمنا ذكرها قبل, وموافق معنى آخره معناها وذلك أنه ذكر فـي أوله أن الـملائكة سألت ربها: ما ذاك الـخـلـيفة؟ حين قال لها: إنـي جاعِلٌ فِـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً فأجابها أنه تكون له ذرية يفسدون فـي الأرض ويتـحاسدون ويقتل بعضهم بعضا. فقالت الـملائكة حينئذٍ: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ؟ فكان قول الـملائكة ما قالت من ذلك لربها بعد إعلام الله إياها أن ذلك كائن من ذرية الـخـلـيفة الذي يجعله فـي الأرض, فذلك معنى خلاف أوله معنى خبر الضحاك الذي ذكرناه.

وأما موافقته إياه فـي آخره, فهو قولهم فـي تأويـل قوله: أنْبِئُونِـي بأسْمَاءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أن بنـي آدم يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء. وأن الـملائكة قالت إذ قال لها ربها ذلك, تبرّيا من علـم الغيب: سُبْحَانَكَ لا عِلْـمَ لَنا إلاّ ما عَلّـمْتَنَا إنّكَ أنْتَ العلِـيـمُ الـحَكِيـمُ. وهذا إذا تدبره ذو الفهم, علـم أن أوله يفسد آخره, وأن آخره يبطل معنى أوله وذلك أن الله جل ثناؤه إن كان أخبر الـملائكة أن ذرية الـخـلـيفة الذي يجعله فـي الأرض تفسد فـيها وتسفك الدماء, فقالت الـملائكة لربها: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفكُ الدّماءَ فلا وجه لتوبـيخها علـى أن أخبرت عمن أخبرها الله عنه أنه يفسد فـي الأرض ويسفك الدماء بـمثل الذي أخبرها عنهم ربها, فـيجوز أن يقال لها فـيـما طوي عنها من العلوم إن كنتـم صادقـين فـيـما علـمتـم بخبر الله إياكم أنه كائن من الأمور, فأخبرتـم به, فأخبرونا بـالذي قد طَوَى الله عنكم علـمه, كما قد أخبرتـمونا بـالذي قد أطلعكم الله علـيه. بل ذلك خـلف من التأويـل, ودعوى علـى الله ما لا يجوز أن يكون له صفة. وأخشى أن

يكون بعضُ نَقَلَةِ هذا الـخبر هو الذي غلط علـى من رواه عنه من الصحابة, وأن يكون التأويـل منهم كان علـى ذلك: أنبئونـي بأسماء هؤلاء إن كنتـم صادقـين فـيـما ظننتـم أنكم أدركتـموه من العلـم بخبري إياكم أن بنـي آدم يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء, حتـى استـجزتـم أن تقولوا: أتَـجْعَلُ فـيها مَنْ يُفْسدُ فـيها ويَسْفِكُ الدّماءَ فـيكون التوبـيخ حينئذٍ واقعا علـى ماظنوا أنهم قد أدركوا بقول الله لهم: إنه يكون له ذرية يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء, لا علـى إخبـارهم بـما أخبرهم الله به أنه كائن. وذلك أن الله جل ثناؤه وإن كان أخبرهم عما يكون من بعض ذرية خـلـيفته فـي الأرض ما يكون منه فـيها من الفساد وسفك الدماء, فقد كان طوى عنهم الـخبر عما يكون من كثـير منهم ما يكون من طاعتهم ربهم وإصلاحهم فـي أرضه وحقن الدماء ورفعه منزلتهم وكرامتهم علـيه, فلـم يخبرهم بذلك, فقالت الـملائكة: أتَـجْعَلُ فـيها مَنْ يُفْسِدُ فـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ علـى ظنّ منها علـى تأويـل هذين الـخبرين اللذين ذكرت, وظاهرهما أن جميع ذرية الـخـلـيفة الذي يجعله فـي الأرض يفسدون فـيها ويسفكون فـيها الدماء. فقال الله لهم إذ علّـم آدم الأسماء كلها: أنْبِئونِـي بأسماءِ هَؤلاء إن كنتـمْ صَادقِـين أنكم تعلـمون أن جميع بنـي آدم يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء علـى ما ظننتـم فـي أنفسكم, إنكارا منه جل ثناؤه لقـيـلهم ما قالوا من ذلك علـى الـجميع والعموم, وهو من صفة خاص ذرية الـخـلـيفة منهم. وهذا الذي ذكرناه هو صفة منا لتأويـل الـخبر لا القول الذي نـختاره فـي تأويـل الآية.

ومـما يدل علـى ما ذكرنا من توجيه خبر الـملائكة عن إفساد ذرية الـخـلـيفة وسفكها الدماء علـى العموم, ما:

389ـ حدثنا به أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن عطاء بن السائب, عن عبد الرحمن بن سابط, قوله: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسدُ فـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ قال: يعنون الناس.

وقال آخرون فـي ذلك بـما:

390ـ حدثنا به بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: وَإذْ قَالَ رَبّكَ للْـمَلائِكَةِ إنّـي جَاعِلٌ فِـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً فـاستـخار الـملائكة فـي خـلق آدم, فقالوا: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ وقد علـمت الـملائكة من علـم الله أنه لا شيء أكره إلـى الله من سفك الدماء والفساد فـي الأرض وَنَـحْنُ نَسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إنّـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ فكان فـي علـم الله جل ثناؤه أنه سيكون من ذلك الـخـلـيفة أنبـياء ورسل, وقوم صالـحون, وساكنوا الـجنة. قال: وذكر لنا أن ابن عبـاس كان يقول: إن الله لـما أخذ فـي خـلق آدم قالت الـملائكة: ما الله خالق خـلقا أكرم علـيه منا ولا أعلـم منا فـابتلوا بخـلق آدم, وكل خالق مبتلًـى, كما ابتلـيت السموات والأرض بـالطاعة فقال الله: ائْتِـيا طَوْعا أوْ كَرْها قالَتا أتَـيْنا طَائِعِينَ.

وهذا الـخبر عن قتادة يدل علـى أن قتادة كان يرى أن الـملائكة قالت ما قالت من قولها: أتَـجْعَلُ فِـيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِـيها ويَسْفِكُ الدّماءَ علـى غير يقـين علـم تقدم منها بأن ذلك كائن ولكن علـى الرأي منها والظن, وأن الله جل ثناؤه أنكر ذلك من قـيـلها وردّ علـيها ما رأت بقوله: إنّـي أعْلَـمُ ما لا

تَعْلَـمُونَ من أنه يكون من ذرّية ذلك الـخـلـيفة الأنبـياء والرسلُ والـمـجتهدُ فـي طاعة الله.

وقد روي عن قتادة خلاف هذا التأويـل, وهو ما:

391ـ حدثنا به الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها قال: كان الله أعلـمهم إذا كان فـي الأرض خـلق أفسدوا فـيها وسفكوا الدماء, فذلك قوله: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها. وبـمثل قول قتادة قال جماعة من أهل التأويـل, منهم الـحسن البصري.

392ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن جرير بن حازم, ومبـارك عن الـحسن, وأبـي بكر عن الـحسن, وقتادة قالا: قال الله لـملائكته: إنّـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً قال لهم إنـي فـاعل. فعرضوا برأيهم, فعلـمهم علـما وطوى عنهم علـما عَلِـمَه لا يعلـمونه. فقالوا بـالعلـم الذي علّـمهم: أتَـجْعَل فِـيها مَنْ يُفْسِد فِـيها وَيَسْفِكَ الدّماءَ وقد كانت الـملائكة علـمت من علـم الله أنه لا ذنب أعظم عند الله من سفك الدماء وَنَـحْن نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّس لَكَ قالَ إنّـي أعْلَـم ما لا تَعْلَـمُونَ. فلـما أخذ فـي خـلق آدم, همست الـملائكة فـيـما بـينها, فقالوا: لـيخـلق ربنا ما شاء أن يخـلق, فلن يخـلق خـلقا إلا كنا أعلـم منه, وأكرم علـيه منه. فلـما خـلقه ونفخ فـيه من روحه, أمرهم أن يسجدوا له لـما قالوا, ففضله علـيهم, فعلـموا أنهم لـيسوا بخير منه, فقالوا: إن لـم نكن خيرا منه فنـحن أعلـم منه, لأنا كنا قبله, وخـلقت الأمـم قبله, فلـما أعجبوا بعلـمهم ابتلوا فعلـم آدمَ الأسماءَ كلّها ثمّ عرَضهُمْ علَـى الـملائكةِ فقال أنْبِئُونِـي بأسْماءِ هَؤلاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أنـي لا أخـلق خـلقا إلا كنتـم أعلـم منه, فأخبرونـي بأسماء هؤلاء إن كنتـم صادقـين قال: ففزع القوم إلـى التوبة وإلـيها يفزع كل مؤمن فقالوا: سُبْحانَكَ لا عِلْـمَ لَنا إلاّ مَا عَلّـمْتَنَا إنّكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ قالَ يا آدمَ أنْبِئْهُمْ بأسْمَائِهِمْ فَلَـمّا أنْبأهُمْ بِأسْمَائِهِمْ قالَ ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ إنّـي أعْلَـمُ غَيْب السّمَوَاتِ وَالأرْض وأعْلَـمُ ما تُبْدونَ وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ لقولهم: لـيخـلق ربنا ما شاء فلن يخـلق خـلقا أكرم علـيه منا ولا أعلـم منّا.

قال: علـمه اسم كل شيء, هذه الـجبـال, وهذه البغال, والإبل, والـجنّ, والوحش, وجعل يسمي كل شيء بـاسمه, وعرضت علـيه كل أمة فقالَ ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ إنّـي أعْلَـمُ غَيْب السّمَوَاتِ مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ. وأما ما كتـموا فقول بعضهم لبعض: نـحن خير منه وأعلـم.

393ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه عن الربـيع بن أنس فـي قوله: إنّـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً الآية. قال: إن الله خـلق الـملائكة يوم الأربعاء, وخـلق الـجن يوم الـخميس, وخـلق آدم يوم الـجمعة. قال: فكفر قوم من الـجن, فكانت الـملائكة تهبط إلـيهم فـي الأرض فتقاتلهم, فكانت الدماء, وكان الفساد فـي الأرض. فمن ثم قالوا: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِد فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ... الآية.

394ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: أخبرنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, بـمثله. ثُمّ عَرَضَهُمْ علـى الـمَلائِكَةِ فَقالَ أنْبِئُونِـي بِأسْماءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ إلـى قوله: إنّكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ قال: وذلك حين قالوا: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيهَا وَيَسْفِكَ الدّماءَ وَنَـحْنُ نُسَبّحُ

بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قال: فلـما عرفوا أنه جاعل فـي الأرض خـلـيفة قالوا بـينهم: لن يخـلق الله خـلقا إلا كنا نـحن أعلـم منه وأكرم فأراد الله أن يخبرهم أنه قد فضل علـيهم آدم, وعلّـم آدم الأسماء كلها, فقال للـملائكة: أنْبِئونِـي بِأسْمَاءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ إلـى قوله: وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ وكان الذي أبدوا حين قَالُوا أتَـجْعَلُ فِـيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ وكان الذي كتـموا بـينهم قولهم: لن يخـلق الله خـلقا إلا كنا نـحن أعلـم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل علـيهم آدم فـي العلـم والكرم.

وقال ابن زيد بـما:

395ـ حدثنـي به يونس بن عبد الأعلـى قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لـما خـلق الله النار ذعرت منها الـملائكة ذعرا شديدا, وقالوا: ربنا لـم خـلقت هذه النار, ولأيّ شيء خـلقتها؟ قال: لـمن عصانـي من خـلقـي. قال: ولـم يكن لله خـلق يومئذٍ إلا الـملائكة والأرض, لـيس فـيها خـلق, إنـما خـلق آدم بعد ذلك. وقرأ قول الله: هَلْ أتَـى علـى الإنْسانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَـمْ يَكُنْ شَيْئا مَذْكُورا. قال: قال عمر بن الـخطاب: يا رسول الله لـيت ذلك الـحين. ثم قال: قالت الـملائكة: يا رب أو يأتـي علـينا دهر نعصيك فـيه لا يرون له خـلقا غيرهم. قال: لا, إنـي أريد أن أخـلق فـي الأرض خـلقا وأجعل فـيها خـلـيقة يسفكون الدماء ويفسدون فـي الأرض. فقالت الـملائكة: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفكُ الدّماءَ وقد اخترتنا؟ فـاجعلنا نـحن فـيها فنـحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونعمل فـيها بطاعتك وأعظمت الـملائكة أن يجعل الله فـي الأرض من يعصيه. فقال: إنـي أعلـم ما لا تعلـمون, يا آدم أنبئهم بأسمائهم فقال: فلان, وفلان. قال: فلـما رأوه ما أعطاه الله من العلـم, أقرّوا لآدم بـالفضل علـيهم, وأبى الـخبـيث إبلـيس أن يقرّ له, قال: أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَـلَقْتَنِـي مِنْ نارٍ وَخَـلَقْتَهُ مِنْ طِينِ قالَ فـاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تَتَكَبّرَ فِـيها.

وقال ابن إسحاق بـما:

396ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, قال: لـما أراد الله أن يخـلق آدم بقدرته لـيبتلـيه ويبتلـي به, لعلـمه بـما فـي ملائكته وجميع خـلقه وكان أول بلاء ابتلـيت به الـملائكة مـما لها فـيه ما تـحبّ وما تكره للبلاء والتـمـحيص لـما فـيهم مـما لـم يعلـموا وأحاط به علـم الله منهم جمع الـملائكة من سكان السموات والأرض, ثم قال: إنّـي جاعِلٌ فِـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً يقول: عامر أو ساكن يسكنها ويعمرها خـلقا لـيس منكم. ثم أخبرهم بعلـمه فـيهم, فقال: يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء ويعملون بـالـمعاصي, فقالوا جميعا: أتَـجْعَلُ فِـيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ لا نعصي ولا نأتـي شيئا كرهته؟ قال: إنّـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ قال: إنـي أعلـم فـيكم ومنكم, ولـم يبدها لهم من الـمعصية والفساد وسفك الدماء وإتـيان ما أكره منهم, مـما يكون فـي الأرض, مـما ذكرت فـي بنـي آدم.

قال الله لـمـحمد صلى الله عليه وسلم: ما كانَ لِـيَ منْ عِلْـمٍ بـالـمَلأ الأعْلَـى إذْ يَخْتَصِمُونَ إنْ يُوحَى إلـيّ إلاّ أنّـمَا أنا نَذِيرٌ مُبِـينٌ إلـى قوله: فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فذكر لنبـيه صلى الله عليه وسلم الذي كان من ذكره آدم حين أراد خـلقه ومراجعة الـملائكة إياه فـيـما ذكر لهم منه. فلـما عزم الله

تعالـى ذكره علـى خـلق آدم قال للـملائكة: إنّـي خالِقٌ بَشَرا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ بـيدّي تكرمةً له, وتعظيـما لأمره, وتشريفـا له حفظت الـملائكة عهده, ووعوا قوله, وأجمعوا الطاعة, إلا ما كان من عدوّ الله إبلـيس, فإنه صمت علـى ما كان فـي نفسه من الـحسد والبغي والتكبر والـمعصية. وخـلق الله آدم من أدَمة الأرض, من طين لازب من حمأ مسنون, بـيديه تكرمة له وتعظيـما لأمره وتشريفـا له علـى سائر خـلقه.

قال ابن إسحاق: فـيقال والله أعلـم: خـلق الله آدم ثم وضعه ينظر إلـيه أربعين عاما قبل أن ينفخ فـيه الروح حتـى عاد صلصالاً كالفخار, ولـم تـمسه نار. قال: فـيقال والله أعلـم: إنه لـما انتهى الروح إلـى رأسه عطس, فقال: الـحمد لله فقال له ربه: يرحمك ربك ووقع الـملائكة حين استوى سجودا له حفظا لعهد الله الذي عهد إلـيهم, وطاعة لأمره الذي أمرهم به. وقام عدوّ الله إبلـيس من بـينهم, فلـم يسجد مكابرا متعظما بغيا وحسدا, فقال له: يا إبْلِـيسُ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِـمَا خَـلَقْتُ بِـيَدَيّ إلـى: لأمْلأنّ جَهَنّـمَ مِنْكَ وَمِـمّنْ تَبعَكَ مِنْهُمْ أجْمَعِينَ. قال: فلـما فرغ الله من إبلـيس ومعاتبته وأبى إلـى الـمعصية, أوقع علـيه اللعنة وأخرجه من الـجنة. ثم أقبل علـى آدم, وقد علـمه الأسماء كلها, فقال: يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بأسْمَائِهِمْ فَلَـمّا أنْبأهُمْ بأسْمَائِهِمْ قالَ ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ إنّـي أعْلَـمُ غَيْبَ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْـمَ لَنا إلا مَا عَلّـمْتَنَا إنّكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ أي إنـما أجبناك فـيـما علـمتنا, فأما ما لـم تعلـمنا فأنت أعلـم به. فكان ما سمى آدمُ من شيء كان اسمه الذي هو علـيه إلـى يوم القـيامة.

وقال ابن جريج بـما:

397ـ حدثنا به القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, قال: إنـما تكلـموا بـما أعلـمهم أنه كائن من خـلق آدم, فقالوا: أتَـجْعَلُ فِـيها مَن يُفْسِدُ فِـيها ويَسْفِكُ الدّماءَ.

وقال بعضهم: إنـما قالت الـملائكة ما قالت: أتَـجْعَلُ فِـيها مَن يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ لأن الله أذن لها فـي السؤال عن ذلك بعد ما أخبرها أن ذلك كائن من بنـي آدم, فسألته الـملائكة فقالت علـى التعجب منها: وكيف يعصونك يا ربّ وأنت خالقهم فأجابهم ربهم: إنّـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ يعنـي أن ذلك كائن منهم وإن لـم تعلـموه أنتـم, ومن بعض من ترونه لـي طائعا. يعرّفهم بذلك قصور علـمهم عن علـمه.

وقال بعض أهل العربـية: قول الـملائكة: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها علـى غير وجه الإنكار منهم علـى ربهم, وإنـما سألوه لـيعلـموا, وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون. وقال: قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يعصى الله, لأن الـجنّ قد كانت أمرت قبل ذلك فعصت.

وقال بعضهم: ذلك من الـملائكة علـى وجه الاسترشاد عما لـم يعلـموا من ذلك, فكأنهم قالوا: يا ربّ خبرنا مسألة استـخبـار منهم لله لا علـى وجه مسألة التوبـيخ.

قال أبو جعفر: وأولـى هذه التأويلات بقول الله جل ثناؤه مخبرا عن ملائكته قـيلها له: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكَ الدّماءَ وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ تأويـل من قال: إن ذلك منها استـخبـار لربها بـمعنى: أعلِـمنا يا ربنا, أجاعل أنت فـي الأرض من هذه صفته وتارك أن تـجعل خـلفـاءك منا,

ونـحن نسبح بحمدك, ونقدّس لك؟ لا إنكارٌ منها لـما أعلـمها ربها أنه فـاعل, وإن كانت قد استعظمت لـما أخبرت بذلك أن يكون لله خـلق يعصيه.
وأما دعوى من زعم أن الله جل ثناؤه كان أذن لها بـالسؤال عن ذلك فسألته علـى وجه التعجب, فدعوى لا دلالة علـيها فـي ظاهر التنزيـل ولا خبر بها من الـحجة يقطع العذر, وغير جائز أن يقال فـي تأويـل كتاب الله بـما لا دلالة علـيه من بعض الوجوه التـي تقوم بها الـحجة.
وأما وصف الـملائكة من وصفت فـي استـخبـارها ربها عنه بـالفساد فـي الأرض وسفك الدماء, فغير مستـحيـل فـيه ما رُوي عن ابن عبـاس وابن مسعود من القول الذي رواه السدّي ووافقهما علـيه قتادة من التأويـل. وهو أن الله جل ثناؤه أخبرهم أنه جاعل فـي الأرض خـلـيفة تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا, فقالوا: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها علـى ما وصفت من الاستـخبـار.
فإن قال لنا قائل: وما وجه استـخبـارها والأمر علـى ما وصفت من أنها قد أخبرت أن ذلك كائن؟ قـيـل: وجه استـخبـارها حينئذٍ يكون عن حالهم عن وقوع ذلك, وهل ذلك منهم؟ ومسألتهم ربهم أن يجعلهم الـخـلفـاء فـي الأرض حتـى لا يعصوه.
وغير فـاسد أيضا ما رواه الضحاك عن ابن عبـاس وتابعه علـيه الربـيع بن أنس من أن الـملائكة قالت ذلك لـما كان عندها من علـم سكان الأرض قبل آدم من الـجن, فقالت لربها: أجاعل فـيها أنت مثلهم من الـخـلق يفعلون مثل الذي كانوا يفعلون؟ علـى وجه الاستعلام منهم لربهم, لا علـى وجه الإيجاب أن ذلك كائن كذلك, فـيكون ذلك منها إخبـارا عما لـم تطلع علـيه من علـم الغيب.
وغير خطأ أيضا ما قاله ابن زيد من أن يكون قـيـل الـملائكة ما قالت من ذلك علـى وجه التعجب منها من أن يكون لله خـلق يعصي خالقه.
وإنـما تركنا القول بـالذي رواه الضحاك عن ابن عبـاس ووافقه علـيه الربـيع بن أنس وبـالذي قاله ابن زيد فـي تأويـل ذلك لأنه لا خبر عندنا بـالذي قالوه من وجه يقطع مـجيئه العذر ويـلزم سامعه به الـحجة. والـخبر عما مضى وما قد سلف, لا يدرك علـم صحته إلا بـمـجيئه مـجيئا يـمتنع منه التشاغب والتواطؤ, ويستـحيـل منه الكذب والـخطأ والسهو. ولـيس ذلك بـموجود كذلك فـيـما حكاه الضحاك عن ابن عبـاس ووافقه علـيه الربـيع, ولا فـيـما قاله ابن زيد. فأولـى التأويلات إذ كان الأمر كذلك بـالآية, ما كان علـيه من ظاهر التنزيـل دلالةٌ مـما يصحّ مخرجه فـي الـمفهوم.
فإن قال قائل: فإن كان أولـى التأويلات بـالآية هو ما ذكرتَ من أن الله أخبر الـملائكة بأن ذرية خـلـيفته فـي الأرض يفسدون فـيها ويسفكون فـيها الدماء, فمن أجل ذلك قالت الـملائكة: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيهَا فأين ذكر إخبـار الله إياهم فـي كتابه بذلك؟ قـيـل له: اكتفـي بدلالة ما قد ظهر من الكلام علـيه عنه, كما قال الشاعر:
فَلاَ تَدْفِنُونِـي إنّ دَفْنِـي مُـحَرّمٌعَلَـيْكُمْ وَلَكِنْ خامِرِي أُمّ عامِرِ
فحذف قوله دعونـي للتـي يقال لها عند صيدها خامري أم عامر, إذ كان فـيها أظهر من كلامه دلالة علـى معنى مراده. فكذلك ذلك فـي قوله: قالُوا أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها لـما كان فـيه دلالة علـى ما ترك ذكره بعد قوله: إنّـي جاعِلٌ فِـي الأرْضِ خَـلِـيفَةً من الـخبر عما يكون من إفساد ذريته

فـي الأرض اكتفـى بدلالته وحذف, فترك ذكره كما ذكرنا من قول الشاعر. ونظائر ذلك فـي القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أن يحصى. فلـما ذكرنا من ذلك اخترنا ما اخترنا من القول فـي تأويـل قوله: قالُوا أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ.

قال أبو جعفر: أما قوله: وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ فإنه يعنـي: إنا نعظمك بـالـحمد لك والشكر, كما قال جل ثناؤه: فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وكما قال: وَالـمَلائِكَةُ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وكل ذكر لله عند العرب فتسبـيح وصلاة, يقول الرجل منهم: قضيت سبحتـي من الذكر والصلاة. وقد قـيـل إن التسبـيح صلاة الـملائكة.

398ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يعقوب القمي, عن جعفر بن أبـي الـمغيرة, عن سعيد بن جبـير قال: «كان النبـي صلى الله عليه وسلم يصلـي, فمرّ رجل من الـمسلـمين علـى رجل من الـمنافقـين, فقال له: النبـي صلى الله عليه وسلم يصلـي وأنت جالس فقال له: امض إلـى عملك إن كان لك عمل, فقال: ما أظنّ إلا سيـمرّ علـيك من ينكر علـيك. فمرّ علـيه عمر بن الـخطاب, فقال له: يا فلان النبـي صلى الله عليه وسلم يصلـي وأنت جالس فقال له مثلها. فقال: هذا من عملـي. فوثب علـيه فضربه حتـى انتهى. ثم دخـل الـمسجد فصلـى مع النبـي صلى الله عليه وسلم, فلـما انفتل النبـي صلى الله عليه وسلم قام إلـيه عمر, فقال: يا نبـيّ الله مررت آنفـا علـى فلان وأنت تصلـي, فقلت له: النبـي صلى الله عليه وسلم يصلـي وأنت جالس فقال: سر إلـى عملك إن كان لك عمل. فقال النبـي صلى الله عليه وسلم: «فهلاّ ضَرَبْتَ عُنُقَهُ» فقام عمر مسرعا. فقال: «يا عُمَرُ ارْجِعْ فإنّ غَضَبَكَ عز وَرِضَاكَ حُكْمٌ, إنّ لِلّهِ فِـي السّمَوَاتِ السّبْعِ مَلائِكَةً يُصَلّونَ, لَهُ غِنًى عَنْ صَلاةِ فُلانٍ». فقال عمر: يا نبـيّ الله وما صلاتهم؟ فلـم يردّ علـيه شيئا. فأتاه جبريـل, فقال: يا نبـي الله سألك عمر عن صلاة أهل السماء؟ قال: «نَعَمْ», فقال: اقرأ علـى عمر السلام, وأخبره أن أهل السماء الدنـيا سجود إلـى يوم القـيامة يقولون: سبحان ذي الـملك والـملكوت, وأهل السماء الثانـية ركوع إلـى يوم القـيامة يقولون: سبحان ذي العزّة والـجبروت, وأهل السماء الثالثة قـيام إلـى يوم القـيامة يقولون: سبحان الـحيّ الذي لا يـموت.

قال أبو جعفر:

399ـ وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, وسهل بن موسى الرازي, قالا: حدثنا ابن علـية, قال: أخبرنا الـجريري, عن أبـي عبد الله الـجسري, عن عبد الله بن الصامت, عن أبـي ذرّ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده أو أن أبـا ذرّ عاد النبـي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله بأبـي أنت, أيّ الكلام أحبّ إلـى الله؟ فقال: «ما اصْطَفَـى اللّهُ لِـمَلائِكَتِهِ: سُبْحَانَ رَبـي وَبِحَمْدِهِ, سُبْحانَ رَبـي وَبَحمْدِهِ». فـي أشكال لـما ذكرنا من الأخبـار كرهنا إطالة الكتاب بـاستقصائها. وأصل التسبـيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما لـيس من صفـاته إلـيه والتبرئة له من ذلك, كما قال أعشى بنـي ثعلبة:

أقُولُ لَـمّا جاءَنِـي فَخْرُهُسُبْحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفـاخِرِ

يريد: سبحان الله من فخر علقمة أي تنزيها لله مـما أتـى علقمة من الافتـخار علـى وجه النكير منه لذلك.

وقد اختلف أهل التأويـل فـي معنى التسبـيح والتقديس فـي هذا الـموضع.

فقال بعضهم: قولهم: نسبح بحمدك: نصلـي لك. ذكر من قال ذلك:

400ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: ونَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قال: يقولون: نصلـي لك.

وقال آخرون: نسبح بحمدك التسبـيح الـمعلوم. ذكر من قال ذلك:

401ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: ونَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ قال التسبـيحَ التسبـيحَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَنُقَدّسُ لَكَ.

قال أبو جعفر: والتقديس هو التطهير والتعظيـم ومنه قولهم: سبّوح قدّوس, يعنـي بقولهم سبوح: تنزيه لله وبقولهم قدوس: طهارة له وتعظيـم ولذلك قـيـل للأرض: أرض مقدسة, يعنـي بذلك الـمطهرة. فمعنى قول الـملائكة إذا: وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ ننزّهك ونبرّئك مـما يضيفه إلـيك أهل الشرك بك, ونصلـي لك. ونقدس لك: ننسبك إلـى ما هو من صفـاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إلـيك أهل الكفر بك.

وقد قـيـل: إن تقديس الـملائكة لربها صلاتها له كما:

402ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَنُقَدّسُ لَكَ قال: التقديس: الصلاة.

وقال بعضهم: نقدّس لك: نعظمك ونـمـجدك. ذكر من قال ذلك:

403ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هاشم بن القاسم, قال: حدثنا أبو سعيد الـمؤدّب, قال: حدثنا إسماعيـل, عن أبـي صالـح فـي قوله: وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قال: نعظمك ونـمـجدك.

404ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى. وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل جميعا, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَنُقَدّسُ لَكَ قال: نعظمك ونكبرك.

405ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن ابن إسحاق: وَنَحنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ لا نعصي ولا نأتـي شيئا تكرهه.

406ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك فـي قوله: وَنُقَدّسُ لَكَ قال: التقديس: التطهير.

وأما قول من قال: إن التقديس الصلاة أو التعظيـم, فإن معنى قوله ذلك راجع إلـى الـمعنى الذي ذكرناه من التطهير من أجل أن صلاتها لربها تعظيـم منها له وتطهير مـما ينسبه إلـيه أهل الكفر به.

ولو قال مكان: «ونقدس لك»: «ونقدسك», كان فصيحا من الكلام, وذلك أن العرب تقول: فلان يسبح الله ويقدسه, ويسبح لله ويقدس له بـمعنى واحد, وقد جاء بذلك القرآن, قال الله جل ثناؤه: كَيْ نُسَبّحَكَ كَثِـيرا وَنَذْكُرَكَ كَثِـيرا وقال فـي موضع آخر: يُسَبّحُ لِلّهِ ما فِـي السّمَوَاتِ وَمَا فِـي الأرْضِ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قالَ إنّـي أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك فقال بعضهم: يعنـي بقوله: أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ مـما اطلع علـيه من إبلـيس, وإضماره الـمعصية لله وإخفـائه الكبر, مـما اطلع علـيه تبـارك وتعالـى منه وخفـي علـى ملائكته. ذكر من قال ذلك:

407ـ حدثنا مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: إنّـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ يقول: إنـي قد اطلعت من قلب إبلـيس علـى ما لـم تطلعوا علـيه من كبره واغتراره.

408ـ وحدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السديّ فـي خبر ذكره عن أبـي مالك وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: إنـي أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ يعنـي من شأن إبلـيس.

409ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد. وحدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا مؤمل, قالا جميعا: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: إنـي أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ قال: علـم من إبلـيس الـمعصية وخـلقه لها.

وحدثنـي موسى بن عبد الرحمن الـمسروقـي, قال: حدثنا مـحمد بن بشر, قال: حدثنا سفـيان, عن علـيّ بن بذيـمة, عن مـجاهد بـمثله.

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن يـمان, عن سفـيان, عن علـيّ بن بذيـمة, عن مـجاهد, مثله.

وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا حكام عن عنبسة, عن مـحمد بن عبد الرحمن, عن القاسم بن أبـي بزّة عن مـجاهد فـي قوله: إنـي أعلـم ما لا تعلـمون قال: علـم من إبلـيس الـمعصية وخـلقه لها.

وحدثنـي جعفر بن مـحمد البُزُوري, قال: حدثنا حسن بن بشر عن حمزة الزيات, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: إنـي أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ قال: علـم من إبْلِـيسَ كتـمانه الكبر أن لا يسجد لاَدم.

وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, قال: وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل جميعا عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: إنّـي أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ قال: علـم من إبلـيس الـمعصية.

وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد, مثله.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا سويد, قال: أخبرنا ابن الـمبـارك, عن سفـيان, قال: قال مـجاهد فـي قوله: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ قال: علـم من إبلـيس الـمعصية وخـلقه لها. وقال مرة آدم.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا حجاج بن الـمنهال, قال: حدثنا الـمعتـمر بن سلـيـمان, قال: سمعت عبد الوهاب بن مـجاهد يحدّث عن أبـيه فـي قوله: إنّـي أعْلَـمُ مَا لا تَعْلَـمُونَ قال: علـم من إبلـيس الـمعصية وخـلقه لها, وعلـم من آدم الطاعة وخـلقه لها.

وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, عن معمر, عن ابن طاوس, عن أبـيه والثوري عن علـيّ بن بذيـمة, عن مـجاهد فـي قوله: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ قال: علـم من إبلـيس الـمعصية وخـلقه لها.

410ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ أي فـيكم ومنكم ولـم يبدها لهم من الـمعصية والفساد وسفك الدماء.

وقال آخرون: معنى ذلك أنـي أعلـم ما لا تعلـمون من أنه يكون من ذلك الـخـلـيفة أهل الطاعة والولاية لله. ذكر من قال ذلك:

411ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: قال: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ فكان فـي علـم الله أنه سيكون من ذلك الـخـلـيفة أنبـياء ورسل وقوم صالـحون وساكنوا الـجنة.

وهذا الـخبر من الله جل ثناؤه, ينبىء عن أن الـملائكة التـي قالت: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ استفظعت أن يكون لله خـلق يعصيه, وعجبت منه إذ أخبرت أن ذلك كائن فلذلك قال لهم ربهم: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ يعنـي بذلك: والله أعلـم أنك لتعجبون من أمر الله وتستفظعونه وأنا أعلـم أنه فـي بعضكم, وتصفون أنفسكم بصفة أعلـم خلافها من بعضكم وتعرّضون بأمر قد جعلته لغيركم. وذلك أن الـملائكة لـما أخبرها ربها بـما هو كائن من ذرية خـلـيفته من الفساد وسفك الدماء قالت لربها: يا رب أجاعل أنت فـي الأرض خـلـيفة من غيرنا يكون من ذريته من يعصيك أم منا؟ فإنا نعظمك ونصلـي لك ونطيعك ولا نعصيك ولـم يكن عندها علـم بـما قد انطوى علـيه كشحا إبلـيسُ من استكبـاره علـى ربه. فقال لهم ربهم: إنـي أعلـم غير الذي تقولون من بعضكم. وذلك هو ما كان مستورا عنهم من أمر إبلـيس وانطوائه علـى ما قد كان انطوى علـيه من الكبر. وعلـى قـيلهم ذلك ووصفهم أنفسهم بـالعموم من الوصف عوتبوا.

الآية : 31

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَعَلّمَ آدَمَ الأسْمَآءَ كُلّهَا ثُمّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَـَؤُلآءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

قال أبو جعفر:

412ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا يعقوب القمي, عن جعفر بن أبـي الـمغيرة, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس قال: بعث ربّ العزّة ملك الـموت, فأخذ من أديـم الأرض من عذبها ومالـحها, فخـلق منه آدم. ومن ثم سُمي آدم لأنه خـلق من أديـم الأرض.

413ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا عمرو بن ثابت, عن أبـيه, عن جده, عن علـيّ, قال: إن آدم خـلق من أديـم الأرض فـيه الطيب والصالـح والرديء, فكل ذلك أنت راء فـي ولده الصالـح والرديء.

414ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا مسعر, عن أبـي حصين, عن سعيد بن جبـير, قال: خـلق آدم من أديـم الأرض فسمي آدم.

وحدثنا ابن الـمثنى, قال: حدثنا أبو داود, قال: حدثنا شعبة, عن أبـي حصين, عن سعيد بن جبـير قال: إنـما سمي آدم لأنه خـلق من أديـم الأرض.

415ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله

عليه وسلم: إن ملك الـموت لـما بعث لـيأخذ من الأرض تربة آدم, أخذ من وجه الأرض وخـلط فلـم يأخذ من مكان واحد, وأخذ من تربة حمراء وبـيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفـين, ولذلك سمي آدم, لأنه أخذ من أديـم الأرض.

وقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر يحقق ما قال من حكينا قوله فـي معنى آدم, وذلك ما:

416ـ حدثنـي به يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن عوف, وحدثنا مـحمد بن بشار وعمر بن شبة, قالا: حدثنا يحيى بن سعيد, قال: حدثنا عوف, وحدثنا ابن بشار, قال: حدثنا ابن أبـي عديّ ومـحمد بن جعفر وعبد الوهاب الثقـفـي قالوا: حدثنا عوف, وحدثنـي مـحمد بن عمارة الأسدي, قال: حدثنا إسماعيـل بن أبـان, قال: حدثنا عنبسة, عن عوف الأعرابـي, عن قسامة بن زهير, عن أبـي موسى الأشعري, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ اللّهَ خَـلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأرْضِ, فَجَاءَ بَنُو آدَمَ علـى قَدْرِ الأرْضِ جاءَ مِنْهُمْ ألاحْمَرُ وَالأسْوَدُ وَالأبْـيَضُ وَبَـيْنَ ذلكَ وَالسّهْلُ وَالـحَزْنُ وَالـخَبِـيثُ وَالطّيّبُ».

فعلـى التأويـل الذي تأول آدم من تأوله بـمعنى أنه خـلق من أديـم الأرض, يجب أن يكون أصل آدم فعلاً سمي به أبو البشر, كما سمي أحمد بـالفعل من الإحماد, وأسعد من الإسعاد, فلذلك لـم يجرّ, ويكون تأويـله حينئذٍ: آدم الـملك الأرضَ, يعنـي به أبلغ أَدَمتها, وأدمتها وجهها الظاهر لرأي العين, كما أن جلدة كل ذي جلدة له أدمة, ومن ذلك سمي الإدام إداما, لأنه صار كالـجلدة العلـيا مـما هي منه, ثم نقل من الفعل فجعل اسما للشخص بعينه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: الأسْمَاءَ كُلّها.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي الأسماء التـي علـمها آدم ثم عرضها علـى الـملائكة. فقال ابن عبـاس ما:

417ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: علـم الله آدم الأسماء كلها, وهي هذه الأسماء التـي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة, وأرض, وسهل, وبحر, وجبل, وحمار, وأشبـاه ذلك من الأمـم وغيرها.

418ـ وحدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَعَلّـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلّها قال: علـمه اسم كل شيء.

وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبـي, عن سفـيان, عن خصيف, عن مـجاهد: وَعَلّـمَ آدمَ الأسْماءَ كُلّها قال: علـمه اسم كل شيء.

419ـ وحدثنا علـي بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم الـحرمي, عن مـحمد بن مصعب, عن قـيس بن الربـيع, عن خصيف, عن مـجاهد, قال: علـمه اسم الغراب والـحمامة, واسم كل شيء.

420ـ وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبـي, عن شريك, عن سالـم الأفطس, عن سعيد بن جبـير, قال: علـمه اسم كل شيء, حتـى البعير والبقرة والشاة.

421ـ وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبـي عن شريك, عن عاصم بن كلـيب, عن سعيد بن معبد, عن ابن عبـاس, قال: علـمه اسم القصعة والفسوة والفسية.

وحدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا شريك, عن عاصم بن كلـيب, عن الـحسن بن سعد, عن ابن عبـاس: وَعَلّـمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلّها قال: حتـى الفسوة والفسية.

حدثنا علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم, قال: حدثنا مـحمد بن مصعب, عن قـيس, عن عاصم بن كلـيب, عن سعيد بن معبد, عن ابن عبـاس فـي قول الله: وَعَلّـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلّها قال: علـمه اسم كل شيء حتـى الهنة والهنـية والفسوة والضرطة.

وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا علـيّ بن مسهر, عن عاصم بن كلـيب, قال: قال ابن عبـاس: علـمه القصعة من القصيعة, والفسوة من الفسية.

422ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: وَعَلّـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلّها حتـى بلغ: إنّكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فأنبأ كل صنف من الـخـلق بـاسمه وألـجأه إلـى جنسه.

423ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: حدثنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَعَلّـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلّها قال: علـمه اسم كل شيء: هذا جبل, وهذا بحر, وهذا كذا وهذا كذا, لكل شيء, ثم عرض تلك الأشياء علـى الـملائكة فقال: أنْبِئُونِـي بِأسْماءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ.

424ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن جرير بن حازم ومبـارك, عن الـحسن, وأبـي بكر عن الـحسن وقتادة قالا: علـمه اسم كل شيء: هذه الـخيـل, وهذه البغال, والإبل, والـجنّ, والوح 5 وجعل يسمي كل شيء بـاسمه.

425ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر عن أبـيه, عن الربـيع, قال: اسم كل شيء.

وقال آخرون: علـم آدم الأسماء كلها, أسماء الـملائكة. ذكر من قال ذلك:

426ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: وَعَلـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلها قال: أسماء الـملائكة.

وقال آخرون: إنـما علـمه أسماء ذريته كلها. ذكر من قال ذلك:

427ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَعَلـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلّها قال: أسماء ذرّيته أجمعين.

وأولـى هذه الأقوال بـالصواب وأشبهها بـما دلّ علـى صحته ظاهر التلاوة قول من قال فـي قوله: وَعَلّـمَ آدمَ الأسْماءَ كُلّها إنها أسماء ذرّيته وأسماء الـملائكة, دون أسماء سائر أجناس الـخـلق. وذلك أن الله جل ثناؤه قال: ثُمّ عَرَضَهُمْ علـى الـمَلائِكَةِ يعنـي بذلك أعيان الـمسمين بـالأسماء التـي علـمها آدم, ولا تكاد العرب تكنـي بـالهاء والـميـم إلا عن أسماء بنـي آدم والـملائكة وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الـخـلق, سوى من وصفنا, فإنها تكنـي عنها بـالهاء والألف, أو بـالهاء والنون, فقالت: عرضهن, أو عرضها. وكذلك تفعل إذا كنت عن أصناف من الـخـلق, كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمـم, وفـيها أسماء بنـي آدم والـملائكة, فإنها تكنـي عنها بـما وصفنا من الهاء والنون, أو الهاء والألف. وربـما كنت عنها إذ كان كذلك

بـالهاء والـميـم, كما قال جل ثناؤه: وَاللّهُ خَـلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَـمْشِي علـى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَـمْشِي علـى رِجْلَـيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَـمْشِي علـى أرْبَعٍ فكنـي عنها بـالهاء والـميـم, وهي أصناف مختلفة فـيها الآدميّ وغيره. وذلك وإن كان جائزا فإن الغالب الـمستفـيض فـي كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية أسماء أجناس الأمـم إذا اختلطت بـالهاء والألف, أو الهاء والنون. فلذلك قلت: أولـى بتأويـل الآية أن تكون الأسماء التـي علـمها آدم أسماء أعيان بنـي آدم وأسماء الـملائكة. وإن كان ما قال ابن عبـاس جائزا علـى مثال ما جاء فـي كتاب الله من قوله: وَاللّهُ خَـلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَـمْشِي علـى بَطْنِهِ الآية. وقد ذكر أنها فـي حرف ابن مسعود: «ثم عرضهن», وأنها فـي حرف أبـيّ: «ثم عرضها».

ولعلّ ابن عبـاس تأوّل ما تأوّل من قوله: علـمه اسم كل شيء حتـى الفسوة والفسية علـى قراءة أبـيّ, فإنه فـيـما بلغنا كان يقرأ قراءة أبـيّ. وتأويـل ابن عبـاس علـى ما حكي عن أبـيّ من قراءته غير مستنكر, بل هو صحيح مستفـيض فـي كلام العرب علـى نـحو ما تقدم وصفـي ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ثُمّ عَرَضَهُمْ علـى الـمَلائِكَةِ.

قال أبو جعفر: قد تقدم ذكرنا التأويـل الذي هو أوْلـى بـالآية علـى قراءتنا ورسم مصحفنا, وأن قوله: ثُمّ عَرَضَهُمْ بـالدلالة علـى بنـي آدم والـملائكة أولـى منه بـالدلالة علـى أجناس الـخـلق كلها, وإن كان غير فـاسد أن يكون دالاّ علـى جميع أصناف الأمـم للعلل التـي وصفنا.

ويعنـي جل ثناؤه بقوله: ثُمّ عَرَضَهُمْ ثم عرض أهل الأسماء علـى الـملائكة.

وقد اختلف الـمفسرون فـي تأويـل قوله: ثُمّ عَرَضَهُمْ علـى الـمَلاَئِكَةِ نـحو اختلافهم فـي قوله: وَعَلّـمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلّها وسأذكر قول من انتهى إلـينا عنه فـيه قول.

428ـ حدثنا مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: ثُمّ عَرَضَهُمْ علـى الـمَلائِكَةِ ثم عرض هذه الأسماء يعنـي أسماء جميع الأشياء التـي علـمها آدم من أصناف جميع الـخـلق.

429ـ وحدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: ثُمّ عَرَضَهُمْ ثم عرض الـخـلق علـى الـملائكة.

430ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: أسماء ذريته كلها أخذهم من ظهره. قال: ثم عرضهم علـى الـملائكة.

431ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن قتادة: ثُمّ عَرَضَهُمْ قال: علـمه اسم كل شيء ثم عرض تلك الأسماء علـى الـملائكة.

432ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: ثُمّ عَرَضَهُمْ عرض أصحاب الأسماء علـى الـملائكة.

433ـ وحدثنا علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم, قال: حدثنا مـحمد بن مصعب, عن قـيس, عن خصيف عن مـجاهد ثُمّ عَرَضَهُمْ علـى الـمَلائِكَةِ يعنـي عرض الأسماء الـحمامة والغراب.

434ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن جرير بن حازم, ومبـارك عن الـحسن, وأبـي بكر عن الـحسن, وقتادة قالا: علـمه اسم كل شيء هذه الـخيـل وهذه البغال وما أشبه ذلك, وجعل يسمي كل شيء بـاسمه, وعرضت علـيه أمة أمة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فقالَ أنْبِئُونِـي بِأسْماءِ هَولاءِ.

قال أبو جعفر: وتأويـل قوله: أنْبِئُونِـي أخبرونـي, كما:

435ـ حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عثمان, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: أنْبِئُونِـي يقول: أخبرونـي بأسماء هؤلاء. ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:

وأنْبأهُ الـمُنَبّىء أنّ حَيّاحُلُولٌ مِنْ حَرَامٍ أوْ جُذَامِ

يعنـي بقوله أنبأه: أخبره وأعلـمه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بِأسْماءِ هَولاءِ.

قال أبو جعفر:

436ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: بِأسْماءِ هَؤلاءِ قال: بأسماء هذه التـي حدثت بها آدم.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: أنْبئُونِـي بأسماءِ هَؤلاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ يقول: بأسماء هؤلاء التـي حدثت بها آدم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنْ كُنْتُـمِ صَادِقِـينَ.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي ذلك.

437ـ فحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ إن كنتـم تعلـمون لِـمَ أجعل فـي الأرض خـلـيفة.

438ـ وحدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أن بنـي آدم يفسدون فـي الأرض ويسفكون الدماء.

439ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن جرير بن حازم, ومبـارك عن الـحسن وأبـي بكر, عن الـحسن وقتادة قالا: أنْبِئُونِـي بِأسْمَاءِ هَولاَءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أنـي لـم أخـلق خـلقا إلا كنتـم أعلـم منه, فأخبرونـي بأسماء هؤلاء إن كنتـم صادقـين.

قال أبو جعفر: وأولـى هذه الأقوال بتأويـل الآية تأويـل ابن عبـاس ومن قال بقوله.

ومعنى ذلك فقال: أنبئونـي بأسماء من عرضته علـيكم أيتها الـملائكة القائلون: أتَـجْعَل فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ من غيرنا, أم منّا؟ فنـحن نسبح بحمدك ونقدس لك إن كنتـم صادقـين فـي قـيـلكم أنـي إن جعلت خـلـيفتـي فـي الأرض من غيركم عصانـي ذريته, وأفسدوا فـيها, وسفكوا الدماء, وإن جعلتـم فـيها أطعتـمونـي, واتبعتـم أمري بـالتعظيـم لـي والتقديس. فإنكم إن كنتـم لا تعلـمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم

علـيكم من خـلقـي وهم مخـلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم, وعلـمه غيركم بتعلـيـمي إياه, فأنتـم بـما هو غير موجود من الأمور الكائنة التـي لـم توجد بعد, وبـما هو مستتر من الأمور التـي هي موجودة عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالـمين, فلا تسألونـي ما لـيس لكم به علـم, فإنـي أعلـم بـما يصلـحكم ويصلـح خـلقـي.

وهذا الفعل من الله جل ثناؤه بـملائكته الذين قالوا له: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها من جهة عتابه جل ذكره إياهم, نظير قوله جل جلاله لنبـيه نوح صلوات الله علـيه, إذ قال: رَبِّ إنّ ابْنِـي مِنْ أهْلِـي وَإنّ وَعْدَكَ الـحَقّ وَأنْتَ أحْكَمُ الـحاكِمينَ: لا تَسْألْنِ ما لَـيْسَ لَكَ بِهِ عِلْـمٌ إنّـي أعظُكَ أنْ تَكُونَ مِنَ الـجاهِلِـينَ. فكذلك الـملائكة سألت ربها أن تكون خـلفـاءه فـي الأرض يسبحوه ويقدسوه فـيها, إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعله فـي الأرض خـلـيفة, يفسدون فـيها, ويسفكون الدماء, فقال لهم جل ذكره: إنـي أعْلَـمُ ما لا تَعْلَـمُونَ يعنـي بذلك أنـي أعلـم أن بعضكم فـاتـح الـمعاصي وخاتـمها وهو إبلـيس منكرا بذلك تعالـى ذكره قولهم. ثم عرّفهم موضع هفوتهم فـي قـيلهم ما قالوا من ذلك, بتعريفهم قصور علـمهم عما هم له شاهدون عيانا, فكيف بـما لـم يروه ولـم يخبروا عنه بعرضه ما عرض علـيهم من خـلقه الـموجودين يومئذٍ, وقـيـله لهم: أنْبِئُونِـي بِأسْماءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أنكم إن استـخـلفتكم فـي أرضي سبحتـمونـي وقدستـمونـي, وإن استـخـلفت فـيها غيركم عصانـي ذريته, وأفسدوا وسفكوا الدماء. فلـما اتضح لهم موضع خطأ قـيـلهم, وبدت لهم هفوة زلتهم أنابوا إلـى الله بـالتوبة فقالوا: سُبحانَكَ لا علـمَ لنَا إلاّ ما علـمتنا فسارعوا الرجعة من الهفوة, وبـادروا الإنابة من الزلة, كما قال نوح حين عوتب فـي مسألته, فقـيـل له: لا تَسألْنِ ما لَـيْسَ لَكَ بِهِ عِلْـمٌ: رَبِّ إنّـي أعُوذُ بِكَ أنْ أسألَكَ مَا لَـيْسَ لِـي بِهِ عِلْـمٌ وإلا تَغْفِرْ لِـي وَتَرْحَمْنِـي أكُنْ مِنَ الـخاسِرِينَ وكذلك فعل كل مسدد للـحق موفق له, سريعة إلـى الـحقّ إنابته, قريبة إلـيه أوبته.

وقد زعم بعض نـحويـي أهل البصرة أن قوله: أنْبِئُونِـي بِأسْمَاءِ هَولاَءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ لـم يكن ذلك لأن الـملائكة ادّعوا شيئا, إنـما أخبر الله عن جهلهم بعلـم الغيب وعلـمه بذلك وفضله, فقال: أنبئونـي إن كنتـم صادقـين كما يقول الرجل للرجل: أنبئنـي بهذا إن كنت تعلـم, وهو يعلـم أنه لا يعلـم يريد أنه جاهل. وهذا قول إذا تدبره متدبر علـم أن بعضه مفسد بعضا, وذلك أن قائله زعم أن الله جل ثناؤه قال للـملائكة إذ عرض علـيهم أهل الأسماء: أنْبِئُونِـي بِأسْماءِ هَؤلاءِ وهو يعلـم أنهم لا يعلـمون, ولا هم ادّعوا علـم شيء يوجب أن يوبخوا بهذا القول. وزعم أن قوله: إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ نظير قول الرجل للرجل: أنبئنـي بهذا إن كنت تعلـم, وهو يعلـم أنه لا يعلـم يريد أنه جاهل. ولا شك أن معنى قوله: إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ إنـما هو إن كنتـم صادقـين, إما فـي قولكم, وإما فـي فعلكم لأن الصدق فـي كلام العرب إنـما هو صدق فـي الـخبر لا فـي العلـم وذلك أنه غير معقول فـي لغة من اللغات أن يقال صدق الرجل بـمعنى علـم. فإذا كان ذلك كذلك فقد وجب أن يكون الله جل ثناؤه قال للـملائكة علـى تأويـل قول هذا الذي حكينا قوله فـي هذه الآية: أنْبِئُونِـي بِأسْمَاءِ هَؤلاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ وهو يعلـم أنهم غير صادقـين, يريد بذلك أنهم كاذبون. وذلك هو عين ما أنكره, لأن زعم أن الـملائكة لـم تدع شيئا, فكيف جاز أن يقال لهم: إن كنتـم صادقـين

فأنبئونـي بأسماء هؤلاء؟ هذا مع خروج هذا القول الذي حكيناه عن صاحبه من أقوال جميع الـمتقدمين والـمتأخرين من أهل التأويـل والتفسير.
وقد حكي عن بعض أهل التفسير أنه كان يتأوّل قوله: إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ بـمعنى: إذ كنتـم صادقـين. ولو كانت «إن» بـمعنى «إذ» فـي هذا الـموضع لوجب أن تكون قراءتها بفتـح ألفها, لأن «إذ» إذا تقدمها فعل مستقبل صارت علة للفعل وسببـا له, وذلك كقول القائل: أقوم إذ قمت, فمعناه: أقوم من أجل أنك قمت, والأمر بـمعنى الاستقبـال. فمعنى الكلام: لو كانت إن بـمعنى إذ أنبئونـي بأسماء هؤلاء من أجل أنكم صادقون. فإذا وضعت «إن» مكان ذلك, قـيـل: «أنبئونـي بأسماء هؤلاء أنْ كنتـم صادقـين مفتوحة الألف, وفـي إجماع جميع قرّاء أهل الإسلام علـى كسر الألف من «إن» دلـيـل واضح علـى خطأ تأويـل من تأوّل «إنْ» بـمعنى «إذ» فـي هذا الـموضع.

الآية : 32

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاّ مَا عَلّمْتَنَآ إِنّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }
قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ذكره عن ملائكته بـالأوبة إلـيه, وتسلـيـم علـم ما لـم يعلـموه له, وتبريهم من أن يعلـموا أو يعلـم أحد شيئا إلا ما علـمه تعالـى ذكره.
وفـي هذه الاَيات الثلاث العبرة لـمن اعتبر, والذكرى لـمن اذّكر, والبـيان لـمن كان له قلب أو ألقـى السمع وهو شهيد, عما أودع الله جل ثناؤه آي هذا القرآن من لطائف الـحكم التـي تعجز عن أوصافها الألسن. وذلك أن الله جل ثناؤه احتـجّ فـيها لنبـيه صلى الله عليه وسلم علـى من كان بـين ظهرانـيه من يهود بنـي إسرائيـل بـاطلاعه إياه من علوم الغيب التـي لـم يكن جل ثناؤه أطلع علـيها من خـلقه إلا خاصّا, ولـم يكن مدركا علـمه إلا بـالإنبـاء والإخبـار, لتتقرّر عندهم صحة نبوّته, ويعلـموا أن ما أتاهم به فمن عنده, ودلّ فـيها علـى أن كل مخبر خبرا عما قد كان أو عما هو كائن مـما لـم يكن ولـم يأته به خبر ولـم يوضع له علـى صحته برهان فمتقوّل ما يستوجب به من ربه العقوبة.
ألا ترى أن الله جل ذكره ردّ علـى ملائكته قـيلهم: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ وَنَـحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قالَ إنّـي أعْلَـمُ مَا لاَ تَعْلَـمُونَ وعرّفهم أن قـيـل ذلك لـم يكن جائزا لهم بـما عرّفهم من قصور علـمهم عند عرضه ما عرض علـيهم من أهل الأسماء, فقال: أنْبِئُونِـي بِأسْماءِ هَولاءِ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ فلـم يكن لهم مفزع إلا الإقرار بـالعجز والتبرّي إلـيه أن يعلـموا إلا ما علـمهم بقولهم: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْـمَ لَنَا إلاّ ما عَلـمْتَنَا فكان فـي ذلك أوضح الدلالة وأبـين الـحجة علـى كذب مقالة كل من ادّعى شيئا من علوم الغيب من الـحزاة والكهنة والقافة والـمنـجمة. وذكر بها الذين وصفنا أمرهم من أهل الكتاب سوالف نعمه علـى آبـائهم, وأياديه عند أسلافهم, عند إنابتهم إلـيه, وإقبـالهم إلـى طاعته مستعطفهم بذلك إلـى الرشاد, ومستعتبهم به إلـى النـجاة, وحذّرهم بـالإصرار والتـمادي فـي البغي والضلال, حلولَ العقاب بهم نظير ما أحلّ بعدوّه إبلـيس, إذ تـمادى فـي الغيّ والـخسار.
قال: وأما تأويـل قوله: سُبْحانَكَ لا عِلْـمَ لَنَا إلاّ ما عَلـمْتَنَا فهو كما:

440ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: قالوا: سُبْحانَكَ تنزيها لله من أن يكون أحد يعلـم الغيب غيره, تبنا إلـيك, لا علـم لنا إلا ما علـمتنا: تبرّءوا منهم من علـم الغيب, إلا ما علـمتنا كما علـمت آدم. وسبحان مصدر لا تصرّف له, ومعناه: نسبحك, كأنهم قالوا: نسبحك تسبـيحا, وننزّهك تنزيها, ونبرّئك من أن نعلـم شيئا غير ما علـمتنا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ.

قال أبو جعفر: وتأويـل ذلك: أنك أنت يا ربنا العلـيـم من غير تعلـيـم بجميع ما قد كان وما وهو كائن, والعالـم للغيوب دون جميع خـلقك. وذلك أنهم نفوا عن أنفسهم بقولهم: لا عِلْـمَ لَنا إلاّ ما عَلّـمْتَنَا أن يكون لهم علـم إلا ما علـمهم ربهم, وأثبتوا ما نفوا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم: إنكَ أنْتَ العَلِـيـمُ يعنون بذلك العالـم من غير تعلـيـم, إذ كان من سواك لا يعلـم شيئا إلا بتعلـيـم غيره إياه. والـحكيـم: هو ذو الـحكمة. كما:

441ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية, عن علـيّ, عن ابن عبـاس, العلـيـم: الذي قد كمل فـي علـمه والـحكيـم: الذي قد كمل فـي حكمه.

وقد قـيـل: إن معنى الـحكيـم: الـحاكم, كما أن العلـيـم بـمعنى العالـم, والـخبـير بـمعنى الـخابر.

الآية : 33

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{قَالَ يَاآدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لّكُمْ إِنِيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }

قال أبو جعفر: إن الله جل ثناؤه عرّف ملائكته الذين سألوه أن يجعلهم الـخـلفـاء فـي الأرض ووصفوا أنفسهم بطاعته والـخضوع لأمره دون غيرهم الذين يفسدون فـيها ويسفكون الدماء, أنهم من الـجهل بـمواقع تدبـيره ومـحل قضائه, قبل إطلاعه إياهم علـيه, علـى نـحو جهلهم بأسماء الذين عرضهم علـيهم, إذْ كان ذلك مـما لـم يعلـمهم فـيعلـموه, وأنهم وغيرهم من العبـاد لا يعلـمون من العلـم إلا ما علـمهم إياه ربهم, وأنه يخصّ بـما شاء من العلـم من شاء من الـخـلق ويـمنعه منهم من شاء كما علـم آدم أسماء ما عرض علـى الـملائكة ومنعهم من علـمها إلا بعد تعلـيـمه إياهم.

فأما تأويـل قوله: قالَ يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ يقول: أخبر الـملائكة. والهاء والـميـم فـي قوله: أنْبِئْهُمْ عائدتان علـى الـملائكة, وقوله: بِأسْمَائِهِمْ يعنـي بأسماء الذين عرضهم علـى الـملائكة. والهاء والـميـم اللتان فـي «أسمائهم» كناية عن ذكر هؤلاء التـي فـي قوله: أنْبِئُونِـي بِأسْمَاءِ هَؤلاءِ. فلـما أنبـاهم يقول: فلـما أخبر آدم الـملائكة بأسماء الذين عرضهم علـيهم, فلـم يعرفوا أسماءهم, وأيقنوا خطأ قـيـلهم: أتَـجْعَلُ فِـيها مَنْ يُفْسِدُ فِـيها ويَسْفِكُ الدّماءَ ونَـحْنُ نَسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ وأنهم قد هفوا فـي ذلك وقالوا: ما لا يعلـمون كيفـية وقوع قضاء ربهم فـي ذلك, لو وقع علـى ما نطقوا به, قال لهم ربهم: ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ إنّـي أعْلَـمُ غَيْبَ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم فلـم يعاينوه توبـيخا من الله جل ثناؤه لهم بذلك علـى ما سلف من قـيـلهم وفرط منهم من خطأ مسألتهم, كما:

442ـ حدثنا به مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس: قالَ يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بِأسْمَائِهِمْ يقول: أخبرهم بأسمائهم, فَلَـمّا أنْبَأهُمْ بِأسْمَائِهِمْ قالَ ألَـمْ أقُلْ لَكُمْ أيها الـملائكة خاصة إنـي أعْلَـمُ غَيْبَ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ ولا يعلـمه غيري.

443ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قصة الـملائكة وآدم, فقال الله للـملائكة: كما لـم تعلـموا هذه الأسماء فلـيس لكم علـم, إنـما أردت أن أجعلهم لـيفسدوا فـيها, هذا عندي قد علـمته فكذلك أخفـيت عنكم أنـي أجعل فـيها من يعصينـي ومن يطيعنـي. قال: وسبق من الله: لأمْلأنّ جَهَنّـمَ مِنَ الـجِنّةِ والنّاسِ أجْمَعِينَ قال: ولـم تعلـم الـملائكة ذلك ولـم يدروه. قال: فلـما رأوا ما أعطى الله آدم من العلـم أقرّوا لآدم بـالفضل.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك, فروى عن ابن عبـاس فـي ذلك ما:

444ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وأعْلَـمُ ما تُبْدُون يقول: ما تظهرون وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ يقول: أعلـم السرّ كما أعلـم العلانـية. يعنـي ما كتـم إبلـيس فـي نفسه من الكبر والاغترار.

445ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وَأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ قال قولهم: أتَـجْعَلُ فـيها مَنْ يُفْسِدُ فـيها فهذا الذي أبدوا, وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ يعنـي ما أسرّ إبلـيس فـي نفسه من الكبر.

446ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا عمرو بن ثابت, عن أبـيه, عن سعيد بن جبـير قوله: وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ قال: ما أسرّ إبلـيس فـي نفسه.

447ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان فـي قوله: وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمونَ قال: ما أسرّ إبلـيس فـي نفسه من الكبر أن لا يسجد لآدم.

448ـ وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: أخبرنا الـحجاج الأنـماطي, قال: حدثنا مهدي بن ميـمون, قال: سمعت الـحسن بن دينار, قال للـحسن ونـحن جلوس عنده فـي منزله: يا أبـا سعيد أرأيت قول الله للـملائكة: وأعْلَـمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ ما الذي كتـمت الـملائكة؟ فقال الـحسن: إن الله لـما خـلق آدم رأت الـملائكة خـلقا عجيبـا, فكأنهم دخـلهم من ذلك شيء, فأقبل بعضهم إلـى بعض, وأسرّوا ذلك بـينهم, فقالوا: وما يهمكم من هذا الـمخـلوق إن الله لـم يخـلق خـلقا إلا كنا أكرم علـيه منه.

449ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وأعْلَـم ما تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُـمْ تَكْتُـمُونَ قال: أسرّوا بـينهم فقالوا: يخـلق الله ما يشاء أن يخـلق, فلن يخـلق خـلقا إلا ونـحن أكرم علـيه منه.

450ـ وحدثني المثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر, عن أبيه, عن الربيع بن أنس: وَأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فكان الذي أبدوا حين قالوا: أتَجْعَلُ فِيها مَن يُفْسِدُ فيها وكان الذي كتموا بينهم قولهم: لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس, وهو أن معنى قوله: وأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرون بألسنتكم وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وما كنتم تخفونه في أنفسكم, فلا يخفى عليّ شيء سواء عندي سرائركم وعلانيتكم. والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه, وهو قولهم: أتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ والذي كانوا يكتمونه ما كان منطويا عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره والتكبر عن طاعته لأنه لا خلاف بين جميع أهل التأويل أن تأويل ذلك غير خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت, وهو ما قلنا. والاَخر ما ذكرنا من قول الحسن وقتادة.

ومن قال: إن معنى ذلك كتمان الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقا إلا كنا أكرم عليه منه فإذْ كان لا قول في تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت ثم كان أحدهما غير موجودة على صحته الدلالة من الوجه الذي يجب التسليم له صحّ الوجه الاَخر.

فالذي حكي عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما في تأويل ذلك غير موجودة الدلالة على صحته من الكتاب ولا من خبر يجب به حجة. والذي قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبر الله جل ثناؤه عن إبليس وعصيانه إياه إذ دعاه إلى السجود لآدم, فأتى واستكبر, وإظهاره لسائر الملائكة من معصيته وكبره ما كان له كاتما قبل ذلك.

فإن ظنّ ظانّ أن الخبر عن كتمان الملائكة ما كانوا يكتمونه لما كان خارجا مخرج الخبر عن الجميع كان غير جائز أن يكون ما رُوي في تأويل ذلك عن ابن عباس ومن قال بقوله من أن ذلك خبر عن كتمان إبليس الكبر والمعصية صحيحا, فقد ظنّ غير الصواب وذلك أن من شأن العرب إذا أخبرت خبرا عن بعض جماعة بغير تسمية شخص بعينه أن تخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن جميعهم, وذلك كقولهم: قتل الجيش وهزموا, وإنما قتل الواحد أو البعض منهم, وهزم الواحد أو البعض, فتخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال جل ثناؤه: إنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ذكر أن الذي نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فنزلت هذه الآية فيه, كان رجلاً من جماعة بني تميم, كانوا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن الجماعة, فكذلك قوله: وأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ أخرج الخبر مخرج الخبر عن الجميع, والمراد به الواحد منهم.

الآية : 34

القول في تأويل قوله تعالى:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَىَ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }

قال أبو جعفر: أما قوله: وإذْ قُلْنَا فمعطوف علـى قوله: وَإِذْ قَالَ رَبّكَ للْـمَلاَئِكَةِ كأنه قال جل ذكره للـيهود الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنـي إسرائيـل معدّدا علـيهم نعمه, ومذكرهم آلاءه علـى نـحو الذي وصفنا فـيـما مضى قبل: اذكروا فعلـي بكم إذ أنعمت علـيكم, فخـلقت لكم ما فـي الأرض جميعا, وإذ قلت للـملائكة إنـي جاعل فـي الأرض خـلـيفة, فكرّمت أبـاكم آدم بـما آتـيته من علـمي وفضلـي وكرامتـي, وإذ أسجدت له ملائكتـي فسجدوا له. ثم استثنى من جميعهم إبلـيس, فدل بـاستثنائه إياه منهم علـى أنه منهم, وأنه مـمن قد أُمِرَ بـالسجود معهم, كما قال جل ثناؤه: إلاّ إبْلِـيسَ لَـمْ يَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ قالَ مَا مَنَعَكَ أنْ لاَ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبلـيس فـيـمن أمره من الـملائكة بـالسجود لآدم. ثم استثناءه جل ثناؤه مـما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم, فأخرجه من الصفة التـي وصفهم بها من الطاعة لأمره ونَفَـى عنه ما أثبته لـملائكته من السجود لعبده آدم.

ثم اختلف أهل التأويـل فـيه هل هو من الـملائكة أم هو من غيرهم؟ فقال بعضهم بـما:

451ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: كان إبلـيس من حيّ من أحياء الـملائكة, يقال لهم «الـجنّ», خـلقوا من نار السموم من بـين الـملائكة. قال: فكان اسمه الـحارث. قال: وكان خازنا من خزان الـجنة. قال: وخـلقت الـملائكة من نور غير هذا الـحيّ. قال: وخـلقت الـجنّ الذين ذكروا فـي القرآن من مارج من نار, وهو لسان النار الذي يكون فـي طرفها إذا التهبت.

452ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن خلاد, عن عطاء, عن طاوس, عن ابن عبـاس, قال: كان إبلـيس قبل أن يركب الـمعصية من الـملائكة اسمه عزازيـل, وكان من سكان الأرض وكان من أشدّ الـملائكة اجتهادا وأكثرهم علـما, فذلك دعاه إلـى الكبر, وكان من حيّ يسمون جنّا.

453ـ وحدثنا به ابن حميد مرة أخرى, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن خلاد, عن عطاء, عن طاوس, أو مـجاهد أبـي الـحجاج, عن ابن عبـاس وغيره بنـحوه, إلا أنه قال: كان ملكا من الـملائكة اسمه عزازيـل, وكان من سكان الأرض وعمّارها, وكان سكان الأرض فـيهم يسمون الـجنّ من بـين الـملائكة.

454ـ وحدثنـي موسى بن هارون قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: جعل إبلـيس علـى ملك سماء الدنـيا, وكان من قبـيـلة من الـملائكة يقال لهم الـجنّ, وإنـما سموا الـجن لأنهم خزّان الـجنة, وكان إبلـيس مع ملكه خازنا.

455ـ وحدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا حسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: كان إبلـيس من أشراف الـملائكة وأكرمهم قبـيـلة, وكان خازنا علـى الـجنان, وكان له سلطان سماء الدنـيا, وكان له سلطان الأرض. قال: قال ابن عبـاس: وقوله: كانَ منَ الـجنّ, إنـما

يسمى بـالـجنان أنه كان خازنا علـيها, كما يقال للرجل: مكي, ومدنـي, وكوفـي, وبصري. قال ابن جريج: وقال آخرون: هم سبط من الـملائكة قبـيـلة, فكان اسم قبـيـلته الـجن.

456ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن صالـح مولـى التوأمة وشريك بن أبـي نـمر أحدهما أو كلاهما, عن ابن عبـاس, قال: إن من الـملائكة قبـيـلة من الـجن, وكان إبلـيس منها, وكان يسوس ما بـين السماء والأرض.

وحدثت عن الـحسن بن الفرج, قال: سمعت أبـا معاذ الفضل بن خالد, قال: أخبرنا عبـيد بن سلـيـمان, قال: سمعت الضحاك بن مزاحم, يقول فـي قوله: فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِـيسَ كانَ مِنَ الـجِنّ قال: كان ابن عبـاس يقول: إن إبلـيس كان من أشرف الـملائكة وأكرمهم قبـيـلة, ثم ذكر مثل حديث ابن جريج الأول سواء.

457ـ وحدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنـي شيبـان, قال: حدثنا سلام بن مسكين, عن قتادة, عن سعيد بن الـمسيب, قال: كان إبْلِـيس رئيس ملائكة سماء الدنـيا.

458ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَإذْ قُلْنا للْـمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لاَدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِـيسَ كَانَ مِنَ الـجِنّ كان من قبـيـل من الـملائكة يقال لهم الـجن. وكان ابن عبـاس يقول: لو لـم يكن من الـملائكة لـم يؤمر بـالسجود, وكان علـى خزانة سماء الدنـيا. قال: وكان قتادة يقول: جنّ عن طاعة ربه.

وحدثنا الـحسين بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: إلاّ إبْلِـيسَ كانَ مِنَ الـجِنّ قال: كان من قبـيـل من الـملائكة يقال لهم الـجنّ.

459ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: أما العرب فـيقولون: ما الـجنّ إلا كلّ من اجتنّ فلـم ير. وأما قوله: إلاّ إبْلِـيسَ كانَ مِنَ الـجِنّ أي كان من الـملائكة, وذلك أن الـملائكة اجتنّوا فلـم يروا, وقد قال الله جل ثناؤه: وَجَعَلُوا بَـيْنَهُ وَبَـيْنَ الـجِنةِ نَسَبـا وَلَقَدْ علـمتِ الـجنّةُ أنهم لَـمُـحْضَرُونَ وذلك لقول قريش: إن الـملائكة بنات الله. فـيقول الله: إن تكن الـملائكة بناتـي فإبلـيس منها, وقد جعلوا بـينـي وبـين إبلـيس وذرّيته نسبـا. قال: وقد قال الأعشى, أعشى بنـي قـيس بن ثعلبة البكري, وهو يذكر سلـيـمان بن داود وما أعطاه الله:

وَلَوْ كانَ شَيْء خالِدا أوْ مُعَمّرا لَكانَ سُلَـيْـمَانُ البَرِيّ مِنَ الدّهْرِ
بَرَاهُ إلهي واصْطَفَـاهُ عبـادَهُوَمَلّكَهُ مَا بَـيْنَ ثُرْيَا إلَـى مِصْرِ
وَسَخّرَ مِنْ جِنّ الـمَلائِكِ تِسْعَةًقِـياما لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلا أجْرِ

قال: فأبت العرب فـي لغتها إلا أن «الـجنّ» كل ما اجتنّ. يقول: ما سمي الله الـجن إلا أنهم اجتنوا فلـم يُرَوْا, وما سمي بنـي آدم الإنس إلا أنهم ظهروا فلـم يجتنّوا, فما ظهر فهو إنس, وما اجتنّ فلـم يُرَ فهو جنّ. وقال آخرون بـما:

460ـ حدثنا به مـحمد بن بشار, قال: حدثنا ابن أبـي عديّ, عن عوف, عن الـحسن, قال: ما كان إبلـيس من الـملائكة طرفة عين قط, وإنه لأصل الـجن كما أن آدم أصل الإنس.

461ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: كان الـحسن يقول فـي قوله: إلا إبْلِـيسَ كانَ مِنَ الـجِنّ إلـجاءٌ إلـى نسبه, فقال الله: أفَتَتّـخِذُونَهُ وَذُرّيّتَهُ أوْلِـياءَ مِنْ دُونِـي الآية... وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم.
462ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يحيى بن واضح, قال: حدثنا أبو سعيد الـيحمدي, حدثنا إسماعيـل بن إبراهيـم, قال: حدثنا سوار بن الـجعد الـيحمدي, عن شهر بن حوشب قوله: مِنَ الـجِنّ قال: كان إبلـيس من الـجنّ الذين طردتهم الـملائكة, فأسره بعض الـملائكة فذهب به إلـى السماء.
463ـ وحدثنـي علـيّ بن الـحسين, قال: حدثنـي أبو نصر أحمد بن مـحمد الـخلال, قال: حدثنـي سنـيد بن داود, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا عبد الرحمن بن يحيى, عن موسى بن نـمير, وعثمان بن سعيد بن كامل, عن سعد بن مسعود, قال: كانت الـملائكة تقاتل الـجنّ, فسُبـي إبلـيس وكان صغيرا, فكان مع الـملائكة فتعبّد معها. فلـما أمروا بـالسجود لآدم سجدوا, فأبى إبلـيس فلذلك قال الله: إلاّ إبْلِـيسَ كانَ مِنَ الـجِنّ.
464ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قال: حدثنا الـمبـارك بن مـجاهد أبو الأزهر, عن شريك بن عبدالله بن أبـي نـمرطط, عن صالـح مولـى التوأمة, عن ابن عبـاس, قال: إن من الـملائكة قبـيلاً يقال لهم الـجنّ, فكان إبلـيس منهم, وكان إبلـيس يسوس ما بـين السماء والأرض فعصى, فمسخه الله شيطانا رجيـما.
465ـ قال: وحدثنا يونس, عن ابن وهب, قال: قال ابن زيد: إبلـيس أبو الـجنّ, كما آدم أبو الإنس.
وعلة من قال هذه الـمقالة, أن الله جل ثناؤه أخبر فـي كتابه أنه خـلق إبلـيس من نار السموم ومن مارج من نار, ولـم يخبر عن الـملائكة أنه خـلقها من شيء من ذلك. وأن الله جل ثناؤه أخبر أنه من الـجن. فقالوا: فغير جائز أن ينسب إلـى غير ما نسبه الله إلـيه. قالوا: ولإبلـيس نسل وذرّية, والـملائكة لا تتناسل ولا تتوالد.
466ـ حدثنا مـحمد بن سنان القزاز, قال: حدثنا أبو عاصم, عن شريك, عن رجل, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: إن الله خـلق خـلقا, فقال: اسجدوا لآدم فقالوا: لا نفعل. فبعث الله علـيهم نارا تـحرقهم. ثم خـلق خـلقا آخر, فقال: إنـي خالق بشرا من طين, اسجدوا لآدم فأبوا, فبعث الله علـيهم نارا فأحرقتهم. قال: ثم خـلق هؤلاء, فقال: اسجدوا لآدم فقالوا: نعم. وكان إبلـيس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم.
قال أبو جعفر: وهذه علل تنبىء عن ضعف معرفة أهلها. وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خـلق أصناف ملائكته من أصناف من خـلقه شتـى, فخـلق بعضا من نور, وبعضا من نار, وبعضا مـما شاء من غير ذلك. ولـيس فـي ترك الله جل ثناؤه الـخبر عما خـلق منه ملائكته وإخبـاره عما خـلق منه إبلـيس ما يوجب أن يكون إبلـيس خارجا عن معناهم, إذ كان جائزا أن يكون خـلق صنفـا من ملائكته من نار كان منهم إبلـيس, وأن يكون أفرد إبلـيس بأن خـلقه من نار السموم دون سائر ملائكته. وكذلك غير مخرجه أن يكون كان من الـملائكة بأن كان له نسل وذرية لـما ركب فـيه

من الشهوة واللذّة التـي نزعت من سائر الـملائكة لـما أراد الله به من الـمعصية.
وأما خبر الله عن أنه من الـجن, فغير مدفوع أن يسمى ما اجتنّ من الأشياء عن الأبصار كلها جِنّا, كما قد ذكرنا قبلُ فـي شعر الأعشى, فـيكون إبلـيس والـملائكة منهم لاجتنانهم عن أبصار بنـي آدم.
القول فـي معنى إبلـيس.
قال أبو جعفر: وإبلـيس «إفعيـل» من الإبلاس: وهو الإياس من الـخير والندم والـحزن. كما:
467ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: إبلـيس أبلسه الله من الـخير كله وجعله شيطانا رجيـما عقوبة لـمعصيته.
468ـ وحدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي, قال: كان اسم إبلـيس الـحارث, وإنـما سمي إبلـيس حين أبلس متـحيرا.
قال أبو جعفر: وكما قال الله جل ثناؤه: فإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ يعنـي به أنهم آيسون من الـخير, نادمون حزنا, كما قال العجاج:
يا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْما مُكْرَسَاقالَ نَعَمْ أعْرِفُهُ وأبْلَسا
وقال رؤبة:
وَحَضَرَتْ يَوْمَ الـخَمِيسِ الأخْماسوَفِـي الوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإبْلاسْ
يعنـي به اكتئابـا وكسوفـا.
فإن قال لنا قائل: فإن كان إبلـيس كما قلت «إفعيـل» من الإبلاس, فهلاّ صرف وأجري؟ قـيـل: ترك إجراؤه استثقالاً إذ كان اسما لا نظير له من أسماء العرب, فشبهته العرب إذ كان كذلك بأسماء العجم التـي لا تـجري, وقد قالوا: مررت بإسحاق, فلـم يجروه, وهو من أسحقه الله إسحاقا, إذ كان وقع مبتدأ اسما لغير العرب ثم تسمت به العرب فجرى مـجراه, وهو من أسماء العجم فـي الإعراب, فلـم يصرف. وكذلك أيوب إنـما هو فـيعول من آب يئوب.
وتأويـل قوله: أبى يعنـي جل ثناؤه بذلك إبلـيس أنه امتنع من السجود لآدم فلـم يسجد له. واستكبر يعنـي بذلك أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله فـي السجود لآدم. وهذا وإن كان من الله جل ثناؤه خبرا عن إبلـيس, فإنه تقريع لضربـائه من خـلق الله الذين يتكبرون عن الـخضوع لأمر الله والانقـياد لطاعته فـيـما أمرهم به وفـيـما نهاهم عنه, والتسلـيـم له فـيـما أوجب لبعضهم علـى بعض من الـحقّ. وكان مـمن تكبر عن الـخضوع لأمر الله والتذلل لطاعته والتسلـيـم لقضائه فـيـما ألزمهم من حقوق غيرهم الـيهودُ الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم, وأحبـارهم الذين كانوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته عارفـين وبأنه لله رسول عالـمين, ثم استكبروا مع علـمهم بذلك عن الإقرار بنبوّته والإذعان لطاعته, بغيا منهم له وحسدا, فقرّعهم الله بخبره عن إبلـيس الذي فعل فـي استكبـاره عن السجود لآدم حسدا له وبغيا نظير فعلهم فـي التكبر عن الإذعان لـمـحمد نبـي الله صلى الله عليه وسلم ونبوّته, إذ جاءهم بـالـحقّ من عند ربهم حسدا وبغيا. ثم وصف إبلـيس بـمثل الذي وصف به الذين ضربه لهم مثلاً فـي الاستكبـار والـحسد والاستنكاف عن الـخضوع

لـمن أمره الله بـالـخضوع له, فقال جل ثناؤه: وكان يعنـي إبلـيس من الكافرين من الـجاحدين نعم الله علـيه وأياديه عنده بخلافه علـيه فـيـما أمره به من السجود لآدم, كما كفرت الـيهود نعم ربها التـي آتاها وآبـاءها قبل: من إطعام الله أسلافهم الـمنّ والسلوى, وإظلال الغمام علـيهم وما لا يحصى من نعمه التـي كانت لهم, خصوصا ما خصّ الذين أدركوا مـحمدا صلى الله عليه وسلم بإدراكهم إياه ومشاهدتهم حجة الله علـيهم فجحدت نبوّته بعد علـمهم به, ومعرفتهم بنبوّته حسدا وبغيا. فنسبه الله جل ثناؤه إلـى الكافرين, فجعله من عدادهم فـي الدين والـملة, وإن خالفهم فـي الـجنس والنسبة, كما جعل أهل النفـاق بعضهم من بعض لاجتـماعهم علـى النفـاق, وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم, فقال: الـمُنافِقُونَ والـمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يعنـي بذلك أن بعضهم من بعض فـي النفـاق والضلال, فكذلك قوله فـي إبلـيس: كانَ مِنَ الكافِرِينَ كان منهم فـي الكفر بـالله ومخالفته أمره وإن كان مخالفـا جنسه أجناسهم ونسبه نسبهم. ومعنى قوله: وكانَ مِنَ الكَافِرِينَ أنه كان حين أبى عن السجود من الكافرين حينئذ.

وقد رُوي عن الربـيع بن أنس, عن أبـي العالـية أنه كان يقول فـي تأويـل قوله: وكانَ مِنَ الكافِرِينَ فـي هذا الـموضع وكان من العاصين.

469ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وكانَ مِنَ الكافِرِينَ يعنـي العاصين.

وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بـمثله.

وذلك شبـيه بـمعنى قولنا فـيه. وكان سجود الـملائكة لآدم تكرمة لآدم وطاعة لله, لا عبـادة لآدم. كما:

470ـ حدثنا به بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَإذْ قُلْنَا لِلْـمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فكانت الطاعة لله, والسجدة لآدم, أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته.

الآية : 35

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَقُلْنَا يَآآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظّالِمِينَ }

قال أبو جعفر: وفـي هذه الآية دلالة واضحة علـى صحة قول من قال: إن إبلـيس أخرج من الـجنة بعد الاستكبـار عن السجود لآدم, وأسكنها آدم قبل أن يهبط إبلـيس إلـى الأرض ألا تسمعون الله جل ثناؤه يقول: وَقُلْنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الـجَنةَ وكُلا مِنْهَا رَغدا حَيْثُ شِئْتُـمَا وَلا تَقْرَبـا هَذِهِ الشجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِمِينَ فأزَلّهُما الشّيْطانُ عَنْها فأخْرَجَهُما مِـمّا كانا فِـيهِ. فقد تبـين أن إبلـيس إنـما أزلّهما عن طاعة الله, بعد أن لُعن وأظهر التكبر لأن سجود الـملائكة لآدم كان بعد أن نفخ فـيه الروح, وحينئذٍ كان امتناع إبلـيس من السجود له, وعند الامتناع من ذلك حلت علـيه اللعنة. كما:

471ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح عن ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى

الله عليه وسلم: أن عدوّ الله إبلـيس أقسم بعزّة الله لـيغوينّ آدم وذريته وزوجه, إلا عبـاده الـمخـلصين منهم, بعد أن لعنه الله, وبعد أن أخرج من الـجنة, وقبل أن يهبط إلـى الأرض, وعلّـم الله آدم الأسماء كلها.

472ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: لـما فرغ الله من إبلـيس ومعاتبته, وأبى إلا الـمعصية, وأوقع علـيه اللعنة, ثم أخرجه من الـجنة أقبل علـى آدم وقد علّـمه الأسماء كلها, فقال: يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بأسْمَائِهِمْ إلـى قوله: إنكَ أنْتَ العَلِـيـم الـحَكِيـم.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي الـحال التـي خـلقت لآدم زوجته والوقت الذي جعلت له سكنا. فقال ابن عبـاس بـما:

473ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح عن ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: فأخرج إبلـيس من الـجنة حين لعن, وأسكن آدم الـجنة, فكان يـمشي فـيها وَحْشا لـيس له زوج يسكن إلـيها. فنام نومة فـاستـيقظ, وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خـلقها الله من ضلعه, فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة, قال: ولـم خـلقت؟ قالت: تسكن إلـيّ. قالت له الـملائكة ينظرون ما بلغ علـمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حوّاء, قالوا: ولـم سميت حوّاء؟ قال: لأنها خُـلقت من شيء حيّ. فقال الله له: يا آدَمَ اسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الـجَنّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُـمَا. فهذا الـخبر ينبىء عن أن حوّاء خـلقت بعد أن سكن آدم الـجنة فجُعلت له سكنا.

وقال آخرون: بل خـلقت قبل أن يسكن آدم الـجنة. ذكر من قال ذلك:

474ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, قال: لـما فرغ الله من معاتبة إبلـيس أقبل علـى آدم وقد علـمه الأسماء كلها, فقال: يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بِأسْمَائِهِمْ إلـى قوله: إنّكَ أنْتَ العَلِـيـمُ الـحَكِيـمُ. قال: ثم ألقـى السّنة علـى آدم فـيـما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلـم, عن عبد الله بن عبـاس وغيره ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لـحما وآدم نائم لـم يهبّ من نومته حتـى خـلق الله من ضلعه تلك زوجته حوّاء, فسوّاها امرأة لـيسكن إلـيها. فلـما كشف عنه السنة وهبّ من نومته رآها إلـى جنبه, فقال فـيـما يزعمون والله أعلـم: لـحمي ودمي وزوجتـي. فسكن إلـيها. فلـما زوّجه الله تبـارك وتعالـى وجعل له سكنا من نفسه, قال له, فتلا: يا آدَمُ اسْكُنْ أنْتَ وَزَجُكَ الـجَنّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُـمَا وَلاَ تَقْرَبـا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِـمِينَ.

قال أبو جعفر: ويقال لامرأة الرجل زوجه وزوجته, والزوجة بـالهاء أكثر فـي كلام العرب منها بغير الهاء, والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزد شنوءة. فأما الزوج الذي لا اختلاف فـيه بـين العرب فهو زوج الـمرأة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وكُلاَ مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُـمَا.

قال أبو جعفر: أما الرغد, فإنه الواسع من العيش, الهنـيء الذي لا يُعَنّـي صاحبه, يقال: أرغد فلان: إذا أصاب واسعا من العيش الهنـيء, كما قال امرؤ القـيس بن حجر:

بَـيْنَـمَا الـمَرْؤُ تَرَاهُ ناعِماياَمَنُ الأحْدَاثَ فِـي عَيْش رَغَدْ

475ـ وحدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح عن

ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وكُلاَ مِنْهَا رَغَدا قال: الرغد: الهنـيء.

476ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: رَغَدا قال: لا حساب علـيهم.

وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا حكام عن عنبسة, عن مـحمد بن عبد الرحمن, عن القاسم بن أبـي بزة, عن مـجاهد: وكُلا مِنْهَا رَغَدا أي لا حساب علـيهم.

477ـ وحدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وكُلا مِنْها رَغَدا حَيْثُ شِئْتُـمَا قال: الرغد: سعة الـمعيشة.

فمعنى الآية: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الـجنة, وكلا من الـجنة رزقا واسعا هنـيئا من العيش حيث شئتـما. كما:

478ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد عن قتادة قوله: يا آدَم اسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الـجَنّةَ وكُلا مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُـما ثم إن البلاء الذي كتب علـى الـخـلق كتب علـى آدم كما ابتُلـي الـخـلق قبله أن الله جل ثناؤه أحلّ له ما فـي الـجنة أن يأكل منها رغدا حيث شاء غير شجرة واحدة نُهي عنها. وقدم إلـيه فـيها, فما زال به البلاء حتـى وقع بـالذي نُهي عنه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلاَ تَقْرَبـا هَذِهِ الشجرَةَ.

قال أبو جعفر: والشجر فـي كلام العرب: كل ما قام علـى ساق, ومنه قول الله جل ثناؤه: وَالنّـجمُ وَالشّجَرُ يَسْجُدَانِ يعنـي بـالنـجم: ما نـجم من الأرض من نبت. وبـالشجر: ما استقلّ علـى ساق.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي عين الشجرة التـي نُهي عن أكل ثمرها آدم, فقال بعضهم هي السنبلة. ذكر من قال ذلك:

479ـ حدثنـي مـحمد بن إسماعيـل الأحمسي. قال: حدثنا عبد الـحميد الـحمانـي, عن النضر, عن عكرمة, عن ابن عبـاس قال: الشجرة التـي نُهي عن أكل ثمرها آدمُ هي السنبلة.

480ـ وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, حدثنا هشيـم, وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا عمران بن عتـيبة جميعا, عن حصين, عن أبـي مالك فـي قوله: وَلا تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ قال: هي السنبلة.

وحدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا ابن مهدي, وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قالا جميعا: حدثنا سفـيان عن حصين عن أبـي مالك, مثله.

481ـ وحدثنا أبو كريب وابن وكيع, قالا: حدثنا ابن إدريس, قال: سمعت أبـي عن عطية فـي قوله: وَلاَ تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ قال: السنبلة.

482ـ وحدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد عن سعيد, عن قتادة قال: الشجرة التـي نُهي عنها آدم هي السنبلة.

483ـ وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا مسلـم بن إبراهيـم. قال: حدثنا القاسم, قال: حدثنـي رجل من بنـي تـميـم أن ابن عبـاس كتب إلـى

أبـي الـجَلْد يسأله عن الشجرة التـي أكل منها آدم والشجرة التـي تاب عندها, فكتب إلـيه أبو الـجلد: سألتنـي عن الشجرة التـي نُهي عنها آدم, وهي السنبلة. وسألتنـي عن الشجرة التـي تاب عندها آدم, وهي الزيتونة.

وحدثنا ابن حميد. قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن رجل من أهل العلـم, عن مـجاهد, عن ابن عبـاس, أنه كان يقول: الشجرة التـي نُهي عنها آدم: البُرّ.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن عيـينة. وابن الـمبـارك, عن الـحسن بن عمارة, عن الـمنهال بن عمرو, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس قال: كانت الشجرة التـي نُهي الله عنها آدم وزوجته السنبلة.

484ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة. عن ابن إسحاق, عن بعض أهل الـيـمن, عن وهب بن منبه الـيـمانـي أنه كان يقول: هي البرّ ولكن الـحبة منها فـي الـجنة ككُلَـى البقر ألـين من الزبد وأحلـى من العسل. وأهل التوراة يقولون: هي البرّ.

485ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, عن يعقوب بن عتبة: أنه حدث أنها الشجرة التـي تـحتكّ بها الـملائكة للـخُـلْد.

486ـ وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا ابن يـمان عن جابر بن يزيد بن رفـاعة, عن مـحارب بن دثار قال: هي السنبلة.

487ـ وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبو أسامة, عن يزيد بن إبراهيـم, عن الـحسن, قال: هي السنبلة التـي جعلها الله رزقا لولده فـي الدنـيا.

قال أبو جعفر, وقال آخرون: هي الكرمة. ذكر من قال ذلك:

488ـ حدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا عبد الله, عن إسرائيـل, عن السدي, عمن حدثه, عن ابن عبـاس, قال: هي الكرمة.

489ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي, فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: وَلاَ تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ قال: هي الكرمة. وتزعم الـيهود أنها الـحنطة.

490ـ وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: الشجرة هي الكرم.

491ـ وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, عن مغيرة, عن الشعبـي, عن جعدة بن هبـيرة, قال: هو العنب فـي قوله: وَلاَ تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ.

وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنـي أبـي, عن خلاد الصفـار, عن بـيان, عن الشعبـي, عن جعدة بن هبـيرة: وَلا تَقْرَبـا هَذِهِ الشّجَرَةَ قال: الكرم.

وحدثنا ابن الـمثنى, قال: حدثنـي الـحسين, قال: حدثنا خالد الواسطي, عن بـيان, عن الشعبـي, عن جعدة بن هبـيرة: وَلا تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ قال: الكرم.

492ـ وحدثنا ابن حميد وابن وكيع, قالا: حدثنا جرير, عن مغيرة, عن الشعبـي, عن جعدة بن هبـيرة, قال: الشجرة التـي نُهي عنها آدم: شجرة الـخمر.

493ـ وحدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا عبـاد بن العوّام, قال: حدثنا سفـيان بن حسين, عن يعلـى بن مسلـم, عن سعيد بن جبـير قوله: وَلا تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ قال: الكرم.

وحدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان, عن السدي, قال: العنب.

494ـ وحدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن أبـي معشر, عن مـحمد بن قـيس, قال: عنب.

وقال آخرون: هي التّـينة. ذكر من قال ذلك:

495ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن بعض أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم قال: تـينة.

قال أبو جعفر: والقول فـي ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر عبـاده أن آدم وزوجته أكلا من الشجرة التـي نهاهما ربهما عن الأكل منها, فأتـيا الـخطيئة التـي نهاهما عن إتـيانها بأكلهما ما أكلا منها, بعد أن بـين الله جل ثناؤه لهما عين الشجرة التـي نهاهما عن الأكل منها وأشار لهما إلـيها بقوله: وَلا تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ. ولـم يضع الله جل ثناؤه لعبـاده الـمخاطبـين بـالقرآن دلالة علـى أيّ أشجار الـجنة كان نهيه آدم أن يقربها بنصّ علـيها بـاسمها ولا بدلالة علـيها. ولو كان لله فـي العلـم بأيّ ذلك من أيّ رضا لـم يُخْـلِ عبـادَه من نصب دلالة لهم علـيها يصلون بها إلـى معرفة عينها, لـيطيعوه بعلـمهم بها, كما فعل ذلك فـي كل ما بـالعلـم به له رضا.

فـالصواب فـي ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الـجنة دون سائر أشجارها, فخالفـا إلـى ما نهاهما الله عنه, فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به. ولا علـم عندنا أيّ شجرة كانت علـى التعيـين, لأن الله لـم يضع لعبـاده دلـيلاً علـى ذلك فـي القرآن ولا فـي السنة الصحيحة, فأنى يأتـي ذلك من أتـى؟

وقد قـيـل: كانت شجرة البرّ. وقـيـل: كانت شجرة العنب. وقـيـل: كانت شجرة التـين. وجائز أن تكون واحدة منها, وذلك إن علـمه عالـم لـم ينفع العالـم به علـمه, وإن جهله جاهل لـم يضرّه جهله به.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلا تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِـمِينَ.

قال أبو جعفر: اختلف أهل العربـية فـي تأويـل قوله: وَلاَ تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِـمِينَ فقال بعض نـحويـي الكوفـيـين: تأويـل ذلك: وَلاَ تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ فإنكما إن قربتـماها كنتـما من الظالـمين. فصار الثانـي فـي موضع جواب الـجزاء, وجواب الـجزاء يعمل فـيه أوّله كقولك: إن تقم أقم, فتـجزم الثانـي بجزم الأول. فكذلك قوله: فتكونا لـما وقعت الفـاء فـي موضع شرط الأول نصب بها, وصيرت بـمنزلة «كي» فـي نصبها الأفعال الـمستقبلة للزومها الاستقبـال, إذ كان أصل الـجزاء الاستقبـال.

وقال بعض نـحويـي أهل البصرة: تأويـل ذلك: لا يكن منكما قُرْبُ هذه الشجرة فأن تكونا من الظالـمين. غير أنه زعم أنّ «أن» غير جائز إظهارها مع «لا», ولكنها مضمرة لا بد منها لـيصح الكلام بعطف اسم وهي «أن» علـى الاسم, كما غير جائز فـي قولهم «عسى أن يفعل». عسى الفعل, ولا فـي قولك: «ما كان لـيفعل». ما كان لأن يفعل.

وهذا القول الثانـي يفسده إجماع جميعهم علـى تـخطئة قول القائل: سرّنـي تقوم يا هذا, وهو يريد: سرّنـي قـيامك. فكذلك الواجب أن يكون خطأ علـى هذا الـمذهب قول القائل: لا تقم, إذا كان الـمعنى: لا يكن منك قـيام. وفـي إجماع جميعهم علـى صحة قول القائل: لا تقم, وفساد قول القائل: سرّنـي تقوم بـمعنى سرّنـي قـيامك, الدلـيـل الواضح علـى فساد دعوى الـمدعي أن مع «لا» التـي فـي قوله: وَلاَ تَقْرَبَـا هَذِهِ الشّجَرَةَ ضمير «أن», وصحة القول الآخر.

وفـي قوله: فَتَكُونَا مِنَ الظّالِـمِينَ وجهان من التأويـل: أحدهما أن يكون «فتكونا» فـي نـية العطف علـى قوله: وَلاَ تَقْرَبَـا فـيكون تأويـله حينئذ: ولا تقربـا هذه الشجرة, ولا تكونا من الظالـمين. فـيكون «فتكونا» حينئذ فـي معنى الـجزم مـجزوم بـما جزم به وَلاَ تَقْرَبَـا, كما يقول القائل: لا تكلـم عمرا ولا تؤذه, وكما قال امرؤ القـيس:

فَقُلْتُ لَهُ صَوّبْ وَلاَ تَـجْهَدَنّهُفَـيُذْرِكَ مِنْ أُخْرَى القَطَاةِ فَتَزْلَقِ

فجزم «فـيذرك» بـما جزم به «لا تـجهدنه», كأنه كرر النهي.

والثانـي أن يكون: فتكونَا منَ الظالـمينَ بـمعنى جواب النهي, فـيكون تأويـله حينئذ: لا تقربـا هذه الشجرة, فإنكما إن قربتـماها كنتـما من الظالـمين كما تقول: لا تشتـم عمرا فـيشتـمك مـجازاة. فـيكون «فتكونا» حينئذ فـي موضع نصب إذ كان حَرْفَ عطف علـى غير شكله لـمّا كان فـي ولا تقْربَـا حرف عامل فـيه, ولا يصلـح إعادته فـي «فتكونا», فنصب علـى ما قد بـينت فـي أول هذه الـمسألة.

وأما تأويـل قوله: فَتَكُونَا مِنَ الظّالِـمِينَ فإنه يعنـي به فتكونا من الـمتعدّين إلـى غير ما أذن لهم وأبـيح لهم فـيه. وإنـما عنى بذلك أنكما إن قربتـما هذه الشجرة كنتـما علـى منهاج من تعدّى حدودي وعصى أمري واستـحلّ مـحارمي لأن الظالـمين بعضهم أولـياء بعض, والله ولـيّ الـمتقـين. وأصل الظلـم فـي كلام العرب وضع الشيء فـي غير موضعه ومنه قول نابغة بنـي ذبـيان:

إلا ألاوَارِيّ لأيا ما أُبَـيّنُهاوَالنّؤْيُ كالـحَوْضِ بـالـمَظْلُومَةِ الـجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة, لأن الذي حفر فـيها النوى حفر فـي غير موضع الـحفر, فجعلها مظلومة لوضع الـحفرة منها فـي غير موضعها. ومن ذلك قول ابن قميئة فـي صفة غيث:

ظَلَـمَ البِطَاحَ بِها انْهلالُ حَرِيصَةٍفَصَفـا النّطافُ لَهُ بُعَيْدَ الـمُقْلَعِ

وظلـمه إياه: مـجيئه فـي غير أوانه, وانصبـابه فـي غير مصبه. ومنه: ظلـم الرجل جَزوره, وهو نـحره إياه لغير علة وذلك عند العرب: وضع النـحر فـي غير موضعه.

وقد يتفرع الظلـم فـي معان يطول بإحصائها الكتاب, وسنبـينها فـي أماكنها إذا أتـينا علـيها إن شاء الله تعالـى وأصل ذلك كله ما وصفنا من وضع الشيء فـي غير موضعه.

الآية : 36

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{فَأَزَلّهُمَا الشّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ وَلَكُمْ فِي الأرْضِ مُسْتَقَرّ وَمَتَاعٌ إِلَىَ حِينٍ }

قال أبو جعفر: اختلف القرّاء فـي قراءة ذلك فقرأته عامتهم: فأزلّهما بتشديد اللام, بـمعنى استزلهما من قولك: زلّ الرجل فـي دينه: إذا هفـا فـيه وأخطأ فأتـى ما لـيس له إتـيانه فـيه, وأزلّه غيره: إذا سبب له ما يزلّ من آجله فـي دينه أو دنـياه. ولذلك أضاف الله تعالـى ذكره إلـى إبلـيس خروج آدم وزوجته من الـجنة فقال: فأخْرَجَهُما يعنـي إبلـيس مِـمّا كانا فِـيهِ لأنه كان الذي سبب لهما الـخطيئة التـي عاقبهما الله علـيها بإخراجهما من الـجنة.

وقرأه آخرون: «فأزالهما», بـمعنى إزالة الشيء عن الشيء, وذلك تنـحيته عنه.

وقد رُوي عن ابن عبـاس فـي تأويـل قوله فأزَلّهما ما:

496ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: قال: قال ابن عبـاس فـي تأويـل قوله تعالـى: فأزَلّهُما الشّيطان قال: أغواهما.

وأولـى القراءتـين بـالصواب قراءة من قرأ: فأزَلّهُما لأن الله جل ثناؤه قد أخبر فـي الـحرف الذي يتلوه بأن إبلـيس أخرجهما مـما كانا فـيه, وذلك هو معنى قوله فأزالهما, فلا وجه إذ كان معنى الإزالة معنى التنـحية والإخراج أن يقال: «فأزالهما الشيطان عنها فأخرجهما مـما كانا فـيه», فـيكون كقوله: «فأزالهما الشيطان عنها فأزالهما مـما كانا فـيه», ولكن الـمعنى الـمفهوم أن يقال: فـاستزلهما إبلـيس عن طاعة الله, كما قال جل ثناؤه: فأزلّهُما الشّيْطانُ وقرأت به القراء, فأخرجهما بـاستزلاله إياهما من الـجنة.

فإن قال لنا قائل: وكيف كان استزلال إبلـيس آدم وزوجته حتـى أضيف إلـيه إخراجهما من الـجنة؟ قـيـل: قد قالت العلـماء فـي ذلك أقوالاً سنذكر بعضها. فحكي عن وهب بن منبه فـي ذلك ما:

497ـ حدثنا به الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهرب, قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لـما أسكن الله آدم وذرّيته, أو زوجته, الشك من أبـي جعفر, وهو فـي أصل كتابه: وذرّيته ونهاه عن الشجرة, وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها فـي بعض, وكان لها ثمر تأكله الـملائكة لـخـلدهم, وهي الثمرة التـي نهى الله آدم عنها وزوجته. فلـما أراد إبلـيس أن يستزلهما دخـل فـي جوف الـحية, وكانت للـحية أربع قوائم كأنها بُخْتـية من أحسن دابة خـلقها الله. فلـما دخـلت الـحية الـجنة, خرج من جوفها إبلـيس, فأخذ من الشجرة التـي نهى الله عنها آدم وزوجته, فجاء بها إلـى حوّاء, فقال: انظري إلـى هذه الشجرة, ما أطيب ريحها, وأطيب طعمها, وأحسن لونها فأخذت حوّاء فأكلت منها, ثم ذهبت بها إلـى آدم, فقالت: انظر إلـى هذه الشجرة, ما أطيب ريحها, وأطيب طعمها, وأحسن لونها فأكل منها آدم, فبدت لهما سوآتهما, فدخـل آدم فـي جوف الشجرة, فناداه ربه: يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هنا يا رب, قال: ألا تـخرج: قال: أستـحيـي منك يا ربّ, قال: ملعونة الأرض التـي خـلقت منها لعنة يتـحوّل ثمرها شوكا. قال: ولـم يكن فـي الـجنة ولا فـي الأرض شجرة كان أفضل من الطلـح والسدر ثم قال: يا حوّاء أنت التـي غررت عبدي, فإنك لا تـحملـين حملاً إلا حملته كرها, فإذا أردت أن تضعي ما فـي بطنك أشرفت علـى الـموت مرارا. وقال للـحية: أنت التـي دخـل الـملعون فـي جوفك حتـى غرّ عبدي, ملعونة أنت لعنة تتـحوّل قوائمك فـي

بطنك, ولا يكن لك رزق إلا التراب, أنت عدوة بنـي آدم وهم أعداؤك حيث لقـيت أحدا منهم أخذت بعقبه, وحيث لقـيك شدخ رأسك.

قال عمر: قـيـل لوهب: وما كانت الـملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء.

ورُوي عن ابن عبـاس نـحو هذه القصة.

498ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح عن ابن عبـاس, وعن مرة عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم: لـما قال الله لآدم: اسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الـجَنّةَ وكُلا مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُـما وَلا تَقْرَبَـا هَذِهِ الشجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِـمِينَ أراد إبلـيس أن يدخـل علـيهما الـجنة فمنعته الـخزنة, فأتـى الـحية وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البعير, وهي كأحسن الدوابّ, فكلـمها أن تدخـله فـي فمها حتـى تدخـل به إلـى آدم, فأدخـلته فـي فمها, فمرّت الـحية علـى الـخزنة فدخـلت ولا يعلـمون لـما أراد الله من الأمر, فكلـمه من فمها فلـم يبـال بكلامه, فخرج إلـيه فقال: يا آدم هَلْ أدُلّكَ علـى شَجَرَةِ الـخُـلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَـى يقول: هل أدلك علـى شجرة إن أكلت منها كنت ملكا مثل الله عزّ وجل, أو تكونا من الـخالدين فلا تـموتان أبدا. وحلف لهما بـالله إنـي لَكُمَا لَـمِنَ النّاصِحِينَ. وإنـما أراد بذلك لـيبدي لهما ما توارى عنهما من سوآتهما بهتك لبـاسهما. وكان قد علـم أن لهما سوأة لـما كان يقرأ من كتب الـملائكة, ولـم يكن آدم يعلـم ذلك, وكان لبـاسهما الظفر. فأبى آدم أن يأكل منها, فتقدمت حوّاء فأكلت, ثم قالت: يا آدم كل فإنـي قد أكلت فلـم يضرّنـي. فلـما أكل آدم بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهما وَطَفِقَا يَخْصِفـانِ عَلَـيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الـجَنّةِ.

499ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: حدثنـي مـحدّث أن الشيطان دخـل الـجنة فـي صورة دابة ذات قوائم, فكان يرى أنه البعير. قال: فلعن فسقطت قوائمه, فصار حية.

500ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: وحدثنـي أبو العالـية أن من الإبل ما كان أولها من الـجنّ, قال: فأبـيحت له الـجنة كلها إلا الشجرة, وقـيـل لهما: لا تَقْرَبـا هذهِ الشّجرَةَ فتكُونا منَ الظالـمينَ قال: فأتـى الشيطان حوّاء فبدأ بها فقال: أنهيتـما عن شيء؟ قالت: نعم, عن هذه الشجرة. فقال: ما نَهاكُما رَبّكُما عَنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ إلاّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونا مِنَ الـخالِدِينَ. قال: فبدأت حوّاء فأكلت منها, ثم أمرت آدم فأكل منها. قال: وكانت شجرة من أكل منها أحدث. قال: ولا ينبغي أن يكون فـي الـجنة حدث. قال: فأزَلّهُما الشّيْطَانُ عَنْها فأخْرَجَهُما مِـمّا كانَا فِـيهِ قال: فـاخرج آدم من الـجنة.

501ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا ابن إسحاق, عن بعض أهل العلـم: أن آدم حين دخـل الـجنة ورأى ما فـيها من الكرامة وما أعطاه الله منها, قال: لو أن خُـلْدا كان فـاغتنـمها منه الشيطان لـما سمعها منه, فأتاه من قِبَل الـخُـلْد.

502ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: حدثت أن أوّل ما ابتدأهما به من كيده إياهما أنه ناح علـيهما نـياحة أحزنتهما حين سمعاها, فقالا له: ما يبكيك؟ قال: أبكي علـيكما تـموتان فتفـارقان ما أنتـما فـيه من النعمة والكرامة. فوقع ذلك فـي أنفسهما. ثم أتاهما فوسوس إلـيهما, فقال: يا آدمَ هَلْ أدُلّكَ عَلـى شَجَرَةِ الـخُـلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَـى وقال: مَا

نَهاكُما رَبّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ إلاّ أنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الـخالِدِينَ وقاسَمَهُما إنّـي لَكُما لَـمِنَ النّاصِحِينَ أي تكونا ملكين أو تـخـلدا إن لـم تكونا ملكين فـي نعمة الـجنة فلا تـموتان, يقول الله جل ثناؤه: فَدَلاّهُما بِغُرُورٍ.

503ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وسوس الشيطان إلـى حوّاء فـي الشجرة حتـى أتـى بها إلـيها, ثم حسّنها فـي عين آدم. قال: فدعاها آدم لـحاجته, قالت: لا, إلا أن تأتـي ههنا. فلـما أتـى قالت: لا, إلا أن تأكل من هذه الشجرة, قال: فأكلا منها فبدت لـما سوآتهما. قال: وذهب آدم هاربـا فـي الـجنة, فناداه ربه: يا آدم أمنـي تفرّ؟ قال: لا يا ربّ, ولكن حياءً منك. قال: يا آدم أنّى أُتـيت؟ قال: من قبل حوّاء أي ربّ. فقال الله: فإن لها علـيّ أن أدميها فـي كل شهر مرة كما أدميت هذه الشجرة, وأن أجعلها سفـيهة, فقد كنت خـلقتها حلـيـمة, وأن أجعلها تـحمل كرها وتضع كرها, فقد كنت جعلتها تـحمل يسرا وتضع يسرا.

قال ابن زيد: ولولا البلـية التـي أصابت حوّاء لكان نساء الدنـيا لا يحضن, ولكنّ حلـيـمات, وكنّ يحملن يُسْرا ويضعن يُسْرا.

504ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن يزيد بن عبد الله بن قسيط, عن سعيد بن الـمسيب, قال: سمعته يحلف بـالله ما يستثنـي ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل, ولكن حوّاء سقته الـخمر حتـى إذا سكر قادته إلـيها فأكل.

505ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن لـيث بن أبـي سلـيـم, عن طاوس الـيـمانـي, عن ابن عبـاس, قال: إن عدوّ الله إبلـيس عرض نفسه علـى دوابّ الأرض أنها تـحمله حتـى يدخـل الـجنة معها, ويكلـم آدم وزوجته, فكل الدوابّ أبى ذلك علـيه, حتـى كلـم الـحية فقال لها: أمنعك من ابن آدم, فأنت فـي ذمتـي إن أنت أدخـلتنـي الـجنة فجعلته بـين نابـين من أنـيابها, ثم دخـلت به. فكلـمهما من فـيها, وكانت كاسية تـمشي علـى أربع قوائم, فأعراها الله, وجعلها تـمشي علـى بطنها. قال: يقول ابن عبـاس: اقتلوها حيث وجدتـموها, اخفروا ذمة عدوّ الله فـيها.

506ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: قال ابن إسحاق: وأهل التوراة يدرسون: إنـما كلّـم آدم الـحية, ولـم يفسروا كتفسير ابن عبـاس.

507ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن أبـي معشر, عن مـحمد بن قـيس, قال: نهى الله آدم وحوّاء أن يأكلا من شجرة واحدة فـي الـجنة ويأكلا منها رغدا حيث شاآ. فجاء الشيطان فدخـل فـي جوف الـحية, فكلـم حواء, ووسوس الشيطان إلـى آدم, فقال: ما نَهاكُما رَبكُما عَنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ إلا أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونا مِنَ الـخالِدِينَ وَقَاسَمَهُما إنّـي لَكُما لَـمِنَ النّاصِحِينَ قال: فعضت حواء الشجرة, فدميت الشجرة وسقط عنهما رياشهما الذي كان علـيهما وَطَفِقا يَخْصِفـانِ عَلَـيْهِما مِنْ وَرَقِ الـجَنةِ وَنادَاهُما رَبهُما ألَـمْ أنْهَكُما عَنْ تلْكُما الشجَرَةِ وأقُلْ لَكُما إنّ الشّيْطانَ لَكُما عَدوّ مُبـينٌ لـم أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال: يا ربّ أطعمتنـي حوّاء. قال لـحوّاء: لـم أطعمته؟ قالت: أمرتنـي الـحية. قال للـحية: لـم أمرتها؟ قالت: أمرنـي إبلـيس. قال: ملعون مدحور أما أنت يا حوّاء فكما أدميت الشجرة فتَدْمين فـي كل هلال. وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتـمشين جريا علـى وجهك, وسيشدخ رأسك من لقـيك بـالـحجر اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ.

قال أبو جعفر: وقد رويت هذه الأخبـار عمن رويناها عنه من الصحابة والتابعين وغيرهم فـي صفة استزلال إبلـيس عدوّ الله آدم وزوجته حتـى أخرجهما من الـجنة.

وأولـى ذلك بـالـحقّ عندنا, ما كان لكتاب الله موافقا, وقد أخبر الله تعالـى ذكره عن إبلـيس أنه وسوس لآدم وزوجته لـيبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما, وأنه قال لهما: ما نَهاكُما رَبّكُما عَنْ هَذِهِ الشجَرَةِ إلاّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الـخالِدِينَ وأنه قاسمهما إنـي لكما لـمن الناصحين مدلّـيا لهما بغرور. ففـي إخبـاره جل ثناؤه عن عدوّ الله أنه قاسم آدم وزوجته بقـيله لهما: إنّـي لَكُما لَـمِنَ الناصِحِينَ الدلـيـل الواضح علـى أنه قد بـاشر خطابهما بنفسه, إما ظاهرا لأعينهما, وإما مستـجنّا فـي غيره. وذلك أنه غير معقول فـي كلام العرب أن يقال: قاسم فلان فلانا فـي كذا وكذا, إذا سبب له سببـا وصل به إلـيه دون أن يحلف له. والـحلف لا يكون بتسبب السبب, فكذلك قوله: فوسوس إلـيه الشيطان, لو كان ذلك كان منه إلـى آدم علـى نـحو الذي منه إلـى ذريته من تزيـين أكل ما نهى الله آدم عن أكله من الشجرة بغير مبـاشرة خطابه إياه بـما استزله به من القول والـحيـل, لـما قال جل ثناؤه: وَقَاسَمَهُمَا إنّـي لَكُمَا لَـمِنَ النّاصِحِينَ كما غير جائز أن يقول الـيوم قائل مـمن أتـى معصية: قاسمنـي إبلـيس أنه لـي ناصح فـيـما زين لـي من الـمعصية التـي أتـيتها, فكذلك الذي كان من آدم وزوجته لو كان علـى النـحو الذي يكون فـيـما بـين إبلـيس الـيوم وذرية آدم لـمّا قال جل ثناؤه: وَقَاسَمَهُما إنّـي لَكُما لَـمِنَ الناصِحِينَ ولكن ذلك كان إن شاء الله علـى نـحو ما قال ابن عبـاس ومن قال بقوله.

فأما سبب وصوله إلـى الـجنة حتـى كلـم آدم بعد أن أخرجه الله منها وطرده عنها, فلـيس فـيـما رُوي عن ابن عبـاس ووهب بن منبه فـي ذلك معنى يجوز لذي فهم مدافعته, إذ كان ذلك قولاً لا يدفعه عقلٌ ولا خبرٌ يـلزم تصديقه من حجة بخلافه, وهو من الأمور الـمـمكنة. والقول فـي ذلك أنه قد وصل إلـى خطابهما علـى ما أخبرنا الله جل ثناؤه, ومـمكن أن يكون وصل إلـى ذلك بنـحو الذي قاله الـمتأوّلون بل ذلك إن شاء الله كذلك لتتابع أقوال أهل التأويـل علـى تصحيح ذلك, وإن كان ابن إسحاق قد قال فـي ذلك ما:

508ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: قال ابن إسحاق فـي ذلك, والله أعلـم, كما قال ابن عبـاس وأهل التوراة: أنه خـلص إلـى آدم وزوجته بسلطانه الذي جعل الله له لـيبتلـي ب.ه آدم وذريته, وأنه يأتـي ابن آدم فـي نومته وفـي يقظته, وفـي كل حال من أحواله, حتـى يخـلص إلـى ما أراد منه حتـى يدعوه إلـى الـمعصية, ويوقع فـي نفسه الشهوة وهو لا يراه, وقد قال الله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيْطانُ فأخْرَجُهُما مِـما كانا فِـيهِ. وقال: يا بَنِـي آدَمَ لا يَفْتِنَنّكُم الشّيْطانُ كَما أخْرَجَ أبَوَيْكُمْ مِنَ الـجَنّةِ يَنْزِع عَنْهُما لِبـاسَهُما لِـيُرِيَهُما سواَتِهِما إنه يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِـيـلُه مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إنا جَعَلْنَا الشياطِينَ أوْلِـياءَ للذِينَ لا يُؤْمِنُونَ وقد قال الله لنبـيه علـيه الصلاة والسلام: قُلْ أعُوذُ بِرَبّ النّاسِ مَلِكِ النّاسِ إلـى آخر السورة. ثم ذكر الأخبـار التـي رويت عن النبـي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنّ الشّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مـجرَى الدّمِ» قال ابن إسحاق: وإنـما أمر ابن آدم فـيـما بـينه وبـين عدوّ الله, كأمره فـيـما بـينه وبـين آدم, فقال الله: اهْبِطْ مِنْها فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تَتَكَبّرَ فِـيها فـاخْرُجْ إنّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ. ثم خـلص إلـى آدم

وزوجته حتـى كلـمهما, كما قصّ الله علـينا من خبرهما, قال: فَوَسْوَسَ إلَـيْهِ الشّيْطَانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أدُلّكَ علـى شَجَرَةِ الـخُـلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَـى فخـلص إلـيهما بـما خـلص إلـى ذريته من حيث لا يريانه, والله أعلـم أيّ ذلك كان فتابـا إلـى ربهما.

قال أبو جعفر: ولـيس فـي يقـين ابن إسحاق لو كان قد أيقن فـي نفسه أن إبلـيس لـم يخـلص إلـى آدم وزوجته بـالـمخاطبة بـما أخبر الله عنه أنه قال لهما وخاطبهما به ما يجوز لذي فهم الاعتراض به علـى ما ورد من القول مستفـيضا من أهل العلـم مع دلالة الكتاب علـى صحة ما استفـاض من ذلك بـينهم, فكيف بشكه؟ والله نسأل التوفـيق.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فأخْرَجَهُما مِـمّا كانا فِـيه.

قال أبو جعفر: وأما تأويـل قوله: فأخْرَجَهُما فإنه يعنـي: فأخرج الشيطان آدم وزوجته مـما كانا, يعنـي مـما كان فـيه آدم وزوجته من رغد العيش فـي الـجنة, وسعة نعيـمها الذي كانا فـيه. وقد بـينا أن الله جل ثناؤه إنـما أضاف إخراجهما من الـجنة إلـى الشيطان, وإن كان الله هو الـمخرج لهما لأن خروجهما منها كان عن سبب من الشيطان, وأضيف ذلك إلـيه لتسبـيبه إياه كما يقول القائل لرجل وصل إلـيه منه أذى حتـى تـحوّل من أجله عن موضع كان يسكنه: ما حوّلنـي من موضعي الذي كنت فـيه إلا أنت, ولـم يكن منه له تـحويـل, ولكنه لـما كان تـحوّله عن سبب منه جاز له إضافة تـحويـله إلـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ.

قال أبو جعفر: يقال: هبط فلان أرض كذا ووادي كذا: إذا حلّ ذلك كما قال الشاعر:

ما زِلْتُ أرْمُقُهُمْ حَتّـى إذَا هَبَطَتْأيْدِي الرّكابِ بِهِمْ مِنْ رَاكسٍ فَلَقا

وقد أبـان هذا القول من الله جل ثناؤه عن صحة ما قلنا من أن الـمخرج آدم من الـجنة هو الله جلّ ثناؤه, وأن إضافة الله إلـى إبلـيس ما أضاف إلـيه من إخراجهما كان علـى ما وصفنا. ودل بذلك أيضا علـى أن هبوط آدم وزوجته وعدوّهما إبلـيس كان فـي وقت واحد. بجَمْعِ الله إياهم فـي الـخبر عن إهبـاطهم, بعد الذي كان من خطيئة آدم وزوجته, وتسبب إبلـيس ذلك لهما, علـى ما وصفه ربنا جل ذكره عنهم.

وقد اختلف أهل التأويـل فـي الـمعنى بقوله: اهْبِطُوا مع إجماعهم علـى أن آدم وزوجته مـمن عُنـي به.

509ـ فحدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبو أسامة, عن أبـي عوانة, عن إسماعيـل بن سالـم, عن أبـي صالـح: اهْبِطُوا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ قال: آدم, وحوّاء, وإبلـيس, والـحية.

510ـ حدثنا ابن وكيع وموسى بن هارون, قالا: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: اهْبِطُوا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَدوّ قال: فلعن الـحية وقطع قوائمها وتركها تـمشي علـى بطنها وجعل رزقها من التراب, وأهبط إلـى الأرض آدم وحوّاء وإبلـيس والـحية.

511ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: اهْبِطُوا بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ قال: آدم, وإبلـيس, والـحية.

وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: اهْبِطُوا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ آدم, وإبلـيس, والـحية, ذرية بعضهم أعداء لبعض.
وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ قال: آدم وذريته, وإبلـيس وذريته.
512ـ وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم بن أبـي إياس, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: بَعُضكُمْ لبَعْضٍ عَدُوّ قال: يعنـي إبلـيس, وآدم.
513ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبـيد الله بن موسى, عن إسرائيـل, عن السدي, عمن حدثه عن ابن عبـاس فـي قوله: اهْبِطُوا بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ عَدوّ قال: بعضهم عدوّ آدم, وحوّاء, وإبلـيس, والـحية.
وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا ابن وهب, قال: حدثنـي عبد الرحمن بن مهديّ, عن إسرائيـل, عن إسماعيـل السدي, قال: حدثنـي من سمع ابن عبـاس يقول: اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ قال: آدم, وحوّاء, وإبلـيس, والـحية.
514ـ وحدثنـي يونس قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: اهْبِطُوا بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ عَدوّ قال: لهما ولذرّيتهما.
قال أبو جعفر: فإن قال قائل: وما كانت عداوة ما بـين آدم وزوجته, وإبلـيس, والـحية؟ قـيـل: أما عداوة إبلـيس آدم وذرّيته, فحسده إياه, واستكبـاره عن طاعة الله فـي السجود له حين قال لربه: أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَـلَقْتَنِـي مِنْ نارٍ وَخَـلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. وأما عداوة آدم وذرّيته إبلـيس, فعداوة الـمؤمنـين إياه لكفره بـالله وعصيانه لربه فـي تكبره علـيه ومخالفته أمره وذلك من آدم ومؤمنـي ذرّيته إيـمان بـالله. وأما عداوة إبلـيس آدم, فكفر بـالله. وأما عداوة ما بـين آدم وذرّيته, والـحية, فقد ذكرنا ما رُوي فـي ذلك عن ابن عبـاس ووهب بن منبه, وذلك هي العداوة التـي بـيننا وبـينها, كما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما سالَـمْنَاهُن مُنْذُ حارَبْناهُن فَمَنْ تَرَكَهُنّ خَشْيَةَ ثَأْرِهِن فَلَـيْسَ مِنّا».
515ـ حدثنـي مـحمد بن عبد الله بن عبد الـحكم, قال: حدثنـي حجاج بن رشد, قال: حدثنا حيوة بن شريح, عن ابن عجلان, عن أبـيه, عن أبـي هريرة, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما سالَـمْناهُنّ مُنْذُ حارَبْناهُنّ, فَمَنْ تَرَكَ شَيْئا مِنْهُنّ خِيفَةً فَلَـيْسَ مِنّا».
قال أبو جعفر: وأحسب أن الـحرب التـي بـيننا كان أصله ما ذكره علـماؤنا الذين قدمنا الرواية عنهم فـي إدخالها إبلـيس الـجنة بعد أن أخرجه الله منها حتـى استزله عن طاعة ربه فـي أكله ما نهى عن أكله من الشجرة.
516ـ وحدثنا أبو كريب, قال حدثنا معاوية بن هشام, وحدثنـي مـحمد بن خـلف العسقلانـي, قال: حدثنـي آدم جميعا, عن شيبـان, عن جابر, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الـحيات, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خُـلِقَتْ هِيَ وَالإنْسانُ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَدُوّ لِصَاحِبِهِ, إنْ رآها أفْزَعَتْه, وَإنْ لَدَغَتْه أوْجَعَتْه, فـاقْتُلْها حَيْثُ وَجَدْتَها».
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَكم فـي الأرْض مُسْتَقَرّ.
قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك. فقال بعضهم بـما:

517ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وَلَكُمْ فـي الأرْضِ مُسْتَقَرّ قال: هو قوله: الّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأرْضَ فِرَاشا.
518ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَلَكُمْ فِـي الأرْضِ مُسْتَقَرّ قال: هو قوله: جَعَلَ لَكُم الأرْضَ قَرَارا.
وقال آخرون: معنى ذلك: ولكم فـي الأرض قرار فـي القبور. ذكر من قال ذلك:
519ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَلَكُمْ فِـي الأرْضِ مُسْتَقَرّ يعنـي القبور.
520ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنـي عبد الرحمن بن مهدي, عن إسرائيـل, عن إسماعيـل السدي, قال: حدثنـي من سمع ابن عبـاس قال: وَلَكُمْ فـي الأرْضِ مُسْتَقَرّ قال: القبور.
521ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَلَكُمْ فِـي الأرْضِ مُسْتَقَرّ قال: مقامهم فـيها.
قال أبو جعفر: والـمستقرّ فـي كلام العرب هو موضع الاستقرار. فإذا كان ذلك كذلك, فحيث كان من فـي الأرض موجودا حالاًّ, فذلك الـمكان من الأرض مستقرّه.
إنـما عنى الله جل ثناؤه بذلك: أن لهم فـي الأرض مستقرّا ومنزلاً بأماكنهم ومستقرّهم من الـجنة والسماء, وكذلك قوله وَمَتَاعٌ يعنـي به أن لهم فـيها متاعا بـمتاعهم فـي الـجنة.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ.
قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك فقال بعضهم: ولكم فـيها بلاغ إلـى الـموت. ذكر من قال ذلك:
522ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي قوله: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ قال يقول: بلاغ إلـى الـموت.
523ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيـل, عن إسماعيـل السدي, قال: حدثنـي من سمع ابن عبـاس: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ قال: الـحياة.
وقال آخرون: يعنـي بقوله: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ: إلـى قـيام الساعة. ذكر من قال ذلك:
524ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ قال: إلـى يوم القـيامة إلـى انقطاع الدنـيا.
وقال آخرون إلـى حين, قال: إلـى أجل. ذكر من قال ذلك:
525ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ قال: إلـى أجل.
والـمتاع فـي كلام العرب: كل ما استـمتع به من شيء من معاش استـمتع به أو رياش أو زينة أو لذّة أو غير ذلك. فإذا كان ذلك كذلك, وكان الله جل ثناؤه قد جعل حياة كل حيّ متاعا له يستـمتع بها أيام حياته, وجعل الأرض للإنسان متاعا أيام حياته بقراره علـيها, واغتذائه بـما أخرج الله منها من

الأقوات والثمار, والتذاذه بـما خـلق فـيها من الـملاذ وجعلها من بعد وفـاته لـجثته كِفـاتا, ولـجسمه منزلاً وقرارا, وكان اسم الـمتاع يشمل جميع ذلك كان أولـى التأويلات بـالآية. إذْ لـم يكن الله جل ثناؤه وضع دلالة دالّة علـى أنه قصد بقوله: وَمَتَاعٌ إلـى حِينٍ بعضا دون بعض, وخاصّا دون عام فـي عقل ولا خبر أن يكون ذلك فـي معنى العام, وأن يكون الـخبر أيضا كذلك إلـى وقت يطول استـمتاع بنـي آدم وبنـي إبلـيس بها, وذلك إلـى أن تبدّل الأرض غير الأرض. فإذْ كان ذلك أولـى التأويلات بـالآية لـما وصفنا, فـالواجب إذا أن يكون تأويـل الآية: ولكن فـي الأرض منازل ومساكن, تستقرّون فـيها استقراركم كان فـي السموات, وفـي الـجنات فـي منازلكم منها, واستـمتاع منكم بها وبـما أخرجت لكم منها, وبـما جعلت لكم فـيها من الـمعاش والرياش والزّيْن والـملاذ, وبـما أعطيتكم علـى ظهرها أيام حياتكم ومن بعد وفـاتكم لأرماسكم وأجداثكم, تُدفنون فـيها وتبلغون بـاستـمتاعكم بها إلـى أن أبدّلكم بها غيرها.

الآية : 37

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{فَتَلَقّىَ آدَمُ مِن رّبّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ }

قال أبو جعفر: أما تأويـل قوله: فَتَلَقّـى آدَمُ فقـيـل إنه أخذ وقبل, وأصله التفعل من اللقاء كما يتلقـى الرجل الرجل يستقبله عند قدومه من غيبة أو سفر, فكذلك ذلك فـي قوله: فَتَلَقّـى كأنه استقبله فتلقاه بـالقبول, حين أوحى إلـيه, أو أخبر به. فمعنى ذلك إذا: فلقّـى الله آدمَ كلـمات توبة فتلقاها آدم من ربه وأخذها عنه تائبـا فتاب الله علـيه بقـيـله إياها وقبوله إياها من ربه. كما:

526ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ الآية, قال: لقاهما هذه الآية: ربنا ظلـمنا أنفسنا وإن لـم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الـخاسرين.

وقد قرأ بعضهم: «فَتَلَقّـى آدَمَ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٌ» فجعل الكلـمات هي الـمتلقـية آدم. وذلك وإن كان من وجهة العربـية جائزا إذ كان كل ما تلقاه الرجل فهو له متلق وما لقـيه فقد لقـيه, فصار للـمتكلـم أن يوجه الفعْل إلـى أيهما شاء ويخرج من الفعل أيهما أحب, فغير جائز عندي فـي القراءة إلا رفع «آدم» علـى أنه الـمتلقـي الكلـمات لإجماع الـحجة من القراء وأهل التأويـل من علـماء السلف والـخـلف علـى توجيه التلقـي إلـى آدم دون الكلـمات, وغير جائز الاعتراض علـيها فـيـما كانت علـيه مـجمعة بقول من يجوز علـيه السهو والـخطأ.

واختلف أهل التأويـل فـي أعيان الكلـمات التـي تلقاها آدم من ربه, فقال بعضهم بـما:

527ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا ابن عطية, عن قـيس, عن ابن أبـي لـيـلـى, عن الـمنهال بن عمرو, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ فَتابَ عَلَـيْهِ قال: أي ربّ ألـم تـخـلقنـي بـيدك؟ قال: بلـى, قال: أي ربّ ألـم تنفخ فـيّ من روحك؟ قال: بلـى, قال: أي ربّ ألـم تسكنـي جنتك؟ قال: بلـى, أي ربّ ألـم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلـى, قال: أرأيت إن أنا تبت وأصلـحت أراجعي أنت إلـى الـجنة؟ قال: نعم. قال: فهو قوله: فَتَلَقّـى آدمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ.

وحدثنـي علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم, قال: حدثنا مـحمد بن مصعب, عن قـيس بن الربـيع, عن عاصم بن كلـيب, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس نـحوه.

528ـ وحدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ فَتابَ عَلَـيْهِ قال: إن آدم قال لربه إذ عصاه ربّ أرأيت إن أنا تبت وأصلـحت؟ فقال له ربه: إنـي راجعك إلـى الـجنة.

529ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: فَتَلَقّـى آدَمُ منْ رَبّهِ كَلِـماتٍ ذكر لنا أنه قال: يا ربّ أرأيت إن أنا تبت وأصلـحت؟ قال: إنـي إذا راجعك إلـى الـجنة. قال: وقال الـحسن إنهما قالا: رَبّنا ظَلَـمْنا أنْفُسَنا وَإنْ لَـمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنّ مِنَ الـخاسِرِينَ.

530ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ قال: إن آدم لـما أصاب الـخطيئة, قال: يا ربّ أرأيت إن تبت وأصلـحت؟ فقال الله: إذا أرجعك إلـى الـجنة. فهي من الكلـمات. ومن الكلـمات أيضا: رَبّنا ظَلَـمْنا أنْفُسَنا وَإنْ لَـمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنّ مِنَ الـخَاسِرِينَ.

531ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ قال: ربّ ألـم تـخـلقنـي بـيدك؟ قـيـل له: بلـى, قال: ونفخت فـيّ من روحك؟ قـيـل له: بلـى, قال: وسبقت رحمتك غضبك؟ قـيـل له: بلـى, قال: ربّ هل كنت كتبت هذا علـيّ؟ قـيـل له: نعم, قال: ربّ إن تبت وأصلـحت هل أنت راجعي إلـى الـجنة؟ قـيـل له: نعم. قال الله تعالـى: ثُمّ اجْتَبـاهُ رَبهُ فَتابَ عَلَـيْهِ وَهَدَى.

وقال آخرون بـما:

532ـ حدثنا به مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, عن عبد العزيز بن رفـيع, قال: حدثنـي من سمع عبـيد بن عمير, يقول: قال آدم: يا ربّ خطيئتـي التـي أخطأتها أشيء كتبته علـيّ قبل أن تـخـلقنـي, أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟ قال: بلـى شيء كتبته علـيك قبل أن أخـلقك. قال: فكما كتبته علـيّ فـاغفره لـي قال: فهو قول الله: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كلِـماتٍ.

وحدثنا ابن سنان, قال: حدثنا مؤمل, قال: حدثنا سفـيان, عن عبد العزيز بن رفـيع, قال: أخبرنـي من سمع عبـيد بن عمير بـمثله.

وحدثنا ابن سنان, قال: حدثنا وكيع بن الـجرّاح, قال: حدثنا سفـيان, عن عبد العزيز بن رفـيع, عمن سمع عبـيد بن عمير يقول: قال آدم, فذكر نـحوه.

وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, عن عبد العزيز بن رفـيع, قال: أخبرنـي من سمع عبـيد الله بن عمير بنـحوه.

وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا الثوري, عن عبد العزيز, عن عبـيد بن عمير بـمثله.

وقال آخرون بـما:

533ـ حدثنـي به أحمد بن عثمان بن حكيـم الأودي, قال: حدثنا عبد الرحمن بن شريك, قال: حدثنا أبـي, قال: حدثنا حصين بن عبد الرحمن, عن حميد بن نبهان, عن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية أنه قال: قوله:

فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ فَتاب عَلَـيْهِ قال آدم: اللهمّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك, أستغفرك وأتوب إلـيك, تب علـيّ إنك أنت التوّاب الرحيـم.

534ـ وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو غسان, قال: أنبأنا أبو زهير, وحدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: أخبرنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان وقـيس جميعا عن خصيف, عن مـجاهد فـي قوله: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ قال قوله: رَبّنا ظَلَـمْنا أنْفُسنَا وَإنْ لَـمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا حتـى فرغ منها.

535ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنـي شبل, عن ابن نـجيح, عن مـجاهد, كان يقول فـي قول الله: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ الكلـمات: اللهمّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك, ربّ إنـي ظلـمت نفسي فـاغفر لـي إنك خير الغافرين. اللهمّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك, ربـي إنـي ظلـمت نفسي فـارحمنـي إنك خير الراحمين. اللهمّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك, ربّ إنـي ظلـمت نفسي فتب علـيّ إنك أنت التوّاب الرحيـم.

وحدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبـي, عن النضر بن عربـي, عن مـجاهد: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ قال: هو قوله: ربنا ظَلَـمْنا أنْفُسَنا وَإنْ لَـمْ تَغفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا الآية.

536ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: فَتَلَقّـى آدَمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ قال: أي ربّ أتتوب علـيّ إن تبت؟ قال: نعم فتاب آدم, فتاب علـيه ربه.

537ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فَتَلَقّـى آدمُ مِنْ رَبّهِ كَلِـماتٍ قال: هو قوله: ربّنا ظَلَـمْنا أنْفُسَنا وإن لَـمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنّ مِنَ الـخَاسِرِينَ.

538ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: هو قوله: رَبّنا ظَلَـمْنا أنْفُسَنا وَإنْ لَـمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنّ مِنَ الـخاسِرِينَ.

وهذه الأقوال التـي حكيناها عمن حكيناها عنه وإن كانت مختلفة الألفـاظ, فإن معانـيها متفقة فـي أن الله جل ثناؤه لقّـى آدم كلـمات, فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن وتاب بقـيـله إياهن وعمله بهن إلـى الله من خطيئته, معترفـا بذنبه, متنصلاً إلـى ربه من خطيئته, نادما علـى ما سلف منه من خلاف أمره. فتاب الله علـيه بقبوله الكلـمات التـي تلقاهن منه وندمه علـى سالف الذنب منه.

والذي يدلّ علـيه كتاب الله أن الكلـمات التـي تلقاهن آدم من ربه هنّ الكلـمات التـي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقـيـلها إلـى ربه معترفـا بذنبه, وهو قوله: رَبّنا ظَلَـمْنَا أنْفُسَنا وَإنْ لَـمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكونَن مِنَ الـخَاسِرِينَ ولـيس ما قاله من خالف قولنا هذا من الأقوال التـي حكيناها بـمدفوع قوله, ولكنه قول لا شاهد علـيه من حجة يجب التسلـيـم لها فـيجوز لنا إضافته إلـى آدم, وأنه مـما تلقاه من ربه عند إنابته إلـيه من ذنبه.

وهذا الـخبر الذي أخبر الله عن آدم من قـيـله الذي لقاه إياه فقاله تائبـا إلـيه من خطيئته, تعريف منه جل ذكره جميع الـمخاطبـين بكتابه كيفـية التوبة إلـيه من الذنوب, وتنبـيه للـمخاطبـين بقوله: كَيْفَ تَكْفُرونَ بـاللّهِ وكُنْتُـمْ أمْوَاتا فأحْياكُمْ علـى موضع التوبة مـما هم علـيه من الكفر بـالله,

وأن خلاصهم مـما هم علـيه مقـيـمون من الضلالة نظير خلاص أبـيهم آدم من خطيئته مع تذكيره إياهم من السالف إلـيهم من النعم التـي خصّ بها أبـاهم آدم وغيره من آبـائهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَتابَ عَلَـيْهِ.

قال أبو جعفر: وقوله: فَتابَ عَلَـيْهِ يعنـي علـى آدم, والهاء التـي فـي «علـيه» عائدة علـى «آدم». وقوله: فَتابَ عَلَـيْهِ يعنـي رزقه التوبة من خطيئته. والتوبة معناها الإنابة إلـى الله والأوبة إلـى طاعته مـما يكره من معصيته.

قال أبو جعفر وتأويـل قوله: إنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيـمُ أن الله جل ثناؤه هو التواب علـى من تاب إلـيه من عبـاده الـمذنبـين من ذنوبه التارك مـجازاته بإنابته إلـى طاعته بعد معصيته بـما سلف من ذنبه.

وقد ذكرنا أن معنى التوبة من العبد إلـى ربه: إنابته إلـى طاعته, وأوبته إلـى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التـي كان علـيها مقـيـما مـما يكرهه ربه, فكذلك توبة الله علـى عبده هو أن يرزقه ذلك, ويتوب من غضبه علـيه إلـى الرضا عنه, ومن العقوبة إلـى العفو والصفح عنه.

وأما قوله: الرّحِيـمُ فإنه يعنـي أنه الـمتفضل علـيه مع التوبة بـالرحمة, ورحمته إياه إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه.

الآية : 38

القول فـي تأويـل قوله:{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

فـيـما مضى فلا حاجة بنا إلـى إعادته, إذ كان معناه فـي هذا الـموضع هو معناه فـي ذلك الـموضع. وقد:

539ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا إسماعيـل بن سالـم, عن أبـي صالـح فـي قوله: اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعا قال: آدم, وحوّاء, والـحية, وإبلـيس.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فإمّا يَأْتِـيَنّكُمْ مِنّـي هُدًى.

قال أبو جعفر: وتأويـل قوله: فإمّا يأتِـيَنّكُمْ فإن يأتكم, و«ما» التـي مع «إن» توكيد للكلام, ولدخولها مع «إن» أدخـلت النون الـمشددة فـي «يأتـينكم» تفرقة بدخولها بـين «ما» التـي تأتـي بـمعنى توكيد الكلام التـي تسميها أهل العربـية صلة وحشوا, وبـين «ما» التـي تأتـي بـمعنى «الذي», فتؤذن بدخولها فـي الفعل, أن «ما» التـي مع «إن» التـي بـمعنى الـجزاء توكيد, ولـيست «ما» التـي بـمعنى «الذي».

وقد قال بعض نـحويـي البصريـين: إنّ «إما» «إن» زيدت معها «ما», وصار الفعل الذي بعده بـالنون الـخفـيفة أو الثقـيـلة, وقد يكون بغير نون. وإنـما حسنت فـيه النون لـمّا دخـلته «ما», لأن «ما» نفـي, فهي مـما لـيس بواجب, وهي الـحرف الذي ينفـي الواجب, فحسنت فـيه النون, نـحو قولهم: «بعين ما أرينك» حين أدخـلت فـيها «ما» حسنت النون فـيـما هنا. وقد أنكر جماعة من أهل العربـية دعوى قائلـي هذه الـمقالة أن «ما» التـي مع «بعين ما أريتّك» بـمعنى الـجحد, وزعموا أن ذلك بـمعنى التوكيد للكلام.

وقال آخرون: بل هو حشو فـي الكلام, ومعناها الـحذف, وإنـما معنى الكلام: بعين أراك, وغير جائز أن يجعل مع الاختلاف فـيه أصلاً يقاس علـيه غيره.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مِنّـي هُدًى فَمَنْ تَبِع هُداي فَلا خَوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.
قال أبو جعفر: والهدى فـي هذا الـموضع البـيان والرشاد, كما:
540ـ حدثنا الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: فإمّا يَأْتِـيَنكُمْ مِنّـي هُدًى قال: الهدى: الأنبـياء والرسل والبـيان.
فإن كان ما قال أبو العالـية فـي ذلك كما قال, فـالـخطاب بقوله: اهْبِطُوا وإن كان لاَدم وزوجته, فـيجب أن يكون مرادا به آدم وزوجته وذرّيتهما. فـيكون ذلك حينئذٍ نظير قوله: فَقالَ لَهَا وللأرْضِ ائْتِـيا طَوْعا أوْ كَرْها قالَتا أتَـيْنا طائِعِينَ بـمعنى أتـينا بـما فـينا من الـخـلق طائعين. ونظير قوله فـي قراءة ابن مسعود: «رَبّنا وَاجْعَلْنَا مُسْلِـمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنا أمةً مُسْلِـمَةً لَكَ وأرِهِمْ مَناسِكَهُمْ» فجمع قبل أن تكون ذرية, وهو فـي قراءتنا: وأرِنا مَناسِكَنَا وكما يقول القائل لاَخر: كأنك قد تزوّجت وولد لك وكثرتـم وعززتـم. ونـحو ذلك من الكلام.
وإنـما قلنا إن ذلك هو الواجب علـى التأويـل الذي ذكرناه عن أبـي العالـية لأن آدم كان هو النبـي صلى الله عليه وسلم أيام حياته بعد أن أهبط إلـى الأرض, والرسول من الله جل ثناؤه إلـى ولده, فغير جائز أن يكون معنـيا وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: فإما يَأتَـيّنَكُمْ مِنّـي هُدًى خطابـا له ولزوجته: فإما يأتـينكم منـي هدى أنبـياء ورسل إلا علـى ما وصفت من التأويـل.
وقول أبـي العالـية فـي ذلك وإن كان وجها من التأويـل تـحتـمله الآية, فأقرب إلـى الصواب منه عندي وأشبه بظاهر التلاوة أن يكون تأويـلها: فإما يأتـينكم منـي يا معشر من أهبطته إلـى الأرض من سمائي, وهو آدم وزوجته وإبلـيس, كما قد ذكرنا قبل فـي تأويـل الآية التـي قبلها: إما يأتـينكم منـي بـيان من أمري وطاعتـي ورشاد إلـى سبـيـلـي ودينـي, فمن اتبعه منكم فلا خوف علـيهم ولا هم يحزنون, وإن كان قد سلف منهم قبل ذلك إلـيّ معصية وخلاف لأمري وطاعتـي. يعرّفهم بذلك جل ثناؤه أنه التائب علـى من تاب إلـيه من ذنوبه, والرحيـم لـمن أناب إلـيه كما وصف نفسه بقوله: إنه هُوَ التّوّاب الرّحِيـمُ. وذلك أن ظاهر الـخطاب بذلك إنـما هو للذين قال لهم جل ثناؤه: اهْبِطُوا مِنْهَا جِمِيعا والذين خوطبوا به هم من سمينا فـي قول الـحجة من الصحابة والتابعين الذين قد قدمنا الرواية عنهم. وذلك وإن كان خطابـا من الله جل ذكره لـمن أهبط حينئذٍ من السماء إلـى الأرض, فهو سنة الله فـي جميع خـلقه, وتعريف منه بذلك للذين أخبر عنهم فـي أول هذه السورة بـما أخبر عنهم فـي قوله: إنّ الّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَـيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَـمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وفـي قوله: وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بـاللّهِ وبـالْـيَوْمِ الاَخِرِ وَما هُمْ بِـمُؤْمِنِـينَ وأن حكمه فـيهم إن تابوا إلـيه وأنابوا واتبعوا ما أتاهم من البـيان من عند الله, علـى لسان رسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم, أنهم عنده فـي الاَخرة, مـمن لا خوف علـيهم ولا هم يحزنون, وأنهم إن هلكوا علـى كفرهم وضلالتهم قبل الإنابة والتوبة, كانوا من أهل النار الـمخـلدين فـيها.
وقوله: فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ يعنـي فمن اتبع بـيانـي الذي أبـينه علـى ألسن رسلـي أو مع رسلـي, كما:

541ـ حدثنا به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ يعنـي بـيانـي.
وقوله: فَلاَ خَوْف عَلَـيْهِمْ يعنـي فهم آمنون فـي أهوال القـيامة من عقاب الله غير خائفـين عذابه, بـما أطاعوا الله فـي الدنـيا واتبعوا أمره وهداه وسبـيـله ولا هم يحزنون يومئذٍ علـى ما خالفوا بعد وفـاتهم فـي الدنـيا, كما:
542ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لا خَوْفٌ عَلَـيْهِمْ يقول لا خوف علـيكم أمامكم, ولـيس شيء أعظم فـي صدر الذي يـموت مـما بعد الـموت, فأمّنهم منه وسلاّهم عن الدنـيا, فقال: وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

الآية : 39

وقوله: {وَالّذِينَ كَفَرواْ وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُولَـَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {
يعنـي: والذين جحدوا آياتـي وكذّبوا رسلـي, وآيات الله: حججه وأدلته علـى وحدانـيته وربوبـيته, وما جاءت به الرسل من الأعلام والشواهد علـى ذلك, وعلـى صدقها فـيـما أنبأت عن ربها. وقد بـينا أن معنى الكفر: التغطية علـى الشيء. أولَئِكَ أصْحابُ النّارِ يعنـي أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم الـمخـلدون فـيها أبدا إلـى غير أمد ولا نهاية, كما:
543ـ حدثنا به عقبة بن سنان البصري, قال: حدثنا غسان بن مضر, قال: حدثنا سعيد بن يزيد, وحدثنا سوار بن عبد الله العنبري, قال: حدثنا بشر بن الـمفضل, قال: حدثنا أبو مسلـمة سعيد بن يزيد, وحدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, وأبو بكر بن عون, قالا: حدثنا إسماعيـل بن علـية, عن سعيد بن يزيد, عن أبـي نضرة, عن أبـي سعيد الـخدري, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمّا أهْلُ النّارِ الّذِينَ هَمْ أهْلُها فإنَهُمْ لاَ يَـمُوتُونَ فِـيها وَلاَ يَحْيَوْنَ وَلَكِنّ أقْوَاما أصَابَتْهُمُ النارُ بِخَطاياهُمْ أوْ بِذُنُوبِهِمْ فأماتَتْهُمْ إماتَةً حتـى إذَا صَارُوا فَحْما أذِنَ فِـي الشفـاعَة».

الآية : 40

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيّايَ فَارْهَبُونِ }
قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل ثناؤه: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ: يا ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيـم خـلـيـل الرحمن وكان يعقوب يدعى إسرائيـل, بـمعنى عبد الله وصفوته من خـلقه وإيـل هو الله وإسرا: هو العبد, كما قـيـل جبريـل بـمعنى عبد الله. وكما:
544ـ حدثنا ابن حميد, حدثنا جرير عن الأعمش, عن إسماعيـل بن رجاء, عن عمير مولـى ابن عبـاس, عن ابن عبـاس: إن إسرائيـل كقولك عبد الله.
545ـ وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن عبد الله بن الـحارث, قال: إيـل: الله بـالعبرانـية.
وإنـما خاطب الله جل ثناؤه بقوله: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ أحبـار الـيهود من بنـي إسرائيـل الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم, فنسبهم جلّ ذكره إلـي يعقوب, كما نسب ذرية آدم إلـى آدم, فقال: يا بَنِـي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلّ مَسْجِدٍ وما أشبه ذلك. وإنـما خصهم بـالـخطاب فـي هذه الآية والتـي بعدها من الآَي التـي ذكرهم فـيها نعمه,

وإن كان قد تقدم ما أنزل فـيهم وفـي غيرهم فـي أول هذه السورة ما قد تقدم أن الذي احتـجّ به من الـحجج والآيات التـي فـيها أنبـاء أسلافهم وأخبـار أوائلهم, وقصص الأمور التـي هم بعلـمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمـم لـيس عند غيرهم من العلـم بصحته, وحقـيقته مثل الذي لهم من العلـم به إلا لـمن اقتبس علـم ذلك منهم. فعرّفهم بـاطلاع مـحمد علـى علـمها مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها, وقلة مزاولة مـحمد صلى الله عليه وسلم دراسة الكتب التـي فـيها أنبـاء ذلك, أن مـحمدا صلى الله عليه وسلم لـم يصل إلـى علـم ذلك إلا بوحي من الله وتنزيـل منه ذلك إلـيه لأنهم من علـم صحة ذلك بـمـحل لـيس به من الأمـم غيرهم. فلذلك جل ثناؤه خصّ بقوله: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ خطابهم كما:

546ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير عن ابن عبـاس قوله: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ قال: يا أهل الكتاب للأحبـار من يهود.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: اذْكُرُوا نِعْمَتِـي التِـي أنْعَمْتُ عَلَـيْكُمْ.

قال أبو جعفر: ونعمته التـي أنعم بها علـى بنـي إسرائيـل جل ذكره اصطفـاؤه منهم الرسل, وإنزاله علـيهم الكتب, واستنقاذه إياهم مـما كانوا فـيه من البلاء والضرّاء من فرعون وقومه, إلـى التـمكين لهم فـي الأرض, وتفجير عيون الـماء من الـحجر, وإطعام الـمنّ والسلوى. فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلـى آبـائهم علـى ذكر, وأن لا ينسوا صنـيعه إلـى أسلافهم وآبـائهم, فـيحلّ بهم من النقم ما أحل بـمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها وجحد صنائعه عنده. كما:

547ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: اذْكُرُوا نَعْمَتِـي التـي أنْعَمْتُ عَلَـيْكُمْ أي آلائي عندكم وعند آبـائكم لـما كان نـجاهم به من فرعون وقومه.

548ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: اذْكُرُوا نِعْمَتِـيَ قال: نعمته أن جعل منهم الأنبـياء والرسل, وأنزل علـيهم الكتب.

549ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: اذْكُرُوا نِعْمَتِـيَ التِـي أنْعَمْتُ عَلَـيْكُمْ يعنـي نعمته التـي أنعم علـى بنـي إسرائيـل فـيـما سمي وفـيـما سوى ذلك, فجر لهم الـحجر, وأنزل علـيهم الـمنّ والسلوى, وأنـجاهم عن عبودية آل فرعون.

550ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: نِعمتـي الّتِـي أنْعَمْتُ عَلَـيْكُمْ قال: نعمه عامة, ولا نعمة أفضل من الإسلام, والنعم بعد تبعَ لها. وقرأ قول الله يَـمُنّونَ عَلَـيْكَ أنْ أسْلَـمُوا قُلْ لاَ تَـمُنّوا عَلَـيّ إسْلاَمَكُمْ الآية. وتذكير الله الذين ذكرهم جل ثناؤه بهذه الآية من نعمه علـى لسان رسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم, نظير تذكير موسى صلوات الله علـيه أسلافهم علـى عهده الذي أخبر الله عنه أنه قال لهم. وذلك قوله: وَإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَـيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِـيكُمْ أنْبِـياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلوكا وآتاكُمْ ما لَـمْ يُؤْتِ أحَدا مِنَ العَالَـمِينَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ.

قال أبو جعفر: قد تقدم بـيانا معنى العهد فـيـما مضى من كتابنا هذا واختلاف الـمختلفـين فـي تأويـله والصوابُ عندنا من القول فـيه. وهو فـي هذا الـموضع عهد الله ووصيته التـي أخذ علـى بنـي إسرائيـل فـي التوراة أن يبـينوا للناس أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول, وأنهم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة أنه نبـيّ الله, وأن يؤمنوا به وبـما جاء به من عند الله. أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وعهده إياهم: أنهم إذا فعلوا ذلك أدخـلهم الـجنة, كما قال جل ثناؤه: وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَـي عَشَرَ نَقِـيبـا الآية, وكما قال: فَسأكْتُبُها للّذِينَ يَتّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَالّذِينَ هُمْ بآياتنا يُؤْمِنُونَ الّذِينَ يَتّبِعُونَ الرّسُولَ النّبِـيّ الأمّيّ الآية. وكما:

551ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وأوْفُوا بعَهْدِي الذي أخذت فـي أعناقكم للنبـي صلى الله عليه وسلم إذا جاءكم. أُوفِ بعَهْدِكُمْ: أي أنـجز لكم ما وعدتكم علـيه بتصديقه واتبـاعه, بوضع ما كان علـيكم من الإصر والأغلال التـي كانت فـي أعناقكم بذنوبكم التـي كانت من أحداثكم.

552ـ وحدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: أوفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ قال: عهده إلـى عبـاده: دين الإسلام أن يتبعوه. أُوفِ بِعَهْدِكُمْ يعنـي الـجنة.

553ـ وحدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أوْفُوا بعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ أما أوفوا بعهدي: فما عهدت إلـيكم فـي الكتاب, وأما أوف بعهدكم: فـالـجنة, عهدت إلـيكم أنكم إن عملتـم بطاعتـي أدخـلتكم الـجنة.

554ـ وحدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج فـي قوله: وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ قال: ذلك الـميثاق الذي أخذ علـيهم فـي الـمائدة وَلَقَدْ أخَذَ اللّهُ مِيثاقَ بَنـي إسْرَائِيـلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَـي عَشَرَ نَقِـيبـا إلـى آخر الآية. فهذا عهد الله الذي عهد إلـيهم, وهو عهد الله فـينا, فمن أوفـى بعهد الله وفـى الله له بعهده.

555ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وأوفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ يقول: أوفوا بـما أمرتكم به من طاعتـي ونهيتكم عنه من معصيتـي فـي النبـي صلى الله عليه وسلم وفـي غيره أوف بعهدكم يقول: أرض عنكم وأدخـلكم الـجنة.

556ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وأوْفوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ قال: أوفوا بأمري, أوف بـالذي وعدتكم, وقرأ: إنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الـمُؤْمِنِـينَ أنُفُسَهُمْ وأمْوَالَهُمْ حتـى بلغ: وَمَنْ أوْفـى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ قال: هذا عهده الذي عهده لهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإِيّايَ فـارْهَبُونِ.

قال أبو جعفر: وتأويـل قوله: وَإِيّايَ فَـارْهَبُونِ وإياي فـاخشوا, واتقوا أيها الـمضيعون عهدي من بنـي إسرائيـل والـمكذّبون رسولـي الذي أخذت ميثاقكم فـيـما أنزلت من الكتب علـى أنبـيائي أن تؤمنوا به وتتبعوه, أن أحلّ بكم من عقوبتـي, إن لـم تنـيبوا وتتوبوا إلـيّ بـاتبـاعه والإقرار بـما أنزلت إلـيه ما أحللت بـمن خالف أمري وكذّب رسلـي من أسلافكم. كما:

557ـ حدثنـي به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَإِيّايَ فَـارْهَبُونِ أن أنزل بكم ما أنزلت بـمن كان قبلكم من آبـائكم من النقمات التـي قد عرفتـم من الـمسخ وغيره.

558ـ وحدثنا الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنـي آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وَإِيّايَ فَـارْهَبُونِ يقول: فـاخشون.

559ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَإِيّايَ فَـارْهَبُونِ بقول: وإياي فـاخشون.

الآية : 41

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَآمِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدّقاً لّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوَاْ أَوّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيّايَ فَاتّقُونِ }

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: آمِنُوا: صدّقوا, كما قد قدمنا البـيان عنه قبل. ويعنـي بقوله: بـمَا أنْزَلْت: ما أنزل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم من القرآن. ويعنـي بقوله: مُصَدّقا لِـمَا مَعَكُمْ أن القرآن مصدّق لـما مع الـيهود من بنـي إسرائيـل من التوراة. فأمرهم بـالتصديق بـالقرآن, وأخبرهم جل ثناؤه أن فـي تصديقهم بـالقرآن تصديقا منهم للتوراة لأن الذي فـي القرآن من الأمر بـالإقرار بنبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه واتبـاعه نظير الذي من ذلك فـي الإنـجيـل والتوراة. ففـي تصديقهم بـما أنزل علـى مـحمد تصديق منهم لـما معهم من التوراة, وفـي تكذيبهم به تكذيب منهم لـما معهم من التوراة. وقوله: مُصَدّقا قَطْعٌ من الهاء الـمتروكة فـي أنْزَلْتُهُ من ذكر «ما». ومعنى الكلام: وآمنوا بـالذي أنزلته مصدّقا لـما معكم أيها الـيهود. والذي معهم هو التوراة والإنـجيـل. كما:

560ـ حدثنا به مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَآمِنُوا بِـمَا أنْزَلْتُ مُصَدّقا لِـمَا مَعَكُمْ يقول: إنـما أنزلت القرآن مصدقا لـما معكم التوراة والإنـجيـل.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

561ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: أخبرنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وآمِنُوا بِـمَا أنْزَلْتُ مُصَدّقا لِـمَا مَعَكُمْ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بـما أنزلت علـى مـحمد مصدّقا لـما معكم. يقول: لأنهم يجدون مـحمدا صلى الله عليه وسلم مكتوبـا عندهم فـي التوراة والإنـجيـل.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلاَ تَكُونُوا أولَ كافِرٍ بِهِ.

قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: كيف قـيـل: وَلاَ تَكُونُوا أولَ كافِرٍ بِهِ والـخطاب فـيه لـجمع وكافر واحد؟ وهل نـجيز إن كان ذلك جائزا أن يقول قائل: لا تكونوا أوّل رجل قام؟ قـيـل له: إنـما يجوز توحيد ما أضيف له «أفعل», وهو خبر لـجمع, إذا كان مشتقا من «فعل» و«يفعل» لأنه يؤدي عن الـمراد معه الـمـحذوف من الكلام, وهو «مَنْ», ويقوم مقامه فـي الأداء عن معنى ما كان يؤدي عنه «مَنْ» من الـجمع والتأنـيث وهو فـي لفظ

واحد. ألا ترى أنك تقول: ولا تكونوا أوّل من يكفر به, فـ«مَنْ» بـمعنى جمع وهو غير متصرّف تصرّف الأسماء للتثنـية والـجمع والتأنـيث. فإذا أقـيـم الاسم الـمشتق من فعل ويفعل مقامه, جرى وهو موحد مـجراه فـي الأداء عما كان يؤدّي عنه من معنى الـجمع والتأنـيث, كقولك: الـجيش ينهزم, والـجند يقبل فتوحد الفعل لتوحيد لفظ الـجيش والـجند, وغير جائز أن يقال: الـجيش رجل, والـجند غلام, حتـى تقول: الـجند غلـمان, والـجيش رجال لأن الواحد من عدد الأسماء التـي هي غير مشتقة من فعل ويفعل لا يؤدي عن معنى الـجماعة منهم, ومن ذلك قول الشاعر:

وَإذَا هُمُ طَعِمُوا فألأَمُ طاعِمٍوَإذَا هُمُ جاعُوا فَشَرّ جِياعِ

فوحد مرّة علـى ما وصفت من نـية «مَنْ», وإقامة الظاهر من الاسم الذي هو مشتقّ من فعل ويفعل مقامه. وجمع أخرى علـى الإخراج علـى عدد أسماء الـمخبر عنهم. ولو وحد حيث جمع أو جمع حيث وحد كان صوابـا جائزا. فأما تأويـل ذلك فإنه يعنـي به: يا معشر أحبـار أهل الكتاب صدّقوا بـما أنزلت علـى رسولـي مـحمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الـمصدّق كتابكم, والذي عندكم من التوراة والإنـجيـل الـمعهود إلـيكم فـيهما أنه رسولـي ونبـي الـمبعوث بـالـحقّ, ولا تكونوا أوّل من كذّب به وجحد أنه من عندي وعندكم من العلـم به ما لـيس عند غيركم. وكفرُهم به: جحودهم أنه من عند الله, والهاء التـي فـي «به» من ذكر «ما» التـي مع قوله: وآمِنُوا بِـمَا أنْزَلْتُ. كما:

562ـ حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, قال: قال ابن جريج فـي قوله: وَلا تَكُونُوا أولَ كَافِرٍ بِهِ بـالقرآن.

قال أبو جعفر: ورُوي عن أبـي العالـية فـي ذلك ما:

563ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلاَ تَكُونُوا أولَ كافِرٍ بِهِ يقول: لا تكونوا أوّل من كفر بـمـحمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم: وَلا تَكُونُوا أولَ كافِرٍ بِهِ يعنـي بكتابكم, ويتأوّل أن فـي تكذيبهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم تكذيبـا منهم بكتابهم لأن فـي كتابهم الأمر بـاتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم.

وهذان القولان من ظاهر ما تدلّ علـيه التلاوة بعيدان. وذلك أن الله جل ثناؤه أمر الـمخاطبـين بهذه الآية فـي أوّلها بـالإيـمان بـما أنزل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم, فقال جل ذكره: وَآمِنُوا بِـمَا أنْزَلْتُ مُصَدّقا لِـمَا مَعَكُمْ ومعقول أن الذي أنزله الله فـي عصر مـحمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن لا مـحمد, لأن مـحمدا صلوات الله علـيه رسول مرسل لا تنزيـلٌ مُنزل, والـمنزل هو الكتاب. ثم نهاهم أن يكونوا أوّل من يكفر بـالذي أمرهم بـالإيـمان به فـي أوّل الآية من أهل الكتاب. فذلك هو الظاهر الـمفهوم, ولـم يجر لـمـحمد صلى الله عليه وسلم فـي هذه الآية ذكر ظاهر فـيعاد علـيه بذكره مكنـيّا فـي قوله: وَلا تَكُونُوا أوّلَ كافِرٍ بِهِ وإن كان غير مـحال فـي الكلام أن يذكر مكنـيّ اسم لـم يجر له ذكر ظاهر فـي الكلام. وكذلك لا معنى لقول من زعم أن العائد من الذكر فـي «به» علـى «ما» التـي فـي قوله: لِـمَا مَعَكُمْ لأنّ ذلك وإن كان مـحتـملاً ظاهر الكلام فإنه بعيد مـما يدلّ علـيه ظاهر التلاوة والتنزيـل, لـما وصفنا قبل من أن الـمأمور بـالإيـمان به فـي أوّل الآية هو القرآن, فكذلك الواجب أن يكون الـمنهي عن الكفر به

فـي آخرها هو القرآن. وأما أن يكون الـمأمور بـالإيـمان به غير الـمنهي عن الكفر به فـي كلام واحد وآية واحدة, فذلك غير الأشهر الأظهر فـي الكلام, هذا مع بعد معناه فـي التأويـل.

564ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَآمِنُوا بِـمَا أنْزَلْتَ مصَدّقا لِـمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أولَ كافِرٍ بِهِ وعندكم فـيه من العلـم ما لـيس عند غيركم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِـي ثَمَنا قَلِـيلاً.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك:

565ـ فحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية وَلاَ تَشْتَرُوا بآياتِـي ثَمَنا قَلِـيلاً يقول: لا تأخذوا علـيه أجرا. قال: هو مكتوب عندهم فـي الكتاب الأول: يا ابن آدم عَلّـمْ مـجانا كما عُلّـمْتَ مَـجّانا.

وقال آخرون بـما:

566ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِـي ثَمَنا قَلِـيلاً يقول: لا تأخذوا طمعا قلـيلاً وتكتـموا اسم الله. فذلك الطمع هو الثمن.

فتأويـل الآية إذا: لا تبـيعوا ما آتـيتكم من العلـم بكتابـي وآياته بثمن خسيس وعرض من الدنـيا قلـيـل. وبـيعهم إياه تركهم إبـانة ما فـي كتابهم من أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم للناس, وأنه مكتوب فـيه أنه النبـيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة والإنـجيـل بثمن قلـيـل, وهو رضاهم بـالرياسة علـى أتبـاعهم من أهل ملتهم ودينهم, وأخذهم الأجر مـمن بـينوا له ذلك علـى ما بـينوا له منه.

وإنـما قلنا معنى ذلك: «لا تبـيعوا» لأن مشترى الثمن القلـيـل بآيات الله بـائع الآيات بـالثمن, فكل واحد من الثمن والـمثمن مبـيع لصاحبه, وصاحبه به مشتري. وإنـما معناه علـى ما تأوّله أبو العالـية: بـينوا للناس أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم, ولا تبتغوا علـيه منهم أجرا. فـيكون حينئذٍ نهيه عن أخذ الأجر علـى تبـيـينه هو النهي عن شراء الثمن القلـيـل بآياته.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإيّايَ فـاتّقُونِ.

قال أبو جعفر: يقول: فـاتقون فـي بـيعكم آياتـي بـالـخسيس من الثمن, وشرائكم بها القلـيـل من العَرَض, وكفركم بـما أنزلت علـى رسولـي, وجحودكم نبوّة نبـيه أن أحلّ بكم ما أحللت بأخلافكم الذين سلكوا سبـيـلكم من الـمَثُلات والنّقِمَات.

الآية : 42

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: وَلا تَلْبِسُوا: لا تـخـلطوا, واللبس: هو الـخـلط, يقال منه: لبست علـيهم الأمر ألْبِسُه لبسا: إذا خـلطته علـيهم. كما:

567ـ حدثت عن الـمنـجاب, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَللَبَسْنا عَلَـيْهِمْ مَا يَـلْبِسُونَ يقول: لـخـلطنا علـيهم ما يخـلطون. ومنه قول العجاج:

لَـمّا لَبِسْنَ الـحَقّ بـالتّـجَنّـيغَنِـينَ وَاسْتَبْدَلْنَ زَيْدا مِنّـي

يعنـي بقوله: لبسن: خـلطن. وأما اللّبْس فإنه يقال منه: لبِسْته ألبَسُه لُبْسا ومَلْبَسا, وذلك فـي الكسوة يكتسيها فـيـلبسها. ومن اللّبْس قول الأخطل:

لقَدْ لبِسْتُ لِهَذا الدهْرِ أعْصُرَهُحَتّـى تَـجَلّلَ رأسِي الشّيْبُ وَاشْتَعَلاَ

ومن اللبس قول الله جل ثناؤه: وللبَسْنا عَلَـيْهِمْ ما يَـلْبِسُونَ.

فإن قال لنا قائل: وكيف كانوا يـلبسون الـحق بـالبـاطل وهم كفـار, وأيّ حقّ كانوا علـيه مع كفرهم بـالله؟ قـيـل: إنه كان فـيهم منافقون منهم يظهرون التصديق بـمـحمد صلى الله عليه وسلم ويستبطنون الكفر به, وكان أعُظْمُهم يقولون: مـحمد نبـي مبعوث إلا أنه مبعوث إلـى غيرنا. فكان لَبْسُ الـمنافق منهم الـحقّ بـالبـاطل إظهاره الـحق بلسانه وإقراره لـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به جهارا, وخـلطه ذلك الظاهر من الـحقّ بـالبـاطل الذي يستبطنه. وكان لَبْسُ الـمقرّ منهم بأنه مبعوث إلـى غيرهم الـجاحد أنه مبعوث إلـيهم إقراره بأنه مبعوث إلـى غيرهم وهو الـحقّ, وجحوده أنه مبعوث إلـيهم وهو البـاطل, وقد بعثه الله إلـى الـخـلق كافة. فذلك خـلطهم الـحق بـالبـاطل ولبسهم إياه به. كما:

568ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روح, عن الضحاك, عن ابن عبـاس قوله: وَلاَ تَلْبِسُوا الـحَق بـالبـاطِلِ قال: لا تـخـلطوا الصدق بـالكذب.

569ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلاَ تَلْبسُوا الـحَق بـالبـاطِلِ يقول: لا تـخـلطوا الـحقّ بـالبـاطل, وأدوا النصيحة لعبـاد الله فـي أمر مـحمد علـيه الصلاة والسلام.

570ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال مـجاهد: وَلاَ تَلْبِسُوا الـحَق بـالبـاطِلِ الـيهودية والنصرانـية بـالإسلام.

571ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَلاَ تَلْبسوا الـحَق بـالبـاطلِ قال: الـحقّ: التوراة الذي أنزل الله علـى موسى, والبـاطل: الذي كتبوه بأيديهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وتَكْتُـمُوا الـحَقّ وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ.

قال أبو جعفر: وفـي قوله: وَتَكْتُـمُوا الـحَق وجهان من التأويـل: أحدهما أن يكون الله جل ثناؤه نهاهم عن أن يكتـموا الـحقّ كما نهاهم أن يـلبسوا الـحقّ بـالبـاطل. فـيكون تأويـل ذلك حينئذٍ: ولا تلبسوا الـحقّ بـالبـاطل, ولا تكتـموا الـحقّ. ويكون قوله: وتَكْتُـمُوا عند ذلك مـجزوما بـما جزم به «تلبسوا» عطفـا علـيه. والوجه الاَخر منهما أن يكون النهي من الله جل ثناؤه لهم عن أن يـلبسوا الـحق بـالبـاطل, ويكون قوله: وتَكْتُـمُوا الـحَق خبرا منه عنهم بكتـمانهم الـحقّ الذي يعلـمونه, فـيكون قوله: «وتكتـموا» حينئذٍ منصوبـا, لانصرافه عن معنى قوله: وَلا تَلْبِسُوا الـحَق بـالبـاطِلِ إذ كان قوله: وَلا تَلْبِسُوا نهيا, وقوله: وَتَكْتُـمُوا الـحَق خبرا معطوفـا علـيه غير جائز أن يعاد علـيه ما عمل فـي قوله: تَلْبِسُوا من الـحرف الـجازم, وذلك هو الـمعنى الذي يسميه النـحويون صرفـا. ونظير ذلك فـي الـمعنى والإعراب قول الشاعر:

لاتَنْهَ عَنْ خُـلُقٍ وتَأتِـيَ مِثْلَهُعارٌ عَلَـيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيـمُ

فنصب «تأتـي» علـى التأويـل الذي قلنا فـي قوله: وَتَكْتُـمُوا الآية, لأنه لـم يرد: لا تنه عن خـلق ولا تأت مثله, وإنـما معناه: لا تنه عن خـلق وأنت تأتـي مثله. فكان الأوّل نهيا والثانـي خبرا, فنصب الـخبر إذ عطفه علـى غير شكله.

فأما الوجه الأول من هذين الوجهين اللذين ذكرنا أن الآية تـحتـملهما, فهو علـى مذهب ابن عبـاس الذي:

572ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس قوله: وتَكْتُـمُوا الـحَقّ يقول: ولا تكتـموا الـحَقّ وأنتـم تعلـمون.

وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَتَكْتُـمُوا الـحَقّ: أي ولا تكتـموا الـحق.

وأما الوجه الثانـي منهما فهو علـى مذهب أبـي العالـية ومـجاهد.

573ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وتَكْتُـمُوا الـحقّ وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ قال: كتـموا بعث مـحمد صلى الله عليه وسلم.

574ـ وحدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, نـحوه.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, نـحوه.

وأما تأويـل الـحقّ الذي كتـموه وهم يعلـمونه, فهو ما:

575ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَتَكْتُـمُوا الـحَقّ يقول: لا تكتـموا ما عندكم من الـمعرفة برسولـي وما جاء به, وأنتـم تـجدونه عندكم فـيـما تعلـمون من الكتب التـي بأيديكم.

وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَتَكْتُـمُوا الـحَقّ يقول: إنكم قد علـمتـم أن مـحمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن ذلك.

576ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَتَكْتُـمُوا الـحَقّ وأنتـم تَعْلَـمونَ قال: يكتـم أهل الكتاب مـحمدا, وهم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة والإنـجيـل.

وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

577ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي: وتَكْتُـمُوا الـحَقّ وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ قال: الـحقّ هو مـحمد صلى الله عليه وسلم.

578ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَتَكْتُـمُوا الـحَقّ وأنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ قال: كتـموا بعث مـحمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوبـا عندهم.

وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: تكتـمون مـحمدا وأنتـم تعلـمون, وأنتـم تـجدونه عندكم فـي التوراة والإنـجيـل.
فتأويـل الآية إذا: ولا تـخـلطوا علـى الناس أيها الأحبـار من أهل الكتاب فـي أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند ربه, وتزعموا أنه مبعوث إلـى بعض أجناس الأمـم دون بعض أو تنافقوا فـي أمره, وقد علـمتـم أنه مبعوث إلـى جميعكم, وجميع الأمـم غيركم, فتـخـلطوا بذلك الصدق بـالكذب, وتكتـموا به ما تـجدونه فـي كتابكم من نعته وصفته, وأنه رسولـي إلـى الناس كافة, وأنتـم تعلـمون أنه رسولـي, وأن ما جاء به إلـيكم فمن عندي, وتعرفون أن من عهدي الذي أخذت علـيكم فـي كتابكم الإيـمان به وبـما جاء به والتصديق به.

الآية : 43

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {وَأَقِيمُواْ الصّلاَةَ وَآتُواْ الزّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرّاكِعِينَ }
قال أبو جعفر: ذكر أن أحبـار الـيهود والـمنافقـين كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه فأمرهم الله بإقام الصلاة مع الـمسلـمين الـمصدّقـين بـمـحمد وبـما جاء به, وإيتاء زكاة أموالهم معهم وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا كما:
579ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن قتادة فـي قوله: وأقـيـمُوا الصّلاةَ وآتُوا الزّكاةَ قال: فريضتان واجبتان, فأدّوهما إلـى الله. وقد بـينا معنى إقامة الصلاة فـيـما مضى من كتابنا هذا فكرهنا إعادته.
أما إيتاء الزكاة: فهو أداء الصدقة الـمفروضة وأصل الزكاة: نـماء الـمال وتثميره وزيادته. ومن ذلك قـيـل: زكا الزرع: إذا كثر ما أخرج الله منه وزكت النفقة: إذا كثرت. وقـيـل: زكا الفرد, إذا صار زوجا بزيادة الزائد علـيه حتـى صار به شفعا, كما قال الشاعر:
كانُوا خَسا أوْ زَكا مِنْ دُونِ أرْبَعَةٍلَـم يَخْـلَقُوا وَجُدُودُ النّاسُ تَعْتَلِـجُ
وقال آخر:
فَلا خَسا عَدِيدُهُ ولا زَكاكمَا شِرارُ البَقْلِ أطْرافُ السّفَـا
قال أبو جعفر: السفـا: شوك البهمي, والبهمي: الذي يكون مدوّرا فـي السّلاّء. يعنـي بقوله: «ولا زكا» لـم يصيرهم شفعا من وتر بحدوثه فـيهم.
وإنـما قـيـل للزكاة زكاة وهي مال يخرج من مال لتثمير الله بإخراجها مـما أخرجت منه ما بقـي عند ربّ الـمال من ماله. وقد يحتـمل أن تكون سميت زكاة لأنها تطهير لـما بقـي من مال الرجل, وتـخـلـيص له من أن تكون فـيه مظلـمة لأهل السهمان, كما قال جل ثناؤه مخبرا عن نبـيه موسى صلوات الله علـيه: أقَتَلْتَ نَفْسا زَكِيّةً يعنـي بريئة من الذنوب طاهرة, وكما يقال للرجل: هو عدل زكيّ لذلك الـمعنى.
وهذا الوجه أعجب إلـيّ فـي تأويـل زكاة الـمال من الوجه الأوّل, وإن كان الأوّل مقبولاً فـي تأويـلها. وإيتاؤها: إعطاؤها أهلها.
وأما تأويـل الركوع: فهو الـخضوع لله بـالطاعة, يقال منه: ركع فلان لكذا وكذا: إذا خضع له, ومنه قول الشاعر:
بِـيعَتْ بِكَسْرٍ لَـئِـيـمٍ واسْتَغَاثَ بهامِنَ الهُزَالِ أبُوها بَعْدَمَا رَكَعا

يعنـي: بعد ما خضع من شدّة الـجهد والـحاجة. وهذا أمر من الله جل ثناؤه لـمن ذكر من أحبـار بنـي إسرائيـل ومنافقـيها بـالإنابة والتوبة إلـيه, وبإقام الصلاة, وإيتاء الزكاة, والدخول مع الـمسلـمين فـي الإسلام, والـخضوع له بـالطاعة. ونهيٌ منه لهم عن كتـمان ما قد علـموه من نبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم بعد تظاهر حججه علـيهم بـما قد وصفنا قبل فـيـما مضى من كتابنا هذا, وبعد الإعذار إلـيهم والإنذار, وبعد تذكيرهم نعمه إلـيهم وإلـى أسلافهم تعطفـا منه بذلك علـيهم وإبلاغا إلـيهم فـي الـمعذرة.

الآية : 44

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويـل فـي معنى البرّ الذي كان الـمخاطبون بهذه الآية يأمرون الناس به وينسون أنفسهم, بعد إجماع جميعهم علـى أن كل طاعة لله فهي تسمى برّا. فروي عن ابن عبـاس ما:

580ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: أتأمُرُونَ النّاسَ بـالبرّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُـمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُونَ أي تنهون الناس عن الكفر بـما عندكم من النبوّة والعهد من التوراة, وتتركون أنفسكم: أي وأنتـم تكفرون بـما فـيها من عهدي إلـيكم فـي تصديق رسولـي, وتنقضون ميثاقـي, وتـجحدون ما تعلـمون من كتابـي.

581ـ وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: أتأْمُرُونَ النّاسَ بـالبرّ يقول: أتأمرون الناس بـالدخول فـي دين مـحمد صلى الله عليه وسلم, وغير ذلك مـما أمرتـم به من إقام الصلاة وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ.

وقال آخرون بـما:

582ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنـي عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أتأمُرُونَ النّاسَ بـالبِرّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ قال: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وهم يعصونه.

583ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن قتادة فـي قوله: أتأمُرُونَ النّاسَ بـالبِرّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ قال: كان بنو إسرائيـل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبـالبرّ ويخالفون, فعيّرهم الله.

584ـ وحدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا الـحجاج, قال: قال ابن جريج: أتأمُرُونَ النّاسَ بـالبرّ أهل الكتاب والـمنافقون كانوا يأمرون الناس بـالصوم والصلاة, ويدعون العمل بـما يأمرون به الناس, فعيّرهم الله بذلك, فمن أمر بخير فلـيكن أشدّ الناس فـيه مسارعة.

وقال آخرون بـما:

585ـ حدثنـي به يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: هؤلاء الـيهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما لـيس فـيه حق ولا رشوة ولا شيء, أمروه بـالـحقّ, فقال الله لهم: أتأْمُرُونَ النّاسَ بـالبرّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُـمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُونَ.

586ـ وحدثنـي علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم الـحرمي, قال: حدثنا مخـلد بن الـحسين, عن أيوب السختـيانـي, عن أبـي قلابة فـي قول الله:

أتأْمُرُونَ النّاسَ بـالبِرّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُـمْ تَتْلُونَ الكِتابَ قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتـى يـمقت الناس فـي ذات الله ثم يرجع إلـى نفسه فـيكون لها أشدّ مَقْتا.

قال أبو جعفر: وجميع الذي قال فـي تأويـل هذه الآية من ذكرنا قوله متقارب الـمعنى لأنهم وإن اختلفوا فـي صفة البرّ الذي كان القوم يأمرون به غيرهم الذين وصفهم الله بـما وصفهم به, فهم متفقون فـي أنهم كانوا يأمرون الناس بـما لله فـيه رضا من القول أو العمل, ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلـى غيره بأفعالهم.

فـالتأويـل الذي يدلّ علـى صحته ظاهر التلاوة إذا: أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه, فهلا تأمرونها بـما تأمرون به الناس من طاعة ربكم معيرهم بذلك ومقبحا إلـيهم ما أتوا به. ومعنى نسيانهم أنفسهم فـي هذا الـموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه: نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ بـمعنى: تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأنْتُـمْ تَتْلُونَ الكِتابَ.

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: تَتْلُونَ: تدرسون وتقرءون. كما:

587ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس: وأنْتُـمْ تَتْلُونَ الكِتابَ يقول: تدرسون الكتاب بذلك. ويعنـي بـالكتاب: التوراة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أفَلا تَعْقِلُونَ.

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: أفَلا تَعْقِلُونَ: أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم التـي تأمرون الناس بخلافها وتنهونهم عن ركوبها وأنتـم راكبوها, وأنتـم تعلـمون أن الذي علـيكم من حقّ الله وطاعته فـي اتبـاع مـحمد والإيـمان به وبـما جاء به مثل الذي علـى من تأمرونه بـاتبـاعه. كما:

588ـ حدثنا به مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: أفَلا تَعْقلُونَ يقول: أفلا تفهمون فنهاهم عن هذا الـخـلق القبـيح.

وهذا يدل علـى صحة ما قلنا من أمر أحبـار يهود بنـي إسرائيـل غيرهم بـاتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم, وأنهم كانوا يقولون هو مبعوث إلـى غيرنا كما ذكرنا قبل.

الآية : 45

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَاسْتَعِينُواْ بِالصّبْرِ وَالصّلاَةِ وَإِنّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَاسْتَعِينُوا بـالصّبْرِ: استعينوا علـى الوفـاء بعهدي الذي عاهدتـمونـي فـي كتابكم من طاعتـي واتبـاع أمري, وترك ما تهوونه من الرياسة وحبّ الدنـيا إلـى ما تكرهونه من التسلـيـم لأمري, واتبـاع رسولـي مـحمد صلى الله عليه وسلم بـالصبر علـيه والصلاة.

وقد قـيـل: إن معنى الصبر فـي هذا الـموضع: الصوم, والصومُ بعض معانـي الصبر عندنا. بل تأويـل ذلك عندنا: أن الله تعالـى ذكره أمرهم بـالصبر علـى ما كرهته نفوسهم من طاعة الله, وترك معاصيه. وأصل الصبر: منع النفس مـحابّها وكفّها عن هواها ولذلك قـيـل للصابر علـى الـمصيبة: صابر, لكفه نفسه عن الـجزع وقـيـل لشهر رمضان: شهر الصبر,

لصبر صائمه عن الـمطاعم والـمشارب نهارا, وصبرُه إياهم عن ذلك: حبسه لهم, وكفه إياهم عنه, كما يصبر الرجل الـمسيء للقتل فتـحبسه علـيه حتـى تقتله. ولذلك قـيـل: قتل فلان فلانا صبرا, يعنـي به حبسه علـيه حتـى قتله, فـالـمقتول مصبور, والقاتل صابر. وأما الصلاة فقد ذكرنا معناها فـيـما مضى.

فإن قال لنا قائل: قد علـمنا معنى الأمر بـالاستعانة بـالصبر علـى الوفـاء بـالعهد والـمـحافظة علـى الطاعة, فما معنى الأمر بـالاستعانة بـالصلاة علـى طاعة الله, وترك معاصيه, والتعرّي عن الرياسة, وترك الدنـيا؟ قـيـل: إن الصلاة فـيها تلاوة كتاب الله, الداعية آياته إلـى رفض الدنـيا وهجر نعيـمها, الـمسلـية النفوس عن زينتها وغرورها, الـمذكرة الآخرة وما أعدّ الله فـيها لأهلها. ففـي الاعتبـار بها الـمعونة لأهل طاعة الله علـى الـجدّ فـيها, كما رُوي عن نبـينا صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حَزَ به أمر فزع إلـى الصلاة.

589ـ حدثنـي بذلك إسماعيـل بن موسى الفزاري, قال: حدثنا الـحسين بن رتاق الهمدانـي, عن ابن جرير, عن عكرمة بن عمار, عن مـحمد بن عبـيد بن أبـي قدامة, عن عبد العزيز بن الـيـمان, عن حذيفة قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم, إذا حز به أمر فزع إلـى الصلاة».

وحدثنـي سلـيـمان بن عبد الـجبـار, قال: حدثنا خـلف بن الولـيد الأزدي, قال: حدثنا يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار, عن مـحمد بن عبد الله الدولـي, قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة, قال حذيفة: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَ به أمر صلـى». وكذلك رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه رأى أبـا هريرة منبطحا علـى بطنه فقال له: «اشكنب دَرْد»؟ قال: نعم, قال: «قُمْ فَصَلِّ فَـانّ فِـي الصّلاَةِ شفـاءً». فأمر الله جل ثناؤه الذين وصف أمرهم من أحبـار بنـي إسرائيـل أن يجعلوا مفزعهم فـي الوفـاء بعهد الله الذي عاهدوه إلـى الاستعانة بـالصبر والصلاة كما أمر نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم بذلك, فقال له: فـاصْبِرْ يا مـحمد علـى ما يَقُولُونَ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللّـيْـلِ فَسَبّحْ وأطْرَافَ النّهارِ لَعَلّك تَرْضَى فأمره جل ثناؤه فـي نوائبه بـالفزع إلـى الصبر والصلاة.

590ـ وقد حدثنا مـحمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيـم قالا: حدثنا ابن علـية, قال: حدثنا عيـينة بن عبد الرحمن عن أبـيه: أن ابن عبـاس نعى إلـيه أخوه قثم وهو فـي سفر, فـاسترجع ثم تنـحى عن الطريق, فأناخ فصلـى ركعتـين أطال فـيهما الـجلوس, ثم قام يـمشي إلـى راحلته وهو يقول: وَاسْتَعِينُوا بـالصّبْرِ وَالصّلاة وإنّها لَكَبِـيرَةٌ إلاّ علـى الـخاشِعِينَ.

وأما أبو العالـية فإنه كان يقول بـما:

591ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَاسْتَعِينُوا بـالصّبْرِ وَالصّلاةِ قال يقول: استعينوا بـالصبر والصلاة علـى مرضاة الله, واعلـموا أنهما من طاعة الله.

وقال ابن جريج بـما:

592ـ حدثنا به القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج فـي قوله: وَاسْتَعِينُوا بـالصّبْرِ وَالصّلاَةِ قال: إنهما معونتان علـى رحمة الله.

593ـ وحدثني يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد في قوله: وَاسْتَعِينُوا بالصّبْرِ وَالصّلاَةِ الآية, قال: قال المشركون: والله يا محمد إنك لتدعونا إلى أمر كبير, قال: إلى الصلاة والإيمان بالله.

القول في تأويل قوله تعالى: وإنّها لَكَبِيرَةٌ إلاّ على الخاشِعِينَ.

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: وإنّها وإن الصلاة, فالهاء والألف في «وإنها» عائدتان على «الصلاة». وقد قال بعضهم: إن قوله: وإنها بمعنى: إن إجابة محمد صلى الله عليه وسلم, ولم يجر لذلك بلفظ الإجابة ذكرٌ فتجعل الهاء والألف كناية عنه, وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته. ويعني بقوله: لَكَبِيرةٌ: لشديدة ثقيلة. كما:

594ـ حدثني يحيى بن أبي طالب, قال: أخبرنا ابن يزيد, قال: أخبرنا جويبر, عن الضحاك, في قوله: وإنها لَكَبِيرَةٌ إلا على الخاشِعِينَ قال: إنها لثقيلة.

ويعني بقوله: إلاّ على الخاشِعِينَ: إلا على الخاضعين لطاعته, الخائفين سطواته, المصدّقين بوعده ووعيده. كما:

595ـ حدثني المثنى بن إبراهيم, قال: حدثنا عبد الله بن صالح, قال: حدثني معاوية بن صالح, عن عليّ بن أبي طلحة, عن ابن عباس: إلاّ على الخاشِعِينَ يعني المصدّقين بما أنزل الله.

596ـ وحدثني المثنى, قال: حدثنا آدم العسقلاني, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربيع, عن أبي العالية في قوله: إلاّ على الخاشِعِينَ قال: يعني الخائفين.

597ـ وحدثني محمد بن جعفر, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا سفيان, عن جابر, عن مجاهد: إلاّ على الخاشِعِينَ قال: المؤمنين حقّا.

وحدثني المثنى قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبي نجيح, عن مجاهد, مثله.

598ـ وحدثني يونس بن عبد الأعلى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: الخشوع: الخوف والخشية لله. وقرأ قول الله: خاشِعينَ منَ الذّلّ قال: قد أذلهم الخوف الذي نزل بهم, وخشعوا له.

وأصل «الخشوع»: التواضع والتذلل والاستكانة, ومنه قول الشاعر:

لَمّا أتى خَبَرُ الزّبَيْرِ تَوَاضَعَتْسُورُ المَدِينَةِ وَالجِبَالُ الخُشّعُ

يعني والجبال خشع متذللة لعظم المصيبة بفقده.

فمعنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله, وكفها عن معاصي الله, وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر, المقرّب من مراضي الله, العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته.

الآية : 46

القول في تأويل قوله تعالى: {الّذِينَ يَظُنّونَ أَنّهُم مّلاَقُو رَبّهِمْ وَأَنّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظنّ أنه ملاقيه, والظنّ: شكّ, والشاكّ في لقاء الله عندك بالله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تسمي اليقين ظنا, والشك ظنا, نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة والضياء سُدْفة, والمغيث

صارخا, والـمستغيث صارخا, وما أشبه ذلك من الأسماء التـي تسمي بها الشيء وضدّه. ومـما يدل علـى أنه يسمى به الـيقـين قول دُريد بن الصمة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنّوا بِألْفَـيْ مُدَجّجٍسَرَاتُهُمُ فـي الفـارِسيّ الـمُسَرّدِ

يعنـي بذلك: تـيقنوا ألفـي مدجج تأتـيكم. وقول عَميرة بن طارق:

بِأنْ تَغْتَزُوا قَوْمي وأقْعُدُ فِـيكُمُواجْعَلَ مِنّـي غَيْبـا مُرَجّمَا

يعنـي: وأجعل منـي الـيقـين غيبـا مرجما. والشواهد من أشعار العرب وكلامها علـى أن الظنّ فـي معنى الـيقـين أكثر من أن تـحصى, وفـيـما ذكرنا لـمن وُفّق لفهمه كفـاية.

ومنه قول الله جل ثناؤه: ورأى الـمُـجْرِمُونَ النّارَ فَظَنّوا أنّهُمْ مُواقِعوها. وبـمثل الذي قلنا فـي ذلك جاء تفسير الـمفسرين.

599ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: يظّنونَ أنّهُمْ مُلاقُوا رَبّهمْ قال: إن الظنّ ههنا يقـين.

600ـ وحدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا سفـيان, عن جابر, عن مـجاهد, قال: كل ظنّ فـي القرآن يقـين, إنـي ظننت وظنوا.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا أبو داود الـحفري, عن سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: كل ظنّ فـي القرآن فهو علـم.

601ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: الّذين يظنّون أنّهم مُلاقوا ربّهم أما يظنون فـيستـيقنون.

602ـ وحدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: الّذين يظنّونَ أنّهم مُلاقُوا ربّهم علـموا أنهم ملاقوا ربهم, هي كقوله: إنّـي ظَنَنْتُ أنـي مُلاقٍ حِسابِـيَه يقول علـمت.

603ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: الّذِينَ يَظُنون أنَهُمْ مُلاقُوا رَبّهِمْ قال: لأنهم لـم يعاينوا, فكان ظنهم يقـينا, ولـيس ظنا فـي شك. وقرأ: إنّـي ظَنَنْتُ أنّـي مُلاقٍ حسابـيَهْ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أنّهّمْ مُلاقُوا رَبّهِمْ.

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: وكيف قـيـل إنهم ملاقوا ربهم فأضيف الـملاقون إلـى الربّ جل ثناؤه وقد علـمت أن معناه: الذين يظنون أنهم يـلقون ربهم؟ وإذا كان الـمعنى كذلك, فمن كلام العرب ترك الإضافة وإثبـات النون, وإنـما تسقط النون وتُضيف فـي الأسماء الـمبنـية من الأفعال إذا كانت بـمعنى فعل, فأما إذا كانت بـمعنى يفعل وفـاعل, فشأنها إثبـات النون, وترك الإضافة قـيـل: لا تَدَافُعَ بـين جميع أهل الـمعرفة بلغات العرب وألسنها فـي إجازة إضافة الاسم الـمبنـي من فعل ويفعل, وإسقاط النون وهو بـمعنى يفعل وفـاعل, أعنـي بـمعنى الاستقبـال وحالِ الفعل ولـما ينقض, فلا وجه لـمسألة السائل عن ذلك: لـم قـيـل؟

وإنـما اختلف أهل العربـية فـي السبب الذي من أجله أضيف وأسقطت النون.

فقال نـحويو البصرة: أسقطت النون من: مُلاقوا رَبّهمْ وما أشبهه من الأفعال التـي فـي لفظ الأسماء وهي فـي معنى يفعل وفـي معنى ما لـم

ينقض استثقالاً لها, وهي مرادة كما قال جل ثناؤه: كُلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الـمَوْتِ وكما قال: إنّا مُرْسِلُوا النّاقَة فِتْنَةً لَهُمْ ولـما يرسلها بعد وكما قال الشاعر:

هَلْ أنْتَ بـاعِثُ دِينارٍ لِـحاجَتِناأوْ عَبْدَ رَبَ أخا عَوْنِ بْنِ مخْرَاقِ

فأضاف بـاعثا إلـى الدينار, ولـما يبعث, ونصب عبد ربّ عطفـا علـى موضع دينار لأنه فـي موضع نصب وإن خفض. وكما قال الآخر:

الـحافِظُو عَوْرَةَ العَشِيرَةِ لايَأْتـيهِمُ مِنْ وَرَائِهِمْ نَطَفُ

بنصب العورة وخفضها. فـالـخفض علـى الإضافة, والنصب علـى حذف النون استثقالاً, وهي مرادة. وهذا قول نـحويـي البصرة.

وأما نـحويو الكوفة فإنهم قالوا: جائز فـي مُلاقُوا الإضافة, وهي فـي معنى يـلقون, وإسقاط النون منه لأنه فـي لفظ الأسماء, فله فـي الإضافة إلـى الأسماء حظّ الأسماء, وكذلك حكم كل اسم له كان نظيرا. قالوا: وإذا أثبت فـي شيء من ذلك النون وتركت الإضافة, فإنـما تفعل ذلك به لأن له معنى يفعل الذي لـم يكن ولـم يجب بعد. قالوا: فـالإضافة فـيه للفظ, وترك الإضافة للـمعنى.

فتأويـل الآية إذا: واستعينوا علـى الوفـاء بعهدي بـالصبر علـيه والصلاة, وإن الصلاة لكبـيرة إلا علـى الـخائفـين عقابـي, الـمتواضعين لأمري, الـموقنـين بلقائي والرجوع إلـيّ بعد مـماتهم.

وإنـما أخبر الله جل ثناؤه أن الصلاة كبـيرة إلا علـى من هذه صفته لأن من كان غير موقن بـمعاد ولا مصدّق بـمرجع ولا ثواب ولا عقاب, فـالصلاة عنده عناء وضلال, لأنه لا يرجو بإقامتها إدراك نفع ولا دفع ضرّ, وحقّ لـمن كانت هذه الصفة صفته أن تكون الصلاة علـيه كبـيرة, وإقامتها علـيه ثقـيـلة, وله فـادحة.

وإنـما خفت علـى الـمؤمنـين الـمصدّقـين بلقاء الله, الراجين علـيها جزيـل ثوابه, الـخائفـين بتضيـيعها ألـيـم عقابه, لـما يرجون بإقامتها فـي معادهم من الوصول إلـى ما وعد الله علـيها أهلها, ولـما يحذرون بتضيـيعها ما أوعد مضيعها. فأمر الله جل ثناؤه أحبـار بنـي إسرائيـل الذين خاطبهم بهذه الآيات أن يكونوا من مقـيـميها الراجين ثوابها إذا كانوا أهل يقـين بأنهم إلـى الله راجعون وإياه فـي القـيامة ملاقون.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأنّهُمْ إلَـيْهِ رَاجِعُونَ.

قال أبو جعفر: والهاء والـميـم اللتان فـي قوله: وأنّهُمْ من ذكر الـخاشعين, والهاء فـي «إلـيه» من ذكر الربّ تعالـى ذكره فـي قوله: مُلاقُوا رَبّهِمْ فتأويـل الكلـمة: وإنها لكبـيرة إلا علـى الـخاشعين الـموقنـين أنهم إلـى ربهم راجعون.

ثم اختلف فـي تأويـل الرجوع الذي فـي قوله: وأنّهُمْ إلَـيْهِ رَاجِعُونَ. فقال بعضهم بـما:

604ـ حدثنـي به الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وأنّهُمْ إلَـيْهِ رَاجِعُونَ قال: يستـيقنون أنهم يرجعون إلـيه يوم القـيامة.

وقال آخرون: معنى ذلك أنهم إلـيه يرجعون بـموتهم.

وأولـى التأويـلـين بـالآية القول الذي قاله أبو العالـية لأن الله تعالـى ذكره, قال فـي الآية التـي قبلها كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِـاللّهِ وكُنْتُـمْ أمْوَاتا فأحْياكُمْ ثُمّ يُـمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِـيكُمْ ثُمّ إلَـيْهِ تُرْجَعُونَ فأخبر الله جل ثناؤه أنَ مرجعهم إلـيه

بعد نشرهم وإحيائهم من مـماتهم, وذلك لا شك يوم القـيامة, فكذلك تأويـل قوله: وأنّهُمْ إلَـيْهِ رَاجِعُونَ.

الآية : 47

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِي الّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنّي فَضّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }

قال أبو جعفر: وتأويـل ذلك فـي هذه الآية نظير تأويله فـي التـي قبلها فـي قوله: اذْكُرُوا نِعْمَتِـيَ الّتِـي أنْعَمْتُ عَلَـيْكُمْ وأوْفُوا بعَهْدِي وقد ذكرته هنالك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ علـى العَالَـمِينَ.

قال أبو جعفر: وهذا أيضا مـما ذكرهم جل ثناؤه من آلائه ونعمه عندهم. ويعنـي بقوله: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ عَلـى العَالَـمِينَ: أنـي فضلت أسلافكم, فنسب نعمه علـى آبـائهم وأسلافهم إلـى أنها نعم منه علـيهم, إذ كانت مآثر الآبـاء مآثر للأبناء, والنعم عند الآبـاء نعما عند الأبناء, لكون الأبناء من الآبـاء, وأخرج جلّ ذكره قوله: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ علـى العَالَـمِينَ مخرج العموم, وهو يريد به خصوصا لأن الـمعنى: وإنـي فضلتكم علـى عالـم من كنتـم بـين ظهريه وفـي زمانه. كالذي:

605ـ حدثنا به مـحمد بن عبد الأعلـى الصنعانـي, قال: حدثنا مـحمد بن ثور, عن معمر, وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ عَلـى العَالَـمِينَ قال: فضلهم علـى عالـم ذلك الزمان.

606ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ عَلَـى العَالَـمِينَ قال: بـما أعطوا من الـملك والرسل والكتب علـى عالـم من كان فـي ذلك الزمان, فإن لكل زمان عالـما.

607ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال مـجاهد فـي قوله: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ عَلَـى العَالَـمِينَ قال: علـى من هم بـين ظهرانـيه.

وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: علـى من هم بـين ظهرانـيه.

608ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سألت ابن زيد عن قول الله: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ عَلَـى العَالَـمِينَ قال: عالـم أهل ذلك الزمان. وقرأ قول الله: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَـى عِلْـمٍ عَلـى العَالَـمِينَ قال: هذه لـمن أطاعه واتبع أمره, وقد كان فـيهم القردة وهم أبغض خـلقه إلـيه, وقال لهذه الأمة: كُنْتُـمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ قال: هذه لـمن أطاع الله واتبع أمره واجتنب مـحارمه.

قال أبو جعفر: والدلـيـل علـى صحة ما قلنا من أن تأويـل ذلك علـى الـخصوص الذي وصفنا ما:

609ـ حدثنـي به يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر جميعا, عن بهز بن حكيـم, عن أبـيه, عن جده. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا إنّكُمْ وَفّـيْتُـمْ سَبْعِين أُمّةً» قال يعقوب فـي حديثه: «أنتـم

آخرها». وقال الـحسن: «أنتـم خيرها وأكرمها علـى الله». فقد أنبأ هذا الـخبر عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم أن بنـي إسرائيـل لـم يكونوا مفضلـين علـى أمة مـحمد علـيه الصلاة والسلام, وأن معنى قوله: وَفَضّلْناهُمْ عَلَى العَالَـمِينَ وقوله: وأنّـي فَضّلْتُكُمْ عَلـى العَالَـمِينَ علـى ما بـينا من تأويـله. وقد أتـينا علـى بـيان تأويـل قوله: العَالَـمِينَ بـما فـيه الكفـاية فـي غير هذا الـموضع, فأغنى ذلك عن إعادته.

الآية : 48

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَاتّقُواْ يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ }

قال أبو جعفر: وتأويـل قوله: وَاتّقُوا يَوْما لا تَـجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفَسٍ شَيْئا: واتقوا يوما لا تـجزى فـيه نفس عن نفس شيئا. وجائز أيضا أن يكون تأويـله: واتقوا يوما لا تـجزيه نفس عن نفس شيئا, كما قال الراجز:

قَدْ صَبّحَتْ صَبّحَها السّلامُبِكَبِدٍ خالَطَها سَنَامُ
فِـي ساعَةٍ يُحَبّها الطّعامُ

وهو يعنـي: يحبّ فـيها الطعام, فحذفت الهاء الراجعة علـى «الـيوم», إذ فـيه اجتزاء بـما ظهر من قوله: وَاتّقُوا يَوْما لاَ تَـجْزِي نَفْسٌ الدال علـى الـمـحذوف منه عما حذف, إذ كان معلوما معناه.

وقد زعم قوم من أهل العربـية أنه لا يجوز أن يكون الـمـحذوف فـي هذا الـموضع إلا الهاء.

وقال آخرون: لا يجوز أن يكون الـمـحذوف إلا «فـيه». وقد دللنا فـيـما مضى علـى جواز حذف كل ما دل الظاهر علـيه.

وأما الـمعنى فـي قوله: وَاتّقُوا يَوْما لاَ تَـجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا فإنه تـحذير من الله تعالـى ذكره عبـاده الذين خاطبهم بهذه الآية عقوبته أن تـحلّ بهم يوم القـيامة, وهو الـيوم الذي لا تـجزي فـيه نفس عن نفس شيئا, ولا يجزي فـيه والد عن ولده, ولا مولود هو جاز عن والده شيئا.

وأما تأويـل قوله: لا تَـجْزِي نَفْسٌ فإنه يعنـي: لا تغنـي. كما:

610ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَاتّقُوا يَوْما لاَ تَـجْزِي نَفْسٌ أما تـجزي: فتغنـي.

وأصل الـجزاء فـي كلام العرب: القضاء والتعويض, يقال: جزيته قرضه ودينه أجزيه جزاء, بـمعنى: قضيته دينه, ومن ذلك قـيـل: جزى الله فلانا عنـي خيرا أو شرّا, بـمعنى: أثابه عنـي وقضاه عنـي ما لزمنـي له بفعله الذي سلف منه إلـيّ. وقد قال قوم من أهل العلـم بلغة العرب: يقال: أجزيت عنه كذا: إذا أعنته علـيه, وجزيت عنك فلانا: إذا كافأته. وقال آخرون منهم: بل جزيت عنك: قضيت عنك, وأجزيت: كفـيت. وقال آخرون منهم: بل هما بـمعنى واحد, يقال: جزت عنك شاة وأجزت, وجزى عنك درهم وأجزى, ولا تَـجْزي عنك شاة ولا تُـجْزي بـمعنى واحد, إلا أنهم ذكروا أن جزت عنك ولا تُـجزي عنك من لغة أهل الـحجاز, وأن أجزأ وتُـجزىء من لغة غيرهم. وزعموا أن تـميـما خاصة من بـين قبـائل العرب تقول: أجزأت عنك شاة, وهي تُـجزىء عنك. وزعم آخرون أن جَزَى بلا همز: قضى, وأجزأ بـالهمز: كافأ. فمعنى الكلام إذا: واتقوا يوما لا تقضي نفس عن نفس شيئا ولا تغنـي عنها غِنًى.

فإن قال لنا قائل: وما معنى: لا تقضي نفس عن نفس, ولا تغنـي عنها غنى؟ قـيـل: هو أن أحدنا الـيوم ربـما قضى عن ولده أو والده أو ذي الصداقة والقرابة دينه وأما فـي الآخرة فإنه فـيـما أتتنا به الأخبـار عنها يسرّ الرجل أن يبرد له علـى ولده أو والده حقّ, وذلك أن قضاء الـحقوق فـي القـيامة من الـحسنات والسيئات. كما:

611ـ حدثنا أبو كريب ونصر بن عبد الرحمن الأودي, قال: حدثنا الـمـحاربـي, عن أبـي خالد الدولابـي يزيد بن عبد الرحمن, عن زيد بن أبـي أنـيسة, عن سعيد بن أبـي سعيد الـمقبري, عن أبـي هريرة, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رَحِمَ اللّهُ عَبْدا كانَتْ عِنْدَهُ لأخِيهِ مَظْلَـمَةٌ فِـي عِرْضٍ» قال أبو بكر فـي حديثه: «أوْ مالٍ أوْ جاهٍ, فـاسْتَـحَلّهُ قَبْلَ أنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ وَلَـيْسَ ثَمّ دِينارٌ وَلا دِرْهَمٌ, فإنْ كانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أخَذُوا مِنْ حَسَناتِهِ, وَإنْ لَـمْ تَكُنْ لَهُ حَسَناتٌ حَمَلُوا عَلَـيْهِ مِنْ سَيِئَاتِهِمْ».

حدثنا أبو عثمان الـمقدمي, قال: حدثنا القروي, قال: حدثنا مالك, عن الـمقبري, عن أبـيه, عن أبـي هريرة, عن النبـي صلى الله عليه وسلم بنـحوه.

حدثنا خلاد بن أسلـم, قال: حدثنا أبو همام الأهوازي, قال: أخبرنا عبد الله بن سعيد, عن سعيد عن أبـي هريرة, عن النبـي صلى الله عليه وسلم بنـحوه.

612ـ حدثنا موسى بن سهل الرملـي, قال: حدثنا نعيـم بن حماد, قال: حدثنا عبد العزيز الدراوردي, عن عمرو بن أبـي عمرو, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَـمُوتَنّ أحَدُكُمْ وَعَلَـيْهِ دَيْنٌ, فَإنّهُ لَـيْسَ هُنَاكَ دِينارٌ وَلا دِرْهَمٌ, إنّـمَا يَقْتَسِمُونَ هنَالِكَ الـحَسَناتِ وَالسّيّئاتِ» وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بـيده يـمينا وشمالاً.

613ـ حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: قال: حدثنا سالـم بن قادم, قال: حدثنا أبو معاوية هاشم بن عيسى, قال: أخبرنـي الـحارث بن مسلـم, عن الزهري, عن أنس بن مالك, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنـحو حديث أبـي هريرة.

قال أبو جعفر: فذلك معنى قوله جل ثناؤه: لا تَـجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا يعنـي أنها لا تقضي عنها شيئا لزمها لغيرها لأن القضاء هنالك من الـحسنات والسيئات علـى ما وصفنا. وكيف يقضي عن غيره ما لزمه من كان يسرّه أن يثبت له علـى ولده أو والده حقّ, فـيأخذه منه ولا يُتـجافـى له عنه؟.

وقد زعم بعض نـحويـي البصرة أن معنى قوله: لاَ تَـجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا: لا تـجزي منها أن تكون مكانها. وهذا قول يشهد ظاهر القرآن علـى فساده, وذلك أنه غير معقول فـي كلام العرب أن يقول القائل: ما أغنـيت عنـي شيئا, بـمعنى: ما أغنـيت منـي أن تكون مكانـي, بل إذا أرادوا الـخبر عن شيء أنه لا يجزي من شيء, قالوا: لا يجزي هذا من هذا, ولا يستـجيزون أن يقولوا: لا يجزي هذا من هذا شيئا.

فلو كان تأويـل قوله: لا تَـجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا ما قاله من حكينا قوله لقال: وَاتقُوا يَوْما لا تَـجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ كما يقال: لا تـجزي نفس من نفس, ولـم يقل لا تـجزي نفس عن نفس شيئا: وفـي صحة التنزيـل بقوله:

لا تـجزي نفس عن نفس شيئا أوضح الدلالة علـى صحة ما قلنا وفساد قول من ذكرنا قوله فـي ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلا تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـاعَةٌ.

قال أبو جعفر: والشفـاعة مصدر من قول الرجل: شفع لـي فلان إلـى فلان شفـاعة, وهو طلبه إلـيه فـي قضاء حاجته. وإنـما قـيـل للشفـيع شفـيع وشافع لأنه ثنّى الـمستشفع به, فصار له شَفْعا, فكان ذو الـحاجة قبل استشفـاعه به فـي حاجته فردا, فصار صاحبه له فـيها شافعا, وطلبُه فـيه وفـي حاجته شفـاعة ولذلك سمي الشفـيع فـي الدار وفـي الأرض شفـيعا لـمصير البـائع به شفعا.

فتأويـل الآية إذا: واتقوا يوما لا تقضي نفس عن نفس حقا لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره, ولا يقبل الله منها شفـاعة شافع, فـيترك لها ما لزمها من حق. وقـيـل: إن الله عزّ وجلّ خاطب أهل هذه الآية بـما خاطبهم به فـيها لأنهم كانوا من يهود بنـي إسرائيـل, وكانوا يقولون: نـحن أبناء الله وأحبـاؤه وأولاد أنبـيائه, وسيشفع لنا عنده آبـاؤنا. فأخبرهم الله جل وعزّ أن نفسا لا تـجزي عن نفس شيئا فـي القـيامة, ولا يقبل منها شفـاعة أحد فـيها حتـى يُستوفـى لكل ذي حقّ منها حقه. كما:

614ـ حدثنـي عبـاس بن أبـي طالب, قال: حدثنا حجاج بن نصير, عن شعبة, عن العوام بن مزاحم رجل من قـيس بن ثعلبة, عن أبـي عثمان النهدي, عن عثمان بن عفـان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ الـجَمّاءَ لَتَقْتَصّ مِنَ القَرْناءِ يَوْمَ القِـيَامَةِ, كَما قَالَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ وَنَضَعُ الـمَوَازِينَ القِسْطَ لِـيَوْمِ القِـيَامَةِ فَلا تُظْلَـمُ نَفْسٌ شَيْئا الآية...».

فآيسهم الله جل ذكره مـما كانوا أطمعوا فـيه أنفسهم من النـجاة من عذاب الله مع تكذيبهم بـما عرفوا من الـحقّ وخلافهم أمر الله فـي اتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عنده بشفـاعة آبـائهم وغيرهم من الناس كلهم, وأخبرهم أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إلـيه من كفرهم والإنابة من ضلالهم, وجعل ما سنّ فـيهم من ذلك إماما لكل من كان علـى مثل منهاجهم لئلا يطمع ذو إلـحاد فـي رحمة الله.

وهذه الآية وإن كان مخرجها عاما فـي التلاوة, فإن الـمراد بها خاص فـي التأويـل لتظاهر الأخبـار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «شَفَـاعَتِـي لأهْلِ الكَبَـائِرِ مِنْ أُمّتـي» وأنه قال: «لَـيْسَ مِنْ نَبِـيّ إلاّ وَقَدْ أُعْطِيَ دَعْوَةً, وَإنّي خَبَأْتُ دَعْوَتِـي شَفَـاعَةً لامّتـي, وَهِيَ نائلَةٌ إنْ شَاءَ اللّهُ مِنْهُمْ مَنْ لا يُشْرِكُ بـاللّهِ شَيْئا». فقد تبـين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعبـاده الـمؤمنـين بشفـاعة نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم لهم عن كثـير من عقوبة إجرامهم بـينه وبـينهم, وأن قوله: وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـاعَةٌ إنـما هي لـمن مات علـى كفره غير تائب إلـى الله عزّ وجلّ. ولـيس هذا من مواضع الإطالة فـي القول فـي الشفـاعة والوعد والوعيد, فنستقصي الـحِجَاجَ فـي ذلك, وسنأتـي علـى ما فـيه الكفـاية فـي مواضعه إن شاء الله تعالـى.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ.

قال أبو جعفر: والعدل فـي كلام العرب بفتـح العين: الفدية. كما:

615ـ حدثنا به الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ قال: يعنـي فداء.

616ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر عن السدي: وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ أما عدل فـيعدلها من العدل, يقول: لو جاءت بـملء الأرض ذهبـا تفتدي به ما تقبل منها.

617ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, أخبرنا معمر عن قتادة فـي قوله: ولا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ قال: لو جاءت بكل شيء لـم يقبل منها.

618ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا حسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال مـجاهد: قال ابن عبـاس: وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ قال: بدل, والبدل: الفدية.

619ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ قال: لو أن لها ملء الأرض ذهبـا لـم يقبل منها فداء قال: ولو جاءت بكل شيء لـم يقبل منها.

620ـ وحدثنـي نـجيح بن إبراهيـم, قال: حدثنا علـيّ بن حكيـم, قال: حدثنا حميد بن عبد الرحمن, عن أبـيه, عن عمرو بن قـيس الـملائي, عن رجل من بنـي أمية من أهل الشام أحسن علـيه الثناء, قال: قـيـل يا رسول الله ما العدل؟ قال: «العَدْلُ: الفِدْيَةُ».

وإنـما قـيـل للفدية من الشيء والبدل منه عدل, لـمعادلته إياه وهو من غير جنسه ومصيره له مثلاً من وجه الـجزاء, لا من وجه الـمشابهة فـي الصورة والـخـلقة, كما قال جل ثناؤه: وَإِنْ تَعْدِلْ كُلّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا بـمعنى: وإن تفد كل فدية لا يؤخذ منها, يقال منه: هذا عَدْله وعَدِيـله. وأما العِدْل بكسر العين, فهو مثل الـحمل الـمـحمول علـى الظهر, يقال من ذلك: عندي غلام عِدْل غلامك, وشاة عِدْل شاتك بكسر العين, إذا كان غلام يعدل غلاما, وشاة تعدل شاة, وكذلك ذلك فـي كل مثل للشيء من جنسه. فإذا أريد أن عنده قـيـمته من غير جنسه نصبت العين فقـيـل: عندي عَدْل شاتك من الدراهم. وقد ذكر عن بعض العرب أنه يكسر العين من العِدْل الذي هو بـمعنى الفدية لـمعادلة ما عادله من جهة الـجزاء, وذلك لتقارب معنى العَدْل والعِدْل عندهم, فأما واحد الأعدال فلـم يسمع فـيه إلا عِدْل بكسر العين.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.

وتأويـل قوله: وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ يعنـي أنهم يومئذٍ لا ينصرهم ناصر, كما لا يشفع لهم شافع, ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك الـمـحابـاة واضمـحلت الرّشَا والشفـاعات, وارتفع بـين القوم التعاون والتناصر, وصار الـحكم إلـى العدل الـجبـار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء, فـيجزي بـالسيئة مثلها وبـالـحسنة أضعافها. وذلك نظير قوله جل ثناؤه: وَقِـفُوهُمْ إنّهُمْ مَسْؤولُونَ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الـيَوْمَ مُسْتَسْلِـمُونَ. وكان ابن عبـاس يقول فـي معنى: لا تَنَاصَرُونَ ما:

621ـ حدثت به عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: ما لَكُمْ لاَ تَناصَرُونَ ما لكم لا تُـمَانعون منا؟ هيهات لـيس ذلك لكم الـيوم

وقد قال بعضهم فـي معنى قوله: وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ: ولـيس لهم من الله يومئذٍ نصير ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم. وقد قـيـل: ولا هم ينصرون بـالطلب فـيهم والشفـاعة والفدية.

قال أبو جعفر: والقول الأول أولـى بتأويـل الآية لـما وصفنا من الله جل ثناؤه إنـما أعلـم الـمخاطبـين بهذه الآية أن يوم القـيامة يوم لا فدية لـمن استـحقّ من خـلقه عقوبته, ولا شفـاعة فـيه, ولا ناصر له. وذلك أن ذلك قد كان لهم فـي الدنـيا, فأخبر أن ذلك يوم القـيامة معدوم لا سبـيـل لهم إلـيه.

الآية : 49

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {وَإِذْ نَجّيْنَاكُم مّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مّن رّبّكُمْ عَظِيمٌ }

أما تأويـل قوله: وإذْ نَـجّيْناكُمْ فإنه عطف علـى قوله: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِـيَ فكأنه قال: اذكروا نعمتـي التـي أنعمت علـيكم, واذكروا إنعامنا علـيكم إذ نـجيناكم من آل فرعون بإنـجائنا لكم منهم.

وأما آل فرعون فإنهم أهل دينه وقومه وأشياعه. وأصل «آل» أهل, أبدلت الهاء همزة, كما قالوا ماه, فأبدلوا الهاء همزة, فإذا صغروه قالوا مُوَيه, فردّوا الهاء فـي التصغير وأخرجوه علـى أصله. وكذلك إذا صغروا آل, قالوا: أهيـل. وقد حُكي سماعا من العرب فـي تصغير آل: أويـل. وقد يقال: فلان من آل النساء, يراد به أنه منهن خـلق, ويقال ذلك أيضا بـمعنى أنه يريدهنّ ويهواهن, كما قال الشاعر:

فإنّكَ مِنْ آلِ النّساءِ وَإِنّـمَايَكُنّ لأدْنى لا وِصَالَ لِغَائِبِ

وأحسن أماكن «آل» أن ينطق به مع الأسماء الـمشهورة, مثل قولهم: آل النبـي مـحمد صلى الله عليه وسلم وآل علـيّ, وآل عبـاس, وآل عقـيـل. وغير مستـحسن استعماله مع الـمـجهول, وفـي أسماء الأرضين وما أشبه ذلك غير حسن عند أهل العلـم بلسان العرب أن يقال: رأيت آل الرجل, ورآنـي آل الـمرأة, ولا رأيت آل البصرة, وآل الكوفة. وقد ذكر عن بعض العرب سماعا أنها تقول: رأيت آل مكة وآل الـمدينة, ولـيس ذلك فـي كلامهم بـالـمستعمل الفـاشي. وأما فرعون فإنه يقال: إنه اسم كانت ملوك العمالقة بـمصر تسمّى به, كما كانت ملوك الروم يُسمّي بعضهم قـيصر وبعضهم هرقل, وكما كانت ملوك فـارس تُسمى الأكاسرة واحدهم كسرى, وملوك الـيـمن تسمى التبـابعة واحدهم تبع. وأما فرعون موسى الذي أخبر الله تعالـى عن بنـي إسرائيـل أنه نـجاهم منه فإنه يقال: إن اسمه الولـيد بن مصعب بن الريان, وكذلك ذكر مـحمد بن إسحاق أنه بلغه عن اسمه.

622ـ حدثنا بذلك مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق: أن اسمه الولـيد بن مصعب بن الريان.

وإنـما جاز أن يقال: وَإذْ نَـجّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ والـخطاب به لـمن لـم يدرك فرعون ولا الـمنـجين منه, لأن الـمخاطبـين بذلك كانوا أبناء من نـجاهم من فرعون وقومه, فأضاف ما كان من نعمه علـى آبـائهم إلـيهم, وكذلك ما كان من كفران آبـائهم علـى وجه الإضافة, كما يقول القائل لآخر: فعلنا بكم كذا, وفعلنا بكم كذا, وقتلناكم وسبـيناكم, والـمخبر إما أن يكون يعنـي قومه وعشيرته بذلك أو أهل بلده ووطنه كان الـمقول له ذلك أدرك ما فعل بهم من ذلك أو لـم يدركه, كما قال الأخطل يهاجي جرير بن عطية:

وَلَقَدْ سَمَا لَكُمْ الهُذَيْـلُ فنالَكُمْبإرَابَ حَيْثُ يُقَسّـمُ الأنْفـالا

فـي فَـيْـلَقٍ يَدْعو الأرَاقمَ لـمْ تكُنْفرْسَانُهُ عُزْلاً وَلا أكْفَـالا

ولـم يـلق جرير هذيلاً ولا أدركه, ولا أدرك إراب ولا شهده. ولكنه لـما كان يوما من أيام قوم الأخطل علـى قوم جرير, أضاف الـخطاب إلـيه وإلـى قومه, فكذلك خطاب الله عزّ وجلّ من خاطبه بقوله: وَإذْ نَـجّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ لـما كان فعله ما فعل من ذلك بقوم من خاطبه بـالآية وآبـائهم, أضاف فعله ذلك الذي فعله بآبـائهم إلـى الـمخاطبـين بـالآية وقومهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يَسُومُونُكُمْ سُوءَ العَذَاب.

وفـي قوله: يَسُومُونَكُمْ وجهان من التأويـل, أحدهما: أن يكون خبرا مستأنفـا عن فعل فرعون ببنـي إسرائيـل, فـيكون معناه حينئذٍ: واذكروا نعمتـي علـيكم إذ نـجّيتكم من آل فرعون, وكانوا من قبل يسومونكم سوء العذاب. وإذا كان ذلك تأويـله كان موضع «يسومونكم» رفعا. والوجه الثانـي: أن يكون «يسومونكم» حالاً, فـيكون تأويـله حينئذٍ: وإذْ نـجيناكم من آل فرعون سائميكم سوء العذاب, فـيكون حالاً من آل فرعون.

وأما تأويـل قوله: يَسُومُونَكُمْ فإنه يوردونكم, ويذيقونكم, ويُولونكم, يقال منه: سامه خطة ضيـم: إذا أولاه ذلك وأذاقه, كما قال الشاعر:

إنْ سِيـمَ خَسْفـا وَجْهُهُ تَرَبّدَا

فأما تأويـل قوله: سُوءَ العَذَابِ فإنه يعنـي: ما ساءهم من العذاب. وقد قال بعضهم: أشدّ العذاب ولو كان ذلك معناه لقـيـل: أسوأ العذاب.

فإن قال لنا قائل: وما ذلك العذاب الذي كانوا يسومونهم الذي كان يسوءهم؟ قـيـل: هو ما وصفه الله تعالـى فـي كتابه فقال: يُذَبّحُونَ أبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَـحْيُونَ نِساءَكُمْ. وقد قال مـحمد بن إسحاق فـي ذلك ما:

623ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: أخبرنا ابن إسحاق, قال: كان فرعون يعذّب بنـي إسرائيـل فـيجعلهم خدما وخولاً, وصنّفهم فـي أعماله, فصنفٌ يبنون, وصنف يزرعون له, فهم فـي أعماله, ومن لـم يكن منهم فـي صنعة من عمله فعلـيه الـجزية, فسامهم كما قال الله عزّ وجل: سُوءَ العَذَابِ.

وقال السدي: جعلهم فـي الأعمال القذرة, وجعل يقتل أبناءهم, ويستـحيـي نساءهم.

624ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يُذَبّحُونَ أبْناءَكُمْ وَيَسْتَـحْيُونَ نِساءَكُمْ.

قال أبو جعفر: وأضاف الله جل ثناؤه ما كان من فعل آل فرعون ببنـي إسرائيـل من سَوْمهم إياهم سوء العذاب وذبحهم أبناءهم واستـحيائهم نساءهم دون فرعون, وإن كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كان بقوّة فرعون وعن أمره, لـمبـاشرتهم ذلك بأنفسهم. فبـين بذلك أن كل مبـاشر قتل نفس أو تعذيب حيّ بنفسه وإن كان عن أمر غيره, ففـاعله الـمتولـي ذلك هو الـمستـحق إضافة ذلك إلـيه, وإن كان الآمر قاهرا الفـاعل الـمأمور بذلك سلطانا كان الآمر أو لصّا خاربـا أو متغلبـا ف.اجرا, كما أضاف جل ثناؤه ذبح أبناء بنـي إسرائيـل واستـحياء نسائهم إلـى آل فرعون دون فرعون, وإن كانوا بقوّة فرعون وأمره إياهم بذلك فعلوا ما فعلوا مع غلبته إياهم وقهره لهم. فكذلك كل قاتل نفسا بأمر غيره ظلـما فهو الـمقتول عندنا به قصاصا, وإن كان قتله إياها بإكراه غيره له علـى قتله.

وأما تأويـل ذبحهم أبناء بنـي إسرائيـل, واستـحيائهم نساءهم, فإنه كان فـيـما ذكر لنا عن ابن عبـاس وغيره كالذي:

625ـ حدثنا به العبـاس بن الولـيد الآمـلـي وتـمـيـم بن الـمنتصر الواسطي, قالا: حدثنا يزيد بن هارون, قال: أخبرنا الأصبغ بن زيد, قال: حدثنا القاسم بن أيوب, قال: حدثنا سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيـم خـلـيـله أن يجعل فـي ذرّيته أنبـياء وملوكا وائتـمروا, وأجمعوا أمرهم علـى أن يبعث رجالاً معهم الشّفـارَ, يطوفون فـي بنـي إسرائيـل, فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه, ففعلوا. فلـما رأوا أن الكبـار من بنـي إسرائيـل يـموتون بآجالهم, وأن الصغار يذبحون, قال: توشكون أن تُفنوا بنـي إسرائيـل فتصيروا إلـى أن تبـاشروا من الأعمال والـخدمة ما كانوا يكفونكم, فـاقتلوا عاما كل مولود ذكر فتقلّ أبناؤهم ودعوا عاما. فحملت أمّ موسى بهارون فـي العام الذي لا يذبح فـيه الغلـمان, فولدته علانـية أمه, حتـى إذا كان القابل حملت بـموسى.

626ـ وقد حدثنا عبد الكريـم بن الهيثم, قال: حدثنا إبراهيـم بن بشار الرمادي, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, قال: حدثنا أبو سعيد, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قالت الكهنة لفرعون: إنه يولد فـي هذه العام مولود يذهب بـملكك. قال: فجعل فرعون علـى كل ألف امرأة مائة رجل, وعلـى كل مائة عشرة, وعلـى كل عشرة رجلاً فقال: انظروا كل امرأة حامل فـي الـمدينة, فإذا وضعت حملها فـانظروا إلـيه, فإن كان ذكرا فـاذبحوه, وإن كان أنثى فخـلّوا عنها. وذلك قوله: يُذَبّحُونَ أبْناءَكُمْ وَيَسْتَـحْيُونَ نِساءَكُمْ وفِـي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ.

627ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وَإِذْ نَـجّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونُكُمْ سُوءَ العَذَابِ قال: إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة, فقالت الكهنة: إنه سيولد العام بـمصر غلام يكون هلاكك علـى يديه. فبعث فـي أهل مصر نساء قوابل, فإذا ولدت امرأة غلاما أتـى به فرعون فقتله ويستـحيـي الـجواري.

628ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحق بن الـحجاج, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس فـي قوله: وَإِذْ نَـجّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ الآية, قال: إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة, وإنه أتاه آت, فقال: إنه سينشأ فـي مصر غلام من بنـي إسرائيـل فـيظهر علـيك ويكون هلاكك علـى يديه. فبعث فـي مصر نساء. فذكر نـحو حديث آدم.

629ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر عن السدي, قال: كان من شأن فرعون أنه رأى فـي منامه أن نارا أقبلت من بـيت الـمقدس حتـى اشتـملت علـى بـيوت مصر, فأحرقت القبط وتركت بنـي إسرائيـل وأخربت بـيوت مصر, فدعا السحرة والكهنة والعافة والقافة والـحازَة, فسألهم عن رؤياه, فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيـل منه يعنون بـيت الـمقدس رجل يكون علـى وجهه هلاك مصر. فأمر ببنـي إسرائيـل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه, ولا تولد لهم جارية إلا تركت. وقال للقبط: انظروا مـملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخـلوهم, واجعلوا بنـي إسرائيـل يـلون تلك الأعمال القذرة. فجعل بنـي إسرائيـل فـي أعمال غلـمانهم, وأدخـلوا غلـمانهم فذلك حين يقول

الله تبارك وتعالى: إِنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأرْضِ يقول: تجبر في الأرض: وجعل أهلها شِيَعا, يعني بني إسرائيل, حين جعلهم في الأعمال القذرة, يستضعفُ طائِفَةً منهم يُذَبّحُ أبْنَاءَهُمْ. فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح فلا يكبر الصغير. وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت, فأسرع فيهم. فدخل رءوس القبط على فرعون, فكلموه, فقالوا: إن هؤلاء قد وقع فيهم الموت, فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا تبلغ الصغار وتفنى الكبار, فلو أنك كنت تبقي من أولادهم فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة. فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد هارون, فترك فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى.

630ـ حدثنا محمد بن حميد, قال: حدثنا سلمة, عن ابن إسحاق, قال: ذكر لي أنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون وحُزَاتُه إليه, فقالوا له: تعلّم أنا نجد في علمنا أن مولودا من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه, يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك, ويخرجك من أرضك, ويبدّل دينك. فلما قالوا له ذلك, أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان, وأمر بالنساء يستحيين. فجمع القوابل من نساء مملكته, فقال لهن: لا يسقطن على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قتلتُنّه. فكنّ يفعلن ذلك, وكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان, ويأمر بالحبالى فيعذّبن حتى يطرحن ما في بطونهن.

631ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلمة, عن محمد بن إسحاق, عن عبد الله بن أبي نجيح, عن مجاهد, قال: لقد ذكر أنه كان ليأمر بالقصب فيشقّ حتى يجعل أمثال الشّفار, ثم يصف بعضه إلى بعض, ثم يؤتى بالحبالى من بني إسرائيل, فيوقفن عليه فيحزّ أقدامهن, حتى إن المرأة منهن لتمصَعُ بولدها فيقع من بين رجليها, فتظلّ تطؤه تتقي به حدّ القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها. حتى أسرف في ذلك وكاد يفنيهم, فقيل له: أفنيت الناس وقطعت النسل, وإنهم خَوَلُك وعمالك. فأمر أن يقتل الغلمان عاما ويستحيوا عاما. فولد هارون في السنة التي يستحيا فيها الغلمان, وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون.

قال أبو جعفر: والذي قاله من ذكرنا قوله من أهل العلم كان ذبح آل فرعون أبناء بني إسرائيل واستحياؤهم نساءهم, فتأويل قوله إذا على ما تأوّله الذين ذكرنا قولهم: ويستحيون نساءكم: يستبقونهن فلا يقتلونهن.

وقد يجب على تأويل من قال بالقول الذي ذكرنا عن ابن عباس وأبي العالية والربيع بن أنس والسدي في تأويل قوله: وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ: أنه تركهم الإناث من القتل عند ولادتهن إياهن أن يكون جائزا أن تسمى الطفلة من الإناث في حال صباها وبعد ولادها امرأة, والصبايا الصغار وهن أطفال: نساء, لأنهم تأوّلوا قول الله جل وعزّ: وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ: يستبقون الإناث من الولدان عند الولادة فلا يقتلونهن.

وقد أنكر ذلك من قولهم ابن جريج, فقال بما:

632ـ حدثنا به القاسم بن الحسن, قال: حدثنا الحسين بن داود, قال: حدثني حجاج, عن ابن جريج قوله: وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ قال: يسترقّون نساءكم.

فحاد ابن جريج بقوله هذا عما قاله من ذكرنا قوله في قوله: وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ إنه استحياء الصبايا الأطفال, قال: إذ لم نجدهن يلزمهن اسم

نساء. ثم دخـل فـيـما هو أعظم مـما أنكر بتأويـله «ويستـحيون» يسترقّون, وذلك تأويـل غير موجود فـي لغة عربـية ولا عجمية, وذلك أن الاستـحياء إنـما هو استفعالٌ من الـحياة نظير الاستبقاء من البقاء والاستسقاء من السقـي, وهو معنى من الاسترقاق بـمعزل.

وقد قال آخرون: قوله يُذَبّحونَ أبْناءَكُمْ بـمعنى يذبحون رجالكم آبـاء أبنائكم. وأنكروا أن يكون الـمذبوحون الأطفـال, وقد قرن بهم النساء. فقالوا: فـي إخبـار الله جل ثناؤه إن الـمستـحين هم النساء الدلالة الواضحة علـى أن الذين كانوا يذبحون هم الرجال دون الصبـيان, لأن الـمذبحين لو كانوا هم الأطفـال لوجب أن يكون الـمستـحيون هم الصبـايا. قالوا: وفـي إخبـار الله عزّ وجل أنهم النساء ما يبـين أن الـمذبحين هم الرجال. وقد أغفل قائلوا هذه الـمقالة مع خروجهم من تأويـل أهل التأويـل من الصحابة والتابعين موضع الصواب, وذلك أن الله جل ثناؤه قد أخبر عن وحيه إلـى أمّ موسى أنه أمرها أن ترضع موسى, فإذا خافت علـيه أن تلقـيه فـي التابوت ثم تلقـيه فـي الـيـم. فمعلوم بذلك أن القوم لو كانوا إنـما يقتلون الرجال ويتركون النساء لـم يكن بأمّ موسى حاجة إلـى إلقاء موسى فـي الـيـمّ, أو لو أن موسى كان رجلاً لـم تـجعله أمه فـي التابوت ولكن ذلك عندنا علـى ما تأوّله ابن عبـاس ومن حكينا قوله قبل من ذبح آل فرعون الصبـيان وتركهم من القتل الصبـايا.

وإنـما قـيـل: وَيَسْتَـحْيُونَ نِسَاءَكُمْ إذ كان الصبـايا داخلات مع أمهاتهن, وأمهاتهن لا شك نساء فـي الاستـحياء, لأنهم لـم يكونوا يقتلون صغار النساء ولا كبـارهن, فقـيـل: وَيَسْتَـحْيُونَ نِساءَكُمْ يعنـي بذلك الوالدات والـمولودات كما يقال: قد أقبل الرجال وإن كان فـيهم صبـيان, فكذلك قوله: وَيَسْتَـحْيُونَ نِساءَكُمْ. وأما من الذكور فإنه لـما لـم يكن يذبح إلا الـمولودون قـيـل: يذبحون أبناءكم, ولـم يقل يذبحون رجالكم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وفِـي ذَلِكُمْ بَلاءٌ منْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ.

أما قوله: وفِـي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ فإنه يعنـي: وفـي الذي فعلنا بكم من إنـجائنا إياكم مـما كنتـم فـيه من عذاب آل فرعون إياكم علـى ما وصفت بلاء لكم من ربكم عظيـم. ويعنـي بقوله بلاء: نعمة. كما:

633ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ قال: نعمة.

634ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي قوله: وفـي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ أما البلاء: فـالنعمة.

635ـ وحدثنا سفـيان, قال: حدثنا أبـي, عن سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد: وفِـي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ قال: نعمة من ربكم عظيـمة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثل حديث سفـيان.

636ـ حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاح, عن ابن جريج: وَفِـي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظِيـمٌ قال: نعمة عظيـمة.

وأصل البلاء فـي كلام العرب: الاختبـار والامتـحان, ثم يستعمل فـي الـخير والشرّ, لأن الامتـحان والاختبـار قد يكون بـالـخير كما يكون بـالشرّ, كما قال

الله جل ثناؤه: وَبَلَوْناهُمْ بـالـحَسَناتِ وَالسّيّئات لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ يقول: اختبرناهم, وكما قال جل ذكره: وَنَبْلُوكُمْ بـالشّرّ والـخَيْرِ فِتْنَةً. ثم تسمي العرب الـخير بلاء والشرّ بلاء, غير أن الأكثر فـي الشرّ أن يقال: بلوته أبلوه بلاء, وفـي الـخير: أبلـيته أبلـيه إبلاءً وبلاءً ومن ذلك قول زهير بن أبـي سلـمى:

جَزَى اللّهُ بـالإحْسانِ ما فَعَلا بكُمْوأبلاهُما خَيْرَ البَلاءِ الّذِي يَبْلُو

فجمع بـين اللغتـين لأنه أراد: فأنعم الله علـيهما خير النعم التـي يختبر بها عبـاده.

الآية : 50

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ }

أما تأويـل قوله: وَإذْ فَرَقْنا بكُمُ فإنه عطف علـى: وَإذْ نَـجّيْناكُمْ بـمعنى: واذكروا نعمتـي التـي أنعمت علـيكم, واذكروا إذ نـجيناكم من آل فرعون, وإذ فرقنا بكم البحر. ومعنى قوله: فَرَقْنا بِكُمْ: فصلنا بكم البحر, لأنهم كانوا اثنـي عشر سبطا, ففرق البحر اثنـي عشر طريقا, فسلك كل سبط منهم طريقا منها. فذلك فرق الله بهم جل ثناؤه البحر, وفصله بهم بتفريقهم فـي طريق الاثنـي عشر. كما:

637ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السدي: لـما أتـى موسى البحر كناه أبـا خالد, وضربه فـانفلق فكان كل فرق كالطود العظيـم, فدخـلت بنو إسرائيـل, وكان فـي البحر اثنا عشر طريقا فـي كل طريق سبط.

وقد قال بعض نـحويـي البصرة: معنى قوله: وَإذْ فَرَقْنا بِكُمُ البَحْرَ فرقنا بـينكم وبـين الـماء: يريد بذلك: فصلنا بـينكم وبـينه وحجزناه حيث مررتـم به. وذلك خلاف ما فـي ظاهر التلاوة لأن الله جل ثناؤه إنـما أخبر أنه فرق البحر بـالقوم, ولـم يخبر أنه فرق بـين القوم وبـين البحر, فـيكون التأويـل ما قاله قائلوا هذه الـمقالة, وفرقه البحر بـالقوم, إنـما هو تفريقه البحر بهم علـى ما وصفنا من افتراق سبـيـله بهم علـى ما جاءت به الآثار.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فأنْـجَيْناكُمْ وأغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ.

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: وكيف غرق الله جل ثناؤه آل فرعون, ونَـجّى بنـي إسرائيـل؟ قـيـل له: كما:

638ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن كعب القرظي, عن عبد الله بن شداد بن الهاد, قال: لقد ذكر لـي أنه خرج فرعون فـي طلب موسى علـى سبعين ألفـا من دُهْمِ الـخيـل سوى ما فـي جنده من شُهْبِ الـخيـل وخرج موسى, حتـى إذا قابله البحر ولـم يكن له عنه منصرف, طلع فرعون فـي جنده من خـلفهم, فلـما تراءى الـجمعان قال أصحاب موسى إنّا لَـمُدْرَكُونَ قال موسى: كَلاّ إنّ مَعِي رَبـي سَيَهْدِينِ أي للنـجاة, وقد وعدنـي ذلك ولا خـلف لوعده.

639ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: أوحى الله إلـى البحر فـيـما ذكر إذا ضربك موسى بعصاه فـانفلقْ له, قال: فبـات البحر يضرب بعضه بعضا فَرَقا من الله وانتظار أمره, فأوحى الله جل وعزّ إلـى موسى: أنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فضربه بها وفـيها سلطان الله

الذي أعطاه, فـانْفَلَقَ فَكانَ كُلّ فِرْقٍ كالطّوْدِ العَظِيـمِ أي كالـجبل علـى يبس من الأرض. يقول الله لـموسى: اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقا فـي البَحْرِ يَبَسا لاَ تَـخافُ دَرَكا وَلا تَـخْشَى فلـما استقرّ له البحر علـى طريق قائمة يَبَسٍ سلك فـيه موسى ببنـي إسرائيـل, وأتبعه فرعون بجنوده.

762وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن كعب القرظي, عن عبد الله بن شداد بن الهاد اللـيثـي, قال: حدثت أنه لـما دخـل بنو إسرائيـل البحر, فلـم يبق منهم أحد, أقبل فرعون وهو علـى حصان له من الـخيـل حتـى وقـف علـى شفـير البحر, وهو قائم علـى حاله, فهاب الـحصان أن ينفذه فعرض له جبريـل علـى فرس أنثى وَدِيق, فقرّبها منه فشمها الفحل, فلـما شمها قدّمها, فتقدم معها الـحصان علـيه فرعون, فلـما رأى جند فرعون فرعونَ قد دخـل دخـلوا معه وجبريـل أمامه, وهم يتبعون فرعون وميكائيـل علـى فرس من خـلف القوم يسوقهم, يقول: الـحقوا بصاحبكم. حتـى إذا فصل جبريـل من البحر لـيس أمامه أحد, ووقـف ميكائيـل علـى ناحيته الأخرى ولـيس خـلفه أحد, طبق علـيهم البحر, ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله عزّ وجلّ وقدرته ما رأى وعرف ذلته وخذلته نفسه: آمَنْتُ أنّهُ لاَ إلَهَ إلاّ الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرَائِيـلَ وأنا مِنَ الـمُسْلِـمِينَ.

640ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن أبـي إسحاق الهمدانـي, عن عمرو بن ميـمون الأودي فـي قوله: وَإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأنْـجَيْنَاكُمْ وأغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ قال: لـما خرج موسى ببنـي إسرائيـل بلغ ذلك فرعون, فقال: لا تتبعوهم حتـى يصيح الديك. قال: فوالله ما صاح لـيـلتئذ ديك حتـى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت, ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتـى يجتـمع إلـيّ ستـمائة ألف من القبط. فلـم يفرغ من كبدها حتـى اجتـمع إلـيه ستـمائة ألف من القبط. ثم سار, فلـما أتـى موسى البحر, قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمرك ربك يا موسى؟ قال: أمامك يشير إلـى البحر. فأقحم يوشك فرسه فـي البحر حتـى بلغ الغمر, فذهب به ثم رجع, فقال: أين أمرك ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ففعل ذلك ثلاث مرات, ثم أوحى الله جل ثناؤه إلـى موسى: أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْر فـانْفَلَقَ فَكانَ كُل فِرْقٍ كالطّوْدِ العَظِيـم يقول: مثل جبل. قال: ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون فـي طريقهم, حتـى إذا تتاموا فـيه أطبقه الله علـيهم, فلذلك قال: وأغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ قال معمر: قال قتادة: كان مع موسى ستـمائة ألف, وأتبعه فرعون علـى ألف ألف ومائة ألف حصان.

641ـ وحدثنـي عبد الكريـم بن الهيثم, قال: حدثنا إبراهيـم بن بشار الرمادي, قال: حدثنا سفـيان, قال: حدثنا أبو سعيد, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: أوحى الله جل وعز إلـى موسى أنْ أسْرِ بعِبـادِي لَـيْلاً إنّكُمْ مُتّبَعُونَ قال: فسرى موسى ببنـي إسرائيـل لـيلاً, فأتبعهم فرعون فـي ألف ألف حصان سوى الإناث وكان موسى فـي ستـمائة ألف, فلـما عاينهم فرعون قال: إنّ هؤلاءِ لِشَرْذِمَةٌ قَلِـيـلُونَ وإنّهُمْ لَنا لَغَائِظُونَ وإنّا لَـجَمِيعٌ حَذِرُونَ. فسرى موسى ببنـي إسرائيـل حتـى هجموا علـى البحر, فـالتفتوا فإذا هم برَهْج دوابّ فرعون فقالوا: يا موسى أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أنْ تأتِـيَنَا ومِن بعدِ ما جِئْتَنا هذا البحر أمامنا, وهذا فرعون قد رهقنا بـمن معه. قال عَسَى

رَبّكُمْ أنْ يُهْلِكَ عَدُوّكُمْ وَيَسْتَخْـلِفَكم فِـي الأرْضِ فَـيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. قال: فأوحى الله جل ثناؤه إلـى موسى أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البحر وأوحي إلـى البحر: أن اسمع لـموسى وأطع إذا ضربك. قال: فبـات البحر له أفكل يعنـي له رعدة لا يدرى من أيّ جوانبه يضربه, قال: فقال يوشع لـموسى: بـماذا أمرت؟ قال: أمرت أن أضرب البحر. قال: فـاضربه قال: فضرب موسى البحر بعصاه, فـانفلق, فكان فـيه اثنا عشر طريقا, كل طريق كالطود العظيـم, فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فـيه. فلـما أخذوا فـي الطريق, قال بعضهم لبعض: ما لنا لا نرى أصحابنا؟ قالوا لـموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم علـى طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتـى نراهم قال سفـيان, قال عمار الدهنـي: قال موسى: اللهمّ أعنـي علـى أخلاقهم السيئة. قال: فأوحى الله إلـيه: أن قل بعصاك هكذا وأومأ إبراهيـم بـيده يديرها علـى البحر قال موسى بعصاه علـى الـحيطان هكذا, فصار فـيها كُوًى ينظر بعضهم إلـى بعض, قال سفـيان: قال أبو سعيد, عن عكرمة, عن ابن عبـاس: فساروا حتـى خرجوا من البحر, فلـما جاز آخر قوم موسى هجم فرعون علـى البحر هو وأصحابه, وكان فرعون علـى فرس أدهم ذَنُوب حصان. فلـما هجم علـى البحر هاب الـحصان أن يقتـحم فـي البحر, فتـمثل له جبريـل علـى فرس أنثى وَدِيق. فلـما رآها الـحصان تقحّم خـلفها, وقـيـل لـموسى: اترك البحر رَهْوا قال: طرقا علـى حاله قال: ودخـل فرعون وقومه فـي البحر, فلـما دخـل آخر قوم فرعون وجاز آخر قوم موسى أطبق البحر علـى فرعون وقومه فأغرقوا.

642ـ حدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السدي: أن الله أمر موسى أن يخرج ببنـي إسرائيـل, فقال: أسْرِ بِعِبَـادِي لَـيْلاً إنّكُمْ مُتّبَعُونَ فخرج موسى وهارون فـي قومهما, وألقـي علـى القبط الـموت فمات كل بكر رجل. فأصبحوا يدفنونهم, فشغلوا عن طلبهم حتـى طلعت الشمس, فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: فأتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِـينَ فكان موسى علـى ساقة بنـي إسرائيـل, وكان هارون أمامهم يقدُمُهم. فقال الـمؤمن لـموسى: يا نبـيّ الله, أين أمرت؟ قال: البحر. فأراد أن يقتـحم, فمنعه موسى. وخرج موسى فـي ستـمائة ألف وعشرين ألف مقاتل, لا يعدّون ابنَ العشرين لصغره ولا ابن الستـين لكبره, وإنـما عدوّا ما بـين ذلك سوى الذرية. وتبعهم فرعون وعلـى مقدمته هامان فـي ألف ألف وسبعمائة ألف حصان لـيس فـيها ما ذبـانه, يعنـي الأنثى وذلك حين يقول الله جل ثناؤه: فأرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِـي الـمَدَائِنِ حاشِرِينَ إنّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِـيـلُونَ يعنـي بنـي إسرائيـل. فتقدم هارون, فضرب البحر, فأبى البحر أن ينفتـح, وقال: من هذا الـجبـار الذي يضربنـي؟ حتـى أتاه موسى, فكناه أبـا خالد وضربه فـانفلق فكانَ كلّ فِرْقٍ كالطّوْدِ العَظِيـم يقول: كالـجبل العظيـم. فدخـلت بنو إسرائيـل. وكانَ فـي البحر اثنا عشر طريقا, فـي كل طريق سبط, وكانت الطرق انفلقت بجدران, فقال كل سبط: قد قتل أصحابنا: فلـما رأى ذلك موسى, دعا الله, فجعلها لهم قناطر كهيئة الطّيقان. فنظر آخرهم إلـى أولهم, حتـى خرجوا جميعا. ثم دنا فرعون وأصحابه, فلـما نظر فرعون إلـى البحر منفلقا, قال: ألا ترون البحر فرق منـي قد انفتـح لـي حتـى أدرك أعدائي فأقتلهم؟ فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: وأزْلَفْنا ثَمّ الاَخرِينَ يقول: قرّبنا ثم الاَخرين يعنـي آل فرعون.

فلـما قام فرعون علـى أفواه الطرق أبت خيـله أن تقتـحم, فنزل جبريـل علـى ماذبـانه, فشامّ الـحصان ريح الـماذبـانه, فـاقتـحم فـي أثرها, حتـى إذا همّ أولهم أن يخرج ودخـل آخرهم, أمر البحر أن يأخذهم, فـالتطم علـيهم.

643ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لـما أخذ علـيهم فرعون الأرض إلـى البحر قال لهم فرعون: قولوا لهم يدخـلون البحر إن كانوا صادقـين. فلـما رآهم أصحاب موسى, قالوا: إنّا لَـمُدْرَكُونَ قال كَلاّ إنّ مَعِي رَبـي سَيَهْدِينِ فقال موسى للبحر: ألست تعلـم أنـي رسول الله؟ قال: بلـى. قال: وتعلـم أن هؤلاء عبـاد من عبـاد الله أمرنـي أن آتـي بهم؟ قال: بلـى. قال: أتعلـم أن هذا عدوّ الله؟ قال: بلـى. قال: فـانفرقْ لـي طريقا ولـمن معي. قال: يا موسى, إنـما أنا عبد مـملوك لـيس لـي أمر إلا أن يأمرنـي الله تعالـى. فأوحى الله عزّ وجل إلـى البحر: إذا ضربك موسى بعصاه فـانفرق, وأوحى إلـى موسى أن يضرب البحر, وقرأ قول الله تعالـى: فـاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقا فـي البَحْرِ يَبَسا لاَ تَـخافُ دَرَكا وَلا تَـخْشَى وقرأ قوله: وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْوا سَهَلاً لـيس فـيه تعدّ. فـانفرق اثنتـي عشرة فرقة, فسلك كل سبط فـي طريق. قال: فقالوا لفرعون: إنهم قد دخـلوا البحر. قال: ادخـلوا علـيهم, قال: وجبريـل فـي آخر بنـي إسرائيـل يقول لهم: لـيـلـحق آخركم أولكم. وفـي أول آل فرعون, يقول لهم: رويدا يـلـحق آخركم أولكم. فجعل كل سبط فـي البحر يقولون للسبط الذين دخـلوا قبلهم: قد هلكوا. فلـما دخـل ذلك قلوبهم, أوحى الله جلّ وعزّ إلـى البحر, فجعل لهم قناطر ينظر هؤلاء إلـى هؤلاء, حتـى إذا خرج آخر هؤلاء ودخـل آخر هؤلاء أمر الله البحر فأطبق علـى هؤلاء.

ويعنـي بقوله: وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ أي تنظرون إلـى فَرْقِ الله لكم البحر وإهلاكه آل فرعون فـي الـموضع الذي نـجاكم فـيه, وإلـى عظيـم سلطانه فـي الذي أراكم من طاعة البحر إياه من مصيره رُكاما فَلِقا كهيئة الأطواد الشامخة غير زائل عن حدّه, انقـيادا لأمر الله وإذعانا لطاعته, وهو سائل ذائب قبل ذلك. يوقـفهم بذلك جل ذكره علـى موضع حججه علـيهم, ويذكرهم آلاءه عند أوائلهم, ويحذرهم فـي تكذيبهم نبـينا مـحمدا صلى الله عليه وسلم أن يحلّ بهم ما حلّ بفرعون وآله فـي تكذيبهم موسى صلى الله عليه وسلم.

وقد زعم بعض أهل العربـية أن معنى قوله: وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ كمعنى قول القائل: «ضُربت وأهلك ينظرون, فما أتوك ولا أعانوك» بـمعنى: وهم قريب بـمرأى ومسمع, وكقول الله تعالـى: ألَـمْ تَرَ إلـى رَبّكَ كَيْفَ مَدّ الظّلّ ولـيس هناك رؤية, إنـما هو علـم. والذي دعاه إلـى هذا التأويـل أنه وجه قوله: وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ: أي وأنتـم تنظرون إلـى غرق فرعون. فقال: قد كانوا فـي شغل من أن ينظروا مـما اكتنفهم من البحر إلـى فرعون وغرقه. ولـيس التأويـل الذي تأوله تأويـل الكلام, إنـما التأويـل: وأنتـم تنظرون إلـى فرق الله البحر لكم علـى ما قد وصفنا آنفـا, والتطام أمواج البحر بآل فرعون فـي الـموضع الذي صير لكم فـي البحر طريقا يبسا, وذلك كان لا شك نظر عيان لا نظر علـم كما ظنه قائل هذا القول الذي حكينا قوله.

تابع : سورة البقرة

الآيات 51 - 110

الآية : 51

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمّ اتّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }

اختلفت القراء فـي قراءة ذلك, فقرأ بعضهم: وَاعَدْنا بـمعنى أن الله تعالـى واعد موسى ملاقاة الطور لـمناجاته, فكانت الـمواعدة من الله لـموسى, ومن موسى لربه. وكان من حجتهم علـى اختـيارهم قراءة وَاعَدْنا علـى «وعدنا» أن قالوا: كل إيعاد كان بـين اثنـين للالتقاء أو الاجتـماع, فكل واحد منهما مواعد صاحبه ذلك, فلذلك زعموا أنه وجب أن يقضي لقراءة من قرأ: واعدنا بـالاختـيار علـى قراءة من قرأ «وعدنا».

وقرأ بعضهم: «وعَدْنا» بـمعنى أن الله الواعد موسى, والـمنفرد بـالوعد دونه. وكان من حجتهم فـي اختـيارهم ذلك, أن قالوا: إنـما تكون الـمواعدة بـين البشر, فأما الله جل ثناؤه فإنه الـمنفرد بـالوعد والوعيد فـي كل خير وشرّ. قالوا: وبذلك جاء التنزيـل فـي القرآن كله, فقال جل ثناؤه: إنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الـحَقّ وقال: وَإذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إحْدَى الطّائِفَتَـيْنِ أنها لَكُمْ قالوا: فكذلك الواجب أن يكون هو الـمنفرد بـالوعد فـي قوله: «وإذْ وَعَدْنا مُوسَى».

والصواب عندنا فـي ذلك من القول, أنهما قراءتان قد جاءت بهما الأمة وقرأت بهما القراء, ولـيس فـي القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى, وإن كان فـي إحداهما زيادة معنى علـى الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة. فأما من جهة الـمفهوم بهما فهما متفقتان, وذلك أن من أخبر عن شخص أنه وعد غيره اللقاء بـموضع من الـمواضع, فمعلوم أن الـموعود ذلك واعد صاحبه من لقائه بذلك الـمكان, مثل الذي وعده من ذلك صاحبه إذا كان وعده ما وعده إياه من ذلك عن اتفـاق منهما علـيه. ومعلوم أن موسى صلوات الله علـيه لـم يَعِدْه ربه الطور إلا عن رضا موسى بذلك, إذ كان موسى غير مشكوك فـيه أنه كان بكل ما أمر الله به راضيا, وإلـى مـحبته فـيه مسارعا. ومعقول أن الله تعالـى لـم يعد موسى ذلك إلا وموسى إلـيه مستـجيب. وإذ كان ذلك كذلك, فمعلوم أن الله عزّ ذكره قد كان وعد موسى الطور, ووعده موسى اللقاء, وكان الله عزّ ذكره لـموسى واعدا ومواعدا له الـمناجاة علـى الطور, وكان موسى واعدا لربه مواعدا له اللقاء. فبأيّ القراءتـين من «وعد» و«واعد» قرأ القارىء, فهو الـحقّ فـي ذلك من جهة التأويـل واللغة, مصيب لـما وصفنا من العلل قبل. ولا معنى لقول القائل: إنـما تكون الـمواعدة بـين البشر, وأن الله بـالوعد والوعيد منفرد فـي كل خير وشرّ وذلك أن انفراد الله بـالوعد والوعيد فـي الثواب والعقاب والـخير والشرّ والنفع والضرّ الذي هو بـيده وإلـيه دون سائر خـلقه, لا يحيـل الكلام الـجاري بـين الناس فـي استعمالهم إياه عن وجوهه ولا يغيره عن معانـيه. والـجاري بـين الناس من الكلام الـمفهوم ما وصفنا من أن كل إيعاد كان بـين اثنـين فهو وعد من كل واحد منهما صاحبه ومواعدة بـينهما, وأن كل واحد منهما واعد صاحبه مواعد, وأن الوعد الذي يكون به الإنفراد من الواعد دون الـموعود إنـما هو ما كان بـمعنى الوعد الذي هو خلاف الوعيد.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مُوسَى.

وموسى فـيـما بلغنا بـالقبطية كلـمتان, يعنـي بهما: ماء وشجر, فمو: هو الـماء, وسا: هو الشجر. وإنـما سُمي بذلك فـيـما بلغنا, لأن أمه لـما جعلته فـي التابوت حين خافت علـيه من فرعون وألقته فـي الـيـم كما أوحى الله إلـيها وقـيـل: إن الـيـم الذي ألقته فـيه هو النـيـل دفعته أمواج الـيـم, حتـى أدخـلته بـين أشجار عند بـيت فرعون, فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن, فوجدن التابوت, فأخذنه, فسُمي بـاسم الـمكان الذي أصيب فـيه. وكان ذلك الـمكان فـيه ماء وشجر, فقـيـل: موسى ماء وشجر: كذلك:

644ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, عن أسبـاط بن نصر, عن السدي.

وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب إسرائيـل الله بن إسحاق ذبـيح الله ابن إبراهيـم خـلـيـل الله, فـيـما زعم ابن إسحاق.

645ـ حدثنـي بذلك ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل عنه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أرْبَعِينَ لَـيْـلَةً.

ومعنى ذلك وَإذْ وَاعَدْنا مُوسى أرْبَعِينَ لَـيْـلَةً بتـمامها, فـالأربعون لـيـلة كلها داخـلة فـي الـميعاد.

وقد زعم بعض نـحويـي البصرة أن معناه: وإذْ واعدنا موسى انقضاء أربعين لـيـلة أي رأس الأربعين, ومثل ذلك بقوله: واسألِ القَرْيَةَ وبقولهم الـيوم أربعون منذ خرج فلان, والـيوم يومان, أي الـيوم تـمام يومين وتـمام أربعين. وذلك خلاف ما جاءت به الرواية عن أهل التأويـل وخلاف ظاهر التلاوة, فأما ظاهر التلاوة, فإن الله جل ثناؤه قد أخبر أنه واعد موسى أربعين لـيـلة, فلـيس لأحد إحالة ظاهر خبره إلـى بـاطن بغير برهان دالّ علـى صحته. وأما أهل التأويـل فإنهم قالوا فـي ذلك ما أنا ذاكره, وهو ما:

646ـ حدثنـي به الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع بن أنس, عن أبـي العالـية قوله: وَإذْ وَاعَدْنا مُوسَى أرْبَعِينَ لَـيْـلَةً قالَ: يعنـي ذا القعدة وعشرا من ذي الـحجة. وذلك حين خـلف موسى أصحابه, واستـخـلف علـيهم هارون, فمكث علـى الطور أربعين لـيـلة, وأنزل علـيه التوراة فـي الألواح, وكانت الألواح من زبرجد. فقرّبه الربّ إلـيه نـجيّا, وكلـمه, وسمع صريف القلـم. وبلغنا أنه لـم يحدث حدثا فـي الأربعين لـيـلة حتـى هبط من الطور.

وحدثت عن عمار بن الـحسن, حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, بنـحوه.

647ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن ابن إسحاق, قال: وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه, ونـجاه وقومه ثلاثـين لـيـلة, ثم أتـمها بعشر, فتـمّ ميقات ربه أربعين لـيـلة, تلقاه ربه فـيها بـما شاء. واستـخـلف موسى هارون علـى بنـي إسرائيـل, وقال: إنـي متعجل إلـى ربـي فـاخـلفنـي فـي قومي ولا تتبع سبـيـل الـمفسدين فخرج موسى إلـى ربه متعجلاً للقائه شوقا إلـيه, وأقام هارون فـي بنـي إسرائيـل ومعه السامريّ يسير بهم علـى أثر موسى لـيـلـحقهم به.

648ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي, قال: انطلق موسى واستـخـلف هارون علـى بنـي إسرائيـل, وواعدهم ثلاثـين لـيـلة وأتـمها الله بعشر.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ثُمّ اتّـخَذْتُـمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأنْتُـمْ ظالِـمُونَ.
وتأويـل قوله: ثُمّ اتّـخَذْتُـمُ العجْلَ منْ بَعْدِهِ ثم اتـخذتـم فـي أيام مواعدة موسى العجل إلها من بعد أن فـارقكم موسى متوجها إلـى الـموعد. والهاء فـي قوله «من بعده» عائدة علـى ذكر موسى. فأخبر جل ثناؤه الـمخالفـين نبـينا صلى الله عليه وسلم من يهود بنـي إسرائيـل الـمكذّبـين به الـمخاطبـين بهذه الآية, عن فعل آبـائهم وأسلافهم وتكذيبهم رسلهم وخلافهم أنبـياءهم, مع تتابع نعمه علـيهم وسبوغ آلائه لديهم, معرّفهم بذلك أنهم من خلافهم مـحمدا صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به وجحودهم لرسالته, مع علـمهم بصدقه علـى مثل منهاج آبـائه وأسلافهم, ومـحذّرهم من نزول سطوته بهم بـمقامهم علـى ذلك من تكذيبهم ما نزل بأوائلهم الـمكذّبـين بـالرسل من الـمسخ واللعن وأنواع النقمات.
وكان سبب اتـخاذهم العجل ما:
649ـ حدثنـي به عبد الكريـم بن الهيثم, قال: حدثنا إبراهيـم بن بشار الرمادي, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, قال: حدثنا أبو سعيد, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: لـما هجم فرعون علـى البحر هو وأصحابه, وكان فرعون علـى فرس أدهم ذنوب حصان فلـما هجم علـى البحر هاب الـحصان أن يقتـحم فـي البحر, فتـمثل له جبريـل علـى فرس أنثى وديق, فلـما رآها الـحصان تقحّم خـلفها. قال: وعرف السامريّ جبريـل لأن أمه حين خافت أن يذبح خـلفته فـي غار وأطبقت علـيه, فكان جبريـل يأتـيه فـيغذوه بأصابعه, فـيجد فـي بعض أصابعه لبنا, وفـي الأخرى عسلاً, وفـي الأخرى سمنا. فلـم يزل يغذوه حتـى نشأ, فلـما عاينه فـي البحر عرفه, فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ من تـحت الـحافر قبضة. قال سفـيان: فكان ابن مسعود يقرؤها: «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول». قال أبو سعيد, قال عكرمة, عن ابن عبـاس: وألقـي فـي رُوع السامري أنك لا تلقـيها علـى شيء فتقول كن كذا وكذا إلا كان. فلـم تزل القبضة معه فـي يده حتـى جاوز البحر. فلـما جاوز موسى وبنو إسرائيـل البحر, وأغرق الله آل فرعون, قال موسى لأخيه هارون: اخْـلُفْنِـي فِـي قَوْمِي وأصْلِـحْ ومضى موسى لـموعد ربه. قال: وكان مع بنـي إسرائيـل حلـيّ من حلـيّ آل فرعون قد تعوّروه, فكأنهم تأثموا منه, فأخرجوه لتنزل النار فتأكله, فلـما جمعوه, قال السامريّ بـالقبضة التـي كانت فـي يده هكذا, فقذفها فـيه وأومأ ابن إسحاق بـيده هكذا وقال: كن عجلاً جسدا له خوار فصار عجلاً جسدا له خوار. وكان يدخـل الريح فـي دبره ويخرج من فـيه يسمع له صوت, فقال: هذا إلهكم وإله موسى. فعكفوا علـى العجل يعبدونه, فقال هارون: يا قَوْمِ إنّـمَا فُتِنْتُـمْ بِهِ وإنّ رَبّكُمْ الرّحْمَنُ فـاتّبِعُونِـي وأطِيعُوا أمْرِي قالُوا لَنْ نَبْرَح عَلَـيْهِ عاكِفـينَ حتـى يَرْجَعَ إلَـيْنَا مُوسَى.
650ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السدي: لـما أمر الله موسى أن يخرج ببنـي إسرائيـل يعنـي من أرض مصر أمر موسى بنـي إسرائيـل أن يخرجوا وأمرهم أن يستعيروا الـحلـيّ من القبط. فلـما نـجّى الله موسى ومن معه من بنـي إسرائيـل من البحر, وغرق آل فرعون, أتـى جبريـل إلـى موسى يذهب به إلـى الله, فأقبل علـى فرس فرآه السامري, فأنكره, وقال: إنه فرس

الـحياة. فقال حين رآه: إن لهذا لشأنا. فأخذ من تربة الـحافر حافر الفرس. فـانطلق موسى, واستـخـلف هارون علـى بنـي إسرائيـل, وواعدهم ثلاثـين لـيـلة, وأتـمها الله بعشر. فقال لهم هارون: يا بنـي إسرائيـل إن الغنـيـمة لا تـحل لكم, وإن حلـيّ القبط إنـما هو غنـيـمة, فـاجمعوها جميعا, واحفروا لها حفرة فـادفنوها, فإن جاء موسى فأحلها أخذتـموها, وإلا كان شيئا لـم تأكلوه. فجمعوا ذلك الـحلـيّ فـي تلك الـحفرة, وجاء السامريّ بتلك القبضة, فقذفها, فأخرج الله من الـحلـيّ عجلاً جسدا له خوار. وعدّت بنو إسرائيـل موعد موسى, فعدّوا اللـيـلة يوما والـيوم يوما, فلـما كان تـمام العشرين خرج لهم العجل فلـما رأوه قال لهم السامري: هَذَا إلهُكُمْ وَإلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ يقول: ترك موسى إلهه ههنا وذهب يطلبه. فعكفوا علـيه يعبدونه. وكان يخور ويـمشي, فقال لهم هارون: يا بنـي إسرائيـل إنّـمَا فُتِنْتُـمْ بِهِ يقول: إنـما ابتلـيتـم به يقول: بـالعجل وإن ربكم الرحمن. فأقام هارون ومن معه من بنـي إسرائيـل لا يقاتلونهم. وانطلق موسى إلـى إلهه يكلـمه, فلـما كلـمه قال له: وما أعجلَكَ عَنْ قَوْمكَ يا موسَى قالَ هُمْ أُولاءِ علـى أثَرِي وعَجِلْتُ إلَـيْكَ رَبـي لِتَرْضَى قال فإنّا قَدْ فَتَنّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وأضَلّهُمُ السّامِرِي فأخبره خبرهم. قال موسى: يا ربّ هذا السامري أمرهم أن يتـخذوا العجل, أرأيت الروح من نفخها فـيه؟ قال الرب: أنا. قال: ربّ أنت إذا أضللتهم.

651ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة عن ابن إسحاق, قال: كان فـيـما ذكر لـي أن موسى قال لبنـي إسرائيـل فـيـما أمره الله عزّ وجلّ به: استعيروا منهم يعنـي من آل فرعون الأمتعة والـحلـيّ والثـياب, فإنـي منفلكم أموالهم مع هلاكهم. فلـما أذن فرعون فـي الناس, كان مـما يحرّض به علـى بنـي إسرائيـل أن قال: حين سار ولـم يرضوا أن يخرجوا بأنفسهم حتـى ذهبوا بأموالكم معهم.

652ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, عن حكيـم بن جبـير, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: كان السامري رجلاً من أهل بـاجَرْما, وكان من قوم يعبدون البقر, وكان حبّ عبـادة البقر فـي نفسه, وكان قد أظهر الإسلام فـي بنـي إسرائيـل. فلـما فضل هارون فـي بنـي إسرائيـل وفضل موسى إلـى ربه, قال لهم هارون: أنتـم قد حملتـم أوزارا من زينة القوم آل فرعون وأمتعة وحلـيّا, فتطهروا منها, فإنها نـجس. وأوقد لهم نارا, فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فـيها قالوا: نعم. فجعلوا يأتون بـما كان معهم من تلك الأمتعة وذلك الـحلـيّ, فـيقذفون به فـيها, حتـى إذا تكسر الـحلـيّ فـيها ورأى السامريّ أثر فرس جبريـل أخذ ترابـا من أثر حافره, ثم أقبل إلـى النار فقال لهارون: يا نبـيّ الله ألقـي ما فـي يدي؟ قال: نعم. ولا يظنّ هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من ذلك الـحلـيّ والأمتعة. فقذفه فـيها فقال: كن عجلاً جسدا له خوار فكان للبلاء والفتنة, فقال: هَذَا إلهُكُمْ وَإلَهُ مُوسَى فعكفوا علـيه, وأحبوه حبـا لـم يحبوا مثله شيئا قط. يقول الله عز وجل: فَنَسِيَ أي ترك ما كان علـيه من الإسلام, يعنـي السامري, أفَلا يَرَوْنَ أنْ لا يَرْجِعُ إلَـيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَـمْلِكُ لَهُمْ ضَرّا وَلا نَفْعا وكان اسم السامري موسى بن ظفر, وقع فـي أرض مصر, فدخـل فـي بنـي إسرائيـل. فلـما رأى هارون ما وقعوا فـيه: قالَ يا قَوْمِ إنّـمَا فُتِنْتُـمْ بِهِ وَإنّ رَبّكُمُ الرّحْمَنُ فـاتّبِعُونِـي وأطِيعُوا أمْرِي قالُوا

لَنْ نَبْرَحَ عَلَـيْهِ عَاكِفِـينَ حتـى يَرْجِعَ إلَـيْنَا مُوسَى فأقام هارون فـيـمن معه من الـمسلـمين مـمن لـم يفتتن, وأقام من يعبد العجل علـى عبـادة العجل. وتـخوّف هارون إن سار بـمن معه من الـمسلـمين أن يقول له موسى: فَرّقْتَ بَـيْنَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ وَلَـمْ تَرْقُبْ قَوْلِـي وكان له هائبـا مطيعا.

653ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لـما أنـجى الله عز وجل بنـي إسرائيـل من فرعون, وأغرق فرعون ومن معه, قال موسى لأخيه هارون: اخْـلُفْنِـي فِـي قَوْمِي وأصْلِـحْ وَلا تَتّبِعْ سَبِـيـلَ الـمُفْسِدِينَ قال: لـما خرج موسى وأمر هارون بـما أمره به, وخرج موسى متعجلاً مسرورا إلـى الله. قد عرف موسى أن الـمرء إذا نـجح فـي حاجة سيده كان يسرّه أن يتعجل إلـيه. قال: وكان حين خرجوا استعاروا حلـيا وثـيابـا من آل فرعون, فقال لهم هارون: إن هذه الثـياب والـحلـيّ لا تـحلّ لكم, فـاجمعوا نارا, فألقوه فـيها فأحرقوه قال: فجمعوا نارا. قال: وكان السامري قد نظر إلـى أثر دابة جبريـل, وكان جبريـل علـى فرس أنثى, وكان السامري فـي قوم موسى. قال: فنظر إلـى أثره فقبض منه قبضة, فـيبست علـيها يده فلـما ألقـى قوم موسى الـحلـيّ فـي النار, وألقـى السامري معهم القبضة, صوّر الله جل وعز ذلك لهم عجلاً ذهبـا, فدخـلته الريح, فكان له خوارٌ, فقالوا: ما هذا؟ فقال: السامري الـخبـيث: هذَا إلهُكُمْ وَإلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ... الآية, إلـى قوله: حتـى يَرْجِعَ إلَـيْنَا مُوسَى قال: حتـى إذا أتـى موسى الـموعد, قال الله: ما أعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسَى قالَ هُمْ أُولاَءِ علـى أثَرِي فقرأ حتـى بلغ: أفَطالَ عَلَـيْكُمُ العَهْدُ.

654ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد فـي قوله: ثمّ اتّـخَذْتُـمْ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ قال: العجل حَسِيـل البقرة. قال: حلـيّ استعاروه من آل فرعون, فقال لهم هارون: أخرجوه فتطهروا منه وأحرقوه وكان السامري قد أخذ قبضة من أثر فرس جبريـل, فطرحه فـيه فـانسبك, وكان له كالـجوف تهوي فـيه الرياح.

655ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: إنـما سمي العجل, لأنهم عَجِلُوا فـاتـخذوه قبل أن يأتـيهم موسى.

حدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بنـحو حديث القاسم, عن الـحسن.

حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, بنـحوه.

وتأويـل قوله وأنْتُـمْ ظالِـمُونَ يعنـي وأنتـم واضعوا العبـادة فـي غير موضعها لأن العبـادة لا تنبغي إلا لله عز وجل وعبدتـم أنتـم العجل ظلـما منكم ووضعا للعبـادة فـي غير موضعها. وقد دللنا فـي غير هذا الـموضع مـما مضى من كتابنا أن أصل كل ظلـم وضع الشيء فـي غير موضعه, فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـموضع.

الآية : 52

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{ثُمّ عَفَوْنَا عَنكُم مّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ }

وتأويـل قوله: ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلكَ يقول: تركنا معاجلتكم بـالعقوبة من بعد ذلك, أي من بعد اتـخاذكم العجل إلها. كما:

656ـ حدثنـي به الـمثنى بن إبراهيـم قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: ثُمّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يعنـي من بعد ما اتـخذتـم العجل.

وأما تأويـل قوله: لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ فإنه يعنـي به: لتشكروا. ومعنى «لعل» فـي هذا الـموضع معنى «كي», وقد بـينت فـيـما مضى قبل أن أحد معانـي «لعل» «كي» بـما فـيه الكفـاية عن إعادته فـي هذا الـموضع. فمعنى الكلام إذا: ثم عفونا عنكم من بعد اتـخاذكم العجل إلها لتشكرونـي علـى عفوي عنكم, إذ كان العفو يوجب الشكر علـى أهل اللبّ والعقل.

الآية : 53

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ }

يعنـي بقوله: وَإذْ آتَـيْنَا مُوسَى الكِتابَ واذكروا أيضا إذ آتـينا موسى الكتاب والفرقان. ويعنـي بـالكتاب: التوراة, وبـالفرقان: الفصل بـين الـحقّ والبـاطل. كما:

657ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع بن أنس, عن أبـي العالـية, فـي قوله: وَإذْ آتَـيْنَا مُوسَى الكِتابَ والفُرْقانَ قال: فرق به بـين الـحقّ والبـاطل.

658ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَإذْ آتَـيْنَا مُوسَى الكِتابَ وَالفُرْقانَ قال: الكتاب: هو الفرقان, فرقان بـين الـحق والبـاطل.

حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

وحدثنـي القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد قوله: وَإذْ آتَـيْنَا مُوسَى الكِتابَ وَالفُرْقان قال: الكتاب: هو الفرقان, فرق بـين الـحقّ والبـاطل.

659ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, قال: وقال ابن عبـاس: الفرقان: جماع اسم التوراة والإنـجيـل والزبور والفرقان.

وقال ابن زيد فـي ذلك بـما:

660ـ حدثنـي به يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سألته, يعنـي ابن زيد, عن قول الله عز وجل: وَإذْ آتَـيْنَا مُوسى الكتابَ والفُرْقانَ فقال: أما الفرقان الذي قال الله جل وعز: يَوْمَ الفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَـى الـجَمْعانِ فذلك يوم بدر, يوم فرق الله بـين الـحق والبـاطل, والقضاءُ الذي فرق به بـين الـحق والبـاطل. قال: فكذلك أعطى الله موسى الفرقان, فرق الله بـينهم, وسلـمه الله وأنـجاه فرق بـينهم بـالنصر, فكما جعل الله ذلك بـين مـحمد والـمشركين, فكذلك جعله بـين موسى وفرعون.

قال أبو جعفر: وأولـى هذين التأويـلـين بتأويـل الآية ما رُوي عن ابن عبـاس وأبـي العالـية ومـجاهد, من أن الفرقان الذي ذكر الله أنه آتاه موسى فـي هذا الـموضع هو الكتاب الذي فرق به بـين الـحقّ والبـاطل, وهو نعت للتوراة وصفة لها. فـيكون تأويـل الآية حينئذ: وإذ آتـينا موسى

التوراة التـي كتبناها له فـي الألواح, وفرقنا بها بـين الـحقّ والبـاطل. فـيكون الكتاب نعتا للتوراة أقـيـم مقامها استغناءً به عن ذكر التوراة, ثم عطف علـيه بـالفرقان, إذ كان من نعتها. وقد بـينا معنى الكتاب فـيـما مضى من كتابنا هذا, وأنه بـمعنى الـمكتوب. وإنـما قلنا هذا التأويـل أولـى بـالآية وإن كان مـحتـملاً غيره من التأويـل, لأن الذي قبله ذكر الكتاب, وأن معنى الفرقان الفصل, وقد دللنا علـى ذلك فـيـما مضى من كتابنا هذا, فإلـحاقه إذ كان كذلك بصفة ما ولـيه أوْلـي من إلـحاقه بصفة ما بعد منه.

وأما تأويـل قوله: لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ فنظير تأويـل قوله تعالـى: لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ ومعناه لتهتدوا. وكأنه قال: واذكروا أيضا إذ آتـينا موسى التوراة التـي تفرق بـين الـحقّ والبـاطل لتهتدوا بها وتتبعوا الـحقّ الذي فـيها لأنـي جعلتها كذلك هدى لـمن اهتدى بها واتبع ما فـيها.

الآية : 54

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَىَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوَاْ إِلَىَ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوَاْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ }

وتأويـل ذلك: واذكروا أيضا إذ قال موسى لقومه من بنـي إسرائيـل: يا قوم إنكم ظلـمتـم أنفسكم. وظلـمهم إياها كان فعلهم بها ما لـم يكن لهم أن يفعلوه بها مـما أوجب لهم العقوبة من الله تعالـى, وكذلك كل فـاعل فعلاً يستوجب به العقوبة من الله تعالـى فهو ظالـم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من الله تعالـى. وكان الفعل الذي فعلوه فظلـموا به أنفسهم, هو ما أخبر الله عنهم من ارتدادهم بـاتـخاذهم العجل ربـا بعد فراق موسى إياهم, ثم أمرهم موسى بـالـمراجعة من ذنبهم والإنابة إلـى الله من ردّتهم بـالتوبة إلـيه, والتسلـيـم لطاعته فـيـما أمرهم به وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذي ركبوه قتلهم أنفسهم. وقد دللنا فـيـما مضى علـى أن معنى التوبة: الأوبة مـما يكرهه الله إلـى ما يرضاه من طاعته. فـاستـجاب القوم لـما أمرهم به موسى من التوبة مـما ركبوا من ذنوبهم إلـى ربهم علـى ما أمرهم به. كما:

661ـ حدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا مـحمد بن جعفر, قال: حدثنا شعبة, عن أبـي إسحاق, عن أبـي عبد الرحمن, أنه قال فـي هذه الآية: فـاقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ قال: عمدوا إلـى الـخناجر, فجعل يطعن بعضهم بعضا.

662ـ حدثنـي عبـاس بن مـحمد, قال: حدثنا حجاج بن مـحمد, قال ابن جريج, أخبرنـي القاسم بن أبـي بزة أنه سمع سعيد بن جبـير ومـجاهدا قالا: قام بعضهم إلـى بعض بـالـخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحنّ رجل علـى رجل قريب ولا بعيد, حتـى ألوى موسى بثوبه, فطرحوا ما بأيديهم, فتكشف عن سبعين ألف قتـيـل, وإن الله أوحى إلـى موسى أن حسبـي قد اكتفـيت, فذلك حين ألوى بثوبه.

663ـ حدثنـي عبد الكريـم بن الهيثم, قال: حدثنا إبراهيـم بن بشار, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, قال: قال أبو سعيد, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قال موسى لقومه: تُوبُوا إلـى بـارِئِكُمْ فَـاقْتُلُوا أنفُسكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِندَ بـارِئِكُمْ فتَابَ علَـيكُمْ إنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيـمُ قال: أمر موسى قومه عن

أمر ربه عزّ وجلّ أن يقتلوا أنفسهم, قال: فـاختبأ الذين عكفوا علـى العجل فجلسوا, وقام الذين لـم يعكفوا علـى العجل وأخذوا الـخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلـمة شديدة, فجعل يقتل بعضهم بعضا. فـانـجلت الظلـمة عنهم, وقد أجْلَوْا عن سبعين ألف قتـيـل, كل من قتل منهم كانت له توبة, وكل من بقـي كانت له توبة.

664ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: لـما رجع موسى إلـى قومه قال يا قَوْمِ ألَـمْ يَعِدْكُمْ رَبّكُمْ وعْدا حَسَنا إلـى قوله: فَكَذَلِكَ ألْقَى السّامِرِيّ فألْقَـى مُوسَى الألْوَاحَ وأخَذَ برأسِ أخيهِ يَجُرّهُ إلَـيْهِ قالَ يا ابْنَ أُمّ لا تأخُذْ بِلِـحْيَتِـي وَلا بِرأسِي إنـي خَشِيتُ أنْ تَقُول فَرّقْت بـينَ بَنِـي إسْرائِيـلَ ولَـمْ تَرْقُبْ قَوْلِـي فترك هارون ومال إلـى السامري, فقال ما خَطْبُكَ يا سامِرِيّ إلـى قوله: ثُمّ لَنَنْسِفَنّهُ فـي الـيَـمّ نَسْفـا. ثم أخذه فذبحه, ثم حرّقه بـالـمبرد, ثم ذراه فـي الـيـم, فلـم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فـيه شيء منه. ثم قال لهم موسى: اشربوا منه فشربوا, فمن كان يحبه خرج علـى شاربـيه الذهب, فذلك حين يقول: واشْرِبُوا فـي قُلُوبِهِمْ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ. فلـما سقط فـي أيدي بنـي إسرائيـل حين جاء موسى, وَرَأوْا أنهُمْ قَدْ ضَلّوا قالُوا لَئِنْ لَـمْ يَرْحَمْنا ربّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنّ مِن الـخاسِرِينَ فأبى الله أن يقبل توبة بنـي إسرائيـل إلا بـالـحال التـي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل, فقال لهم موسى: يا قَوْمِ إنّكُمْ ظَلَـمْتُـمْ أنْفُسَكُمْ بـاتّـخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إلـى بـارِئِكُمْ فـاقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ قال: فصفوا صفّـين ثم اجتلدوا بـالسيوف. فـاجتلد الذين عبدوه والذين لـم يعبدوه بـالسيوف, فكان من قتل من الفريقـين شهيدا, حتـى كثر القتل حتـى كادوا أن يهلكوا حتـى قتل بـينهم سبعون ألفـا, وحتـى دعا موسى وهارون: ربنا هلكت بنو إسرائيـل, ربنا البقـية البقـية فأمرهم أن يضعوا السلاح, وتاب علـيهم. فكان من قتل شهيدا, ومن بقـي كان مكفرا عنه. فذلك قوله: فتَاب عَلَـيْكُمْ إنّهُ هُو التّوّابُ الرحِيـمُ.

665ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله تعالـى: بـاتّـخَاذِكُمُ العِجْلَ قال: كان موسى أمر قومه عن أمر ربه أن يقتل بعضهم بعضا بـالـخناجر, فجعل الرجل يقتل أبـاه ويقتل ولده, فتاب الله علـيهم.

666ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وإذْ قال مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إنّكُمْ ظَلَـمْتُـمْ أنْفُسَكُمْ الآية. قال: فصاروا صفـين, فجعل يقتل بعضهم بعضا, فبلغ القتلـى ما شاء الله, ثم قـيـل لهم: قد تـيب علـى القاتل والـمقتول.

667ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي اللـيث, قال: حدثنـي عقـيـل, عن ابن شهاب, قال: لـما أمرت بنو إسرائيـل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى, فتضاربوا بـالسيوف, وتطاعنوا بـالـخناجر, وموسى رافع يديه. حتـى إذا فتر أتاه بعضهم قالوا: يا نبـيّ الله ادع الله لنا وأخذوا بعضديه يشدّون يديه, فلـم يزل أمرهم علـى ذلك حتـى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدي بعضهم عن بعض, فألقوا السلاح. وحزن موسى وبنو إسرائيـل للذي كان من القتل فـيهم, فأوحى الله جل ثناؤه إلـى موسى: لا يحزنك, أما من قتل منكم فحيّ عندي يرزق, وأما من بقـي فقد قبلت توبته. فسرّ بذلك موسى وبنو إسرائيـل.

668ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن الزهري وقتادة فـي قوله: فـاقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ قال: قاموا صفـين فقتل بعضهم بعضا حتـى قـيـل لهم كفوا. قال قتادة: كانت شهادة للـمقتول وتوبة للـحيّ.

669ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين بن داود, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال لـي عطاء: سمعت عبـيد بن عمير يقول: قام بعضهم إلـى بعض يقتل بعضهم بعضا, ما يتوقـى الرجل أخاه ولا أبـاه ولا ابنه ولا أحدا حتـى نزلت التوبة.

قال ابن جريج, وقال ابن عبـاس: بلغ قتلاهم سبعين ألفـا, ثم رفع الله عزّ وجل عنهم القتل, وتاب علـيهم. قال ابن جريج: قاموا صفـين, فـاقتتلوا بـينهم, فجعل الله القتل لـمن قتل منهم شهادة, وكانت توبة لـمن بقـي. وكان قتل بعضهم بعضا أن الله علـم أن ناسا منهم علـموا أن العجل بـاطل فلـم يـمنعهم أن ينكروا علـيهم إلا مخافة القتال, فلذلك أمر أن يقتل بعضهم بعضا.

670ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: لـما رجع موسى إلـى قومه, وأحرق العجل وذراه فـي الـيـم خرج إلـى ربه بـمن اختار من قومه, فأخذتهم الصاعقة, ثم بعثوا. سأل موسى ربه التوبة لبنـي إسرائيـل من عبـادة العجل, فقال: لا, إلا أن يقتلوا أنفسهم. قال: فبلغنـي أنهم قالوا لـموسى: نصبر لأمر الله, فأمر موسى من لـم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده, فجلسوا بـالأفنـية وأصلت علـيهم القوم السيوف, فجعلوا يقتلونهم, وبكى موسى وبَهَش إلـيه النساء والصبـيان يطلبون العفو عنهم, فتاب علـيهم وعفـا عنهم, وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف.

671ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لـما رجع موسى إلـى قومه, وكانوا سبعون رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لـم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلـى موعد ربكم, فقالوا: يا موسى أما من توبة؟ قال: بلـى فـاقْتُلُوا أنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بـارِئِكُمْ فَتابَ عَلَـيْكُمْ الآية.... فـاخترطوا السيوف والـجِرَزة والـخناجر والسكاكين. قال: وبعث علـيهم ضبـابة, قال: فجعلوا يتلامسون بـالأيدي, ويقتل بعضهم بعضا. قال: ويـلقـى الرجل أبـاه وأخاه فـيقتله ولا يدري, ويتنادون فـيها: رحم الله عبدا صبر حتـى يبلغ الله رضاه. وقرأ قول الله جل ثناؤه: وآتَـيْناهُمْ مِنَ الآيَاتِ ما فِـيهِ بَلاءٌ مُبِـينٌ. قال: فقتلاهم شهداء, وتـيب علـى أحيائهم. وقرأ: فَتابَ عَلَـيْكُمْ إنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيـم.

فـالذي ذكرنا عمن روينا عنه الأخبـار التـي رويناها كان توبة القوم من الذنب الذي أتوه فـيـما بـينهم وبـين ربهم بعبـادتهم العجل مع ندمهم علـى ما سلف منهم من ذلك.

وأما معنى قوله: فَتُوبُوا إلـى بـارِئِكُمْ فإنه يعنـي به: ارجعوا إلـى طاعة خالقكم وإلـى ما يرضيه عنكم. كما:

672ـ حدثنـي به الـمثنى بن إبراهيـم قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: فَتُوبُوا إلـى بـارِئِكُمْ أي إلـى خالقكم. وهو من برأ الله الـخـلق يبرؤه فهو بـارىء. والبريّة: الـخـلق, وهي فعيـلة بـمعنى مفعولة, غير أنها لا تهمز كما لا يهمز ملك, وهو من «لأك», لكنه جرى بترك الهمزة, كذلك قال نابغة بنـي ذبـيان:

إلاّ سُلَـيْـمانَ إذْ قالَ الـمَلِـيكُ لَهُقُمْ فـي البَرِيّةِ فـاحْدُدْها عَنِ الفَندِ
وقد قـيـل: إن البرية إنـما لـم تهمز لأنها فعيـلة من البَرَى, والبَرَى: التراب. فكأن تأويـله علـى قول من تأوله كذلك أنه مخـلوق من التراب. وقال بعضهم: إنـما أخذت البرية من قولك بريت العود, فلذلك لـم يهمز.
قال أبو جعفر: وترك الهمز من بـارئكم جائز, والإبدال منها جائز, فإذ كان ذلك جائزا فـي بـاريكم فغير مستنكر أن تكون البرية من برى الله الـخـلق بترك الهمزة.
وأما قوله: ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بـارِئِكُمْ فإنه يعنـي بذلك توبتكم بقتلكم أنفسكم وطاعتكم ربكم خير لكم عند بـارئكم لأنكم تنـجون بذلك من عقاب الله فـي الآخرة علـى ذنبكم, وتستوجبون به الثواب منه. وقوله: فتَاب عَلَـيْكُمْ أي بـما فعلتـم مـما أمركم به من قتل بعضكم بعضا. وهذا من الـمـحذوف الذي استغنـي بـالظاهر منه عن الـمتروك, لأن معنى الكلام: فتوبوا إلـى بـارئكم, فـاقتلوا أنفسكم, ذلكم خير لكم عند بـارئكم, فتبتـم فتاب علـيكم. فترك ذكر قوله «فتبتـم» إذْ كان فـي قوله: فتَابَ عَلَـيْكُمْ دلالة بـينة علـى اقتضاء الكلام فتبتـم. ويعنـي بقوله: فَتابَ عَلَـيْكُمْ رجع لكم ربكم إلـى ما أحببتـم من العفو عن ذنوبكم, وعظيـم ما ركبتـم, والصفح عن جرمكم إنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيـمُ يعنـي الراجع لـمن أناب إلـيه بطاعته إلـى ما يحبّ من العفو عنه. ويعنـي بـالرحيـم: العائد إلـيه برحمته الـمنـجية من عقوبته.

الآية : 55

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىَ لَن نّؤْمِنَ لَكَ حَتّىَ نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ }
وتأويـل ذلك: واذكروا أيضا إذ قلتـم: يا موسى لن نصدّقك ولن نقرّ بـما جئتنا به حتـى نرى الله جهرة عيانا, برفع الساتر بـيننا وبـينه, وكشف الغطاء دوننا ودونه حتـى ننظر إلـيه بأبصارنا, كما تُـجهر الركِيّة, وذلك إذا كان ماؤها قد غطاه الطين, فنفـى ما قد غطاه حتـى ظهر الـماء وصَفَـا, يقال منه: قد جهرت الركية أجهرها جهرا وجهرة ولذلك قـيـل: قد جهر فلان بهذا الأمر مـجاهرة وجهارا: إذا أظهره لرأي العين وأعلنه, كما قال الفرزدق بن غالب:
من اللاّئي يَضِلّ الألفُ منْهُمِسَحّا مِنْ مَخافَتِهِ جِهارا
673ـ وكما حدثنا به القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: حتـى نَرى اللّهَ جَهْرَةً قال: علانـية.
674ـ وحدثت, عن عمارة بن الـحسن قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه عن الربـيع: حتّـى نَرى اللّهَ جَهْرَةً يقول: عيانا.
675ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: حتّـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً: حتـى يطلع إلـينا.
676ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: حتّـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً: أي عيانا.
فذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبـائهم وسوء استقامة أسلافهم لأنبـيائهم, مع كثرة معاينتهم من آيات الله جل وعزّ وعِبَره ما تثلـج بأقلها الصدور, وتطمئنّ بـالتصديق معها النفوس وذلك مع تتابع الـحجج علـيه, وسبوغ النعم

من الله لديهم. وهم مع ذلك مرّة يسألون نبـيهم أن يجعل لهم إلها غير الله ومرة يعبدون العجل من دون الله, ومرة يقولون لا نصدقك حتـى نرى الله جهرة, وأخرى يقولون له إذا دعوا إلـى القتال: فـاذْهَبْ أنْتَ وَرَبّكَ فَقاتِلا إنّا هَهُنا قاعِدُونَ ومرة يقال لهم: قُولُوا حِطّة وادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ فـيقولون: حنطة فـي شعيرة, ويدخـلون البـاب من قبل أستاههم, مع غير ذلك من أفعالهم التـي آذوا بها نبـيهم علـيه السلام التـي يكثر إحصاؤها. فأعلـم ربنا تبـارك وتعالـى ذكره الذين خاطبهم بهذه الاَيات من يهود بنـي إسرائيـل الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لن يعدوا أن يكونوا فـي تكذيبهم مـحمدا صلى الله عليه وسلم, وجحودهم نبوّته, وتركهم الإقرار به وبـما جاء به, مع علـمهم به ومعرفتهم بحقـيقة أمره كأسلافهم وآبـائهم الذين فصل علـيهم قصصهم فـي ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى, وتوثبهم علـى نبـيهم موسى صلوات الله وسلامه علـيه تارة بعد أخرى, مع عظيـم بلاء الله جل وعزّ عندهم وسبوغ آلائه علـيهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فأخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ.

اختلف أهل التأويـل فـي صفة الصاعقة التـي أخذتهم. فقال بعضهم بـما:

677ـ حدثنا به الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فَأخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ قال: ماتوا.

678ـ وحدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: فأخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ قال: سمعوا صوتا فصعقوا. يقول: فماتوا. وقال آخرون: بـما:

679ـ حدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فأخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ والصاعقة: نار.

وقال آخرون بـما:

680ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: أخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعا. وأصل الصاعقة: كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه حتـى يصير من هوله وعظيـم شأنه إلـى هلاك وعطب, وإلـى ذهاب عقل وغُمور فهم, أو فقد بعض آلات الـجسم, صوتا كان ذلك, أو نارا, أو زلزلة, أو رَجْفـا. ومـما يدل علـى أنه قد يكون مصعوقا وهو حيّ غير ميت, قول الله عزّ وجل: وَخَرّ مُوسَى صَعِقا يعنـي مغشيّا علـيه. ومنه قول جرير بن عطية:

وهَلْ كان الفَرَزْدَقُ غَيْرَ قِرْدٍأصَابَتْهُ الصّواعِقُ فـاسْتَدَارَا

فقد علـم أن موسى لـم يكن حين غشي علـيه وصعق ميتا لأن الله جل وعزّ أخبر عنه أنه لـما أفـاق قال: تُبْتُ إلـيك ولا شبه جرير الفرزدق وهو حيّ بـالقرد ميتا, ولكن معنى ذلك ما وصفنا.

ويعنـي بقوله: وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ: وأنتـم تنظرون إلـى الصاعقة التـي أصابتكم, يقول: أخذتكم الصاعقة عيانا جهارا وأنتـم تنظرون إلـيها.

الآية : 56

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{ثُمّ بَعَثْنَاكُم مّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ }

يعنـي بقوله: ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ ثم أحيـيناكم. وأصل البعث: إثارة الشيء من مـحله, ومنه قـيـل: بعث فلان راحلته: إذا أثارها من مبركها للسير, كما قال الشاعر:

فأبْعَثُهاا وهِيّ صَنـيعُ حَوْلٍحول كركنِ الرّعْنِ ذِعْلِبَةً وَقَاحَا

والرعن: منقطع أنف الـجبل, والذعلبة: الـخفـيفة, والوقاح, الشديدة الـحافر أو الـخفّ. ومن ذلك قـيـل: بعثت فلانا لـحاجتـي: إذا أقمته من مكانه الذي هو فـيه للتوجه فـيها. ومن ذلك قـيـل لـيوم القـيامة: يوم البعث, لأنه يوم يثار الناس فـيه من قبورهم لـموقـف الـحساب.

ويعنـي بقوله: مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ من بعد موتكم بـالصاعقة التـي أهلكتكم.

وقوله: لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ يقول: فعلنا بكم ذلك لتشكرونـي علـى ما أولـيتكم من نعمتـي علـيكم بإحيائي إياكم استبقاء منـي لكم لتراجعوا التوبة من عظيـم ذنبكم بعد إحلالـي العقوبة بكم بـالصاعقة التـي أحللتها بكم, فأماتتكم بعظيـم خطئكم الذي كان منكم فـيـما بـينكم وبـين ربكم. وهذا القول علـى تأويـل من تأوّل قوله قول ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ ثم أحيـيناكم.

وقال آخرون: معنى قوله: ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ أي بعثناكم أنبـياء.

681ـ حدثنـي بذلك موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي.

قال أبو جعفر: وتأويـل الكلام علـى ما تأوله السدي: فأخذتكم الصاعقة, ثم أحيـيناكم من بعد موتكم, وأنتـم تنظرون إلـى إحيائنا إياكم من بعد موتكم, ثم بعثناكم أنبـياء لعلكم تشركون. وزعم السدي أن ذلك من الـمقدم الذي معناه التأخير, والـمؤخر الذي معناه التقديـم.

682ـ حدثنا بذلك موسى, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي. وهذا تأويـل يدل ظاهر التلاوة علـى خلافه مع إجماع أهل التأويـل علـى تـخطئته. والواجب علـى تأويـل السدي الذي حكيناه عنه أن يكون معنى قوله: لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ تشكرونـي علـى تصيـيري إياكم أنبـياء.

وكان سبب قـيـلهم لـموسى ما أخبر الله جل وعزّ عنهم أنهم قالوا له من قولهم: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً, ما:

683ـ حدثنا به مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, قال: لـما رجع موسى إلـى قومه, ورأى ما هم فـيه من عبـادة العجل, وقال لأخيه وللسامري ما قال, وحرّق العجل وذراه فـي الـيـم اختار موسى منهم سبعين رجلاً الـخيّر فـالـخيرُ, وقال: انطلقوا إلـى الله عزّ وجل, فتوبوا إلـيه مـما صنعتـم وسلوه التوبة علـى من تركتـم وراءكم من قومكم, صوموا وتطهروا وطهروا ثـيابكم فخرج بهم إلـى طور سيناء لـميقات وقته له ربه, وكان لا يأتـيه إلا بإذن منه وعلـم. فقال له السبعون فـيـما ذكر لـي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله: يا موسى اطلب لنا إلـى ربك لنسمع كلام ربنا فقال: أفعل. فلـما دنا موسى من الـجبل وقع علـيه الغمام حتـى تغشى الـجبل كله, ودنا موسى فدخـل فـيه, وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلـمه ربه وقع علـى جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنـي آدم أن ينظر إلـيه, فضرب دونه الـحجاب. ودنا القوم حتـى إذا دخـلوا فـي الغمام وقعوا سجودا, فسمعوه وهو يكلـم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلـما فرغ من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إلـيهم فقالوا لـموسى: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً

فأخَذَتْهُمْ الرّجْفَةُ وهي الصاعقة فماتوا جميعا. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه, ويرغب إلـيه ويقول: ربّ لوْ شئتَ أهلكتهمْ مِن قبلُ وإيّايَ قد سفهوا, أفتهلك من ورائي من بنـي إسرائيـل بـما تفعل السفهاء منا؟ أي أن هذا لهم هلاك, اخترت منهم سبعين رجلاً, الـخيّر فـالـخيّر أرجع إلـيهم, ولـيس معي منهم رجل واحد, فما الذي يصدّقونـي به أو يأمنونـي علـيه بعد هذا؟ إنّا هُدنا إلـيكَ. فلـم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إلـيه, حتـى ردّ إلـيهم أرواحهم, فطلب إلـيه التوبة لبنـي إسرائيـل من عبـادة العجل, فقال: لا, إلا أن يقتلوا أنفسهم.

684ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السدي: لـما تابت بنو إسرائيـل من عبـادة العجل, وتاب الله علـيهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به, أمر الله تعالـى موسى أن يأتـيه فـي ناس من بنـي إسرائيـل يعتذرون إلـيه من عبـادة العجل, ووعدهم موعدا, فـاختار موسى من قومه سبعين رجلاً علـى عينه, ثم ذهب بهم لـيعتذروا. فلـما أتوا ذلك الـمكان قالوُا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فإنك قد كلـمته فأرناه. فأخذتهم الصاعقة فماتوا, فقام موسى يبكي, ويدعو الله ويقول: ربّ ماذا أقول لبنـي إسرائيـل إذا أتـيتهم وقد أهلكت خيارهم رَبّ لو شِئْتَ أهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإيّايَ أتُهْلِكُنا بِـما فَعَلَ السّفَهاءُ مِنّا. فأوحى الله إلـى موسى إن هؤلاء السبعين مـمن اتـخذ العجل, فذلك حين يقول موسى: إنْ هِيَ إلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلّ بِها مَنْ تَشاءُ وتَهْدِي مَنْ تَشاءُ... إنّا هُدْنا إلَـيْكَ وذلك قوله: وَإذْ قُلْتُـمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فَأخَذَتْكُمْ الصّاعِقَةُ. ثُم إن الله جل ثناؤه أحياهم, فقاموا وعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلـى بعض كيف يحيون, فقالوا: يا موسى أنت تدعو الله فلا تسأله شيئا إلا أعطاك, فـادعه يجعلنا أنبـياء فدعا الله تعالـى, فجعلهم أنبـياء, فذلك قوله: ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ منْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ولكنه قدّم حرفـا وأخر حرفـا.

685ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد, قال لهم موسى لـما رجع من عند ربه بـالألواح, قد كتب فـيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل, فأمرهم بقتل أنفسهم, ففعلوا, فتاب الله علـيهم, فقال: إن هذه الألواح فـيها كتاب الله فـيه أمره الذي أمركم به, ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتـى نرى الله جهرة, حتـى يطلع الله علـينا فـيقول: هذا كتابـي فخذوه فماله لا يكلـمنا كما يكلـمك أنت يا موسى؟ فـيقول: هذا كتابـي فخذوه؟ وقرأ قول الله تعالـى: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً قال: فجاءت غضبة من الله عز وجل, فجاءتهم صاعقة بعد التوبة, فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم, وقرأ قول الله تعالـى: ثُمّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله فقالوا لا, فقال: أيّ شيء أصابكم؟ قالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيـينا. قال: خذوا كتاب الله قالوا لا. فبعث الله تعالـى ملائكة, فنتقت الـجبل فوقهم.

686ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فأخَذَتْكُمْ الصّاعِقَةُ وأنْتُـمْ تَنْظُرُونَ ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ قال: أخذتهم الصاعقة, ثم بعثهم الله تعالـى لـيكملوا بقـية آجالهم.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس فـي قوله: فأخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ قال: هم السبعون الذين

اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاما, فقالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً قال: فسمعوا صوتا فصعقوا. يقول: ماتوا. فذلك قوله: ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ منْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ فَبُعِثُوا من بعد موتهم لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم, فبعثوا لبقـية آجالهم.

فهذا ما روي فـي السبب الذي من أجله قالوا لـموسى: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً ولا خبر عندنا بصحة شيء مـما قاله من ذكرنا قوله فـي سبب قـيلهم ذلك لـموسى تقوم به حجة فتسلـم لهم. وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه, فإذا كان لا خبر بذلك تقوم به حجة, فـالصواب من القول فـيه أن يقال: إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له: يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّـى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً كما أخبر عنهم أنهم قالوه. وإنـما أخبر الله عزّ وجلّ بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الاَيات توبـيخا لهم فـي كفرهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وقد قامت حجته علـى من احتـج به علـيه, ولا حاجة لـمن انتهت إلـيه إلـى معرفة السبب الداعي لهم إلـى قـيـل ذلك. وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التـي ذكرناها, وجائز أن يكون بعضها حقا كما قال.

الآية : 57

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَظَلّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنّ وَالسّلْوَىَ كُلُواْ مِن طَيّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـَكِن كَانُوَاْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

وَظَلّلْنا عَلَـيْكُمْ عطف علـى قوله: ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ فتأويـل الآية: ثم بعثناكم من بعد موتكم, وظللنا علـيكم الغمام, وعدد علـيهم سائر ما أنعم به علـيهم لعلكم تشكرون. والغمام جمع غمامة كما السحاب جمع سحابة, والغمام هو ما غمّ السماء فألبسها من سحاب وقتام وغير ذلك مـما يسترها عن أعين الناظرين, وكل مغطّى فإن العرب تسميه مغموما. وقد قـيـل: إن الغمام التـي ظللها الله علـى بنـي إسرائيـل لـم تكن سحابـا.

687ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد قوله: وَظَلّلْنا عَلَـيْكُمْ الغَمامَ قال: لـيس بـالسحاب.

وحدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد قوله: وَظَلّلْنَا عَلَـيْكُمْ الغَمامَ قال: لـيس بـالسحاب هو الغمام الذي يأتـي الله فـيه يوم القـيامة لـم يكن إلا لهم.

وحدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله جل ثناؤه: وَظَلّلْنا عَلَـيْكُمْ الغَمامَ قال: هو بـمنزلة السحاب.

688ـ وحدثنـي القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: وَظَلّلْنا عَلَـيْكُمْ الغَمامَ قال: هو غمام أبرد من هذا وأطيب, وهو الذي يأتـي الله عز وجل فـيه يوم القـيامة فـي قوله: فـي ظلل من الغمام, وهو الذي جاءت فـيه الـملائكة يوم بدر. قال ابن عبـاس: وكان معهم فـي التـيه. وإذ كان معنى الغمام ما وصفنا مـما غمّ السماء من شيء فغطى وجهها عن الناظر إلـيها, فلـيس الذي ظلله الله عز وجل علـى بنـي إسرائيـل فوصفه بأنه كان غماما بأولـى

بوصفه إياه بذلك أن يكون سحابـا منه بأن يكون غير ذلك مـما ألبس وجه السماء من شيء, وقد قـيـل: إنه ما ابـيضّ من السحاب.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَأَنْزَلْنا عَلَـيْكُمْ الـمَنّ.
اختلف أهل التأويـل فـي صفة الـمنّ. فقال بعضهم بـما:
689ـ حدثنـي به مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله عز وجل: وَأَنْزَلْنا عَلَـيْكُمُ الـمَنّ قال: الـمن: صمغة.
حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.
690ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنا عبد الرزاق, قال: أنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَأَنْزَلْنا عَلَـيْكُمُ الـمَنّ وَالسّلْوَى يقول: كان الـمنّ ينزل علـيهم مثل الثلـج.
وقال آخرون: هو شراب. ذكر من قال ذلك:
691ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس, قال: الـمنّ: شراب كان ينزل علـيهم مثل العسل, فـيـمزجونه بـالـماء, ثم يشربونه.
وقال آخرون: الـمن: عسل. ذكر من قال ذلك:
692ـ حدثنا يونس بن عبد الأعلـى, أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: الـمنّ: عسل كان ينزل لهم من السماء.
693ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا إسرائيـل, عن جابر, عن عامر, قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءا من الـمنّ.
وقال آخرون: الـمنّ: خبز الرقاق. ذكر من قال ذلك:
694ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا إسماعيـل بن عبد الكريـم, قال: حدثنـي عبد الصمد, قال: سمعت وهبـا وسئل ما الـمنّ, قال: خبز الرقاق, مثل الذرة, ومثل النّقْـي.
وقال آخرون: الـمنّ: الترنـجبـين. ذكر من قال ذلك:
695ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: الـمنّ كان يسقط علـى شجر الترنـجبـين.
وقال آخرون: الـمنّ هو الذي يسقط علـى الشجر الذي تأكله الناس. ذكر من قال ذلك:
696ـ حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس: كان الـمنّ ينزل علـى شجرهم فـيغدون علـيه فـيأكلون منه ما شاءوا.
697ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحمانـي, قال: حدثنا شريك, عن مـجالد. عن عامر فـي قوله: وأنْزلْنا عَلَـيْكُمُ الـمَنّ قال: الـمنّ: الذي يقع علـى الشجر.
وحدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: الـمنّ قال: الـمن: الذي يسقط من السماء علـى الشجر فتأكله الناس.
حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا شريك, عن مـجالد, عن عامر, قال: الـمنّ: هذا الذي يقع علـى الشجر. وقد قـيـل إن الـمنّ: هو الترنـجبـين.

وقال بعضهم: الـمنّ: هو الذي يسقط علـى الثمام والعُشَر, وهو حلو كالعسل, وإياه عنى الأعشى ميـمون بن قـيس بقوله:

لَوْ أُطْعِمُوا الـمَنّ وَالسّلْوَى مكانَهُمُا أبْصَرَ النّاسُ طُعْما فِـيهمُ نَـجَعا

وتظاهرت الأخبـار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكمأةُ مِنَ الـمَنّ, وَمأُوها شِفـاءٌ للْعَيْنِ». وقال بعضهم: الـمنّ: شراب حلو كانوا يطبخونه فـيشربونه. وأما أمية بن أبـي الصلت فإنه جعله فـي شعره عسلاً, فقال يصف أمرهم فـي التـيه وما رزقوا فـيه:

فَرأى اللّهُ أنّهُمْ بِـمَضيعٍلا بِذِي مَزْرَعٍ وَلا مَثْمُورَا

فنساها عَلَـيْهِمُ غَادِياتٍومَرَى مُزْنَهُمْ خَلايا وخُورَا

عَسَلاً ناطِفـاً ومَاءً فُرَاتاوَحَلِـيبـا ذَا بَهْجَةٍ مَـمْرُورَا

الـمـمرور: الصافـي من اللبن, فجعل الـمنّ الذي كان ينزل علـيهم عسلاً ناطفـا, والناطف: هو القاطر.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَالسّلْوَى والسلوى: اسم طائر يشبه السمانَـي, واحده وجماعه بلفظ واحد, كذلك السمانَـي لفظ جماعها وواحدها سواء. وقد قـيـل: إن واحدة السلوى سلواة. ذكر من قال ذلك:

698ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنـي عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, وعن مرة الهمدانـي, عن ابن مسعود, وعن ناس من أصحاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم: السلوى: طير يشبه السمانَـي.

699ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: كان طيرا أكبر من السمانـي.

700ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, قال: السلوى: طائر كانت تـحشرها علـيهم الريح الـجنوب.

701ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد قال: السلوى: طائر.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: السلوى: طير.

702ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا إسماعيـل بن عبد الكريـم, قال: حدثنـي عبد الصمد, قال: سمعت وهبـا وسئل: ما السلوى؟ فقال: طير سمين مثل الـحمام.

703ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: السلوى: طير.

704ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: السلوى: كان طيرا يأتـيهم مثل السمانـي.

705ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحمانـي, قال: حدثنا شريك, عن مـجالد, عن عامر, قال: السلوى: السمانـي.

706ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: السلوى: هو السمانـي.

حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: أخبرنا أبو أحمد, قال: حدثنا شريك, عن مـجالد, عن عامر, قال: السلوى: السمانـي.

707ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا أبو عامر, قال: حدثنا قرة, عن الضحاك, قال: السمانَى هو السلوى.

فإن قال قائل: وما سبب تظلـيـل الله جل ثناؤه الغمام وإنزاله الـمنّ والسلوى علـى هؤلاء القوم؟ قـيـل: قد اختلف أهل العلـم فـي ذلك, ونـحن ذاكرون ما حضرنا منه.

708ـ فحدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السدي: لـما تاب الله علـى قوم موسى وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم, أمرهم الله بـالـمسير إلـى أريحا, وهي أرض بـيت الـمقدس. فساروا حتـى إذا كانوا قريبـا منها بعث موسى اثنـي عشر نقـيبـا. وكان من أمرهم وأمر الـجبـارين, وأمر قوم موسى ما قد قصّ الله فـي كتابه, فقال قوم موسى لـموسى: اذْهَبْ أنْتَ وَرَبّكَ فَقاتِلا إنّا هَهُنَا قَاعِدُونَ فغضب موسى, فدعا علـيهم قال: رَبّ إنـي لا أمْلِكُ إلاّ نَفْسِي وأخِي فَـافْرُقْ بَـيْنَنَا وَبَـيْنَ القَوْمِ الفـاسِقِـينَ فكانت عجلة من موسى عجلها فقال الله تعالـى: إنّهَا مُـحَرّمَةٌ عَلَـيْهِمْ أرْبَعِينَ سَنَةً يَتِـيهُونَ فِـي الأرْضِ. فلـما ضرب علـيهم التـيه ندم موسى, وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه, فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى؟ فلـما ندم أوحى الله إلـيه أنْ لا تأسَ علـى القَوْمِ الفـاسقِـينَ أي لا تـحزن علـى القوم الذين سميتهم فـاسقـين. فلـم يحزن. فقالوا: يا موسى كيف لنا بـماء ههنا, أين الطعام؟ فأنزل الله علـيهم الـمنّ, فكان يسقط علـى شجر الترنـجبـين, والسلوى: وهو طير يشبه السمانـي, فكان يأتـي أحدهم, فـينظر إلـى الطير إن كان سمينا ذبحه, وإلا أرسله, فإذا سمن أتاه. فقالوا: هذا الطعام, فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الـحجر, فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا, فشرب كل سبط من عين, فقالوا: هذا الطعام والشراب, فأين الظلّ؟ فظلل علـيهم الغمام, فقالوا: هذا الظلّ فأين اللبـاس؟ فكانت ثـيابهم تطول معهم كما تطول الصبـيان, ولا يتـخرّق لهم ثوب, فذلك قوله: وَظَلّلْنَا عَلَـيْكُمْ الغَمَامَ وأنْزَلْنا عَلَـيْكُمْ الـمَنّ وَالسّلْوَى وقوله: وَإذْ اسْتَسْقَـى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الـحَجَرَ فَـانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنا قَدْ عَلِـمَ كلّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ.

709ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: لـما تاب الله عز وجل علـى بنـي إسرائيـل وأمر موسى أن يرفع عنهم السيف من عبـادة العجل, أمر موسى أن يسير بهم إلـى الأرض الـمقدسة, وقال: إننـي قد كتبتها لكم دارا وقرارا ومنزلاً, فـاخرج إلـيها وجاهد من فـيها من العدوّ فإنـي ناصركم علـيهم فسار بهم موسى إلـى الأرض الـمقدسة بأمر الله عزّ وجل, حتـى إذا نزل التـيه بـين مصر والشام وهي أرض لـيس فـيها خَمَر ولا ظلّ, دعا موسى ربه حين آذاهم الـحر, فظلل علـيهم بـالغمام, ودعا لهم بـالرزق, فأنزل الله لهم الـمنّ والسلوى.

710ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس. وحدثت عن عمار بن الـحسن, حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: وَظَلّلْنَا عَلَـيْكُمْ الغَمامَ قال: ظلل علـيهم الغمام فـي التـيه: تاهوا فـي خمسة فراسخ أو ستة, كلـما أصبحوا ساروا غادين, فأمسوا فإذا هم فـي مكانهم الذي ارتـحلوا منه, فكانوا كذلك حتـى مرّت أربعون سنة. قال: وهم فـي ذلك ينزل علـيهم الـمنّ والسلوى ولا تبلـى ثـيابهم, ومعهم حجر من حجارة الطور يحملونه معهم, فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه, فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.

711ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا إسماعيـل بن عبد الكريـم, قال: حدثنـي عبد الصمد, قال: سمعت وهبـا يقول: إن بنـي إسرائيـل لـما حرّم الله علـيهم أن يدخـلوا الأرض الـمقدسة أربعين سنة يتـيهون فـي الأرض شكوا إلـى موسى, فقالوا: ما نأكل؟ فقال: إن الله سيأتـيكم بـما تأكلون. قالوا: من أين لنا إلا أن يـمطر علـينا خبزا؟ قال: إن الله عز وجل سينزل علـيكم خبزا مخبوزا. فكان ينزل علـيهم الـمنّ. سئل وهب: ما الـمنّ؟ قال: خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقـي قالوا: وما نأتدم, وهل بدّ لنا من لـحم؟ قال: فإن الله يأتـيكم به. فقالوا: من أين لنا إلا أن تأتـينا به الريح؟ قال: فإن الريح تأتـيكم به, وكانت الريح تأتـيهم بـالسلوى فسئل وهب: ما السلوى؟ قال: طير سمين مثل الـحمام كانت تأتـيهم فـيأخذون منه من السبت إلـى السبت قالوا: فما نلبس؟ قال: لا يخـلق لأحد منكم ثوب أربعين سنة. قالوا: فما نـحتذي؟ قال: لا ينقطع لأحدكم شسع أربعين سنة, قالوا: فإن فـينا أولادا فما نكسوهم؟ قال: ثوب الصغير يشب معه. قالوا: فمن أين لنا الـماء؟ قال: يأتـيكم به الله. قالوا: فمن أين؟ إلا أن يخرج لنا من الـحجر. فأمر الله تبـارك وتعالـى موسى أن يضرب بعصاه الـحجر. قالوا: فبـم نبصر؟ تغشانا الظلـمة. فضرب لهم عمود من نور فـي وسط عسكرهم أضاء عسكرهم كله, قالوا: فبـم نستظل؟ فإن الشمس علـينا شديدة قال: يظلكم الله بـالغمام.

حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال ابن زيد, فذكر نـحو حديث موسى بن هارون عن عمرو بن حماد, عن أسبـاط, عن السدي.

712ـ حدثنـي القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال: عبد الله بن عبـاس: خـلق لهم فـي التـيه ثـياب لا تـخـلق ولا تدرن. قال: وقال ابن جريج: إن أخذ الرجل من الـمنّ والسلوى فوق طعام يوم فسد, إلا أنهم كانوا يأخذون فـي يوم الـجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فـاسدا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: كُلُوا مِنْ طَيّبـات ما رَزَقْنَاكُمْ.

وهذا مـما استغنـي بدلالة ظاهره علـى ما ترك منه, وذلك أن تأويـل الآية: وظللنا علـيكم الغمام, وأنزلنا علـيكم الـمن والسلوى, وقلنا لكم: كلوا من طيبـات ما رزقناكم. فترك ذكر قوله: «وقلنا لكم...» لـما بـينا من دلالة الظاهر فـي الـخطاب علـيه. وعنى جل ذكره بقوله: كُلُوا مِنْ طَيّبـاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ كلوا من مشتهيات رزقنا الذي رزقناكموه. وقد قـيـل عنى بقوله: مِنْ طَيبَـاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ من حلاله الذي أبحناه لكم, فجعلناه لكم رزقا. والأول من القولـين أولـى بـالتأويـل لأنه وصف ما كان القوم فـيه من هنـيء العيش الذي أعطاهم, فوصف ذلك بـالطيب الذي هو بـمعنى اللذّة أحرى من وصفه بأنه حلال مبـاح. و«ما» التـي مع «رزقناكم» بـمعنى «الذي» كأنه قـيـل: كلوا من طيبـات الرزق الذي رزقناكموه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَا ظَلَـمُونا وَلَكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِـمُونَ.

وهذا أيضا من الذي استغنـي بدلالة ظاهره علـى ما ترك منه. وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبـات ما رزقناكم, فخالفوا ما أمرناهم به, وعصوا ربهم ثم رسولنا إلـيهم, وما ظلـمونا. فـاكتفـى بـما ظهر عما ترك. وقوله: وَما ظَلَـمُونَا يقول: وما ظلـمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم, وَلَكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِـمُونَ. ويعنـي بقوله: وَمَا ظَلَـمُونَا: وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم

إيانا موضع مضرّة علـينا ومنقصة لنا, ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرّة علـيها ومنقصة لها. كما:

713ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَما ظَلَـمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِـمُونَ قال: يضرّون.
وقد دللنا فـيـما مضى علـى أن أصل الظلـم وضع الشيء فـي غير موضعه بـما فـيه الكفـاية, فأغنى ذلك عن إعادته. وكذلك ربنا جل ذكره لا تضرّه معصية عاص, ولا يتـحيف خزائنه ظلـم ظالـم, ولا تنفعه طاعة مطيع, ولا يزيد فـي ملكه عدل عادل بل نفسه يظلـم الظالـم, وحظها يبخس العاصي, وإياها ينفع الـمطيع, وحظها يصيب العادل.

الآية : 58

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجّداً وَقُولُواْ حِطّةٌ نّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ }
والقرية التـي أمرهم الله جل ثناؤه أن يدخـلوها, فـيأكلوا منها رغدا حيث شاءوا فـيـما ذكر لنا: بـيت الـمقدس. ذكر الرواية بذلك:

714ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر, عن قتادة فـي قوله: ادْخُـلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ قال: بـيت الـمقدس.

715ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنـي عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَإذْ قُلْنَا ادْخُـلُوا هَذِذِ القَرْيَةَ أما القرية فقرية بـيت الـمقدس.

716ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُـلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ يعنـي بـيت الـمقدس.

717ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سألته يعنـي ابن زيد عن قوله: ادْخُـلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا قال: هي أريحا, وهي قريبة من بـيت الـمقدس.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُـمْ رَغَدا.
يعنـي بذلك: فكلوا من هذه القرية حيث شئتـم عيشا هنـيا واسعا بغير حساب. وقد بـينا معنى الرغد فـيـما مضى من كتابنا, وذكرنا أقوال أهل التأويـل فـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا.
أما البـاب الذي أمروا أن يدخـلوه, فإنه قـيـل: هو بـاب الـحطة من بـيت الـمقدس. ذكر من قال ذلك:

718ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا قال: بـاب الـحطة من بـاب إيـلـياء من بـيت الـمقدس.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

719ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا أما البـاب فبـاب من أبواب بـيت الـمقدس.

720ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال حدثنـي أبـي عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: وَادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا أنه أحد أبواب بـيت الـمقدس, وهو يدعى بـاب حطة.

وأما قوله: سُجّدا فإن ابن عبـاس كان يتأوّله بـمعنى الركع.

721ـ حدثنـي مـحمد بن بشار, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان عن الأعمش, عن الـمنهال بن عمرو, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس فـي قوله: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا قال: ركعا من بـاب صغير.

حدثنا الـحسن بن الزبرقان النـخعي, قال: حدثنا أبو أسامة, عن سفـيان, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد, عن ابن عبـاس فـي قوله: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا قال: أمروا أن يدخـلوا ركعا. وأصل السجود: الانـحناء لـمن سجد له معظما بذلك, فكل منـحن لشيء تعظيـما له فهو ساجد, ومنه قول الشاعر:

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُلْقُ فِـي حَجَرَاتِهِتَرَى ألاكْمَ فِـيهِ سُجّدا للْـحَوَافِرِ)

يعنـي بقوله: سجدا: خاشعة خاضعة. ومن ذلك قول أعشى بنـي قـيس بن ثعلبة:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الـمَلِـيكِ طَوْرا سُجُودا وَطَوْرا جُؤَارَا

فذلك تأويـل ابن عبـاس قوله: سُجّدا ركعا, لأن الراكع منـحن, وإن كان الساجد أشدّ انـحناء منه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَقُولُوا حِطّةٌ.

وتأويـل قوله: حِطّةٌ: فعلة, من قول القائل: حطّ الله عنك خطاياك فهو يحطها حطة, بـمنزلة الردة والـحدّة والـمدة من حددت ومددت.

واختلف أهل التأويـل فـي تأويـله, فقال بعضهم بنـحو الذي قلنا فـي ذلك.

ذكر من قال ذلك منهم:

722ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال أنبأنا معمر: وَقُولُوا حِطّةٌ قال الـحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا.

723ـ حدثنا يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَقُولُوا حِطّةٌ: يحطّ الله بها عنكم ذنبكم وخطاياكم.

724ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال ابن عبـاس: قُولُوا حِطّةٌ قال: يحطّ عنكم خطاياكم.

725ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان, عن الأعمش, عن الـمنهال بن عمرو, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس قوله: حِطّةٌ: مغفرة.

726ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: حِطّةٌ قال: يحطّ عنكم خطاياكم.

727ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: أخبرنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال لـي عطاء فـي قوله: وَقُولُوا حِطّةٌ قال: سمعنا أنه يحطّ عنهم خطاياهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: قولوا لا إلَه إلا الله. كأنهم وجهوا تأويـله: قولوا الذي يحطّ عنكم خطاياكم, وهو قول لا إلَه إلا الله. ذكر من قال ذلك:

728ـ حدثنـي الـمثنى وسعد بن عبد الله بن عبد الـحكم الـمصري, قالا: أخبرنا حفص بن عمر, حدثنا الـحكم بن أبـان, عن عكرمة: وَقُولُوا حِطّةٌ قال: قولوا لا إلَه إلا الله.

وقال آخرون بـمثل معنى قول عكرمة, إلا أنهم جعلوا القول الذي أمروا بقـيـله الاستغفـار. ذكر من قال ذلك:

729ـ حدثنا الـحسن بن الزبرقان النـخعي, حدثنا أبو أسامة, عن سفـيان, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَقُولُوا حِطّةٌ قال: أمروا أن يستغفروا.

وقال آخرون نظير قول عكرمة, إلا أنهم قالوا القول الذي أمروا أن يقولون هو أن يقولوا هذا الأمر حقّ كما قـيـل لكم. ذكر من قال ذلك:

730ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَقُولُوا حِطّةٌ قال: قولوا هذا الأمر حقّ كما قـيـل لكم.

واختلف أهل العربـية فـي الـمعنى الذي من أجله رفعت الـحطة, فقال بعض نـحويـي البصرة: رفعت الـحطة بـمعنى «قولوا» لـيكن منكم حطة لذنوبنا, كما تقول للرجل سَمْعُك.

وقال آخرون منهم: هي كلـمة أمرهم الله أن يقولوها مرفوعة, وفرض علـيهم قـيـلها كذلك.

وقال بعض نـحويـي الكوفـيـين: رفعت الـحطة بضمير «هذه», كأنه قال: وقولوا هذه حطة.

وقال آخرون منهم: هي مرفوعة بضمير معناه الـخبر, كأنه قال: قولوا ما هو حطة, فتكون حطة حينئذٍ خبرا لـ«ما».

والذي هو أقرب عندي فـي ذلك إلـى الصواب وأشبه بظاهر الكتاب, أن يكون رفع حطة بنـية خبر مـحذوف قد دل علـيه ظاهر التلاوة, وهو دخولنا البـاب سجدا حطة, فكفـى من تكريره بهذا اللفظ ما دل علـيه الظاهر من التنزيـل, وهو قوله: وَادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا كما قال جل ثناؤه: وَإذْ قَالَتْ أُمّة مِنْهُمْ لِـمَ تَعِظُونَ قَوْما اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذّبُهُمْ عَذَابـا شَدِيدا قَالُوا مَعْذِرَةً إلَـى رَبّكُمْ يعنـي موعظتنا إياهم معذرة إلـى ربكم. فكذلك عندي تأويـل قوله: وَقُولُوا حِطّةٌ يعنـي بذلك: وَإذْ قُلْنَا ادْخُـلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ... وَادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا وَقُولُوا دخولنا ذلك سجدا حُطّةٌ لذنوبنا, وهذا القول علـى نـحو تأويـل الربـيع بن أنس وابن جريج وابن زيد الذي ذكرناه آنفـا.

وأما علـى تأويـل قول عكرمة, فإن الواجب أن تكون القراءة بـالنصب فـي «حطة», لأن القوم إن كانوا أمروا أن يقولوا: لا إلَه إلا الله, أو أن يقولوا: نستغفر الله, فقد قـيـل لهم: قولوا هذا القول, فـ«قولوا» واقع حينئذٍ علـى الـحطة, لأن الـحطة علـى قول عكرمة هي قول لا إلَه إلا الله, وإذ كانت هي قول لا إلَه إلا الله, فـالقول علـيها واقع, كما لو أمر رجل رجلاً بقول الـخير, فقال له: «قل خيرا» نصبـا, ولـم يكن صوابـا أن يقول له «قل خير» إلا علـى استكراه شديد.

وفـي إجماع القراء علـى رفع «الـحطة» بـيان واضح علـى خلاف الذي قاله عكرمة من التأويـل فـي قوله: وَقُولُوا حِطّةٌ. وكذلك الواجب علـى التأويـل الذي رويناه عن الـحسن وقتادة فـي قوله: وَقُولُوا حِطّةٌ أن تكون

القراءة فـي «حطة» نصبـا, لأن من شأن العرب إذا وضعوا الـمصادر مواضع الأفعال وحذفوا الأفعال أن ينصبوا الـمصادر, كما قال الشاعر:

أبِـيدوا بأيْدِي عُصْبَةٍ وَسُيُوفُهُمْعلـى أُمّهاتِ الهَامِ ضَرْبـا شآمِيَا

وكقول القائل للرجل: سمعا وطاعة, بـمعنى: أسمع سمعا وأطيع طاعة, وكما قال جل ثناؤه: مَعَاذ الله بـمعنى: نعوذ بـالله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: نَغْفِرْ لَكُمْ.

يعنـي بقوله: نَغْفِرْ لَكُمْ نتغمد لكم بـالرحمة خطاياكم ونسترها علـيكم, فلا نفضحكم بـالعقوبة علـيه. وأصل الغفر: التغطية والستر, فكل ساتر شيئا فهو غافره. ومن ذلك قـيـل للبـيضة من الـحديد التـي تتـخذ جنة للرأس «مِغْفر», لأنها تغطي الرأس وتُـجِنّه, ومثله غمد السيف, وهو ما يغمده فـيواريه ولذلك قـيـل لزئبر الثوب «غَفْرة», لتغطيته الثوب, وحَوْلِه بـين الناظر والنظر إلـيها. ومنه قول أوس بن حجر:

فَلا أعْتِبُ ابنَ العَمّ إنْ كانَ جاهِلاًوأغْفِرُ عَنْهُ الـجَهْلَ إنْ كانَ أَجْهَلاَ

يعنـي بقوله: وأغفر عنه الـجهل: أستر علـيه جهله بحلـمي عنه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: خَطاياكُمْ والـخطايا جمع خطية بغير همز كما الـمطايا جمع مطية, والـحشايا جمع حشية. وإنـما ترك جمع الـخطايا بـالهمز, لأن ترك الهمز فـي خطيئة أكثر من الهمز, فجمع علـى خطايا, علـى أن واحدتها غير مهموزة. ولو كانت الـخطايا مـجموعة علـى خطيئة بـالهمز لقـيـل خطائي علـى مثل قبـيـلة وقبـائل, وصحيفة وصحائف. وقد تـجمع خطيئة بـالتاء فـيهمز فـيقال خطيئات, والـخطيئة فعلـية من خَطِىء الرجل يَخْطَأ خِطْأً, وذلك إذا عدل عن سبـيـل الـحق. ومنه قول الشاعر:

وَإنْ مُهاجِرَينَ تَكَنّفـاهُلَعَمْرُ اللّهِ قَدْ خَطِئا وَخابَـا

يعنـي أضلا الـحقّ وأثما.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَسَنَزِيدُ الـمُـحْسِنِـينَ.

وتأويـل ذلك ما رُوي لنا عن ابن عبـاس, وهو ما:

731ـ حدثنا به القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال ابن عبـاس: وَسَنَزِيدُ الـمُـحْسِنِـينَ: من كان منكم مـحسنا زيد فـي إحسانه, ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته.

فتأويـل الآية: وإذْ قلنا ادخـلوا هذه القرية مبـاحا لكم كل ما فـيها من الطيبـات, موسعا علـيكم بغير حساب, وادخـلوا البـاب سجدا, وقولوا: سجودنا هذا لله حطة من ربنا لذنوبنا يحطّ به آثامنا, نتغمد لكم ذنوب الـمذنب منكم, فنسترها علـيه, ونـحطّ أوزاره عنه, وسنزيد الـمـحسنـين منكم إلـى إحساننا السالف عنده إحسانا. ثم أخبر الله جل ثناؤه عن عظيـم جهالتهم, وسوء طاعتهم ربهم وعصيانهم لأنبـيائهم واستهزائهم برسله, مع عظيـم آلاء الله عز وجل عندهم, وعجائب ما أراهم من آياتهم وعبره, موبخا بذلك أبناءهم الذين خوطبوا بهذه الاَيات, ومعلـمهم أنهم إن تعدّوا فـي تكذيبهم مـحمدا صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوّته مع عظيـم إحسان الله بـمبعثه فـيهم إلـيهم, وعجائب ما أظهر علـى يديه من الـحجج بـين أظهرهم, أن يكونوا كأسلافهم الذين وصف صفتهم. وقصّ علـينا أنبـاءهم فـي هذه الاَيات, فقال جل ثناؤه: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غَيْرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ فَأنْزَلْنا علـى الّذِينَ ظَلَـمُوا رِجْزا مِنَ السّماء الآية.

الآية : 59

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مّنَ السّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }
وتأويـل قوله: فَبَدّلَ فغير. ويعنـي بقوله: الّذِينَ ظَلَـمُوا الذين فعلوا ما لـم يكن لهم فعله. ويعنـي بقوله: قَوْلاً غَيْرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ بدلوا قولاً غير الذي أمروا أن يقولوه فقالوا خلافه, وذلك هو التبديـل والتغيـير الذي كان منهم. وكان تبديـلهم بـالقول الذي أمروا أن يقولوه قولاً غيره, ما:

732ـ حدثنا به الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبـا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قالَ اللّهُ لِبَنِـي إسْرَائِيـلَ: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا وَقُولُوا حِطّةٌ نَغْفِرُ لَكُمْ خَطاياكُمْ, فَبدلُوا وَدَخَـلُوا البـابَ يَزْحَفُونَ علـى أسْتاهِهِمْ وقالُوا: حَبّةٌ فـي شَعِيرَةٍ».

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة وعلـيّ بن مـجاهد, قالا: حدثنا مـحمد بن إسحاق, عن صالـح بن كيسان, عن صالـح مولـى التوأمة, عن أبـي هريرة, عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم. قال:

733ـ حدثت عن مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن سعيد بن جبـير, أو عن عكرمة, عن ابن عبـاس عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال: «دَخَـلُوا البـابَ الّذِي أُمِرُوا أنْ يَدْخُـلُوا مِنْهُ سُجّدا يَزْحُفُونَ علـى أسْتاهِهِمْ يَقُولُونَ حِنْطَةٌ فِـي شَعِيرةٍ».

734ـ وحدثنـي مـحمد بن عبد الله الـمـحاربـي, قال: حدثنا عبد الله بن الـمبـارك, عن معمر, عن همام, عن أبـي هريرة, عن النبـي صلى الله عليه وسلم فـي قوله: حِطّةٌ قال: «بدّلوا فقالوا: حبة».

735ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, عن السدي, عن أبـي سعيد عن أبـي الكنود, عن عبد الله: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا وَقُولُوا حِطّة قالوا: حنطة حمراء فـيها شعيرة, فأنزل الله: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غَيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

736ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن الأعمش, عن الـمنهال بن عمرو, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس فـي قوله: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا قال: ركوعا من بـاب صغير. فجعلوا يدخـلون من قِبَلِ أستاههم. ويقولون حنطة فذلك قوله: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غَيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

حدثنا الـحسن بن الزبرقان النـخعي, قال: حدثنا أبو أسامة, عن سفـيان, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد, عن ابن عبـاس, قال: أمروا أن يدخـلوا ركعا, ويقولوا حطة قال: أمروا أن يستغفروا قال: فجعلوا يدخـلون من قبل أستاههم من بـاب صغير ويقولون حنطة يستهزئون, فذلك قوله: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

737ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر, عن قتادة والـحسن: ادْخُـلُوا البـابَ سُجدا قالا: دخـلوها علـى غير الـجهة التـي أمروا بها, فدخـلوها متزحفـين علـى أوراكهم, وبدلوا قولاً غير الذي قـيـل لهم, فقالوا: حبة فـي شعيرة.

738ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو البـاهلـي, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: أمر موسى قومه أن

يدخـلوا البـاب سجدا ويقولوا حطة, وطُؤْطِىءَ لهم البـاب لـيسجدوا فلـم يسجدوا ودخـلوا علـى أدبـارهم وقالوا حنطة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: أمر موسى قومه أن يدخـلوا الـمسجد ويقولوا حطة, وطؤطىء لهم البـاب لـيخفضوا رءوسهم, فلـم يسجدوا ودخـلوا علـى أستاههم إلـى الـجبل, وهو الـجبل الذي تـجلـى له ربه وقالوا: حنطة. فذلك التبديـل الذي قال الله عز وجل: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

739ـ حدثنـي موسى بن هارون الهمدانـي عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هطى سمقا يا ازبة هزبـا», وهو بـالعربـية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فـيها شعيرة سوداء. فذلك قوله: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

740ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَادْخُـلُوا البـاب سُجّدا قال: فدخـلوا علـى أستاههم مُقْنِعي رءوسهم.

741ـ حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي النضر بن عديّ, عن عكرمة: وَادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا فدخـلوا مقنعى رءوسهم, وَقُولُوا حِطّة فقالوا: حنطة حمراء فـيها شعيرة, فذلك قوله: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غَيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

742ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس: وادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا وَقُولُوا حِطّةٌ قال: فكان سجود أحدهم علـى خده, وقُولُوا حِطّة نـحطّ عنكم خطاياكم, فقالوا: حنطة, وقال بعضهم: حبة فـي شعيرة. فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ.

743ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا وَقُولُوا حِطّةٌ يحط الله بها عنكم ذنبكم وخطيئاتكم. قال: فـاستهزءوا به يعنـي بـموسى وقالوا: ما يشاء موسى أن يـلعب بنا إلا لعب بنا حطة حطة أيّ شيء حطة؟ وقال بعضهم لبعض: حنطة.

744ـ حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنـي الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, وقال ابن عبـاس: لـما دخـلوا قالوا: حبة فـي شعيرة.

حدثنـي مـحمد بن سعيد, قال: حدثنـي أبـي سعيد بن مـحمد بن الـحسن, قال: أخبرنـي عمي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس, قال: لـما دخـلوا البـاب قالوا حبة فـي شعيرة, فبدلوا قولاً غير الذي قـيـل لهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فأنْزَلْنا عَلـى الّذِينَ ظَلَـمُوا رِجْزا مِنَ السمّاءِ.

يعنـي بقوله: فأنْزَلْنا علـى الّذِينَ ظَلَـمُوا علـى الذين فعلوا ما لـم يكن لهم فعله من تبديـلهم القول الذي أمرهم الله جل وعزّ أن يقولوه قولاً غيره, ومعصيتهم إياه فـيـما أمرهم به وبركوبهم ما قد نهاهم عن ركوبه رِجْزا مِنَ السمّاءِ بِـما كانُوا يَفْسُقُونَ. والرّجز فـي لغة العرب: العذاب, وهو غير الرّجْز, وذلك أن الرّجز: البَثْر, ومنه الـخبر الذي رُوي عن النبـي صلى الله علـيه وسلم فـي الطاعون أنه قال: «إنّهُ رِجْزٌ عُذّبَ بِهِ بَعْضُ الامَـمِ الّذِينَ قَبْلَكُمْ».

745ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: أخبرنـي يونس, عن ابن شهاب, قال: أخبرنـي عامر بن سعد بن أبـي وقاص, عن أسامة بن زيد, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنّ هَذا الوَجَعَ أوِ السّقْمَ رِجْزٌ عُذّبَ بِهِ بَعْضُ ألامَـمِ قَبْلَكُمْ».

746ـ وحدثنـي أبو شيبة بن أبـي بكر بن أبـي شيبة, قال: حدثنا عمر بن حفص, قال: حدثنا أبـي عن الشيبـانـي عن ربـاح بن عبـيدة, عند عامر بن سعد, قال: شهدت أسامة بن زيد عن سعد بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنّ الطّاعُونَ رِجْز أُنْزِلَ علـى مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ أوْ علـى بَنِـي إسْرائيـلَ».

وبـمثل الذي قلنا فـي تأويـل ذلك قال أهل التأويـل: ذكر من قال ذلك:

747ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أنبأنا عبد الرزاق, قال: أنبأنا معمر, عن قتادة فـي قوله: رِجْزا قال: عذابـا.

748ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم العسقلانـي, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: فأنْزَلْنا علـى الّذِينَ ظَلَـمُوا رِجْزا مِنَ السمّاءِ قال: الرجز: الغضب.

749ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لـما قـيـل لبنـي إسرائيـل: ادْخُـلُوا البـابَ سُجّدا وَقُولُوا حِطّةٌ فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيرَ الّذِي قِـيـلَ لَهُمْ بعث الله جل وعز علـيهم الطاعون, فلـم يبق منهم أحدا. وقرأ: فأنْزَلْنَا علـى الّذِينَ ظَلَـمُوا رِجْزا مِنَ السمّاءِ بِـما كانُوا يَفْسُقُونَ. قال: وبقـي الأبناء, ففـيهم الفضل والعبـادة التـي توصف فـي بنـي إسرائيـل والـخير, وهلك الآبـاء كلهم, أهلكهم الطاعون.

750ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: الرجز: العذاب, وكل شيء فـي القرآن رجز فهو عذاب.

751ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: رِجْزا قال: كل شيء فـي كتاب الله من الرجز, يعنـي به العذاب.

وقد دللنا علـى أن تأويـل الرجز: العذاب. وعذابُ الله جل ثناؤه أصناف مختلفة. وقد أخبر الله جل ثناؤه أنه أنزل علـى الذين وصفنا أمرهم الرجز من السماء, وجائز أن يكون ذلك طاعونا, وجائز أن يكون غيره, ولا دلالة فـي ظاهر القرآن ولا فـي أثر عن الرسول ثابت أيّ أصناف ذلك كان.

فـالصواب من القول فـي ذلك أن يقال كما قال الله عزّ وجل: فأنْزَلْنا عَلَـيْهِمْ رِجْزا مِنَ السّماءِ بفسقهم. غير أنه يغلب علـى النفس صحة ما قاله ابن زيد لـلـخبر الذي ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فـي إخبـاره عن الطاعون أنه رجز, وأنه عذّب به قوم قبلنا. وإن كنت لا أقول إن ذلك كذلك يقـينا لأن الـخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بـيان فـيه أيّ أمة عذّبت بذلك. وقد يجوز أن يكون الذين عذّبوا به كانوا غير الذين وصف الله صفتهم فـي قوله: فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَـمُوا قَوْلاً غَيرَ الذي قِـيـلَ لَهُمْ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بِـمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

فَبَدّلَ الّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مّنَ السّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ وقد دللنا فـيـما مضى من كتابنا هذا علـى أن معنى الفسق: الـخروج من الشيء. فتأويـل قوله: بِـمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

إذا بـما كانوا يتركون طاعة الله عزّ وجلّ, فـيخرجون عنها إلـى معصيته وخلاف أمره.

الآية : 60

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذِ اسْتَسْقَىَ مُوسَىَ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلّ أُنَاسٍ مّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرْض مُفْسِدِينَ }

عنـي بقوله: وَإِذِ اسْتَسْقَـى مُوسَى لِقَوْمِهِ: وإذ استسقانا موسى لقومه: أي سألنا أن نسقـي قومه ماء. فترك ذكر الـمسؤول ذلك, والـمعنى الذي سأل موسى, إذ كان فـيـما ذكر من الكلام الظاهر دلالة علـى معنى ما ترك. وكذلك قوله: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الـحَجَرَ فَـانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْنا مـما استغنـي بدلالة الظاهر علـى الـمتروك منه. وذلك أن معنى الكلام, فقلنا: اضرب بعصاك الـحجر, فضربه فـانفجرت. فترك ذكر الـخبر عن ضرب موسى الـحجر, إذ كان فـيـما ذكر دلالة علـى الـمراد منه. وكذلك قوله: قَدْ عَلِـمَ كُلّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ إنـما معناه: قد علـم كل أناس منهم مشربهم, فترك ذكر منهم لدلالة الكلام علـيه. وقد دللنا فـيـما مضى علـى أن الناس جمع لا واحد له من لفظه, وأن الإنسان لو جمع علـى لفظه لقـيـل: أناسيّ وأناسية. وقوم موسى هم بنو إسرائيـل الذين قصّ الله عز وجل قصصهم فـي هذه الآيات, وإنـما استسقـى لهم ربه الـماء فـي الـحال التـي تاهوا فـيها فـي التـيه, كما:

752ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد بن أبـي عروبة, عن قتادة قوله: وَإِذِ اسْتَسْقَـى مُوسَى لِقَوْمِهِ الآية قال: كان هذا إذ هم فـي البرية اشتكوا إلـى نبـيهم الظمأ, فأمروا بحجر طوريّ أي من الطور أن يضربه موسى بعصاه, فكانوا يحملونه معهم, فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه, فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا, لكل سبط عين معلومة مستفـيض ماؤها لهم.

753ـ حدثنـي تـميـم بن الـمنتصر, قال: حدثنا يزيد بن هارون, قال: حدثنا أصبغ بن زيد, عن القاسم بن أبـي أيوب, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: ذلك فـي التـيه ظلل علـيهم الغمام, وأنزل علـيهم الـمنّ والسلوى, وجعل لهم ثـيابـا لا تبلـى ولا تتسخ, وجعل بـين ظهرانـيهم حجر مربّع, وأمر موسى فضرب بعصاه الـحجر, فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فـي كل ناحية منه ثلاث عيون, لكل سبط عين, ولا يرتـحلون مَنْقلة إلا وجدوا ذلك الـحجر معهم بـالـمكان الذي كان به معهم فـي الـمنزل الأول.

754ـ حدثنـي عبد الكريـم, قال: أخبرنا إبراهيـم بن بشار, قال: حدثنا سفـيان, عن أبـي سعيد, عن عكرمة عن ابن عبـاس, قال: ذلك فـي التـيه, ضرب لهم موسى الـحجر, فصار فـيه اثنتا عشرة عينا من ماء, لكل سبط منهم عين يشربون منها.

755ـ وحدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الـحَجَرَ فَـانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْنا لكل سبط منهم عين, كل ذلك كان فـي تـيههم حين تاهوا.

حدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد قوله: وَإذِ اسْتَسْقَـى مُوسَى لِقَوْمِهِ قال: خافوا الظمأ فـي تـيههم حين تاهوا, فـانفجر لهم الـحجر اثنتـي عشرة عينا ضربه موسى. قال ابن جريج, قال ابن عبـاس: الأسبـاط: بنو يعقوب كانوا اثنـي عشر رجلاً كل واحد منهم ولد سبطا أمّة من الناس.

756ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: استسقـى لهم موسى فـي التـيه, فسقوا فـي حجر مثل رأس الشاة. قال: يـلقونه فـي جوانب الـجوالق إذا ارتـحلوا, ويقرعه موسى بـالعصا إذا نزل, فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا, لكل سبط منهم عين. فكان بنو إسرائيـل يشربون منه, حتـى إذا كان الرحيـل استـمسكت العيون, وقـيـل به فألقـي فـي جانب الـجوالق, فإذا نزل رُمي به. فقرعه بـالعصا, فتفجرت عين من كل ناحية مثل البحر.

757ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنـي أسبـاط, عن السدي, قال: كان ذلك فـي التـيه.

وأما قوله: قَدْ عَلِـمَ كُلّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ فإنـما أخبر الله عنهم بذلك, لأن معناهم فـي الذي أخرج الله جل وعز لهم من الـحجر الذي وصف جل ذكره فـي هذه الآية صفته من الشرب كان مخالفـا معانـي سائر الـخـلق عن ذكره ما ترك ذكره. وذلك أن تأويـل الكلام: فَقُلْنَا اضْرِبْ بعَصَاكَ الـحَجَرَ فضربه فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا, قد علـم كل أناس مشربهم, فقـيـل لهم: كلوا واشربوا من رزق الله أخبر الله جل ثناؤه أنه أمرهم بأكل ما رزقهم فـي التـيه من الـمنّ والسلوى, وبشرب ما فجر لهم فـيه من الـماء من الـحجر الـمتعاور الذي لا قرار له فـي الأرض ولا سبـيـل إلـيه لـمالكيه يتدفق بعيون الـماء ويزخر بـينابـيع العذب الفرات بقدرة ذي الـجلال والإكرام ثم تقدم جل ذكره إلـيهم مع إبـاحتهم ما أبـاح وإنعامه علـيهم بـما أنعم به علـيهم من العيش الهنـيء بـالنهي عن السعي فـي الأرض فسادا والعثا فـيها استكبـارا فقال جل ثناؤه: لهم ولا تعثوا فـي الأرض مفسدين القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {ولا تعثوا فـي الأرض مفسدين} يعنـي بقوله لا تعثوا لا تطغوا ولا تسعوا فـي الأرض مفسدين كما:

758ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلا تَعْثَوْا فِـي الأرْضِ مُفْسِدِينَ يقول: لا تسعوا فـي الأرض فسادا.

759ـ حدلا تَعْثَوْا لا تطغوا, ولا تسعوا فـي الأرض مفسدين. كما:

760ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلا تَعْثَوْا فِـي الأرْضِ مُفْسِدِينَ يقول: لا تسعوا فـي الأرض فسادا.

761ـ حدلا تَعْثَوْا لا تطغوا, ولا تسعوا فـي الأرض مفسدين. كما:

762ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلا تَعْثَوْا فِـي الأرْضِ مُفْسِدِينَ يقول: لا تسعوا فـي الأرض فسادا.

763ـ حدلا تَعْثَوْا لا تطغوا, ولا تسعوا فـي الأرض مفسدين. كما:

764ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلا تَعْثَوْا فِـي الأرْضِ مُفْسِدِينَ يقول: لا تسعوا فـي الأرض فسادا.

765ـ حدلا تَعْثَوْا لا تطغوا, ولا تسعوا فـي الأرض مفسدين. كما:

766ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلا تَعْثَوْا فِـي الأرْضِ مُفْسِدِينَ يقول: لا تسعوا فـي الأرض فسادا.

767ـ حدلا تَعْثَوْا لا تطغوا, ولا تسعوا فـي الأرض مفسدين. كما:

768ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَلا تَعْثَوْا فِـي الأرْضِ مُفْسِدِينَ يقول: لا تسعوا فـي الأرض فسادا.

769ـ حد لن نطيق حبس أنفسنا علـى طعام واحد وذلك الطعام الواحد هو ما أخبر الله جل ثناؤه أنه أطعمهموه فـي تـيههم وهو السلوى فـي قول بعض أهل التأويـل, وفـي قول وهب بن منبه هو الـخبز النّقـيّ مع اللـحم فـاسأل لنا ربك يخرج لنا مـما تنبت الأرض من البقل والقثاء. وما سمى الله مع ذلك وذكر أنهم سألوه موسى. وكان سبب مسألتهم موسى ذلك فـيـما بلغنا, ما:

770ـ حدثنا به بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَإذْ قُلْتُـمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرِ علـى طَعامٍ وَاحِدٍ قال: كان القوم فـي البرية قد ظلل علـيهم الغمام, وأنزل علـيهم الـمنّ والسلوى, فملوا ذلك, وذكروا عيشا كان لهم بـمصر, فسألوه موسى, فقال الله تعالـى: اهْبِطُوا مِصْرا فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لَنْ نَصْبِرَ علـى طَعامٍ وَاحِدٍ قال: ملوا طعامهم, وذكروا عيشهم الذي كانوا فـيه قبل ذلك, قالُوا ادْعُ لَنّا ربّكَ يُخْرِجْ لَنا مِـمّا تُنْبِتُ الأرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثائِها وَفُومِها... الآية.

771ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وَإذْ قُلْتُـمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ علـى طعَامٍ وَاحِدٍ قال: كان طعامهم السلوى, وشرابهم الـمنّ, فسألوا ما ذكر, فقـيـل لهم: اهْبِطُوا مِصْرا فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ.

قال أبو جعفر, وقال قتادة: إنهم لـما قدموا الشأم فقدوا أطعمتهم التـي كانوا يأكلونها, فقالوا: ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِـمّا تُنْبِتُ الأرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثّائِها وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا وكانوا قد ظلل علـيهم الغمام وأنزل علـيهم الـمنّ والسلوى, فملوا ذلك, وذكروا عيشا كانوا فـيه بـمصر.

772ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, قال: سمعت ابن أبـي نـجيح فـي قوله عزّ وجل: لَنْ نَصْبِرَ علـى طَعامٍ وَاحِدٍ الـمنّ والسلوى, فـاستبدلوا به البقل وما ذكر معه.

773ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بـمثله سواء.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد بـمثله.

774ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أعطوا فـي التـيه ما أعطوا, فملوا ذلك.

الآية : 61

تأويل قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىَ لَن نّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمّا تُنْبِتُ الأرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الّذِي هُوَ أَدْنَىَ بِالّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنّ لَكُمْ مّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذّلّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مّنَ اللّهِ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النّبِيّينَ بِغَيْرِ الْحَقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}

775ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: أنبأنا ابن زيد, قال: كان طعام بنـي إسرائـيـل فـي التـيه واحدا, وشرابهم واحدا, كان شرابهم عسلاً ينزل لهم من السماء يقال له الـمنّ, وطعامهم طير يقال له السلوى, يأكلون الطير ويشربون العسل, لـم يكونوا يعرفون خبزا ولا غيره. فقالوا: يا موسى إنا لن نصبر علـى طعام واحد, فـادع لنا ربك يخرج لنا مـما تنبت الأرض من بقلها فقرأ حتـى بلغ: اهْبِطُوا مِصْرا فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ.

وإنـما قال جل ذكره: يُخْرِجْ لَنا مِـمّا تُنْبِتُ الأرْضُ ولـم يذكر الذي سألوه أن يدعو ربه لـيخرج لهم من الأرض, فـيقول: قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا كذا وكذا مـما تنبته الأرض من بقلها وقثائها, لأن «من» تأتـي بـمعنى التبعيض لـما بعدها, فـاكْتُفـي بها عن ذكر التبعيض, إذ كان معلوما بدخولها معنى ما أريد بـالكلام الذي هي فـيه كقول القائل: أصبح الـيوم عند فلان من الطعام يريد شيئا منه.

وقد قال بعضهم: «من» ههنا بـمعنى الإلغاء والإسقاط, كأن معنى الكلام عنده: يخرج لنا ما تنبت الأرض من بقلها. واستشهد علـى ذلك بقول العرب: ما رأيت من أحد, بـمعنى: ما رأيت أحدا, وبقول الله: وَيُكَفّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيّئَاتِكُمْ وبقولهم: قد كان من حديث, فخـلّ عنـي حتـى أذهب, يريدون: قد كان حديث.

وقد أنكر من أهل العربـية جماعة أن تكون «من» بـمعنى الإلغاء فـي شيء من الكلام, وادّعُوا أنّ دخولها فـي كل موضع دخـلت فـيه مؤذن أن الـمتكلـم مريد لبعض ما أدخـلت فـيه لا جميعه, وأنها لا تدخـل فـي موضع إلا لـمعنى مفهوم.

فتأويـل الكلام إذا علـى ما وصفنا من أمر من ذكرنا: فـادع لنا ربك يخرج لنا بعض ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها. والبقل والقثاء والعدس والبصل, هو ما قد عرفه الناس بـينهم من نبـات الأرض وحبها. وأما الفوم, فإن أهل التأويـل اختلفوا فـيه. فقال بعضهم: هو الـحنطة والـخبز. ذكر من قال ذلك.

776ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا أبو أحمد ومؤمل, قالا: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن عطاء, قال: الفوم: الـخبز.

حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, حدثنا سفـيان, عن ابن جريج, عن عطاء ومـجاهد قوله: وَفُومِها قالا: خبزها.

حدثنـي زكريا بن يحيى بن أبـي زائدة ومـحمد بن عمرو, قالا: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى بن ميـمون, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَفُومِها قال: الـخبز.

777ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة والـحسن: الفوم: هو الـحبّ الذي تـختبزه الناس.
حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة والـحسن بـمثله.
778ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا حصين, عن أبـي مالك فـي قوله: وَفُومِها قال: الـحنطة.
779ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر عن السدي: وَفُومِهَا الـحنطة.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عمرو بن عون, قال: حدثنا هشيـم, عن يونس, عن الـحسن وحصين, عن أبـي مالك فـي قوله: وَفُومِها: الـحنطة.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر الرازي, عن قتادة قال: الفوم: الـحبّ الذي يختبز الناس منه.
حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال لـي عطاء بن أبـي ربـاح قوله: وَفُومِها قال: خبزها. قالها مـجاهد.
780ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال لـي ابن زيد: الفوم: الـخبز.
781ـ حدثنـي يحيى بن عثمان السهمي, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَفُومِها يقول: الـحنطة والـخبز.
حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَفُومِها قال: هو البرّ بعينه الـحنطة.
حدثنا علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا مسلـم الـجرمي, قال: حدثنا عيسى بن يونس, عن رشدين بن كريب, عن أبـيه, عن ابن عبـاس فـي قول الله عزّ وجل: وَفُومِها قال: الفوم: الـحنطة بلسان بنـي هاشم.
782ـ حدثنـي عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الـحكم, قال: حدثنا عبد العزيز بن منصور, عن نافع بن أبـي نعيـم أن عبد الله بن عبـاس سئل عن قول الله: وَفُومِها قال: الـحنطة, أما سمعت قول أحيحة بن الـجلاح وهو يقول:
قَدْ كُنْتُ أغْنَى النّاسِ شَخْصا وَاحداوَرَدَ الـمَدِينَةَ عَنْ زِرَاعَةِ فُومِ
وقال آخرون: هو الثوم. ذكر من قال ذلك:
783ـ حدثنـي أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا شريك, عن لـيث, عن مـجاهد, قال: هو هذا الثوم.
784ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: الفوم: الثوم.
وهو فـي بعض القراءات «وثومها». وقد ذكر أن تسمية الـحنطة والـخبز جميعا فوما من اللغة القديـمة, حكي سماعا من أهل هذه اللغة: فوّموا لنا, بـمعنى اختبزوا لنا وذكر أن ذلك قراءة عبد الله بن مسعود «وثومها» بـالثاء. فإن كان ذلك صحيحا فإنه من الـحروف الـمبدلة, كقولهم: وقعوا فـي عاثور شرّ وعافور شرّ, وكقولهم للأثافـي أثاثـي, ولـلـمغافـير مغاثـير, وما أشبه ذلك مـما تقلب الثاء فـاء والفـاء ثاء لتقارب مخرج الفـاء من مخرج الثاء. والـمغافـير شبـيه بـالشيء الـحلو يشبه بـالعسل ينزل من السماء حلوا يقع علـى الشجر ونـحوها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أتَسْتَبْدِلُونَ الّذِي هُوَ أدْنَى بـالّذِي هُوَ خَيْرٌ.
يعنـي بقوله: قالَ أتَسْتَبْدِلُونَ الّذِي هُوَ أدْنى بـالّذِي هُوَ خَيْرٌ قال لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخسّ خطرا وقـيـمة وقدرا من العيش, بدلاً بـالذي هو خير منه خطرا وقـيـمة وقدرا وذلك كان استبدالهم. وأصل الاستبدال: هو ترك شيء لاَخر غيره مكان الـمتروك. ومعنى قوله: أدْنى أخسّ وأوضع وأصغر قدرا وخطرا, وأصله من قولهم: هذا رجل دنـيّ بـيّن الدناءة, وإنه لـيدنـي فـي الأمور بغير همز إذا كان يتتبع خسيسها. وقد ذكر الهمز عن بعض العرب فـي ذلك سماعا منهم, يقولون: ما كنت دنـيا ولقد دنأت. وأنشدنـي بعض أصحابنا عن غيره أنه سمع بعض بنـي كلاب ينشد بـيت الأعشى:

بـاسِلَةُ الوَقْعِ سَرَابِـيـلُهابِـيضٌ إلـى دانِئها الظّاهِرِ

بهمز الدانىء, وأنه سمعهم يقولون: إنه لدانىء خبـيث, بـالهمز. فإن كان ذلك عنهم صحيحا, فـالهمز فـيه لغة وتركه أخرى.
ولا شكّ أن من استبدل بـالـمنّ والسلوى البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم, فقد استبدل الوضيع من العيش بـالرفـيع منه.
وقد تأول بعضهم قوله: الّذِي هُوَ أدْنَى بـمعنى الذي هو أقرب, ووجه قوله: أدنى إلـى أنه أفعل من الدنوّ الذي هو بـمعنى القرب. وبنـحو الذي قلنا فـي معنى قوله: الّذِي هُوَ أدْنى قاله عدد من أهل التأويـل فـي تأويـله. ذكر من قال ذلك:
785ـ حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قال: أتَسْتَبْدِلُونَ الّذي هُوَ أدْنى بـالّذِي هُوَ خَيْرٌ يقول: أتستبدلون الذي هو شرّ بـالذي هو خير منه؟.
786ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, عن مـجاهد قوله: الّذِي هُوَ أدْنى قال: أردأ.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: اهْبِطُوا مِصْرا فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ.
وتأويـل ذلك: فدعا موسى فـاستـجبنا له, فقلنا لهم: اهبطوا مصر. وهو من الـمـحذوف الذي اجتزىء بدلالة ظاهره علـى ذكر ما حذف وترك منه. وقد دللنا فـيـما مضى علـى أن معنى الهبوط إلـى الـمكان إنـما هو النزول إلـيه والـحلول به.
فتأويـل الآية إذا: وَإذْ قُلْتُـمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ علـى طَعَامٍ وَاحِدٍ فـادْعُ لَنا رَبّكَ يُخْرِجْ لَنا مِـمّا تُنْبِتُ الأرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثائِها وفُومِها وعَدَسِها وبَصَلِها قال لهم موسى: أتستبدلون الذي هو أخسّ وأردأ من العيش بـالذي هو خير منه؟ فدعا لهم موسى ربه أن يعطيهم ما سألوه, فـاستـجاب الله له دعاءه, فأعطاهم ما طلبوا, وقال الله لهم: اهْبُطُوا مِصْرا فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ.
ثم اختلف القرّاء فـي قراءة قوله: مِصْرا فقرأه عامة القرّاء: «مصرا» بتنوين الـمصر وإجرائه وقرأه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه. فأما الذين نوّنوه وأجروه, فإنهم عنوا به مصرا من الأمصار لا مصرا بعينه, فتأويـله علـى قراءتهم: اهبطوا مصرا من الأمصار, لأنكم فـي البدو, والذي طلبتـم لا يكون فـي البوادي والفـيافـي, وإنـما يكون فـي القرى والأمصار, فإن لكم إذا هبطتـموه ما سألتـم من العيش. وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بـالإجراء والتنوين, كان تأويـل الكلام عنده: اهبطوا مصرا البلدة التـي تعرف بهذا الاسم وهي «مصر» التـي خرجوا عنها, غير أنه أجراها

ونوّنها اتبـاعا منه خط الـمصحف, لأن فـي الـمصحف ألفـا ثابتة فـي مصر, فـيكون سبـيـل قراءته ذلك بـالإجراء والتنوين سبـيـل من قرأ: قَوَارِيرا قَوَارِيرا مِنْ فِضّةٍ منوّنة اتبـاعا منه خط الـمصحف. وأما الذي لـم ينوّن مصر فإنه لا شك أنه عنى مصر التـي تعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها.

وقد اختلف أهل التأويـل فـي ذلك نظير اختلاف القرّاء فـي قراءته.

787ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: اهْبِطُوا مِصْرا أي مصرا من الأمصار فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ.

788ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: اهْبُطُوا مِصْرا من الأمصار, فإنّ لَكُمْ ما سألْتُـمْ فلـما خرجوا من التـيه رفع الـمنّ والسلوى وأكلوا البقول.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن قتادة فـي قوله: اهْبُطُوا مِصْرا قال: يعنـي مصرا من الأمصار.

789ـ وحدثنا القاسم بن الـحسن, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: اهْبِطُوا مِصْرا قال: مصرا من الأمصار, زعموا أنهم لـم يرجعوا إلـى مصر.

790ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: اهْبِطُوا مِصْرا قال: مصرا من الأمصار. ومصر لا تـجري فـي الكلام, فقـيـل: أيّ مصر؟ فقال: الأرض الـمقدسة التـي كتب الله لهم. وقرأ قول الله جل ثناؤه: ادْخُـلُوا الأرْضَ الـمُقَدّسَةَ الّتِـي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ.

وقال آخرون: هي مصر التـي كان فـيها فرعون. ذكر من قال ذلك:

791ـ حدثنـي الـمثنى, حدثنا آدم, حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: اهْبِطُوا مِصْرا قال: يعنـي به مصر فرعون.

792ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, عن ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

ومن حجة من قال: إن الله جل ثناؤه إنـما عنى بقوله: اهْبُطُوا مِصْرا مصرا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها, أن الله جعل أرض الشام لبنـي إسرائيـل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر, وإنـما ابتلاهم بـالتـيه بـامتناعهم علـى موسى فـي حرب الـجبـابرة إذ قال لهم: يا قَوْمُ ادْخُـلُوا الأرْضُ الـمُقَدّسَةَ الّتِـي كَتَبَ اللّهُ لكُمْ وَلاَ تَرْتَدّوا علـى أدْبـارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ قالُوا يا مُوسَى إنّ فِـيهَا قَوْما جَبّـارِينَ إلـى قوله: إنّا لَنْ نَدْخُـلَها أبَدا ما دَامُوا فِـيها فـاذْهَبْ أنْتَ وَرَبّكَ فَقاتِلا إنّا هَهُنا قَاعِدُونَ. فحرّم الله جل وعز علـى قائل ذلك فـيـما ذكر لنا دخولها حتـى هلكوا فـي التـيه وابتلاهم بـالتـيهان فـي الأرض أربعين سنة, ثم أهبط ذرّيتهم الشام, فأسكنهم الأرض الـمقدسة, وجعل هلاك الـجبـابرة علـى أيديهم مع يوشع بن نون بعد وفـاة موسى بن عمران. فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض الـمقدسة, ولـم يخبرنا عنهم أنه ردّهم إلـى مصر بعد إخراجه إياهم منها, فـيجوز لنا أن نقرأ اهبطوا مصر, ونتأوّله أنه ردّهم إلـيها.

قالوا: فإن احتـجّ مـحتـجّ بقول الله جل ثناؤه: فأخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ وكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيـمٍ كَذَلِكَ وأوْرَثْناها بَنِـي إسْرَائِيـلَ. قـيـل لهم: فإن الله جل ثناؤه إنـما أورثهم ذلك فملكهم إياها ولـم يردّهم إلـيها, وجعل مساكنهم الشأم.

وأما الذين قالوا: إن الله إنـما عنى بقوله جل وعز: اهْبِطُوا مِصْرا مِصْرَ, فإن من حجتهم التـي احتـجوا بها الآية التـي قال فـيها: فأخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيـمٍ كَذَلِكَ وَأوْرَثْنَاها بَنِـي إسْرَائِيـلَ وقوله: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيـمٍ وَنِعْمَةٍ كانُوا فِـيها فـاكِهِينَ كذلِكَ وأوْرَثْناها قَوْما آخَرِينَ. قالوا: فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورّثهم ذلك وجعلها لهم, فلـم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها. قالوا: ولا يكونون منتفعين بها إلا بـمصير بعضهم إلـيها, وإلا فلا وجه للانتفـاع بها إن لـم يصيروا أو يصر بعضهم إلـيها. قالوا: وأخرى أنها فـي قراءة أبـيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود: «اهْبِطُوا مِصْرَ» بغير ألف, قالوا: ففـي ذلك الدلالة البـينة أنها مصر بعينها.

والذي نقول به فـي ذلك أنه لا دلالة فـي كتاب الله علـى الصواب من هذين التأويـلـين, ولا خبر به عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع مـجيئه العذر, وأهل التأويـل متنازعون تأويـله.

فأولـى الأقوال فـي ذلك عندنا بـالصواب أن يقال: إن موسى سأل ربه أن يعطي قومه ما سألوه من نبـات الأرض علـى ما بـينه الله جل وعز فـي كتابه وهم فـي الأرض تائهون, فـاستـجاب الله لـموسى دعاءه, وأمره أن يهبط بـمن معه من قومه قرارا من الأرض التـي تنبت لهم ما سأل لهم من ذلك, إذ كان الذي سألوه لا تنبته إلا القرى والأمصار وأنه قد أعطاهم ذلك إذ صاروا إلـيه, وجائز أن يكون ذلك القرار مصر, وجائز أن يكون الشأم. فأما القراءة فإنها بـالألف والتنوين: اهْبِطُوا مِصْرا وهي القرائة التـي لا يجوز عندي غيرها لاجتـماع خطوط مصاحف الـمسلـمين, واتفـاق قراءة القراء علـى ذلك. ولـم يقرأ بترك التنوين فـيه وإسقاط الألف منه إلا من لا يجوز الإعتراض به علـى الـحجة فـيـما جاءت به من القراءة مستفـيضا بـينها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وضُرِبَتْ عَلَـيْهِمُ الذّلّةُ وَالـمَسْكَنَةُ.

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: وَضُرِبَتْ أي فُرِضت, ووضعت علـيهم الذلة وألزموها من قول القائل: ضرب الإمام الـجزية علـى أهل الذمة, وضرب الرجل علـى عبده الـخراج يعنـي بذلك وضعه فألزمه إياه, ومن قولهم: ضرب الأمير علـى الـجيش البعث, يراد به ألزمهموه.

وأما الذلة, فهي الفعلة من قول القائل: ذلّ فلان يذلّ ذلاً وذلة, كالصغرة من صغر الأمر, والقعدة من قعد, والذلة: هي الصغار الذي أمر الله جل ثناؤه عبـاده الـمؤمنـين أن لا يعطوهم أمانا علـى القرار علـى ماهم علـيه من كفرهم به وبرسوله إلا أن يبذلوا الـجزية علـيه لهم, فقال جل وعز: قاتِلُوا الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بـاللّهِ وَلاَ بـالْـيَوْمِ الاَخِرِ وَلا يُحَرّمُونَ ما حَرّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الـحَقّ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حَتّـى يُعْطُوا الـجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. كما:

793ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن الـحسن وقتادة فـي قوله: وَضُرِبَتْ عَلَـيْهِمُ الذّلّةُ قالا: يعطون الـجزية عن يد وهم صاغرون.

وأما الـمسكنة, فإنها مصدر الـمسكين, يقال: ما فـيهم أسكن من فلان وما كان مسكينا ولقد تـمسكن مسكنة. ومن العرب من يقول: تـمسكن تـمسكنا. والـمسكنة فـي هذا الـموضع مسكنة الفـاقة والـحاجة, وهي خشوعها وذلها, كما:

794ـ حدثنـي به الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وَالـمَسْكَنَةُ قال: الفـاقة.
795ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قوله: وَضُرِبَتْ عَلَـيْهِمُ الذّلّةُ وَالـمَسْكَنَةُ قال: الفقر.
796ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَضُرِبَتْ عَلَـيْهِمُ الذّلّةُ وَالـمَسْكَنَةُ قال هؤلاء يهود بنـي إسرائيـل. قلت له: هم قبط مصر, قال: وما لقبط مصر وهذا؟ لا والله ما هم هم, ولكنهم الـيهود يهود بنـي إسرائيـل. فأخبرهم الله جل ثناؤه أنه يبدلهم بـالعزّ ذلاّ, وبـالنعمة بؤسا, وبـالرضا عنهم غضبـا, جزاءً منه لهم علـى كفرهم بآياته وقتلهم أنبـياءه ورسله اعتداءً وظلـما منهم بغير حقّ, وعصيانهم له, وخلافـا علـيه.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَبَـاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ.
قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: وَبـاءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ انصرفوا ورجعوا, ولا يقال بـاءوا إلا موصولاً إما بخير وإما بشرّ, يقال منه: بـاء فلان بذنبه يبوء به بَوْءا وَبَوْاءً. ومنه قول الله عزّ وجلّ إنـي أُرِيد أنْ تَبُوءَ بإثْمِي وإثْمِكَ يعنـي: تنصرف متـحملهما وترجع بهما قد صارا علـيك دونـي.
فمعنى الكلام إذا: ورجعوا منصرفـين متـحملـين غضب الله, قد صار علـيهم من الله غضب, ووجب علـيهم منه سخط. كما:
797ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَبـاءُوا بِغَضَبٍ مِن اللّهِ فحدث علـيهم غضب من الله.
798ـ حدثنا يحيى بن أبـي طالب, قال: أخبرنا يزيد, قال: أخبرنا جويبر, عن الضحاك فـي قوله: وَبـاءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ قال: استـحقوا الغضب من الله.
وقدمنا معنى غضب الله علـى عبده فـيـما مضى من كتابنا هذا, فأغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ذلكَ بأنّهُمْ كانُوا يَكْفُرون بآياتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النّبِـيّـينَ بِغَيْرِ الـحَقّ.
قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل ثناؤه: «ذلك» ضرب الذلة والـمسكنة علـيهم, وإحلاله غضبه بهم. فدل بقوله: «ذلك» وهي يعنـي به ما وصفنا علـى أن قول القائل ذلك يشمل الـمعانـي الكثـيرة إذا أشير به إلـيها.
ويعنـي بقوله: بِأنّهُمْ كانُوا يَكْفُرونَ: من أجل أنهم كانوا يكفرون, يقول: فعلنا بهم من إحلال الذلّ والـمسكنة والسخط بهم من أجل أنهم كانوا يكفرون بآيات الله, ويقتلون النبـيـين بغير الـحقّ, كما قال أعشى بنـي ثعلبة:

مَلِـيكِيّةٌ جَاوَرتْ بـالـحِجَازِ قَوما عُداةً وأرْضا شَطِيرا
بِـمَا قَدْ تَربّعُ رَوْضَ القَطاوَرَوْضَ التّناضِبِ حتّـى تَصِيرَا

يعنـي بذلك: جاورتْ بهذا الـمكان هذه الـمرأةُ قوما عداة وأرضا بعيدة من أهله لـمكان قربها كان منه ومن قومه وبلده من تربعها روض القطا وروض التناضب. فكذلك قوله: وضُرِبَتْ عَلَـيْهِمُ الذّلّةُ والـمَسْكَنَةُ وبـاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ ذلكَ بِأنّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بآياتِ اللّهِ يقول: كان ذلك منا بكفرهم بآياتنا, وجزاء لهم بقتلهم أنبـياءنا. وقد بـينا فـيـما مضى من كتابنا أن معنى الكفر:

تغطية الشيء وستره, وأن آيات الله: حججه وأعلامه وأدلته علـى توحيده وصدق رسله.
فمعنى الكلام إذا: فعلنا بهم ذلك من أجل أنهم كانوا يجحدون حجج الله علـى توحيده, وتصديق رسله ويدفعون حقـيتها, ويكذبون بها.
ويعنـي بقوله: وَيَقْتُلُونَ النّبِـيّـينَ بِغَيْرِ الـحَقّ: ويقتلون رسل الله الذين ابتعثهم لإنبـاء ما أرسلهم به عنه لـمن أرسلوا إلـيه. وهم جماع واحدهم نبـيّ غير مهموز, وأصله الهمز, لأنه من أنبأ عن الله, فهو يُنْبِىء عنه إنبـاء, وإنـما الاسم منه منبىء ولكنه صرف وهو «مُفعِل» إلـى «فَعِيـل», كما صرف سميع إلـى فعيـل من مفعل, وبصير من مبصر, وأشبـاه ذلك, وأبدل مكان الهمزة من النبىء الـياء, فقـيـل نبـي هذا. ويجمع النبـيّ أيضا علـى أنبـياء, وإنـما جمعوه كذلك لإلـحاقهم النبـيء بإبدال الهمزة منه ياء بـالنعوت التي تأتـي علـى تقدير فعيـل من ذوات الـياء والواو, وذلك أنهم إذا جمعوا ما كان من النعوت علـى تقدير فعيـل من ذوات الـياء والواو جمعوه علـى أفعلاء, كقولهم ولـي وأولـياء, ووصي وأوصياء, ودعيّ وأدعياء, ولو جمعوه علـى أصله الذي هو أصله, وعلـى أن الواحد «نبـيء» مهموز لـجمعوه علـى فعلاء, فقـيـل لهم النبآء, علـى مثال النبغاء, لأن ذلك جمع ما كان علـى فعيـل من غير ذوات الـياء والواو من النعوت كجمعهم الشريك شركاء, والعلـيـم علـماء, والـحكيـم حكماء, وما أشبه ذلك. وقد حكي سماعا من العرب فـي جمع النبـي النبآء, وذلك من لغة الذين يهمزون النبـيء, ثم يجمعونه علـى النبآء علـى ما قد بـينت, ومن ذلك قول عبـاس بن مرداس فـي مدح النبـيّ صلى الله عليه وسلم:

يا خاتـمَ النّبآءِ إنّك مُرْسَلبـالـخَير كُلّ هُدى السّبِـيـلِ هُدَاكَا

فقال: يا خاتـم النبآء, علـى أن واحدهم نبـيء مهموز. وقد قال بعضهم: النبـي والنبوّة غير مهموز, لأنهما مأخوذان من النّبْوَة, وهي مثل النـجوة, وهو الـمكان الـمرتفع. وكان يقول: إن أصل النبـي الطريق, ويستشهد علـى ذلك ببـيت القطامي:

لـمّا وَرَدْنَ نَبِـيّا واسْتَتَبّ بهامُسْحَنْفِرٌ كخُطوط السّيْحِ مُنْسَحِلُ

يقول: إنـما سمي الطريق نبـيا, لأنه ظاهر مستبـين من النّبوّة. ويقول: لـم أسمع أحدا يهمز النبـي. قال: وقد ذكرنا ما فـي ذلك وبـينا ما فـيه الكفـاية إن شاء الله.
ويعنـي بقوله: وَيَقْتُلُونَ النّبِـيّـينَ بِغَيْرِ الـحَقّ: أنهم كانوا يقتلون رسل الله بغير إذن الله لهم بقتلهم منكرين رسالتهم جاحدين نبوّتهم.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ذلكَ بِـمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ.
وقوله: ذلكَ ردّ علـى «ذلك» الأولـى. ومعنى الكلام: وضربت علـيهم الذلة والـمسكنة, وبـاءوا بغضب من الله, من أجل كفرهم بآيات الله, وقتلهم النبـيـين بغير الـحقّ, من أجل عصيانهم ربهم, واعتدائهم حدوده فقال جل ثناؤه: ذلك بِـمَا عَصَوْا والـمعنى: ذلك بعصيانهم وكفرهم معتدين. والاعتداء: تـجاوز الـحدّ الذي حدّه الله لعبـاده إلـى غيره, وكل متـجاوز حدّ شيء إلـى غيره فقد تعدّاه إلـى ما جاوز إلـيه. ومعنى الكلام: فعلت بهم ما فعلت من ذلك بـما عصوا أمري, وتـجاوزوا حدّي إلـى ما نهيتهم عنه.

الآية : 62

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَالّذِينَ هَادُواْ وَالنّصَارَىَ وَالصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

قال أبو جعفر: أما الذين آمنوا فهم الـمصدّقون رسول الله فـيـما أتاهم به من الـحقّ من عند الله, وإيـمانهم بذلك: تصديقهم به علـى ما قد بـيناه فـيـما مضى من كتابنا هذا. وأما الذين هادوا, فهم الـيهود, ومعنى هادوا: تابوا, يقال منه: هاد القوم يهودون هَوْدا وهادةً. وقـيـل: إنـما سميت الـيهود يهود من أجل قولهم: إنا هُدْنا إلَـيْكَ.

799ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: إنـما سميت الـيهود من أجل أنهم قالوا: إنّا هُدْنا إلَـيْكَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَالنّصَارَى.

قال أبو جعفر: والنصارى جمع, واحدهم نَصْران, كما واحد سَكارى سكران, وواحد النّشاوى نشوان. وكذلك جمع كل نعت كان واحده علـى فعلان, فإن جمعه علـى فعالـى إلا أن الـمستفـيض من كلام العرب فـي واحد النصارى نصرانـيّ. وقد حُكي عنهم سماعا «نَصْرَان» بطرح الـياء, ومنه قول الشاعر:

تَرَاهُ إذَا زَارَ العَشِيّ مُـحَنّفـاويُضْحِي لَدَيْهِ وَهْوَ نَصْرانُ شَامِسُ

وسمع منهم فـي الأنثى نصرانة, قال الشاعر:

فكِلْتاهُما خَرّتْ وأسْجَدَ رأسُهاكما سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لـمْ تَـحَنّفِ

يقال: أسجد: إذا مال. وقد سمع فـي جمعهم أنصار بـمعنى النصارى, قال الشاعر:

لَـمّا رأيْتُ نَبَطا أنْصَارَاشَمّرْتُ عَنْ رُكْبَتِـي الإزارَا
كُنْتُ لَهُمْ مِن النّصَارَى جارَا

وهذه الأبـيات التـي ذكرتها تدل علـى أنهم سُموا نصارى لنصرة بعضهم بعضا وتناصرهم بـينهم. وقد قـيـل إنهم سموا نصارى من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها «ناصرة».

800ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: النصارى إنـما سموا نصارى من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة.

ويقول آخرون: لقوله: مَنْ أنْصارِي إلـى اللّهِ.

وقد ذكر عن ابن عبـاس من طريق غير مرتضى أنه كان يقول: إنـما سميت النصارى نصارى, لأن قرية عيسى ابن مريـم كانت تسمى ناصرة, وكان أصحابه يسمون الناصريـين, وكان يقال لعيسى: الناصري.

801ـ حدثت بذلك عن هشام بن مـحمد, عن أبـيه, عن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس.

802ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قال: إنـما سموا نصارى لأنهم كانوا بقرية يقال لها ناصرة ينزلها عيسى ابن مريـم, فهو اسم تسموا به ولـم يؤمروا به.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: الّذِين قالُوا إنا نَصَارَى قال: تسموا بقرية يقال لها ناصرة, كان عيسى ابن مريـم ينزلها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: والصّابِئِينَ قال أبو جعفر: والصابئون جمع صابىء, وهو الـمستـحدث سوى دينه دينا, كالـمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه. وكل خارج من دين كان علـيه إلـى آخر غيره تسميه العرب صابئا, يقال منه: صَبَأَ فلان يَصْبَأُ صَبْأً, ويقال: صبأت النـجوم: إذا طلعت, وصبأ علـينا فلان موضع كذا وكذا, يعنـي به طلع.

واختلف أهل التأويـل فـيـمن يـلزمه هذا الاسم من أهل الـملل. فقال بعضهم: يـلزم ذلك كل من خرج من دين إلـى غير دين. وقالوا: الذين عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم. ذكر من قال ذلك:

803ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق جميعا, عن سفـيان, عن لـيث, عن مـجاهد, قال: الصّابِئُونَ لـيسوا بـيهود ولا نصارى ولا دين لهم.

حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن, قال: حدثنا سفـيان, عن الـحجاج بن أرطاة, عن القاسم بن أبـي بزة, عن مـجاهد, مثله.

804ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا حجام, عن عنبسة, عن الـحجاج, عن مـجاهد, قال: الصابئون بـين الـمـجوس والـيهود لا تؤكل ذبـائحهم ولا تنكح نساؤهم.

805ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا حكام, عن عنبسة, عن حجاج, عن قتادة, عن الـحسن مثل ذلك.

806ـ حدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح: الصابئين بـين الـيهود والـمـجوس لا دين لهم.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال مـجاهد: الصابئين بـين الـمـجوس والـيهود, لا دين لهم.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: «الصابئين» زعموا أنها قبـيـلة من نـحو السواد لـيسوا بـمـجوس ولا يهود ولا نصارى. قال: قد سمعنا ذلك, وقد قال الـمشركون للنبـي صلى الله عليه وسلم: قد صبأ.

807ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: الصّابِئُون قال: الصابئون: دين من الأديان, كانوا بجزيرة الـموصل يقولون: «لا إلَه إلاّ الله», ولـيس لهم عمل ولا كتاب ولا نبـيّ إلا قول لا إلَه إلاّ الله. قال: ولـم يؤمنوا برسول الله, فمن أجل ذلك كان الـمشركون يقولون للنبـيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه: هؤلاء الصابئون. يشبهونهم بهم.

وقال آخرون: هم قوم يعبدون الـملائكة, ويصلون إلـى القبلة. ذكر من قال ذلك:

808ـ حدثنا مـحمد بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا الـمعتـمر بن سلـيـمان, عن أبـيه, عن الـحسن, قال: حدثنـي زياد: أن الصابئين يصلون إلـى القبلة ويصلون الـخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الـجزية. قال: فخُبّر بعد أنهم يعبدون الـملائكة.

809ـ وحدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: والصّابِئِين قال: الصابئون قوم يعبدون الـملائكة, ويصلون إلـى القبلة, ويقرؤن الزبور.

810ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية قال: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور.
قال أبو جعفر الرازي: وبلغنـي أيضا أن الصابئين قوم يعبدون الـملائكة, ويقرءون الزبور, ويصلون إلـى القبلة.
وقال آخرون: بل هم طائفة من أهل الكتاب. ذكر من قال ذلك:
811ـ حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي عن سفـيان, قال: سئل السديّ عن الصابئين فقال: هم طائفة من أهل الكتاب.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مَنْ آمَنَ بـاللّهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ وعمِل صَالِـحا فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ.
قال أبو جعفر: يعنـي بقوله: مَنْ آمَنَ بِـاللّهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ: من صدق وأقرّ بـالبعث بعد الـمـمات يوم القـيامة وعمل صالـحا فأطاع الله, فلهم أجرهم عند ربهم, يعنـي بقوله: فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ فلهم ثواب عملهم الصالـح عند ربهم.
فإن قال لنا قائل: فأين تـمام قوله: إن الّذينَ آمَنُوا والّذِين هادُوا وَالنّصَارَى والصّابِئين؟ قـيـل: تـمامه جملة قوله: مَنْ آمَنَ بـاللّهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ لأن معناه: من آمن منهم بـالله والـيوم الآخر فترك ذكر منهم لدلالة الكلام علـيه استغناء بـما ذكر عما ترك ذكره.
فإن قال: وما معنى هذا الكلام؟ قـيـل: إن معناه: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن بـالله والـيوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم.
فإن قال: وكيف يؤمن الـمؤمن؟ قـيـل: لـيس الـمعنى فـي الـمؤمن الـمعنى الذي ظننته من انتقال من دين إلـى دين كانتقال الـيهودي والنصرانـي إلـى الإيـمان, وإن كان قد قـيـل إن الذين عنوا بذلك من كان من أهل الكتاب علـى إيـمانه بعيسى, وبـما جاء به, حتـى أدرك مـحمدا صلى الله عليه وسلم, فآمن به وصدّقه, فقـيـل لأولئك الذين كانوا مؤمنـين بعيسى وبـما جاء به إذ أدركوا مـحمدا صلى الله عليه وسلم: آمنوا بـمـحمد وبـما جاء به, ولكن معنى إيـمان الـمؤمن فـي هذا الـموضع ثبـاته علـى إيـمانه وتركه تبديـله.
وأما إيـمان الـيهود والنصارى والصابئين, فـالتصديق بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به, فمن يؤمن منهم بـمـحمد, وبـما جاء به والـيوم الآخر, ويعمل صالـحا, فلـم يبدّل ولـم يغير, حتـى توفـي علـى ذلك, فله ثواب عمله وأجره عند ربه, كما وصف جل ثناؤه.
فإن قال قائل: وكيف قال: فلهم أجرهم عند ربهم, وإنـما لفظ من لفظ واحد, والفعل معه موحد؟ قـيـل: «مَنْ» وإن كان الذي يـلـيه من الفعل موحدا, فإن له معنى الواحد والاثنـين والـجمع والتذكير والتأنـيث, لأنه فـي كل هذه الأحوال علـى هيئة واحدة وصورة واحدة لا يتغير, فـالعرب توحد معه الفعل وإن كان فـي معنى جمع للفظه, وتـجمع أخرى معه الفعل لـمعناه, كما قال جل ثناؤه: وِمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَـمِعُونَ إلَـيْكَ أفأنْتَ تُسْمِعُ الصّمّ ولَوْ كانُوا لا يَعْقِلُون ومِنهم مَنْ يَنْظُرُ إلَـيْكَ أفأنْتَ تَهْدِي العُمْي وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ فجمع مرة مع من الفعل لـمعناه, ووحد أخرى معه الفعل لأنه فـي لفظ الواحد, كما قال الشاعر:
ألِـمّا بسَلْـمَى عَنْكما إنْ عَرَضْتُـماوَقُولا لَهَا عُوجي علـى مَنْ تَـخَـلّفُوا

فقال: تـخـلـفوا, وجعل «من» بـمنزلة الذين. وقال الفرزدق:
تَعالَ فإنْ عاهَدْتَنِـي لا تـخُونُنِـينَكُنْ مِثْلَ مَنْ يا ذِئبُ يَصْطَحِبـانِ
فثنى يصطحبـان لـمعنى «من». فكذلك قوله: مَنْ آمَنَ بـاللَّهِ والـيَوْمِ الآخِرِ فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ وحد آمن وعمل صالـحا للفظ من, وجمع ذكرهم فـي قوله: فَلَهُمْ أجْرُهُمْ لـمعناه, لأنه فـي معنى جمع.
وأما قوله: ولا خَوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون فإنه يعنـي به جل ذكره: ولا خوف علـيهم فـيـما قدموا علـيه من أهوال القـيامة, ولا هم يحزنون علـى ما خـلفوا وراءهم من الدنـيا وعيشها عند معاينتهم ما أعدّ الله لهم من الثواب والنعيـم الـمقـيـم عنده.
ذكر من قال عُنِـي بقوله: مَنْ آمَنَ بـاللّهِ: مؤمنوا أهل الكتاب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم:
812ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط بن نصر, عن السديّ: إنّ الّذِينَ آمَنُوا والّذِينَ هادُوا الآية, قال: نزلت هذه الآية فـي أصحاب سلـمان الفـارسي, وكان سلـمان من جُنْد يْسابور, وكان من أشرافهم, وكان ابن الـملك صديقا له مواخيا, لا يقضي واحد منهم أمرا دون صاحبه, وكانا يركبـان إلـى الصيد جميعا. فبـينـما هما فـي الصيد إذ رفع لهما بـيت من خبَـاء, فأتـياه فإذا هما فـيه برجل بـين يديه مصحف يقرأ فـيه وهو يبكي, فسألاه ما هذا, فقال: الذي يريد أن يعلـم هذا لا يقـف موقـفكما, فإن كنتـما تريدان أن تعلـما ما فـيه فـانزلا حتـى أعلـمكما, فنزلا إلـيه, فقال لهما: هذا كتاب جاء من عند الله, أمر فـيه بطاعته, ونهى عن معصيته, فـيه: أن لا تزنـي, ولا تسرق, ولا تأخذ أموال الناس بـالبـاطل. فقصّ علـيهما ما فـيه, وهو الإنـجيـل الذي أنزله الله علـى عيسى. فوقع فـي قلوبهما وتابعاه فأسلـما, وقال لهما: إن ذبـيحة قومكما علـيكما حرام, فلـم يزالا معه كذلك يتعلـمان منه, حتـى كان عيد للـملك, فجعل طعاما, ثم جمع الناس والأشراف, وأرسل إلـى ابن الـملك فدعاه إلـى صنـيعه لـيأكل مع الناس, فأبى الفتـى وقال: إنـي عنك مشغول, فكل أنت وأصحابك, فلـما أكثر علـيه من الرسل, أخبرهم أنه لا يأكل من طعامهم, فبعث الـملك إلـى ابنه, فدعاه وقال: ما أمرك هذا؟ قال: إنا لا نأكل من ذبـائحكم, إنكم كفـار لـيس تـحلّ ذبـائحكم, فقال له الـملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمره بذلك, فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابنـي؟ قال: صدق ابنك, قال له: لولا أن الدم فـينا عظيـم لقتلتك, ولكن اخرج من أرضنا فأجّله أجلاً. فقال سلـمان: فقمنا نبكي علـيه, فقال لهما: إن كنتـما صادقـين, فإنا فـي بـيعة بـالـموصل مع ستـين رجلاً نعبد الله فـيها, فأتونا فـيها. فخرج الراهب, وبقـي سلـمان وابن الـملك فجعل يقول لابن الـملك: انطلق بنا, وابن الـملك يقول: نعم, وجعل ابن الـملك يبـيع متاعه يريد الـجهاز. فلـما أبطأ علـى سلـمان, خرج سلـمان حتـى أتاهم, فنزل علـى صاحبه وهو ربّ البـيعة, وكان أهل تلك البـيعة من أفضل الرهبـان, فكان سلـمان معهم يجتهد فـي العبـادة, ويتعب نفسه, فقال له الشيخ: إنك غلام حدث تتكلف من العبـادة ما لا تطيق, وأنا خائف أن تفتر وتعجز, فـارفق بنفسك وخفف علـيها فقال له سلـمان: أرأيت الذي تأمرنـي به أهو أفضل, أو الذي أصنع؟ قال: بل الذي تصنع؟ قال: فخـلّ عنـي. ثم إن صاحب البـيعة دعاه فقال: أتعلـم أن هذه البـيعة لـي, وأنا أحقّ الناس بها, ولو شئت أن أخرج هؤلاء منها لفعلت؟ ولكنـي

رجل أضعف عن عبادة هؤلاء, وأنا أريد أن أتحوّل من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء, فإن شئت أن تقيم ههنا فأقم, وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق. قال له سلمان: أيّ البيعتين أفضل أهلاً؟ قال: هذه. قال سلمان: فأنا أكون في هذه. فأقام سلمان بها وأوصى صاحب البيعة عالم البيعة بسلمان, فكان سلمان يتعبد معهم, ثم إن الشيخ العالم أراد أن يأتي بيت المقدس, فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق, وإن شئت أن تقيم فأقم. فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟ قال: لا بل تنطلق معي. فانطلق معه فمرّوا بمقعد على ظهر الطريق ملقى, فلما رآهما نادى: يا سيد الرهبان ارحمني يرحمك الله, فلم يكلمه, ولم ينظر إليه, وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس, فقال الشيخ لسلمان: اخرج فاطلب العلم فإنه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم, فرجع يوما حزينا, فقال له الشيخ: مالك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم, فقال له الشيخ: يا سلمان لا تحزن, فإنه قد بقي نبيّ ليس من نبيّ بأفضل تبعا منه وهذا زمانه الذي يخرج فيه, ولا أراني أدركه, وأما أنت فشاب لعلك أن تدركه, وهو يخرج في أرض العرب, فإن أدركته فآمن به واتبعه فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء. قال: نعم, هو مختوم في ظهره بخاتم النبوّة, وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. ثم رجعا حتى بلغا مكان المقعد, فناداهما فقال: يا سيد الرهبان ارحمني يرحمك الله, فعطف إليه حماره, فأخذ بيده فرفعه, فضرب به الأرض ودعا له, وقال: قم بإذن الله, فقام صحيحا يشتدّ, فجعل سلمان يتعجب وهو ينظر إليه يشتدّ. وسار الراهب فتغيب عن سلمان ولا يعلم سلمان. ثم إن سلمان فزع فطلب الراهب, فلقيه رجلان من العرب من كلب فسألهما: هل رأيتما الراهب؟ فأناخ أحدهما راحلته, قال: نعم راعي الصّرْمة هذا, فحمله فانطلق به إلى المدينة. قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قط. فاشترته امرأة من جهينة فكان يرعى عليها هو وغلام لها يتراوحان الغنم هذا يوما وهذا يوما, فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد صلى الله عليه وسلم. فبينا هو يوما يرعى, إذ أتاه صاحبه الذي يعقبه, فقال: أشعرت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبيّ؟ فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتيك. فهبط سلمان إلى المدينة, فنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودار حوله, فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم عرف ما يريد, فأرسل ثوبه, حتى خرج خاتمه, فلما رآه أتاه وكلمه, ثم انطلق, فاشترى بدينار ببعضه شاة وببعضه خبزا, ثم أتاه به, فقال: «ما هذا؟» قال سلمان: هذه صدقة قال: «لا حاجة لي بها فأخْرِجْها فليأكُلْها المسلمون». ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزا ولحماً, فأتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم, فقال: «ما هذا؟» قال: هذه هدية, قال: «فاقْعُدْ», فقعد فأكلا جميعا منها. فبينا هو يحدّثه إذ ذكر أصحابه, فأخبره خبرهم, فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك, ويشهدون أنك ستبعث نبيا فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: «يا سَلْمانُ هُمْ مِنْ أهْلِ النّارِ». فاشتدّ ذلك على سلمان, وقد كان قال له سلمان: لو أدركوك صدَّقوك

واتبعوك, فأنزل الله هذه الآية: إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هادُوا وَالنّصَارَى والصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِـاللّهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ.

فكان إيـمان الـيهود أنه من تـمسك بـالتوراة وسنة موسى حتـى جاء عيسى, فلـما جاء عيسى كان من تـمسك بـالتوراة وأخذ بسنة موسى فلـم يدعها ولـم يتبع عيسى كان هالكا. وإيـمان النصارى أنه من تـمسك بـالإنـجيـل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولاً منه, حتـى جاء مـحمد صلى الله عليه وسلم, فمن لـم يتبع مـحمدا صلى الله عليه وسلم منهم ويدع ما كان علـيه من سنة عيسى والإنـجيـل كان هالكا.

813ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد قوله: إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هادُوا الآية. قال سلـمان الفـارسي للنبـي صلى الله عليه وسلم عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم, قال: لـم يـموتوا علـى الإسلام. قال سلـمان: فأظلـمت علـيّ الأرض. وذكر اجتهادهم, فنزلت هذه الآية, فدعا سلـمان فقال: «نزلت هذه الآية فـي أصحابك». ثم قال النبـي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ علـى دِينِ عِيسَى ومات علـى الإسْلامِ قَبْلَ أنْ يَسْمَعَ بِـي فَهُوَ علـى خَيْرٍ وَمَنْ سَمِعَ بِـي الـيَوْمَ وَلَـمْ يُؤْمِنْ بِـي فَقَدْ هَلَكَ».

وقال ابن عبـاس بـما:

814ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: إنّ الّذِينَ آمَنُوا والذِين هادُوا وَالنّصَارَى وَالصّابِئِينَ إلـى قوله: ولا هُمْ يَحْزَنُونَ. فأنزل الله تعالـى بعد هذا: وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِـي الآخِرَةِ مِنَ الـخَاسِرِينَ. وهذا الـخبر يدلّ علـى أن ابن عبـاس كان يرى أن الله جل ثناؤه كان قد وعد من عمل صالـحا من الـيهود والنصارى والصابئين علـى عمله فـي الآخرة الـجنة, ثم نسخ ذلك بقوله: وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ.

فتأويـل الآية إذا علـى ما ذكرنا عن مـجاهد والسدي: إن الذين آمنوا من هذه الأمة, والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن من الـيهود والنصارى والصابئين بـالله والـيوم الآخر, فلهُمْ أجرُهمْ عندَ ربهمْ ولاَ خَوْفٌ علـيهِمْ ولاَ هُمْ يحزَنُونَ.

والذي قلنا من التأويـل الأول أشبه بظاهر التنزيـل, لأن الله جل ثناؤه لـم يخصص بـالأجر علـى العمل الصالـح مع الإيـمان بعض خـلقه دون بعض منهم, والـخبر بقوله: مَنْ آمَنَ بـاللّهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ عن جميع ما ذكر فـي أول الآية.

الآية :63

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطّورَ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ }

قال أبو جعفر: الـميثاق: الـمفعال من الوثـيقة إما بـيـمين, وإما بعهد أو غير ذلك من الوثائق.

ويعنـي بقوله: وَإذْ أخَذْنا ميثاقَكُمْ الـميثاق الذي أخبر جل ثناؤه أنه أخذ منهم فـي قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِـي إسْرائيـلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ وَبـالْوَالِدَيْنِ

إحْسانا الآيَات الذي ذكر معها. وكان سبب أخذ الـميثاق علـيهم فـيـما ذكره ابن زيد ما:

815ـ حدثنـي به يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: لـما رجع موسى من عند ربه بـالألواح قال لقومه بنـي إسرائيـل: إن هذه الألواح فـيها كتاب الله, وأمره الذي أمركم به, ونهيه الذي نهاكم عنه, فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتـى نرى الله جهرة حتـى يطلع الله علـينا فـيقول: هذا كتابـي فخذوه فما له لا يكلـمنا كما كلـمك أنت يا موسى فـيقول: هذا كتابـي فخذوه؟ قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة فصعقتهم, فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله بعد موتهم, فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله فقالوا: لا, قال: أيّ شيء أصابكم؟ قالوا: متنا ثم حيـينا, قال: خذوا كتاب الله قالوا: لا. فبعث ملائكته فنتقت الـجبل فوقهم, فقـيـل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم, هذا الطور, قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه علـيكم قال: فأخذوه بـالـميثاق. وقرأ قول الله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ لا تَعْبُدونَ إلاّ اللّهَ وَبـالوَالِدَيْنِ إحْسانا حتـى بلغ: وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ قال: ولو كانوا أخذوه أوّل مرّة لأخذوه بغير ميثاق.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ورَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّورَ.

قال أبو جعفر: وأما الطور فإنه الـجبل فـي كلام العرب, ومنه قول العجاج:

دَانَى جنَاحَيْهِ مِنَ الطّورِ فَمَرّتَقَضّيَ البـازِي إذا البـازِي كَسَرْ

وقـيـل إنه اسم جبل بعينه. وذكر أنه الـجبل الذي ناجى الله علـيه موسى. وقـيـل: إنه من الـجبـال ما أنبت دون ما لـم ينبت. ذكر من قال: هو الـجبل كائنا ما كان.

816ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: أمر موسى قومه أن يدخـلوا البـاب سجدا ويقولوا حطة وطؤطىء لهم البـاب لـيسجدوا, فلـم يسجدوا ودخـلوا علـى أدبـارهم, وقالوا حنطة. فنتق فوقهم الـجبل يقول: أخرج أصل الـجبل من الأرض فرفعه فوقهم كالظلة, والطور بـالسريانـية: الـجبل تـخويفـا أو خوفـا, شك أبو عاصم فدخـلوا سُجّدا علـى خوف وأعينهم إلـى الـجبل, وهو الـجبل الذي تـجلـى له ربه.

817ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: رفع الـجبل فوقهم كالسحابة, فقـيـل لهم: لتؤمننّ أو لـيقعنّ علـيكم, فآمنوا. والـجبل بـالسريانـية: الطور.

818ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وإذْ أخَذْنا ميثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّورَ قال: الطور: الـجبل, كانوا بأصله فرفع علـيهم فوق رءوسهم, فقال: لتأخُذُنّ أمري أو لأرمينكم به.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّورَ قال: الطور: الـجبل اقتلعه الله فرفعه فوقهم, فقال: خُذُوا ما آتَـيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ فأقرّوا بذلك.

819ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر عن الربـيع, عن أبـي العالـية: ورفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّور قال: رفع فوقهم الـجبل يخوّفهم به.

820ـ حدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبـيّ, عن النضر, عن عكرمة, قال: الطور: الـجبل.

821ـ وحدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: لـما قال الله لهم: ادْخُـلُوا البـاب سُجدا وقُولُوا حِطّة فأبوا أن يسجدوا أمر الله الـجبل أن يقع علـيهم, فنظروا إلـيه وقد غشيهم, فسقطوا سجدا علـى شقّ, ونظروا بـالشق الآخر. فرحمهم الله, فكشفه عنهم. فذلك قوله: وإذْ نَتَقْنَا الـجَبَلَ فَوْقَهُمْ كأنّهُ ظُلّة وقوله: ورفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّور.

822ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: الـجبل بـالسريانـية: الطور.

وقال آخرون: الطور: اسم للـجبل الذي ناجى الله موسى علـيه. ذكر من قال ذلك:

823ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس الطور: الـجبل الذي أنزلت علـيه التوراة, يعنـي علـى موسى, وكانت بنو إسرائيـل أسفل منه.

قال ابن جريج: وقال لـي عطاء: رفع الـجبل علـى بنـي إسرائيـل فقال: لتؤمننّ به أو لـيقعن علـيكم, فذلك قوله: كأنّهُ ظُلّة.

وقال آخرون: الطور من الـجبـال: ما أنبت خاصة. ذكر من قال ذلك:

824ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: الطّورَ قال: الطور من الـجبـال: ما أنبت, وما لـم ينبت فلـيس بطور.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: خُذُوا ما آتَـيْنَاكُمْ بقُوّةٍ.

قال أبو جعفر: اختلف أهل العربـية فـي تأويـل ذلك, فقال بعض نـحويـي أهل البصرة: هو مـما استغنـي بدلالة الظاهر الـمذكور عما ترك ذكره له, وذلك أن معنى الكلام: ورفعنا فوقكم الطور وقلنا لكم خذوا ما آتـيناكم بقوة, وإلا قذفناه علـيكم.

وقال بعض نـحويـي أهل الكوفة: أخذ الـميثاق قول فلا حاجة بـالكلام إلـى إضمار قول فـيه, فـيكون من كلامين غير أنه ينبغي لكل ما خالف القول من الكلام الذي هو بـمعنى القول أن يكون معه أن كما قال الله جل ثناؤه: إنّا أرْسَلْنا نُوحا إلـى قَوْمِهِ أنْ أنْذِرْ قَوْمَكَ قال: ويجوز أن تـحذف أن.

والصواب فـي ذلك عندنا أن كل كلام نطق به مفهوم به معنى ما أريد ففـيه الكفـاية من غيره, ويعنـي بقوله: خُذُوا ما آتَـيْناكُمْ: ما أمرناكم به فـي التوراة, وأصل الإيتاء: الإعطاء. ويعنـي بقوله: بِقُوّةٍ بجدّ فـي تأدية ما أمركم فـيه وافترض علـيكم. كما:

825ـ حدثت عن إبراهيـم بن بشار, قال: حدثنا ابن عيـينة, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: خُذُوا ما آتَـيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ قال: تعملوا بـما فـيه.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

826ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: خُذُوا مَا آتَـيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ قال: بطاعة.

827ـ وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: خُذُوا ما آتَـيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ قال: القوّة: الـجدّ, وإلا قذفته علـيكم. قال: فأقرّوا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوّة.

828ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: بِقُوةً: يعنـي بجدّ واجتهاد.

829ـ وحدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد وسألته عن قول الله: خُذُوا ما آتَـيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ قال: خذوا الكتاب الذي جاء به موسى بصدق وبحقّ.

فتأويـل الآية إذا: خذوا ما افترضناه علـيكم فـي كتابنا من الفرائض فـاقبلوه واعملوا بـاجتهاد منكم فـي أدائه من غير تقصير ولا توان. وذلك هو معنى أخذهم إيّاه بقوّة بجدّ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَاذْكُرُوا ما فِـيهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ.

قال أبو جعفر: يعنـي: واذكروا ما فـيـما آتـيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد وترغيب وترهيب, فـاتلوه واعتبروا به وتَدبّرُوه إذا فعلتـم ذلك كي تتقوا وتـخافوا عقابـي بإصراركم علـى ضلالكم فتنتهوا إلـى طاعتـي وتنزّعوا عما أنتـم علـيه من معصيتـي. كما:

830ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن داود بن الـحصين, عن عكرمة عن ابن عبـاس: لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ قال: تنزعون عما أنتـم علـيه.

والذي آتاهم الله هو التوراة. كما:

831ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَاذْكُرُوا ما فِـيهِ يقول: اذكروا ما فـي التوراة.

832ـ كما حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: اذْكُرُوا ما فِـيهِ يقول: أمروا بـما فـي التوراة.

وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سألت ابن زيد عن قول الله: وَذْكُرُوا ما فِـيهِ قال: اعملوا بـما فـيه طاعةٍ لله وصدق, قال: وقال اذكروا ما فـيه لا تنسوه ولا تُغفلوه.

الآية : 64

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{ثُمّ تَوَلّيْتُمْ مّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مّنَ الْخَاسِرِينَ }

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل ثناؤه: ثُمّ تَوَلّـيْتُـمْ ثم أعرضتـم. وإنـما هو «تفعّلتـم» من قولهم: ولانـي فلان دبره: إذا استدبر عنه وخـلفه خـلف ظهره, ثم يستعمل ذلك فـي كل تارك طاعة أمر بها عزّ وجل معرض بوجهه, يقال: قد تولـى فلان عن طاعة فلان, وتولـى عن مواصلته. ومنه قول الله جل ثناؤه: فَلَـمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بخِـلُوا بِهِ وَتَوَلّوْا وَهُمْ مُعْرِضُون يعنـي بذلك: خالفوا ما كانوا وعدوا الله من قولهم: لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصّدّقَنّ وَلَنَكُونَنّ مِنَ الصّالِـحِينَ ونبذوا ذلك وراء ظهورهم, ومن شأن العرب استعارة الكلـمة ووضعها مكان نظيرها, كما قال أبو ذؤيب الهذلـي:

فَلَـيْسَ كَعَهْدِ الدّارِ يا أُمّ مالِكٍولَكِنْ أحاطَتْ بـالرّقابِ السّلاسِلُ
وَعادَ الفَتَـى كالكَهْلِ لَـيْسَ بقائِلٍسِوَى الـحَقّ شَيْئا واسْتَرَاح العَوَاذِلُ

يعنـي بقوله: «أحاطت بـالرقاب السلاسل» أن الإسلام صار فـي منعه إيانا ما كنا نأتـيه فـي الـجاهلـية مـما حرّمه الله علـينا فـي الإسلام بـمنزلة السلاسل الـمـحيطة برقابنا التـي تـحول بـين من كانت فـي رقبته مع الغلّ الذي فـي يده وبـين ما حاول أن يتناوله. ونظائر ذلك فـي كلام العرب أكثر من أن تـحصى, فكذلك قوله: ثُمّ تَولـيْتُـمْ مِنْ بَعْدِ ذلك يعنـي بذلك أنكم تركتـم العمل بـما أخذنا ميثاقكم وعهودكم علـى العمل به بجدّ واجتهاد بعد إعطائكم ربكم الـمواثـيق علـى العمل به والقـيام بـما أمركم به فـي كتابكم فنبذتـموه وراء ظهوركم. وكنـي بقوله جلّ ذكره: «ذلك» عن جميع ما قبله فـي الآية الـمتقدمة, أعنـي قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ ورفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّور.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَلَوْلا فَضْلُ اللّهِ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ.

قال أبو جعفر: يعنـي بقوله جل ذكره: فَلَوْلاَ فَضْل اللّهِ عَلَـيْكُمْ فلولا أن الله تفضل علـيكم بـالتوبة بعد نكثكم الـميثاق الذي واثقتـموه, إذ رفع فوقكم الطور, بأنكم تـجتهدون فـي طاعته, وأداء فرائضه, والقـيام بـما أمركم به, والانتهاء عما نهاكم عنه فـي الكتاب الذي آتاكم, فأنعم علـيكم بـالإسلام ورحمته التـي رحمكم بها, وتـجاوز عنكم خطيئتكم التـي ركبتـموها بـمراجعتكم طاعة ربكم لكنتـم من الـخاسرين. وهذا وإن كان خطابـا لـمن كان بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم, فإنـما هو خبر عن أسلافهم, فأخرج الـخبر مخرج الـمخبر عنهم علـى نـحو ما قد بـينا فـيـما مضى من أن القبـيـلة من العرب تـخاطب القبـيـلة عند الفخار أو غيره بـما مضى من فعل أسلاف الـمخاطب بأسلاف الـمخاطب, فتضيف فعل أسلاف الـمخاطب إلـى نفسها, فتقول: فعلنا بكم, وفعلنا بكم. وقد ذكرنا بعض الشواهد فـي ذلك من شعرهم فـيـما مضى.

وقد زعم بعضهم أن الـخطاب فـي هذه الآيات إنـما أخرج بإضافة الفعل إلـى الـمخاطبـين به والفعل لغيرهم لأن الـمخاطبـين بذلك كانوا يتولون من كان فعل ذلك من أوائل بنـي إسرائيـل, فصيرهم الله منهم من أجل ولايتهم لهم.

وقال بعضهم: إنـما قـيـل ذلك كذلك, لأن سامعيه كانوا عالـمين, وإن كان الـخطاب خرج خطابـا للأحياء من بنـي إسرائيـل وأهل الكتاب إذ الـمعنى فـي ذلك إنـما هو خبر عما قصّ الله من أنبـاء أسلافهم, فـاستغنى بعلـم السامعين بذلك عن ذكر أسلافهم بأعيانهم. ومثّل ذلك بقول الشاعر:

إذَا ما انْتَسَبْنا لَـمْ تَلِدْنِـي لَئِيـمَةٌولَـمْ تَـجِدِي مِنْ أنْ تُقِرّي بِهِ بُدّا

فقال: «إذا ما انتسبنا», و«إذا» تقتضي من الفعل مستقبلاً. ثم قال: «لـم تلدنـي لئيـمة», فأخبر عن ماض من الفعل, وذلك أن الولادة قد مضت وتقدمت. وإنـما فعل ذلك عند الـمـحتـجّ به لأن السامع قد فهم معناه, فجعل ما ذكرنا من خطاب الله أهل الكتاب الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بإضافة أفعال أسلافهم إلـيهم نظير ذلك. والأول الذي قلنا هو الـمستفـيض من كلام العرب وخطابها. وكان أبو العالـية يقول فـي قوله: فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فـيـما ذكر لنا نـحو القول الذي قلناه.

833ـ حدثني الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو النضر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ قال: فضل الله: الإسلام, ورحمته: القرآن.

834ـ وحدثت عن عمار, حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بـمثله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لَكُنْتُـمْ مِنَ الـخاسِرِينَ.

قال أبو جعفر: فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ إياكم بـانقاذه إياكم بـالتوبة علـيكم من خطيئتكم وجرمكم, لكنتـم البـاخسين أنفسكم حظوظها دائما, الهالكين بـما اجترمتـم من نقض ميثاقكم وخلافكم أمره وطاعته. وقد تقدم بـياننا قبل بـالشواهد عن معنى الـخسار بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع.

الآية : 65

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الّذِينَ اعْتَدَواْ مِنْكُمْ فِي السّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ }

يعنـي بقوله: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمْ ولقد عرفتـم, كقولك: قد علـمت أخاك ولـم أكن أعلـمه, يعنـي عرفته ولـم أكن أعرفه, كما قال جل ثناؤه: وآخَرِين مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَـمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَـمُهُمْ يعنـي: لا تعرفونهم الله يعرفهم. وقوله: الّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ أي الذين تـجاوزوا حدى وركبوا ما نهيتهم عنه فـي يوم السبت وعصوا أمري. وقد دللت فـيـما مضى علـى أن الاعتداء أصله تـجاوز الـحدّ فـي كل شيء بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع.

قال: وهذه الآية وآيات بعدها تتلوها, مـما عدّد جل ثناؤه فـيها علـى بنـي إسرائيـل الذين كانوا بـين خلال دور الأنصار زمان النبـي صلى الله عليه وسلم الذين ابتدأ بذكرهم فـي أول هذه السورة من نكث أسلافهم عهد الله وميثاقه ما كانوا يبرمون من العقود, وحذّر الـمخاطبـين بها أن يحلّ بهم بإصرارهم علـى كفرهم ومقامهم علـى جحود نبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم وتركهم أتبـاعه والتصديق بـما جاءهم به من عند ربه مثل الذي حلّ بأوائلهم من الـمسخ والرّجْف والصّعْق, وما لا قِبَل لهم به من غضب الله وسخطه. كالذي:

835ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ يقول: ولقد عرفتـم وهذا تـحذير لهم من الـمعصية, يقول: احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت إذ عصونـي, اعتدوا يقول اجترءوا فـي السبت. قال: لـم يبعث الله نبـيا إلا أمره بـالـجمعة وأخبره بفضلها وعظمها فـي السموات وعند الـملائكة, وأن الساعة تقوم فـيها, فمن اتبع الأنبـياء فـيـما مضى كما اتبعت أمة مـحمد صلى الله عليه وسلم مـحمدا قبل الـجمعة وسمع وأطاع وعرف فضلها وثبت علـيها بـما أمره الله تعالـى به ونبـيه صلى الله عليه وسلم, ومن لـم يفعل ذلك كان بـمنزلة الذين ذكر الله فـي كتابه, فقال: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمْ الّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ فَقُلْنا لهُمْ كُونُوا قِردَةً خاسِئِينَ. وذلك أن الـيهود قالت لـموسى حين أمرهم بـالـجمعة وأخبرهم بفضلها: يا موسى كيف تأمرنا بـالـجمعة وتفضلها علـى الأيام كلها, والسبت أفضل الأيام كلها لأن

الله خـلق السموات والأرض والأقوات فـي ستة أيام وسَبَت له كل شيء مطيعا يوم السبت, وكان آخر الستة؟ قال: وكذلك قالت النصارى لعيسى ابن مريـم حين أمرهم بـالـجمعة, قالوا له: كيف تأمرنا بـالـجمعة, وأوّل الأيام أفضلها وسيدها, والأول أفضل, والله واحد, والواحد الأول أفضل؟ فأوحى الله إلـى عيسى أن دعهم والأحد, ولكن لـيفعلوا فـيه كذا وكذا مـما أمرهم به. فلـم يفعلوا, فقصّ الله تعالـى قصصهم فـي الكتاب بـمعصيتهم. قال: وكذلك قال الله لـموسى حين قالت له الـيهود ما قالوا فـي أمر السبت: أن دعهم والسبت فلا يصيدوا فـيه سمكا ولا غيره, ولا يعملون شيئا كما قالوا. قال: فكان إذا كان السبت ظهرت الـحيتان علـى الـماء فهو قوله: إذْ تأتِـيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْم سَبتِهِمْ شُرّعا يقول: ظاهرة علـى الـماء, ذلك لـمعصيتهم موسى. وإذا كان غير يوم السبت صارت صيدا كسائر الأيام, فهو قوله: وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تأتِـيهِمْ. ففعلت الـحيتان ذلك ما شاء الله فلـما رأوها كذلك طمعوا فـي أخذها وخافوا العقوبة, فتناول بعضهم منها فلـم تـمتنع علـيه, وحذر العقوبة التـي حذّرهم موسى من الله تعالـى. فلـما رأوا أن العقوبة لا تـحلّ بهم عادوا وأخبر بعضهم بعضا بأنهم قد أخذوا السمك ولـم يصبهم شيء, فكثروا فـي ذلك وظنوا أن ما قال لهم موسى كان بـاطلاً, وهو قول الله جل ثناؤه: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قرَدَةً خاسِئِينَ يقول لهؤلاء الذين صادوا السمك, فمسخهم الله قردة بـمعصيتهم, يقول: إذا لـم يحيوا فـي الأرض إلا ثلاثة أيام, ولـم تأكل, ولـم تشرب, ولـم تنسل, وقد خـلق الله القردة والـخنازير وسائر الـخـلق فـي الستة الأيام التـي ذكر الله فـي كتابه, فمسخ هؤلاء القوم فـي صورة القردة, وكذلك يفعل بـمن شاء كما يشاء, ويحوّله كما يشاء.

836ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, عن داود بن الـحصين, عن عكرمة مولـى ابن عبـاس, قال: قال ابن عبـاس: إن الله إنـما افترض علـى بنـي إسرائيـل الـيوم الذي افترض علـيكم فـى عيدكم يوم الـجمعة, فخالفوا إلـى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به, فلـما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فـيه, فحرّم علـيهم ما أحلّ لهم فـي غيره. وكانوا فـي قرية بـين أيـلة والطور يقال لها «مَدْيَن», فحرّم الله علـيهم فـي السبت الـحيتان صيدها وأكلها, وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إلـيهم شُرّعا إلـى ساحل بحرهم, حتـى إذا ذهب السبت ذهبن, فلـم يروا حوتا صغيرا ولا كبـيرا. حتـى إذا كان يوم السبت أتـين إلـيهم شرّعا, حتـى إذا ذهب السبت ذهبن. فكانوا كذلك, حتـى إذا طال علـيهم الأمد وقَرِموا إلـى الـحيتان, عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرّا يوم السبت فخَزَمه بخيط, ثم أرسله فـي الـماء, وأوتَد له وتدا فـي الساحل, فأوثقه ثم تركه. حتـي إذا كان الغد جاء فأخذه أي إنـي لـم آخذه فـي يوم السبت, ثم انطلق به فأكله. حتـى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لـمثل ذلك. ووجد الناس ريح الـحيتان. فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الـحيتان. ثم عثروا علـى ما صنع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل, وأكلوا سرّا زمانا طويلاً لـم يعجل الله علـيهم بعقوبة حتـى صادوها علانـية وبـاعوها بـالأسواق, وقالت طائفة منهم من أهل التقـية: ويحكم اتقوا الله ونهوهم عما كانوا يصنعون. وقالت طائفة أخرى لـم تأكل الـحيتان ولـم تنه القوم عما صنعوا: لِـمَ تَعِظُونَ قَوْما

اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذّبُهُمْ عَذَابـا شَدِيدا قالُوا مَعْذِرة إلـى ربّكُمْ لسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون.

قال ابن عبـاس: فبـينـما هم علـى ذلك أصبحت تلك البقـية فـي أنديتهم ومساجدهم, وفقدوا الناس فلا يرونهم, فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأنا فـانظروا ما هو فذهبوا ينظرون فـي دورهم, فوجدوها مغلقة علـيهم, قد دخـلوا لـيلاً فغلقوها علـى أنفسهم كما تغلق الناس علـى أنفسهم, فأصبحوا فـيها قردة, إنهم لـيعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد, والـمرأة بعينها وإنها لقردة, والصبـي بعينه وإنه لقرد.

قال: يقول ابن عبـاس: فلولا ما ذكر الله أنه أنـجى الذين نهوا عن السوء لقلنا أهلك الـجميع منهم. قالوا: وهي القرية التـي قال الله لـمـحمد صلى الله عليه وسلم: واسألْهُمْ عنِ القَرْيَةِ الّتِـي كانَتْ حاضرةَ البَحْرِ الآية.

837ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الّذِين اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قردة خاسِئِينَ أحلت لهم الـحيتان وحرمت علـيهم يوم السبت بلاءً من الله لـيعلـم من يطيعه مـمن يعصيه. فصار القوم ثلاثة أصناف: فأما صنف فأمسك ونهى عن الـمعصية, وأما صنف فأمسك عن حرمة الله, وأما صنف فـانتهك حرمة الله ومرَد علـى الـمعصية, فلـما أبوا إلا الاعتداء إلـى ما نهوا عنه, قال الله لهم: كُونُوا قِرَدَة خاسِئِينَ فصاروا قردة لها أذنابٌ, تَعَاوَى, بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

838ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِـي السّبْت قال: نُهوا عن صيد الـحيتان يوم السبت, فكانت تشرع إلـيهم يوم السبت, وبُلوا بذلك فـاعتدوا فـاصطادوها, فجعلهم الله قردة خاسئين.

839ـ حدثنـي موسى قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: ولَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الّذِين اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فـي السّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِردة خاسِئِينَ قال: فهم أهل أيـلة, وهي القرية التـي كانت حاضرة البحر. فكانت الـحيتان إذا كان يوم السبت وقد حرّم الله علـى الـيهود أن يعملوا فـي السبت شيئا لـم يبق فـي البحر حوت إلا خرج حتـى يخرجن خراطيـمهن من الـماء, فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلـم ير منهن شيء حتـى يكون يوم السبت. فذلك قوله: وَاسألْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الّتِـي كانَتْ حاضِرَة البَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فِـي السّبْتِ إذْ تأتِـيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرّعا ويَوْمَ لا يَسْبِتُون لا تأتِـيهِمْ. فـاشتهى بعضهم السمك, فجعل الرجل يحفر الـحفـيرة ويجعل لها نهرا إلـى البحر, فإذا كان يوم السبت فتـح النهر, فأقبل الـموج بـالـحيتان يضربها حتـى يـلقـيها فـي الـحفـيرة, ويريد الـحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر, فـيـمكث, فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه. فجعل الرجل يشوي السمك, فـيجد جاره ريحه, فـيسأله فـيخبره فـيصنع مثل ما صنع جاره. حتـى إذا فشا فـيهم أكل السمك قال لهم علـماؤهم: ويحكم إنـما تصطادون السمك يوم السبت, وهو لا يحلّ لكم فقالوا: إنـما صدناه يوم الأحد حين أخذناه, فقال الفقهاء: لا, ولكنكم صدتـموه يوم فتـحتـم له الـماء فدخـل فقالوا: لا. وعتوا أن ينتهوا, فقال بعض الذين نهوهم لبعض: لِـمَ تَعِظُونَ قَوْما اللّهُ مهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذّبُهُمْ عَذَابـا شَدِيدا يقول: لـم تعظونهم وقد وعظتـموهم فلـم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: مَعْذِرةً إلَـى رَبّكُمْ ولعلّهم

يَتّقُون. فلـما أبوا قال الـمسلـمون: والله لا نساكنكم فـي قرية واحدة فقسموا القرية بجدار, ففتـح الـمسلـمون بـابـا والـمعتدون فـي السبت بـابـا, ولعنهم داود. فجعل الـمسلـمون يخرجون من بـابهم والكفـار من بـابهم فخرج الـمسلـمون ذات يوم ولـم يفتـح الكفـار بـابهم, فلـما أبطئوا علـيهم تسوّر الـمسلـمون علـيهم الـحائط, فإذا هم قردة يثب بعضهم علـى بعض, ففتـحوا عنهم فذهبوا فـي الأرض. فذلك قول الله عز وجل: فَلَـمّا عَتَوْا عَمّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فذلك حين يقول: لُعِنَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِـي إسْرَائِيـلَ علـى لِسانِ دَاوُدَ وعِيسَى ابْنِ مَرْيَـمَ فهم القردة.

840ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: الّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ قال: لـم يـمسخوا إنـما هو مثل ضربه الله لهم مثل ما ضرب مثل الـحمار يحمل أسفـارا.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَلَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِـي السّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قرَدَةً خَاسِئِينَ قال: مسخت قلوبهم, ولـم يـمسخوا قردة, وإنـما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الـحمار يحمل أسفـارا.

وهذا القول الذي قاله مـجاهد قول لظاهر ما دل علـيه كتاب الله مخالف, وذلك أن الله أخبر فـي كتابه أنه جعل منهم القردة والـخنازير وعبد الطاغوت, كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبـيـم: أرِنا اللّهَ جَهْرَةً وأن الله تعالـى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم وأنهم عبدوا العجل, فجعل توبتهم قتل أنفسهم, وأنهم أمروا بدخول الأرض الـمقدسة, فقالوا لنبـيهم: اذْهَبْ أنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلا إنّا هَهُنا قاعِدُونَ فـابتلاهم بـالتـيه. فسواء قال قائل: هم لـم يـمسخهم قردة, وقد أخبر جل ذكره أنه جعل منهم قردة وخنازير, وآخر قال: لـم يكن شيء مـما أخبر الله عن بنـي إسرائيـل أنه كان منهم من الـخلاف علـى أنبـيائهم والعقوبـات والأنكال التـي أحلها الله بهم. ومن أنكر شيئا من ذلك وأقرّ بآخر منه, سئل البرهان علـى قوله وعورض فـيـما أنكر من ذلك بـما أقرّ به, ثم يسأل الفرق من خبر مستفـيض أو أثر صحيح. هذا مع خلاف قول مـجاهد قول جميع الـحجة التـي لا يجوز علـيها الـخطأ والكذب فـيـما نقلته مـجمعة علـيه, وكفـى دلـيلاً علـى فساد قول إجماعها علـى تـخطئته.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قرَدَةً خاسِئِينَ.

يعنـي بقوله: فَقُلْنَا لَهُمْ أي فقلنا للذين اعتدوا فـي السبت يعنـي فـي يوم السبت. وأصل السبت الهدوّ السكون فـي راحة ودعة, ولذلك قـيـل للنائم مسبوت لهدوّه وسكون جسده واستراحته, كما قال جل ثناؤه: وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُبـاتا أي راحة لأجسادكم, وهو مصدر من قول القائل: سبت فلان يسبُتُ سَبْتا. وقد قـيـل إنه سمي سبتا لأن الله جل ثناؤه فرغ يوم الـجمعة, وهو الـيوم الذي قبله, من خـلق جميع خـلقه.

وقوله: كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِين أي صيروا كذلك. والـخاسىء: الـمبعد الـمطرود كما يخسأ الكلب, يقال منه: خسأته أخسؤه خَسْأً وخُسوءا, وهو يخسأ خُسوءا, قال: ويقال خسأته فخسأ وانـخسأ, ومنه قول الراجز:

كالكَلْبِ إنْ قُلْتَ لَهُ اخْسأ انْـخَسأْ

يعنـي إن طردته انطرد ذلـيلاً صاغرا. فكذلك معنى قوله: كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ أي مبعدين من الـخير أذلاء صغراء. كما:

841ـ حدثنا بشار, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ قال: صاغرين.

حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد, مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

842ـ حدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: خاسِئِينَ قال: صاغرين.

843ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ أي أذلة صاغرين.

844ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: خاسئا: يعنـي ذلـيلاً.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل الهاء والألف فـي قوله: فَجَعَلْناها وعلام هي عائدة, فروي عن ابن عبـاس فـيها قولان: أحدهما ما:

845ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: فَجَعَلْنَاها فجعلنا تلك العقوبة وهي الـمسخة نكالاً. فـالهاء والألف من قوله: فَجَعَلْناها علـى قول ابن عبـاس هذا كناية عن الـمسخة, وهي «فَعْلَة» من مَسَخَهم الله مَسْخَةً. فمعنى الكلام علـى هذا التأويـل: فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِردَةً خاسِئِينَ فصاروا قردة مـمسوخين فَجَعَلْناها فجعلنا عقوبتنا ومسخنا إياهم نَكالاً لِـمَا بـينَ يَدَيْها وما خَـلْفَها وَمَوْعِظَةً للْـمُتّقِـينَ. والقول الآخر من قولـي ابن عبـاس ما:

846ـ حدثنـي به مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: فجَعَلْناها يعنـي الـحيتان. والهاء والألف علـى هذا القول من ذكر الـحيتان, ولـم يجر لها ذكر. ولكن لـما كان فـي الـخبر دلالة كنـي عن ذكرها, والدلالة علـى ذلك قوله: ولَقَدْ عَلِـمْتُـمُ الّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فـي السّبْتِ.

وقال آخرون: فجعلنا القرية التـي اعتدى أهلها فـي السبت. فـالهاء والألف فـي قول هؤلاء كناية عن قرية القوم الذين مسخوا.

وقال آخرون: معنى ذلك: فجعلنا القردة الذين مسخوا نكالاً لـما بـين يديها وما خـلفها, فجعلوا الهاء والألف كناية عن القردة.

وقال آخرون: فجَعَلْناها يعنـي به: فجعلنا الأمة التـي اعتدت فـي السبت نكالاً.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: نَكالاً.

والنكال مصدر من قول القائل: نكل فلان بفلان تنكيلاً ونكالاً, وأصل النكال: العقوبة, كما قال عديّ بن زيد العبـادي:

لا يَسخُطُ الضّلّـيـلُ ما صَنَعَ الْعَبْدُ وَلا فِـي نَكالِهِ تَنْكِيرُ

وبـمثل الذي قلنا فـي ذلك رُوي الـخبر عن ابن عبـاس:

847ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: نَكالاً يقول: عقوبة.

848ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي إسحاق, قال: حدثنـي ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: فجَعَلْناها نَكالاً أي عقوبة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لِـمَا بـينَ يَدَيْها وَما خَـلْفَها.

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك. فقال بعضهم بـما:

849ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: لِـمَا بـينَ يَدَيْها يقول: لـيحذر من بعدهم عقوبتـي, وَما خَـلْفَها يقول: الذين كانوا بقوا معهم.

850ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: لِـمَا بـينَ يَدَيْهَا وَما خَـلْفَها لـما خلا لهم من الذنوب, وما خـلفها: أي عبرة لـمن بقـي من الناس. وقال آخرون بـما:

851ـ حدثنـي ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن داود بن الـحصين, عن عكرمة مولـى ابن عبـاس, قال: قال ابن عبـاس: فجَعلْناها نَكالاً لِـمَا بـينَ يَدَيْها وَما خَـلْفَها أي من القرى. وقال آخرون بـما:

852ـ حدثنا به بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال الله: فَجَعَلْناها نَكالاً لِـما بـينَ يَدَيْها من ذنوب القوم, وَما خَـلْفَها أي للـحيتان التـي أصابوا.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لِـمَا بـينَ يَدَيْها من ذنوبها وَما خَـلْفَها من الـحيتان.

853ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله تعالـى: لِـمَا بـينَ يَدَيْها ما مضى من خطاياهم إلـى أن هلكوا به.

حدثنـيالـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: نَكالاً لِـمَا بـينَ يَدَيْها وَما خَـلْفَها يقول: بـين يديها ما مضى من خطاياهم, وما خـلفها: خطاياهم التـي هلكوا بها.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد, مثله إلا أنه قال: وَما خَـلْفَها خطيئتهم التـي هلكوا بها. وقال آخرون بـما:

854ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فجَعَلْناها نَكالاً لِـمَا بـينَ يَدَيْها وَما خَـلْفَها قال: أما ما بـين يديها: فما سلف من عملهم, وماخـلفها: فمن كان بعدهم من الأمـم أن يعصوا فـيصنع الله بهم مثل ذلك. وقال آخرون بـما:

855ـ حدثنـي به ابن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: فَجَعَلْناها نَكالاً لِـمَا بـينَ يَدَيْها ومَا خَـلْفَها يعنـي الـحيتان جعلها نكالاً لـما بـين يديها وما خـلفها من الذنوب التـي عملوا قبل الـحيتان, وما عملوا بعد الـحيتان, فذلك قوله: ما بـينَ يَدَيْها وَما خَـلْفَها.

وأولـى هذه التأويلات بتأويـل الآية ما رواه الضحاك عن ابن عبـاس وذلك لـما وصفنا من أن الهاء والألف فـي قوله: فجَعَلْناها نَكالاً بأن تكون من ذكر العقوبة والـمَسْخة التـي مسخها القوم أولـى منها بأن تكون من ذكر غيرها,

من أجل أن الله جل ثناؤه إنـما يحذّر خـلقه بأسه وسطوته, وبذلك يخوّفهم. وفـي إبـانته عز ذكره بقوله: نَكالاً أنه عنى به العقوبة التـي أحلها بـالقوم ما يعلـم أنه عنى بقوله: فجَعَلْناهَا نَكالاً لِـمَا بَـينَ يَدَيْها وَما خَـلْفَها: فجعلنا عقوبتنا التـي أحللناها بهم عقوبة لـما بـين يديها وما خـلفها, دون غيره من الـمعانـي. وإذا كانت الهاء والألف بأن تكون من ذكر الـمسخة والعقوبة أولـى منها بأن تكون من ذكر غيرها, فكذلك العائد فـي قوله: لِـمَا بـينَ يَدَيها وَما خَـلْفَها من الهاء والألف أن يكون من ذكر الهاء والألف اللتـين فـي قوله: فَجَعَلْناها أولـى من أن يكون من غيره.

فتأويـل الكلام إذا كان الأمر علـى ما وصفنا: فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين, فجعلنا عقوبتنا لهم عقوبة لـما بـين يديها من ذنوبهم السالفة منهم مسخنا إياهم وعقوبتنا لهم, ولـما خـلف عقوبتنا لهم من أمثال ذنوبهم, أن يعمل بها عامل, فـيـمسخوا مثل ما مسخوا, وأن يحلّ بهم مثل الذي حلّ بهم تـحذيرا من الله تعالـى ذكره عبـاده أن يأتوا من معاصيه مثل الذي أتـى الـمـمسوخون فـيعاقبوا عقوبتهم.

وأما الذي قال فـي تأويـل ذلك: فجَعَلْناها يعنـي الـحيتان عقوبة لـما بـين يدي الـحيتان من ذنوب القوم وما بعدها من ذنوبهم, فإنه أبْعَدَ فـي الانتزاع وذلك أن الـحيتان لـم يجر لها ذكر فـيقال: فجَعَلْناها فإن ظنّ ظانّ أن ذلك جائز وإن لـم يكن جرى للـحيتان ذكر, لأن العرب قد تكنـي عن الاسم ولـم يجر له ذكر, فإن ذلك وإن كان كذلك, فغير جائز أن يترك الـمفهوم من ظاهر الكتاب والـمعقول به ظاهر فـي الـخطاب والتنزيـل إلـى بـاطن لا دلالة علـيه من ظاهر التنزيـل ولا خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم منقول ولا فـيه من الـحجة إجماع مستفـيض.

وأما تأويـل من تأوّل ذلك: لـما بـين يديها من القرى وما خـلفها, فـينظر إلـى تأويـل من تأول ذلك بـما بـين يدي الـحيتان وما خـلفها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَوْعِظَةً.

والـموعظة مصدر من قول القائل: وعظت الرجل أعظه وَعْظا وموعظة: إذا ذكّرته.

فتأويـل الآية: فجعلناها نكالاً لـما بـين يديها وما خـلفها, وتذكرة للـمتقـين, لـيتعظوا بها, ويعتبروا, ويتذكروا بها, كما:

856ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَمَوْعِظَةً يقول: وتذكرة وعبرة للـمتقـين.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى لِلْـمَتّقِـينَ.

وأما الـمتقون فهم الذين اتقوا بأداء فرائضه واجتناب معاصيه كما:

857ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, قال: حدثنا أبو روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَمَوْعِظَةً لِلْـمُتّقِـينَ يقول: للـمؤمنـين الذين يتقون الشرك, ويعملون بطاعتـي. فجعل تعالـى ذكره ما أحلّ بـالذين اعتدوا فـي السبت من عقوبته موعظة للـمتقـين خاصة وعبرة للـمؤمنـين دون الكافرين به إلـى يوم القـيامة.

858ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن داود بن الـحصين, عن عكرمة مولـى ابن عبـاس, عن عبد الله بن عبـاس فـي قوله: وَمَوْعِظَةً لِلْـمُتّقِـينَ إلـى يوم القـيامة.

859ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَمَوْعِظَةً لِلْـمُتّقِـينَ: أي بعدهم.
حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, مثله.
860ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أما موعظة لـلـمتقـين, فهم أمة مـحمد صلى الله عليه وسلم.
861ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَمَوْعِظَةً لِلْـمُتّقِـينَ قال: فكانت موعظة لـلـمتقـين خاصة.
862ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسن, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج فـي قوله: وَمَوْعِظَةً لِلْـمُتّقِـينَ: أي لـمن بعدهم.

الآية : 66

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لّلْمُتّقِينَ }
وهذه الآية مـما وبخ الله بها الـمخاطبـين من بنـي إسرائيـل فـي نقض أوائلهم الـميثاق الذي أخذه الله علـيهم بـالطاعة لأنبـيائه, فقال لهم: واذكروا أيضا من نكثكم ميثاقـي, إذ قال موسى لقومه, وقومه بنو إسرائيـل, إذ ادّارءوا فـي القتـيـل الذي قتل فـيهم إلـيه

الآية : 67-68

تأويل قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىَ لِقَوْمِهِ إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوَاْ أَتَتّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَيّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ لاّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ }
والهزو: اللعب والسخرية, كما قال الراجز:
قَدْ هَزِئَتْ مِنّـي أُمّ طَيْسَلَهْقالَتْ أرَاهُ مُعْدِما لا شَيْءَ لَهْ
يعنـي بقوله: قد هزئت: قد سخرت ولعبت. ولا ينبغي أن يكون من أنبـياء الله فـيـما أخبرت عن الله من أمر أو نهي هزو أو لعب. فظنوا بـموسى أنه فـي أمره إياهم عن أمر الله تعالـى ذكره بذبح البقرة عند تدارئهم فـي القتـيـل إلـيه أنه هازىء لاعب, ولـم يكن لهم أن يظنوا ذلك بنبـيّ الله, وهو يخبرهم أن الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة, وحذفت الفـاء من قوله: أتَتّـخِذُنا هُزُوا وهو جواب, لاستغناء ما قبله من الكلام عنه, وحسن السكوت علـى قوله: إنّ اللّهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً فجاز لذلك إسقاط الفـاء من قوله: أتَتّـخِذُنا هُزُوا كما جاز وحسن إسقاط من قوله تعالـى: قالَ فَما خَطْبُكُمْ أيّها الـمُرْسَلُونَ قالُوا إنّا أرْسِلْنا ولـم يقل: فقالوا إنا أرسلنا, ولو قـيـل: «فقالوا», كان حسنا أيضا جائزا, ولو كان ذلك علـى كلـمة واحدة لـم تسقط منه الفـاء وذلك أنك إذا قلت قمت وفعلت كذا وكذا ولـم تقل: قمت فعلت كذا وكذا, لأنها عطف لا استفهام يوقـف علـيه, فأخبرهم موسى إذ قالوا له ما قالوا إن الـمخبر عن الله جل ثناؤه بـالهزء والسخرية من الـجاهلـين وبرأ نفسه مـما ظنوا به من ذلك, فقال: أعُوذُ بـاللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الـجاهِلِـينَ يعنـي من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والبـاطل. وكان سبب قـيـل موسى لهم: إنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ما:
863ـ حدثنا به مـحمد بن عبد الأعلـى قال: حدثنا الـمعتـمر بن سلـيـمان, قال: سمعت أيوب, عن مـحمد بن سيرين, عن عبـيدة, قال: كان فـي بنـي

إسرائيـل رجل عقيـم أو عاقر, قال: فقتله ولـيه, ثم احتـمله, فألقاه فـي سبط غير سبطه. قال: فوقع بـينهم فـيه الشرّ, حتـى أخذوا السلاح. قال: فقال أولو النّهَى: أتقتتلون وفـيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: فأتوا نبـيّ الله, فقال: إذبحوا بقرة فقالوا: أتَتّـخِذُنا هُزُوا قالَ أعُوذُ بـاللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الـجَاهِلِـينَ قالُوا ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنْ لَنا ما هي قالَ إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَة إلـى قوله: فَذَبَحُوهَا وَما كادُوا يَفْعَلُونَ قال: فضُرب فأخبرهم بقاتله. قال: ولـم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهبـا. قال: ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم, فلـم يورث قاتل بعد ذلك.

864ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنـي أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قول الله إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَة قال: كان رجل من بنـي إسرائيـل, وكان غنـيا ولـم يكن له ولد, وكان له قريب وكان وارثه, فقتله لـيرثه, ثم ألقاه علـى مـجمع الطريق, وأتـى موسى, فقال له: إن قريبـي قتل, وأتـى إلـيّ أمرٌ عظيـم, وإنـي لا أجد أحدا يبـين لـي من قتله غيرك يا نبـيّ الله. قال: فنادى موسى فـي الناس: أنشد الله من كان عنده من هذا علـم إلا بـينه لنا فلـم يكن عندهم علـمه, فأقبل القاتل علـى موسى فقال: أنت نبـيّ الله, فـاسأل لنا ربك أن يبـين لنا فسأل ربه فأوحى الله إلـيه: إنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً فعجبوا وقالوا: أتَتّـخِذُنا هُزُوا قالَ أعُوذُ بـاللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الـجاهِلِـينَ قالُوا ادْعُ لَنا رَبكَ يُبَـيّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إنّه يَقُولُ إنّهَا بَقَرَة لا فـارِض يعنـي هرمة وَلا بكْر يعنـي ولا صغيرة عَوَان بـينَ ذلكَ أي نصف بـين البكر والهرمة, قالُوا ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنْ لَنا ما لَوْنُها قال إنهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَة صَفْرَاءُ فـاقِعٌ لَوْنُها أي صاف لونها تَسُرّ النَاظِرِينَ أي تعجب الناظرين. قالُوا ادْعُ لَنا رَبكَ يُبَـيّنْ لَنا ما هِيَ إنّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَـيْنَا وَإنَا إنْ شاءَ الله لـمهتدون قال أنه يقول أنها بقرة لا ذلول أي يذللها العمل تثـير الأرض يعنـي يسق بذلول فتثـير الأرض ولا تسقـي الـحرث يقول ولا تعمل فـي الـحرب مسلـمة يعنـي مسلـمة من العيوب لاشية فـيها. يقول لا بـياض فـيها. قالُوا الاَنَ جِئْتَ بـالـحَقّ فَذَبَحُوها وما كادُوا يَفْعَلُونَ. قال: ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها, ولكنهم شددوا علـى أنفسهم, فشدّد الله علـيهم. ولولا أن القوم استثنوا فقالوا إنا إن شاء الله لـمهتدون لـما هدوا إلـيها أبدا فبلغنا أنهم لـم يجدوا البقرة التـي نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى وهي القـيـمة علـيهم فلـما علـمت أنهم لا يزكو لهم غيرها أضعفت علـيهم الثمن فأتوا موسى فأخبروه أنهم لـم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة وأنها سألتهم أضعاف ثمنها فقال لهم موسى أن الله قد كان خفف علـيكم فشددتـم علـى أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها ففعلوا واشتروها فذبحوها فأمرهم موسى أن يأخذوا عظما منها فـيضربو به القتـيـل ففعلوا فرجع إلـيه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان فأخذوا قاتله وهو الذي كان أتـى موسى فشكى إلـيه فقتله الله علـى أسوء عمله. حدثنـي موسى قال حدثنا عمرو قال حدثنا أسبـاط عن السدي وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قال كان رجل من بنـي إسرائيـل مكثرا من الـمال, وكانت له ابنة وكان له ابن أخ مـحتاج. فخطب إلـيه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوّجه إياها, فغضب الفتـى وقال: والله لأقتلنّ عمي ولآخذنّ ماله ولأنكحنّ ابنته ولآكلنّ ديته فأتاه الفتـى وقد قدم تـجار فـي بعض أسبـاط بنـي إسرائيـل,

فقال: يا عم انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم لعلي أصيب منها, فإنهم إذا رأوك معي أعطوني. فخرج العم مع الفتى ليلاً, فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه, كأنه لا يدري أين هو فلم يجده, فانطلق نحوه فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه, فأخذهم وقال: قتلتم عمي فأدّوا إليّ ديته. وجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي واعماه. فرفعهم إلى موسى, فقضى عليهم بالدية, فقالوا له: يا رسول الله: ادع لنا حتى يتبين له من صاحبه فيؤخذ صاحب الجريمة, فوالله إن ديته علينا لهينة, ولكنا نستحي أن نعير به. فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: وَإذْ قَتَلْتُمْ نَفْسا فادّارَأتُمْ فِيها وَاللّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فقال لهم موسى: إنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة, أتهزأ بنا؟ قال موسى: أعُوذُ باللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ. قال: قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم, ولكنهم شدّدوا وتعنتوا موسى, فشدد الله عليهم فقالوا: ادْعُ لَنا رَبّكَ يُبَيّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بينَ ذلكَ والفارض: الهرمة التي لا تلد, والبكر: التي لم تلد إلا ولدا واحدا, والعوان: النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها فافعلوا ما تؤمرون. قالُوا ادْعُ لَنا رَبّكَ يُبَيّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرّ النّاظِرِينَ قال: تعجب الناظرين: قالُوا ادْعُ لَنا رَبّكَ يُبَيّنُ لَنا ما هِيَ إنّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإنّا إنْ شاءَ اللّهُ لَمُهْتَدُونَ قالَ إنّهُ يَقُولُ إنّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها من بياض ولا سواد ولا حمرة. قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقّ فطلبوها فلم يقدروا عليها. وكان رجل من بني إسرائيل من أبرّ الناس بأبيه. وأن رجلاً مرّ به معه لؤلؤ يبيعه, فكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح, فقال له الرجل: تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبي فآخذه بثمانين ألفا. فقال له الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا. فجعل التاجر يحطّ له حتى بلغ ثلاثين ألفا, وزاد الآخر على أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه حتى بلغ مائة ألف. فلما أكثر عليه قال: لا والله لا أشتريه منك بشيء أبدا, وأبى أن يوقظ أباه. فعوّضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة, فمرّت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة, فأبصروا البقرة عنده, فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة فأبى, فأعطوه ثنتين فأبى, فزادوه حتى بلغوا عشرا فأبى, فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى, فقالوا: يا نبيّ الله إنا وجدنا البقرة عند هذا فأبى أن يعطيناها, وقد أعطيناه ثمنا. فقال له موسى: أعطهم بقرتك فقال: يا رسول الله أنا أحقّ بمالي. فقال: صدقت, وقال للقوم: أرضوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهبا فأبى, فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها حتى أعطوه وزنها عشر مرّات, فباعهم إياها وأخذ ثمنها. فقال: اذبحوها فذبحوها, فقال: اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش, فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي قال: أقتله وآخذ ماله وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه.

865ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة. وحدثني يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, عن ابن زيد, عن مجاهد. وحدثني المثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, قال: حدثني خالد بن يزيد, عن

مـجاهد. وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا إسماعيـل, عن عبد الكريـم, قال: حدثنـي عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبـا يذكر.
وحدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد, وحجاج, عن أبـي معشر, عن مـحمد بن كعب القرظي ومـحمد بن قـيس. وحدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: أخبرنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس. فذكر جميعهم: أن السبب الذي من أجله قال لهم موسى: إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً نـحو السبب الذي ذكره عبـيدة وأبو العالـية والسدي. غير أن بعضهم ذكر أن الذي قتل القتـيـل الذي اختصم فـي أمره إلـى موسى كان أخا الـمقتول. وذكر بعضهم أنه كان ابن أخيه. وقال بعضهم: بل كانوا جماعة ورثة استبطئوا حياته. إلا أنهم جميعا مـجمعون علـى أن موسى إنـما أمرهم بذبح البقرة من أجل القتـيـل إذا احتكموا إلـيه عن أمر الله إياهم بذلك, فقالوا له: وما ذبح البقرة يبـين لنا خصومتنا التـي اختصمنا فـيها إلـيك فـي قتل من قتل فـادعى علـى بعضنا أنه القاتل أتهزأ بنا؟ كما:
866ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: قتل قتـيـل من بنـي إسرائيـل, فطرح فـي سبط من الأسبـاط. فأتـى أهل ذلك القتـيـل إلـى ذلك السبط, فقالوا: أنتـم والله قتلتـم صاحبنا قالوا: لا والله. فأتوا موسى, فقالوا: هذا قتـيـلنا بـين أظهرهم وهم والله قتلوه. فقالوا: لا والله يا نبـيّ الله طرح علـينا. فقال لهم موسى: إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً فقالوا: أتستهزىء بنا؟ وقرأ قول الله جل ثناؤه: أتَتّـخِذُنا هُزُوا قالوا: نأتـيك فنذكر قتـيـلنا والذي نـحن فـيه فتستهزىء بنا؟ فقال موسى: أعُوذُ بـالله أنْ أكُونَ مِنَ الـجاهِلِـينَ.
867ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد وحجاج, عن أبـي معشر, عن مـحمد بن كعب القرظي, ومـحمد بن قـيس: لـما أتـى أولـياء القتـيـل والذين ادّعوا علـيهم قتل صاحبهم موسى وقصوا قصتهم علـيه, أوحى الله إلـيه أن يذبحوا بقرة, فقال لهم موسى: إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أتَتّـخِذُنَا هُزُوا قالَ أعُوذُ بـاللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الـجاهِلِـينَ قالوا: وما البقرة والقتـيـل؟ قال: أقول لكم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة, وتقولون: أتتـخذنا هزوا
قال أبو جعفر: فقال الذين قـيـل لهم: إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذبَحُوا بَقَرَةً بعد أن علـموا واستقرّ عندهم أن الذي أمرهم به موسى علـيه السلام من ذلك عن أمر الله من ذبح بقرة جدّ وحق: ادْعُ لَنا رَبّكَ يُبَـيّنُ لَنا مَا هِيَ فسألوا موسى أن يسأل ربه لهم ما كان الله قد كفـاهم بقوله لهم: اذبحوا بقرة لأنه جل ثناءه إنـما أمرهم بذبح بقرة من البقر أيّ بقرة شاءوا ذبحها من غير أن يحصر لهم ذلك علـى نوع منها دون نوع أو صنف دون صنف, فقالوا بجفـاء أخلاقهم وغلظ طبـائعهم وسوء أفهامهم, وتكلف ما قد وضع الله عنهم مؤنته, تعنتا منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما:
868ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي, أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس, قال: لـما قال لهم موسى: أعُوذُ بـاللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الـجاهِلِـين قالوا له يتعنتونه: ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنُ لَنا ما هيَ فلـما تكلفوا جهلاً منهم ما تكلفوا من البحث عما كانوا قد كفوه من صفة البقرة التـي أمروا بذبحها تعنتا منهم بنبـيهم موسى صلوات الله علـيه

بعد الذي كانوا أظهروا له من سوء الظن به فـيـما أخبرهم عن الله جل ثناؤه بقولهم: أتَتّـخِذُنا هُزُوا عاقبهم عز وجل بأن خصّ بذبح ما كان أمرهم بذبحه من البقر علـى نوع منها دون نوع, فقال لهم جل ثناؤه إذ سألوه فقالوا: ما هي صفتها وما حلـيتها؟ حَلّها لنا لنعرفها قالَ إنّهَا بَقَرَةٌ لا فَـارِضٌ وَلا بِكْرٌ يعنـي بقوله جل ثناؤه: لا فـارض: لا مسنة هرمة, يقال منه: فرضت البقرة تفرض فروضا, يعنـي بذلك أسنّت, ومن ذلك قول الشاعر:

يا رُبّ ذِي ضِغْنٍ عَلَـيّ فـارِضِلَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الـحائِضِ

يعنـي بقوله فـارض: قديـم يصف ضغنا قديـما. ومنه قول الاَخر:

لَهُ زِجاجٌ ولَهَاةُ فـارِرُضهَدْلاء كالوَطْبِ نَـحَاهُ الـمَاخِضُ

وبـمثل الذي قلنا فـي تأويـل فـارض قال الـمتأوّلون. ذكر من قال ذلك:

869ـ حدثنـي علـيّ بن سعيد الكندي, قال: حدثنا عبد السلام بن حرب, عن خصيف, عن مـجاهد: لا فـارِض قال: لا كبـيرة.

870ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن عطية, قال: حدثنا شريك, عن خصيف, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, أو عن عكرمة, شك شريك لا فَـارِضٌ قال: الكبـيرة.

871ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: أخبرنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: لا فـارِضٌ الفـارض: الهرمة.

حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: لا فـارِضٌ يقول: لـيست بكبـيرة هرمة.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, عن عطاء الـخراسانـي عن ابن عبـاس: لا فـارِضٌ الهرمة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: الفـارض: الكبـيرة.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا شريك, عن خصيف, عن مـجاهد قوله: لا فـارِض قال: الكبـيرة.

872ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: لا فـارِضٌ يعنـي لا هرمة.

873ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

874ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: الفـارض: الهرمة.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: قال معمر, قال قتادة: الفـارض: الهرمة يقول: لـيست بـالهرمة ولا البكر عوان بـين ذلك.

875ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: الفـارض: الهرمة التـي لا تلد.

876ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: الفـارض: الكبـيرة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ولا بِكْر.

والبكر من إناث البهائم وبنـي آدم ما لـم يفتـحله الفحل, وهي مكسورة البـاء لـم يسمع منه «فَعَل» ولا «يفعل». وأما «البَكْر» بفتـح البـاء فهو الفتـى من الإبل. وإنـما عنى جل ثناؤه بقوله وَلا بِكْر ولا صغيرة لـم تلد. كما:

877ـ حدثنـي علـيّ بن سعيد الكندي, قال: حدثنا عبد السلام بن حرب, عن خصيف, عن مـجاهد: وَلا بِكْرٍ صغيرة.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: البكر: الصغيرة.
878ـ حدثنا أبو كريب قال: حدثنا الـحسن بن عطية, قال: حدثنا شريك, عن خصيف, عن سعيد, عن ابن عبـاس أو عكرمة شك: ولا بِكْر قال: الصغيرة.
879ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسن, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, عن عطاء الـخراسانـي, عن ابن عبـاس: ولا بِكْر الصغيرة.
880ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي أبو سفـيان, عن معمر, عن قتادة: ولا بِكْرٌ ولا صغيرة.
حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَلا بكْرٌ ولا صغيرة ضعيفة.
881ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع: عن أبـي العالـية: وَلا بِكْرٌ يعنـي ولا صغيرة.
882ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.
883ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فـي «البكر» لـم تلد إلا ولدا واحدا.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: عَوَانٌ.
قال أبو جعفر: العوان: النصف التـي قد ولدت بطنا بعد بطن, ولـيست بنعت للبكر, يقال منه: قد عوّنت إذا صارت كذلك. وإنـما معنى الكلام أنه يقول: إنها بقرة لا فـارض ولا بكر بل عوان بـين ذلك. ولا يجوز أن يكون عوان إلا مبتدأ, لأن قوله: بَـيْنَ ذَلِكَ كناية عن الفـارض والبكر, فلا يجوز أن يكون متقدما علـيهما. ومنه قول الأخطل:
وَما بِـمَكّةَ مِنْ شُمْطٍ مُـحَفّلَةٍوَما بِـيَثْرِبَ مِنْ عُونٍ وأبْكارِ
وجمعها عون يقال: امرأة عَوَانٌ من نسوة عُونٍ. ومنه قول تـميـم بن مقبل:
وَمأتـم كالدّمَى حُورٍ مَدَامِعُهالَـمْ تَبْأسِ العَيْشَ أبْكارا وَلا عُونَا
وبقرة عوان وبقر عون. قال: وربـما قالت العرب: بقرٌ عُون, مثل رسل يطلبون بذلك الفرق بـين جمع عوان من البقر, وجمع عانة من الـحمر. ويقال: هذه حرب عوان: إذا كانت حربـا قد قوتل فـيها مرّة بعد مرة, يـمثل ذلك بـالـمرأة التـي ولدت بطنا بعد بطن. وكذلك يقال: حالة عوان إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة.
884ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب أن ابن زيد أنشده:
قُعُود لَدَى الأبْوَابِ طُلاّبُ حاجَةٍعَوَانٍ مِنَ الـحاجاتِ أوْ حاجَةً بِكْرا
قال أبو جعفر: والبـيت للفرزدق. وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك تأوله أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك.
885ـ حدثنا علـيّ بن سعد الكندي, حدثنا عبد السلام بن حرب, عن خصيف, عن مـجاهد: عَوَانٌ بـينَ ذلكَ: وسط قد ولدن بطنا أو بطنـين.
حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: عَوانٌ قال: العوان: العانس النصف.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: العوان: النصف.

886ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن عطية, قال: حدثنا شريك, عن خصيف, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس أو عكرمة, شكّ شريك: عَوَانٌ قال: بـين ذلك.

887ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: عَوَانٌ قال بـين الصغيرة والكبـيرة, وهي أقوى ما تكون من البقر والدوابّ وأحسن ما تكون.

888ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسن, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, عن عطاء الـخراسانـي عن ابن عبـاس: عَوَانٌ قال: النصف.

889ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: عَوَانٌ نصف.

890ـ وحدثت عن عمار, عن ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

891ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: العوان: نصف بـين ذلك.

حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا شريك, عن خصيف, عن مـجاهد: عَوَانٌ التـي تنتـج شيئا بشرط أن تكون التـي قد نتـجت بكرة أو بكرتـين.

892ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: العوان: النصف التـي بـين ذلك, التـي قد ولدت وولد ولدها.

893ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: العوان: بـين ذلك لـيست ببكر ولا كبـير.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بَـيْن ذلكَ.

يعنـي بقوله: بـينَ ذلكَ: بـين البكر والهرمة. كما:

894ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: بـينَ ذلكَ: أي بـين البكر والهرمة.

فإن قال قائل: قد علـمت أن «بـين» لا تصلـح إلا أن تكون مع شيئين فصاعدا, فكيف قـيـل بـين ذلك وذلك واحد فـي اللفظ؟ قـيـل: إنـما صلـحت مع كونها واحدة, لأن «ذلك» بـمعنى اثنـين, والعرب تـجمع فـي «ذلك» و«ذاك» شيئين ومعنـيـين من الأفعال, كما يقول القائل: أظنّ أخاك قائما, وكان عمرو أبـاك, ثم يقول: قد كان ذاك, وأظن ذلك. فـيجمع بذلك وذاك الاسم والـخبر الذي كان لا بد لـ«ظَنّ» و«كان» منهما. فمعنى الكلام: قال: إنه يقول أنها بقرة لا مسنة هرمة ولا صغيرة لـم تلد, ولكنها بقرة نصف قد ولدت بطنا بعد بطن بـين الهرم والشبـاب. فجمع ذلك معنى الهرم والشبـاب لـما وصفنا, ولو كان مكان الفـارض والبكر اسما شخصين لـم يجمع مع بـين ذلك, وذلك أن «ذلك» لا يؤدي عن اسم شخصين, وغير جائز لـمن قال: كنت بـين زيد وعمرو, أن يقول: كنت بـين ذلك, وإنـما يكون ذلك مع أسماء الأفعال دون أسماء الأشخاص.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فـافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ.

يقول الله لهم جل ثناؤه: افعلوا ما آمركم به تدركوا حاجاتكم وطلبـاتكم عندي, واذبحوا البقرة التـي أمرتكم بذبحها, تصلوا بـانتهائكم إلـى طاعتـي بذبحها إلـى العلـم بقاتل قتـيـلكم.

الآية : 69

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَيّن لّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِـعٌ لّوْنُهَا تَسُرّ النّاظِرِينَ }

ومعنى ذلك: قال قوم موسى لـموسى: ادْعُ لَنا رَبّكَ يُبَـيّنُ لَنا ما لَوْنُها: أي لون البقرة التـي أمرتنا بذبحها. وهذا أيضا تعنّت آخر منهم بعد الأول, وتكلّف طلب ما قد كانوا كفوه فـي الـمرة الثانـية والـمسألة الاَخرة وذلك أنهم لـم يكونوا حصروا فـي الـمرة الثانـية, إذ قـيـل لهم بعد مسألتهم عن حلـية البقرة التـي كانوا أمروا بذبحها فأبوا إلا تكلف ما قد كفوه من الـمسألة عن صفتها فحصروا علـى نوع دون سائر الأنواع عقوبة من الله لهم علـى مسألتهم التـي سألوها نبـيهم صلى الله عليه وسلم تعنتا منهم له, ثم لـم يحصرهم علـى لون منها دون لون, فأبوا إلا تكلف ما كانوا عن تكلفه أغنـياء, فقالوا تعنتا منهم لنبـيهم صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن عبـاس: ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنُ لَنا ما لَوْنُها فقـيـل لهم عقوبة لهم: إنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُها تَسُرّ النّاظِرِينَ فحُصِروا علـى لون منها دون لون, ومعنى ذلك أن البقرة التـي أمرتكم بذبحها صفراء فـاقع لونها.

قال: ومعنى قوله: يُبَـيّنُ لَنا مَا لَوْنُها أيّ شيء لونها, فلذلك كان اللون مرفوعا, لأنه مرفوع «ما» وإنـما لـم ينصب «ما» بقوله «يبـين لنا», لأن أصل «أيّ» و«ما» جمع متفرّق الاستفهام. يقول القائل: بـين لنا أسوداء هذه البقرة أم صفراء؟ فلـما لـم يكن لقوله «بـيّن لنا» ارتفع علـى الاستفهام منصرفـا (عما) لـم يكن له ارتفع علـى أي لأنه جمع ذلك الـمتفرّق, وكذلك كل ما كان من نظائره, فـالعمل فـيه واحد فـي «ما» و«أي».

واختلف أهل التأويـل فـي معنى قوله: صَفْرَاءُ فقال بعضهم: معنى ذلك سوداء شديدة السواد. ذكر من قال ذلك منهم:

895ـ حدثنـي أبو مسعود إسماعيـل بن مسعود الـجحدري, قال: حدثنا نوح بن قـيس, عن مـحمد بن سيف, عن الـحسن: صَفْرَاءُ فَـاقِع لَوْنُهَا قال: سوداء شديدة السواد.

حدثنـي أبو زائدة زكريا بن يحيى بن أبـي زائدة, والـمثنى بن إبراهيـم قالا: حدثنا مسلـم بن إبراهيـم, قال: حدثنا نوح بن قـيس, عن مـحمد بن سيف, عن أبـي رجاء, عن الـحسن, مثله.

وقال آخرون: معنى ذلك: صفراء القرن والظلف. ذكر من قال ذلك:

896ـ حدثنـي هشام بن يونس النهشلـي, قال: حدثنا حفص بن غياث, عن أشعث, عن الـحسن فـي قوله: صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَا قال: صفراء القرن والظلف.

897ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنـي هشيـم, قال: أخبرنا جويبر, عن كثـير بن زياد, عن الـحسن فـي قوله: صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَا قال: كانت وحشية.

898ـ حدثنـي يعقوب, قال: حدثنا مروان بن معاوية, عن إبراهيـم, عن أبـي حفص, عن مغراء, أو عن رجل, عن سعيد بن جبـير: بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُها قال: صفراء القرن والظلف.

899ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: هي صفراء.

900ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا الضحاك بن مخـلد, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُها قال: لو أخذوا بقرة صفراء لأجزأت عنهم.

قال أبو جعفر: وأحسب أن الذي قال فـي قوله: صَفْرَاءُ يعنـي به سوداء, ذهب إلـى قوله فـي نعت الإبل السود: هذه إبل صفر, وهذه ناقة صفراء يعنـي بها سوداء. وإنـما قـيـل ذلك فـي الإبل لأن سوادها يضرب إلـى الصفرة, ومنه قول الشاعر:

تِلْكَ خَيْـلِـي مِنْهَا وَتِلْكَ رِكابِـيهُنّ صُفْرٌ أوْلادُها كالزّبِـيبِ

يعنـي بقوله: هنّ صفر: هنّ سود, وذلك إن وصفت الإبل به فلـيس مـما توصف به البقر, مع أن العرب لا تصف السواد بـالفقوع, وإنـما تصف السواد إذا وصفته بـالشدة بـالـحلوكة ونـحوها, فتقول:

هو أسود حالك وحانك وحلكك رِكابِـيهُنّ صُفْرٌ أوْلادُها كالزّبِـيبِ

يعنـي بقوله: هنّ صفر: هنّ سود, وذلك إن وصفت الإبل به فلـيس مـما توصف به البقر, مع أن العرب لا تصف السواد بـالفقوع, وإنـما تصف السواد إذا وصفته بـالشدة بـالـحلوكة ونـحوها, فتقول:

هو أسود حالك وحانك وحلكك رِكابِـيهُنّ صُفْرٌ أوْلادُها كالزّبِـيبِ

يعنـي بقوله: هنّ صفر: هنّ سود, وذلك إن وصفت الإبل به فلـيس مـما توصف به البقر, مع أن العرب لا تصف السواد بـالفقوع, وإنـما تصف السواد إذا وصفته بـالشدة بـالـحلوكة ونـحوها, فتقول:

هو أسود حالك وحانك وحلكك رِكابِـي
هُنّ صُفْرٌ أوْلادُها كالزّبِـيبِ

يعنـي بقوله: هنّ صفر: هنّ سود, وذلك إن وصفت الإبل به فلـيس مـما توصف به البقر, مع أن العرب لا تصف السواد بـالفقوع, وإنـما تصف السواد إذا وصفته بـالشدة بـالـحلوكة ونـحوها, فتقول:

هو أسود حالك وحانك وحلكك رِكابِـي
هُنّ صُفْرٌ أوْلادُها كالزّبِـيبِ

يعنـي بقوله: هنّ صفر: هنّ سود, وذلك إن وصفت الإبل به فلـيس مـما توصف به البقر, مع أن العرب لا تصف السواد بـالفقوع, وإنـما تصف السواد إذا وصفته بـالشدة بـالـحلوكة ونـحوها, فتقول:

هو أسود حالك وحانك وحلكك رِكابِـي
هُنّ صُفْرٌ أوْلادُها كالزّبِـيبِ

يعنـي بقوله: هنّ صفر: هنّ سود, وذلك إن وصفت الإبل به فلـيس مـما توصف به البقر, مع أن العرب لا تصف السواد بـالفقوع, وإنـما تصف السواد إذا وصفته بـالشدة بـالـحلوكة ونـحوها, فتقول:

هو أسود حالك وحانك وحلكيْهِ الوَرْدَ حَتـى تَرَكْتُهُ
ذلِـيلاً يَسُفّ التّرْبَ وَاللّوْنُ فَـاقِعُ

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: تَسُرّ النّاظِرِينَ.

يعنـي بقوله: تَسُرّ النّاظِرِينَ تعجب هذه البقرة فـي حسن خـلقها ومنظرها وهيئتها الناظر إلـيها. كما:

901ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: تَسُرّ النّاظِرِينَ أي تعجب الناظرين.
902ـ حدثني المثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم, قال: حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا: تَسُرّ النّاظِرِينَ إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.
903ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسباط, عن السدي: تَسُرّ النّاظِرِينَ قال: تعجب الناظرين.

الآية : 70

القول في تأويل قوله تعالى:
{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَيّن لّنَا مَا هِيَ إِنّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنّآ إِن شَآءَ اللّهُ لَمُهْتَدُونَ }
قال أبو جعفر: يعني بقوله: قالُوا قال قوم موسى الذين أمروا بذبح البقرة لموسى. فترك ذكر موسى وذكر عائد ذكره اكتفاءً بما دلّ عليه ظاهر الكلام.
وذلك أن معنى الكلام: قالوا له: «ادع ربك», فلم يذكر له لما وصفنا.
وقوله: يُبَيّنْ لَنَا ما هِيَ خبر من الله عن القوم بجهلة منهم ثالثة, وذلك أنهم لو كانوا إذ أمروا بذبح البقرة ذبحوا أيتها تيسرت مما يقع عليه اسم بقرة كانت عنهم مجزئة, ولم يكن عليهم غيرها, لأنهم لم يكونوا كلفوها بصفة دون صفة, فلما سألوا بيانها بأيّ صفة هي, فبين لهم أنها بسنّ من الأسنان دون سنّ سائر الأسنان, فقيل لهم: هي عوان بين الفارض والبكر الضرع. فكانوا إذا بينت لهم سنها لو ذبحوا أدنى بقرة بالسنّ التي بينت لهم كانت عنهم مجزئة, لأنهم لم يكونوا كلفوها بغير السنّ التي حدّت لهم, ولا كانوا حصروا على لون منها دون لون. فلما أبوا إلا أن تكون معرّفة لهم بنعوتها مبينة بحدودها التي تفرّق بينها وبين سائر بهائم الأرض فشدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم بكثرة سؤالهم نبيهم واختلافهم عليه ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم لأمته: «ذَرُونِي ما تَرَكْتُكُمْ فَإنّمَا أُهْلِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ على أنْبِيائِهِمْ, فإذَا أمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوهُ, وإذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَانْتَهُوا عَنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».
قال أبو جعفر: ولكن القوم لما زادوا نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم أذى وتعنتا, زادهم الله عقوبة وتشديدا, كما:
904ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثام بن علي, عن الأعمش, عن المنهال بن عمرو, عن سعيد بن جبير, عن ابن عباس, قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها لكنهم شدّدوا فشدد الله عليهم.
905ـ حدثنا عمر بن عبد الأعلى, قال: حدثنا المعتمر, قال: سمعت أيوب, عن محمد بن سيرين, عن عبيدة قال: لو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم.
906ـ حدثنا الحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن أيوب, وحدثني المثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن هشام بن حسان جميعا, عن ابن سيرين, عن عبيدة السلماني, قال: سألوا وشدّدوا فشدّد الله عليهم.

907ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن عيـينة, عن عمرو بن دينار, عن عكرمة, قال: لو أخذ بنو إسرائيـل بقرة لأجزأت عنهم, ولولا قولهم: وَإنّا إنْ شاءَ اللّهُ لـمُهْتَدُونَ لـما وجدوها.

908ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وإذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إنّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرة لو أخذوا بقرة ما كانت لأجزأت عنهم. قَالُوا ادْعُ لَنا رَبّكَ يُبَـيّنْ لَنَا ما هِيَ قالَ إنّهُ يَقُولُ إنّها بَقَرَةٌ لا فـارِضٌ وَلا بِكْرٌ قال: لو أخذوا بقرة من هذا الوصف لأجزأت عنهم. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنْ لَنَا مَا لَوْنُها قَالَ إنّهُ يَقُولُ إنها بَقَرَة صَفْرَاءَ فَـاقِعٍ لَوْنُها تَسُرّ النّاظِرِينَ قال: لو أخذوا بقرة صفراء لأجزأت عنهم. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبّك يُبَـيّنْ لنَا ما هِي قَالَ إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَة لا ذَلُول تُثِـيرُ الأرْضَ وَلا تَسْقِـي الـحَرْثَ الآية.

حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بنـحوه, وزاد فـيه, ولكنهم شددوا فشدد علـيهم.

909ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال مـجاهد: لو أخذوا بقرة ما كانت أجزأت عنهم. قال ابن جريج: قال لـي عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم. قال ابن جريج: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّـمَا أُمِرُوا بِأدْنَى بَقَرَة وَلَكِنّهُمْ لَـمّا شَدّدُوا علـى أنْفُسِهِمْ شَدّدَ اللّهُ عَلَـيْهِمْ وايْـمُ اللّلِه لَوْ أنّهُمْ لَـمْ يَسْتَثْنُوا لَـما بُـيّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأبَدِ».

910ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها, ولكنهم شددوا علـى أنفسهم فشدّد الله علـيهم, ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: وَإنّا إنْ شاءَ اللّهُ لَـمُهْتَدُونَ لـما هدوا إلـيها أبدا.

911ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: ذكر لنا أن نبـي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «إنّـمَا أُمِرَ القَوْمُ بِأدْنى بَقَرَةٍ وَلَكِنّهُمْ لَـمّا شَدّدُوا علـى أنْفُسَهُمْ شُدّدَ عَلَـيْهِمْ, وَالّذِي نَفْسُ مُـحَمّدٍ بِـيَدِهِ لَوْ لَـمْ يَسْتَثْنُوا لَـمَا بُـيّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأبَدِ».

حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي خبر ذكره, عن أبـي مالك, وعن أبـي صالـح, عن ابن عبـاس, قال: لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شدّدوا وتعنتوا موسى فشدّد الله علـيهم.

حدثنا أبو كريب قال: قال أبو بكر بن عياش, قال ابن عبـاس: لو أن القوم نظروا أدنى بقرة, يعنـي بنـي إسرائيـل لأجزأت عنهم, ولكن شددوا فشدّد علـيهم, فـاشتروها بـملء جلدها دنانـير.

912ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لو أخذوا بقرة كما أمرهم الله كفـاهم ذلك, ولكن البلاء فـي هذه الـمسائل, فقَالُوا ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنْ لَنَا مَا هِيَ فشدّد علـيهم, فقال: إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَةٌ لا فَـارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَـيْنَ ذلكَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبّكَ يُبَـيّنْ لَنَا مَا لَوْنُها قال إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُها تَسُرّ النّاظِرِينَ قال: وشدد علـيهم أشد من الأول فقرأ حتـى بلغ: مُسلّـمَةٌ لا شَيَةَ فِـيهَا فأبوا أيضا. قالوا ادْعُ لَنَا رَبّكَ

يُبَـيّنُ لَنَا مَا هِيَ إنّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَـيْنَا وَإنّا إنْ شَاءَ اللّهُ لَـمُهْتَدُونَ فشدّد علـيهم فقَالَ إنّهُ يَقُولُ إنّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِـيرُ الأرْضَ وَلا تَسْقِـي الـحَرْثَ مُسْلّـمَةٌ لا شِيَةَ فِـيهَا. قال: فـاضطروا إلـى بقرة لا يُعلـم علـى صفتها غيرها, وهي صفراء, لـيس فـيها سواد ولا بـياض.

قال أبو جعفر: وهذه الأقوال التـي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من الصحابة والتابعين والـخالفـين بعدهم من قولهم: إن بنـي إسرائيـل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم ولكنهم شدّدوا فشدّد الله علـيهم, من أوضح الدلالة علـى أن القوم كانوا يرون أن حكم الله فـيـما أمر ونهى فـي كتابه وعلـى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم علـى العموم الظاهر دون الـخصوص البـاطن, إلا أن يخصّ بعض ما عمه ظاهر التنزيـل كتاب من الله أو رسول الله, وأن التنزيـل أو الرسول إن خصّ بعض ما عمه ظاهر التنزيـل بحكم خلاف ما دل علـيه الظاهر, فـالـمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التـي عمت ذلك الـجنس خاصة, وسائر حكم الآية علـى العموم, علـى نـحو ما قد بـيناه فـي كتابنا كتاب «الرسالة من لطيف القول فـي البـيان عن أصول الأحكام» فـي قولنا فـي العموم والـخصوص, وموافقة قولهم فـي ذلك قولنا, ومذهبهم مذهبنا, وتـخطئتهم قول القائلـين بـالـخصوص فـي الأحكام, وشهادتهم علـى فساد قول من قال: حكم الآية الـجائية مـجيء العموم علـى العموم ما لـم يختصّ منها بعض ما عمته الآية, فإن خصّ منها بعض, فحكم الآية حينئذٍ علـى الـخصوص فـيـما خصّ منها, وسائر ذلك علـى العموم. وذلك أن جميع من ذكرنا قوله آنفـا مـمن عاب علـى بنـي إسرائيـل مسألتهم نبـيهم صلى الله عليه وسلم عن صفة البقرة التـي أمروا بذبحها وسنها وحلـيتها, رأوا أنهم كانوا فـي مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى ذلك مخطئين, ون خصّ منها بعض, فحكم الآية حينئذٍ علـى الـخصوص فـيـما خصّ منها, وسائر ذلك علـى العموم. وذلك أن جميع من ذكرنا قوله آنفـا مـمن عاب علـى بنـي إسرائيـل مسألتهم نبـيهم صلى الله عليه وسلم عن صفة البقرة التـي أمروا بذبحها وسنها وحلـيتها, رأوا أنهم كانوا فـي مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى ذلك مخطئين, ومع ذلك فأنهم إذا سألوا موسى عن سنها, فأخبرهم عنها وحصرهم منها علـى سنّ دون سنّ, ونوع دون نوع, وخصّ من جميع أنواع البقر نوعا منها, كانوا فـي مسألتهم إياه فـي الـمسألة الثانـية بعد الذي خصّ لهم من أنواع البقر من الـخطأ علـى مثل الذي كانوا علـيه من الـخطأ فـي

وقد زعم بعض من عظمت جهالته واشتدت حيرته, أن القوم إنـما سألوا موسى ما سألوا بعد أمر الله إياهم بذبح بقرة من البقر لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها خصت بذلك, كما خصت عصا موسى فـي معناها, فسألوه أن يحلـيها لهم لـيعرفوها. ولو كان الـجاهل تدبر قوله هذا, لسهل علـيه ما استصعب من القول وذلك أنه استعظم من القوم مسألتهم نبـيهم ما سألوه تشددا منهم فـي دينهم, ثم أضاف إلـيهم من الأمر ما هو أعظم مـما استنكره أن يكون كان منهم, فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض الله علـيهم فرضا ويتعبدهم بعبـادة, ثم لا يبـين لهم ما يفرض علـيهم ويتعبدهم به حتـى يسألوا بـيان ذلك لهم. فأضاف إلـى الله تعالـى ذكره ما لا يجوز إضافته إلـيه, ونسب القوم من الـجهل إلـى ما لا ينسب الـمجانـين

إلـيه, فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض علـيهم الفرائض. فتعوذ بـالله من الـحيرة, ونسأله التوفـيق والهداية.
وأما قوله: إِنّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَـيْنَا فإن البقر جماع بقرة. وقد قرأ بعضهم: «إن البـاقر», وذلك وإن كان فـي الكلام جائزا لـمـجيئه فـي كلام العرب وأشعارها, كما قال ميـمون بن قـيس:

وَما ذَنْبُهُ أنْ عافَتِ الـمَاءَ بـاقِرٌوَما إنْ يَعافُ الـمَاءَ إلاّ لِـيُضْرَبَـا

وكما قال أمية:

وَيَسُوقُونَ بـاقِرَ الطّودِ للسّهْلِ مَهازِيـلَ خَشْيَةً أنْ تَبُورَا

فغير جائزة القراءة به لـمخالفته القراءة الـجائية مـجيء الـحجة بنقل من لا يجوز علـيه فما نقلوه مـجمعين علـيه الـخطأ والسهو والكذب.
وأما تأويـل: تَشَابَهَ عَلَـيْنَا فإنه يعنـي به: التبس علـينا. والقراء مختلفة فـي تلاوته, فبعضهم كانوا يتلونه: تشابه علـينا, بتـخفـيف الشين ونصب الهاء علـى مثال تفـاعل, ويذكر الفعل وإن كان البقر جماعا, لأن من شأن العرب تذكير كل فعل جمع كانت وِحْدَانُه بـالهاء وجمعه بطرح الهاء, وتأنـيثه كما قال الله تعالـى فـي نظيره فـي التذكير: كأنّهُمْ أعْجَازُ نَـخْـلٍ مُنْقَعِرٍ فذكر الـمنقعر وهو من صفة النـخـل لتذكير لفظ النـخـل, وقال فـي موضع آخر: كأنّهم أعْجازُ نَـخْـلٍ خاوِيَةٍ فأنث الـخاوية وهي من صفة النـخـل بـمعنى النـخـل لأنها وإن كانت فـي لفظ الواحد الـمذكر علـى ما وصفنا قبل فهي جماع نـخـلة. وكان بعضهم يتلوه: «إنّ البَقَرَ تَشّابَهُ عَلَـيْنَا» بتشديد الشين وضم الهاء, فـيؤنث الفعل بـمعنى تأنـيث البقر, كما قال: أعْجازُ نَـخْـلٍ خاوِيَةٍ ويدخـل فـي أول تشابه تاء تدل علـى تأنـيثها, ثم تدغم التاء الثانـية فـي شين تشابه لتقارب مخرجها ومخرج الشين فتصير شينا مشددة وترفع الهاء بـالاستقبـال والسلام من الـجوازم والنواصب. وكان بعضهم يتلوه: «إنّ البَقَرَ يُشابَهُ عَلَـيْنَا» فـيخرج يشابه مخرج الـخبر عن الذكر لـما ذكرنا من العلة فـي قراءة من قرأ ذلك: تشابَهَ بـالتـخفـيف, ونصب الهاء غير أنه كان يرفعه بـالـياء التـي يحدثها فـي أول تشابه التـي تأتـي بـمعنى الاستقبـال, وتدغم التاء فـي الشين كما فعله القارىء فـي تشابه بـالتاء والتشديد.
والصواب فـي ذلك من القراءة عندنا: إِنّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَـيْنَا بتـخفـيف شين تشابه ونصب هائه, بـمعنى تفـاعل, لإجماع الـحجة من القراء علـى تصويب ذلك ورفعهم ما سواه من القراءات, ولا يعترض علـى الـحجة بقول من يجوز علـيه فـيـما نقل السهو والغفلة والـخطأ.
وأما قوله: وَإِنّا إنْ شاءَ اللّهُ لَـمُهْتَدُونَ فإنهم عنوا: وإنا إن شاء الله لـمبـين لنا ما التبس علـينا وتشابه من أمر البقرة التـي أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم فـي هذا الـموضع معنى تبـينهم أيّ ذلك الذي لزمهم ذبحه مـما سواه من أجناس البقر.

الآية : 71

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{قَالَ إِنّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ لاّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلّمَةٌ لاّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الاَنَ جِئْتَ بِالْحَقّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ }
وتأويـل ذلك, قال موسى: إن الله يقول: إن البقرة التـي أمرتكم بذبحها بقرة لا ذلول. ويعنـي بقوله: لا ذَلُولٌ: أي لـم يذللها العمل. فمعنى الآية: أنها

بقرة لـم تذللها إثارة الأرض بأظلافها, ولا سُنِـيَ علـيها الـماء فـيسقـى علـيها الزرع, كما يقال للدابة التـي قد ذللها الركوب أو العمل: دابة ذلول بـينة الذّل, بكسر الذال, ويقال فـي مثله من بنـي آدم: رجل ذلـيـل بـين الذلّ والذلة.

913ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: إنّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ يقول: صعبة لـم يذلها عمل, تُثِـيرُ الأرْضَ وَلاَ تَسْقِـي الـحَرْثَ.

914ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: إِنّها بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِـيرُ الأرْضَ يقول: بقرة لـيست بذلول يزرع علـيها, ولـيست تسقـي الـحرث.

915ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: إِنّها بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ أي لـم يذللها العمل, تُثِـيرُ الأرْضَ يعنـي لـيست بذلول فتثـير الأرض, وَلا تَسْقِـي الـحَرْثَ يقول: ولا تعمل فـي الـحرث.

916ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: إِنّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ يقول: لـم يذلها العمل, تُثِـيرُ الأرْضَ يقول: تثـير الأرض بأظلافها, وَلا تَسْقِـي الـحَرْثَ يقول: لا تعمل فـي الـحرث.

917ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال: الأعرج: قال مـجاهد: قوله: لا ذَلُولٌ تُثِـيرُ الأرْضَ وَلا تَسْقِـي الـحَرْثَ يقول: لـيست بذلول فتفعل ذلك.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا أبو سفـيان, عن معمر, عن قتادة: لـيست بذلول تثـير الأرض ولا تسقـي الـحرث.

ويعنـي بقوله: تُثِـيرُ الأرْضَ: تقلب الأرض للـحرث, يقال منه: أثرت الأرض أثـيرها إثارة: إذا قلبتها للزرع. وإنـما وصفها جل ثناؤه بهذه الصفة لأنها كانت فـيـما قـيـل وحشية.

918ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا جويبر, عن كثـير بن زياد, عن الـحسن قال: كانت وحشية.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مُسَلّـمَةٌ.

ومعنى مُسَلّـمَةٌ مفعلة من السلامة, يقال منه: سلـمت تسلـم فهي مسلـمة.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي الـمعنى الذي سلـمت منه, فوصفها الله بـالسلامة منه. فقال مـجاهد بـما:

919ـ حدثنا به مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: مُسَلّـمَةٌ يقول: مسلـمة من الشية, ولاشِيَة فِـيها لا بـياض فـيها ولا سواد.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال مـجاهد: لاشِيَةَ فِـيها قال: مسلـمة من الشية لاشِيَةَ فِـيها لا بـياض فـيها ولا سواد.

وقال آخرون: مسلـمة من العيوب. ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: مُسَلّـمَة لاشِيَة فِـيها أي مسلـمة من العيوب.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: مُسَلّـمَةٌ يقول: لا عيب فـيها.

920ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: مُسَلّـمَةٌ يعنـي مسلـمة من العيوب.

حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بـمثله.

921ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: قال ابن عبـاس قوله: مُسَلّـمَةٌ لا عَوَار فـيها.

والذي قاله ابن عبـاس وأبو العالـية ومن قال بـمثل قولهما فـي تأويـل ذلك أولـى بتأويـل الآية مـما قاله مـجاهد لأن سلامتها لو كانت من سائر أنواع الألوان سوى لون جلدها, لكان فـي قوله: مُسَلّـمَة مكتفًـى عن قوله: لاشِيَةَ فِـيها. وفـي قوله: لاشِيَةَ فِـيها ما يوضح عن أن معنى قوله: مُسَلّـمَة غير معنى قوله: لاشِيَةَ فِـيها. وإذ كان ذلك كذلك, فمعنى الكلام أنه يقول: إنها بقرة لـم تذللها إثارة الأرض وقلبها للـحراثة ولا السّنُوّ علـيها للـمزارع, وهي مع ذلك صحيحة مسلـمة من العيوب.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لاشِيَةَ فِـيها.

يعنـي بقوله: لاشِيَةَ فِـيها: لا لون فـيها يخالف لون جلدها. وأصله من وَشْي الثوب, وهو تـحسين عيوبه التـي تكون فـيه بضروب مختلفة من ألوان سَداه ولُـحمته, يقال منه: وشيت الثوب فأنا أشيه شية ووشيا. ومنه قـيـل للساعي بـالرجل إلـى السلطان أو غيره: واشٍ, لكذبه علـيه عنده وتـحسينه كذبه بـالأبـاطيـل, يقال منه: وشيت به إلـى السلطان وشاية, ومنه قول كعب بن زهير:

تَسْعَى الوُشَاةُ جَنابَـيْها وَقَوْلُهُمإنّكَ يا ابْنَ أبـي سُلْـمَى لَـمَقْتُولُ

والوشاة جمع واش: يعنـي أنهم يتقوّلون بـالأبـاطيـل, ويخبرونه أنه إن لـحق بـالنبـيّ صلى الله عليه وسلم قتله.

وقد زعم بعض أهل العربـية أن الوشي: العلامة. وذلك لا معنى له إلا أن يكون أراد بذلك تـحسين الثوب بـالأعلام, لأنه معلوم أن القائل: وشيت بفلان إلـى فلان غير جائز أن يتوهم علـيه أنه أراد: جعلت له عنده علامة. وإنـما قـيـل: لاشِيةَ فِـيها وهي من وشيت, لأن الواو لـما أسقطت من أولها أبدلت مكانها الهاء فـي آخرها, كما قـيـل: وزنته زنة, ووسيته سية, ووعدته عدة, ووديته دية. وبـمثل الذي قلنا فـي معنى قوله: لاشِيَةَ فِـيها قال أهل التأويـل.

922ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: لاشِيَةَ فِـيها أي لا بـياض فـيها.

حدثنا الـحسن, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, مثله.

923ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: لاشِيَةَ فِـيها يقول: لا بـياض فـيها.

924ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: لاشِيَةَ فِـيها أي لا بـياض فـيها ولا سواد.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

925ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن إدريس, عن أبـيه, عن عطية: لاشِيَةَ فِـيها قال: لونها واحد لـيس فـيها لون سوى لونها.
926ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: لاشِيَةَ فِـيها من بـياض ولا سواد ولا حمرة.
927ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لاشِيَةَ فِـيها هي صفراء لـيس فـيها بـياض ولا سواد.
928ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: لاشِيَةَ فِـيها يقول: لا بـياض فـيها.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قَالُوا الاَنَ جِئْتَ بِـالـحقّ.
اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: قَالُوا الاَنَ جِئْتَ بِـالـحَقّ فقال بعضهم: معنى ذلك: الاَن بـينت لنا الـحقّ فتبـيناه, وعرفنا أية بقرة عينت. ومـمن قال ذلك قتادة.
929ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: قَالُوا الاَنَ جِئْتَ بِـالـحَقّ أي الاَن بـينت لنا.
وقال بعضهم: ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن القوم أنهم نسبوا نبـيّ الله موسى صلوات الله علـيه إلـى أنه لـم يكن يأتـيهم بـالـحقّ فـي أمر البقرة قبل ذلك. ومـمن رُوي عنه هذا القول عبد الرحمن بن زيد.
930ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: اضطروا إلـى بقرة لا يعلـمون علـى صفتها غيرها, وهي صفراء لـيس فـيها سواد ولا بـياض, فقالوا: هذه بقرة فلان الاَنَ جِئْتَ بـالـحَقّ وقبل ذلك والله قد جاءهم بـالـحق.
وأولـى التأويـلـين عندنا بقوله: قالُوا الاَنَ جِئْتَ بـالـحَقّ قول قتادة وهو أن تأويـله: الاَن بـينت لنا الـحق فـي أمر البقرة, فعرفنا أنها الواجب علـينا ذبحها منها لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها بعد قـيـلهم هذا مع غلظ مؤنة ذبحها علـيهم وثقل أمرها, فقال: فَذَبَحُوها وما كادُوا يَفْعَلُونَ وإن كانوا قد قالوا بقولهم: الاَن بـينت لنا الـحق, هراء من القول, وأتوا خطأ وجهلاً من الأمر. وذلك أن نبـي الله موسى صلى الله عليه وسلم كان مبـينا لهم فـي كل مسألة سألوها إياه, وردّ رادّوه فـي أمر البقرة الـحق. وإنـما يقال: الاَن بـينت لنا الـحق لـمن لـم يكن مبـينا قبل ذلك, فأما من كان كل قـيـله فـيـما أبـان عن الله تعالـى ذكره حقا وبـيانا, فغير جائز أن يقال له فـي بعض ما أبـان عن الله فـي أمره ونهيه وأدّى عنه إلـى عبـاده من فرائضه التـي أوجبها علـيهم: الاَنَ جِئْتَ بِـالـحَقّ كأنه لـم يكن جاءهم بـالـحق قبل ذلك.
وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم, وكفروا بقولهم لـموسى: الاَنَ جِئْتَ بِـالـحَقّ ويزعم أنهم نفوا أن يكون موسى أتاهم بـالـحق فـي أمر البقرة قبل ذلك, وأن ذلك من فعلهم وقـيـلهم كفر. ولـيس الذي قال من ذلك عندنا كما قال لأنهم أذعنوا بـالطاعة بذبحها, وإن كان قـيـلهم الذي قالوه لـموسى جهلة منهم وهفوة من هفواتهم.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.
يعنـي بقوله: فَذَبَحُوها فذبح قوم موسى البقرة التـي وصفها الله لهم وأمرهم بذبحها. ويعنـي بقوله: وَما كادُوا يَفْعَلُونَ أي قاربوا أن يدعوا ذبحها, ويتركوا فرض الله علـيهم فـي ذلك.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي السبب الذي من أجله كادوا أن يضيعوا فرض الله علـيهم فـي ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك. فقال بعضهم: ذلك السبب كان غلاء ثمن البقرة التـي أمروا بذبحها وبـينت لهم صفتها. ذكر من قال ذلك:

931ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا أبو معشر الـمدنـي, عن مـحمد بن كعب القرظي فـي قوله: فَذَبحُوهَا ومَا كادُوا يَفْعَلُونَ قال: لغلاء ثمنها.

حدثنا مـحمد بن عبد الله بن عبـيد الهلالـي, قال: حدثنا عبد العزيز بن الـخطاب, قال: حدثنا أبو معشر, عن مـحمد بن كعب القرظي: فَذَبحُوهَا وَما كادُوا يَفْعَلُونَ قال: من كثرة قـيـمتها.

932ـ حدثنا القاسم, قال: أخبرنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد وحجاج, عن أبـي معشر, عن مـحمد بن كعب القرظي, ومـحمد بن قـيس فـي حديث فـيه طول, ذكر أن حديث بعضهم دخـل فـي حديث بعض, قوله: فَذَبحُوهَا وَما كَادُوا يَفْعَلُونَ لكثرة الثمن, أخذوها بـملء مَسْكها ذهبـا من مال الـمقتول, فكان سواء لـم يكن فـيه فضل فذبحوها.

933ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: فَذَبحُوهَا وَما كَادُوا يَفْعَلُونَ يقول: كادوا لا يفعلون. ولـم يكن الذي أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها, وكل شيء فـي القرآن «كاد» أو «كادوا» أو «لو» فإنه لا يكون, وهو مثل قوله: أكادُ أُخْفِـيها.

وقال آخرون: لـم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن أطلع الله علـى قاتل القتـيـل الذي اختصموا فـيه إلـى موسى.

والصواب من التأويـل عندنا, أن القوم لـم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للـخـلّتـين كلتـيهما إحداهما غلاء ثمنها مع ذكر ما لنا من صغر خطرها وقلة قـيـمتها. والأخرى خوف عظيـم الفضيحة علـى أنفسهم بإظهار الله نبـيه موسى صلوات الله علـيه وأتبـاعه علـى قاتله.

فأما غلاء ثمنها فإنه قد روى لنا فـيه ضروب من الروايات.

934ـ فحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: اشتروها بوزنها عشر مرّات ذهبـا, فبـاعهم صاحبها إياها وأخذ ثمنها.

935ـ حدثنا مـحمد بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا الـمعتـمر بن سلـيـمان, قال: سمعت أيوب, عن مـحمد بن سيرين, عن عبـيدة قال: اشتروها بـملء جلدها دنانـير.

936ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: كانت البقرة لرجل يبرّ أمه, فرزقه الله أن جعل تلك البقرة له, فبـاعها بـملء جلدها ذهبـا.

937ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, قال: حدثنـي خالد بن يزيد, عن مـجاهد, قال: أعطوا صاحبها ملء مسكها ذهبـا فبـاعها منهم.

938ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا إسماعيـل, عن عبد الكريـم, قال: حدثنـي عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبـا يقول: اشتروها

منه علـى أن يـملئوا له جلدها دنانـير, ثم ذبحوها فعمدوا إلـى جلد البقرة فملئوه دنانـير, ثم دفعوها إلـيه.
939ـ حدثنـي مـحمد بن سعيد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي يحيى, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس, قال: وجدوها عند رجل يزعم أنه لـيس بـائعها بـمال أبدا, فلـم يزالوا به حتـى جعلوا له أن يسلـخوا له مسكها فـيـملئوه له دنانـير, فرضي به فأعطاهم إياها.
940ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: لـم يجدوها إلا عند عجوز, وإنها سألتهم أضعاف ثمنها, فقال لهم موسى: أعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا, واشتروها فذبحوها.
941ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, قال: قال أيوب, عن ابن سيرين, عن عبـيدة, قال: لـم يجدوا هذه البقرة إلا عند رجل واحد, فبـاعها بوزنها ذهبـا, أو ملء مسكها ذهبـا, فذبحوها.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن هشام بن حسان, عن مـحمد بن سيرين, عن عبـيدة السلـمانـي, قال: وجدوا البقرة عند رجل, فقال: إنـي لا أبـيعها إلا بـملء جلدها ذهبـا, فـاشتروها بـملء جلدها ذهبـا.
942ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: جعلوا يزيدون صاحبها حتـى ملئوا له مسكها وهو جلدها ذهبـا.
وأما صغر خطرها وقلة قـيـمتها, فإن:
943ـ الـحسن بن يحيى حدثنا, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن عيـينة, قال: حدثنـي مـحمد بن سوقة, عن عكرمة, قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانـير.
وأما ما قلنا من خوفهم الفضيحة علـى أنفسهم, فإن وهب بن منبه كان يقول: إن القوم إذْ أمروا بذبح البقرة إنـما قالوا لـموسى: أتَتّـخِذُونا هُزُوا لعلـمهم بأنهم سيفتضحون إذا ذبحت فحادوا عن ذبحها.
944ـ حدثت بذلك عن إسماعيـل بن عبد الكريـم, عن عبد الصمد بن معقل, عن وهب بن منبه.
وكان ابن عبـاس يقول: إن القوم بعد أن أحيا الله الـميت فأخبرهم بقاتله, أنكرت قتلته قتله, فقالوا: والله ما قتلناه, بعد أن رأوا الآية والـحقّ.
945ـ حدثنـي بذلك مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي عن أبـيه, عن ابن عبـاس.

الآية : 72

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }
يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَإِذْ قَتَلْتُـمْ نَفْسا: واذكروا يا بنـي إسرائيـل إذ قتلتـم نفسا. والنفس التـي قتلوها هي النفس التـي ذكرنا قصتها فـي تأويـل قوله: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً. وقوله: فـادّارأتُـمْ فِـيها يعنـي فـاختلفتـم وتنازعتـم, وإنـما هو «فتدارأتـم فـيها» علـى مثال تفـاعلتـم من الدرء, والدرء: العوج, ومنه قول أبـي الـنجم العجلـي:
خَشْيَةَ طغامٍ إذَا هَمّ جسَرْيأكُلُ ذَا الدّرْءِ وَيُقْصِي منْ حَقَرْ

يعنـي ذا العوج والعُسْر. ومنه قول رؤبة بن العجاج:
أدْرَكْتُها قُدّام كلّ مِدْرَهِبـالدّفْعِ عَنّـي دَرْءَ كلّ عُنْـجُهِ
ومنه الـخبر الذي:
946ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا مصعب بن الـمقدام, عن إسرائيـل, عن إبراهيـم بن الـمهاجر, عن مـجاهد, عن السائب, قال: جاءنـي عثمان وزهير ابنا أمية, فـاستأذنا لـي علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أعْلَـمُ بِهِ مِنْكُمَا, ألَـمْ تَكُنْ شَرِيكي فـي الـجاهِلِـيّةِ؟» قلت: نعم بأبـي أنت وأمي, فنعم الشريك كنت لا تـماري ولا تداري يعنـي بقوله: لا تداري: لا تـخالف رفـيقك وشريكك ولا تنازعه ولا تشارّه. وإنـما أصل فـادّارأتُـمْ فتدارأتـم, ولكن التاء قريبة من مخرج الدال, وذلك أن مخرج التاء من طرف اللسان وأصول الشفتـين, ومخرج الدال من طرف اللسان وأطراف الثنـيتـين, فأدغمت التاء فـي الدال فجعلت دالاً مشددة, كما قال الشاعر:
تُولـي الضّجيعَ إذَا ما اسْتافَها خَصِراعَذْبَ الـمذَاقِ إذَا ما اتّابَعَ القُبَلُ
يريد إذا ما تتابع القبل, فأدغم إحدى التاءين فـي الأخرى. فلـما أدغمت التاء فـي الدال فجعلت دالاً مثلها سكنت, فجلبوا ألفـا لـيصلوا إلـى الكلام بها, وذلك إذا كان قبله شيء لأن الإدغام لا يكون إلا وقبله شيء, ومنه قول الله جل ثناؤه: حَتّـى إذَا ادّارَكُوا فِـيهَا جَمِيعا إنـما هو تداركوا, ولكن التاء منها أدغمت فـي الدال فصارت دالاً مشددة, وجعلت فـيها ألف إذا وصلت بكلام قبلها لـيسلـم الإدغام. وإذا لـم يكن قبل ذلك ما يواصله, وابتدىء به, قـيـل: تداركوا وتثاقلوا, فأظهروا الإدغام. وقد قـيـل: يقال: ادّاركوا وادّارأوا. وقد قـيـل إن معنى قوله: فـادّارأتُـمْ فِـيها فتدافعتـم فـيها, من قول القائل: درأت هذا الأمر عنـي, ومن قول الله: وَيَدْرَأُ اعَنْها العَذَابَ بـمعنى يدفع عنها العذاب. وهذا قول قريب الـمعنى من القول الأول لأن القوم إنـما تدافعوا قتل قتـيـل, فـانتفـى كل فريق منهم أن يكون قاتله, كما قد بـينا قبل فـيـما مضى من كتابنا هذا. وبنـحو الذي قلنا فـي معنى قوله: فـادّارأتُـمْ فِـيها قال أهل التأويـل.
947ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: فـادّارأتُـم فِـيها قال: اختلفتـم فـيها.
حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.
948ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: وَإذْ قَتَلْتُـمْ نَفْسا فَـادّارأتُـمْ فِـيها قال بعضهم: أنتـم قتلتـموه, وقال الاَخرون: أنتـم قتلتـموه.
949ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: فـادّارأتُـمْ فِـيها قال: اختلفتـم, وهو التنازع تنازعوا فـيه. قال: قال هؤلاء: أنتـم قتلتـموه, وقال هؤلاء: لا.
وكان تدارؤهم فـي النفس التـي قتلوها. كما:
950ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: صاحب البقرة رجل من بنـي إسرائيـل قتله

رجل فألقاه علـى بـاب ناس آخرين, فجاء أولـياء الـمقتول فـادعوا دمه عندهم فـانتفوا أو انتفلوا منه شك أبو عاصم.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بـمثله سواء, إلا أنه قال: فـادعوا دمه عندهم, فـانتفوا ولـم يشكّ منه.

951ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: قتـيـل كان فـي بنـي إسرائيـل فقذف كل سبط منهم حتـى تفـاقم بـينهم الشرّ حتـى ترافعوا فـي ذلك إلـى نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم, فأوحى إلـى موسى أن اذبح بقرة فـاضربه ببعضها. فذكر لنا أن ولـيه الذي كان يطلب بدمه هو الذي قتله من أجل ميراث كان بـينهم.

952ـ حدثنـي ابن سعد, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس فـي شأن البقرة: وذلك أن شيخا من بنـي إسرائيـل علـى عهد موسى كان مكثرا من الـمال, وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم, وكان الشيخ لا ولد له, وكان بنو أخيه ورثته, فقالوا: لـيت عمنا قد مات فورثنا ماله. وأنه لـما تطاول علـيهم أن لا يـموت عمهم أتاهم الشيطان, فقال: هل لكم إلـى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله, وتغرموا أهل الـمدينة التـي لستـم بها ديته؟ وذلك أنهما كانتا مدينتـين كانوا فـي إحداهما, فكان القتـيـل إذا قتل وطرح بـين الـمدينتـين, قـيس ما بـين القتـيـل وما بـين الـمدينتـين, فأيهما كانت أقرب إلـيه غرمت الدية. وإنهم لـما سوّل لهم الشيطان ذلك وتطاول علـيهم أن لا يـموت عمهم, عمدوا إلـيه فقتلوه, ثم عمدوا فطرحوه علـى بـاب الـمدينة التـي لـيسوا فـيها. فلـما أصبح أهل الـمدينة جاء بنو أخي الشيخ, فقالوا: عمنا قُتل علـى بـاب مدينتكم, فوالله لتغرمنّ لنا دية عمنا قال أهل الـمدينة: نقسم بـالله ما قتلنا ولا علـمنا قاتلاً ولا فتـحنا بـاب مدينتنا منذ أغلق حتـى أصبحنا وإنهم عمدوا إلـى موسى, فلـما أتوا قال بنو أخي الشيخ: عمنا وجدناه مقتولاً علـى بـاب مدينتهم, وقال أهل الـمدينة: نقسم بـالله ما قتلناه ولا فتـحنا بـاب الـمدينة من حين أغلقناه حتـى أصبحنا. وإن جبريـل جاء بأمر ربنا السميع العلـيـم إلـى موسى, فقال: قل لهم: إِنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً فتضربوه ببعضها.

953ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا حسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد, وحجاج عن أبـي معشر, عن مـحمد بن كعب القرظي, ومـحمد بن قـيس, دخـل حديث بعضهم فـي حديث بعض, قالوا: إن سبطا من بنـي إسرائيـل لـما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة فـاعتزلوا شرور الناس, فكانوا إذا أمسوا لـم يتركوا أحدا منهم خارجا إلا أدخـلوه, وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وتشرّف فإذا لـم ير شيئا فتـح الـمدينة فكانوا مع الناس حتـى يـمسوا. وكان رجل من بنـي إسرائيـل له مال كثـير, ولـم يكن له وارث غير ابن أخيه, فطال علـيه حياته, فقتله لـيرثه. ثم حمله فوضعه علـى بـاب الـمدينة. ثم كمن فـي مكان هو وأصحابه, قال: فتشرّف رئيس الـمدينة علـى بـاب الـمدينة فنظر فلـم ير شيئا, ففتـح البـاب, فلـما رأى القتـيـل ردّ البـاب فناداه ابن أخي الـمقتول وأصحابه: هيهات قتلتـموه ثم تردّون البـاب وكان موسى لـما رأى القتل كثـيرا فـي أصحابه بنـي إسرائيـل كان إذا رأى القتـيـل بـين ظهري القوم آخذهم, فكاد يكون بـين أخي الـمقتول وبـين أهل الـمدينة قتال حتـى لبس الفريقان السلاح, ثم كفّ

بعضهم عن بعض, فأتوا موسى فذكروا له شأنهم فقالوا: يا رسول الله إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردوا الباب, وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى ذكره إليه أن يذبحوا بقرة, فقال لهم موسى: إِنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.

954ـ حدثني المثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن هشام بن حسان, عن محمد بن سيرين, عن عبيدة, قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم وله مال كثير, فقتله ابن أخ له فجرّه فألقاه على باب ناس آخرين. ثم أصبحوا فادعاه عليهم حتى تسلّح هؤلاء وهؤلاء, فأرادوا أن يقتتلوا, فقال ذوو النهي منهم: أتقتتلون وفيكم نبيّ الله فأمسكوا حتى أتوا موسى, فقصوا عليه القصة, فأمرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها, فقالوا: أتَتّخِذُنا هُزُوا قال أعُوذُ باللّهِ أنْ أكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ.

955ـ حدثني يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: قتيل من بني إسرائيل طرح في سبط من الأسباط, فأتى أهل ذلك السبط إلى ذلك السبط, فقالوا: أنتم والله قتلتم صاحبنا, فقالوا: لا والله. فأتوا إلى موسى فقالوا: هذا قتيلنا بين أظهرهم, وهم والله قتلوه, فقالوا: لا والله يا نبي الله طرح علينا. فقال لهم موسى صلى الله عليه وسلم: إِنّ اللّهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.

قال أبو جعفر: فكان اختلافهم وتنازعهم وخصامهم بينهم في أمر القتيل الذي ذكرنا أمره على ما روينا من علمائنا من أهل التأويل هو الدرء الذي قال الله جل ثناؤه لذرّيتهم وبقايا أولادهم: فادّارأتُمْ فِيها وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

القول في تأويل قوله تعالى: وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

ويعني بقوله: وَاللّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ والله معلن ما كنتم تسرّونه من قتل القتيل الذي قتلتم ثم ادارأتم فيه. ومعنى الإخراج في هذا الموضع: الإظهار والإعلان لمن خفي ذلك عنه وإطلاعهم عليه, كما قال الله تعالى ذكره: ألاّ يَسْجُدوا لِلّهِ الّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السّمَوَاتِ وَالأرْضِ يعني بذلك: يظهره ويطلعه من مخبئه بعد خفائه. والذي كانوا يكتمونه فأخرجه هو قتل القاتل القتيل, كما كتم ذلك القاتل ومن علمه ممن شايعه على ذلك حتى أظهره الله وأخرجه, فأعلن أمره لمن لا يعلم أمره. وعني جلّ ثناؤه بقوله: تَكْتُمُونَ تسرّون وتغيبون. كما:

956ـ حدثنا محمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبي نجيح, عن مجاهد في قول الله: وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ قال: تغيبون.

957ـ حدثني المثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبي نجيح, عن مجاهد: ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ما كنتم تغيبون.

الآية : 73

القول في تأويل قوله تعالى:

{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَىَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ}

يعنـي جل ذكره بقوله: فَقُلْنا لقوم موسى الذين ادّارؤا فـي القتـيـل الذي قد تقدم وصفنا أمره: اضربوا القتـيـل. والهاء التـي فـي قوله: اضْرِبُوهُ من ذكر القتـيـل ببعضها أي ببعض البقرة التـي أمرهم الله بذبحها فذبحوها.

ثم اختلف العلـماء فـي البعض الذي ضرب به القتـيـل من البقرة وأيّ عضو كان ذلك منها, فقال بعضهم: ضرب بفخذ البقرة القتـيـل. ذكر من قال ذلك:

958ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: ضرب بفخذ البقرة, فقام حيا, فقال: قتلنـي فلان ثم عاد فـي ميتته.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: ضرب بفخذ البقرة, ثم ذكر مثله.

959ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا جرير بن نوح, عن النضر بن عربـي, عن عكرمة: فقلنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها قال: بفخذها فلـما ضرب بها عاش وقال: قتلنـي فلان ثم عاد إلـى حاله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن خالد بن يزيد, عن مـجاهد, قال: ضرب بفخذها الرجل فقام حيا, فقال: قتلنـي فلان, ثم عاد فـي ميتته.

960ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الزراق, قال: أخبرنا معمر, قال: قال أيوب عن ابن سيرين, عن عبـيدة, ضربوا الـمقتول ببعض لـحمها. وقال معمر عن قتادة: ضربوه بلـحم الفخذ فعاش, فقال: قتلنـي فلان.

961ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: ذكر لنا أنهم ضربوه بفخذها فأحياه الله, فأنبأ بقاتله الذي قتله وتكلـم, ثم مات.

وقال آخرون: الذي ضرب به منها هو البَضْعة التـي بـين الكتفـين. ذكر من قال ذلك:

962ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها فضربوه بـالبضعة التـي بـين الكتفـين فعاش, فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي.

وقال آخرون: الذي أمروا أن يضربوه به منها عظم من عظامها. ذكر من قال ذلك:

963ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: أمرهم موسى أن يأخذوا عظما منها فـيضربوا به القتـيـل ففعلوا, فرجع إلـيه روحه, فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان. فأخذ قاتله وهو الذي أتـى موسى فشكا إلـيه فقتله الله علـى أسوإ عمله.

وقال آخرون بـما:

964ـ حدثنـي به يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: ضربوا الـميت ببعض آرابها, فإذا هو قاعد, قالوا: من قتلك؟ قال: ابن أخي. قال: وكان قتله وطرحه علـى ذلك السبط, أراد أن يأخذ ديته.

والصواب من القول فـي تأويـل قوله عندنا: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتـيـل ببعض البقرة لـيحيا الـمضروب. ولا دلالة فـي الآية ولا خبر تقوم به حجة علـى أيّ أبعاضها التـي أمر القوم أن يضربوا القتـيـل به. وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ, وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضرّ

الـجهل بأيّ ذلك ضربوا القتـيـل, ولا ينفع العلـم به مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتـيـل ببعض البقرة بعد ذبحها, فأحياه الله.

فإن قال قائل: وما كان معنى الأمر بضرب القتـيـل ببعضها؟ قـيـل: لـيحيا فـينبىء نبـي الله موسى صلى الله عليه وسلم والذين ادّارءوا فـيه من قاتله.

فإن قال قائل: وأين الـخبر عن أن الله جل ثناؤه أمرهم بذلك لذلك؟ قـيـل: ترك ذلك اكتفـاءً بدلالة ما ذكر من الكلام الدال علـيه نـحو الذي ذكرنا من نظائر ذلك فـيـما مضى. ومعنى الكلام: فقلنا: اضربوه ببعضها لـيحيا, فضربوه فحيـي كما قال جل ثناؤه: أنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَـانْفَلَقَ والـمعنى: فضرب فـانفلق. يدل علـى ذلك قوله: كَذَلِكَ يُحْيِـي اللّهُ الـمَوْتَـى ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: كَذَلِكَ يُحْيِـي اللّهُ الـمَوْتَـى.

وقوله: كَذَلِكَ يُحْيِـي اللّهُ الـمَوْتَـى مخاطبة من الله عبـاده الـمؤمنـين, واحتـجاج منه علـى الـمشركين الـمكذّبـين بـالبعث, وأمرهم بـالاعتبـار بـما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتـيـل بنـي إسرائيـل بعد مـماته فـي الدنـيا, فقال لهم تعالـى ذكره: أيها الـمكذّبون بـالبعث بعد الـمـمات, اعتبروا بإحيائي هذا القتـيـل بعد مـماته, فإنـي كما أحيـيته فـي الدنـيا فكذلك أحيـي الـموتـى بعد مـماتهم, فأبعثهم يوم البعث, فإنـما احتـجّ جل ذكره بذلك علـى مشركي العرب وهم قوم أمّيون لا كتاب لهم, لأن الذين كانوا يعلـمون علـم ذلك من بنـي إسرائيـل كانوا بـين أظهرهم وفـيهم نزلت هذه الآيَات, فأخبرهم جل ذكره بذلك لـيتعرّفوا علـم من قبلهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ.

يعنـي جل ذكره: ويريكم الله أيها الكافرون الـمكذّبون بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به من عند الله من آياته وآياته: أعلامه وحججه الدالة علـى نبوّته لتعقلوا وتفهموا أنه مـحقّ صادق فتؤمنوا به وتتبعوه.

الآية : 74

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{ثُمّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدّ قَسْوَةً وَإِنّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ الأنْهَارُ وَإِنّ مِنْهَا لَمَا يَشّقّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ }

يعنـي بذلك كفـار بنـي إسرائيـل, وهم فـيـما ذكر بنو أخي الـمقتول, فقال لهم: ثم قست قلوبكم: أي جفت وغلظت وعست, كما قال الراجز:

وَقَدْ قَسَوْتُ وَقَسَا لِدَاتـي

يقال: قسا وعسا وعتا بـمعنى واحد, وذلك إذا جفـا وغلظ وصلب, يقال منه: قسا قلبه يقسو قَسْوا وقسوةً وقساوة وقَسَاءً.

ويعنـي بقوله: مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ من بعد أن أحيا الـمقتول لهم الذي ادّارءوا فـي قتله. فأخبرهم بقاتله وما السبب الذي من أجله قتله كما قد وصفنا قبل علـى ما جاءت الآثار والأخبـار وفصل الله تعالـى ذكره بخبره بـين الـمـحقّ منهم والـمبطل. وكانت قساوة قلوبهم التـي وصفهم الله بها أنهم فـيـما بلغنا أنكروا أن يكونوا هم قتلوا القتـيـل الذي أحياه الله, فأخبر بنـي إسرائيـل بأنهم كانوا قتلته بعد إخبـاره إياهم بذلك, وبعد ميتته الثانـية. كما:

965ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس, قال: لـما ضرب الـمقتول ببعضها يعنـي ببعض البقرة جلس حيا, فقـيـل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلونـي. ثم قُبض, فقال بنو أخيه حين قُبض: والله ما قتلناه. فكذّبوا بـالـحق بعد إذ رأوه, فقال الله: ثُمّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذِلكَ يعنـي بنـي أخي الشيخ, فَهِيَ كالـحجارَة أوْ أشَدّ قَسْوَةً.

966ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة: ثُمّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يقول: من بعد ما أراهم الله من إحياء الـموتـى, وبعد ما أراهم من أمر القتـيـل ما أراهم, فهي كالـحجارة أو أشدّ قسوة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَهِيَ كالـحِجارَةِ أوْ أشَدّ قَسْوَةً.

يعنـي بقوله: فَهِيَ قلوبكم. يقول: ثم صلبت قلوبكم بعد إذ رأيتـم الـحقّ فتبـينتـموه وعرفتـموه عن الـخضوع له والإذعان لواجب حق الله علـيكم, فقلوبكم كالـحجارة صلابة ويبسا وغلظا وشدّة, أو أشد صلابة يعنـي قلوبكم عن الإذعان لواجب حقّ الله علـيهم, والإقرار له بـاللازم من حقوقه لهم من الـحجارة.

فإن سأل سائل فقال: وما وجه قوله: فَهِيَ كالـحِجَارَةِ أوْ أشَدّ قَسْوَةً وأو عند أهل العربـية إنـما تأتـي فـي الكلام لـمعنى الشك, والله تعالـى جل ذكره غير جائز فـي خبره الشك؟ قـيـل: إن ذلك علـى غير الوجه الذي توهمته من أنه شك من الله جل ذكره فـيـما أخبر عنه, ولكنه خبر منه عن قلوبهم القاسية أنها عند عبـاده الذين هم أصحابها الذين كذّبوا بـالـحقّ بعد ما رأوا العظيـم من آيات الله كالـحجارة قسوة أو أشدّ من الـحجارة عندهم وعند من عرف شأنهم, وقد قال فـي ذلك جماعة من أهل العربـية أقوالاً:

فقال بعضهم: إنـما أراد الله جل ثناؤه بقوله: فَهِيَ كالـحِجارَةِ أوْ أشَدّ قَسْوَةً وما أشبه ذلك من الأخبـار التـي تأتـي ب«أو», كقوله: وأرْسَلْنَاهُ إلـى مائَةِ ألْفٍ أوْ يَزِيدُونَ وكقول الله جل ذكره: وَإِنّا أوْ إيّاكُمْ لَعَلـى هُدًى أوْ فِـي ضَلالٍ مُبِـينٍ فهو عالـم أيّ ذلك كان. قالوا: ونظير ذلك قول القائل: أكلت بسرة أو رطبة, وهو عالـم أيّ ذلك أكل ولكنه أبهم علـى الـمخاطب, كما قال أبو الأسود الدؤلـي:

أُحِبّ مُـحَمّدا حُبّـا شَدِيداوَعَبّـاسا وحَمْزَةَ وَالوَصِيّا

فَإنْ يَكُ حُبّهُمْ رَشَدا أُصِبْهوَلَسْتُ بِـمُخْطِىءٍ إنْ كانَ غَيّا

قالوا: ولا شك أن أبـا الأسود لـم يكن شاكّا فـي أن حب من سَمّى رشد, ولكنه أبهم علـى من خاطبه به. وقد ذكر عن أبـي الأسود أنه لـما قال هذه الأبـيات قـيـل له: شككت؟ فقال: كلا والله ثم انتزع بقول الله عزّ وجلّ وإنّا وإيّاكُمْ لَعَلـى هُدًى أوْ فِـي ضَلالٍ مُبِـينٍ فقال: أو كان شاكّا من أخبر بهذا فـي الهادي من الضلال من الضلال؟

وقال بعضهم: ذلك كقول القائل: ما أطعمتك إلا حلوا أو حامضا, وقد أطعمه النوعين جميعا. فقالوا: فقائل ذلك لـم يكن شاكّا أنه قد أطعم صاحبه الـحلو والـحامض كلـيهما, ولكنه أراد الـخبر عما أطعمه إياه أنه لـم يخرج عن هذين النوعين. قالوا: فكذلك قوله: فَهِيَ كالـحِجَارَةِ أوْ أشَدّ قَسْوَةً إنـما معناه: فقلوبهم لا تـخرج من أحد هذين الـمثلـين إما أن تكون مثلاً للـحجارة فـي القسوة, وإما أن تكون أشدّ منها قسوة. ومعنى ذلك علـى هذا التأويـل: فبعضها كالـحجارة قسوة, وبعضها أشدّ قسوة من الـحجارة.

وقال بعضهم: «أو» فـي قوله: أوْ أشَدّ قَسْوَةً بـمعنى: وأشدّ قسوة, كما قال تبـارك وتعالـى: وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثما أوْ كَفُورا بـمعنى: وكفورا. وكما قال جرير بن عطية:
نالَ الـخِلافَةَ أوْ كانَتْ لَهُ قَدَراكَما أتـى رَبّهُ مُوسَى عَلـى قَدَرِ
يعنـي نال الـخلافة وكانت له قدرا. وكما قال النابغة:
قالَتْ ألا لَـيْتَـما هَذَا الـحَمَامُ لَنالِإلـى حَمامَتِنا أوْ نِصْفُهُ فَقَدِ
يريد ونصفه.
وقال آخرون: «أو» فـي هذا الـموضع بـمعنى «بل», فكان تأويـله عندهم فهي كالـحجارة بل أشدّ قسوة, كما قال جل ثناؤه: وأرْسَلْناهُ إلـى مِائَةِ ألْفٍ أوْ يَزِيدُونَ بـمعنى: بل يزيدون.
وقال آخرون: معنى ذلك: فهي كالـحجارة أو أشدّ قسوة عندكم.
قال أبو جعفر: ولكل مـما قـيـل من هذه الأقوال التـي حكينا وجه ومخرج فـي كلام العرب, غير أن أعجب الأقوال إلـيّ فـي ذلك ما قلناه أوّلاً, ثم القول الذي ذكرناه عمن وجه ذلك إلـى أنه بـمعنى: فهي أوجه فـي القسوة من أن تكون كالـحجارة أو أشدّ, علـى تأويـل أن منها كالـحجارة, ومنها أشدّ قسوة لأن «أو» وإن استعملت فـي أماكن من أماكن الواو حتـى يـلتبس معناها ومعنى الواو لتقارب معنـيـيهما فـي بعض تلك الأماكن, فإن أصلها أن تأتـي بـمعنى أحد الاثنـين, فتوجيهها إلـى أصلها من وجد إلـى ذلك سبـيلاً أعجب إلـيّ من إخراجها عن أصلها ومعناها الـمعروف لها.
قال: وأما الرفع فـي قوله: أوْ أشَدّ قَسْوَةً فمن وجهين: أحدهما أن يكون عطفـا علـى معنى الكاف التـي فـي قوله: كالـحِجارَةِ لأن معناها الرفع, وذلك أن معناها معنى مثل: فهي مثل الـحجارة أو أشدّ قسوة من الـحجارة. والوجه الاَخر: أن يكون مرفوعا علـى معنى تكرير «هي» علـيه فـيكون تأويـل ذلك: فهي كالـحجارة أو هي أشدّ قسوة من الـحجارة.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإنّ مِنَ الـحِجَارَةِ لَـمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ الأنْهارُ.
يعنـي بقوله جل ذكره: وَإنّ مِنَ الـحِجَارَةِ لَـمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ الأنْهارُ وإن من الـحجارة حجارة يتفجر منها الـماء الذي تكون منه الأنهار, فـاستغنى بذكر الـماء عن ذكر الأنهار, وإنـما ذكّر فقال «منه» للفظ «ما». والتفجر: التفعل من فجر الـماء, وذلك إذا تنزّل خارجا من منبعه, وكل سائل شخص خارجا من موضعه ومكانه فقد انفجر ماء كان ذلك أو دما أو صديدا أو غير ذلك, ومنه قوله عمر بن لـجأ:
ولَـمّا أنْ قُرِنْتُ إلـى جَرِيرأبَى ذُو بَطْنِهِ إلاّ انْفِجارَا
يعنـي: إلا خروجا وسيلاناً.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإنّ مِنْهَا لَـمَا يَشَقّقُ فَـيَخْرُجُ مِنْهُ الـمَاءُ.
يعنـي بقوله جل ثناؤه وَإنّ مِنَ الـحِجَارةِ لـحجارة تشقق. وتشققها: تصدّعها. وإنـما هي: لِـمَا يتشقق, ولكن التاء أدغمت فـي الشين فصارت شينا مشددة. وقوله: فَـيَخْرُجُ مِنْهُ الـمَاءُ فـيكون عينا نابعة وأنهارا جارية.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإنّ مِنْها لَـمَا يَهبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ.
قال أبو جعفر: يعنـي بذلك جل ثناؤه: وإن من الـحجارة لـما يهبط: أي يتردّى من رأس الـجبل إلـى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته. وقد دللنا علـى معنى الهبوط فـيـما مضى بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع. وأدخـلت هذه اللامات اللواتـي فـي «ما» توكيدا للـخبر. وإنـما

وصف الله تعالـى ذكره الـحجارة بـما وصفها به من أن منها الـمتفجر منه الأنهار, وأن منها الـمتشقق بـالـماء, وأن منها الهابط من خشية الله بعد الذي جعل منها لقلوب الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بنـي إسرائيـل مثلاً, معذرة منه جل ثناؤه لها دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بنـي إسرائيـل إذ كانوا بـالصفة التـي وصفهم الله بها من التكذيب برسله والـجحود لآياته بعد الذي أراهم من الآيات والعبر وعاينوا من عجائب الأدلة والـحجج مع ما أعطاهم تعالـى ذكره من صحة العقول ومنّ به علـيهم من سلامة النفوس التـي لـم يعطها الـحجر والـمدر, ثم هو مع ذلك منه ما يتفجر بـالأنهار ومنه ما يتشقق بـالـماء ومنه ما يهبط من خشية الله, فأخبر تعالـى ذكره أن من الـحجارة ما هو ألـين من قلوبهم لـما يدعون إلـيه من الـحقّ. كما:

967ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق.

وبنـحو الذي قلنا فـي تأويـل ذلك قال أهل التأويـل ذكر من قال ذلك:

968ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله جل ثناؤه: ثُمّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذلكَ فَهِيَ كالـحِجارَةِ أوْ أشَدّ قَسْوَةً وَإنّ مِنَ الـحِجَارَةِ لَـمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ ألانْهَارُ وَإنّ مِنْهَا لَـمَا يَشّقّقُ فَـيَخْرُجُ مِنْهُ الـمَاءُ وَإنّ مِنْهَا لَـمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ قال: كل حجر يتفجر منه الـماء أو يتشقق عن ماء, أو يتردّى من رأس جبل, فهو من خشية الله عزّ وجل, نزل بذلك القرآن.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

969ـ حدثنـي بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: فَهِيَ كَالـحِجارَةِ أوْ أشَدّ قَسْوَةً ثم عذر الـحجارة ولـم يعذر شقـيّ ابن آدم, فقال: وَإنّ مِنَ الـحِجَارَةِ لَـمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ ألانْهَارُ وَإنّ مِنْهَا لَـمَا يَشقّقُ فَـيَخْرُجُ مِنْهُ الـمَاءُ وَإنّ مِنْهَا لَـمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة مثله.

970ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قال: ثم عذر الله الـحجارة فقال: وَإنّ مِنَ الـحِجَارَةِ لَـمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ الأنْهارُ وَإنّ مِنْهَا لَـمَا يَشَقّقُ فَـيَخْرُجُ مِنْهُ الـمَاءُ.

971ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج أنه قال: فـيها كل حجر انفجر منه ماء أو تشقق عن ماء أو تردّى من جبل, فمن خشية الله نزل به القرآن.

ثم اختلف أهل النـحو فـي معنى هبوط ما هبط من الـحجارة من خشية الله. فقال بعضهم: إن هبوط ما هبط منها من خشية الله: تفـيؤ ظلاله. وقال آخرون: ذلك الـجبل الذي صار دكا إذ تـجلّـى له ربه. وقال بعضهم: ذلك كان منه, ويكون بأن الله جل ذكره أعطى بعض الـحجارة الـمعرفة والفهم, فعقل طاعة الله فأطاعه كالذي رُوي عن الـجذع الذي كان يستند إلـيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فلـما تـحوّل عنه حنّ. وكالذي رُوي عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنّ حَجَرا كانَ يُسَلّـمُ عَلـيّ فِـي الـجاهِلِـيّة إنّـي لأَعْرِفُهُ الآنَ».

وقال آخرون: بل قوله: يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ كقوله: جِدَارا يُرِيدُ أنْ يَنْقَضّ ولا إرادة له, قالوا: وإنـما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله يرى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله, كما قال زيد الـخيـل:

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُلْقُ فِـي حَجَرَاتِهِتَرَى الأكْمَ فِـيها سُجّدا للْـحَوَافِرِ

وكما قال سويد بن أبـي كاهل يصف عدوّا له يريد أنه ذلـيـل:

ساجِدَ الـمَنْـخَرِ لا يَرْفَعُهُخاشِعَ الطّرْفِ أصَمّ الـمُسْتَـمَعْ

وكما قال جرير بن عطية:

لَـمّا أتـى خَبَرُ الرّسُولِ تَضَعْضَعَتْسُورُ الـمَدِينَةِ والـجِبـالُ الـخُشّعُ

وقال آخرون: معنى قوله: يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ أي يوجب الـخشية لغيره بدلالته علـى صانعه كما قـيـل: ناقة تاجرة: إذا كانت من نـجابتها وفراهتها تدعو الناس إلـى الرغبة فـيها, كما قال جرير بن عطية:

وأعْوَرُ مِنْ نَبْهانَ أمّا نَهارُهُفأعْمَى وأمّا لَـيْـلُهُ فَبَصِيرٌ

فجعل الصفة للـيـل والنهار, وهو يريد بذلك صاحبه النبهانـي الذي يهجوه, من أجل أنه فـيهما كان ما وصفه به.

وهذه الأقوال وإن كانت غير بعيدات الـمعنى مـما تـحتـمله الآية من التأويـل, فإن تأويـل أهل التأويـل من علـماء سلف الأمة بخلافها فلذلك لـم نستـجز صرف تأويـل الآية إلـى معنى منها. وقد دللنا فـيـما مضى علـى معنى الـخشية, وأنها الرهبة والـمخافة, فكرهنا إعادة ذلك فـي هذا الـموضع.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَما اللّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ.

يعنـي بقوله: وَما اللّهُ بغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ وما الله بغافل يا معشر الـمكذّبـين بآياته والـجاحدين نبوّة رسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم, والـمتقوّلـين علـيه الأبـاطيـل من بنـي إسرائيـل وأحبـار الـيهود, عما تعملون من أعمالكم الـخبـيثة وأفعالكم الرديئة ولكنه يحصيها علـيكم, فـيجازيكم بها فـي الآخرة أو يعاقبكم بها فـي الدنـيا. وأصل الغفلة عن الشيء: تركه علـى وجه السهو عنه والنسيان له, فأخبرهم تعالـى ذكره أنه غير غافل عن أفعالهم الـخبـيثة ولا ساه عنها, بل هو لها مـحص, ولها حافظ.

الآية : 75

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: أفَتَطْمَعُونَ يا أصحاب مـحمد, أي أفترجون يا معشر الـمؤمنـين بـمـحمد صلى الله عليه وسلم والـمصدّقـين ما جاءكم به من عند الله أن يؤمن لكم يهود بنـي إسرائيـل؟

ويعنـي بقوله: أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ أن يصدقوكم بـما جاءكم به نبـيكم صلى الله عليه وسلم مـحمد من عند ربكم. كما:

972ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, عن ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله أفَتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ يعنـي أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا لكم, يقول: أفتطمعون أن يؤمن لكم الـيهود؟.

973ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: أفَتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ الآية, قال: هم الـيهود.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.

قال أبو جعفر: أما الفريق فجمع كالطائفة لا واحد له من لفظه, وهو فعيـل من التفرّق سمي به الـجماع كما سميت الـجماعة بـالـحزب من التـحزّب وما أشبه ذلك, ومنه قول أعشى بنـي ثعلبة:

أجَدّوا فلَـمّا خِفْتُ أنْ يَتَفَرّقُوافَرِيقَـيْنِ مِنْهُمْ مُصْعِدٌ وَمُصَوّبُ

يعنـي بقوله: مِنْهُمْ من بنـي إسرائيـل. وإنـما جعل الله الذين كانوا علـى عهد موسى ومن بعدهم من بنـي إسرائيـل من الـيهود الذين قال الله لأصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم لأنهم كانوا آبـاؤهم وأسلافهم, فجعلهم منهم إذ كانوا عشائرهم وفرطهم وأسلافهم, كما يذكر الرجل الـيوم الرجل وقد مضى علـى منهاج الذاكر وطريقته وكان من قومه وعشيرته, فـيقول: كان منا فلان يعنـي أنه كان من أهل طريقته أو مذهبه أو من قومه وعشيرته فكذلك قوله: وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَـمُونَ.

اختلف أهل التأويـل فـي الذينَعنَى الله بقوله: وَقَدْ كان فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَـمُونَ. فقال بعضهم بـما:

974ـ حدثنـي به مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: أفَتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَـمُونَ فـالذين يحرّفونه والذين يكتـمونه: هم العلـماء منهم.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بنـحوه.

975ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أفَتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفونَهُ منْ بَعْدِ ما عَقَلُوه قال: هي التوراة حرّفوها.

976ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ قال: التوراة التـي أنزلها علـيهم يحرّفونها, يجعلون الـحلال فـيها حراما والـحرام فـيها حلالاً, والـحقّ فـيها بـاطلاً والبـاطل فـيها حقا, إذا جاءهم الـمـحقّ برشوة أخرجوا له كتاب الله, وإذا جاءهم الـمبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فـيه مـحقّ, وإن جاء أحد يسألهم شيئا لـيس فـيه حقّ ولا رشوة ولا شيء أمروه بـالـحقّ, فقال لهم: أتأمُرُونَ النّاسَ بـالبرّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُـمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُونَ. وقال آخرون فـي ذلك بـما:

977ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: أخبرنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَه مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَـمُونَ فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل النبوّة, ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلـمون.

978ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق فـي قوله: وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ الآية, قال: لـيس قوله: يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ يسمعون التوراة, كلهم قد سمعها ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم, فأخذتهم الصاعقة فـيها.

979ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, قال: بلغنـي عن بعض أهل العلـم أنهم قالوا لـموسى: يا موسى قد حِيـلَ بـيننا وبـين رؤية الله عز وجل, فأسمعنا كلامه حين يكلـمك فطلب ذلك موسى إلـى ربه, فقال: نعم, فمرهم فلـيتطهروا ولـيطهروا ثـيابهم ويصوموا ففعلوا, ثم خرج بهم حتـى أتـى الطور, فلـما غشيهم الغمام أمرهم موسى علـيه السلام, فوقعوا سجودا, وكلـمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم, حتـى عقلوا ما سمعوا, ثم انصرف بهم إلـى بنـي إسرائيـل, فلـما جاءوهم حرف فريق منهم ما أمرهم به, وقالوا حين قال موسى لبنـي إسرائيـل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا, قال ذلك الفريق الذي ذكرهم الله: إنـما قال كذا وكذا خلافـا لـما قال الله عز وجل لهم. فهم الذين عنى الله لرسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم.

وأولـى التأويـلـين اللذين ذكرت بـالآية وأشبههما بـما دل علـيه ظاهر التلاوة, ما قاله الربـيع بن أنس والذي حكاه ابن إسحاق عن بعض أهل العلـم, من أن الله تعالـى ذكره إنـما عنى بذلك من سمع كلامه من بنـي إسرائيـل سماع موسى إياه منه ثم حرّف ذلك وبدّل من بعد سماعه وعلـمه به وفهمه إياه. وذلك أن الله جل ثناؤه إنـما أخبر أن التـحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عزّ وجلّ استعظاما من الله لـما كانوا يأتون من البهتان بعد توكيد الـحجة علـيهم والبرهان, وإيذانا منه تعالـى ذكره عبـاده الـمؤمنـين وقطع أطماعهم من إيـمان بقايا نسلهم بـما أتاهم به مـحمد من الـحقّ والنور والهدى, فقال لهم: كيف تطمعون فـي تصديق هؤلاء الـيهود إياكم وإنـما تـخبرونهم بـالذي تـخبرونهم من الإنبـاء عن الله عزّ وجلّ عن غيب لـم يشاهدوه ولـم يعاينوه؟ وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه, وأمره ونهيه, ثم يبدّله ويحرّفه ويجحده, فهؤلاء الذين بـين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتـيتـموهم به من الـحقّ وهم لا يسمعونه من الله, وإنـما يسمعونه منكم وأقرب إلـى أن يحرّفوا ما فـي كتبهم من صفة نبـيكم مـحمد صلى الله عليه وسلم ونعته ويبدّلوه وهم به عالـمون فـيجحدوه ويكذّبوا من أوائلهم الذين بـاشروا كلام الله من الله جل ثناؤه ثم حرّفوه من بعد ما عقلوه وعلـموه متعمدين التـحريف. ولو كان تأويـل الآية علـى ما قاله الذين زعموا أنه عنى بقوله: يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ يسمعون التوراة, لـم يكن لذكر قوله: يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ معنى مفهوم لأن ذلك قد سمعه الـمـحرّف منهم وغير الـمـحرّف. فخصوص الـمـحرّف منهم بأنه كان يسمع كلام الله إن كان التأويـل علـى ما قاله الذين ذكرنا قولهم دون غيرهم مـمن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى له.

فإن ظن ظانّ إنـما صلـح أن يقال ذلك لقوله: يُحَرّفُونَهُ فقد أغفل وجه الصواب فـي ذلك. وذلك أن ذلك لو كان كذلك لقـيـل: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرّفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلـمون ولكنه جل ثناؤه أخبر عن خاص من الـيهود كانوا أعطوا من مبـاشرتهم سماع كلام الله تعالـى ما لـم يعطه أحد غير الأنبـياء والرسل, ثم بدلوا وحرّفوا ما سمعوا من ذلك, فلذلك وصفهم بـما وصفهم به للـخصوص الذي كان خصّ به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم فـي كتابه تعالـى ذكره.

ويعنـي بقوله: ثُمّ يُحَرّفُونَهُ ثم يبدلون معناه, وتأويـله: ويغيرونه. وأصله من انـحراف الشيء عن جهته, وهو ميـله عنها إلـى غيرها. فكذلك قوله:

يُحَرّفُونَهُ: أي يـميـلونه عن وجهه, ومعناه الذي هو معناه إلـى غيره. فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك علـى علـم منهم بتأويـل ما حرّفوا, وأنه بخلاف ما حرّفوه إلـيه, فقال: يُحَرّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ يعنـي من بعد ما عقلوا تأويـله وَهُمْ يَعْلَـمُونَ أي يعلـمون أنهم فـي تـحريفهم ما حرّفوا من ذلك مبطلون كاذبون. وذلك إخبـار من الله جل ثناؤه عن إقدامهم علـى البهت, ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى صلى الله عليه وسلم, وأن بقاياهم من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا علـى مثل الذي كان علـيه أوائلهم من ذلك فـي عصر موسى علـيه الصلاة والسلام.

الآية : 76

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذَا لَقُواْ الّذِينَ آمَنُواْ قَالُوَاْ آمَنّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُوَاْ أَتُحَدّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

أما قوله: وَإِذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا فإنه خبر من الله جل ذكره عن الذين أيأس أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم من إيـمانهم من يهود بنـي إسرائيـل الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلـمون, وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا بـالله ورسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا. يعنـي بذلك أنهم إذا لقوا الذين صدّقوا بـالله وبـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به من عند الله قالوا آمنا أي صدقنا بـمـحمد وبـما صدقتـم به وأقررنا بذلك. أخبر الله عز وجل أنهم تـخـلقوا بأخلاق الـمنافقـين وسلكوا منهاجهم. كما:

980ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي عن أبـيه, عن جده, عن ابن عبـاس قوله: وَإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلـى بَعْضٍ قالُوا أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـما فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ وذلك أن نفرا من الـيهود كانوا إذا لقوا مـحمدا صلى الله عليه وسلم قالوا: آمنا, وإذا خلا بعضهم إلـى بعض قالوا: أتـحدثونهم بـما فتـح الله علـيكم.

981ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا يعنـي الـمنافقـين من الـيهود كانوا إذا لقوا أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا.

وقد رُوي عن ابن عبـاس فـي تأويـل ذلك قول آخر, وهو ما:

982ـ حدثنا به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, عن مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا أي بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وسلم, ولكنه إلـيكم خاصة.

983ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا الآية, قال: هؤلاء ناس من الـيهود آمنوا ثم نافقوا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلـى بَعْضٍ قالُوا أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـما فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ لِـيُحَاجّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبّكُمْ.

يعنـي بقوله: وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلـى بَعْضٍ أي إذا خلا بعض هؤلاء الـيهود الذين وصف الله صفتهم إلـى بعض منهم فصاروا فـي خلاء من الناس غيرهم, وذلك هو الـموضع الذي لـيس فـيه غيرهم, قالوا يعنـي قال بعضهم لبعض: أتـحدثونهم بـما فتـح الله علـيكم؟.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ. فقال بعضهم بـما:

984ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلـى بَعْضٍ قالُوا أتُـحَدّثونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ يعنـي بـما أمركم الله به, فـيقول الاَخرون: إنـما نستهزىء بهم ونضحك.

وقال آخرون بـما:

985ـ حدثنا ابن حميد, عن ابن عبـاس: وَإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا أي بصاحبكم رسول الله, ولكنه إلـيكم خاصة, وإذا خلا بعضهم إلـى بعض قالوا: لا تـحدّثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتـم تستفتـحون به علـيهم, فكان منهم. فأنزل الله: وإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا, وَإذا خَلا بَعْضُهُمْ إلـى بَعْضٍ قالُوا أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ لِـيُحَاجّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبّكُمْ أي تقرّون بأنه نبـي, وقد علـمتـم أنه قد أخذ له الـميثاق علـيكم بـاتبـاعه, وهو يخبرهم أنه النبـي صلى الله عليه وسلم الذي كنا ننتظر ونـجده فـي كتابنا؟ اجحدوه ولا تقرّوا لهم به. يقول الله: أو لا يعلـمون أن الله يعلـم ما يسرّون وما يعلنون.

986ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: أتُـحَدّثونهُم بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ أي بـما أنزل الله علـيكم فـي كتابكم من نعت مـحمد صلى الله عليه وسلم.

987ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: قالُوا أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ أي بـما منّ الله علـيكم فـي كتابكم من نعت مـحمد صلى الله عليه وسلم, فإنكم إذا فعلتـم ذلك احتـجوا به علـيكم أفَلاَ تَعْقِلُونَ؟.

988ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ لـيحتـجوا به علـيكم.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, قال: قال قتادة: أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ يعنـي بـما أنزل الله علـيكم من أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم ونعته.

وقال آخرون فـي ذلك بـما:

989ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد: بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ لِـيُحاجّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبّكُمْ قال: قول يهود بنـي قريظة حين سبهم النبـي صلى الله عليه وسلم بأنهم إخوة القردة والـخنازير, قالوا: من حدثك؟ هذا حين أرسل إلـيهم علـيّا فآذوا مـحمدا, فقال: «يا إخوة القردة والـخنازير».

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله إلا أنه قال: هذا حين أرسل إلـيهم علـيّ بن أبـي طالب رضي الله عنه, وآذوا النبـي صلى الله عليه وسلم فقال: «اخْسَئُوا يا إِخْوَةَ القِرَدَة والـخَنَازِيرِ».

990ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنـي الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: أخبرنـي القاسم بن أبـي بزّة, عن مـجاهد فـي قوله: أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ قال: قام النبـي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة تـحت حصونهم, فقال: «يا إخْوَانَ القِرَدَةِ ويا إخْوَانَ الـخَنَازِيرِ وَيا عَبَدَةَ الطّاغُوتِ» فقالوا: من أخبر هذا مـحمدا؟ ما خرج هذا إلا منكم أتُـحَدّثُونهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ بـما حكم الله للفتـح لـيكون لهم حجة علـيكم قال ابن جريج, عن مـجاهد: هذا حين أرسل إلـيهم علـيّا فآذوا مـحمدا صلى الله عليه وسلم.

وقال آخرون بـما:

991ـ حدثنـي موسى: قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: قالوا أتُـحَدّثونهم بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ من العذاب لـيحاجوكم به عند ربكم؟ هؤلاء ناس من الـيهود آمنوا ثم نافقوا, فكانوا يحدّثون الـمؤمنـين من العرب بـما عذّبوا به, فقال بعضهم لبعض: أتـحدثونهم بـما فتـح الله علـيكم من العذاب لـيقولوا نـحن أحبّ إلـى الله منكم, وأكرم علـى الله منكم؟

وقال آخرون بـما:

992ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلـى بَعْضٍ قالُوا أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ لِـيُحَاجّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رِبّكُمْ قال: كانوا إذًا سئلوا عن الشيء قالوا: أما تعلـمون فـي التوراة كذا وكذا؟ قالوا: بلـى. قال: وهم يهود, فـيقول لهم رؤساؤهم الذين يرجعون إلـيهم: ما لكم تـخبرونهم بـالذي أنزل الله علـيكم فـيحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَدْخُـلَنّ عَلَـيْنَا قَصبَة الـمَدِينَةِ إلاّ مُؤْمِنٌ» فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفـاق: اذهبوا فقولوا آمنا, واكفروا إذا رجعتـم. قال: فكانوا يأتون الـمدينة بـالبكر ويرجعون إلـيهم بعد العصر. وقرأ قول الله: وقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بـالّذِي أُنْزِلَ علـى الّذِينَ آمَنُوا وجْه النّهارِ واكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُون. وكانوا يقولون إذا دخـلوا الـمدينة: نـحن مسلـمون, لـيعلـموا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره وإذا رجعوا, رجعوا إلـى الكفر. فلـما أخبر الله نبـيه صلى الله عليه وسلم بهم, قطع ذلك عنهم فلـم يكونوا يدخـلون. وكان الـمؤمنون الذين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يظنون أنهم مؤمنون, فـيقولون لهم: ألـيس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فـيقولون: بلـى. فإذا رجعوا إلـى قومهم قالُوا أتُـحَدّثُونهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ الآية.

وأصل الفتـح فـي كلام العرب: النصر والقضاء والـحكم, يقال منه: اللهم افتـح بـينـي وبـين فلان: أي احكم بـينـي وبـينه, ومنه قول الشاعر:

ألا أبْلِغْ بنِـي عُصَمٍ رَسُولاًبِأنـي عَنْ فُتاحَتِكُمْ غنِـيّ

قال: ويقال للقاضي: الفتاح, ومنه قول الله عز وجل: ربّنا افْتَـحْ بَـيْنَنَا وَبـينَ قَوْمِنَا بـالـحَقّ وأنْت خَيْرُ الفـاتِـحِينَ أي احكم بـيننا وبـينهم.

فإذا كان معنى الفتـح ما وصفنا, تبـين أن معنى قوله: قالُوا أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـح اللّهُ عَلَـيْكُمْ لِـيُحاجّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبّكُمْ إنـما هو أتـحدثونهم بـما حكم الله به علـيكم وقضاه فـيكم, ومن حكمه جل ثناؤه علـيهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيـمان بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به فـي التوراة, ومن قضائه فـيهم أن جعل منهم القردة والـخنازير, وغير ذلك من أحكامه

وقضائه فـيهم, وكل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللـمؤمنـين به حجة علـى الـمكذّبـين من الـيهود الـمقرّين بحكم التوراة وغير ذلك. فإن كان كذلك فـالذي هو أولـى عندي بتأويـل الآية قول من قال: معنى ذلك: أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ من بعث مـحمد صلى الله عليه وسلم إلـى خـلقه لأن الله جل ثناؤه إنـما قصّ فـي أول هذه الآية الـخبر عن قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه: آمنا بـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم فـالذي هو أولـى بآخرها أن يكون نظير الـخبر عما ابتدىء به أولها. وإذا كان ذلك كذلك, فـالواجب أن يكون تلاومهم كان فـيـما بـينهم فـيـما كانوا أظهروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه من قولهم لهم: آمنا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به, وكان قـيـلهم ذلك من أجل أنهم يجدون ذلك فـي كتبهم وكانوا يخبرون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك, فكان تلاومهم فـيـما بـينهم إذا خـلوا علـى ما كانوا يخبرونهم بـما هو حجة للـمسلـمين علـيهم عند ربهم. وذلك أنهم كانوا يخبرونهم عن وجود نعت مـحمد صلى الله عليه وسلم فـي كتبهم ويكفرون به, وكان فتـح الله الذي فتـحه للـمسلـمين علـى الـيهود وحكمه علـيهم لهم فـي كتابهم أن يؤمنوا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث, فلـما بعث كفروا به مع علـمهم بنبوّته.

وقوله: أفَلا تَعْقِلُونَ خبر من الله تعالـى ذكره عن الـيهود اللائمين إخوانهم علـى ما أخبروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بـما فتـح الله لهم علـيهم أنهم قالوا لهم: أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون أن إخبـاركم أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم بـما فـي كتبكم أنه نبـيّ مبعوث حجة لهم علـيكم عند ربكم يحتـجون بها علـيكم؟ أي فلا تفعلوا ذلك, ولا تقولوا لهم مثل ما قلتـم, ولا تـخبروهم بـمثل ما أخبرتـموهم به من ذلك. فقال جل ثناؤه: أوَ لا يَعْلَـمُونَ أنّ اللّهَ يَعْلَـمُ مَا يُسرّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

الآية : 77

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: أو لا يَعْلَـمُونَ أنّ اللّهَ يَعْلَـمُ مَا يُسِرّونَ ومَا يُعْلِنُونَ أو لا يعلـم هؤلاء اللائمون من الـيهود إخوانهم من أهل ملتهم, علـى كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا, وعلـى إخبـارهم الـمؤمنـين بـما فـي كتبهم من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم, ومبعثه, القائلون لهم: أتُـحَدّثُونَهُمْ بِـمَا فَتَـحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ لـيُحاجوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبّكُمْ أن الله عالـم بـما يسرّون فـيخفونه عن الـمؤمنـين فـي خلائهم من كفرهم وتلاومهم بـينهم علـى إظهارهم ما أظهروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللـمؤمنـين به من الإقرار بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وعلـى قـيـلهم لهم آمنا, ونهي بعضهم بعضا أن يخبروا الـمؤمنـين بـما فتـح الله للـمؤمنـين علـيهم, وقضى لهم علـيهم فـي كتبهم من حقـيقة نبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه, وما يعلنون فـيظهرونه لـمـحمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الـمؤمنـين به إذا لقوهم من قـيـلهم لهم: آمنا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـما جاء به نفـاقا وخداعا لله ولرسوله وللـمؤمنـين. كما:

993ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: أوَ لا يَعْلَـمُونَ أنّ اللّهَ يَعْلَـمُ ما يُسِرّونَ من كفرهم وتكذيبهم مـحمدا صلى الله

عليه وسلم إذا خلا بعضهم إلـى بعض, وما يُعْلِنُونَ إذا لقوا أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا لـيرضوهم بذلك.

994ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: أوَ لا يَعْلَـمُونَ أنّ اللّهَ يَعْلَـمُ مَا يُسِرّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ يعنـي ما أسرّوا من كفرهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به, وهم يجدونه مكتوبـا عندهم. وَما يُعْلِنُونَ يعنـي ما أعلنوا حين قالوا للـمؤمنـين آمنا.

الآية : 78

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاّ أَمَانِيّ وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنّونَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: ومِنْهُمْ أُمّيون ومن هؤلاء الـيهود الذين قصّ الله قصصهم فـي هذه الآيات, وأيأس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيـمانهم, فقال لهم: أفَتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كان فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وهم إذا لقوكم قالوا آمنا. كما:

995ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَمِنْهُمْ أُمّيُونَ يعنـي من الـيهود.

996ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

997ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ قال: أناس من يهود.

قال أبو جعفر: يعنـي بـالأميـين: الذين لا يكتبون ولا يقرءون, ومنه قول النبـي صلى الله عليه وسلم: «إنّا أُمّةٌ أُمّيّةٌ لا نَكْتُبُ وَلاَ نَـحْسُبُ» يقال منه رجل أميّ بـيّن الأمية. كما:

998ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي سويد بن نصر, قال: أخبرنا ابن الـمبـارك, عن سفـيان, عن منصور عن إبراهيـم: وَمِنْهُمْ أُمّيُونَ لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتَابَ قال: منهم من لا يحسن أن يكتب.

999ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: ومِنْهُمْ أُمّيّونَ قال: أميون لا يقرءون الكتاب من الـيهود.

ورُوي عن ابن عبـاس قول خلاف هذا القول, وهو ما:

1000ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ قال: الأميون قوم لـم يصدّقوا رسولاً أرسله الله, ولا كتابـا أنزله الله, فكتبوا كتابـا بأيديهم, ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم, ثم سماهم أميـين لـجحودهم كتب الله ورسله.

وهذا التأويـل تأويـل علـى خلاف ما يعرف من كلام العرب الـمستفـيض بـينهم, وذلك أن الأميّ عند العرب هو الذي لا يكتب.

قال أبو جعفر: وأرى أنه قـيـل للأمي أمي نسبة له بأنه لا يكتب إلـى أمه, لأن الكتاب كان فـي الرجال دون النساء, فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلـى أمه فـي جهله بـالكتابة دون أبـيه كما ذكرنا عن النبـي صلى الله عليه وسلم من قوله: «إنّا أُمّةٌ أُمّيّةٌ لا نَكْتُبُ وَلاَ نَـحْسُبُ» وكما قال: هُوَ الّذِي بَعَثَ فِـي الأُمّيّـينَ رَسُولاً مِنْهُمْ فإذا كان معنى الأمي فـي كلام العرب

ما وصفنا, فـالذي هو أولـى بتأويـل الآية ما قاله النـخعي من أن معنى قوله: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ: ومنهم من لا يحسن أن يكتب.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِـيّ.

يعنـي بقوله: لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتَابَ لا يعلـمون ما فـي الكتاب الذي أنزله الله ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه كهيئة البهائم, كالذي:

1001ـ حدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتابَ إِلاّ أمانِـيّ إنـما هم أمثال البهائم لا يعلـمون شيئا.

حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتاب يقول: لا يعلـمون الكتاب ولا يدرون ما فـيه.

1002ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ لا يَدْرُونَ ما فـيه.

1003ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتابَ قال: لا يدرون بـما فـيه.

1004ـ حدثنا بشر, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ لا يعلـمون شيئا, لا يقرءون التوراة لـيست تستظهر إنـما تقرأ هكذا, فإذا لـم يكتب أحدهم لـم يستطع أن يقرأ.

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ قال: لا يعرفون الكتاب الذي أنزله الله.

قال أبو جعفر: وإنـما عنى بـالكتاب: التوراة, ولذلك أدخـلت فـيه الألف واللام لأنه قصد به كتاب معروف بعينه. ومعناه: ومنهم فريق لا يكتبون ولا يدرون ما فـي الكتاب الذي عرفتـموه الذي هو عندهم وهم ينتـحلونه ويدعون الإقرار به من أحكام الله وفرائضه وما فـيه من حدوده التـي بـينها فـيه إلاّ أمانِـيّ فقال بعضهم بـما:

1005ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس إلا أمانـي يقول إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذبـا حدثنـي مـحمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم قال حدثنا عيسى عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد لا يعلـمون الكتاب إلا أمانـي إلا حدثنـي الـمثنـي قال حدثنا أبو حذيفز قال حدثنا شبل عن ابن أبـي نـجيح عن مـجاهد مثله وقال آخرون بـما حدثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد بن زريع قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة الأمانـي يقول يتـمنون علـى الدر البـاطل وما لـيس لهم حدثنـي الـمثنـي قال حدثنا أبو صالـح عن علـي بن أبـي طلـحة عن ابن عبـاس قوله لا يعلـمون الكتاب إلا أمانـي يقول إلا أحاديث.

1006ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِـيّ قال: أناس من يهود لـم يكونوا يعلـمون من الكتاب شيئا, وكانوا يتكلـمون بـالظنّ بغير ما فـي كتاب الله, ويقولون هو من الكتاب, أمانـيّ يتـمنونها.

1007ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: إلاّ أمانِـيّ يتـمنون علـى الله ما لـيس لهم.

1008ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: إلاّ أمانِـيّ قال: تـمنوا فقالوا: نـحن من أهل الكتاب. ولـيسوا منهم.

وأولـى ما روينا فـي تأويـل قوله: إلاّ أمانِـيّ بـالـحقّ وأشبهه بـالصواب, الذي قاله ابن عبـاس, الذي رواه عنه الضحاك, وقول مـجاهد: إن الأميـين الذين وصفهم الله بـما وصفهم به فـي هذه الآية أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله علـى موسى شيئا, ولكنهم يتـخرّصون الكذب ويتقوّلون الأبـاطيـل كذبـا وزورا. والتـمنـي فـي هذا الـموضع, هو تـخـلق الكذب وتـخرّصه وافتعاله, يقال منه: تـمنـيت كذا: إذا افتعلته وتـخرّصته. ومنه الـخبر الذي رُوي عن عثمان بن عفـان رضي الله عنه: «ما تغنّـيت ولا تـمنـيت». يعنـي بقوله ما تـمنـيت: ما تـخرّصت البـاطل ولا اختلقت الكذب والإفك.

والذي يدلّ علـى صحة ما قلنا فـي ذلك وأنه أولـى بتأويـل قوله: إلاّ أمانِـيّ من غيره من الأقوال, قول الله جل ثناؤه: وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّونَ فأخبر عنهم جل ثناؤه أنهم يتـمنون ما يتـمنون من الأكاذيب ظنّا منهم لا يقـينا. ولو كان معنى ذلك أنهم يتلونه لـم يكونوا ظانـين, وكذلك لو كان معناه: يشتهونه لأن الذي يتلوه إذا تدبره علـمه, ولا يستـحقّ الذي يتلو كتابـا قرأه وإن لـم يتدبره بتركه التدبـير أن يقال: هو ظانّ لـما يتلو إلا أن يكون شاكّا فـي نفس ما يتلوه لا يدري أحقّ هو أم بـاطل. ولـم يكن القوم الذين كانوا يتلون التوراة علـى عصر نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم من الـيهود فـيـما بلغنا شاكين فـي التوراة أنها من عند الله. وكذلك الـمتـمنـي الذي هو فـي معنى الـمتشهي غير جائز أن يقال: هو ظانّ فـي تـمنـيه, لأن التـمنـي من الـمتـمنـي إذا تـمنى ما قد وجد عينه, فغير جائز أن يقال: هو شاك فـيـما هو به عالـم لأن العلـم والشك معنـيان ينفـي كل واحد منهما صاحبه لا يجوز اجتـماعهما فـي حيز واحد, والـمتـمنـي فـي حال تـمنـيه موجود غير جائز أن يقال: هو يظنّ تـمنـيه. وإنـما قـيـل: لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِـيّ والأمانـي من غير نوع الكتاب, كما قال ربنا جل ثناؤه: ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْـمٍ إلاّ اتّبـاعَ الظّنّ والظنّ من العلـم بـمعزل, وكما قال: وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُـجْزَى إلاّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبّهِ ألاعْلَـى. وكما قال الشاعر:

لَـيْسَ بَـيْنِـي وَبَـينَ قَـيْسٍ عِتابُغيرَ طَعْنِ الكُلَـى وَضَرْبِ الرّقابِ

وكما قال نابغة بنـي ذبـيان:

حَلَفْتُ يَـمِينا غيرَ ذِي مَثْنَوِيّةٍوَلا عِلْـمَ إلاّ حُسْنَ ظَنّ بِغائِبِ

فـي نظائر لـما ذكرنا يطول بإحصائها الكتاب. ويخرج ب«إلاّ» ما بعدها من معنى ما قبلها, ومن صفته, وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الاَخر ومن غير نوعه, ويسمي ذلك بعض أهل العربـية استثناء منقطعا لانقطاع الكلام الذي يأتـي بعد إلا عن معنى ما قبلها. وإنـما يكون ذلك كذلك فـي كل موضع حسن أن يوضع فـيه مكان «إلا» «لكن», فـيعلـم حينئذ انقطاع معنى الثانـي عن معنى الأول, ألا ترى أنك إذا قلت: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ لاَ يَعْلَـمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِـيّ ثم أردت وضع «لكن» مكان «إلا» وحذف «إلا», وجدت الكلام صحيحا معناه صحته وفـيه «إلا»؟ وذلك إذا قلت: وَمِنْهُمْ أُمّيّونَ لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ لكن أمانـي, يعنـي لكنهم يتـمنون, وكذلك قوله: ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْـمٍ إلاّ اتّبـاعَ الظّنّ لكن اتبـاع الظنّ, بـمعنى: لكنهم يتبعون الظنّ, وكذلك جميع هذا النوع من الكلام علـى ما وصفنا.

وقد ذكر عن بعض القرّاء أنه قرأ: «إلاّ أمانِـيَ» مخففة, ومن خفف ذلك وجهه إلـى نـحو جمعهم الـمفتاح مفـاتـح, والقرقور قراقر, وأن ياء الـجمع لـما حذفت خففت الـياء الأصلـية, أعنـي من الأمانـي, كما جمعوا الأثفـية أثافـي مخففة, كما قال زهير بن أبـي سلـمى:

أثَافِـيَ سُفْعا فِـي مُعَرّسِ مِرَجَلٍونُؤْيا كجِذْمِ الـحَوْضِ لَـمْ يَتَثَلّـمِ

وأما من ثقل: أمانِـيّ فشدّد ياءها فإنه وجه ذلك إلـى نـحو جمعهم الـمفتاح مفـاتـيح, والقرقور قراقـير, والزنبور زنابـير, فـاجتـمعت ياء فعالـيـل ولامها وهما جميعا ياءان, فأدغمت إحداهما فـي الأخرى فصارتا ياء واحدة مشددة.

فأما القراءة التـي لا يجوز غيرها عندي لقارىء فـي ذلك فتشديد ياء الأمانـيّ, لإجماع القرّاء علـى أنها القراءة التـي مضى علـى القراءة بها السلف مستفـيض, ذلك بـينهم غير مدفوعة صحته, وشذوذ القارىء بتـخفـيفها عما علـيه الـحجة مـجمعة فـي ذلك وكفـى خطأ علـى قارىء ذلك بتـخفـيفها إجماعا علـى تـخطئته.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّونَ.

يعنـي بقوله جل ثناءه: وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّون «وما هم» كما قال جل ثناؤه: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَـحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يعنـي بذلك: ما نـحن إلا بشر مثلكم. ومعنى قوله: إلاّ يَظُنّونَ ألا يشكون ولا يعلـمون حقـيقته وصحته, والظنّ فـي هذا الـموضع الشك, فمعنى الآية: ومنهم من لا يكتب ولا يخطّ ولا يعلـم كتاب الله ولا يدري ما فـيه إلا تـخرّصا وتقوّلاً علـى الله البـاطل ظنا منه أنه مـحقّ فـي تـخرّصه وتقوّله البـاطل. وإنـما وصفهم الله تعالـى ذكره بأنهم فـي تـخرصهم علـى ظنّ أنهم مـحقون وهم مبطلون, لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبـارهم أمورا حسبوها من كتاب الله, ولـم تكن من كتاب الله, فوصفهم جل ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بـالذي يوقنون به أنه من عند الله مـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم, ويتبعون ما هم فـيه شاكون, وفـي حقـيقته مرتابون مـما أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبـارهم عنادا منهم لله ولرسوله, ومخالفة منهم لأمر الله واغترارا منهم بإمهال الله إياهم. وبنـحو ما قلنا فـي تأويـل قوله: وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّونَ قال فـيه الـمتأوّلون من السلف.

1009ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّونَ: إلا يكذبون.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد, مثله.

1010ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: لا يَعْلَـمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِـيّ وإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّونَ أي لا يعلـمون ولا يدرون ما فـيه, وهم يجحدون نبوّتك بـالظنّ.

1011ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنّونَ قال: يظنون الظنون بغير الـحقّ.

1012ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: يظنون الظنون بغير الـحقّ.

1013ـ حدثت عن عمارة, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

الآية : 79

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{فَوَيْلٌ لّلّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمّ يَقُولُونَ هَـَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لّهُمْ مّمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لّهُمْ مّمّا يَكْسِبُونَ }

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: فَوَيْـلٌ. فقال بعضهم بـما:

1014ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس فَوَيْـلٌ لَهُمْ يقول: فـالعذاب علـيهم.

وقال آخرون بـما:

1015ـ حدثنا به ابن بشار, قال: حدثنا ابن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, عن زياد بن فـياض, قال: سمعت أبـا عياض يقول: الويـل: ما يسيـل من صديد فـي أصل جهنـم.

حدثنا بشر بن أبـان الـحطاب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان, عن زياد بن فـياض, عن أبـي عياض فـي قوله: فَوَيْـلٌ قال: صهريج فـي أصل جهنـم يسيـل فـيه صديدهم.

حدثنا علـيّ بن سهل الرملـي, قال: حدثنا زيد بن أبـي الزرقاء, قال: حدثنا سفـيان بن زياد بن فـياض, عن أبـي عياض, قال: الويـل واد من صديد فـي جهنـم.

1016ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مهران عن شقـيق قال: وَيْـلٌ: ما يسيـل من صديد فـي أصل جهنـم.

وقال آخرون بـما:

1017ـ حدثنا به الـمثنى, قال: حدثنا إبراهيـم بن عبد السلام بن صالـح التستري, قال: حدثنا علـيّ بن جرير, عن حماد بن سلـمة بن عبد الـحميد بن جعفر, عن كنانة العدوي, عن عثمان بن عفـان, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: «الوَيْـلُ جَبَلٌ فِـي النّارِ».

1018ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنـي عمرو بن الـحارث, عن دراج, عن أبـي الهيثم, عن أبـي سعيد, عن النبـي صلى الله عليه وسلم قال: «وَيْـلٌ وَادٍ فـي جَهَنّـمَ يَهْوِي فـيهِ الكافِرُ أرْبَعِينَ خَرِيفـا قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ إلـى قَعْرِهِ».

قال أبو جعفر: فمعنى الآية علـى ما روي عمن ذكرت قوله فـي تأويـل وَيْـلٌ فـالعذاب الذي هو شرب صديد أهل جهنـم فـي أسفل الـجحيـم للـيهود الذين يكتبون البـاطل بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لِلّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِمْ ثُمّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ لِـيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنا قَلِـيلاً.

يعنـي بذلك: الذين حرّفوا كتاب الله من يهود بنـي إسرائيـل وكتبوا كتابـا علـى ما تأولوه من تأويلاتهم مخالفـا لـما أنزل الله علـى نبـيه موسى صلى الله عليه وسلم ثم بـاعوه من قوم لا علـم لهم بها ولا بـما فـي التوراة جهال بـما فـي كتب الله لطلب عرض من الدنـيا خسيس فقال الله لهم فويـل لهم مـما كتبت أيديهم وويـل لهم مـما يكسبون. كما حدثنـي موسى قال حدثنا عمرو قال حدثنا أسبـاط عن السدي فويـل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم

يقولون هذا من عند الله لـيشتروا به ثمنا قلـيلاً قال كان ناس من الـيهود كتبوا كتابـا من عندهم يبـيعون من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله لـيأخذوا به ثمنا قلـيلاً.

1019ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: الأميون قوم لـم يصدّقوا رسولاً أرسله الله, ولا كتابـا أنزله الله فكتبوا كتابـا بأيديهم ثم قالو لقوم سفلة جهال هذا من عند الله لـيشتروا به ثمنا قلـيلاً قال عرضا من عروض الدنـيا.

الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية قوله: فَوَيْـلٌ لِلّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِمْ ثُمّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ لِـيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنا قَلِـيلاً قال: عمدوا إلـى ما أنزل الله فـي كتابهم من نعت مـحمد صلى الله عليه وسلم, فحرّفوه عن مواضعه يبتغون بذلك عرضا من عرض الدنـيا, فقال: فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا يَكْسِبُونَ.

1020ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إبراهيـم بن عبد السلام, قال: حدثنا علـي بن جرير, عن حماد بن سلـمة, عن عبد الـحميد بن جعفر, عن كنانة العدوي, عن عثمان بن عفـان رضي الله عنه, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا يَكْسِبُونَ: «الويـل: جبل فـي النار». وهو الذي أنزل فـي الـيهود لأنهم حرّفوا التوراة, وزادوا فـيها ما يحبون, ومـحوا منها ما يكرهون, ومـحوا اسم مـحمد صلى الله عليه وسلم من التوراة, فلذلك غضب الله علـيهم فرفع بعض التوراة فقال: فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا يَكْسِبُونَ.

1021ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: أخبرنـي سعيد بن أبـي أيوب, عن مـحمد بن عجلان, عن زيد بن أسلـم, عن عطاء بن يسار, قال: وَيْـلٌ: واد فـي جهنـم لو سيرت فـيه الـجبـال لانـماعت من شدّة حرّه.

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: ما وجه فَوَيْـلٌ لِلّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِمْ؟ وهل تكون الكتابة بغير الـيد حتـى احتاج الـمخاطب بهذه الـمخاطبة إلـى أن يخبروا عن هؤلاء القوم الذين قصّ الله قصتهم أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم؟ قـيـل له: إن الكتاب من بنـي آدم وإن كان منهم بـالـيد, فإنه قد يضاف الكتاب إلـى غير كاتبه وغير الـمتولـي رسم خطه, فـيقال: كتب فلان إلـى فلان بكذا, وإن كان الـمتولـي كتابته بـيده غير الـمضاف إلـيه الكتاب, إذا كان الكاتب كتبه بأمر الـمضاف إلـيه الكتاب. فأعلـم ربنا بقوله: فَوَيْـلٌ لِلّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِمْ عبـاده الـمؤمنـين أن أحبـار الـيهود تلـي كتابة الكذب والفرية علـى الله بأيديهم علـى علـم منهم وعمد للكذب علـى الله ثم تنـحله إلـى أنه من عند الله وفـي كتاب الله تكذّبـا علـى الله وافتراء علـيه. فنفـى جل ثناؤه بقوله: يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِمْ أن يكون ولـي كتابة ذلك بعض جهالهم بأمر علـمائهم وأحبـارهم. وذلك نظير قول القائل: بـاعنـي فلان عينه كذا وكذا, فـاشترى فلان نفسه كذا, يراد بإدخال النفس والعين فـي ذلك نفـي اللبس عن سامعه أن يكون الـمتولـي بـيع ذلك وشراءه غير الـموصوف به بأمره, ويوجب حقـيقة الفعل للـمخبر عنه فكذلك قوله: فَوَيْـلٌ لِلّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِمْ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا يَكْسِبُونَ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ أي فـالعذاب فـي الوادي السائل من صديد أهل النار فـي أسفل جهنـم لهم, يعنـي للذين يكتبون الكتاب الذي وصفنا أمره من يهود بنـي إسرائيـل مـحرّفـا, ثم قالوا: هذا من عند الله ابتغاء عرض من الدنـيا به قلـيـل مـمن يبتاعه منهم. وقوله: مِـمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِم يقول: من الذي كتبت أيديهم من ذلك وَوَيْـلٌ لَهُمْ أيضا مِـمّا يَكْسِبُونَ يعنـي مـما يعملون من الـخطايا, ويجترحون من الآثام, ويكسبون من الـحرام بكتابهم الذي يكتبونه بأيديهم, بخلاف ما أنزل الله, ثم يأكلون ثمنه وقد بـاعوه مـمن بـاعوه منهم علـى أنه من كتاب الله. كما:

1022ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا يَكْسِبُونَ يعنـي من الـخطيئة.

1023ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: فَوَيْـلٌ لَهُمْ يقول: فـالعذاب علـيهم قال: يقول من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِـمّا يَكْسِبُونَ يقول: مـما يأكلون به من السفلة وغيرهم.

قال أبو جعفر: وأصل الكسب: العمل, فكل عامل عملاً بـمبـاشرة منه لـما عمل ومعاناة بـاحتراف, فهو كاسب لـما عمل, كما قال لبـيد بن ربـيعة:

لِـمُعَفّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شَلْوَهُغُبْسٌ كَواسِبُ لا يُـمَنّ طَعامُها

الآية : 80

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَقَالُواْ لَن تَمَسّنَا النّارُ إِلاّ أَيّاماً مّعْدُودَةً قُلْ أَتّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

يعنـي بقوله: وقَالُوا الـيهود, يقول: وقالت الـيهود: لَنْ تَـمَسّنا النّارُ, يعنـي لن تلاقـي أجسامنا النار, ولن ندخـلها إلا أياما معدودة. وإنـما قـيـل معدودة وإن لـم يكن مبـينا عددها فـي التنزيـل لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم بذلك وهم عارفون عدد الأيام التـي يوقتونها لـمكثهم فـي النار, فلذلك ترك ذكر تسمية عدد تلك الأيام وسماها معدودة لـما وصفنا.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي مبلغ الأيام الـمعدودة التـي عينها الـيهود القائلون ما أخبر الله عنهم من ذلك. فقال بعضهم بـما:

1024ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً قال ذلك أعداء الله الـيهود, قالوا: لن يدخـلنا الله النار إلا تَـحِلّةَ القسم الأيام التـي أصبنا فـيها العجل أربعين يوما, فإذا انقضت عنا تلك الأيام, انقطع عنا العذاب والقسم.

1025ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً قالوا: أياما معدودة بـما أصبنا فـي العجل.

1026ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً قال: قالت الـيهود: إن الله يدخـلنا النار فـنمكث فـيها أربعين لـيـلة, حتـى إذا أكلت النار خطايانا واسْتَنْقَتْنا,

نادى منادٍ: أخرجوا كلّ مختون من ولد بنـي إسرائيـل, فلذلك أمرنا أن نـختتن. قالوا: فلا يدعون منّا فـي النار أحدا إلا أخرجوه.

1027ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: قالت الـيهود: إن ربنا عتب علـينا فـي أمرنا, فأقسم لـيعذّبنا أربعين لـيـلة, ثم يخرجنا. فأكذبهم الله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن قتادة, قال: قالت الـيهود: لن ندخـل النار إلا تـحلّة القسم, عدد الأيام التـي عبدنا فـيها العجل.

1028ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: لَنْ تَـمَسّنا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً الآية. قال ابن عبـاس: ذكر أن الـيهود وجدوا فـي التوراة مكتوبـا: «إن ما بـين طرفـي جهنـم مسيرة أربعين سنة إلـى أن ينتهوا إلـى شجرة الزقوم نابتة فـي أصل الـجحيـم». وكان ابن عبـاس يقول: إن الـجحيـم سَقَر, وفـيه شجرة الزقّوم, فزعم أعداء الله أنه إذا خلا العدد الذي وجدوا فـي كتابهم أياما معدودة. وإنـما يعنـي بذلك الـمسير الذي ينتهي إلـى أصل الـجحيـم, فقالوا: إذا خلا العدد انتهى الأجل فلا عذاب وتذهب جهنـم وتهلك فذلك قوله: لَنْ تَـمَسّنا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً يعنون بذلك الأجل. فقال ابن عبـاس: لـما اقتـحموا من بـاب جهنـم ساروا فـي العذاب, حتـى انتهوا إلـى شجرة الزقوم آخر يوم من الأيام الـمعدودة, قال لهم خزّان سقر: زعمتـم أنكم لن تـمسكم النار إلا أياما معدودة, فقد خلا العدد وأنتـم فـي الأبد فأخذ بهم فـي الصّعود فـي جهنـم يرهقون.

1029ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً إلا أربعين لـيـلة.

1030ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا حفص بن عمر, عن الـحكم بن أبـان, عن عكرمة, قال: خاصمت الـيهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لن ندخـل النار إلا أربعين لـيـلة, وسيخـلفنا فـيها قوم آخرون يعنون مـحمدا وأصحابه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بـيده علـى رءوسهم: «بَلْ أنْتُـمْ فِـيها خَالِدُونَ لاَ يَخْـلُفُكُمْ فِـيها أحَدٌ» فأنزل الله جل ثناؤه: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, قال: أخبرنـي الـحكم بن أبـان, عن عكرمة, قال: اجتـمعت يهود يوما تـخاصم النبـيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: لَنْ تَـمَسّنا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً وسموا أربعين يوما ثم يخـلفنا أو يـلـحقنا فـيها أناس فأشاروا إلـى النبـي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَذَبْتُـمْ, بَلْ أنْتُـمْ فِـيها خَالِدُونَ مُخَـلّدُونَ لاَ نَلْـحَقُكُمْ وَلا نَـخْـلُفَكُمْ فِـيها إنْ شاءَ اللّهُ أبَدا».

1031ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا علـيّ بن معبد, عن أبـي معاوية, عن جويبر, عن الضحاك فـي قوله: لَنْ تَـمَسّنا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً قال: قالت الـيهود: لا نعذّب فـي النار يوم القـيامة إلا أربعين يوما مقدار ما عبدنا العِجْلَ.

1032ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: حدثنـي أبـي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: «أنْشُدُكُمْ بِـاللّهِ وَبِـالتّوْرَاةِ الّتِـي أنْزَلَهَا اللّهُ علـى مُوسَى يَوْمَ طُورِسَيْنَاءَ, مَنْ أهْلُ النّارِ الّذِينَ أنْزَلَهُمُ اللّهُ فِـي التّوْرَاةِ؟» قالوا: إن ربهم غضب علـيهم غضبة, فنـمكث فـي النار أربعين لـيـلة, ثم نـخرج فتـخـلفوننا فـيها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كَذَبْتُـمْ وَاللّهِ لا نَـخْـلُفُكُمْ فِـيها أبَدا». فنزل القرآن تصديقا لقول النبـي صلى الله عليه وسلم, وتكذيبـا لهم: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً قُلْ اتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا إلـى قوله: هُمْ فِـيها خالِدُونَ.

وقال آخرون فـي ذلك بـما:

1033ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: كانت يهود يقولون: إنـما مدة الدنـيا سبعة آلاف سنة, وإنـما يعذّب الله الناس يوم القـيامة بكل ألف سنة من أيام الدنـيا يوما واحدا من أيام الاَخرة, وإنها سبعة أيام. فأنزل الله فـي ذلك من قولهم: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً الآية.

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الـمدينة ويهود تقول: إنـما مدة الدنـيا سبعة آلاف سنة, وإنـما يعذّب الناس فـي النار بكل ألف سنة من أيام الدنـيا يوما واحدا فـي النار من أيام الاَخرة, فإنـما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب. فأنزل الله عزّ وجلّ فـي ذلك من قولهم لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ الآية.

1034ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً قال: كانت تقول: إنـما الدنـيا سبعة آلاف سنة, وإنـما نعذّب مكان كل ألف سنة يوما.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله, إلا أنه قال: كانت الـيهود تقول: إنـما الدنـيا, وسائر الـحديث مثله.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال مـجاهد: وَقَالُوا لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً من الدهر, وسموا عدة سبعة آلاف سنة, من كل ألف سنة يوما يهودُ تقول.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قُلْ أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا فَلَنْ يُخْـلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أمْ تَقُولُونَ عَلـى اللّهِ مَا لا تَعْلَـمُونَ.

قال أبو جعفر: لـما قالت الـيهود ما قالت من قولها: لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً علـى ما قد بـينا من تأويـل ذلك, قال الله لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا مـحمد لـمعشر الـيهود أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا أخذتـم بـما تقولون من ذلك من الله ميثاقا فـالله لا ينقض ميثاقه ولا يبدل وعده وعقده, أم تقولون علـى الله البـاطل جهلاً وجراءة علـيه؟ كما:

1035ـ حدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: قُلْ أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا أي مَوْثِقا من الله بذلك أنه كما تقولون.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

1036ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن قتادة قال: قالت الـيهود: لن ندخـل النار إلا تَـحِلّة القسم عدّة الأيام التـي عبدنا فـيها العجل. فقال الله: أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا بهذا الذي تقولونه, ألكم بهذا حجة وبرهان فَلَنْ يَخْـلفَ اللّهُ عَهْدَهُ فهاتوا حجتكم وبرهانكم أمْ تَقُولُونَ عَلـى اللّهِ مَا لا تَعْلَـمُونَ.

1037ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس, قال: لـما قالت الـيهود ما قالت, قال الله جل ثناؤه لـمـحمد: قُلْ أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا يقول: أدّخرتـم عند الله عهدا؟ يقول: أقلتـم لا إلَه إلا الله لـم تشركوا, ولـم تكفروا به؟ فإن كنتـم قلتـموها فـارجوا بها, وإن كنتـم لـم تقولوها فلـم تقولون علـى الله ما لا تعلـمون؟ يقول: لو كنتـم قلتـم لا إلَه إلا الله, ولـم تشركوا به شيئا, ثم متّـم علـى ذلك لكان لكم ذخرا عندي, ولـم أخـلف وعدي لكم أنـي أجازيكم بها.

1038ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي, قال: لـما قالت الـيهود ما قالت, قال الله عز وجل: قُلْ أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا فَلَنْ يُخْـلِفَ اللّه عَهْدَهُ وقال فـي مكان آخر: وَغَرّهُمْ فِـي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. ثم أخبر الـخبر فقال: بَلَـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً.

وهذه الأقوال التـي رويناها عن ابن عبـاس ومـجاهد وقتادة بنـحو ما قلنا فـي تأويـل قوله: قُلْ أتّـخَذْتُـمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدا لأن مـما أعطاه الله عبـاده من ميثاقه أن من آمن به وأطاع أمره نـجّاه من ناره يوم القـيامة. ومن الإيـمان به الإقرارُ بأن لا إلَه إلا الله, وكذلك من ميثاقه الذي واثقهم به أن من أتـى الله يوم القـيامة بحجة تكون له نـجاة من النار فـينـجيه منها. وكل ذلك وإن اختلفت ألفـاظ قائلـيه, فمتفق الـمعانـي علـى ما قلنا فـيه, والله تعالـى أعلـم.

الآية : 81

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{بَلَىَ مَن كَسَبَ سَيّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـَئَتُهُ فَأُوْلَـَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

وقوله: بَلَـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً تكذيب من الله القائلـين من الـيهود: لَنْ تَـمَسّنَا النّارُ إلاّ أيّاما مَعْدُودَةً وإخبـار منه لهم أنه يعذّب من أشرك وكفر به وبرسله وأحاطت به ذنوبه فمخـلّدُه فـي النار فإن الـجنة لا يسكنها إلا أهل الإيـمان به وبرسوله, وأهل الطاعة له, والقائمون بحدوده. كما:

1039ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: بَلَـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ أي من عمل مثل أعمالكم وكفر بـمثل ما كفرتـم به حتـى يحيط كفره بـما له من حسنة, فـاولَئِك أصْحَابُ النّارِ هُمْ فِـيها خَالِدُونَ.

قال: وأما بَلَـى فإنها إقرار فـي كل كلام فـي أوله جحد, كما «نعم» إقرار فـي الاستفهام الذي لا جحد فـيه, وأصلها «بل» التـي هي رجوع عن الـجحد الـمـحض فـي قولك: ما قام عمرو بل زيد فزيد فـيها الـياء لـيصلـح علـيها

الوقوف, إذ كانت «بل» لا يصلـح علـيها الوقوف, إذْ كانت عطفـا ورجوعا عن الـجحد, ولتكون أعنـي بلـى رجوعا عن الـجحد فقط, وإقرارا بـالفعل الذي بعد الـجحد فدلت الـياء منها علـى معنى الإقرار والإنعام, ودلّ لفظ «بل» عن الرجوع عن الـجحد.
قال: وأما السيئة التـي ذكر الله فـي هذا الـمكان فإنها الشرك بـالله. كما:
1040ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا يحيى بن سعيد, عن سفـيان, قال: حدثنـي عاصم, عن أبـي وائل بَلْـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً قال: الشرك بـالله.
1041ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: بَلَـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً شركا.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.
1042ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: بَلَـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً قال: أما السيئة فـالشرك.
حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, مثله.
1043ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: بَلـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً أما السيئة فهي الذنوب التـي وعد علـيها النار.
1044ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قلت لعطاء: بَلـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً قال: الشرك.
قال ابن جريج, قال: قال مـجاهد: سَيّئَةً شركا.
1045ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: بَلـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً يعنـي الشرك.
وإنـما قلنا: إن السيئة التـي ذكر الله جل ثناؤه أن من كسبها وأحاطت به خطيئته فهو من أهل النار الـمخـلدين فـيها فـي هذا الـموضع, إنـما عنى الله بها بعض السيئات دون بعض, وإن كان ظاهرها فـي التلاوة عاما, لأن الله قضى علـى أهلها بـالـخـلود فـي النار, والـخـلود فـي النار لأهل الكفر بـالله دون أهل الإيـمان به لتظاهر الأخبـار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل الإيـمان لا يخـلدون فـيها, وأن الـخـلود فـي النار لأهل الكفر بـالله دون أهل الإيـمان به فإن الله جل ثناؤه قد قرن بقوله: بَلـى مَن كَسَبَ سَيّئَةً وَأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فـاولئِكَ أصحَابُ النارِ هُم فِـيها خالِدُونَ قولَهُ: والّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِـحَاتِ أُولَئِكَ أصحَابُ الـجَنّةِ هُمْ فِـيها خَالِدُونَ فكان معلوما بذلك أن الذين لهم الـخـلود فـي النار من أهل السيئات, غير الذي لهم الـخـلود فـي الـجنة من أهل الإيـمان.
فإن ظنّ ظانّ أن الذين لهم الـخـلود فـي الـجنة من الذين آمنوا هم الذين عملوا الصالـحات دون الذين عملوا السيئات, فإن فـي إخبـار الله أنه مكفر بـاجتنابنا كبـائر ما ننهى عنه سيئاتنا, ومدخـلنا الـمدخـل الكريـم, ما ينبىء عن صحة ما قلنا فـي تأويـل قوله: بَلـى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً بأن ذلك علـى خاص من السيئات دون عامها.
فإن قال لنا قائل: فإن الله جل ثناؤه إنـما ضمن لنا تكفـير سيئاتنا بـاجتنابنا كبـائر ما ننهى عنه, فما الدلالة علـى أن الكبـائر غير داخـلة فـي قوله: بَلـى

مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً؟ قـيـل: لـما صحّ من أن الصغائر غير داخـلة فـيه, وأن الـمعنّى بـالآية خاص دون عام, ثبت وصحّ أن القضاء والـحكم بها غير جائز لأحد علـى أحد إلا علـى من وَقَـفَه الله علـيه بدلالة من خبر قاطع عذر من بلغه. وقد ثبت وصحّ أن الله تعالـى ذكره قد عنى بذلك أهل الشرك والكفر به, بشهادة جميع الأمة, فوجب بذلك القضاء علـى أن أهل الشرك والكفر مـمن عناه الله بـالآية. فأما أهل الكبـائر فإن الأخبـار القاطعة عذر من بلغته قد تظاهرت عندنا بأنهم غير معنـيـين بها, فمن أنكر ذلك مـمن دافع حجة الأخبـار الـمستفـيضة والأنبـاء الـمتظاهرة فـاللازم له ترك قطع الشهادة علـى أهل الكبـائر بـالـخـلود فـي النار بهذه الآية ونظائرها التـي جاءت بعمومهم فـي الوعيد, إذْ كان تأويـل القرآن غير مدرك إلا ببـيان من جَعَلَ اللّهُ إلـيه بـيانَ القرآن, وكانت الآية تأتـي عاما فـي صنف ظاهرها, وهي خاص فـي ذلك الصنف بـاطنها. ويُسئل مدافعوا الـخبر بأن أهل الكبـائر من أهل الاستثناء سؤالنا منكر رجم الزانـي الـمـحصن, وزوال فرض الصلاة عن الـحائض فـي حال الـحيض, فإن السؤال علـيهم نظير السؤال علـى هؤلاء سواء.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ اجتـمعت علـيه فمات علـيها قبل الإنابة والتوبة منها. وأصل الإحاطة بـالشيء: الإحداق به بـمنزلة الـحائط الذي تـحاط به الدار فتـحدق به, ومنه قول الله جل ثناؤه: نارا أحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُها.

فتأويـل الآية إذا: من أشرك بـالله واقترف ذنوبـا جمة فمات علـيها قبل الإنابة والتوبة, فأولئك أصحاب النار هم فـيها مخـلدون أبدا. وبنـحو الذي قلنا فـي تأويـل ذلك, قال الـمتأولون. ذكر من قال ذلك:

1046ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن يـمان, عن سفـيان, عن الأعمش, عن أبـي روق, عن الضحاك: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: مات بذنبه.

1047ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا جرير بن نوح, قال: حدثنا الأعمش, عن أبـي رزين, عن الربـيع بن خثـيـم: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: مات علـيها.

1048ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: أخبرنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: يحيط كفره بـما له من حسنة.

1049ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: ما أوجب الله فـيه النار.

1050ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: أما الـخطيئة فـالكبـيرة الـموجبة.

حدثنا الـحسن, قال: أخبرنا عبد الرزاق, عن قتادة: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: الـخطيئة: الكبـائر.

1051ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا وكيع ويحيى بن آدم, عن سلام بن مسكين, قال: سأل رجل الـحسن عن قوله: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فقال: ما ندري ما الـخطيئة يا بنـيّ اتْلُ القرآن, فكل آية وعد الله علـيها النار فهي الـخطيئة.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن منصور, عن مـجاهد فـي قوله: بَلَـى مَنْ كَسَبَ سَيِئَةً وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: كل ذنب مـحيط فهو ما وعد الله علـيه النار.

1052ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن الأعمش, عن أبـي رزين: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: مات بخطيئته.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا الأعمش, قال: حدثنا مسعود أبو رزين, عن الربـيع بن خثـيـم فـي قوله: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: هو الذي يـموت علـى خطيئته, قبل أن يتوب.

1053ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: قال وكيع: سمعت الأعمش يقول فـي قوله: وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ مات بذنوبه.

1054ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ الكبـيرة الـموجبة.

1055ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فمات ولـم يتب.

1056ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حسان, عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: وأحاطَت بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: الشرك, ثم تلا: وَمَنْ جَاءَ بِـالسّيّئَةِ فَكُبّتْ وجُوهُهُمْ فِـي النّارِ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَـاولَئِكَ أصحَابُ النّارِ هُمْ فِـيها خَالِدُونَ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: فأولئك الذين كسبوا السّيئات وأحاطتْ بهم خطيئاتهم أصحاب النار هم فـيها خالدون. ويعنـي بقوله جل ثناؤه: أصحَابُ النّارِ أهل النار وإنـما جعلهم لها أصحابـا لإيثارهم فـي حياتهم الدنـيا ما يوردهموها, ويوردهم سعيرها علـى الأعمال التـي توردهم الـجنة, فجعلهم جل ذكره بإيثارهم أسبـابها علـى أسبـاب الـجنة لها أصحابـا, كصاحب الرجل الذي يصاحبه مؤثرا صحبته علـى صحبة غيره حتـى يعرف به. هُمْ فِـيها يعنـي فـي النار خالدون, ويعنـي بقوله خالِدُونَ مقـيـمون. كما:

1057ـ حدثنـي مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: هُمْ فِـيها خالِدُونَ: أي خالدون أبدا.

1058ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: هُمْ فِـيها خالِدُونَ لا يخرجون منها أبدا.

الآية : 82

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَالّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ أُولَـَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

ويعنـي بقوله: وَالّذِينَ آمَنُوا: أي صدقوا بـما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم. ويعنـي بقوله: وَعَمِلُوا الصّالِـحَاتِ: أطاعوا الله فأقاموا حدوده, وأدّوا فرائضه, واجتنبوا مـحارمه. ويعنـي بقوله: أولَئِكَ الذين هم كذلك أصحَابُ الـجَنّةِ هُمْ فِـيها خَالِدُونَ يعنـي أهلها الذين هم أهلها هم فـيها خالدون, مقـيـمون أبدا. وإنـما هذه الآية والتـي قبلها إخبـار من الله عبـاده عن بقاء النار وبقاء أهلها فـيها, ودوام ما أعدّ فـي كل واحدة منهما لأهلها, تكذيبـا من الله جل ثناؤه القائلـين من يهود بنـي إسرائيـل إن النار لن

تـمسهم إلا أياما معدودة, وأنهم صائرون بعد ذلك إلـى الـجنة فأخبرهم بخـلود كفـارهم فـي النار وخـلود مؤمنـيهم فـي الـجنة. كما:

1059ـ حدثنـي ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِـحَاتِ أُولَئِكَ أصحَابُ الـجَنّةِ هُمْ فِـيها خَالِدُونَ أي من آمن بـما كفرتـم به وعمل بـما تركتـم من دينه, فلهم الـجنة خالدين فـيها يخبرهم أن الثواب بـالـخير والشرّ مقـيـم علـى أهله أبدا لا انقطاع له أبدا.

1060ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِـحَاتِ مـحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أولئك أصحاب الـجنة هُمْ فِـيها خَالِدُونَ

الآية : 83

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَىَ وَالْيَتَامَىَ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصّلاَةَ وَآتُواْ الزّكَاةَ ثُمّ تَوَلّيْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً مّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مّعْرِضُونَ }

قد دللنا فـيـما مضى من كتابنا هذا علـى أن الـميثاق مفعال, من التوثق بـالـيـمين ونـحوها من الأمور التـي تؤكد القول. فمعنى الكلام إذا: واذكروا أيضا يا معشر بنـي إسرائـيـل إذْ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله. كما:

1061ـ حدثنـي به ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وَإِذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ أي ميثاقكم لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ.

قال أبو جعفر: والقراءة مختلفة فـي قراءة قوله: لا تَعْبُدُونَ فبعضهم يقرؤها بـالتاء, وبعضهم يقرؤها بـالـياء, والـمعنى فـي ذلك واحد. وإنـما جازت القراءة بـالـياء والتاء وأن يقال: «لا تعبدون», و«لا يعبدون» وهم غَيَب لأن أخذ الـميثاق بـمعنى الاستـحلاف, فكما تقول: استـحلفت أخاك لـيقومنّ, فتـخبر عنه خبرك عن الغائب لغيبته عنك, وتقول: استـحلفته لتقومنّ, فتـخبر عنه خبرك عن الـمخاطب لأنك قد كنت خاطبته بذلك, فـيكون ذلك صحيحا جائزا, فكذلك قوله: وَإِذْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ و«لا يعبدون». من قرأ ذلك بـالتاء فمعنى الـخطاب إذْ كان الـخطاب قد كان بذلك, ومن قرأ بـالـياء فلأنهم ما كانوا مخاطبـين بذلك فـي وقت الـخبر عنهم. وأما رفع لا تعبدون فبـالتاء التـي فـي تعبدون, ولا ينصب ب«أن» التـي كانت تصلـح أن تدخـل مع: لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ لأنها إذا صلـح دخولها علـى فعل فحذفت ولـم تدخـل كان وجه الكلام فـيه الرفع كما قال جل ثناؤه: قُلْ أفَغَيْرَ اللّهِ تَأمُرُونّـي أعْبُدُ أيّها الـجاهِلُونَ فرفع «أعبدُ» إذ لـم تدخـل فـيها أن بـالألف الدالة علـى معنى الاستقبـال. وكما قال الشاعر:

ألاَ أيّهذَا الزّاجِرِي أحْضُرُ الوَغَىوأنْ أشْهَدَ اللّذّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْـلِدِي

فرفع «أحضر» وإن كان يصلـح دخول «أن» فـيها, إذ حذفت بـالألف التـي تأتـي بـالاستقبـال. وإنـما صلـح حذف «أن» من قوله: وَإِذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ لا تَعْبُدُونَ لدلالة ما ظهر من الكلام علـيها, فـاكتفـى بدلالة الظاهر علـيها منها.

وقد كان بعض نـحويـي البصرة يقول: معنى قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ حكاية, كأنك قلت: استـحلفناهم لا تعبدون, أي قلنا لهم: والله لا تعبدون, وقالوا: والله لا يعبدون. والذي قال من ذلك قريب معناه من معنى القول الذي قلنا فـي ذلك.

وبنـحو الذي قلنا فـي قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ تأوّله أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1062ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: أخذ مواثـيقهم أن يخـلصوا له وأن لا يعبدوا غيره.

1063ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: أخبرنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاق بنِـي إسْرَائِيـلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ الله قال: أخذنا ميثاقهم أن يخـلصوا لله ولا يعبدوا غيره.

1064ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنـي إسْرَائيـلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ قال: الـميثاق الذي أخذ علـيهم فـي الـمائدة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَبـالْوَالِدَيْنِ إحْسانا.

وقوله جل ثناؤه: وبـالْوَالِدَيْنِ إحْسانا عطف علـى موضع «أن» الـمـحذوفة فـي لا تعبدون إلا الله. فكان معنى الكلام: وإذْ أخذنا ميثاق بنـي إسرائيـل بأن لا تعبدوا إلا الله وبـالوالدين إحسانا. فرفع «لا تعبدون» لـما حذف «أن», ثم عطف بـالوالدين علـى موضعها, كما قال الشاعر:

مُعاوِيَ إنّنا بَشَر فأسْجِحْفَلَسْنا بـالـجبـال وَلا الـحَدِيدا

فنصب «الـحديد» علـى العطف به علـى موضع الـجبـال لأنها لو لـم تكن فـيها بـاء خافضة كانت نصبـا, فعطف بـالـحديث علـى معنى الـجبـال لا علـى لفظها, فكذلك ما وصفت من قوله: وَبـالْوَالِدَيْنِ إحْسانا. وأما الأحسان فمنصوب بفعل مضمر يؤدي معناه قوله: وَبِـالْوَالِدَيْنِ إذْ كان مفهوما معناه, فكان معنى الكلام لو أظهر الـمـحذوف: وإذ أخذنا ميثاق بنـي إسرائيـل بأن لا تعبدوا إلا الله, وبأن تـحسنوا إلـى الوالدين إحسانا. فـاكتفـى بقوله: وَبـالْوَالِدَيْنِ من أن يقال: وبأن تـحسنوا إلـى الوالدين إحسانا, إذْ كان مفهوما أن ذلك معناه بـما ظهر من الكلام.

وقد زعم بعض أهل العربـية فـي ذلك أن معناه: وبـالوالدين فأحسنوا إحسانا فجعل «البـاء» التـي فـي «الوالدين» من صلة الإحسان مقدمة علـيه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن لا تعبدوا إلا الله, وأحسنوا بـالوالدين إحسانا. فزعموا أن «البـاء» التـي فـي «الوالدين» من صلة الـمـحذوف, أعنـي «أحْسِنوا», فجعلوا ذلك من كلامين. وإنـما يصرف الكلام إلـى ما ادعوا من ذلك إذا لـم يوجد لاتساق الكلام علـى كلام واحد وجه, فأما وللكلام وجه مفهوم علـى اتساقه علـى كلام واحد فلا وجه لصرفه إلـى كلامين. وأخرى: أن القول فـي ذلك لو كان علـى ما قالوا لقـيـل: «وإلـى الوالدين إحسانا» لأنه إنـما يقال: أحسن فلان إلـى والديه, ولا يقال: أحسن بوالديه, إلاّ علـى استكراه للكلام. ولكن القول فـيه ما قلنا, وهو: وإذْ أخذنا ميثاق بنـي إسرائيـل بكذا وبـالوالدين إحسانا, علـى ما بـينا قبل. فـيكون «الإحسان» حينئذ مصدرا من الكلام لا من لفظه كما بـينا فـيـما مضى من نظائره.

فإن قال قائل: وما ذلك الإحسان الذي أخذ علـيهم وبـالوالدين الـميثاق؟ قـيـل: نظير ما فرض الله علـى أمتنا لهما من فعل الـمعروف لهما والقول الـجميـل, وخفض جناح الذل رحمة بهما والتـحنن علـيهما, والرأفة بهما والدعاء بـالـخير لهما, وما أشبه ذلك من الأفعال التـي ندب الله عبـاده أن يفعلوا بهما.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَذي القُرْبَى وَالـيتَامَى وَالـمسَاكين.

يعنـي بقوله: وَذي القرْبَى وبذي القربى أن يصلوا قرابته منهم ورحمة. والقربى مصدر علـى تقدير «فُعْلَـى» من قولك: قربت منـي رحم فلان قرابة وقربى وقربـا بـمعنى واحد. وأما الـيتامى فهم جمع يتـيـم, مثل أسير وأسارى ويدخـل فـي الـيتامى الذكور منهم والإناث. ومعنى ذلك: وإذْ أخذنا ميثاق بنـي إسرائيـل لا تعبدون إلا الله وحده دون من سواه من الأنداد وبـالوالدين إحسانا وبذي القربى, أن تصلوا رَحِمَه, وتعرفوا حقه, وبـالـيتامى: أن تتعطفوا علـيهم بـالرحمة والرأفة, وبـالـمساكين: أن تؤتوهم حقوقهم التـي ألزمها الله أموالكم. والـمسكين: هو الـمتـخشع الـمتذلل من الفـاقة والـحاجة, وهو «مِفْعيـل» من الـمسكنة, والـمسكنة هي ذلّ الـحاجة والفـاقة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَقُولُوا للنّاس حُسُنا.

إن قال قائل: كيف قـيـل: وقُولُوا للنّاس حُسْنا فأخرج الكلام أمرا ولـما يتقدمه أمرٌ, بل الكلام جار من أول الآية مـجرى الـخبر؟ قـيـل: إن الكلام وإن كان قد جرى فـي أول الآية مـجرى الـخبر فإنه مـما يحسن فـي موضعه الـخطاب بـالأمر والنهي, فلو كان مكان: «لا تعبدون إلا الله» «لا تعبدوا إلا الله» علـى وجه النهي من الله لهم عن عبـادة غيره كان حسنا صوابـا وقد ذكر أن ذلك كذلك فـي قراءة أبـيّ بن كعب. وإنـما حسن ذلك وجاز لو كان مقروءا به لأن أخذ الـميثاق قول, فكان معنى الكلام لو كان مقروءا كذلك: وإذْ قلنا لبنـي إسرائيـل لا تعبدوا إلا الله, كما قال جل ثناؤه فـي موضع آخر: وَإذْ أخَذْنا ميثاقَكُمْ ورَفَعْنا فَوْقَكُمْ الطّورَ خُذُوا ما آتـيْناكُمْ بِقُوّة. فلـما كان حسنا وضع الأمر والنهي فـي موضع: لا تعبدون إلا الله, عطف بقوله: وَقُولُوا للنّاس حُسْنا علـى موضع لا تعبدون, وإن كان مخالفـا كل واحد منهما معناه معنى ما فـيه, لـما وصفنا من جواز وضع الـخطاب بـالأمر والنهي موضع لا تعبدون فكأنه قـيـل: وإذا أخذنا ميثاق بنـي إسرائيـل لا تعبدوا إلا الله, وقولوا للناس حسنا. وهو نظير ما قدمنا البـيان عنه من أن العرب تبتدىء الكلام أحيانا علـى وجه الـخبر عن الغائب فـي موضع الـحكايات لـما أخبرت عنه, ثم تعود إلـى الـخبر علـى وجه الـخطاب, وتبتدىء أحيانا علـى وجه الـخطاب ثم تعود إلـى الإخبـار علـى وجه الـخبر عن الغائب لـما فـي الـحكاية من الـمعنـيـين كما قال الشاعر:

أَسِيئي بنا أوْ أحْسِنـي لا مَلُومَةًلَديْنا وَلا مَقْلِـيّةً إنْ تَقَلّتِ

يعنـي تقلّـيت, وأمّا «الـحسن» فإن القراءة اختلفت فـي قراءته, فقرأته عامة قراءة الكوفة غير عاصم: «وَقُولُوا للنّاس حَسَنا» بفتـح الـحاء والسين. وقرأته عامة قرّاء الـمدينة: حُسْنا بضم الـحاء وتسكين السين. وقد رُوي عن بعض القراء أنه كان يقرأ: «وَقُولُوا للنّاس حُسْنَى» علـى مثال «فُعْلَـى».

واختلف أهل العربـية فـي فرق ما بـين معنى قوله: حُسْنا, وحَسَنا. فقال بعض البصريـين: هو علـى أحد وجهين: إما أن يكون يراد بـالـحَسَنِ الـحُسْنِ, وكلاهما لغة, كما يقال: البُخْـل والبَخَـل. وإما أن يكون جعل الـحُسْنَ هو الـحَسَن فـي التشبـيه, وذلك أن الـحُسْنَ مصدر, والـحَسَنُ هو الشيء الـحسن, ويكون ذلك حينئذ كقولك: «إنـما أنت أكْلٌ وشُرْب», وكما قال الشاعر:

وخَيْـلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْـلٍتَـحِيّةُ بَـيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

فجعل التـحية ضربـا.

وقال آخر: بل «الـحُسْن» هو الاسم العام الـجامع جميع معانـي الـحسن, «والـحَسَن» هو البعض من معانـي الـحُسْن, قال: ولذلك قال جل ثناؤه إذ أوصى بـالوالدين: وَوَصّيْنا الإنْسانَ بوَالِدَيْهِ حُسْنا يعنـي بذلك أنه وصاه فـيهما بجميع معانـي الـحسن, وأمر فـي سائر الناس ببعض الذي أمره به فـي والديه فقال: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا يعنـي بذلك بعض معانـي الـحُسْن. والذي قاله هذا القائل فـي معنى «الـحُسْن» بضم الـحاء وسكون السين غير بعيد من الصواب, وأنه اسم لنوعه الذي سمي به. وأما «الـحَسَن» فإنه صفة وقعت لـما وصف به, وذلك يقع بخاص. وإذا كان الأمر كذلك, فـالصواب من القراءة فـي قوله: «وَقُولُوا للنّاسِ حَسَنا» لأن القوم إنـما أمروا فـي هذا العهد الذي قـيـل لهم: وقولوا للناس بـاستعمال الـحَسَن من القول دون سائر معانـي الـحسن, الذي يكون بغير القول, وذلك نعت لـخاص من معانـي الـحُسْن وهو القول. فلذلك اخترت قراءته بفتـح الـحاء والسين, علـى قراءته بضم الـحاء وسكون السين.

وأما الذي قرأ ذلك: «وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنَى» فإنه خالف بقراءته إياه كذلك قراءة أهل الإسلام, وكفـى شاهدا علـى خطأ القراءة بها كذلك خروجها من قراءة أهل الإسلام لو لـم يكن علـى خطئها شاهد غيره, فكيف وهي مع ذلك خارجة من الـمعروف من كلام العرب؟ وذلك أن العرب لا تكاد أن تتكلـم بفُعْلـى وأفْعل إلا بـالألف واللام أو بـالإضافة, لا يقال: جاءنـي أحسن حتـى يقولوا الأحسن, ولا يقال أجمل حتـى يقولوا الأجمل وذلك أن الأفعل والفُعْلَـى لا يكادان يوجدان صفة إلا لـمعهود معروف, كما تقول: بل أخوك الأحسن, وبل أختك الـحسنى, وغير جائز أن يقال: امرأة حُسْنى, ورجل أحسن.

وأما تأويـل القول الـحسن الذي أمر الله به الذين وصف أمرهم من بنـي إسرائيـل فـي هذه الآية أن يقولوه للناس, فهو ما:

1065ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا أمرهم أيضا بعد هذا الـخـلق أن يقولوا للناس حسنا: أن يأمروا بلا إله إلا الله من لـم يقلها ورغب عنها حتـى يقولوها كما قالوها, فإن ذلك قربة من الله جل ثناؤه.

وقال الـحسن أيضا: لـين القول من الأدب الـحسن الـجميـل, والـخـلق الكريـم, وهو مـما ارتضاه الله وأحبه.

1066ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا قال: قولوا للناس معروفـا.

1067ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا قال: صدقا فـي شأن مـحمد صلى الله عليه وسلم.

1068ـ وحدثت عن يزيد بن هارون, قال: سمعت سفـيان الثوري, يقول فـي قوله: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا قال: مروهم بـالـمعروف, وانهوهم عن الـمنكر.

1069ـ حدثنـي هارون بن إدريس الأصم, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مـحمد الـمـحاربـي, قال: حدثنا عبد الـملك بن أبـي سلـيـمان, قال: سألت عطاء بن أبـي ربـاح, عن قول الله جل ثناؤه: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا قال: من لقـيت من الناس فقل له حسنا من القول. قال: وسألت أبـا جعفر, فقال مثل ذلك.

1070ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا القاسم, قال: أخبرنا عبد الـملك, عن أبـي جعفر وعطاء بن أبـي ربـاح فـي قوله: وَقُولُوا للنّاسِ حُسْنا قال: للناس كلهم.

حدثنـي يعقوب, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا عبد الـملك, عن عطاء مثله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأقِـيـمُوا الصّلاةَ.

يعنـي بقوله: وأقِـيـمُو الصّلاةَ أدّوها بحقوقها الواجبة علـيكم فـيها. كما:

1071ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن مسعود, قال: وأقِـيـمُوا الصّلاة هذه, وإقامة الصلاة تـمام الركوع والسجود والتلاوة والـخشوع والإقبـال علـيها فـيها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَآتُوا الزّكاة. قد بـينا فـيـما مضى قبلُ معنى الزكاة وما أصلها. وأما الزكاة التـي كان الله أمر بها بنـي إسرائيـل الذين ذكر أمرهم فـي هذه الآية, فهي ما:

1072ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وآتُوا الزّكاةَ قال: إيتاء الزكاة ما كان الله فرض علـيهم فـي أموالهم من الزكاة, وهي سنّة كانت لهم غير سنة مـحمد صلى الله عليه وسلم كانت زكاة أموالهم قربـانا تهبط إلـيه نار فتـحملها, فكان ذلك تَقَبّله, ومن لـم تفعل النار به ذلك كان غير متقبل. وكان الذي قُرّب من مكسب لا يحلّ من ظلـم أو غشم, أو أخذ بغير ما أمر الله به وبـينه له.

1073ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: وَآتُوا الزّكاةَ يعنـي بـالزكاة: طاعة الله والإخلاص.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ثُمّ تَوَلّـيْتُـمْ إلاّ قَلِـيلاً مِنْكُمْ وأنْتُـمْ مُعْرِضُونَ. وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بنـي إسرائيـل أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه, بعدما أخذ الله ميثاقهم علـى الوفـاء له بأن لا يعبدوا غيره, وأن يحسنوا إلـى الآبـاء والأمهات, ويَصِلُوا الأرحام, ويتعطفوا علـى الأيتام, ويؤدوا حقوق أهل الـمسكنة إلـيهم, ويأمروا عبـاد الله بـما أمرهم الله به ويحثوهم علـى طاعته, ويقـيـموا الصلاة بحدودها وفرائضها, ويؤتوا

زكاة أموالهم. فخالفوا أمره فـي ذلك كله, وتولوا عنه معرضين, إلا من عصمه الله منهم فوفـى لله بعهده وميثاقه. كما:

1074ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, عن بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس, قال: لـما فرض الله جل وعزّ علـيهم يعنـي علـى هؤلاء الذين وصف الله أمرهم فـي كتابه من بنـي إسرائيـل هذا الذي ذكر أنه أخذ ميثاقهم به, أعرضوا عنه استثقالاً وكراهية, وطلبوا ما خفّ علـيهم إلا قلـيلاً منهم, وهم الذين استثنى الله فقال: ثُمّ تَوَلّـيْتُـمْ يقول: أعرضتـم عن طاعتـي إلاّ قَلِـيلاً منكمْ قال: القلـيـل الذين اخترتهم لطاعتـي, وسيحلّ عقابـي بـمن تولّـى وأعرض عنها يقول: تركها استـخفـافـا بها.

1075ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عن عكرمة, عن ابن عبـاس: ثُمّ تَوَلّـيْتُـمْ إلاّ قَلـيلاً مِنْكُمْ وأنْتُـمْ مُعْرِضُونَ أي تركتـم ذلك كله.

وقال بعضهم: عنى الله جل ثناؤه بقوله: وأنتُـمْ مُعْرِضُونَ الـيهود الذين كانوا علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم, وعنى بسائر الآية أسلافهم كأنه ذهب إلـى أن معنى الكلام: ثُمّ تَوَلّـيْتُـمْ إلاّ قَلِـيلاً مِنْكُمْ ثم تولـى سلفكم إلا قلـيلاً منهم, ولكنه جعل خطابـا لبقايا نسلهم علـى ما ذكرناه فـيـما مضى قبل. ثم قال: وأنتـم يا معشر بقاياهم مُعْرِضون أيضا عن الـميثاق الذي أخذ علـيكم بذلك وتاركوه ترك أوائلكم.

وقال آخرون: بل قوله: ثُمّ تَوَلّـيْتُـمْ إلاّ قَلِـيلاً مِنْكُمْ وأنْتُـمْ مُعْرِضُونَ خطاب لـمن كان بـين ظهرانـي مُهَاجَرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنـي إسرائيـل, وذمّ لهم بنقضهم الـميثاق الذي أخذ علـيهم فـي التوراة وتبديـلهم أمر الله وركوبهم معاصيه.

الآية : 84

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءِكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مّن دِيَارِكُمْ ثُمّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ }

قال أبو جعفر: قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ فـي الـمعنى والإعراب نظير قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثَاقَ بَنِـي إسْرائِيـلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللّهَ. وأما سفك الدم, فإنه صبه وإراقته.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: لا تَسْفِكونَ دِماءَكُمْ وَلا تُـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ؟ وقال: أوَ كان القوم يقتلون أنفسهم, ويخرجونها من ديارها, فنهوا عن ذلك؟ قـيـل: لـيس الأمر فـي ذلك علـى ما ظننتَ, ولكنهم نهوا عن أن يقتل بعضهم بعضا, فكان فـي قتل الرجل منهم الرجلَ قتلُ نفسه, إذْ كانت ملّتهما بـمنزلة رجل واحد, كما قال علـيه الصلاة والسلام: «إنّـمَا الـمُؤْمِنُونَ فِـي تَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ بَـيْنَهُمْ بـمَنْزِلَةِ الـجَسَدِ الوَاحِدِ إذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى لَهُ سائرُ الـجَسَدِ بِـالـحُمّى وَالسّهَرِ».

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ أي لا يقتل الرجل منكم الرجل منكم, فـيقاد به قصاصا, فـيكون بذلك قاتلاً نفسه لأنه كان الذي سبب لنفسه ما استـحقت به القتل, فأضيف بذلك إلـيه قتل ولـيّ الـمقتول إياه قصاصا بولـيه, كما يقال للرجل يركب فعلاً من الأفعال يستـحقّ به العقوبة فـيعاقب العقوبة: أنت جنـيت هذا علـى نفسك.

وبنـحو الذي قلنا فـي تأويـل ذلك قال أهل التأويـل: ذكر من قال ذلك:
1076ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله وَإذْ أخَذْنَا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ أي لا يقتل بعضكم بعضا, وَلاَ تُـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ونفسُك يا ابن آدم أهل ملّتك.
1077ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: وَإذْ أخَذْنَا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ يقول: لا يقتل بعضكم بعضا, وَلاَ تُـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ يقول: لا يخرج بعضكم بعضا من الديار.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن قتادة فـي قوله: لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ يقول: لا يقتل بعضكم بعضا بغير حق وَلا تُـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ فتسفك يا ابن آدم دماء أهل ملتك ودعوتك.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ثُمّ أقْرَرْتُـمْ.
يعنـي بقوله: ثُمّ أقْرَرْتُـمْ بـالـميثاق الذي أخذنا علـيكم لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ. كما:
1078ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: ثُمّ أقْرَرْتُـمْ يقول: أقررتـم بهذا الـميثاق.
وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع مثله.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ.
اختلف أهل التأويـل فـيـمن خوطب بقوله وأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ.
فقال بعضهم: ذلك خطاب من الله تعالـى ذكره للـيهود الذين كانوا بـين ظهرانَـيْ مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام هجرته إلـيه مؤنبـا لهم علـى تضيـيع أحكام ما فـي أيديهم من التوراة التـي كانوا يقرّون بحكمها, فقال الله تعالـى لهم: ثُمّ أقْرَرْتُـمْ يعنـي بذلك إقرار أوائلكم وسلفكم وأنْتُـمُ تَشْهَدُونَ علـى إقراركم بأخذ الـميثاق علـيهم, بأن لا يسفكوا دماءهم, ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم, ويصدقون بأن ذلك حقّ من ميثاقـي علـيهم. ومـمن حكي معنى هذا القول عنه ابن عبـاس.
1079ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: وَإذْ أخَذْنا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمّ أقْرَرْتُـمْ وأنْتُـمُ تَشْهَدُونَ أن هذا حق من ميثاقـي علـيكم.
وقال آخرون: بل ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن أوائلهم, ولكنه تعالـى ذكره أخرج الـخبر بذلك عنهم مخرج الـمخاطبة علـى النـحو الذي وصفنا فـي سائر الآيات التـي هي نظائرها التـي قد بـينا تأويـلها فـيـما مضى.
وتأولوا قوله وأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ علـى معنى: وأنتـم شهود. ذكر من قال ذلك:
1080ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية قوله: وأنتُـمْ تَشْهَدُونَ يقول وأنتـم شهود.
قال أبو جعفر: وأولـى الأقوال فـي تأويـل ذلك بـالصواب عندي أن يكون قوله: وأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ خبرا عن أسلافهم, وداخلاً فـيه الـمخاطبون منهم الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم, كما كان قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ خبرا عن أسلافهم وإن كان خطابـا للذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالـى أخذ ميثاق الذين كانوا علـى عهد رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم من بنـي إسرائيـل علـى سبـيـل ما قد بـينه لنا

فـي كتابه, فألزم جميع من بعدهم من ذريتهم من حكم التوراة مثل الذي ألزم منه من كان علـى عهد موسى منهم. ثم أنّب الذين خاطبهم بهذه الاَيات علـى نقضهم ونقض سلفهم ذلك الـميثاق, وتكذيبهم ما وكدوا علـى أنفسهم له بـالوفـاء من العهود, بقوله: ثُمّ أقْرَرْتُـمْ وأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ فإذْ كان خارجا علـى وجه الـخطاب للذين كانوا علـى عهد نبـينا صلى الله عليه وسلم منهم, فإنه معنـيّ به كل من واثق بـالـميثاق منهم علـى عهد موسى ومن بعده, وكل من شهد منهم بتصديق ما فـي التوراة لأن الله جل ثناؤه لـم يخصص بقوله: ثُمّ أقْرَرْتُـمْ وأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ وما أشبه ذلك من الاَي بعضهم دون بعض والآية مـحتـملة أن يكون أريد بها جميعهم. فإذْ كان ذلك كذلك فلـيس لأحد أن يدعي أنه أريد بها بعض منهم دون بعض. وكذلك حكم الآية التـي بعدها, أعنـي قوله: ثُمّ أنْتُـمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ الآية لأنه قد ذكر لها أن أوائلهم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرهم الذين أدركوا عصر نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم.

الآية : 85

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{ثُمّ أَنْتُمْ هَـَؤُلآءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مّنْكُمْ مّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىَ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدّونَ إِلَىَ أَشَدّ الّعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ }

قال أبو جعفر: ويتـجه فـي قوله: ثُمّ أنْتُـمْ هَؤُلاَءِ وجهان: أحدهما أن يكون أريد به: ثم أنتـم يا هؤلاء, فترك «يا» استغناء بدلالة الكلام علـيه, كما قال: يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هَذا وتأويـله: يا يوسف أعرض عن هذا. فـيكون معنى الكلام حينئذ: ثم أنتـم يا معشر يهود بنـي إسرائـيـل بعد إقراركم بـالـميثاق الذي أخذته علـيكم لا تسفكون دماءكم ولا تـخرجون أنفسكم من دياركم, ثم أقررتـم بعد شهادتكم علـى أنفسكم بأن ذلك حق لـي علـيكم لازم لكم الوفـاء لـي به تقتلون أنفسكم وتـخرجون فريقا منكم من ديارهم متعاونـين علـيهم فـي إخراجكم إياهم بـالإثم والعدوان. والتعاون: هو التظاهر وإنـما قـيـل: للتعاون التظاهر, لتقوية بعضهم ظهر بعض, فهو تفـاعل من الظهر, وهو مساندة بعضهم ظهره إلـى ظهر بعض. والوجه الاَخر أن يكون معناه: ثم أنتـم قومٌ تقتلون أنفسكم فـيرجع إلـى الـخبر عن «أنتـم», وقد اعترض بـينهم وبـين الـخبر عنهم بهؤلاء, كما تقول العرب: أنا ذا أقوم, وأنا هذا أجلس, وإذْ قـيـل: أنا هذا أجلس كان صحيحا جائزا, كذلك أنت ذاك تقوم.

وقد زعم بعض البصريـين أن قوله «هؤلاء» فـي قوله: ثُمّ أنْتُـمْ هَؤُلاءِ تنبـيه وتوكيد لـ«أنتـم», وزعم أن «أنتـم» وإن كانت كناية أسماء جماع الـمخاطبـين, فإنـما جاز أن يؤكدوا بـ«هؤلاء» و«أولاء», لأنها كناية عن الـمخاطبـين, كما قال خُفـاف بن ندبة:

أقُولُ لَهُ وَالرّمْـحُ يَأْطِرُ مَتْنُهُتَبَـيّنْ خُفـافـا إنّنِـي أنا ذَلِكا

يريد: أنا هذا. وكما قال جل ثناؤه: حتـى إذَا كُنْتُـمْ فـي الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ.

ثم اختلف أهل التأويـل فـيـمن عنى بهذه الآية نـحو اختلافهم فـيـمن عنـي بقوله: وأنْتُـمْ تَشْهَدونَ. ذكر اختلاف الـمختلفـين فـي ذلك:

1081ـ حدثنا مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: ثُمّ أنْتُـمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ وتُـخْرِجُونَ فَرِيقا مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَـيْهِمْ بِالإثْمِ والعُدْوَانِ إلـى أهلَ الشرك حتـى تسفكوا دماءهم معهم, وتـخرجوهم من ديارهم معهم. فقال: أنّبهم الله (علـى ذلك) من فعلهم, وقد حرّم علـيهم فـي التوراة سفك دمائهم, وافترض علـيهم فـيها فداء أسراهم فكانوا فريقـين طائفة منهم من بنـي قـينقاع حلفـاء الـخزرج والنضير وقريظة حلفـاء الأوس, فكانوا إذا كانت بـين الأوس والـخزرج حرب خرجت بنو قـينقاع مع الـخزرج, وخرجت النضير وقريظة مع الأوس, يظاهر كل من الفريقـين حلفـاءه علـى إخوانه حتـى يتسافكوا دماءهم بـينهم وبأيديهم التوراة يعرفون منها ما علـيهم وما لهم, والأوس والـخزرج أهل شِرْكٍ يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا نارا, ولا بعثا, ولا قـيامة, ولا كتابـا, ولا حراما, ولا حلالاً فإذا وضعت الـحرب أوزارها افتدوا أسراهم, تصديقا لـما فـي التوراة وأخذا به بعضهم من بعض: يفتدي بنو قـينقاع ما كان من أسراهم فـي أيدي الأوس, وتفتدي النضير وقريظة ما كان فـي أيدي الـخزرج منهم, ويُطِلّون ما أصابوا من الدماء وقتلوا من قتلوا منهم فـيـما بـينهم مظاهرا لأهل الشرك علـيهم. يقول الله تعالـى ذكره حين أنّبهم بذلك: أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ أي تفـادونه بحكم التوراة وتقتلونه وفـي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من ذلك, ولا يظاهر علـيه من يشرك بـالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عَرضَ من عَرضَ الدنـيا. ففـي ذلك من فعلهم مع الأوس والـخزرج فـيـما بلغنـي نزلت هذه القصة.

1082ـ وحدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنـي عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَإذْ أخَذْنَا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دماءَكُمْ وَلا تُـخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارَكُمْ ثُمّ أقْرَرْتُـمْ وَأنْتُـمْ تَشْهَدُونَ قال: إن الله أخذ علـى بنـي إسرائيـل فـي التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا, وأيّـما عبد أو أمة وجدتـموه من بنـي إسرائيـل فـاشتروه بـما قام ثمنه فأعتقوه. فكانت قريظة حلفـاء الأوس, والنضير حلفـاء الـخزرج, فكانوا يقتتلون فـي حرب سُمَيْر, فتقاتل بنو قريظة مع حلفـائها النضير وحلفـاءَها. وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفـاءها فـيغلبونهم, فـيخرّبون بـيوتهم ويخرجونهم منها, فإذا أسر الرجل من الفريقـين كلـيهما جمعوا له حتـى يفدوه, فتعيرهم العرب بذلك, ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم وحرّم علـينا قتالهم, قالوا: فلـم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستـحيـي أن تستذلّ حلفـاؤنا. فذلك حين عيرهم جل وعز فقال: ثُمّ أنْتُـمْ هَولاء تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ وَتُـخْرِجُونَ فَرَيقا مِنْكُمْ مِنْ ديارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَـيْهِمْ بِـالإثم وَالعُدْوَانَ.

1083ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: كانت قريظة والنضير أخوين, وكانوا بهذه الـمثابة, وكان الكتاب بأيديهم. وكانت الأوس والـخزرج أخوين فـافترقا, وافترقت قريظة والنضير, فكانت النضير مع الـخزرج, وكانت قريظة مع الأوس, فـاقتتلوا, وكان بعضهم يقتل بعضا, فقال الله جل ثناؤه: ثُمّ أنْتُـمْ هَولاء تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ وَتُـخْرِجُونَ فَرِيقا مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ الآية. وقال آخرون بـما:

1084ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية قال: كان فـي بنـي إسرائيـل إذا استضعفوا قوما

أخرجوهم من ديارهم, وقد أخذ علـيهم الـميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم.

وأما العدوان فهو الفعلان من التعدي, يقال منه: عدا فلان فـي كذا عدوا وعدوانا, واعتدى يعتدي اعتداءً, وذلك إذا جاوز حدّه ظلـما وبغيا.

وقد اختلف القراء فـي قراءة: تَظَاهَرُونَ فقرأها بعضهم: تظاهرون, علـى مثال «تفـاعلون» فحذف التاء الزائدة وهي التاء الاَخرة. وقرأها آخرون: «تظّاهرون», فشدّد بتأويـل «تتظاهرون», غير أنهم أدغموا التاء الثانـية فـي الظاء لتقارب مخرجيهما فصيّروهما ظاء مشددة. وهاتان القراءتان وإن اختلفت ألفـاظهما فإنهما متفقتا الـمعنى, فسواء بأي ذلك قرأ القارىء لأنهما جميعا لغتان معروفتان وقراءتان مستفـيضتان فـي أمصار الإسلام بـمعنى واحد لـيس فـي إحداهما معنى تستـحق به اختـيارها علـى الأخرى إلا أن يختار مختار تظاهرون الـمشددة طلبـا منه تتـمة الكلـمة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإنْ يَأتُوكُمْ أسارَى تُفـادُوهُمْ وَهُوَ مُـحَرّمٌ عَلَـيْكُمْ إخْرَاجُهُمْ أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَإنْ يَأْتُوكُمْ أسارَى تُفـادُوهُمْ الـيهود يوبخهم بذلك, ويعرّفهم به قبـيح أفعالهم التـي كانوا يفعلونها. فقال لهم: ثم أنتـم بعد إقراركم بـالـميثاق الذي أخذته علـيكم أن لا تسفكوا دماءكم ولا تـخرجوا أنفسكم من دياركم تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ يعنـي به يقتل بعضُكم بعضا, وأنتـم مع قتلكم من تقتلون منكم إذا وجدتـم الأسير منكم فـي أيدي غيركم من أعدائكم تَفْدُونه ويخرج بعضكم بعضا من دياره. وقَتْلُكم إياهم وإخراجُكُموهم من ديارهم حرام علـيكم وتَرْكُهم أسرى فـي أيدي عدوّكم, فكيف تستـجيزون قتلهم ولا تستـجيزون ترك فدائهم من عدوّهم؟ أم كيف لا تستـجيزون ترك فدائهم وتستـجيزون قتلهم؟ وهم جميعا فـي اللازم لكم من الـحكم فـيهم سواء لأن الذي حرّمت علـيكم من قتلهم وإخراجهم من دورهم نظير الذي حرمت علـيكم من تركهم أسرى فـي أيدي عدوّهم أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتاب الذي فرضت علـيكم فـيه فرائضي وبـينت لكم فـيه حدودي وأخذت علـيه بـالعمل بـما فـيه ميثاقـي فتصدّقون به, فتفـادون أسراكم من أيدي عدوّكم وتَكْفُرُونَ ببعضه فتـجحدونه فتقتلون من حرّمت علـيكم قتله من أهل دينكم ومن قومكم, وتـخرجونهم من ديارهم؟ وقد علـمتـم أن الكفر منكم ببعضه نقض منكم عهدي وميثاقـي. كما:

1085ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: «ثُمّ أنْتُـمْ هَولاء تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ وَتُـخْرِجُونَ فَرِيقا مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَـيْهِمْ بـالإثْمِ والعُدْوَانِ وَإنْ يأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَـادُوهم وَهُوَ مُـحَرّمٌ عَلَـيْكُمْ إخْرَاجُهُمْ أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» فـادين والله إن فداءهم لإيـمان وإن إخراجهم لكفر, فكانوا يخرجونهم من ديارهم, وإذا رأوهم أسارى فـي أيدي عدوّهم افْتَكّوهم.

1086ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عن عكرمة, عن ابن عبـاس: «وَإنْ يَأتُوكُمْ أُسارَى تَفْدُوهُمْ» قد علـمتـم أن ذلكم علـيكم فـي دينكم, وَهُوَ مـحرّمٌ علـيكُم فـي كتابكم إخراجهُم أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ أتفـادونهم مؤمنـين بذلك, وتـخرجونهم كفرا بذلك؟

1087ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: «وَإِنْ يأتُوكُمْ أسَارَى تَفْدُوهُمْ» يقول: إن وجدته فـي يد غيرك فديته وأنت تقتله بـيدك؟

1088ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, قال: قال أبو جعفر: كان قتادة يقول فـي قوله: أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فكان إخراجهم كفرا وفداؤهم إيـمانا.

1089ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: ثُمّ أنتُـمْ هَولاَءِ تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ الآية, قال: كان فـي بنـي إسرائيـل إذا استضعفوا قوما أخرجوهم من ديارهم, وقد أخذ علـيهم الـميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسم من ديارهم, وأخذ علـيهم الـميثاق إن أسر بعضهم أن يفـادوهم. فأخرجوهم من ديارهم ثم فـادوهم. فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض آمنوا بـالفداء ففدوا, وكفروا بـالإخراج من الديار فأخرجوا.

1090ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, قال: حدثنا الربـيع بن أنس, قال: أخبرنـي أبو العالـية: أن عبد الله بن سلام مرّ علـى رأس الـجالوت بـالكوفة وهو يفـادي من النساء من لـم يقع علـيه العرب ولا يفـادي من وقع علـيه العرب, فقال له عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك فـي كتابك أنْ فـادوهنّ كلهن.

1091ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ قال: كفرهم القتل والإخراج, وإيـمانهم الفداء. قال ابن جريج: يقول: إذا كانوا عندكم تقتلونهم وتـخرجونهم من ديارهم. وأما إذا أسروا تفدونهم؟ وبلغنـي أن عمر بن الـخطاب قال فـي قصة بنـي إسرائيـل: إن بنـي إسرائيـل قد مضوا وإنكم أنتـم تُعْنَون بهذا الـحديث.

واختلف القراء فـي قراءة قوله: «وَإنْ يأتُوكُمْ أسارَى تَفْدوهُمْ» فقرأه بعضهم: «أسرى تفدوهم», وبعضهم: «أساری تفـادوهم», وبعضهم: «أسارى تفدوهم», وبعضهم: «أسرى تفـادوهم».

قال أبو جعفر: فمن قرأ ذلك: «وإن يأتوكم أسرى», فإنه أراد جمع الأسير, إذْ كان علـى «فعيـل» علـى مثال جمع أسماء ذوي العاهات التـي يأتـي واحدها علـى تقدير فعيـل, إذْ كان الأسر شبـيه الـمعنى فـي الأذى والـمكروه الداخـل علـى الأسير ببعض معانـي العاهات وألـحق جمع الـمستلـحق به بجمع ما وصفنا, فقـيـل أسير وأسْرى, كما قـيـل مريض ومَرْضَى وكَسِير وكَسْرى, وجريح وجَرْحى.

وقال أبو جعفر: وأما الذين قرءوا ذلك: «أُساری», فإنهم أخرجوه علـى مخرج جمع فُعْلان, إذ كان جمع «فعلان» الذي له «فَعْلَـى» قد يشارك جمع «فعيـل», كما قالوا سكارى وسكرى وكسالـى وكسلـى, فشبهوا أسيرا وجمعوه مرة أُسارى وأخرى أسْرى بذلك. وكان بعضهم يزعم أن معنى الأسرى مخالف معنى الأساری, ويزعم أن معنى الأسرى استئسار القوم بغير أسر من الـمستأسر لهم, وأن معنى الأسارى معنى مصير القوم الـمأسورين فـي أيدي الآسرين بأسرهم وأخذهم قهرا وغلبة.

قال أبو جعفر: وذلك ما لا وجه له يفهم فـي لغة أحد من العرب, ولكن ذلك علـى ما وصفت من جمع الأسير مرة علـى «فَعْلـى» لـما بـينت من العلة,

ومرة علـى «فُعالـى» لـما ذكرت من تشبـيههم جمعه بجمع سكران وكسلان وما أشبه ذلك.
وأولـى بـالصواب فـي ذلك قراءة من قرأ: «وَإِنْ يَأتُوكُمْ أَسْرَى» لأن «فُعالـى» فـي جمع «فَعِيـل» غير مستفـيض فـي كلام العرب. فإذا كان ذلك غير مستفـيض فـي كلامهم, وكان مستفـيضا فـاشيا فـيهم جمع ما كان من الصفـات التـي بـمعنى الآلام والزمانة واحدة علـى تقدير «فعيـل» علـى «فَعْلـى» كالذي وصفنا قبل, وكان أحد ذلك الأسير كان الواجب أن يـلـحق بنظائره وأشكاله فـيجمع جمعها دون غيرها مـمن خالفها.
وأما من قرأ: تُفـادُوهُمْ فإنه أراد أنكم تفدونهم من أسرهم, ويفدى منكم الذين أسروهم ففـادوكم بهم أسراكم منهم.
وأما من قرأ ذلك: «تَفْدُوهُمْ» فإنه أراد أنكم يا معشر الـيهود إن أتاكم الذين أخرجتـموهم منكم من ديارهم أسرى فديتـموهم فـاستنقذتـموهم. وهذه القراءة أعجب إلـيّ من الأولـى, أعنـي: «أسرى تفدوهم» لأن الذي علـى الـيهود فـي دينهم فداء أسراهم بكل حال فَدَى الآسرون أسراهم منهم أم لـم يفدوهم.
وأما قوله: وَهُوَ مُـحَرّمٌ عَلَـيْكُمْ إخْرَاجُهُمْ فإن فـي قوله: وَهُوَ وجهين من التأويـل أحدهما: أن يكون كناية عن الإخراج الذي تقدم ذكره, كأنه قال: وتـخرجون فريقا منكم من ديارهم, وإخراجهم مـحرّم علـيكم. ثم كرّر الإخراج الذي بعد وهو مـحرم علـيكم تكريرا علـى «هو», لـما حال بـين «الإخراج» و«هو» كلام. والتأويـل الثانـي: أن يكون عمادا لـما كانت الواو التـي مع «هو» تقتضي اسما يـلـيها دون الفعل, فلـما قدم الفعل قبل الاسم الذي تقتضيه الواو أن يـلـيها أولِـيَتْ «هو» لأنه اسم, كما تقول: أتـيتك وهو قائم أبوك, بـمعنى: وأبوك قائم, إذْ كانت الواو تقتضي اسما فعمدت ب«هو», إذ سبق الفعل الاسم لـيصلـح الكلام كما قال الشاعر:

فأبْلِغْ أبـا يَحيى إذَا ما لَقِـيتَهُعلـى العِيسِ فِـي آبـاطِها عَرَقٌ يَبْسُ
بأنّ السّلامَى الّذِي بِضَرِيّةٍأمِيرَ الـحِمَى قَدْ بَـاعَ حَقّـي بنـي عَبْسِ
بِثَوْبٍ وَدِينارٍ وَشاةٍ ودِرْهَمٍفَهْل هُوَ مَرْفُوعٌ بِـما هَهُنَا رأسُ

فأولـيت «هل» لطلبها الاسم العماد.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاّ خِزْيٌ فِـي الـحَيَاةِ الدّنْـيَا.
يعنـي بقوله جل ثناؤه: فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ فلـيس لـمن قتل منكم قتـيلاً فكفر بقتله إياه بنقض عهد الله الذي حكم به علـيه فـي التوراة, وأخرج منكم فريقا من ديارهم مظاهرا علـيهم أعداءهم من أهل الشرك ظلـما وعدوانا وخلافـا لـما أمره الله به فـي كتابه الذي أنزله إلـى موسى, جزاء يعنـي بـالـجزاء: الثواب وهو العوض مـما فعل من ذلك والأجر علـيه, إلاّ خِزْيٌ فِـي الـحَيَاةِ الدّنْـيَا والـخِزْي الذلّ والصغار, يقال منه: «خَزِي» الرجل يَخْزَى خِزْيا». فِـي الـحياة الدنـيا, يعنـي فـي عاجل الدنـيا قبل الآخرة.
ثم اختلف فـي الـخزي الذي أخزاهم الله بـما سلف من معصيتهم إياه.
فقال بعضهم: ذلك هو حكم الله الذي أنزله إلـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم من أخذ القاتل بـمن قتل والقَوَد به قصاصا, والانتقام للـمظلوم من الظالـم.

وقال آخرون: بل ذلك هو أخذ الـجزية منهم ما أقاموا علـى دينهم ذلة لهم وصَغَارا.
وقال آخرون: بل ذلك الـخزي الذي جَوّزوا به فـي الدنـيا إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم النّضِيرَ من ديارهم لأوّل الـحشر, وقتل مقاتلة قريظة وسَبْـي ذراريهم فكان ذلك خزيا فـي الدنـيا, ولهم فـي الآخرة عذاب عظيـم.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيَوْمَ القِـيَامَةِ يُرَدّونَ إِلـى أشَدّ العَذَابِ.
يعنـي بقوله: وَيَوْمَ القِـيَامَةِ يُرَدّونَ إلـى أشَدّ العَذَابِ: ويوم تقوم الساعة يردّ من يفعل ذلك منكم بعد الـخزي الذي يحلّ به فـي الدنـيا جزاءً علـى معصية الله إلـى أشدّ العذاب الذي أعدّ الله لأعدائه.
وقد قال بعضهم: معنى ذلك: وَيَوْمَ القِـيَامَةِ يُرَدّونَ إلـى أشَدّ العَذَابِ من عذاب الدنـيا. ولا معنى لقول قائل ذلك. ذلك بأن الله جل ثناؤه إنـما أخبر أنهم يردّون إلـى أشدّ معانـي العذاب ولذلك أدخـل فـيه الألف واللام, لأنه عنى به جنس العذاب كله دون نوع منه.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ.
اختلف القراء فـي قراءة ذلك, فقرأه بعضهم: «وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ» بـالـياء علـى وجه الإخبـار عنهم, فكأنهم نَـحَوْا بقراءتهم معنى «فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذلكَ مِنْكُمْ إلاّ خِزْيٌ فِـي الـحَياةِ الدّنْـيا ويَوْمَ القِـيامَةِ يُرَدّونَ إلـى أشَدّ العَذَابِ وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ» يعنـي عما يعمله الذين أخبر الله عنهم أنه لـيس لهم جزاء علـى فعلهم إلا الـخزي فـي الـحياة الدنـيا, ومرجعهم فـي الآخرة إلـى أشدّ العذاب.
وقرأه آخرون: وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ بـالتاء علـى وجه الـمخاطبة قال: فكأنهم نَـحَوْا بقراءتهم: أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... وَما اللّهُ بِغافِلٍ يا معشر الـيهود عَمّا تَعْمَلُونَ أنتـم.
وأعجب القراءتـين إلـيّ قراءة من قرأ بـالـياء إتبـاعا لقوله: فَما جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلكَ مِنْكُمْ ولقوله: وَيَوْمَ القِـيامَةِ يُرَدّونَ لأن قوله: «وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ» إلـى ذلك أقرب منه إلـى قوله: أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُون بِبَعْضٍ فإتبـاعه الأقرب إلـيه أولـى من إلـحاقه بـالأبعد منه. والوجه الآخر غير بعيد من الصواب. وتأويـل قوله: وما الله بساه عن أعمالهم الـخبـيثة, بل هو مُـحْصٍ لها وحافظها علـيهم حتـى يجازيهم بها فـي الآخرة ويخزيهم فـي الدنـيا فـيذلهم ويفضحهم.

الآية : 86

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{أُولَـَئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدّنْيَا بِالاَخِرَةِ فَلاَ يُخَفّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }
يعنـي بقوله جل ثناؤه أولئك الذين أخبر عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب فـيفـادون أسراهم من الـيهود, ويكفرون ببعض, فـيقتلون من حرّم الله علـيهم قتله من أهل ملتهم, ويخرجون من داره من حرّم الله علـيهم إخراجه من داره, نقضا لعهد الله وميثاقه فـي التوراة إلـيهم. فأخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين اشتروا رياسة الـحياة الدنـيا علـى الضعفـاء وأهل الـجهل والغبـاء من أهل ملتهم, وابتاعوا الـمآكل الـخسيسة الرديئة فـيها, بـالإيـمان الذي كان يكون لهم به فـي الآخرة لو كانوا أتوا به مكان الكفر

الـخـلود فـي الـجنان. وإنـما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم اشتروا الـحياة الدنـيا بـالآخرة لأنهم رضوا بـالدنـيا بكفرهم بـالله فـيها عوضا من نعيـم الآخرة الذي أعده الله لـلـمؤمنـين, فجعل حظوظهم من نعيـم الآخرة بكفرهم بـالله ثمنا لـما ابتاعوه به من خسيس الدنـيا. كما:

1092ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرُوا الـحَياةَ الدّنْـيَا بـالآخِرَةِ: استـحبوا قلـيـل الدنـيا علـى كثـير الآخرة.

قال أبو جعفر: ثم أخبر الله جل ثناؤه أنهم إذْ بـاعوا حظوظهم من نعيـم الآخرة بتركهم طاعته, وإيثارهم الكفر به والـخسيس من الدنـيا علـيه, لا حظّ لهم فـي نعيـم الآخرة, وأن الذي لهم فـي الآخرة العذاب غير مخفف عنهم فـيها العذاب لأن الذي يخفف عنه فـيها من العذاب هو الذي له حظ فـي نعيـمها, ولا حظ لهؤلاء لاشترائهم الذي كان فـي الدنـيا ودنـياهم بآخرتهم.

وأما قوله: وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ فإنه أخبر عنهم أنه لا ينصرهم فـي الآخرة أحد فـيدفع عنهم بنصرته عذاب الله, لا بقوّته ولا بشفـاعته ولا غيرهما.

الآية : 87

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىَ الْكِتَابَ وَقَفّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيّنَاتِ وَأَيّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَىَ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: آتَـيْنَا مُوسَى الكِتابَ: أنزلناه إلـيه. وقد بـينا أن معنى الإيتاء: الإعطاء فـيـما مضى قبل, والكتاب الذي آتاه الله موسى علـيه السلام هو التوراة.

وأما قوله: وَقَـفّـيْنا فإنه يعنـي: وأرْدَفْنا وأتبعنا بعضهم خـلف بعض, كما يقـفو الرجل الرجل إذا سار فـي أثره من ورائه. وأصله من القَـفَـا, يقال منه: قـفوت فلانا: إذا صرت خـلف قـفـاه, كما يقال دَبَرْته: إذا صرت فـي دبره. ويعنـي بقوله: مِنْ بَعْدِهِ: من بعد موسى. ويعنـي بـالرّسُلِ الأنبـياء, وهم جمع رسول, يقال: هو رسول وهم رسل, كما يقال: هو صبور وهم قوم صُبُر, وهو رجل شكور وهم قوم شُكُر.

وإنـما يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَقَـفّـيْنا مِنْ بَعْدِهِ بـالرّسُلِ أي أتبعنا بعضهم بعضا علـى منهاج واحد وشريعة واحدة لأن كل من بعثه الله نبـيّا بعد موسى صلى الله عليه وسلم إلـى زمان عيسى ابن مريـم, فإنـما بعثه يأمر بنـي إسرائيـل بإقامة التوراة والعمل بـما فـيها والدعاء إلـى ما فـيها, فلذلك قـيـل: وَقَـفّـيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بـالرّسُلِ يعنـي علـى منهاجه وشريعته, والعمل بـما كان يعمل به.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وآتَـيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَـمَ البَـيّنَاتِ.

يعنـي بقوله: وآتَـيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَـمَ البَـيّنَاتِ أعطينا عيسى ابن مريـم. ويعنـي بـالبـينات التـي آتاه الله إياها ما أظهر علـى يديه من الـحجج والدلالة علـى نبوّته من إحياء الـموتـى وإبراء الأكْمةِ ونـحو ذلك من الآيات التـي أبـانت منزلته من الله, ودلت علـى صدقه وصحة نبوّته. كما:

1093ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنا مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وآتَـيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَـمَ البَـيّنَاتِ أي الآيات التـي وضع

علـى يديه من إحياء الـموتـى, وخـلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فـيه فـيكون طائرا بإذن الله, وإبراء الأسقام, والـخبر بكثـير من الغيوب مـما يدّخرون فـي بـيوتهم, وما ردّ علـيهم من التوراة مع الإنـجيـل الذي أحدث الله إلـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ.

أما معنى قوله: وأيّدْناهُ فإنه قوّيناه فأعنّاه, كما:

1094ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا أبو زهير عن جويبر, عن الضحاك: وأيّدْناهُ يقول: نصرناه. يقال منه: أيدك الله: أي قوّاك, وهو رجل ذو أيد وذو آدٍ, يراد: ذو قوة. ومنه قول العجاج:

مِنْ أن تَبَدّلْتُ بِآدِي آداً

يعنـي بشبـابـي قوّة الـمشيب. ومنه قول الاَخر:

إنّ القِدَاحَ إذا اجْتَـمَعْنَ فَرَامَهَابـالكَسْرِ ذُو جَلَدٍ وَبَطْشٍ أيّدِ

يعني بالأيّد القويّ.   ثم اختلف فـي تأويـل قوله: بِرُوحِ القُدُسِ.

فقال بعضهم: روح القدس الذي أخبر الله تعالـى ذكره أنه أيد عيسى به هو جبريـل علـيه السلام. ذكر من قال ذلك:

1095ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: هو جبريـل.

1096ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي قوله: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: هو جبريـل علـيه السلام.

1097ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا أبو زهير, عن جويبر, عن الضحاك فـي قوله: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: روح القدس: جبريـل.

1098ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: أيد عيسى بجبريـل وهو روح القدس.

1099ـ وقال ابن حميد: حدثنا سلـمة عن إسحاق, قال: حدثنـي عبد الله بن عبد الرحمن بن أبـي الـحسين الـمكي, عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفرا من الـيهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أخبرنا عن الروح قال: «أنْشُدُكُمْ بِـاللّهِ وَبأيّامِهِ عِنْدَ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّهُ جِبْرِيـلُ, وَهُوَ يأتِـينِـي؟» قالوا: نعم.

وقال آخرون: الروح الذي أيد الله به عيسى هو الإنـجيـل. ذكر من قال ذلك:

1100ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: أيد الله عيسى بـالإنـجيـل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح الله, كما قال الله: وَكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إِلَـيْكَ رُوحا مِنْ أمْرِنَا.

وقال آخرون: هو الاسم الذي كان عيسى يحيـي به الـموتـى. ذكر من قال ذلك:

1101ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: هو الاسم الذي كان يحيـي عيسى به الـموتـى.

وأولـى التأويلات فـي ذلك بـالصواب قول من قال: الروح فـي هذا الـموضع جبريـل لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه أيد عيسى به, كما أخبر فـي قوله: إذْ قَالَ اللّهُ يا عِيسَى ابنَ مَرْيَـمَ اذْكُرْ نِعْمَتِـي عَلَـيْكَ وَعَلـى وَالِدَتِكَ إذْ أيّدْتُكَ بِرُوحِ القُدْسِ تُكَلّـمُ النّاسَ فِـي الـمَهْدِ وكَهْلاً وإذْ عَلّـمْتُكَ الكِتابَ وَالـحِكْمَةَ وَالتّوْرَاةَ وَالإنـجِيـلَ. فلو كان الروح الذي أيده الله به هو الإنـجيـل لكان قوله: «إذ أيدتك بروح القدس وإذ علـمتك الكتاب والـحكمة والتوراة والإنـجيـل» تكرير قول لا معنى له. وذلك أنه علـى تأويـل قول من قال: معنى: إذْ أيّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ إنـما هو: إذْ أيدتك بـالإنـجيـل, وإذْ علـمتك الإنـجيـل وهو لا يكون به مؤيدا إلا وهو معلـمه. فذلك تكرير كلام واحد من غير زيادة معنى فـي أحدهما علـى الآخر, وذلك خُـلْفٌ من الكلام, والله تعالـى ذكره يتعالـى عن أن يخاطب عبـاده بـما لا يفـيدهم به فـائدة.

وإذا كان ذلك كذلك فبـيّنٌ فساد قول من زعم أن الروح فـي هذا موضع الإنـجيـل, وإن كان جميع كتب الله التـي أوحاها إلـى رسله روحا منه لأنها تـحيا بها القلوب الـميتة, وتنتعش بها النفوس الـموليّة, وتهتدي بها الأحلام الضالة. وإنـما سمى الله تعالـى جبريـل روحا وأضافه إلـى القدس لأنه كان بتكوين الله له روحا من عنده من غير ولادة والد ولده, فسماه بذلك روحا, وأضافه إلـى القدس والقدس: هو الطهر كما سمي عيسى ابن مريـم روحا لله من أجل تكوينه له روحا من عنده من غير ولادة والد ولده. وقد بـينا فـيـما مضى من كتابنا هذا أن معنى التقديس: التطهير, والقدس: الطهر من ذلك.

وقد اختلف أهل التأويـل فـي معناه فـي هذا الـموضع نـحو اختلافهم فـي الـموضع الذي ذكرناه.

1102ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: القدس: البركة.

1103ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, قال: القدس: هو الربّ تعالـى ذكره.

1104ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وأيّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ قال: الله القدس, وأيّد عيسى بروحه. قال: نَعْتُ الله القدس. وقرأ قول الله جل ثناؤه: هُوَ اللّهُ الّذِي لا إلَهَ إلاّ هُوَ الـمَلِكُ القُدّوسُ قال: القدس والقُدّوس واحد.

1105ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: أخبرنـي عمرو بن الـحارث, عن سعيد بن أبـي هلال بن أسامة, عن عطاء بن يسار, قال: قال: نَعْتُ الله: القدس.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أفَكُلّـما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِـمَا لاَ تَهْوَى أنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُـمْ فَرَيِقا كَذّبْتُـمْ وَفَرِيقا تَقْتُلُونَ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: أفَكُلّـما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِـما لا تَهْوَى أنْفُسَكُمْ الـيهود من بنـي إسرائيـل.

1106ـ حدثنـي بذلك مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد.

قال أبو جعفر: يقول الله جل ثناؤه لهم: يا معشر يهود بنـي إسرائيـل, لقد آتـينا موسى التوراة, وتابعنا من بعده بـالرسل إلـيكم, وآتـينا عيسى ابن مريـم البـينات والـحجج إذ بعثناه إلـيكم, وقوّيناه بروح القدس. وأنتـم كلـما

جاءكم رسول من رسلـي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتـم علـيهم تـجبرا وبغْيا استكبـارَ إمامكم إبلـيس فكذبتـم بعضا منهم, وقتلتـم بعضا, فهذا فعلكم أبدا برسلـي. وقوله: أفَكُلّـما إن كان خرج مخرج التقرير فـي الـخطاب فهو بـمعنى الـخبر.

الآية : 88

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مّا يُؤْمِنُونَ }

اختلفت القراء فـي قراءة ذلك, فقرأه بعضهم: وَقَالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ مخففة اللام ساكنة, وهي قراءة عامة الأمصار فـي جميع الأقطار. وقرأه بعضهم: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ» مثقلة اللام مضمومة. فأما الذين قرءوها بسكون اللام وتـخفـيفها, فإنهم تأوّلوها أنهم قالوا قلوبنا فـي أكنة وأغطية وغُلْف. والغُلْفُ علـى قراءة هؤلاء, جمع أغلف, وهو الذي فـي غلاف وغطاء كما يقال للرجل الذي لـم يختتن: أغلف, والـمرأة غلفـاء, وكما يقال للسيف إذا كان فـي غلافه: سيف أغلف, وقوس غلفـاء, وجمعها «غُلْف», وكذلك جمع ما كان من النعوت ذكره علـى أفعل وأنثاه علـى فعلاء, يجمع علـى «فُعْل» مضمومة الأول ساكنة الثانـي, مثل أحمر وحُمر, وأصفر وصُفر, فـيكون ذلك جماعا للتأنـيث والتذكير, ولا يجوز تثقـيـل عين «فُعْل» منه إلا فـي ضرورة شعر, كما قال طَرَفة بن العبد:

أيّها الفِتْـيَانُ فِـي مَـجْلِسِنَاجَرّدوا مِنْها وِرادا وشُقُرْ

يريد: شُقْرا, لأن الشعر اضطره إلـى تـحريك ثانـيه فحركه. ومنه الـخبر الذي:

1107ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا الـحكم بن بشير بن سلـمان, قال: حدثنا عمرو بن قـيس الـملائي, عن عمرو بن مرة الـجملـي, عن أبـي البختري, عن حذيفة قال: القلوب أربعة. ثم ذكرها, فقال فـيـما ذكر: وقلب أغلف: معصوب علـيه, فذلك قلب الكافر.

ذكر من قال ذلك, يعنـي أنها فـي أغطية.

1108ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ أي فـي أكنة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنا معاوية بن صالـح, عن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: قُلُوبُنَا غُلْفٌ أي فـي غطاء.

حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ فهي القلوب الـمطبوع علـيها.

1109ـ حدثنـي عبـاس بن مـحمد, قال: حدثنا حجاج, قال: قال ابن جريج, أخبرنـي عبد الله بن كثـير, عن مـجاهد قوله: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ علـيها غشاوة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, قال: أخبرنـي عبد الله بن كثـير, عن مـجاهد: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ علـيها غشاوة.

1110ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا شريك عن الأعمش قوله: قُلُوبُنَا غُلْفٌ قال: هي فـي غلف.

1111ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ أي لا تفقه.
1112ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: وَقَالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ قال: هو كقوله: قُلُوبُنَا فِـي أكِنّةٍ.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الرزاق, عن معمر, عن قتادة فـي قوله: قُلُوبُنَا غُلْفٌ قال: علـيها طابع, قال هو كقوله: قُلُوبُنَا فِـي أكِنّةٍ.
1113ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: قُلُوبُنَا غُلْفٌ أي لا تفقه.
1114ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ قال: يقولون: علـيها غلاف وهو الغطاء.
1115ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: قُلُوبُنَا غُلْفٌ قال: يقول قلبـي فـي غلاف, فلا يخـلص إلـيه مـما تقول. وقرأ: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِـي أكِنّةٍ مِـمّا تَدْعُونَا إلَـيْهِ.
قال أبو جعفر: وأما الذين قرءوها: «غُلُفٌ» بتـحريك اللام وضمها, فإنهم تأوّلوها أنهم قالوا: قلوبنا غُلُف للعلـم, بـمعنى أنها أوعية. قال: والغلف علـى تأويـل هؤلاء جمع غلاف, كما يجمع الكتاب كُتُب, والـحجاب حُجُب, والشهاب شُهُب.
فمعنى الكلام علـى تأويـل قراءة من قرأ: «غُلُفٌ» بتـحريك اللام وضمها: وقالت الـيهود قلوبنا غُلُف للعلـم, وأوعية له ولغيره. ذكر من قال ذلك:
1116ـ حدثنـي عبـيد بن أسبـاط بن مـحمد, قال: حدثنا أبـي, عن فضيـل بن مرزوق, عن عطية: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ» قال: أوعية للذكر.
حدثنـي مـحمد بن عمارة الأسدي, قال: حدثنا عبـيد الله بن موسى, قال: أخبرنا فضيـل, عن عطية فـي قوله: «قُلُوبُنَا غُلُفٌ» قال: أوعية للعلـم.
حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا فضيـل, عن عطية, مثله.
1117ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ قال: مـملوءة علـما لا تـحتاج إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره.
والقراءة التـي لا يجوز غيرها فـي قوله: قُلُوبُنَا غُلْفٌ هي قراءة من قرأ «غُلْف» بتسكين اللام بـمعنى أنها فـي أغشية وأغطية لاجتـماع الـحجة من القراء وأهل التأويـل علـى صحتها, وشذوذ من شذّ عنهم بـما خالفه من قراءة ذلك بضم اللام. وقد دللنا علـى أن ما جاءت به الـحجة متفقة علـيه حجة علـى من بلغه, وما جاء به الـمنفرد فغير جائز الاعتراض به علـى ما جاءت به الـجماعة التـي تقوم بها الـحجة نقلاً وقولاً وعملاً فـي غير هذا الـموضع, فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـمكان.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بَلْ لَعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ.
يعنـي جل ثناؤه بقوله: بَلْ لَعَنَهُمُ اللّهُ: بل أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم وجحودهم آيات الله وبـيناته, وما ابتعث به رسله, وتكذيبهم أنبـياءه. فأخبر تعالـى ذكره أنه أبعدهم منه ومن رحمته بـما كانوا يفعلون من ذلك. وأصل اللعن: الطرد والإبعاد والإقصاء, يقال: لَعَنَ الله

فلانا يـلعنُه لَعْنا وهو ملعون, ثم يصرّف مفعول فـيقال هو لَعِينٌ ومنه قول الشماخ بن ضرار:
ذَعَرْتُ بِهِ القَطا ونَفَـيْتُ عنْهُمَكَانَ الذّئْبِ كالرّجُلِ اللّعِين
قال أبو جعفر: فـي قول الله تعالـى ذكره: بَلْ لَعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ تكذيبٌ منه للقائلـين من الـيهود: قُلُوبُنَا غُلْفٌ لأن قوله: بَلْ دلالة علـى جحده جل ذكره, وإنكاره ما ادّعوا من ذلك إذ كانت «بل» لا تدخـل فـي الكلام إلا نقضا لـمـجحود.
فإذا كان ذلك كذلك, فبـيّنٌ أن معنى الآية: وقالت الـيهود قلوبنا فـي أكنة مـما تدعونا إلـيه يا مـحمد. فقال الله تعالـى ذكره: ما ذلك كما زعموا, ولكن الله أقصى الـيهود وأبعدهم من رحمته وطردهم عنها وأخزاهم بجحودهم له ولرسله فقلـيلاً ما يؤمنون.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَقَلِـيلاً ما يُؤْمِنُونَ.
اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: فَقَلِـيلاً مَا يُؤْمِنُونَ. فقال بعضهم: معناه: فقلـيـل منهم من يؤمن, أي لا يؤمن منهم إلا قلـيـل. ذكر من قال ذلك:
1118ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: بَلْ لَعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِـيلاً مَا يُؤْمِنُونَ فلعمري لَـمن رجع من أهل الشرك أكثر مـمن رجع من أهل الكتاب, إنـما آمن من أهل الكتاب رهط يسير.
1119ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: فَقَلِـيلاً ما يُؤْمِنُونَ قال: لا يؤمن منهم إلا قلـيـل.
وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا يؤمنون إلا بقلـيـل مـما فـي أيديهم. ذكر من قال ذلك:
1120ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا أبو سفـيان, عن معمر, عن قتادة: فَقَلِـيلاً مَا يُؤْمِنُونَ قال: لا يؤمن منهم إلاّ قلـيـل. قال معمر: وقال غيره: لا يؤمنون إلاّ بقلـيـل مـما فـي أيديهم.
وأولـى التأويلات فـي قوله: فَقَلِـيلاً مَا يُؤْمِنُونَ بـالصواب ما نـحن مُتقنوه إن شاء الله وهو أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم فـي هذه الآية, ثم أخبر عنهم أنهم قلـيـلو الإيـمان بـما أنزل الله إلـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم, ولذلك نصب قوله: فَقَلِـيلاً لأنه نعت للـمصدر الـمتروك ذكره, ومعناه: بل لعنهم الله بكفرهم فإيـمانا قلـيلاً ما يؤمنون. فقد تبـين إذا بـما بـينا فساد القول الذي روي عن قتادة فـي ذلك لأن معنى ذلك لو كان علـى ما روي من أنه يعنـي به: فلا يؤمن منهم إلا قلـيـل, أو فقلـيـل منهم من يؤمن, لكان القلـيـل مرفوعا لا منصوبـا لأنه إذا كان ذلك تأويـله كان القلـيـل حينئذٍ مرافعا «ما» وإن نصب القلـيـل, و«ما» فـي معنى «من» أو «الذي» بقـيت «ما» لا مرافع لها, وذلك غير جائز فـي لغة أحد من العرب.
فأما أهل العربـية فإنهم اختلفوا فـي معنى «ما» التـي فـي قوله: فَقَلِـيلاً مَا يُؤْمِنُونَ فقال بعضهم: هي زائدة لا معنى لها, وإنـما تأويـل الكلام: فقلـيلاً يؤمنون, كما قال جل ذكره: فَبِـمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وما أشبه ذلك. فزعم أن «ما» فـي ذلك زائدة, وأن معنى الكلام: فبرحمة من الله لنت لهم وأنشد فـي ذلك مـحتـجّا لقوله ذلك ببـيت مهلهل:

لَوْ بِأبـانَيْنِ جاءَ يَخْطُبُهاخُضّبَ ما أنْفُ خاطِبٍ بدَمِ
ورغم أنه يعنـي: خضب أنف خاطب بدم, وأن «ما» زائدة.
وأنكر آخرون ما قاله قائل هذا القول فـي «ما» فـي الآية, وفـي البـيت الذي أنشده, وقالوا: إنـما ذلك من الـمتكلـم علـى ابتداء الكلام بـالـخبر عن عموم جميع الأشياء, إذ كانت «ما» كلـمة تـجمع كل الأشياء ثم تـخصّ وتعمّ ما عمته بـما تذكره بعدها. وهذا القول عندنا أولـى بـالصواب لأن زيادة «ما» لا تفـيد من الكلام معنى فـي الكلام غير جائز إضافته إلـى الله جل ثناؤه. ولعل قائلاً أن يقول: هل كان للذين أخبر الله عنهم أنهم قلـيلاً ما يؤمنون من الإيـمان قلـيـل أو كثـير فـيقال فـيهم فقلـيلاً ما يؤمنون؟ قـيـل: إن معنى الإيـمان هو التصديق, وقد كانت الـيهود التـي أخبر الله عنها هذا الـخبر تصدّق بوحدانـية الله وبـالبعث والثواب والعقاب, وتكفر بـمـحمد صلى الله عليه وسلم ونبوّته, وكل ذلك كان فرضا علـيهم الإيـمان به لأنه فـي كتبهم, ومـما جاءهم به موسى فصدّقوا ببعض هو ذلك القلـيـل من إيـمانهم, وكذّبوا ببعض فذلك هو الكثـير الذي أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به.
وقد قال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنـين بشيء, وإنـما قـيـل: فَقَلِـيلاً ما يُؤْمِنُونَ وهم بـالـجميع كافرون, كما تقول العرب: قلّـما رأيت مثل هذا قط, وقد رُوي عنها سماعا منها: مررت ببلاد قلـما تنبت إلا الكُرّاث والبصل, يعنـي: ما تنبت غير الكرّاث والبصل, وما أشبه ذلك من الكلام الذي ينطق به بوصف الشيء بـالقلة, والـمعنى فـيه نفـي جميعه.

الآية : 89

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَلَمّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدّقٌ لّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمّا جَآءَهُمْ مّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }
يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّق لِـمَا مَعَهُمْ: ولـما جاء الـيهود من بنـي إسرائيـل الذين وصف جل ثناؤه صفتهم, كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ يعنـي بـالكتاب: القرآن الذي أنزله الله علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم, مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ يعنـي مصدّق للذي معهم من الكتب التـي أنزلها الله من قبل القرآن. كما:
1121ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ وهو القرآن الذي أنزل علـى مـحمد مصدق لـما معهم من التوراة والإنـجيـل.
1122ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّق لِـمَا مَعَهُمْ وهو القرآن الذي أنزل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم مصدق لـما معهم من التوراة والإنـجيـل.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَـمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.
يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا أي وكان هؤلاء الـيهود الذين لـما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لـما معهم من الكتب التـي أنزلها الله قبل الفرقان, كفروا به يستفتـحون بـمـحمد

صلى الله عليه وسلم ومعنى الاستفتاح: الاستنصار يستنصرون الله به علـى مشركي العرب من قبل مبعثه أي من قبل أن يبعث. كما:

1123ـ حدثنـي ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري, عن أشياخ منهم قالوا: فـينا والله وفـيهم يعنـي فـي الأنصار وفـي الـيهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة, يعنـي: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا قالوا: كنا قد علوناهم دهرا فـي الـجاهلـية, ونـحن أهل الشرك, وهم أهل الكتاب, فكانوا يقولون: إن نبـيّا الاَن مبعثه قد أظل زمانه, يقتلكم قَتْلَ عادٍ وإرَم فلـما بعث الله تعالـى ذكره رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. يقول الله: فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.

1124ـ حدثنا بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى آل زيد بن ثابت, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة مولـى ابن عبـاس, عن ابن عبـاس: أن يهود كانوا يستفتـحون علـى الأوس والـخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه. فلـما بعثه الله من العرب, كفروا به, وجحدوا ما كانوا يقولون فـيه, فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بنـي سلـمة: يا معشر يهود, اتقوا الله وأسلـموا فقد كنتـم تستفتـحون علـينا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم ونـحن أهل شِرْك, وتـخبروننا أنه مبعوث, وتصفونه لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بنـي النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه, وما هو بـالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله جل ثناؤه فـي ذلك من قوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ عَلَـى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ علـى الكافِرِينَ.

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى آل زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, مثله.

1125ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي عن أبـيه, عن ابن عبـاس: وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا يقول: يستنصرون بخروج مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى مشركي العرب يعنـي بذلك أهل الكتاب فلـما بعث الله مـحمدا صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

1126ـ وحدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنـي عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن علـيّ الأزدي فـي قول الله: وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا قال: الـيهود, كانوا يقولون: اللهمّ ابعث لنا هذا النبـيّ يحكم بـيننا وبـين الناس يَسْتَفْتِـحُونَ يستنصرون به علـى الناس.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, علـى عن الأزدي وهو البـارقـي فـي قول الله جل ثناؤه: وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ فذكر مثله.

1127ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا كانت الـيهود تستفتـح بـمـحمد صلى الله عليه وسلم علـى كفـار العرب من قبل, وقالوا: اللهمّ ابعث هذا النبـيّ الذي نـجده فـي التوراة يعذّبهم ويقتلهم فلـما بعث الله

مـحمدا صلى الله عليه وسلم فرأوا أنه بعث من غيرهم كفروا به حسدا للعرب, وهم يعلـمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة فَلَـمّا جَاءَهُمْ مَا عرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.

1128ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: كانت الـيهود تستنصر بـمـحمد صلى الله عليه وسلم علـى مشركي العرب, يقولون: اللهمّ ابعث هذا النبـيّ الذي نـجده مكتوبـا عندنا حتـى يعذّب الـمشركين ويقتلهم فلـما بعث الله مـحمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب, وهم يعلـمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله: فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ علـى الكافِرِينَ.

1129ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: ولـمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَـمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ قال: كانت العرب تـمرّ بـالـيهود فـيؤذونهم, وكانوا يجدون مـحمدا صلى الله عليه وسلم فـي التوراة, ويسألون الله أن يبعثه فـيقاتلوا معه العرب فلـما جاءهم مـحمد كفروا به حين لـم يكن من بنـي إسرائيـل.

1130ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج قال: قلت لعطاء قوله: وَكَانُوا مِنْ قَبْل يَسْتَفْتِـحُونَ عَلـى الّذِينَ كَفَرُوا قال: كانوا يستفتـحون علـى كفـار العرب بخروج النبـيّ صلى الله عليه وسلم, ويرجون أن يكون منهم. فلـما خرج ورأوه لـيس منهم كفروا, وقد عرفوا أنه الـحقّ وأنه النبـيّ. قال: فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ علـى الكافِرِينَ.

قال: حدثنا ابن جريج, وقال مـجاهد: يستفتـحون بـمـحمد صلى الله عليه وسلم تقول أنه يخرج, فَلَـمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا وكان من غيرهم, كَفَرُوا بِهِ.

1131ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: وقال ابن عبـاس: كانوا يستفتـحون علـى كفـار العرب.

1132ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي الـحمانـي, قال: حدثنـي شريك, عن أبـي الـحجاب, عن مسلـم البطين, عن سعيد بن جبـير قوله: فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عرَفُوا كَفَرُوا بِهِ قال: هم الـيهود عرفوا مـحمدا أنه نبـيّ, وكفروا به.

1133ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا قال: كانوا يستظهرون يقولون نـحن نعين مـحمدا علـيهم, ولـيسوا كذلك يكذبون.

1134ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سألت ابن زيد عن قول الله عزّ وجل: وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِـحُونَ علـى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عَرفُوا كَفَرُوا بِهِ قال: كانت يهود يستفتـحون علـى كفـار العرب يقولون: أما والله لو قد جاء النبـيّ الذي بشر به موسى وعيسى أحمد لكان لنا علـيكم. وكانوا يظنون أنه منهم والعرب حولهم, وكانوا يستفتـحون علـيهم به ويستنصرون به فَلَـمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ وحسدوه. وقرأ قول الله جل ثناؤه: كُفّـارا حَسَدا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَـيّنَ لَهُمُ

الـحَقّ قال: قد تبـين لهم أنه رسول, فمن هنالك نفع الله الأوس والـخزرج بـما كانوا يسمعون منهم أن نبـيّا خارج.

فإن قال لنا قائل: فأين جواب قوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدق لِـمَا مَعَهُمْ؟ قـيـل: قد اختلف أهل العربـية فـي جوابه, فقال بعضهم: هو مـما تُرك جوابه استغناء بـمعرفة الـمخاطبـين به بـمعناه وبـما قد ذكر من أمثاله فـي سائر القرآن. وقد تفعل العرب ذلك إذا طال الكلام, فتأتـي بأشياء لها أجوبة فتـحذف أجوبتها لاستغناء سامعيها بـمعرفتهم بـمعناها عن ذكر الأجوبة, كما قال جل ثناؤه: وَلَوْ أنّ قُرآنا سُيّرَتْ بِهِ الـجِبَـالُ أوْ قُطّعَتْ بِهِ الأرْضُ أوّ كُلّـمَ بِهِ الـمَوْتَـى بَلْ لِلّهِ الأمْرُ جَمِيعا فترك جوابه. والـمعنى: «ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سيرت به الـجبـال لسُيّرت بهذا القرآن» استغناءً بعلـم السامعين بـمعناه. قالوا: فكذلك قوله: وَلَـمّا جَاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ.

وقال آخرون: جواب قوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ كِتاب مِنْ عِنْدِ اللّهِ فـي «الفـاء» التـي فـي قوله: فَلَـمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ وجواب الـجزاءين فـي «كفروا به» كقولك: لـما قمت فلـما جئتنا أحسنت, بـمعنى: لـما جئتنا إذْ قمتَ أحسنتَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَلَعنَةُ اللّهِ علـى الكافِرِينَ.

قد دللنا فـيـما مضى علـى معنى اللعنة وعلـى معنى الكفر, بـما فـيه الكفـاية. فمعنى الآية: فخزي الله وإبعاده علـى الـجاحدين ما قد عرفوا من الـحقّ علـيهم لله ولأنبـيائه الـمنكرين, لـما قد ثبت عندهم صحته من نبوة مـحمد صلى الله عليه وسلم. ففـي إخبـار الله عزّ وجل عن الـيهود بـما أخبر الله عنهم بقوله: فَلَـمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ البـيان الواضح أنهم تعمدوا الكفر بـمـحمد صلى الله عليه وسلم بعد قـيام الـحجة بنبوّته علـيهم وقطع الله عذرهم بأنه رسوله إلـيهم.

الآية : 90

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىَ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىَ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مّهِينٌ }

ومعنى قوله جل ثناؤه: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ ساء ما اشتروا به أنفسهم. وأصل «بِئْسَ»: «بَئِسَ» من البؤس, سكنت همزتها ثم نقلت حركتها إلـى البـاء, كما قـيـل فـي ظَلِلْت: ظِلْتُ, وكما قـيـل للكَبِدِ: كِبْدٌ, فنقلت حركة البـاء إلـى الكاف لـما سكنت البـاء. وقد يحتـمل أن تكون «بِئْس» وإن كان أصلها «بَئِسَ» من لغة الذين ينقلون حركة العين من فعل إلـى الفـاء إذا كانت عين الفعل أحد حروف الـحلق الستة, كما قالوا من «لَعِبَ» «لِعْبَ», ومن «سَئِمَ» «سِئْمَ», وذلك فـيـما يقال لغة فـاشية فـي تـميـم, ثم جعلت دالّة علـى الذمّ والتوبـيخ ووصلت ب«ما».

واختلف أهل العربـية فـي معنى «ما» التـي مع «بئسما», فقال بعض نـحويـي البصرة: هي وحدها اسم, و«أن يكفروا» تفسير له, نـحو: نعم رجلاً زيد. و«أن ينزل الله» بدل من «أنزل الله».

وقال بعض نـحويـي الكوفة: معنى ذلك: بئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا, ف«ما» اسم بئس, و«أن يكفروا» الاسم الثانـي. وزعم أن «أن

ينزل الله من فضله» إن شئت جعلت «أن» فـي موضع رفع, وإن شئت فـي موضع خفض. أما الرفع: فبئس الشيء هذا أن فعلوه وأما الـخفض: فبئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بـما أنزل الله بغيا. قال: وقوله: لَبِئْسَ مَا قَدّمَتْ لَهُمْ أنْفُسُهُمْ أنْ سَخِطَ اللّهُ عَلَـيْهِمْ كمثل ذلك. والعرب تـجعل «ما» وحدها فـي هذا البـاب بـمنزلة الاسم التام كقوله: فَنعِمّا هِيَ و«بئسما أنت». واستشهد لقوله ذلك برجز بعض الرّجّاز:

لا تَعْجِلا فِـي السّيْرِ وادْلُوَاهَالَبِئْسَما بُطْءٌ وَلا نَرعاها

قال أبو جعفر: والعرب تقول: لبئسما تزويج ولا مهر, فـيجعلون «ما» وحدها اسما بغير صلة. وقائل هذه الـمقالة لا يجيز أن يكون الذي يـلـي «بئس» معرفة موَقّتة وخبره معرفة موقّتة. وقد زعم أن «بئسما» بـمنزلة: بئس الشيء اشتروا به أنفسهم, فقد صارت «ما» بصلتها اسما موقتا لأن «اشتروا» فعل ماض من صلة «ما» فـي قول قائل هذه الـمقالة, وإذا وصلت بـماض من الفعل كانت معرفة موقتة معلومة فـيصير تأويـل الكلام حينئذٍ: «بئس شراؤهم كفرهم», وذلك عنده غير جائز, فقد تبـين فساد هذا القول. وكان آخر منهم يزعم أن «أن» فـي موضع خفض إن شئت, ورفع إن شئت, فأما الـخفض فأن تردّه علـى الهاء التـي فـي «به» علـى التكرير علـى كلامين, كأنك قلت: اشتروا أنفسهم بـالكفر. وأما الرفع فأن يكون مكرّرا علـى موضع «ما» التـي تلـي «بئس». قال: ولا يجوز أن يكون رفعا علـى قولك: بئس الرجلُ عبدُ الله.

وقال بعضهم: «بئسما» شيء واحد يرافع ما بعده كما حكي عن العرب: «بئسما تزويج ولا مهر» فرافع تزويج «بئسما», كما يقال: «بئسما زيد, وبئسما عمرو», فـيكون «بئسما» رفعا بـما عاد علـيها من الهاء, كأنك قلت: بئس شيء الشيء اشتروا به أنفسهم, وتكون «أن» مترجمة عن «بئسما».

وأولـى هذه الأقوال بـالصواب قول من جعل «بئسما» مرفوعا بـالراجع من الهاء فـي قوله: اشْتَرَوا بِهِ كما رفعوا ذلك بعبد الله, إذ قالوا: بئسما عبد الله, وجعل «أن يكفروا» مترجمة عن «بئسما», فـيكون معنى الكلام حينئذٍ: بئس الشي بـاع الـيهود به أنفسم كفرهم بـما أنزل الله بغيا وحسدا أن ينزل الله من فضله. وتكون «أن» التـي فـي قوله: «أن ينزل الله», فـي موضع نصب لأنه يعنـي به أن يكفروا بـما أنزل الله من أجل أن ينزل الله من فضله علـى من يشاء من عبـاده وموضعه أن جر. وكان بعض أهل العربـية من الكوفـيـين يزعم أن «أن» فـي موضع خفض بنـية البـاء. وإنـما اخترنا فـيها النصب لتـمام الـخبر قبلها, ولا خافض معها يخفضها, والـحرف الـخافض لا يخفض مضمرا. وأما قوله: اشْتَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ فإنه يعنـي به بـاعوا أنفسهم. كما:

1135ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ يقول: بـاعوا أنفسهم أن يكفروا بـما أنزل الله بغيا.

1136ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسن, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال مـجاهد: بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ يهود شروا الـحق بـالبـاطل وكتـمان ما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم بأن يبـينوه.

والعرب تقول: شَريته بـمعنى بعته, واشتروا فـي هذا الـموضع «افتعلوا»

من شريت. وكلام العرب فـيـما بلغنا أن يقولوا: شَرَيْت بـمعنى بعت, واشتريت بـمعنى ابتعت. وقـيـل إنـما سمي الشاري شاريا لأنه بـاع نفسه ودنـياه بآخرته. ومن ذلك قول يزيد بن مفرّغ الـحميري:

وَشَرَيْتُ بُرْدا لَـيْتَنِـيمِنْ قَبْلُ بُرْدٍ كُنْتُ هامَهْ

ومنه قول الـمسيّب بن عَلَس:

يُعْطَى بِها ثَمَنا فَـيَـمْنَعُهاويَقُولُ صَاحِبُهَا ألا تَشْرِي

يعنـي به: بعت بردا. وربـما استعمل «اشتريت» بـمعنى «بعت», و«شريت» فـي معنى «ابتعت», والكلام الـمستفـيض فـيهم هو ما وصفت.

وأما معنى قوله: بَغْيا فإنه يعنـي به: تعدّيا وحسدا. كما:

1137ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد بن قتادة: بَغْيا قال: أي حسدا, وهم الـيهود.

1138ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: بَغْيا قال: بغوا علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم وحسدوه, وقالوا: إنـما كانت الرسل من بنـي إسرائيـل, فما بـال هذا من بنـي إسماعيـل فحسدوه أن ينزل الله من فضله علـى من يشاء من عبـاده.

1139ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: بَغْيا يعنـي حسدا أن ينزل الله من فضله علـى من يشاء من عبـاده, وهم الـيهود كفروا بـما أنزل علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم.

حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

قال أبو جعفر: فمعنى الآية: بئس الشيء بـاعوا به أنفسهم الكفر بـالذي أنزل الله فـي كتابه علـى موسى من نبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم والأمر بتصديقه واتبـاعه, مِنْ أجل أن أنزل الله من فضله, وفضلُه حكمته وآياته ونبوّته علـى من يشاء من عبـاده يعنـي به علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا لـمـحمد صلى الله عليه وسلم, من أجل أنه كان من ولد إسماعيـل, ولـم يكن من بنـي إسرائيـل.

فإن قال قائل: وكيف بـاعت الـيهود أنفسها بـالكفر فقـيـل: بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ أنْ يَكْفُرُوا بِـمَا أنْزَلَ اللّهُ؟ وهل يشترى بـالكفر شيء؟ قـيـل: إن معنى الشراء والبـيع عند العرب: هو إزالة مالك ملكه إلـى غيره بعوض يعتاضه منه, ثم تستعمل العرب ذلك فـي كل معتاض من عمله عوضا شرّا أو خيرا, فتقول: نِعْمَ ما بـاع به فلان نفسه, وبئس ما بـاع به فلان نفسه, بـمعنى: نعم الكسب أكسبها وبئس الكسب أكسبها إذا أورثها بسعيه علـيها خيرا أو شرّا. فكذلك معنى قوله جل ثناؤه: بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ لـما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم فأهلكوها, خاطبهم الله والعرب بـالذي يعرفونه فـي كلامهم فقال: بئسما اشتروا به أنفسهم يعنـي بذلك: بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم, وبئس العوض اعتاضوا من كفرهم بـالله فـي تكذيبهم مـحمدا, إذْ كانوا قد رضوا عوضا من ثواب الله وما أعدّ لهم لو كانوا آمنوا بـالله وما أنزل علـى أنبـيائه بـالنار, وما أعدّ لهم بكفرهم بذلك. وهذه الآية وما أخبر الله فـيها عن حسد الـيهود مـحمدا صلى الله عليه وسلم وقومه من العرب, من أجل أن الله جعل النبوّة والـحكمة فـيهم دون الـيهود من بنـي إسرائيـل, حتـى دعاهم ذلك إلـى الكفر به مع

علـمهم بصدقه, وأنه نبـيّ لله مبعوث ورسول مرسل نظيرة الآية الأخرى فـي سورة النساء, وذلك قوله: ألَـم تَرَ الّذِينَ أُوتُوا نَصِيبـا مِنَ الكِتاب يُؤْمِنُونَ بِـالـجِبْتِ وَالطّاغُوتِ وَيَقُولُونَ للذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أهْدَى مِنَ الّذِينَ آمَنُوا سَبِـيلاً أُولَئِكَ الّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَنْ يَـلْعَنِ اللّهُ فَلَنْ تَـجِدَ لَهُ نَصِيرا أمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الـمُلْكِ فإذا لا يُؤْتُونَ النّاسَ نَقـيرا أمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ علـى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَـيْنا آلَ إبْرَاهِيـمَ الكِتابَ وَالـحِكْمَةَ وآتَـيْنَاهُمْ مُلْكا عَظِيـما.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أنْ يُنَزّلَ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ علـى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبـادِهِ.

قد ذكرنا تأويـل ذلك وبـيّنا معناه, ولكنا نذكر الرواية بتصحيح ما قلنا فـيه.

1140ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري, عن أشياخ منهم قوله: بَغْيا أنْ يُنَزّلَ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ علـى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبـادِهِ أي أن الله تعالـى جعله فـي غيرهم.

1141ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: هم الـيهود, ولـما بعث الله نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم فرأوا أنه بعث من غيرهم, كفروا به حسدا للعرب, وهم يعلـمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة.

1142ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, مثله.

1143ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

1144ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: قالوا: إنـما كانت الرسل من بنـي إسرائيـل, فما بـال هذا من بنـي إسماعيـل.

1145ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن علـيّ الأزدي قال: نزلت فـي الـيهود.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَبـاءوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ.

يعنـي بقوله: فَبـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ فرجعت الـيهود من بنـي إسرائيـل بعد الذي كانوا علـيه من الاستنصار بـمـحمد صلى الله عليه وسلم والاستفتاح به, وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبـيّ مبعوث مرتدين علـى أعقابهم حين بعثه الله نبـيّا مرسلاً, فبـاءوا بغضب من الله استـحقّوه منه بكفرهم بـمـحمد حين بعث, وجحودهم نبوّته, وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صفته فـي كتابهم عنادا منهم له وبغيا وحسدا له وللعرب عَلـى غَضَبٍ سالف كان من الله علـيهم قبل ذلك سابق غضبه الثانـي لكفرهم الذي كان قبل ذلك بعيسى ابن مريـم, أو لعبـادتهم العجل, أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت يستـحقون بها الغضب من الله. كما:

1146ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, فـيـما أروي عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: فَبـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ فـالغضب علـى الغضب غضبه علـيهم فـيـما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم, وغضب بكفرهم بهذا النبـيّ الذي أحدث الله إلـيهم.

1147ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا يحيى بن سعيد وعبد الرحمن, قالا: حدثنا سفـيان عن أبـي بكير, عن عكرمة: فَبـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ قال: كُفْرٌ بعيسى وكفرٌ بـمـحمد صلى الله عليه وسلم.

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يحيى بن يـمان, قال: حدثنا سفـيان, عن أبـي بكير, عن عكرمة: فَبـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ قال: كفرهم بعيسى ومـحمد صلى الله عليه وسلم.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا الثوري, عن أبـي بكير, عن عكرمة مثله.

1148ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن مغيرة, عن الشعبـي, قال: الناس يوم القـيامة علـى أربعة منازل: رجل كان مؤمنا بعيسى وآمن بـمـحمد صلـى الله علـيهما فله أجران. ورجل كان كافرا بعيسى فآمن بـمـحمد صلى الله عليه وسلم فله أجر. ورجل كان كافرا بعيسى فكفر بـمـحمد, فبـاء بغضب علـى غضب. ورجل كان كافرا بعيسى من مشركي العرب, فمات بكفره قبل مـحمد صلى الله عليه وسلم فبـاء بغضب.

1149ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: فَبـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ غضب الله علـيهم بكفرهم بـالإنـجيـل وبعيسى, وغضب علـيهم بكفرهم بـالقرآن وبـمـحمد صلى الله عليه وسلم.

1150ـ حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: فبَـاءُوا بِغَضَبٍ الـيهود بـما كان من تبديـلهم التوراة قبل خروج النبـيّ صلى الله عليه وسلم, عَلَـى غَضَبٍ جحودهم النبـيّ صلى الله عليه وسلم وكفرهم بـما جاء به.

1151ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: فَبَـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ يقول: غضب الله علـيهم بكفرهم بـالإنـجيـل وعيسى, ثم غضبه علـيهم بكفرهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم وبـالقرآن.

1152ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فَبـاءُوا بِغَضَبً علـى غَضَبٍ أما الغضب الأول: فهو حين غضب الله علـيهم فـي العجل, وأما الغضب الثانـي: فغضب علـيهم حين كفروا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم.

1153ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج وعطاء وعبـيد بن عمير قوله: فَبَـاءُوا بِغَضَبٍ علـى غَضَبٍ قال: غضب الله علـيهم فـيـما كانوا فـيه من قبل خروج النبـيّ صلى الله عليه وسلم من تبديـلهم وكفرهم, ثم غضب علـيهم فـي مـحمد صلى الله عليه وسلم إذ خرج فكفروا به.

قال أبو جعفر: وقد بـينا معنى الغضب من الله علـى من غضب علـيه من خـلقه واختلاف الـمختلفـين فـي صفته فـيـما مضى من كتابنا هذا بـما أغنى عن إعادته, والله تعالـى أعلـم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ولِلْكافِرِينَ عَذَابَ مُهِين.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: ولِلْكافِرِينَ عَذَابَ مُهِين: ولِلـجاحدين نبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم عذاب من الله إما فـي الآخرة, وإما فـي الدنـيا والآخرة مهين هو الـمذلّ صاحبه الـمخزي الـملبسه هوانا وذلة.

فإن قال قائل: أيّ عذاب هو غير مهين صاحبه فـيكون للكافرين الـمهين منه؟ قـيـل: إن الـمهين هو الذي قد بـينا أنه الـمورث صاحبه ذلّةً وهوانا الذي يخـلد فـيه صاحبه لا ينتقل من هوانه إلـى عزّ وكرامة أبدا, وهو الذي خصّ الله به أهل الكفر به وبرسله وأما الذي هو غير مهين صاحبه: فهو ما كان تـمـحيصا لصاحبه, وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام يسرق ما يجب علـيه به القطع فتُقطع يده, والزانـي منهم يزنـي فـيقام علـيه الـحدّ, وما أشبه ذلك من العذاب, والنكال الذي جعله الله كفـارات للذنوب التـي عذّب بها أهلها, وكأهل الكبـائر من أهل الإسلام الذين يعذّبون فـي الآخرة بـمقادير أجرامهم التـي ارتكبوها لـيـمـحّصوا من ذنوبهم ثم يدخـلون الـجنة. فإن كل ذلك وإن كان عذابـا فغير مهين من عذّب به, إذ كان تعذيب الله إياه به لـيـمـحصه من آثامه ثم يورده معدن العزّ والكرامة ويخـلده فـي نعيـم الـجنان.

الآية : 91

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مّؤْمِنِينَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ وإذا قـيـل للـيهود من بنـي إسرائيـل للذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم: آمِنُوا أي صدّقوا, بِـمَا أنْزَلَ اللّهُ يعنـي بـما أنزل الله من القرآن علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم. قالُوا نُؤْمِنُ أي نصدّق, بِـمَا أُنْزِلَ عَلَـيْنَا يعنـي بـالتوراة التـي أنزلها الله علـى موسى.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وَرَاءَهُ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وَرَاءَهُ ويجحدون بـما وراءه, يعنـي بـما وراء التوراة.

قال أبو جعفر: وتأويـل «وراءه» فـي هذا الـموضع «سوى» كما يقال للرجل الـمتكلـم بـالـحسن: ما وراء هذا الكلام شيء, يراد به لـيس عند الـمتكلـم به شيء سوى ذلك الكلام فكذلك معنى قوله: وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وَرَاءَهُ أي بـما سوى التوراة وبـما بعده من كتب الله التـي أنزلها إلـى رسله. كما:

1154ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وراءَهُ يقول: بـما بعده.

1155ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وَرَاءَهُ أي بـما بعده, يعنـي بـما بعد التوراة.

1156ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وَرَاءَهُ يقول: بـما بعده.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَهُوَ الـحَقّ مُصَدّقا لِـمَا مَعَهُمْ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وهُوَ الـحَقّ مُصدّقا أي ما وراء الكتاب الذي أنزل علـيهم من الكتب التـي أنزلها الله إلـى أنبـيائه الـحق. وإنـما يعنـي بذلك تعالـى ذكره القرآن الذي أنزله إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم. كما:

1157ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَإذَا قِـيـلَ لَهُمْ آمِنُوا بِـمَا أنْزَلَ اللّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِـمَا أُنْزِلَ عَلَـيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِـمَا وَرَاءَهُ وهو القرآن. يقول الله جل ثناؤه: وَهُوَ الـحَقّ مُصَدّقا لِـمَا مَعَهُمْ. وإنـما قال جل ثناؤه: مُصَدّقا لِـمَا مَعَهُمْ لأن كتب الله يصدّق بعضها بعضا ففـي الإنـجيـل والقرآن من الأمر بـاتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم والإيـمان به وبـما جاء به, مثل الذي من ذلك فـي توراة موسى علـيه السلام فلذلك قال جل ثناؤه للـيهود إذ خبرهم عما وراء كتابهم الذي أنزله علـى موسى صلوات الله علـيه من الكتب التـي أنزلها إلـى أنبـيائه: إنّهُ الـحَقّ مُصَدّقا للكتاب الذي معهم, يعنـي أنه له موافق فـيـما الـيهود به مكذّبون.

قال: وذلك خبر من الله أنهم من التكذيب بـالتوراة علـى مثل الذي هم علـيه من التكذيب بـالإنـجيـل والفرقان, عنادا لله وخلافـا لأمره وبغيا علـى رسله صلوات الله علـيهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قُلْ لـمَ تَقْتُلُونَ أنبـياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِنِـينَ.

يعنـي جل ذكره بقوله: قُلْ فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِـيَاءَ اللّهِ: قل يا مـحمد لـيهود بنـي إسرائيـل الذين إذا قلت لهم: آمِنُوا بِـمَا أنْزَلَ اللّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِـمَا أُنْزِلَ عَلَـيْنَا لِـمَ تَقْتُلُونَ إن كنتـم يا معشر الـيهود مؤمنـين بـما أنزل الله علـيكم أنْبِـياءهُ وقد حرّم الله فـي الكتاب الذي أنزل علـيكم قتلهم, بل أمركم فـيه بـاتبـاعهم وطاعتهم وتصديقهم. وذلك من الله جل ثناؤه تكذيب لهم فـي قولهم: نُؤمِنُ بِـمَا أُنْزِلَ عَلَـيْنَا وتعيـير لهم. كما:

1158ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: قال الله تعالـى ذكره وهو يعيرهم, يعنـي الـيهود: فلِـم تَقْتُلُون أنبـياء الله من قبل إن كنتـم مؤمنـين.

فآن قال قائل: وكيف قـيـل لهم: فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أنْبِـياء اللّهِ مِنْ قَبْلُ فـابتدأ الـخبر علـى لفظ الـمستقبل, ثم أخبر أنه قد مضى؟ قـيـل: إن أهل العربـية مختلفون فـي تأويـل ذلك, فقال بعض البصريـين: معنى ذلك: فلـم قتلتـم أنبـياء الله من قبل؟ كما قال جل ثناؤه: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُو الشّياطِين أي ما تلت, وكما قال الشاعر:

ولقَدْ أمُرّ علـى اللّئِيـمِ يسُبّنِيفمَضَيْتُ عَنْهُ وقُلْتُ لا يَعْنِـينِـي

يريد بقوله: «ولقد أمرّ»: ولقد مررت. واستدلّ علـى أن ذلك كذلك بقوله: «فمضيت عنه», ولـم يقل: «فأمضي عنه». وزعم أن «فعل ويفعل» قد تشترك فـي معنى واحد, واستشهد علـى ذلك بقول الشاعر:

وإنّـي لآتِـيكُمْ تَشَكّرَ ما مَضَـمِنَ الأمرِ واسْتِـيجابَ ما كانَ فِـي غَدِ

يعنـي بذلك: ما يكون فـي غد. وبقول الـحطيئة:

شَهِدَ الـحَطَيْئَةُ يَوْمَ يَـلْقَـى رَبّهُأنّ الوَلِـيدَ أحَقّ بـالعُذْرِ

يعنـي: يشهد. وكما قال الآخر:

فَمَا أُضْحي وَلا أمْسَيْتُ إلاّأرَانِـي مِنْكُمُ فـي كَوّفـانِ

فقال: أضحي, ثم قال: ولا أمسيت.

وقال بعض نـحويـي الكوفـيـين: إنـما قـيـل: فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أنْبِـياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ فخاطبهم بـالـمستقبل من الفعل ومعناه الـماضي, كما يعنف الرجلُ

الرجل علـى ما سلف منه من فعل, فـيقول له: ويحك لـم تكذب ولـم تبغّض نفسك إلـى الناس؟ كما قال الشاعر:

إذَا ما انْتَسَبْنا لَـمْ تَلِدنـي لَئِيـمَةٌولَـمْ تَـجْدِي مِنْ أنْ تُقِرّي بِهِ بُدّا

فـالـجزاء لـلمستقبل, والولادة كلها قد مضت وذلك أن الـمعنى معروف, فجاز ذلك.

قال: ومثله فـي الكلام إذا نظرت فـي سيرة عمر لـم تـجده يسيء, الـمعنى: لـم تـجده أساء, فلـما كان أمر عمر لا يشكّ فـي مضيه لـم يقع فـي الوهم أنه مستقبل, فلذلك صلـحت من قبل مع قوله: فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أنْبِـيَاءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ.

قال: ولـيس الذين خوطبوا بـالقتل هم القتلة, إنـما قتلَ الأنبـياءَ أسلافُهم الذين مضوا, فتلوهم علـى ذلك ورضوا فنسب القتل إلـيهم.

والصواب فـيه من القول عندنا أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنـي إسرائيـل, بـما خاطبهم فـي سورة البقرة وغيرها من سائر السور, بـما سلف من إحسانه إلـى أسلافهم, وبـما سلف من كفران أسلافهم نعمه, وارتكابهم معاصيه, واجترائهم علـيه وعلـى أنبيائه, وأضاف ذلك إلـى الـمخاطبـين به نظير قول العرب بعضها لبعض: فعلنا بكم يوم كذا وكذا, وفعلتـم بنا يوم كذا كذا وكذا, علـى نـحو ما قد بـيناه فـي غير موضع من كتابنا هذا يعنون بذلك أن أسلافنا فعلوا ذلك بأسلافكم وأن أوائلنا فعلوا ذلك بأوائلكم. فكذلك ذلك فـي قوله: فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أنْبِـياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إذ كان قد خرج علـى لفظ الـخبر عن الـمخاطبـين به خبرا من الله تعالـى ذكره عن فعل السالفـين منهم علـى نـحو الذي بـينا, جاز أن يقال من قبل إذْ كان معناه: قل فلـم يقتل أسلافكم أنبـياء الله من قبل؟ وكان معلوما بأن قوله: فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أنْبِـياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إنـما هو خبر عن فعل سلفهم. وتأويـل قوله: مِنْ قَبْلُ أي من قبل الـيوم.

أما قوله: إنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِنِـينَ فإنه يعنـي إن كنتـم مؤمنـين بـما أنزل الله علـيكم كما زعمتـم. وإنـما عَنَى بذلك الـيهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلافهم, إن كانوا وكنتـم كما تزعمون أيها الـيهود مؤمنـين. وإنـما عيرهم جل ثناؤه بقتل أوائلهم أنبـياءه عند قولهم حين قـيـل لهم: آمِنُوا بِـمَا أنْزَلَ اللّهُ قالُوا نُؤمِنُ بِـمَا أُنْزِلَ عَلَـيْنَا لأنهم كانوا لأوائلهم الذين تولوا قتل أنبـياء الله مع قـيـلهم: نُؤْمِنُ بِـمَا أُنْزِلَ عَلَـيْنا متولّـين, وبفعلهم راضين, فقال لهم: إن كنتـم كما تزعمون مؤمنـين بـما أنزل علـيكم, فلـم تتولون قتله أنبـياء الله؟ أي ترضون أفعالهم.

الآية : 92

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مّوسَىَ بِالْبَيّنَاتِ ثُمّ اتّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسَى بـالبَـيّناتِ أي جاءكم بـالبـينات الدالّة علـى صدقه وحقـية نبوّته كالعصا التـي تـحوّلت ثعبـانا مبـينا, ويده التـي أخرجها بـيضاء للناظرين, وفَلْق البحر, ومصير أرضه له طريقا يبسا, والـجراد والقمّل والضفـادع, وسائر الآيات التـي بـينت صدقه وحقـية نبوّته. وإنـما سماها الله بـينات لتبـينها للناظرين إلـيها أنها معجزة لا يقدر علـى أن يأتـي بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له, وإنـما هي جمع بـيّنة مثل طيبة وطيبـات.

قال أبو جعفر: ومعنى الكلام: ولقد جاءكم يا معشر يهود بنـي إسرائيـل موسى بـالآيَات البـينات علـى أمره وصدقه وحقـية نبوّته. وقوله: ثُمّ اتّـخَذْتُـم العجْلَ مِن بَعْدِهِ وأنْتُـمْ ظالِـمُونَ يقول جل ثناؤه لهم: ثم اتـخذتـم العجل من بعد موسى إلها, فـالهاء التـي فـي قوله: «من بعده» من ذكر موسى. وإنـما قال: «من بعد موسى», لأنهم اتـخذوا العجل من بعد أن فـارقهم موسى ماضيا إلـى ربه لـموعده, علـى ما قد بـيّنا فـيـما مضى من كتابنا هذا. وقد يجوز أن تكون «الهاء» التـي فـي «بعده» إلـى ذكر الـمجيء, فـيكون تأويـل الكلام حينئذ: ولقد جاءكم موسى بـالبـينات ثم اتـخذتـم العجل من بعد مـجيء البـينات وأنتـم ظالـمون, كما تقول: جئتنـي فكرهته يعنـي كرهت مـجيئك.

وأما قوله: وأنْتُـمْ ظالِـمُوهَ فإنه يعنـي بذلك أنكم فعلتـم ما فعلتـم من عبـادة العجل, ولـيس ذلك لكم وعبدتـم غير الذي كان ينبغي لكم أن تعبدوه لأن العبـادة لا تنبغي لغير الله. وهذا توبـيخ من الله للـيهود, وتعيـير منه لهم, وإخبـار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا من اتـخاذ العجل إلها وهو لا يـملك لهم ضرّا ولا نفعا, بعد الذي علـموا أن ربهم هو الربّ الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ما أجراه علـى يدي موسى صلوات الله علـيه من الأمول التـي لا يقدر علـيها أحد من خـلق الله, ولـم يقدر علـيها فرعون وجنده مع بطشه وكثرة أتبـاعه, وقرب عهدهم بـما عاينوا من عجائب حكم الله فهم إلـى تكذيب مـحمد صلى الله عليه وسلم وجحوده ما فـي كتبهم التـي زعموا أنهم بها مؤمنون من صفته ونعته مع بعد ما بـينهم وبـين عهد موسى من الـمدة أسرع, وإلـى التكذيب بـما جاءهم به موسى من ذلك أقرب.

الآية : 93

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطّورَ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مّؤْمِنِينَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَإذْ أخَذْنَا مِيثاقَكُمْ: واذكروا إذ أخذنا عهودكم بأن خذوا ما آتـيناكم من التوراة التـي أنزلتها إلـيكم أن تعملوا بـما فـيها من أمري, وتنتهوا عما نهيتكم فـيها بجدّ منكم فـي ذلك ونشاط, فأعطَيْتُـمْ علـى العمل بذلك ميثاقكم, إذْ رفعنا فوقكم الـجبل. أما قوله: وَاسْمَعُوا فإن معناه: واسمعوا ما أمرتكم به, وتقبلوه بـالطاعة كقول الرجل للرجل يأمره بـالأمر: سمعت وأطعت, يعنـي بذلك: سمعت قولك وأطعت أمرك. كما قال الراجز:

السّمْعُ والطّاعَةُ والتّسْلِـيـمُخَيْرٌ وأعْفَـى لِبَنِـي تَـمِيـمْ

يعنـي بقوله السمع: قبول ما يسمع والطاعة لـما يؤمر. فكذلك معنى قوله: وَاسْمَعُوا اقبلوا ما سمعتـم واعملوا به.

قال أبو جعفر: فمعنى الآية: وإذ أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتـيناكم بقوّة, واعملوا بـما سمعتـم, وأطيعوا الله, ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك.

وأما قوله: قالُوا سَمِعْنا فإن الكلام خرج مخرج الـخبر عن الغائب بعد أن كان الابتداء بـالـخطاب, فإن ذلك كما وصفنا من أن ابتداء الكلام إذا كان حكاية فـالعرب تـخاطب فـيه ثم تعود فـيه إلـى الـخبر عن الغائب وتـخبر

عن الغائب ثم تـخاطب كما بـينا ذلكِ فـيـما مضى قبل. فكذلك ذلك فـي هذه الآيةِ لأن قوله: وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ بـمعنى: قلنا لكم فأجبتـمونا. وأما قوله: قالُوا سَمِعْنا فإنه خبر من الله عن الـيهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بـما فـي التوراة وأن يطيعوا الله فـيـما يسمعون منها أنهم قالوا حين قـيـل لهم ذلك: سمعنا قولك وعصينا أمرك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهُمُ العِجْلَ بكُفْرِهِمْ.

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك, فقال بعضهم: وأشربوا فـي قلوبهم حبّ العجل. ذكر من قال ذلك:

1159ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: حدثنا معمر, عن قتادة: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهمُ العِجْلَ قال: أشربوا حبه حتـى خـلص ذلك إلـى قلوبهم.

1160ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ قال: أشربوا حبّ العجل بكفرهم.

1161ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر عن أبـيه, عن الربـيع: وَأُشْرِبُوا فـي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ قال: أشربوا حبّ العجل فـي قلوبهم.

وقال آخرون: معنى ذلك أنهم سقوا الـماء الذي ذُرّي فـيه سحالة العجل. ذكر من قال ذلك.

1162ـ حدثنـي موسى بن هارون. قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: لـما رجع موسى إلـى قومه أخذ العجل الذي وجدهم عاكفـين علـيه فذبحه, ثم حَرَقَه بـالـمبرد, ثم ذراه فـي الـيـمّ, فلـم يبق بحر يومئذ يجري إلا وقع فـيه شيء منه. ثم قال لهم موسى: اشربوا منه فشربوا منه, فمن كان يحبه خرج علـى شاربه الذهب فذلك حين يقول الله عزّ وجل: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

1163ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, قال: لـما سُحِلَ فألقـي فـي الـيـمّ استقبلوا جرية الـماء, فشربوا حتـى ملئوا بطونهم, فأورث ذلك من فعله منهم جُبْنا.

قال أبو جعفر: وأولـى التأويـلـين اللذين ذكرت بقول الله جل ثناؤه: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهمُ العِجْلَ تأويـل من قال: وأشربوا فـي قلوبهم حبّ العجلَ لأن الـماء لا يقال منه: أشرب فلان فـي قلبه, وإنـما يقال ذلك فـي حبّ الشيء, فـيقال منه: أشرب قلب فلان حبّ كذا, بـمعنى سقـي ذلك حتـى غلب علـيه وخالط قلبه كما قال زهير:

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبّ داخِـلٍوالـحُبّ يُشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَاءُ

قال: ولكنه ترك ذكر الـحبّ اكتفـاءً بفهم السامع لـمعنى الكلام, إذ كان معلوما أن العجل لا يشرب القلب, وأن الذي يشرب القلب منه حبه, كما قال جل ثناؤه: وَاسألْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الّتـي كانَتْ حاضرَةَ البَحْرِ وَاسْألِ القَرْيَةَ الّتِـي كُنّا فِـيهَا وَالْعِيرَ الّتِـي أقْبَلْنَا فِـيهَا, وكما قال الشاعر:

ألا إنّنـي سُقّـيتُ أسودَ حالِكاألاَ بَجَلـي مِنَ الشّرَابِ ألا بَجَلْ

يعنـي بذلك سَمّا أسود, فـاكتفـى بذكر أسود عن ذكر السم لـمعرفة السامع معنى ما أراد بقوله: «سُقـيت أسود», ويروى:

ألا إنّنـي سُقِـيتُ أسْوَدَ سالـخا

وقد تقول العرب: إذا سرّك أن تنظر إلـى السخاء فـانظر إلـى هَرِم أو إلـى حاتـم, فتـجتزىء بذكر الاسم من ذكر فعله إذا كان معروفـا بشجاعة أو سخاء أو ما أشبه ذلك من الصفـات. ومنه قول الشاعر:

يَقُولُونَ جاهِدْ يا جَمِيـلُ بِغَزْوَةٍوَإنّ جِهادا طَيّءٌ وَقِتالُهَا

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قُلْ بِئْسَما يأْمُرُكُمْ بِهِ إيـمانُكُمْ إنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِنِـينَ.

يعنـي بذلك جل ثناؤه: قل يا مـحمد لـيهود بنـي إسرائيـل: بئس الشيء يأمركم به إيـمانكم إن كان يأمركم بقتل أنبـياء الله ورسله, والتكذيب بكتبه, وجحود ما جاء من عنده. ومعنى إيـمانهم تصديقهم الذي زعموا أنهم به مصدّقون من كتاب الله, إذ قـيـل لهم: آمنوا بـما أنزل الله, فقالوا: نؤمن بـما أنزل علـينا.

وقوله: إنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِنِـينَ أي إن كنتـم مصدقـين كما زعمتـم بـما أنزل الله علـيكم. وإنـما كذّبهم الله بذلك لأن التوراة تنهي عن ذلك كله وتأمر بخلافه, فأخبرهم أن تصديقهم بـالتوراة إن كان يأمرهم بذلك فبئس الأمر تأمر به. وإنـما ذلك نفـي من الله تعالـى ذكره عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مـما يكرهه الله من أفعالهم, وأن يكون التصديق بها يدلّ علـى شيء من مخالفة أمر الله, وإعلام منه جل ثناؤه أن الذي يأمرهم بذلك أهواؤهم, والذي يحملهم علـيه البغيُ والعدوانُ.

الآية : 94

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مّن دُونِ النّاسِ فَتَمَنّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

قال أبو جعفر: وهذه الآية مـما احتـجّ الله بها لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى الـيهود الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجره, وفضح بها أحبـارهم وعلـماءهم. وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبـيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلـى قضية عادلة بـينه وبـينهم فـيـما كان بـينه وبـينهم من الـخلاف, كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه فـي عيسى صلوات الله علـيه وجادلوا فـيه إلـى فـاصلة بـينه وبـينهم من الـمبـاهلة. وقال لفريق الـيهود: إن كنتـم مـحقـين فتـمنوا الـموت, فإن ذلك غير ضاركم إن كنتـم مـحقـين فـيـما تدّعون من الإيـمان وقرب الـمنزلة من الله, بل إن أعطيتـم أمنـيتكم من الـموت إذا تـمنـيتـم فإنـما تصيرون إلـى الراحة من تعب الدنـيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله فـي جنانه, إن كان الأمر كما تزعمون أن الدار الاَخرة لكم خالصة دوننا. وإن لـم تُعْطَوْها علـم الناس أنكم الـمبطلون ونـحن الـمـحقون فـي دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم لهم. فـامتنعت الـيهود من إجابة النبـيّ صلى الله عليه وسلم إلـى ذلك لعلـمها أنها إن تـمنت الـموت هلكت فذهبت دنـياها وصارت إلـى خزي الأبد فـي آخرتها. كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبـيّ صلى الله عليه وسلم فـي عيسى إذ دُعوا إلـى الـمبـاهلة من الـمبـاهلة فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَوْ أنّ الـيَهُودَ تَـمَنّوُا الـمَوْتَ لَـمَاتُوا وَلَرَأوْا مَقاعِدَهُمْ مِنَ النّارِ, وَلَوْ خَرَجَ الّذِينَ يُبَـاهِلُونَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم لَرَجَعُوا لا يَجِدُونَ أهْلاً وَلا مالاً».

1164ـ حدثنا بذلك أبو كريب, قال: حدثنا أبو زكريا بن عديّ, قال: حدثنا عبـيد الله بن عمرو, عن عبد الكريـم, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
1165ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثام بن علـيّ, عن الأعمش, عن ابن عبـاس فـي قوله: فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ قال: لو تـمنوا الـموت لشرق أحدهم بريقه.
1166ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن عبد الكريـم الـجزري, عن عكرمة فـي قوله: فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ قال: قال ابن عبـاس: لو تـمنى الـيهود الـموت لـماتوا.
حدثنـي موسى, قال: أخبرنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, عن ابن عبـاس, مثله.
1167ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, قال أبو جعفر فـيـما أروي: أنبأنا عن سعيد أو عكرمة, عن ابن عبـاس قال: لو تـمنوه يوم قال لهم ذلك, ما بقـي علـى ظهر الأرض يهودي إلا مات.
قال أبو جعفر: فـانكشف, لـمن كان مشكلاً علـيه أمر الـيهود يومئذ, كذبهم وبَهْتهم وبغيهم علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم, وظهرت حجة رسول الله وحجة أصحابه علـيهم, ولـم تزل والـحمد لله ظاهرة علـيهم وعلـى غيرهم من سائر أهل الـملل. وإنـما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ لأنهم فـيـما ذكر لنا قالُوا نَـحْنُ أبْناءُ اللّهِ وأحبّـاؤهُ وقالوا: لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُودا أوْ نَصَارَى فقال الله لنبـيّه مـحمد صلى الله عليه وسلم: قل لهم إن كنتـم صادقـين فـيـما تزعمون فتـمنوا الـموت فأبـان الله كذبهم بـامتناعهم من تـمنـي ذلك, وأفلـج حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقد اختلف أهل التأويـل فـي السبب الذي من أجله أمر الله نبـيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الـيهود أن يتـمنوا الـموت, وعلـى أيّ وجه أمروا أن يتـمنوه.
فقال بعضهم: أمروا أن يتـمنوه علـى وجه الدعاء علـى الفريق الكاذب منهما. ذكر من قال ذلك:
1168ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن سعيد أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قال الله لنبـيه صلى الله عليه وسلم: قُلْ إنْ كَانَتْ لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَة عندَ اللّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَـمَنّوا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ أي ادعوا بـالـموت علـى أيّ الفريقـين أكذب. وقال آخرون بـما:
1169ـ حدثنـي بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَةُ عِنْدَ اللّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ وذلك أنهم قالُوا لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصارى وَقالُوا: نَـحْنُ أبْناءُ اللّهِ وأحِبّـاؤُهُ فقـيـل لهم: فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ.
1170ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: قالت الـيهود: لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُودا أوْ نَصَارَى وَقالُوا: نَـحْنُ أبْناءُ اللّهِ وأحِبّـاؤُهُ فقال الله: قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ

الدّارُ الاَخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ فلـم يفعلوا.

1171ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنـي أبو جعفر, عن الربـيع قوله: قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَةُ عِنْدَ اللّهِ خَالِصَةً الآية, وذلك بأنهم قالُوا لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى وقالُوا: نَـحْنُ أبْناءُ اللّهِ وأحِبـاؤُهُ.

وأما تأويـل قوله: قلْ إنْ كانَت لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَةِ عِنْدَ اللّهِ خَالِصَةً فإنه يقول: قل يا مـحمد إن كان نعيـم الدار الآخرة ولذاتها لكم يا معشر الـيهود عند الله. فـاكتفـى بذكر «الدار» من ذكر نعيـمها لـمعرفة الـمخاطبـين بـالآية معناها. وقد بـينا معنى الدار الاَخرة فـيـما مضى بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع.

وأما تأويـل قوله: خالِصَةً فإنه يعنـي به صافـية, كما يقال: خـلص لـي فلان بـمعنى صار لـي وحدي وصَفَـا لـي يقال: منه خـلص لـي هذا الشيء, فهو يخـلص خُـلُوصا وخالصة, والـخالصة مصدر مثل العافـية, ويقال للرجل: هذا خُـلْصانـي, يعنـي خالصتـي من دون أصحابـي. وقد رُوي عن ابن عبـاس أنه كان يتأول قوله: خالِصَةً خاصة, وذلك تأويـل قريب من معنى التأويـل الذي قلناه فـي ذلك.

1172ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس: قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَةُ قال: قل يا مـحمد لهم يعنـي الـيهود إن كانت لكم الدار الاَخرة يعنـي الـخير عِنْدَ اللّهِ خَالِصَةً يقول: خاصة لكم.

وأما قوله: مِنْ دُونِ النّاسِ فإن الذي يدل علـيه ظاهر التنزيـل أنهم قالوا: لنا الدار الاَخرة عند الله خالصة من دون جميع الناس. ويبـين أن ذلك كان قولهم من غير استثناء منهم من ذلك أحدا من بنـي آدم إخبـارُ الله عنهم أنهم قالوا: لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى. إلا أنه رُوي عن ابن عبـاس قول غير ذلك.

1173ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: مِنْ دُونِ النّاسِ يقول: من دون مـحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين استهزأتـم بهم, وزعمتـم أن الـحق فـي أيديكم, وأن الدار الاَخرة لكم دونهم.

وأما قوله: فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ فإن تأويـله: تشهّوه وأرِيدُوه. وقد رُوي عن ابن عبـاس أنه قال فـي تأويـله: «فسلوا الـموت». ولا يعرف التـمنـي بـمعنى الـمسألة فـي كلام العرب, ولكن أحسب أن ابن عبـاس وجه معنى الأمنـية إذا كانت مـحبة النفس وشهوتها إلـى معنى الرغبة والـمسألة, إذ كانت الـمسألة هي رغبة السائل إلـى الله فـيـما سأله.

1174ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس: فَتَـمَنّوُ الـمَوْتَ فسلوا الـموت إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ.

الآية : 95

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَنْ يَتَمَنّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمينَ }

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن الـيهود وكراهتهم الـموت وامتناعهم عن الإجابة إلـى ما دعوا إلـيه من تـمنـي الـموت, لعلـمهم بأنهم إن فعلوا ذلك فـالوعيد بهم نازل والـموت بهم حالّ, ولـمعرفتهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الله إلـيهم مرسل وهم به مكذّبون, وأنه لـم يخبرهم خبرا إلا كان حقّا كما أخبر, فهم يحذرون أن يتـمنوا الـموت خوفـا أن يحلّ بهم عقاب الله بـما كسبت أيديهم من الذنوب, كالذي:

1175ـ حدثنـي مـحمد بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد فـيـما يروي أبو جعفر, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الاَخِرَةُ الآية, أي ادعوا بـالـموت علـى أيّ الفريقـين أكذب, فَأَبَوْا ذلك علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول الله لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم: وَلَنْ يَتَـمَنّوْهُ أَبَدا بِـمَا قَدّمَتْ أيْدِيهِمْ أي لعلـمهم بـما عندهم من العلـم بك والكفر بذلك.

1176ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك عن ابن عبـاس: وَلَنْ يَتَـمَنّوْهُ أبَدا يقول: يا مـحمد ولن يتـمنوه أبدا لأنهم يعلـمون أنهم كاذبون, ولو كانوا صادقـين لتـمنوه ورغبوا فـي التعجيـل إلـى كرامتـي, فلـيس يتـمنونه أبدا بـما قدمت أيديهم.

1177ـ حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج قوله: فَتَـمَنّوُا الـمَوْتَ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ وكانت الـيهود أشدّ فرارا من الـموت, ولـم يكونوا لـيتـمنوه أبدا.

وأما قوله: بِـمَا قَدَمَتْ أيْدِيهِمْ فإنه يعنـي به بـما أسلفته أيديهم. وإنـما ذلك مثل علـى نـحو ما تتـمثل به العرب فـي كلامها, فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرّها أو جناية جناها فـيعاقب علـيها: نالك هذا بـما جنت يداك, وبـما كسبت يداك, وبـما قدمت يداك فتضيف ذلك إلـى الـيد, ولعلّ الـجناية التـي جناها فـاستـحقّ علـيها العقوبة كانت بـاللسان أو بـالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سوى الـيد.

قال: وإنـما قـيـل ذلك بإضافته إلـى الـيد لأن عظم جنايات الناس بأيديهم, فجرى الكلام بـاستعمال إضافة الـجنايات التـي يجنـيها الناس إلـى أيديهم حتـى أضيف كل ما عوقب علـيه الإنسان مـما جناه بسائر أعضاء جسده إلـى أنها عقوبة علـى ما جنته يده فلذلك قال جل ثناؤه للعرب: ولَنْ يَتَـمَنّوْهُ أبَدا بِـمَا قَدّمَتْ أيْدِيهِمْ يعنـي به: ولن يتـمنى الـيهود الـموت بـما قدموا أمامهم من حياتهم من كفرهم بـالله فـي مخالفتهم أمره وطاعته فـي اتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله, وهم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة, ويعلـمون أنه نبـيّ مبعوث. فأضاف جل ثناؤه ما انطوت علـيه قلوبهم وأضمرته أنفسهم ونطقت به ألسنتهم من حسد مـحمد صلى الله عليه وسلم, والبغي علـيه, وتكذيبه, وجحود رسالته إلـى أيديهم, وأنه مـما قدمته أيديهم, لَعَلِـمَ العرب معنى ذلك فـي منطقها وكلامها, إذ كان جل ثناؤه إنـما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها. وروي عن ابن عبـاس فـي ذلك ما:

1178ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: بِـمَا قَدّمَتْ أيْدِيهِمْ يقول: بـما أسلفت أيديهم.
1179ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: بِـمَا قَدّمَتْ أيْدِيهِمْ قال: إنهم عرفوا أن مـحمدا صلى الله عليه وسلم نبـيّ فكتـموه.
وأما قوله: واللّهُ عَلِـيـم بـالظالِـمِينَ فإنه يعنـي جل ثناؤه: والله ذو علـم بظلَـمَةِ بنـي آدم: يهودِها ونصاراها وسائر أهل الـملل غيرها, وما يعملون. وظلـم الـيهود كفرهم بـالله فـي خلافهم أمره وطاعته فـي اتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا يستفتـحون به وبـمبعثه, وجحودهم نبوّته وهم عالـمون أنه نبـيّ الله ورسوله إلـيهم. وقد دللنا علـى معنى الظالـم فـيـما مضى بـما أغنى عن إعادته.

الآية : 96

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَلَتَجِدَنّهُمْ أَحْرَصَ النّاسِ عَلَىَ حَيَاةٍ وَمِنَ الّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }
يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَلَتَـجِدَنّهُمْ أحْرَصَ النّاسِ علـى حَياةٍ الـيهود يقول: يا مـحمد لتـجدن أشدّ الناس حرصا علـى الـحياة فـي الدنـيا وأشدّهم كراهة للـموت الـيهود. كما:
1180ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد فـيـما يروي أبو جعفر عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وَلَتَـجِدَنّهُمْ أحْرَصَ النّاسِ علـى حَياةٍ يعنـي الـيهود.
1181ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن أبـي العالـية: وَلَتَـجِدَنّهُمْ أحْرَصَ النّاسِ علـى حَياةٍ يعنـي الـيهود.
1182ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.
1183ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.
وإنـما كراهتهم الـموت لعلـمهم بـما لهم فـي الآخرة من الـخزي والهوان الطويـل.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا.
يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا وأحرص من الذين أشركوا علـى الـحياة, كما يقال: هو أشجع الناس ومن عنترة, بـمعنى: هو أشجع من الناس ومن عنترة, فكذلك قوله: وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا لأن معنى الكلام: ولتـجدنّ يا مـحمد الـيهود من بنـي إسرائيـل أحرص الناس علـى حياة ومن الذين أشركوا. فلـما أضيف «أحرص» إلـى «الناس», وفـيه تأويـل «من» أظهرت بعد حرف العطف ردّا علـى التأويـل الذي ذكرناه.
وإنـما وصف الله جل ثناؤه الـيهود بأنهم أحرص الناس علـى الـحياة لعلـمهم بـما قد أعدّ لهم فـي الآخرة علـى كفرهم بـما لا يقرّ به أهل الشرك, فهم للـموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بـالبعث لأنهم

يؤمنون بـالبعث, ويعلـمون ما لهم هنالك من العذاب, وأن الـمشركين لا يصدّقون بـالبعث, ولا العقاب. فـالـيهود أحرص منهم علـى الـحياة وأكره للـموت.

وقـيـل: إن الذين أشركوا الذين أخبر الله تعالـى ذكره أن الـيهود أحرص منهم فـي هذه الآية علـى الـحياة هم الـمـجوس الذين لا يصدّقون بـالبعث. ذكر من قال هم الـمـجوس:

1184ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ يعنـي الـمـجوس.

1185ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ قال: الـمـجوس.

1186ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنـي ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا قال: يهود أحرص من هؤلاء علـى الـحياة. ذكر من قال: هم الذين ينكرون البعث:

1187ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد فـيـما يروي أبو جعفر, عن سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس: وَلَتَـجِدَنّهُمْ أحْرَصَ النّاسِ علـى حَياةٍ وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا وذلك أن الـمشرك لا يرجو بعثا بعد الـموت فهو يحبّ طول الـحياة, وأن الـيهودي قد عرف ما له فـي الآخرة من الـخزي بـما ضيع مـما عنده من العلـم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ.

هذا خبر من الله جل ثناؤه بقوله عن الذين أشركوا, الذين أخبر أن الـيهود أحرص منهم علـى الـحياة, يقول جل ثناؤه: يودّ أحد هؤلاء الذين أشركوا إلا بعد فناء دنـياه وانقضاء أيام حياته أن يكون له بعد ذلك نشور أو مـحيا أو فرح أو سرور لو يعمر ألف سنة حتـى جعل بعضهم تـحية بعض عشرة آلاف عام حِرْصا منهم علـى الـحياة. كما:

1188ـ حدثنا مـحمد بن علـيّ بن الـحسن بن شقـيق, قال: سمعت أبـي علـيا, أخبرنا أبو حمزة, عن الأعمش, عن مـجاهد, عن ابن عبـاس فـي قوله: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ قال: هو قول الأعاجم سأل زه نوروز مهرجان حر.

1189ـ وحدثت عن نعيـم النـحوي, عن عطاء بن السائب, عن سعيد بن جبـير: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ قال: هو قول أهل الشرك بعضهم لبعض إذا عطس: زه هزارسال.

1190ـ حدثنا إبراهيـم بن سعيد ويعقوب بن إبراهيـم, قالا: حدثنا إسماعيـل بن علـية, عن ابن أبـي نـجيح عن قتادة فـي قوله: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ قال: حُببت إلـيهم الـخطيئة طول العمر.

حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: حدثنـي ابن معبد, عن ابن علـية, عن ابن أبـي نـجيح فـي قوله: يَوَدّ أحَدُهُمْ فذكر مثله.

1191ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: وَلَتَـجِدَنّهُمْ أحْرَصَ النّاسِ علـى حَياةٍ حتـى بلغ: لَوْ يُعَمّرُ ألْف سَنَةٍ يهود أحرص من هؤلاء علـى الـحياة, وقد ودّ هؤلاء لو يعمّر أحدهم ألف سنة.

1192ـ وحدثت عن أبـي معاوية, عن الأعمش, عن سعيد, عن ابن عبـاس فـي قوله: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ قال: هو قول أحدهم إذا عطس زه هزار سال, يقول: عشرة آلاف سنة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ وما التعمير وهو طول البقاء بـمُزَحْزِحه من عذاب الله. وقوله: هُوَ عماد لطلب «ما» الاسم أكثر من طلبها الفعل, كما قال الشاعر:

فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِـمَا هَهُنَا رأسُ

و«أن» التـي فـي: أنْ يُعَمّرَ رفع بـمزحزحه, أو هو الذي مع «ما» تكرير عماد للفعل لاستقبـاح العرب النكرة قبل الـمعرفة. وقد قال بعضهم إن «هو» الذي مع «ما» كناية ذكر العمر, كأنه قال: يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة, وما ذلك العمر بـمزحزحه من العذاب. وجعل «أن يعمر» مترجما عن «هو», يريد: ما هو بـمزحزحه التعمير.

وقال بعضهم: قوله: وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ نظير قولك: ما زيد بـمزحزحه أن يعمر. وأقرب هذه الأقوال عندنا إلـى الصواب ما قلنا, وهو أن يكون هو عمادا نظير قولك: ما هو قائم عمرو.

وقد قال قوم من أهل التأويـل: إن «أن» التـي فـي قوله: «أن يعمر» بـمعنى: وإن عمّر, وذلك قول لـمعانـي كلام العرب الـمعروف مخالف. ذكر من قال ذلك:

1193ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع عن أبـي العالـية: ومَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ يقول: وإن عمر.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع مثله.

1194ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: أن يعمر ولو عمر.

وأما تأويـل قوله: بِـمُزَحْزِحِهِ فإنه بـمبعده ومُنَـحّيه, كما قال الـحُطَيئة:

وقالُوا تَزَحْزَحْ ما بِنا فَضْلُ حاجَةٍإلَـيْكَ وَما مِنّا لِوَهْيِكَ رَاقِعُ

يعنـي بقوله تزحزح: تبـاعد, يقال منه: زحزحه يزحزحه زحزحةً وزِحزاحا, وهو عنك متزحزح: أي متبـاعد.

فتأويـل الآية: وما طول العمر بـمبعده من عذاب الله ولا منـحيه منه لأنه لا بد للعمر من الفناء ومصيره إلـى الله. كما:

1195ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد فـيـما أري, عن سعيد بن جبـير, أو عن عكرمة, عن ابن عبـاس: وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ أي ما هو بـمنـحّيه من العذاب.

1196ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ يقول: وإن عمر, فما ذاك بـمغيثه من العذاب ولا منـجّيه.

حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

1197ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: ثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ فهم الذين عادوا جبريـل علـيه السلام.
1198ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: يَوَدّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِـمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمّرَ ويهود أحرص علـى الـحياة من هؤلاء, وقد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة, ولـيس ذلك بـمزحزحه من العذاب لو عُمّر كما عُمّر إبلـيس لـم ينفعه ذلك, إذ كان كافرا ولـم يزحزحه ذلك عن العذاب.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: واللّهُ بَصِيرٌ بِـمَا يَعْمَلُونَ يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَاللّهُ بَصِيرٌ بِـمَا يَعْمَلُونَ والله ذو إبصار بـما يعملون, لا يخفـى علـيه شيء من أعمالهم, بل هو بجميعها مـحيط ولها حافظ ذاكر حتـى يذيقهم بها العقاب جزاءها. وأصل بصير مبصر من قول القائل: أبصرت فأنا مبصر ولكن صرف إلـى فعيـل, كما صرف مسمع إلـى سميع, وعذاب مؤلـم إلـى ألـيـم, ومبدع السموات إلـى بديع, وما أشبه ذلك.

الآية : 97

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لّجِبْرِيلَ فَإِنّهُ نَزّلَهُ عَلَىَ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىَ لِلْمُؤْمِنِينَ }
أجمع أهل العلـم بـالتأويـل جميعا علـى أن هذه الآية نزلت جوابـا للـيهود من بنـي إسرائيـل, إذْ زعموا أن جبريـل عدوّ لهم, وأن ميكائيـل ولـيّ لهم. ثم اختلفوا فـي السبب الذي من أجله قالوا ذلك, فقال بعضهم: إنـما كان سبب قـيـلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بـينهم وبـين رسول الله صلى الله عليه وسلم فـي أمر نبوّته ذكر من قال ذلك:
1199ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس, عن بكير, عن عبد الـحميد بن بهرام, عن شهر بن حوشب, عن ابن عبـاس أنه قال: حضرت عصابة من الـيهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبـا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهنّ لا يعلـمهن إلا نبـيّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَلُوا عَمّا شِئْتُـمْ, وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِـي ذِمّةَ اللّهِ وَمَا أخَذَ يَعْقُوبُ علـى بَنِـيهِ لَئِنْ أنا حَدّثْتُكُمْ شَيْئا فَعَرَفْتُـمُوهُ لَتُتابِعُنّـي علـى الإسْلامِ». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَلُونِـي عَمّا شِئْتُـمْ» فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن أخبرنا أيّ الطعام حرّم إسرائيـل علـى نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء الـمرأة وماء الرجل, وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبـيّ الأميّ فـي النوم ومَنْ ولـيه من الـملائكة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَلَـيْكُمْ عَهْدُ اللّهِ لَئِنْ أنا أنْبَأتُكُمْ لَتُتابِعُنّـي». فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق, فقال: «نَشَدْتُكُمْ بـالّذِي أنْزَلَ التّوْرَاةَ علـى مُوسَى هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّ إسْرَائِيـلَ مَرِضَ مَرَضا شَدِيدا فَطالَ سَقَمُه مِنْه, فَنَذَرَ نَذْرا لَئِنْ عافـاه الله مِنْ سَقَمِهِ لَـيُحَرّمَنّ أحَبّ الطّعامِ والشرَابِ إلَـيْهِ وكانَ أحَبّ الطّعامِ إلَـيْهِ لَـحْمُ الإبِلِ؟» قال أبو جعفر: فـيـما أري: «وأحَبّ الشّرَابِ إلَـيْهِ ألْبـانها» فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشْهِدُ الله عَلَـيْكُمْ وأنْشُدُكُمْ بِـاللّهِ الّذِي لا إلَه إلاّ هُوَ الّذِي أنْزَلَ التّوْرَاةَ علـى مُوسَى, هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّ ماءَ الرّجُلِ أبْـيَضُ غَلِـيظٌ, وأنّ مَاءَ الـمَرأةِ أصْفَرُ رَقِـيقٌ, فَأيّهُما عَلاَ كَانَ لَهُ الوَلَدُ

وَالشّبَهُ بإذْنِ اللّهِ, فَـاذَا عَلاَ مَاءُ الرّجُلِ مَاءَ الـمَرْأَةِ كَانَ الْوَلَدُ ذَكَرا بِـاذْنِ اللّهِ وَإذَا عَلاَ مَاءُ الْـمَرَأَةِ مَاءَ الرّجُلِ كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى بِـاذْنِ اللّهِ؟». قالوا: اللهم نعم قال: «اللّهُمّ اشْهَدْ». قال: «وَأنْشُدُكُمْ بـالّذِي أنْزَلَ التّوْرَاةَ علـى مُوسَى, هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّ هَذَا النّبِـيّ ألامّيّ تَنامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنامُ قَلْبُهُ؟». قالوا: اللهم نعم قال: «اللّهُمّ أشهَدْ». قالوا: أنت الاَن تـحدثنا مَنْ ولـيك من الـملائكة؟ فعندها نتابعك أو نفـارقك. قال: «فَـانّ وَلِـيّـي جِبْرِيـلُ, وَلَـمْ يَبْعَثِ اللّهُ نَبِـيّا قَطّ إلاّ وَهُوَ وَلِـيّهُ». قالوا: فعندها نفـارقك, لو كان ولـيك سواه من الـملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فَمَا يَـمْنَعُكُمْ أنْ تُصَدّقُوهُ؟» قالوا: إنه عدوّنا. فأنزل الله عزّ وجل: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ علـى قَلْبِكَ بِـاذْنِ اللّهِ إلـى قوله: كأنّهُمْ لا يَعْلَـمُونَ. فعندها بـاءوا بغضب علـى غضب.

1200ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي عبد الله بن عبد الرحمن بن أبـي الـحسين, يعنـي الـمكي, عن شهر بن حوشب الأشعري, أن نفرا من الـيهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا مـحمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن فإن فعلت اتبعناك وصدّقناك وآمنا بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَلَـيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللّهِ وَمِيثَاقُهُ لَئِنْ أنا أخْبَرْتُكُمْ بِذَلِكَ لَتُصَدّقُنّـي» قالوا: نعم. قال: «فـاسألُوا عَمّا بَدَا لَكُمْ». فقالوا: أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنـما النطفة من الرجل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنْشُدُكُمْ بِـاللّهِ وَبِـءَايّامِهِ عِنْدَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّ نُطْفَةَ الرّجُلِ بَـيْضَاءُ غَلِـيظَةٌ, وَنُطْفَةَ الـمَرأةِ صَفْرَاءُ رَقِـيقَةٌ, فَأيّهُمَا غَلَبَتْ صَاحِبَتها كانَ لَهَا الشّبَهُ؟» قالوا: نعم. قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ قال: «أنْشُدُكُمْ بِـاللّهِ وَبِأيّامِهِ عِنْدَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ, هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّ هَذَا النّبِـيّ الأميّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ؟» قالوا: اللهم نعم. قال: «اللّهُمّ اشْهَدْ» قالوا: أخبرنا أيّ الطعام حرّم إسرائيـل علـى نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ قال: «هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّهُ كَانَ أحَبّ الطّعامِ وَالشّرابِ إلَـيْهِ ألْبـانُ الإبِلِ ولُـحُومِهَا, وأنّهُ اشْتَكَى شَكْوَى فَعافَـاهُ اللّهُ مِنْهَا, فَحَرّمَ أحَبّ الطّعامِ وَالشّرَابِ إلَـيْهِ شُكْرا لِلّهِ فَحَرّمَ علـى نَفْسِهِ لُـحُومَ الإبِلِ وألْبَـانِهَا؟» قالوا: اللهم نعم. قالوا: فأخبرنا عن الروح قال: «أنْشَدُكُمْ بـالله وبأيّامِهِ عِنْدَ بَنِـي إسْرَائِيـلَ, هَلْ تَعْلَـمُونَ أنّهُ جِبْرِيـلُ وَهُوَ الّذِي يأتِـينِـي؟» قالوا: نعم, ولكنه لنا عدوّ, وهو مَلَك إنـما يأتـي بـالشدّة وسفك الدماء, فلولا ذلك اتبعناك. فأنزل الله فـيهم: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ علـى قَلْبِكَ إلـى قوله: كأنّهُمْ لاَ يَعْلَـمُونَ.

1201ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: حدثنـي القاسم بن أبـي بزة: أن يهود سألوا النبـيّ صلى الله عليه وسلم مَنْ صاحبه الذي ينزل علـيه بـالوحي, فقال: «جِبْرِيـل». قالوا: فإنه لنا عدوّ ولا يأتـي إلا بـالـحرب والشدة والقتال. فَنَزَلَ: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ الآية.

قال ابن جريج: وقال مـجاهد: قالت يهود: يا مـحمد ما ينزل جبريـل إلا بشدة وحرب, وقالوا: إنه لنا عدوّ فنزل: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ الآية.

وقال آخرون: بل كان سبب قـيـلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بـين عمر بن الـخطاب رضي الله عنه وبـينهم فـي أمر النبـيّ صلى الله عليه وسلم. ذكر من قال ذلك:

1202ـ حدثنـي مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا ربعي بن علـية, عن داود بن أبـي هند, عن الشعبـي, قال: نزل عمر الرّوْحَاء, فرأى رجالاً يبتدرون أحجارا يصلّون إلـيها, فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلـى ههنا. فكره ذلك وقال: إنـما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بوادٍ فصلـى ثم ارتـحل فتركه. ثم أنشأ يحدثهم فقال: كنت أشهد الـيهود يوم مِدْرَاسهم فأعجب من التوراة كيف تصدّق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة, فبـينـما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا ابن الـخطاب ما من أصحابك أحد أحبّ إلـينا منك قلت: ولـم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتـينا. قال: قلت إنـي آتـيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدّق التوراة ومن التوراة كيف تصدّق الفرقان قال: ومَرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا ابن الـخطاب ذاك صاحبكم فـالـحق به قال: فقلت لهم عند ذلك: أنشدكم بـالله الذي لا إلَه إلا هو وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه, أتعلـمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. قال: فقال عالـمهم وكبـيرهم: إنه قد عظّم علـيكم فأجيبوه قالوا: أنت عالـمنا وسيدنا فأجبه أنت. قال: أما إذْ أنشدتنا به, فإنا نعلـم أنه رسول الله. قال: قلت: ويحكم إذا هلكتـم. قالوا: إنا لـم نهلك. قال: قلت: كيف ذاك وأنتـم تعلـمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم, ثم لا تتبعونه, ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدوّا من الـملائكة وسِلْـما من الـملائكة, وإنه قُرِنَ به عدوّنا من الـملائكة. قال: قلت: ومن عدوّكم ومن سِلْـمُكم؟ قالوا: عدوّنا جبريـل وسلـمنا ميكائيـل. قال: قلت: وفـيـم عاديتـم جبريـل وفـيـم سالـمتـم ميكائيـل؟ قالوا: إن جبريـل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونـحو هذا, وإن ميكائيـل ملك الرأفة والرحمة والتـخفـيف ونـحو هذا. قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يـمينه والاَخر عن يساره, قال: قلت: فوالله الذي لا إلَه إلا هو إنهما والذي بـينهما لعدوّ لـمن عاداهما وسلـم لـمن سالـمهما, ما ينبغي لـجبريـل أن يسالـم عدوّ ميكائيـل, ولا لـميكائيـل أن يسالـم عدوّ جبريـل. قال: ثم قمت فـاتبعت النبـيّ صلى الله عليه وسلم, فلـحقته وهو خارج من مَخْرَفة لبنـي فلان فقال لـي: «يَا ابْنَ الـخَطّابِ ألاَ أُقْرِئُكَ آياتٍ نَزَلْنَ؟» فقرأ علـي: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ عَلـى قَلْبِكَ بِـاذْنِ اللّهِ مُصَدّقا لـمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ} حتـى قرأ الاَيات. قال: قلت: بأبـي أنت وأمي يا رسول الله والذي بعثك بـالـحقّ لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الـخبر فأسمع اللطيف الـخبـير قد سبقنـي إلـيك بـالـخبر.

حدثنـي يعقوب, قال: حدثنا إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن داود, عن الشعبـي, قال: قال عمر: كنت رجلاً أغشى الـيهود فـي يوم مدراسهم ثم ذكر نـحو حديث ربعي.

1203ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: ذكر لنا أن عمر بن الـخطاب انطلق ذات يوم إلـى الـيهود, فلـما أبصروه رحّبوا به, فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لـحبكم ولا للرغبة فـيكم, ولكن جئت لأسمع منكم فسألهم وسألوه, فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبريـل. فقالوا: ذاك عدوّنا من أهل السماء يُطْلِع مـحمدا علـى سرّنا, وإذا جاء جاء بـالـحرب والسّنَةِ, ولكن صاحب صاحبنا ميكائيـل, وكان إذا جاء جاء بـالـخصب وبـالسلـم, فقال لهم عمر: أفتعرفون

جبريـل وتنكرون مـحمدا ففـارقهم عمر عند ذلك وتوجه نـحو رسول الله صلى الله عليه وسلم لـيحدّثه حديثهم, فوجده قد أنزل علـيه هذه الآية: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجبْرِيـلَ فإنّهُ نَزّلَهُ علـى قَلْبِكَ بإذْنِ اللّهِ.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا آدم, قال: حدثنا أبو جعفر عن قتادة, قال: بلغنا أن عمر بن الـخطاب أقبل علـى الـيهود يوما فذكر نـحوه.

1204ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ قال: قالت الـيهود: إن جبريـل هو عدوّنا لأنه ينزل بـالشدّة والـحرب والسنة, وإن ميكائيـل ينزل بـالرخاء والعافـية والـخصب, فجبريـل عدوّنا. فقال الله جل ثناؤه: مَنْ كَانَ عَدُوّا لـجِبْرِيـلَ.

1205ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ عَلَـى قَلْبِكَ بِـاذْنِ اللّهِ مُصَدّقا لِـمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ قال: كان لعمر بن الـخطاب أرض بأعلـى الـمدينة, فكان يأتـيها, وكان مـمرّه علـى طريق مدراس الـيهود, وكان كلـما دخـل علـيهم سمع منهم. وإنه دخـل علـيهم ذات يوم, فقالوا: يا عمر ما فـي أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم أحد أحبّ إلـينا منك إنهم يـمرّون بنا فـيؤذوننا, وتـمرّ بنا فلا تؤذينا, وإنا لنطمع فـيك. فقال لهم عمر: أيّ يـمين فـيكم أعظم؟ قالوا: الرحمن الذي أنزل التوراة علـى موسى بطورسيناء. فقال لهم عمر: فأنشدكم بـالرحمن الذي أنزل التوراة علـى موسى بطورسيناء, أتـجدون مـحمدا صلى الله عليه وسلم عندكم؟ فـاسكتوا. فقال: تكلـموا ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاكّ فـي شيء من دينـي فنظر بعضهم إلـى بعض, فقام رجل منهم فقال: أخبروا الرجل لتـخْبِرُنّه أو لأخبرنّه قالوا: نعم, إنا نـجده مكتوبـا عندنا ولكن صاحبه من الـملائكة الذي يأتـيه بـالوحي هو جبريـل وجبريـل عدوّنا, وهو صاحب كل عذاب أو قتال أو خسف, ولو أنه كان ولـيه ميكائيـل إذا لآمنا به, فإن ميكائيـل صاحب كل رحمة وكل غيث. فقال لهم عمر: فأنشدكم بـالرحمن الذي أنزل التوراة علـى موسى بطورسيناء, أين مكان جبريـل من الله؟ قالوا: جبريـل عن يـمينه, وميكائيـل عن يساره. قال عمر: فأشهدكم أن الذي هو عدوّ للذي عن يـمينه عدوّ للذي هو عن يساره, والذي هو عدوّ للذي هو عن يساره عدوّ للذي هو عن يـمينه, وأنه من كان عدوّهما فإنه عدوّ الله. ثم رجع عمر لـيخبر النبـيّ صلى الله عليه وسلم, فوجد جبريـل قد سبقه بـالوحي, فدعاه النبـيّ صلى الله عليه وسلم فقرأ علـيه, فقال عمر: والذي بعثك بـالـحقّ, لقد جئتك وما أريد إلاّ أن أخبرك.

1206ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج الرازي, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مغراء, قال: حدثنا زهير, عن مـجاهد, عن الشعبـي, قال: انطلق عمر إلـى يهود, فقال: إنـي أنشدكم بـالذي أنزل التوراة علـى موسى هل تـجدون مـحمدا فـي كتابكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يـمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لـم يبعث رسولاً إلا كان له كِفْلٌ من الـملائكة, وإن جبريـل هو الذي يتكفل لـمـحمد, وهو عدوّنا من الـملائكة, وميكائيـل سِلْـمُنا فلو كان هو الذي يأتـيه اتبعناه. قال: فإنـي أنشدكم بـالذي أنزل التوراة علـى موسى, ما منزلتهما من ربّ العالـمين؟ قالوا: جبريـل عن يـمينه, وميكائيـل عن جانبه الآخر. فقال: إنـي أشهد ما يقولون إلا بإذن الله, وما

كان لـميكائيـل أن يعادي سلـم جبريـل, وما كان جبريـل لـيسالـم عدوّ ميكائيـل. (فبـينـما هو عندهم) إذ مرّ نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم, فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الـخطاب. فقام إلـيه فأتاه وقد أنزل علـيه: مَن كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ علـى قَلْبِكَ بِـاذْنِ اللّهِ إلـى قوله: فَـانّ اللّهَ عَدُوّ للكافِرِينَ.

1207ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا حصين بن عبد الرحمن, عن ابن أبـي لـيلـى فـي قوله: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ قال: قالت الـيهود للـمسلـمين: لو أن ميكائيـل كان الذي ينزل علـيكم لتبعناكم, فإنه ينزل بـالرحمة والغيث, وإن جبريـل ينزل بـالعذاب والنقمة وهو لنا عدوّ. قال: فنزلت هذه الآية: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ.

1208ـ حدثنـي يعقوب, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا عبد الـملك, عن عطاء بنـحو ذلك.

وأما تأويـل الآية, أعنـي قوله: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ عَلـى قَلْبِكَ بِـاذْنِ اللّهِ فهو أن الله يقول لنبـيه: قل يا مـحمد لـمعاشر الـيهود من بنـي إسرائيـل الذين زعموا أن جبريـل لهم عدوّ من أجل أنه صاحب سطوات وعذاب وعقوبـات لا صاحب وحي وتنزيـل ورحمة, فأبوا اتبـاعك وجحدوا نبوّتك, وأنكروا ما جئتهم به من آياتـي وبـينات حكمي من أجل أن جبريـل ولـيك وصاحب وحيـي إلـيك, وزعموا أنه عدوّ لهم: من يكن من الناس لـجبريـل عدوّا ومنكرا أن يكون صاحب وحي الله إلـى أنبـيائه وصاحب رحمته فإنـي له ولـيّ وخـلـيـل, ومقرّ بأنه صاحب وحي إلـى أنبـيائه ورسله, وأنه هو الذي ينزل وحي الله علـى قلبـي من عند ربـي بإذن ربـي له بذلك يربط به علـى قلبـي ويشدّ فؤادي. كما:

1209ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ قال: وذلك أن الـيهود قالت حين سألت مـحمدا صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثـير, فأخبرهم بها علـى ما هي عندهم إلا جبريـل, فإن جبريـل كان عند الـيهود صاحب عذاب وسطوة, ولـم يكن عندهم صاحب وحي يعنـي تنزيـل من الله علـى رسله ولا صاحب رحمة. فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فـيـما سألوه عنه أن جبريـل صاحب وحي الله, وصاحب نقمته, وصاحب رحمته. فقالوا: لـيس بصاحب وحي ولا رحمة هو لنا عدوّ. فأنزل الله عزّ وجل إكذابـا لهم: قُلْ يا مـحمد مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ عَلَـى قَلْبِكَ يقول: فإن جبريـل نزّله. يقول: نزل القرآن بأمر الله يشدّ به فؤادك ويربط به علـى قلبك, يعنـي بوحينا الذي نزل به جبريـل علـيك من عند الله, وكذلك يفعل بـالـمرسلـين والأنبـياء من قبلك.

1210ـ حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّا لِـجِبْرِيـلَ فَـانّهُ نَزّلَهُ عَلـى قَلْبِكَ بإذْنِ الله يقول: أنزل الكتاب علـى قلبك بإذن الله.

1211ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: فإنّهُ نَزّلَهُ عَلَـى قَلْبِكَ يقول: نزّل الكتاب علـى قلبك جبريـلُ.

قال أبو جعفر: وإنـما قال جل ثناؤه: فَـانّهُ نَزّلَهُ عَلَـى قَلْبِكَ وهو يعنـي بذلك قلب مـحمد صلى الله عليه وسلم, وقد أمر مـحمدا فـي أول الآية أن يخبر الـيهود بذلك عن نفسه, ولـم يقل: فإنه نزّله علـى قلبـي. ولو قـيـل «علـى

قلبـي» كان صوابـا من القول لأن من شأن العرب إذا أمرت رجلاً أن يحكي ما قـيـل له عن نفسه أن تـخرج فعل الـمأمور مرّة مضافـا إلـى كناية نفس الـمخبر عن نفسه, إذ كان الـمخبر عن نفسه ومرّة مضافـا إلـى اسمه كهيئة كناية اسم الـمخاطب لأنه به مخاطب فتقول فـي نظير ذلك: «قل للقوم إن الـخير عندي كثـير» فتـخرج كناية اسم الـمخبر عن نفسه لأنه الـمأمور أن يخبر بذلك عن نفسه, و«قل للقوم: إن الـخير عندك كثـير» فتـخرج كناية اسمه كهيئة كناية اسم الـمخاطب لأنه وإن كان مأمورا بقـيـل ذلك فهو مخاطب مأمور بحكاية ما قـيـل له. وكذلك: «لا تقل للقوم: إنـي قائم», و«لا تقل لهم: إنك قائم», والـياء من إنـي اسم الـمأمور بقول ذلك علـى ما وصفنا ومن ذلك قول الله عزّ وجل: «قُلْ لِلّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ» و«تُغلبون» بـالـياء والتاء.

وأما جبريـل, فإن للعرب فـيه لغات. فأما أهل الـحجاز فإنهم يقولون جبريـل وميكال بغير همز بكسر الـجيـم والراء من جبريـل وبـالتـخفـيف وعلـى القراءة بذلك عامة قراء أهل الـمدينة والبصرة. أما تـميـم وقـيس وبعض نـجد فـيقولون جَبْرَئيـل وميكائيـل, علـى مثال جَبْرَعِيـل وميكاعيـل بفتـح الـجيـم والراء وبهمز وزيادة ياء بعد الهمزة. وعلـى القراءة بذلك عامة قرّاء أهل الكوفة, كما قال جرير بن عطية:

عَبَدُوا الصّلِـيبَ وَكَذّبوا بِـمُـحَمّدٍوبِجَبْرَئِيـلَ وَكَذّبُوا مِيكالاَ

وقد ذكر عن الـحسن البصري وعبد الله بن كثـير أنهما كانا يقرآن: «جَبْريـل» بفتـح الـجيـم وترك الهمز.

قال أبو جعفر: وهي قراءة غير جائزة القراءة بها, لأن «فعيـل» فـي كلام العرب غير موجود. وقد اختار ذلك بعضهم, وزعم أنه اسم أعجمي كما يقال: سَمْويـل, وأنشد فـي ذلك:

بِحَيْثُ لَوْ وُزِنَتْ لَـخْمٌ بأجمَعِهاما وَازَنَتْ رِيشَةً مِنْ رِيشِ سَمْوِيلا

وأما بنو أسد فإنها تقول «جِبْرِين» بـالنون. وقد حكي عن بعض العرب أنها تزيد فـي جبريـل ألفـا فتقول: جبرائيـل وميكائيـل. وقد حكي عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ «جَبْرَئَلّ» بفتـح الـجيـم والهمز وترك الـمدّ وتشديد اللام, فأما «جبر» و«ميك» فإنهما هما الاسمان اللذان أحدهما بـمعنى عبد والآخر بـمعنى عبـيد, وأما «إيـل» فهو الله تعالـى ذكره. كما:

1212ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا جرير بن نوح الـحمانـي, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد بن جبـير, قال: قال ابن عبـاس: جبريـل وميكائيـل كقولك عبد الله.

1213ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يحيى بن واضح, قال: حدثنا الـحسين بن واقد, عن يزيد النـحوي, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: جبريـل: عبد الله, وميكائيـل: عبـيد الله, وكل اسم إيـل فهو الله.

1214ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن الأعمش, عن إسماعيـل بن رجاء, عن عمير مولـى ابن عبـاس: أن إسرائيـل وميكائيـل وجبريـل وإسرافـيـل, كقولك عبد الله.

1215ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن الأعمش, عن الـمنهال بن عمرو, عن عبد الله بن الـحارث, قال: «إيـل» الله بـالعبرانـية.

1216ـ حدثنا الـحسين بن يزيد الضحاك, قال: حدثنا إسحاق بن منصور, قال: حدثنا قـيس, عن عاصم, عن عكرمة, قال: جبريـل اسمه عبد الله, وميكائيـل اسمه عبـيد الله, إيـل: الله.

1217ـ حدثنـي الـحسين بن عمرو بن مـحمد العنقزي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن مـحمد بن عمرو بن عطاء, عن علـيّ بن حسين, قال: اسم جبريـل عبد الله, واسم ميكائيـل عبـيد الله, واسم إسرافـيـل عبد الرحمن وكل معبد بإيـل فهو عبد الله.

1218ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا قبـيصة بن عقبة, قال: حدثنا سفـيان, عن مـحمد الـمدنـي قال الـمثنى, قال قبـيصة: أراه مـحمد بن إسحاق عن مـحمد بن عمرو بن عطاء, عن علـي بن حسين, قال: ما تعدّون جبريـل فـي أسمائكم؟ قال: جبريـل عبد الله, وميكائيـل عبـيد الله, وكل اسم فـيه إيـل فهو معبّد لله.

1219ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن مـحمد بن عمرو بن عطاء, عن علـيّ بن حسين, قال: قال لـي: هل تدري ما اسم جبريـل من أسمائكم؟ قلت: لا, قال: عبد الله, قال: فهل تدري ما اسم ميكائيـل من أسمائكم؟ قال: لا, قال: عبـيد الله. وقد سمّى لـي إسرائيـل بـاسم نـحو ذلك فنسيته, إلا أنه قد قال لـي: أرأيت كل اسم يرجع إلـى إيـل فهو معبد به.

حدثنا ابن وكيع, قال: حدثنا أبـي, عن سفـيان, عن خصيف, عن عكرمة فـي قوله: جِبْرِيـلَ قال: جبر: عبد, إيـل: الله, وميكا قال: عبد, إيـل: الله.

قال أبو جعفر: فهذا تأويـل من قرأ جبرائيـل بـالفتـح والهمز والـمدّ, وهو إن شاء الله معنى من قرأ بـالكسر وترك الهمز.

وأما تأويـل من قرأ ذلك بـالهمز وترك الـمدّ وتشديد اللام, فإنه قصد بقوله ذلك كذلك إلـى إضافة «جبر» و«ميكا» إلـى اسم الله الذي يسمى به بلسان العرب دون السريانـي والعبرانـي وذلك أن الإلّ بلسان العرب الله كما قال: لاَ يَرْقُبُونَ فِـي مُؤْمِنٍ إلاّ وَلاَ ذِمّةً فقال جماعة من أهل العلـم: الإلّ: هو الله. ومنه قول أبـي بكر الصديق رضي الله عنه لوفد بنـي حنـيفة حين سألهم عما كان مسيـلـمة يقول, فأخبروه, فقال لهم: ويحكم أين ذهب بكم والله, إن هذا الكلام ما خرج من إلَ ولا بِرَ. يعنـي من إلّ: من الله. وقد:

1220ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن سلـيـمان التـيـمي, عن أبـي مـجلز فـي قوله: لاَ يَرْقُبُونَ فِـي مُؤْمِنٍ إلاّ وَلاَ ذِمّةً قال: قول جبريـل وميكائيـل وإسرافـيـل, كأنه يقول حين يضيف «جبر» و«ميكا» و«إسرا» إلـى «إيـل» يقول: عبد الله, لا يرقبون فـي مُؤْمِنٍ إلاّ كأنه يقول: لا يرقبون الله عزّ وجلّ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مُصَدّقا لِـمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: مُصَدّقا لِـمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ القرآن. ونصب مصدّقا علـى القطع من الهاء التـي فـي قوله: نَزّلَهُ علـى قَلْبِكَ. فمعنى الكلام: فإن جبريـل نزّل القرآن علـى قلبك يا مـحمد مصدقا لـما بـين يدي القرآن, يعنـي بذلك مصدقا لـما سلف من كتب الله أمامه, ونزلت علـى رسله الذين كانوا قبل مـحمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه إياها موافقة معانـيه معانـيها فـي الأمر بـاتبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم. وما جاء به من عند الله, وهي تصدّقُه. كما:

1221ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق عن الضحاك, عن ابن عبـاس: مُصَدّقا لِـمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ يقول: لـما قبله من الكتب التـي أنزلها الله والآيات والرسل الذين بعثهم الله بـالآيات نـحو موسى ونوح وهود وشعيب وصالـح وأشبـاههم من الرسل صلـى الله علـيهم.

1222ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: مُصَدّقا لِـمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التّورَاةِ وَالإنـجِيـلِ.

1223ـ حدثت عن عمار قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَهُدًى وبُشْرَى لِلْـمُؤْمِنِـينَ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَهُدًى ودلـيـل وبرهان. وإنـما سماه الله جل ثناؤه «هُدًى» لاهتداء الـمؤمن به, واهتداؤه به اتـخاذه إياه هاديا يتبعه وقائدا ينقاد لأمره ونهيه وحلاله وحرامه. والهادي من كل شيء ما تقدم أمامه, ومن ذلك قـيـل لأوائل الـخيـل: هَوَادِيها, وهو ما تقدم أمامها, وكذلك قـيـل للعنق: الهادي, لتقدمها أمام سائر الـجسد.

وأما البشرى فإنها البشارة. أخبر الله عبـاده الـمؤمنـين جل ثناؤه أن القرآن لهم بشرى منه لأنه أعلـمهم بـما أعدّ لهم من الكرامة عنده فـي جناته, وما هم إلـيه صائرون فـي معادهم من ثوابه. وذلك هو البشرى التـي بشر الله بها الـمؤمنـين فـي كتابه لأن البشارة فـي كلام العرب هي إعلام الرجل بـما لـم يكن به عالـما مـما يسره من الـخير قبل أن يسمعه من غيره أو يعلـمه من قبل غيره. وقد روي فـي ذلك عن قتادة قول قريب الـمعنى مـما قلناه.

1224ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: هُدًى وبُشْرَى لِلْـمُؤْمِنِـينَ لأن الـمؤمن إذا سمع القرآن حفظه ورعاه وانتفع به واطمأن إلـيه وصدّق بـموعود الله الذي وعد فـيه, وكان علـى يقـين من ذلك.

الآية : 98

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{مَن كَانَ عَدُوّاً للّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنّ اللّهَ عَدُوّ لّلْكَافِرِينَ }

وهذا خبر من الله جل ثناؤه: من كان عدوا لله من عاداه وعادى جميع ملائكته ورسله, وإعلام منه أن من عادى جبريـل فقد عاداه وعادى ميكائيـل وعادى جميع ملائكته ورسله لأن الذين سماهم الله فـي هذه الآية هم أولـياء الله وأهل طاعته, ومن عادى لله ولـيّا فقد عادى الله وبـارزه بـالـمـحاربة, ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته لأن العدوّ لله عدوّ لأولـيائه, والعدوّ لأولـياء الله عدوّ له. فكذلك قال للـيهود الذين قالوا: إن جبريـل عدوّنا من الـملائكة, وميكائيـل ولـينا منهم: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِلّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيـلُ وَمِيكَالَ فَـانّ اللّهَ عَدُوّ للكافِرِينَ من أجل أن عدوّ جبريـل عدوّ كل ولـيّ لله. فأخبرهم جل ثناؤه أن من كان عدوّا لـجبريـل فهو لكل من ذكره من ملائكته ورسله وميكال عدوّ, وكذلك عدوّ بعض رسل الله عدوّ لله ولكل ولـيّ. وقد:

1225ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يحيى بن واضح, قال: حدثنا عبـيد الله يعنـي العتكي عن رجل من قريش, قال: سأل النبـيّ صلى الله عليه وسلم الـيهود فقال: «أسألُكُمْ بِكِتابِكُمْ الّذِي تَقْرَءونَ هَلْ تَـجِدُونَ بِهِ قَدْ بَشّرَ بِـي عِيسَى ابْنُ مَرْيَـمَ أنْ يأتِـيكُمْ رَسُولٌ اسمُهُ أحْمَدُ؟» فقالوا: اللهمّ وجدناك فـي كتابنا ولكنا كرهناك لأنك تستـحل الأموال وتهريق الدماء فأنزل الله: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِلّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ الآية.

1226ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن حصين بن عبد الرحمن, عن عبد الرحمن بن أبـي لـيـلـى, قال: إن يهوديّا لقـي عمر فقال له: إن جبريـل الذي يذكره صاحبك هو عدوّ لنا. فقال له عمر: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِلّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكالَ فَـانّ اللّهَ عَدُوّ للكافِرِين قال: فنزلت علـى لسان عمر. وهذا الـخبر يدل علـى أن الله أنزل هذه الآية توبـيخا للـيهود فـي كفرهم بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وإخبـارا منه لهم أن من كان عدوّا لـمـحمد فـالله له عدوّ, وأن عدوّ مـحمد من الناس كلهم لـمن الكافرين بـالله الـجاحدين آياته.

فإن قال قائل: أوَ لـيس جبريـل وميكائيـل من الـملائكة؟ قـيـل: بلـى. فإن قال: فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما, وقد مضى ذكرهما فـي الآية فـي جملة أسماء الـملائكة؟ قـيـل: معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن الـيهود لـما قالت: جبريـل عدوّنا وميكائيـل ولـيّنا, وزعمت أنها كفرت بـمـحمد صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريـل صاحب مـحمد صلى الله عليه وسلم, أعلـمهم الله أن من كان لـجبريـل عدوّا, فإن الله له عدوّ, وأنه من الكافرين. فنصّ علـيه بـاسمه, وعلـى ميكائيـل بـاسمه, لئلا يقول منهم قائل: إنـما قال الله: من كان عدوّا لله وملائكته ورسله, ولسنا لله ولا لـملائكته ورسله أعداء لأن الـملائكة اسم عام مـحتـمل خاصّا وجبريـل وميكائيـل غير داخـلـين فـيه. وكذلك قوله: وَرُسُلِهِ فلست يا مـحمد داخلاً فـيهم. فنصّ الله تعالـى علـى أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم لـيقطع بذلك تلبـيسهم علـى أهل الضعف منهم, ويحسم تـمويههم أمورهم علـى الـمنافقـين. وأما إظهار اسم الله فـي قوله: فَـانّ اللّهَ عَدُوّ لْلكَافِرِينَ وتكريره فـيه, وقد ابتدأ أوّل الـخبر بذكره فقال: مَنْ كَانَ عَدُوّا لِلّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ فلئلا يـلتبس لو ظهر ذلك بكناية, فقـيـل: فإنه عدوّ للكافرين علـى سامعه مَن الـمعنّـي بـالهاء التـي فـي «فإنه» أألله أم رسل الله جل ثناؤه, أم جبريـل, أم ميكائيـل؟ إذ لو جاء ذلك بكناية علـى ما وصفت, فإنه يـلتبس معنى ذلك علـى من لـم يوقـف علـى الـمعنى بذلك لاحتـمال الكلام ما وصفت. وقد كان بعض أهل العربـية يوجه ذلك إلـى نـحو قول الشاعر:

لَـيْتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنْعَبُ دَائِبـاكانَ الغُرَابُ مُقَطّعَ الأوْدَاجِ

وأنه إظهار الاسم الذي حظه الكناية عنه. والأمر فـي ذلك بخلاف ما قال وذلك أن الغراب الثانـي لو كان مكنـيّ عنه لـما التبس علـى أحد يعقل كلام العرب أنه كناية اسم الغراب الأوّل, إذ كان لا شيء قبله يحتـمل الكلام أن يوجه إلـيه غير كناية اسم الغراب الأول وأن قبل قوله: فَـانّ اللّهَ عَدُوّ لْلكَافِرِينَ أسماء لو جاء اسم الله تعالـى ذكره مكنـيا عنه لـم يعلـم من الـمقصود إلـيه بكناية الاسم إلا بتوقـيف من حجة, فلذلك اختلف أمراهما.

الآية : 99

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاّ الْفَاسِقُونَ }
يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إلَـيْكَ آياتٍ أي أنزلنا إلـيك يا مـحمد علامات واضحات دالات علـى نبوّتك. وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم من خفـايا علوم الـيهود ومَكْنُون سرائر أخبـارهم وأخبـار أوائلهم من بنـي إسرائـيـل, والنبأ عما تضمنته كتبهم التـي لـم يكن يعلـمها إلا أحبـارهم وعلـماؤهم, وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه من أحكامهم, التـي كانت فـي التوراة, فأطلعها الله فـي كتابه الذي أنزله علـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم. فكان فـي ذلك من أمره الآيات البـينات لـمن أنصف نفسه ولـم يدعه إلـى إهلاكها الـحسد والبغي, إذْ كان فـي فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتـى بـمثل الذي أتـى به مـحمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البـينات التـي وصفت من غير تعلّـم تعلـمه من بشر ولا أَخْذِ شيء منه عن آدمي. وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك روي الـخبر عن ابن عبـاس.

1227ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إلَـيْكَ آياتٍ بَـيّنَاتٍ يقول: فأنت تتلوه علـيهم وتـخبرهم به غدوة وعشية وبـين ذلك, وأنت عندهم أميّ لـم تقرأ كتابـا, وأنت تـخبرهم بـما فـي أيديهم علـى وجهه. يقول الله: ففـي ذلك لهم عبرة وبـيان وعلـيهم حجة لو كانوا يعلـمون.

1228ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, عن عكرمة مولـى ابن عبـاس, وعن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: قال ابن صوريا القطيونـي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا مـحمد ما جئتنا بشيء نعرفه, وما أنزل الله علـيك من آية بـينة فنتبعك بها فأنزل الله عزّ وجل: وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إلَـيْكَ آياتٍ بَـيّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إلا الفـاسِقُونَ.

حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس قال: قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فذكر مثله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَا يَكْفُرُ بِها إلاّ الفـاسِقُونَ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إلاّ الفَـاسِقُونَ وما يجحد بها. وقد دللنا فـيـما مضى من كتابنا هذا علـى أن معنى الكفر الـجحود بـما أغنى عن إعادته هاهنا. وكذلك بـينا معنى الفسق, وأنه الـخروج عن الشيء إلـى غيره.

فتأويـل الآية: ولقد أنزلنا إلـيك فـيـما أوحينا إلـيك من الكتاب علامات واضحات تبـين لعلـماء بنـي إسرائـيـل وأحبـارهم الـجاحدين نبوّتك والـمكذّبـين رسالتك أنك لـي رسول إلـيهم ونبـيّ مبعوث, وما يجحد تلك الآيات الدالات علـى صدقك ونبوّتك التـي أنزلتها إلـيك فـي كتابـي فـيكذّب بها منهم, إلا الـخارج منهم من دينه, التارك منهم فرائضي علـيه فـي الكتاب الذي تدين بتصديقه. فأما الـمتـمسك منهم بدينه والـمتبع منهم حكم كتابه, فإنه بـالذي أنزلت إلـيك من آياتـي مصدق. وهم الذين كانوا آمنوا بـالله وصدقوا رسوله مـحمدا صلى الله عليه وسلم من يهود بنـي إسرائـيـل.

الآية : 100

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نّبَذَهُ فَرِيقٌ مّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }

اختلف أهل العربـية فـي حكم «الواو» التـي فـي قوله: أوَ كُلّـما عاهَدُوا عَهْدا فقال بعض نـحويـي البصريـين: هي واو تـجعل مع حروف الاستفهام, وهي مثل «الفـاء» فـي قوله: أفَكُلّـما جاءَكُمْ رَسُول بِـمَا لاَ تَهْوَى أنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُـمْ قال: وهما زائدتان فـي هذا الوجه, وهي مثل «الفـاء» التـي فـي قوله: فـالله لتصنعنّ كذا وكذا, وكقولك للرجل: أفلا تقوم وإن شئت جعلت الفـاء والواو ههنا حرف عطف. وقال بعض نـحويـي الكوفـيـين: هي حرف عطف أدخـل علـيها حرف الاستفهام. والصواب فـي ذلك عندي من القول أنها واو عطف أدخـلت علـيها ألف الاستفهام, كأنه قال جل ثناؤه: وَإذْ أخَذْنَا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطّورَ خُذُوا ما آتَـيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا أو كُلّـما عاهَدُوا عَهْدا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ثم أدخـل ألف الاستفهام علـى «وكلـما», فقال: قالوا سمعنا وعصينا أوَكُلّـمَا عَاهَدُوا عَهْدا نَبَذَهُ فريقٌ مِنْهُمْ وقد بـينا فـيـما مضى أنه غير جائز أن يكون فـي كتاب الله حرف لا معنى له, فأغنى ذلك عن إعادة البـيان علـى فساد قول من زعم أن الواو والفـاء من قوله: أوَكُلّـما و أفَكُلّـما زائداتان لا معنى لهما.

وأما العهد: فإنه الـميثاق الذي أعطته بنو إسرائيـل ربهم لـيعملن بها فـي التوراة مرة بعد أخرى, ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى. فوبخهم جل ذكره بـما كان منهم من ذلك وعَيّر به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم فـي بعض ما كان جل ذكره أخذ علـيهم بـالإيـمان به من أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم من العهد والـميثاق فكفروا وجحدوا ما فـي التوراة من نعته وصفته, فقال تعالـى ذكره: أوَكُلّـما عاهد الـيهود من بنـي إسرائيـل ربهم عهدا وأوثقوه ميثاقا نبذه فريق منهم فتركه ونقضه؟ كما:

1229ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قال: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أخذ علـيهم من الـميثاق وما عهد الله إلـيهم فـيه: والله ما عهد إلـينا فـي مـحمد صلى الله عليه وسلم وما أخذ له علـينا ميثاقا فأنزل الله جل ثناؤه: أوَكُلّـما عاهَدُوا عَهْدا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى آل زيد بن ثابت عن عكرمة مولـى ابن عبـاس, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس مثله.

قال أبو جعفر: وأما النبْذُ فإن أصله فـي كلام العرب الطرح, ولذلك قـيـل للـملقوط الـمنبوذ لأنه مطروح. مرمى به, ومنه سُمي النبـيذ نبـيذا, لأنه زبـيب أو تـمر يطرح فـي وعاء ثم يعالـج بـالـماء. وأصله مفعول صرف إلـى فعيـل, أعنـي أن النبـيذ أصله منبوذ ثم صرف إلـى فعيـل, فقـيـل نبـيذ كما قـيـل كفّ خضيب ولـحية دهين, يعنـي مخضوبة ومدهونة يقال منه: نبذته أنبذه نبذا, كما قال أبو الأسود الدؤلـي:

نَظَرْتَ إلـى عُنْوَانِهِ فَنَبذْتَهُكَنَبْذِكَ نَعْلاً أخْـلَقَتْ من نِعالِكا

فمعنى قوله جل ذكره: نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ طرحه فريق منهم فتركه ورفضه ونقضه. كما:

1230ـ حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يقول: نقضه فريق منهم.

1231ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج قوله: نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ قال: لـم يكن فـي الأرض عهد يعاهَدُون علـيه إلا نقضوه, ويعاهدون الـيوم وينقضون غدا. قال: وفـي قراءة عبد الله: «نقضَهُ فريق منهم». والهاء التـي فـي قوله: نَبَذَهُ من ذكر العهد, فمعناه: أوَكلـما عاهدوا عهدا نبذ ذلك العهد فريق منهم. والفريق الـجماعة لا واحد له من لفظه بـمنزلة الـجيش والرهط الذي لا واحد له من لفظه. والهاء والـميـم اللتان فـي قوله: فَرِيقٌ مِنْهُمْ من ذكر الـيهود من بنـي إسرائيـل.

وأما قوله: بَلْ أكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنْونَ فإنه يعنـي جل ثناؤه: بل أكثر هؤلاء الذين كلـما عاهدوا الله عهدا وواثقوه موثقا نقضه فريق منهم لا يؤمنون. ولذلك وجهان من التأويـل:

أحدهما: أن يكون الكلام دلالة علـى الزيادة والتكثـير فـي عدد الـمكذّبـين الناقضين عهد الله علـى عدد الفريق, فـيكون الكلام حينئذٍ معناه: أوَكلـما عاهدت الـيهود من بنـي إسرائيـل ربها عهدا نقض فريق منهم ذلك العهد؟ لا ما ينقض ذلك فريق منهم, ولكن الذي ينقض ذلك فـيكفر بـالله أكثرهم لا القلـيـل منهم. فهذا أحد وجهيه. والوجه الآخر: أن يكون معناه: أوَكلـما عاهدت الـيهود ربها عهدا نبذ ذلك العهد فريق منهم؟ لا ما ينبذ ذلك العهد فريق منهم فـينقضه علـى الإيـمان منهم بأن ذلك غير جائز لهم, ولكن أكثرهم لا يصدّقون بـالله ورسله, ولا وعده ووعيده. وقد دللنا فـيـما مضى من كتابنا هذا علـى معنى الإيـمان وأنه التصديق.

الآية : 101

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَمّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدّقٌ لّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ أحبـار الـيهود وعلـماءها من بنـي إسرائيـل رَسُولٌ يعنـي بـالرسول مـحمدا صلى الله عليه وسلم. كما:

1232ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي فـي قوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ رَسُولٌ قال: لـما جاءهم مـحمد صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله: مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ فإنه يعنـي به أن مـحمدا صلى الله عليه وسلم يصدق التوراة, والتوراة تصدقه فـي أنه لله نبـيّ مبعوث إلـى خـلقه.

وأما تأويـل قوله: وَلَـمّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ فإنه للذي هو مع الـيهود, وهو التوراة. فأخبر الله جل ثناؤه أن الـيهود لـما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بتصديق ما فـي أيديهم من التوراة أن مـحمدا صلى الله عليه وسلم نبـيّ الله, نبذَ فريقٌ, يعنـي بذلك أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرّين حسدا منهم له وبَغْيا علـيه.

وقوله: مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وهم علـماء الـيهود الذين أعطاهم الله العلـم بـالتوراة وما فـيها.

ويعنـي بقوله: كِتابَ الله التوراة, وقوله: نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ جعلوه وراء ظهورهم وهذا مَثَلٌ, يقال لكل رافض أمرا كان منه علـى بـال: قد جعل فلان هذا الأمر منه بظهر وجعله وراء ظهره, يعنـي به أعرض عنه وصدّ وانصرف. كما:

1233ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَلَـمّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِن عِنِدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابِ كِتَابَ اللّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ قال: لـما جاءهم مـحمد صلى الله علـيه وسلم عارضوه بـالتوراة فخاصموه بها, فـاتفقت التوراة والقرآن, فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فذلك قوله الله: كأنّهُمْ لاَ يَعْلَـمُونَ.

ومعنى قوله: كأنّهُمْ لا يَعْلَـمُونَ كأنّ هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علـماء الـيهود فنقضوا عهد الله بتركهم العمل بـما واثقوا الله علـى أنفسهم العمل بـما فـيه لا يعلـمون ما فـي التوراة من الأمر بـاتبـاع مـحمد صلى الله علـيه وسلم وتصديقه.

وهذا من الله جل ثناؤه إخبـار عنهم أنهم جحدوا الـحقّ علـى علـم منهم به ومعرفة, وأنهم عاندوا أمر الله فخالفوا علـى علـم منهم بوجوبه علـيهم. كما:

1234ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يقول: نقض فريق مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كَتَابَ اللّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كأنّهُمْ لاَ يَعْلَـمُونَ أي أن القوم كانوا يعلـمون. ولكنهم أفسدوا علـمهم وجحدوا وكفروا وكتـموا.

الآية : 102

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَاتّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشّيَاطِينُ عَلَىَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـَكِنّ الشّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ النّاسَ السّحْرَ وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّىَ يَقُولاَ إِنّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلّمُونَ مَا يَضُرّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ }

يعنـي بقوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ الفريق من أحبـار الـيهود وعلـمائها الذين وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله علـى موسى وراء ظهورهم, تـجاهلاً منهم وكفرا بـما هم به عالـمون, كأنهم لا يعلـمون. فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذي يعلـمون أنه منزل من عنده علـى نبـيه صلى الله علـيه وسلم, ونقضوا عهده الذي أخذه علـيهم فـي العمل بـما فـيه, وآثروا السحر الذي تَلَتْه الشياطين فـي ملك سلـيـمان بن داود فـاتبعوه وذلك هو الـخسار والضلال الـمبـين.

واختلف أهل التأويـل فـي الذين عُنوا بقوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ. فقال بعضهم: عنى الله بذلك الـيهودَ الذين كانوا بـين ظهرانـيْ مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم خاصموا رسول الله صلى الله علـيه وسلم بـالتوراة, فوجدوا التوراة للقرآن موافقةً, تأمره من اتبـاع مـحمد صلى الله علـيه وسلم وتصديقه بـمثل الذي يأمر به القرآن,

فخاصموا بـالكتب التـي كان الناس اكتتبوها من الكهنة علـى عهد سلـيـمان. ذكر من قال ذلك:

1235ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ علـى عهد سلـيـمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلـى السماء, فتقعد منها مقاعد للسمع, فـيستـمعون من كلام الـملائكة فـيـما يكون فـي الأرض من موت أو غيث أو أمر, فـيأتون الكهنة فـيخبرونهم, فتـحدّث الكهنة الناس فـيجدونه كما قالوا. حتـى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم, فأدخـلوا فـيه غيره فزادوا مع كل كلـمة سبعين كلـمة. فـاكتتب الناس ذلك الـحديث فـي الكتب وفشا فـي بنـي إسرائيـل أن الـجنّ تعلـم الغيب. فبعث سلـيـمان فـي الناس, فجمع تلك الكتب فجعلها فـي صندوق, ثم دفنها تـحت كرسيه, ولـم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق, وقال: «لا أسمع أحدا يذكر أن الشياطين تعلـم الغيب إلا ضربت عنقه». فلـما مات سلـيـمان, وذهبت العلـماء الذين كانوا يعرفون أمر سلـيـمان, وخـلف بعد ذلك خَـلْفٌ, تـمثل الشيطان فـي صورة إنسان, ثم أتـى نفرا من بنـي إسرائيـل, فقال: هل أدلكم علـى كنز لا تأكلونه أبدا؟ قالوا: نعم. قال: فـاحفروا تـحت الكرسي وذهب معهم فأراهم الـمكان. فقام ناحية, فقالوا له: فـادْنُ قال: لا ولكنـي هاهنا فـي أيديكم, فإن لـم تـجدوه فـاقتلونـي. فحفروا فوجدوا تلك الكتب, فلـما أخرجوها قال الشيطان: إن سلـيـمان إنـما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار فذهب. وفشا فـي الناس أن سلـيـمان كان ساحرا واتـخذت بنو إسرائيـل تلك الكتب. فلـما جاءهم مـحمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها, فذلك حين يقول: وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

1236ـ حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ قالوا: إن الـيهود سألوا مـحمدا صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة, لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله علـيه ما سألوه عنه فـيَخْصِمهم. فلـما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلـم بـما أنزل إلـينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به, فأنزل الله جلّ وعزّ: واتّبَعوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ. وإن الشياطين عمدوا إلـى كتاب فكتبوا فـيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك, فدفنوه تـحت مـجلس سلـيـمان, وكان سلـيـمان لا يعلـم الغيب, فلـما فـارق سلـيـمان الدنـيا استـخرجوا ذلك السحر, وخدعوا به الناس وقالوا: هذا علـم كان سلـيـمان يكتـمه ويحسد الناس علـيه. فأخبرهم النبـيّ صلى الله عليه وسلم بهذا الـحديث. فرجعوا من عنده, وقد حزنوا وأدحض الله حجتهم.

1237ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمانَ قال: لـما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصَدّقا لِـمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ الآية. قال: اتبعوا السحر, وهم أهل الكتاب. فقرأ حتـى بلغ: وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك الـيهود الذين كانوا علـى عهد سلـيـمان.
ذكر من قال ذلك:
1238ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: تلت الشياطين السحر علـى الـيهود علـى ملك سلـيـمان فـاتبعته الـيهود علـى ملكه يعنـي اتبعوا السحر علـى ملك سلـيـمان.
1239ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, قال: عمدت الشياطين حين عرفت موت سلـيـمان بن داود علـيه السلام, فكتبوا أصناف السحر: من كان يحبّ أن يبلغ كذا وكذا, فلـيفعل كذا وكذا. حتـى إذا صنعوا أصناف السحر, جعلوه فـي كتاب, ثم ختـموا علـيه بخاتـم علـى نقش خاتـم سلـيـمان, وكتبوا فـي عنوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا الصدّيق للـملك سلـيـمان بن داود من ذخائر كنوز العلـم». ثم دفنوه تـحت كرسيه, فـاستـخرجته بعد ذلك بقايا بنـي إسرائيـل حين أحدثوا ما أحدثوا, فلـما عثروا علـيه قالوا: ما كان سلـيـمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر فـي الناس وتعلـموه وعلـموه, فلـيس فـي أحد أكثر منه فـي يهود. فلـما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فـيـما نزل علـيه من الله سلـيـمان بن داود وعدّه فـيـمن عدّه من الـمرسلـين, قال من كان بـالـمدينة من يهود: ألا تعجبون لـمـحمد صلى الله عليه وسلم يزعم أن سلـيـمان بن داود كان نبـيّا والله ما كان إلا ساحرا فأنزل الله فـي ذلك من قولهم علـى مـحمد صلى الله عليه وسلم: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانَ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا قال: كان حين ذهب ملك سلـيـمان ارتدّ فِئَامٌ من الـجنّ والإنس واتبعوا الشهوات. فلـما رجع الله إلـى سلـيـمان ملكه, قام الناس علـى الدين كما كانوا. وإن سلـيـمان ظهر علـى كتبهم فدفنها تـحت كرسيه. وتوفـي سلـيـمان حِدْثان ذلك, فظهرت الـجنّ والإنس علـى الكتب بعد وفـاة سلـيـمان, وقالوا: هذا كتاب من الله نزل علـى سلـيـمان أخفـاه منا. فأخذوا به فجعلوه دينا, فأنزل الله: وَلَـمّا جاءَهُمْ رَسُول مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِـمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كأنّهُمْ لاَ يَعْلَـمُونَ وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ وهي الـمعازف واللعب وكلّ شيء يصدّ عن ذكر الله.
والصواب من القول فـي تأويـل قوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ أن ذلك توبـيخ من الله لأحبـار الـيهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم, فجحدوا نبوّته وهم يعلـمون أنه لله رسول مرسل, وتأنـيب منه لهم فـي رفضهم تنزيـله, وهجرهم العمل به وهو فـي أيديهم يعلـمونه ويعرفون أنه كتاب الله, واتّبـاعهم واتّبـاع أوائلهم وأسلافهم ما تَلَتْهُ الشياطين فـي عهد سلـيـمان. وقد بـينا وجه جواز إضافة أفعال أسلافهم إلـيهم فـيـما مضى, فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـموضع.
وإنـما اخترنا هذا التأويـل لأن الـمتبعة ما تلته الشياطين فـي عهد سلـيـمان وبعده إلـى أن بعث الله نبـيه بـالـحقّ وأمر السحر لـم يزل فـي الـيهود, ولا دلالة فـي الآية أن الله تعالـى أراد بقوله: واتبعوا بعضا منهم دون بعض, إذ كان جائزا فصيحا فـي كلام العرب إضافة ما وصفنا من اتبـاع أسلاف الـمخبر عنهم بقوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ إلـى أخلافهم بعدهم. ولـم يكن بخصوص ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر منقول, ولا حجة تدلّ علـيه, فكان الواجب من القول فـي ذلك أن يقال: كل متبع ما تلته

الشياطين علـى عهد سلـيـمان من الـيهود داخـل فـي معنى الآية, علـى النـحو الذي قلنا.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مَا تَتْلُوا الشّياطِينُ. يعنـي جل ثناؤه بقوله: ما تَتْلُوا الشّياطِينُ: الذي تتلو. فتأويـل الكلام إذا: واتبعوا الذي تتلو الشياطين.
واختلف فـي تأويـل قوله: تَتْلُوا فقال بعضهم: يعنـي بقوله: تَتْلُوا تـحدّث وتروى وتتكلـم به وتـخبر, نـحو تلاوة الرجل للقرآن وهي قراءته. ووجه قائلوا هذا القول تأويـلهم ذلك إلـى أن الشياطين هي التـي علـمت الناس السحر وروته لهم. ذكر من قال ذلك:
1240ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن عمرو, عن مـجاهد فـي قول الله: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ قال: كانت الشياطين تسمع الوحي, فما سمعوا من كلـمة زادوا فـيها مائتـين مثلها, فأرسل سلـيـمان إلـى ما كتبوا من ذلك فجمعه. فلـما توفـي سلـيـمان وجدته الشياطين فعلـمته الناس وهو السحر.
1241ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ من الكهانة والسحر وذكر لنا والله أعلـم أن الشياطين ابتدعت كتابـا فـيه سحر وأمر عظيـم, ثم أفشوه فـي الناس وعلـموهم إياه.
1242ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال عطاء: قوله: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشياطِينُ قال: نراه ما تـحدّث.
1243ـ حدثنـي سَلْـم بن جنادة السوائي, قال: حدثنا أبو معاوية, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: انطلقت الشياطين فـي الأيام التـي ابتلـى فـيها سلـيـمان, فكتبت فـيها كُتبـا فـيها سحر وكفر, ثم دفنوها تـحت كرسي سلـيـمان, ثم أخرجوها فقرءوها علـى الناس.
وقال آخرون: معنى قوله: ما تَتْلُوا ما تتبعه وترويه وتعمل به. ذكر من قال ذلك:
1244ـ حدثنا الـحسن بن عمرو العنقزي, قال: حدثنـي أبـي, عن أسبـاط, عن السدي, عن أبـي مالك, عن ابن عبـاس: تَتْلُوا قال: تتبع.
1245ـ حدثنـي نصر بن عبد الرحمن الأزدي, قال: حدثنا يحيى بن إبراهيـم, عن سفـيان الثوري, عن منصور, عن أبـي رزين مثله.
قال أبو جعفر: والصواب من القول فـي ذلك أن يقال: إن الله عزّ وجلّ أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين علـى عهد سلـيـمان بـاتبـاعهم ما تلته الشياطين. ولقول القائل: «هو يتلو كذا» فـي كلام العرب معنـيان: أحدهما الاتبـاع, كما يقال: تلوت فلانا إذا مشيت خـلفه وتبعت أثره, كما قال جل ثناؤه: هُنالِكَ تَبْلُو كُلّ نَفْسٍ ما أسَلَفَتْ يعنـي بذلك تتّبع. والآخر: القراءة والدراسة, كما تقول: فلان يتلو القرآن, بـمعنى أنه يقرؤه ويدرسه, كما قال حسان بن ثابت:
نَبِـيّ يَرَى مَا لا يَرَى النّاسُ حَوْلَهُويَتْلُو كِتابَ اللّهِ فـي كُلّ مَشْهَدِ

ولـم يخبرنا الله جل ثناؤه بأيّ معنى التلاوة كانت تلاوة الشياطين الذين تلوا ما تلوه من السحر علـى عهد سلـيـمان بخبر يقطع العذر. وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسةً وروايةً وعملاً, فتكون كانت متبعته بـالعمل, ودارسته بـالرواية فـاتبعت الـيهود منهاجها فـي ذلك وعملت به وروته.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: علـى مُلْكِ سُلَـيْـمان.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ فـي ملك سلـيـمان وذلك أن العرب تضع «فـي» موضع «علـى» و«علـى» فـي موضع «فـي», من ذلك قول الله جل ثناؤه: ولاصَلّبَنّكُمْ فِـي جُذُوعِ النّـخْـلِ يعنـي به: علـى جذوع النـخـل, وكما قال: «فعلت كذا فـي عهد كذا وعلـى عهد كذا» بـمعنى واحد. وبـما قلنا من ذلك كان ابن جريج وابن إسحاق يقولان فـي تأويـله.

1246ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: عَلَـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ يقول: فـي ملك سلـيـمان.

1247ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: قال ابن إسحاق فـي قوله: علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ أي فـي ملك سلـيـمان.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِين كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

إن قال لنا قائل: وما هذا الكلام من قوله: واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ ولا خير معنا قبلُ عن أحد أنه أضاف الكفر إلـى سلـيـمان, بل إنـما ذكر اتبـاع من اتبع من الـيهود ما تلته الشياطين؟ فما وجه نفـي الكفر عن سلـيـمان بعقب الـخبر عن اتبـاع من اتبعت الشياطين فـي العمل بـالسحر وروايته من الـيهود؟ قـيـل: وجه ذلك أن الذين أضاف الله جل ثناؤه إلـيهم اتبـاع ما تلته الشياطين علـى عهد سلـيـمان من السحر والكفر من الـيهود, نسبوا ما أضافه الله تعالـى ذكره إلـى الشياطين من ذلك إلـى سلـيـمان بن داود, وزعموا أن ذلك كان من علـمه وروايته, وأنه إنـما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والـجنّ والشياطين وسائر خـلق الله بـالسحر. فحسّنوا بذلك من ركوبهم ما حرّم الله علـيهم من السحر أنْفُسَهم عند من كان جاهلاً بأمر الله ونهيه, وعند من كان لا علـم له بـما أنزل الله فـي ذلك من التوراة, وتبرأ بإضافة ذلك إلـى سلـيـمان من سلـيـمان, وهو نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم منهم بشرٌ, وأنكروا أن يكون كان لله رسولاً, وقالوا: بل كان ساحرا. فبرأ الله سلـيـمان بن داود من السحر والكفر عند من كان منهم ينسبه إلـى السحر والكفر لأسبـاب ادعوها علـيه قد ذكرنا بعضها, وسنذكر بـاقـي ما حضرنا ذكره منها. وأكذب الآخرين الذين كانوا يعملون بـالسحر, متزينـين عند أهل الـجهل فـي عملهم ذلك بأن سلـيـمان كان يعمله. فنفـى الله عن سلـيـمان علـيه السلام أن يكون كان ساحرا أو كافرا, وأعلـمهم أنهم إنـما اتبعوا فـي عملهم السحر ما تلته الشياطين فـي عهد سلـيـمان, دون ما كان سلـيـمان يأمرهم من طاعة الله واتبـاع ما أمرهم به فـي كتابه الذي أنزله علـى موسى صلوات الله علـيه. ذكر الدلائل علـى صحة ما قلنا من الأخبـار والآثار:

1248ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يعقوب القمي, عن جعفر بن أبـي الـمغيرة, عن سعيد بن جبـير, قال: كان سلـيـمان يتتبع ما فـي أيدي الشياطين من السحر, فـيأخذه فـيدفنه تـحت كرسيه فـي بـيت خزانته.

فلـم تقدر الشياطين أن يصلوا إلـيه, فدَنَتْ إلـى الإنس, فقالوا لهم: أتريدون العلـم الذي كان سلـيـمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم: قالوا: فإنه فـي بـيت خزانته وتـحت كرسيه. فـاستثارته الإنس فـاستـخرجوه فعملوا به. فقال أهل الـحجاز: كان سلـيـمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله جل ثناؤه علـى لسان نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم براءة سلـيـمان, فقال: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ الآية, فأنزل الله براءة سلـيـمان علـى لسان نبـيه علـيهما السلام.

1249ـ حدثنـي أبو السائب السوائي, قال: حدثنا أبو معاوية, عن الأعمش, عن الـمنهال, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: كان الذي أصاب سلـيـمان بن داود فـي سبب أناس من أهل امرأة يقال لها جرادة, وكانت من أكرم نسائه علـيه, قال: فكان هوى سلـيـمان أن يكون الـحق لأهل الـجرادة فـيقضي لهم, فعوقب حين لـم يكن هواه فـيهم واحد. قال: وكان سلـيـمان بن داود إذا أراد أن يدخـل الـخلاء أو يأتـي شيئا من نسائه أعطى الـجرادة خاتـمه. فلـما أراد الله أن يبتلـي سلـيـمان بـالذي ابتلاه به, أعطى الـجرادة ذات يوم خاتـمه, فجاء الشيطان فـي صورة سلـيـمان فقال لها: هاتـي خاتـمي فأخذه فلبسه, فلـما لبسه دانت له الشياطين والـجنّ والإنس. قال: فجاءها سلـيـمان فقال: هاتـي خاتـمي فقالت: كذبت لست بسلـيـمان. قال: فعرف سلـيـمان أنه بلاء ابتلـي به. قال: فـانطلقت الشياطين فكتبت فـي تلك الأيام كتبـا فـيها سحر وكفر ثم دفنوها تـحت كرسي سلـيـمان, ثم أخرجوها فقرءوها علـى الناس وقالوا: إنـما كان سلـيـمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرىء الناس من سلـيـمان وأكفروه, حتـى بعث الله مـحمدا صلى الله عليه وسلم فأنزل جل ثناؤه: وَاتّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشّياطِينُ عَلـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ يعنـي الذي كتب الشياطين من السحر والكفر وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا فأنزل اللّهُ جل وعزّ وعذره.

1250ـ حدثنـي مـحمد بن عبد الأعلـى الصنعانـي, قال: حدثنا الـمعتـمر بن سلـيـمان, قال: سمعت عمران بن حدير, عن أبـي مـجلز, قال: أخذ سلـيـمان من كل دابة عهدا, فإذا أصيب رجل فسئل بذلك العهد خُـلّـي عنه, فرأى الناس السجعَ والسحرَ وقالوا: هذا كان يعمل به سلـيـمان فقال الله جل ثناؤه: وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

1251ـ حدثنا أبو حميد, قال: حدثنا جرير, عن حصين بن عبد الرحمن, عن عمران بن الـحارث, قال: بـينا نـحن عند ابن عبـاس إذ جاءه رجل, فقال له ابن عبـاس: من أين جئت؟ قال: من العراق, قال: من أيّهِ؟ قال: من الكوفة. قال: فما الـخبر؟ قال: تركتهم يتـحدثون أن علـيّا خارج إلـيهم. ففزع فقال: ما تقول لا أبـا لك لو شعرنا ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه, أما إنـي أحدثكم من ذلك أنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فـيأتـي أحدهم بكلـمة حقّ قد سمعها, فإذا حدث منه صدق كذب معها سبعين كذبة, قال: فـيشربها قلوب الناس فأطلع الله علـيها سلـيـمانَ فدفنها تـحت كرسيه. فلـما توفـي سلـيـمان بن داود قام شيطان بـالطريق فقال: ألا أدلكم علـى كنزه الـمـمَنّع الذي لا كنز مثله؟ تـحت الكرسي. فأخرجوه فقالوا: هذا سحر. فتناسخها الأمـم, حتـى بقاياهم ما يتـحدّث به أهل العراق. فأنزل الله عذر سلـيـمان: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ عَلـى

مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمانُ ولَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

1252ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: ذكر لنا والله أعلـم أن الشياطين ابتدعت كتابـا فـيه سحر وأمر عظيـم, ثم أفشوه فـي الناس وأعلـموهم إياه. فلـما سمع بذلك سلـيـمان نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم تتبّع تلك الكتب, فأتـى بها فدفنها تـحت كرسيه كراهية أن يتعلـمها الناس. فلـما قبض الله نبـيه سلـيـمان عمدت الشياطين فـاستـخرجوها من مكانها الذي كانت فـيه فعلـموها الناس, فأخبروهم أن هذا علـم كان يكتـمه سلـيـمان ويستأثر به. فعذر الله نبـيه سلـيـمان وبرأه من ذلك, فقال جل ثناؤه: وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, قال: كتبت الشياطين كتبـا فـيها سحر وشرك, ثم دفنت تلك الكتب تـحت كرسي سلـيـمان. فلـما مات سلـيـمان استـخرج الناس تلك الكتب, فقالوا: هذا علـم كَتَـمَنَاهُ سلـيـمان. فقال الله جل وعزّ: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سلَـيْـمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

1253ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا حجاج, حدثنا الـحسين قال: عن ابن جريج, عن مـجاهد قوله: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ قال: كانت الشياطين تستـمع الوحي من السماء, فما سمعوا من كلـمة زادوا فـيها مثلها. وإن سلـيـمان أخذ ما كتبوا من ذلك فدفنه تـحت كرسيه فلـما توفـي وجدته الشياطين فعلـمته الناس.

1254ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن أبـي بكر, عن شهر بن حوشب, قال: لـما سُلب سلـيـمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فـي غيبة سلـيـمان, فكتبت: من أراد أن يأتـي كذا وكذا فلـيستقبل الشمس ولـيقل كذا وكذا, ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فلـيستدبر الشمس ولـيقل كذا وكذا. فكتبته وجعلت عنوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا للـملك سلـيـمان بن داود من ذخائر كنوز العلـم», ثم دفنته تـحت كرسيه. فلـما مات سلـيـمان قام إبلـيس خطيبـا فقال: يا أيها الناس إن سلـيـمان لـم يكن نبـيا, وإنـما كان ساحرا, فـالتَـمِسُوا سحره فـي متاعه وبـيوته ثم دلهم علـى الـمكان الذي دفن فـيه, فقالوا: والله لقد كان سلـيـمان ساحرا, هذا سحره, بهذا تعبّدَنا, وبهذا قهرَنا. فقال الـمؤمنون: بل كان نبـيا مؤمنا. فلـما بعث الله النبـيّ مـحمدا صلى الله عليه وسلم جعل يذكر الأنبـياء حتـى ذكر داود وسلـيـمان, فقالت الـيهود: انظروا إلـى مـحمد يخـلط الـحقّ بـالبـاطل, يذكر سلـيـمان مع الأنبـياء, وإنـما كان ساحرا يركب الريح. فأنزل الله عذر سلـيـمان: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ الآية.

1255ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق: وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فـيـما بلغنـي لـما ذكر سلـيـمان بن داود فـي الـمرسلـين, قال بعض أحبـار الـيهود: ألا تعجبون من مـحمد يزعم أن ابن داود كان نبـيّا, والله ما كان إلا ساحرا فأنزل الله فـي ذلك من قولهم:

وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا أي بإتبـاعهم السحر وعملهم به وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبَـابِلَ هارُوتَ وَمَارُوتَ.

قال أبو جعفر: فإذا كان الأمر فـي ذلك علـى ما وصفنا وتأويـل قوله: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا ما ذكرنا فتبـين أن فـي الكلام متروكا ترك ذكره اكتفـاءً بـما ذكر منه, وأن معنى الكلام: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ من السحر علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ فتضيفه إلـى سلـيـمان, وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ فـيعمل بـالسحر وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ.

وقد كان قتادة يتأوّل قوله: وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا علـى ما قلنا.

1256ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَان وَلَكِنّ الشّيَاطِينَ كَفَرُوا يقول: ما كان عن مشورته, ولا عن رضا منه ولكنه شيء افتعلته الشياطين دونه.

وقد دللنا فـيـما مضى علـى اختلاف الـمختلفـين فـي معنى «تتلو», وتوجيه من وجه ذلك إلـى أن «تتلوا» بـمعنى تلت, إذ كان الذي قبله خبرا ماضيا وهو قوله: وَاتّبَعُوا وتوجيه الذين وجهوا ذلك إلـى خلاف ذلك. وبـيّنا فـيه وفـي نظيره الصواب من القول, فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـموضع. وأما معنى قوله: ما تَتْلُوا فإنه بـمعنى الذي تتلو وهو السحر.

1257ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق: وَاتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ أي السحر.

قال أبو جعفر: ولعلّ قائلاً أن يقول: أوَ ما كان السحر إلا أيام سلـيـمان؟ قـيـل له: بلـى قد كان ذلك قبل ذلك, وقد أخبر الله عن سَحَرة فرعون ما أخبر عنهم, وقد كانوا قبل سلـيـمان, وأخبر عن قوم نوح أنهم قالوا لنوح إنه ساحر قال: فكيف أخبر عن الـيهود أنهم اتبعوا ما تلته الشياطين علـى عهد سلـيـمان؟ قـيـل: لأنهم أضافوا ذلك إلـى سلـيـمان علـى ما قد قدمنا البـيان عنه, فأراد الله تعالـى ذكره تبرئة سلـيـمان مـما نَـحَلُوه وأضافوا إلـيه مـما كانوا وجدوه إما فـي خزائنه وإما تـحت كرسيه, علـى ما جاءت به الاَثار التـي قد ذكرناها من ذلك. فحصر الـخبر عْما كانت الـيهود اتبعته فـيـما تلته الشياطين أيام سلـيـمان دون غيره لذلك السبب, وإن كان الشياطين قد كانت تالـية للسحر والكفر قبل ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَا أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هارُوتَ وَمَارُوتَ.

اختلف أهل العلـم فـي تأويـل «ما» التـي فـي قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ فقال بعضهم: معناه الـجحد وهي بـمعنى «لـم». ذكر من قال ذلك:.

1258ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: وَما أُنْزِلَ عَلَـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ فإنه يقول: لـم ينزل الله السحر.

1259ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنـي حكام عن أبـي جعفر, عن الربـيع بن أنس: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ قال: ما أنزل الله علـيهما السحر.

فتأويـل الآية علـى هذا الـمعنى الذي ذكرناه عن ابن عبـاس والربـيع من توجيههما معنى قوله: وَمَا أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ إلـى: ولـم ينزل علـى

الـملكين, واتبعوا الذي تتلوا الشياطين علـى ملك سلـيـمان من السحر, وما كفر سلـيـمان ولا أنزل الله السحر علـى الـملكين ولكنّ الشّياطينَ كفرُوا يعلـمونَ الناسَ السحرَ ببـابل هاروت وماروت, فـيكون حينئذ قوله: ببـابل وهاروت وماروت من الـمؤخر الذي معناه التقديـم.

فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديـم ذلك؟ قـيـل: وجه تقديـمه أن يقال: وابتعوا ما تتلو الشياطين علـى ملك سلـيـمان وما أنزل علـى الـملكين, ولكن الشياطين كفروا يعلـمون الناس السحر ببـابل هاروت وماروت. فـيكون معنـيّا بـالـملكين: جبريـل وميكائيـل لأن سحرة الـيهود فـيـما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر علـى لسان جبريـل وميكائيـل إلـى سلـيـمان بن داود. فأكذبها الله بذلك وأخبر نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم أن جبريـل وميكائيـل لـم ينزلا بسحر قط, وبرأ سلـيـمان مـما نـحلوه من السحر, فأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين, وأنها تعلـم الناس ببـابل, وأن الذين يعلـمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الاَخر ماروت فـيكون هاروت وماروت علـى هذا التأويـل ترجمة علـى الناس وردا علـيهم.

وقال آخرون: بل تأويـل «ما» التـي فـي قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ «الذي». ذكر من قال ذلك:

1260ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: قال معمر, قال قتادة والزهري عن عبد الله: وَما أُنْزِلَ عَلـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ كانا ملكين من الـملائكة فأهبطا لـيحكما بـين الناس. وذلك أن الـملائمكة سخروا من أحكام بنـي آدم, قال: فحاكمت إلـيهما امرأة فحافـا لها, ثم ذهبـا يصعدان, فحيـل بـينهما وبـين ذلك وخُيّرا بـين عذاب الدنـيا وعذاب الاَخرة, فـاختارا عذاب الدنـيا. قال معمر: قال قتادة: فكانا يعلـمان الناس السحر, فأخذ علـيهما أن لا يعلـما أحدا حتـى يقولا: إنـما نـحن فتنة فلا تكفر.

1261ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أما قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هَارُوتَ وَمارُوتَ فهذا سحر آخر خاصموه به أيضا يقول: خاصموه بـما أنزل علـى الـملكين وإن كلام الـملائكة فـيـما بـينهم إذا علـمته الإنس فصنع وعمل به كان سحرا.

1262ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحرَ وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هَارُوتَ وَمارُوتَ فـالسحر سحران: سحر تعلـمه الشياطين, وسحر يعلـمه هاروت وماروت.

1263ـ حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ قال: التفريق بـين الـمرء وزوجه.

1264ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ فقرأ حتـى بلغ: فَلا تَكْفُرْ قال: الشياطين والـملكان يعلـمون الناس السحر.

قال أبو جعفر: فمعنى الآية علـى تأويـل هذا القول الذي ذكرنا عمن ذكرناه عنه: واتبعت الـيهود الذي تلت الشياطين فـي ملك سلـيـمان الذي أنزل

علـى الـملكين ببـابل وهاروت وماروت. وهما ملكان من ملائكة الله, سنذكر ما روي من الأخبـار فـي شأنهما إن شاء الله تعالـى.
وقالوا: إن قال لنا قائل: وهل يجوز أن ينزل الله السحر, أم هل يجوز لـملائكته أن تعلـمه الناس؟ قلنا له: إن الله عزّ وجلّ قد أنزل الـخير والشرّ كله. وبـيّن جميع ذلك لعبـاده, فأوحاه إلـى رسله وأمرهم بتعلـيـم خـلقه وتعريفهم ما يحلّ لهم مـما يحرم علـيهم وذلك كالزنا والسرقة وسائر الـمعاصي التـي عَرّفُهموها ونهاهم عن ركوبها, فـالسحر أحد تلك الـمعاصي التـي أخبرهم بها ونهاهم عن العمل بها.
قالوا: لـيس فـي العلـم بـالسحر إثم, كما لا إثم فـي العلـم بصنعة الـخمر ونـحت الأصنام والطنابـير والـملاعب, وإنـما الإثم فـي عمله وتسويته.
قالوا: وكذلك لا إثم فـي العلـم بـالسحر, وإنـما الإثم فـي العمل به وأن يضرّ به من لا يحلّ ضرّه به.
قالوا: فلـيس فـي إنزال الله إياه علـى الـملكين ولا فـي تعلـيـم الـملكين من علـماه من الناس إثم إذا كان تعلـيـمهما من علّـماه ذلك بإذن الله لهما بتعلـيـمه بعد أن يخبراه بأنهما فتنة وينهاه عن السحر والعمل به والكفر وإنـما الإثم علـى من يتعلـمه منهما ويعمل به, إذْ كان الله تعالـى ذكره قد نهاه عن تعلـمه والعمل به.
قالوا: ولو كان الله أبـاح لبنـي آدم أن يتعلـموا ذلك, لـم يكن من تعلـمه حَرِجا, كما لـم يكونا حَرِجَيْن لعلـمهما به, إذْ كان علـمهما بذلك عن تنزيـل الله إلـيهما.
وقال آخرون: معنى «ما» معنى «الذي», وهي عطف علـى «ما» الأولـى, غير أن الأولـى فـي معنى السحر والآخرة فـي معنى التفريق بـين الـمرء وزوجه.
فتأويـل الآية علـى هذا القول: واتبعوا السحر الذي تتلو الشياطين فـي ملك سلـيـمان, والتفريق الذي بـين الـمرء وزوجه الذي أنزل علـى الـملكين ببـابل هاروت وماروت. ذكر من قال ذلك:
1265ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هَارُوتَ وَمارُوتَ وهما يعلّـمان ما يفرقون به بـين الـمرء وزوجه, وذلك قول الله جل ثناؤه: وَما كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا وكان يقول: أما السحر فإنـما يعلـمه الشياطين, وأما الذي يعلـم الـملكان فـالتفريق بـين الـمرء وزوجه, كما قال الله تعالـى.
وقال آخرون: جائز أن تكون «ما» بـمعنى «الذي», وجائز أن تكون «ما» بـمعنى «لـم». ذكر من قال ذلك.
1266ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: حدثنـي اللـيث بن سعد, عن يحيى بن سعيد, عن القاسم بن مـحمد, وسأله رجل عن قول الله: يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ فقال الرجل: يعلّـمان الناس ما أنزل علـيهما, أم يَعلّـمان الناس ما لـم ينزل علـيهما؟ قال القاسم: ما أُبـالـي أيتهما كانت.
حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا بشر بن عياض, عن بعض أصحابه, أن القاسم بن مـحمد سئل عن قول الله تعالـى ذكره: وَما أُنْزِلَ

علـى الـمَلَكَيْنِ فقـيـل له: أنزل أو لـم ينزل؟ فقال: لا أبـالـي أيّ ذلك كان, إلاّ أنـي آمنت به.
والصواب من القول فـي ذلك عندي قول من وجّه «ما» التـي فـي قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ إلـى معنى «الذي» دون معنى «ما» التـي هي بـمعنى الـجحد. وإنـما آخترت ذلك من أجل أن «ما» إن وجهت إلـى معنى الـجحد, فتنفـي عن الـملكين أن يكونا منزلاً إلـيهما. ولـم يَخْـلُ الاسمان اللذان بعدهما أعنـي هاروت وماروت من أن يكونا بدلاً منهما وترجمة عنهما, أو بدلاً من الناس فـي قوله: يعلّـمون النّاسَ السّحْرَ وترجمة عنهما. فإن جُعلا بدلاً من الـملكين وترجمة عنهما بطل معنى قوله: وَما يُعَلّـمانِ مِنْ أحَدٍ حتـى يَقُولا إنّـما نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَـيَتَعَلّـمُونَ مِنْهُمَا ما يُفَرّقُونَ بِهِ بَـيْنَ الـمَرْءِ وَزَوْجِهِ لأنهما إذا لـم يكونا عالـمين بـما يفرّق به بـين الـمرء وزوجه, فما الذي يَتَعَلّـم منهما مَنْ يفرّق بـين الـمرء وزوجه؟
وبعد, فإن «ما» التـي فـي قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ إن كانت فـي معنى الـجحد عطفـا علـى قوله: وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ فإن الله جل ثناؤه نفـى بقوله: وَمَا كَفَرَ سُلَـيْـمَانُ عن سلـيـمان أن يكون السحر من عمله, أو من علـمه أو تعلـيـمه. فإن كان الذي نفـى عن الـملكين من ذلك نظير الذي نفـى عن سلـيـمان منه, وهاروت وماروت هما الـملكان, فمن الـمتعلـم منه إذا ما يفرّق به بـين الـمرء وزوجه؟ وعمن الـخبر الذي أخبر عنه بقوله: وَما يُعَلّـمَانِ مِنْ أحَدٍ حتـى يَقُولاَ إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ؟ إن خطأ هذا القول لواضح بَـيّنٌ. وإن كان قوله «هاروت وماروت» ترجمة من الناس الذين فـي قوله: وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ فقد وجب أن تكون الشياطين هي التـي تعلـم هاروت وماروت السحر, وتكون السحرة إنـما تعلـمت السحر من هاروت وماروت عن تعلـيـم الشياطين إياهما. فإن يكن ذلك كذلك, فلن يخـلو هاروت وماروت عند قائل هذه الـمقالة من أحد أمرين: إما أن يكونا مَلَكين, فإن كانا عنده ملكين فقد أوجب لهما من الكفر بـالله والـمعصية له بنسبته إياهما إلـى أنهما يتعلـمان من الشياطين السحر ويعلـمانه الناس, وإصرارهما علـى ذلك ومقامهما علـيه أعظم مـما ذكر عنهما أنهما أتـياه من الـمعصية التـي استـحقا علـيها العقاب, وفـي خبر الله عزّ وجلّ عنهما أنهما لا يعلـمان أحدا ما يتعلـم منهما حتـى يقولا: إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ما يغنـي عن الإكثار فـي الدلالة علـى خطأ هذا القول. أو أن يكونا رجلـين من بنـي آدم فإن يكن ذلك كذلك فقد كان يجب أن يكون بهلاكهما قد ارتفع السحر والعلـم به والعمل من بنـي آدم لأنه إذا كان علـم ذلك من قبلهما يؤخذ ومنهما يتعلـم, فـالواجب أن يكون بهلاكهما وعدم وجودهما عدم السبـيـل إلـى الوصول إلـى الـمعنى الذي كان لا يوصل إلـيه إلا بهما وفـي وجود السحر فـي كل زمان ووقت أبـين الدلالة علـى فساد هذا القول. وقد يزعم قائل ذلك أنهما رجلان من بنـي آدم, لـم يعدما من الأرض منذ خـلقت, ولا يعدمان بعد ما وجد السحر فـي الناس. فـيدعي ما لا يخفـى بُطُولُهُ.
فإذا فسدت هذه الوجوه التـي دللنا علـى فسادها, فبـين أن معنى: ما التـي فـي قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بـمعنى «الذي», وأن هاروت وماروت مترجم بهما عن الـملكين ولذلك فتـحت أواخر أسمائهما, لأنهما

فـي موضع خفض علـى الردّ علـى الـملكين, ولكنهما لـما كانا لا يجرّان فتـحت أواخر أسمائهما.

فإن التبس علـى ذي غبـاء ما قلنا, فقال: وكيف يجوز لـملائكة الله أن تعلـم الناس التفريق بـين الـمرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلـى الله تبـارك وتعالـى إنزال ذلك علـى الـملائكة؟ قـيـل له: إن الله جل ثناؤه عرّف عبـاده جَميعَ ما أمرهم به وجميعَ ما نهاهم عنه, ثم أمرهم ونهاهم بعد العلـم منهم بـما يؤمرون به وينهون عنه. ولو كان الأمر علـى غير ذلك, لـما كان للأمر والنهي معنى مفهوم فـالسحر مـما قد نهى عبـاده من بنـي آدم عنه, فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علـمه الـملكين اللذين سماهما فـي تنزيـله وجعلهما فتنة لعبـاده من بنـي آدم كما أخبر عنهما أنهما يقولان لـمن يتعلـم ذلك منهما: إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ لـيختبر بهما عبـاده الذين نهاهم عن التفريق بـين الـمرء وزوجه وعن السحر, فـيـمـحّص الـمؤمن بتركه التعلـم منهما, ويُخزي الكافر بتعلـمه السحر والكفر منهما, ويكون الـملكان فـي تعلـيـمهما من علّـما ذلك لله مطيعين, إذ كانا عن إذن الله لهما بتعلـيـم ذلك من علـماه يعلـمان. وقد عُبد من دون الله جماعةٌ من أولـياء الله, فلـم يكن ذلك لهم ضائرا إذْ لـم يكن ذلك بأمرهم إياهم به, بل عبد بعضهم والـمعبود عنه ناهٍ, فكذلك الـملكان غير ضائرهما سحر من سحر مـمن تعلـم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه وعِظَتهما له بقولهما: إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ إذ كانا قد أدّيا ما أمر به بقـيـلهما ذلك. كما:

1267ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا يحيى بن سعيد, عن عوف, عن الـحسن فـي قوله: وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هَارُوتَ وَمارُوتَ إلـى قوله: فَلاَ تَكْفُرْ أُخِذَ علـيهما ذلك.

ذكر بعض الأخبـار التـي فـي بـيان الـملكين, ومن قال إن هاروت وماروت هما الـملكان اللذان ذكر الله جل ثناؤه فـي قوله: ببـابل:

1268ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا معاذ بن هشام, قال: حدثنـي أبـي, عن قتادة, قال: حدثنا أبو شعبة العدوي فـي جنازة يونس بن جبـير أبـي غلاب, عن ابن عبـاس قال: إن الله أفرج السماء لـملائكته ينظرون إلـى أعمال بنـي آدم, فلـما أبصروهم يعملون الـخطايا, قالوا: يا ربّ هؤلاء بنو آدم الذي خـلقته بـيدك, وأسجدت له ملائكتك, وعلـمته أسماء كل شيء, يعملون بـالـخطايا. قال: أما إنكم لو كنتـم مكانهم لعملتـم مثل أعمالهم. قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا, قال: فأمروا أن يختاروا من يهبط إلـى الأرض. قال: فـاختاروا هارون وماروت, فـاهبطا إلـى الأرض, وأحلّ لهما ما فـيها من شيء غير أن لا يشركا بـالله شيئا ولا يسرقا, ولا يزنـيا, ولا يشربـا الـخمر, ولا يقتلا النفس التـي حرّم الله إلا بـالـحقّ. قال: فما استـمرّا حتـى عرض لهما امرأة قد قُسم لها نصف الـحُسْن يقال لها «بـيذخت», فلـما أبصراها أرادا بها زنا, فقالت: لا إلا أن تشركا بـالله وتشربـا الـخمر وتقتلا النفس وتسجدا لهذا الصنـم. فقالا: ما كنا لنشرك بـالله شيئا. فقال أحدهما للآخر: ارجع إلـيها. فقالت: لا إلا أن تشربـا الـخمر فشربـا حتـى ثملا, ودخـل علـيهما سائل فقتلاه. فلـما وقعا فـيه من الشرّ, أفرج الله السماء لـملائكته, فقالوا: سبحانك كنت أعلـم قال: فأوحى الله إلـى سلـيـمان بن داود أن يخيّرهما بـين عذاب الدنـيا وعذاب الآخرة, فـاختارا عذاب الدنـيا, فكُبّلا من أكعبهما إلـى أعناقهما بـمثل أعناق البُخْت وجُعلا ببـابل.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحجاج بن الـمنهال, قال: حدثنا حجاج, عن علـيّ بن زيد, عن أبـي عثمان النهدي, عن ابن مسعود وابن عبـاس أنهما قالا: لـما كثر بنو آدم وعصوا, دعت الـملائكة علـيهم والأرض والسماء والـجبـال: ربنا ألا تهلكهم؟ فأوحى الله إلـى الـملائكة: إنـي لو أنزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ونزلتـم لفعلتـم أيضا. قال: فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا. فأوحى الله إلـيهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم. فـاختاروا هاروت وماروت, فـاهبطا إلـى الأرض وأنزلت الزّهَرَة إلـيهما فـي صورة امرأة من أهل فـارس, وكان أهل فـارس يسمونها «بـيذخت». قال: فوقعا بـالـخطيئة, فكانت الـملائكة يستغفرون للذين آمنوا. رَبنَا وَسِعَتْ كُلّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْـما فَـاغْفِرْ لِلّذِينَ تَابُوا. فلـما وقعا بـالـخطيئة استغفروا لـمن فـي الأرض: أَلاَ إنّ اللّهَ هُوَ الغَفُورُ الرّحِيـمُ فخُيرا بـين عذاب الدنـيا وعذاب الآخرة فـاختارا عذاب الدنـيا.

1269ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي الـحجاج, قال: حدثنا حماد, عن خالد الـحذاء, عن عمرو بن سعيد, قال سمعت علـيّا يقول: كانت الزّهَرَة امرأة جميـلة من أهل فـارس, وإنها خاصمت إلـى الـملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها, فأبت إلا أن يعلـماها الكلام الذي إذا تكلـم به يعرج به إلـى السماء. فعلـماها فتكلـمت فعرجت إلـى السماء فمُسِخت كوكبـا.

1270ـ حدثنا مـحمد بن بشار ومـحمد بن الـمثنى, قالا: حدثنا مؤمل بن إسماعيـل, وحدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق جميعا, عن الثوري, عن مـحمد بن عقبة, عن سالـم, عن ابن عمر, عن كعب, قال: ذكرت الـملائكة أعمال بنـي آدم وما يأتون من الذنوب, فقـيـل لهم: اختاروا منكم اثنـين وقال الـحسن بن يحيى فـي حديثه: اختاروا ملكين فـاختاروا هاروت وماروت, فقـيـل لهما: إنـي أرسل إلـى بنـي آدم رُسُلاً, ولـيس بـينـي وبـينكم رسول, انزلا لا تشركا بـي شيئا, ولا تزنـيا, ولا تشربـا الـخمر قال كعب: فوالله ما أمْسَيا من يومهما الذي أهبطا فـيه إلـى الأرض, حتـى استكملا جميع ما نهيا عنه. وقال الـحسن بن يحيى فـي حديثه: فما استكملا يومهما الذي أنزلا فـيه حتـى عملا ما حرم الله علـيهما.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا معلـى بن أسد, قال: حدثنا عبد العزيز بن الـمختار, عن موسى بن عقبة, قال: حدثنـي سالـم أنه سمع عبد الله يحدّث عن كعب الأحبـار, أنه حدث أن الـملائكة أنكروا أعمال بنـي آدم وما يأتون فـي الأرض من الـمعاصي, فقال الله لهم: إنكم لو كنتـم مكانهم أتـيتـم ما يأتون من الذنوب فـاختاروا منكم ملكين فـاختاروا هاروت وماروت, فقال الله لهما: إنـي أرسل رسلـي إلـى الناس, ولـيس بـينـي وبـينكما رسول, انزلا إلـى الأرض, ولا تشركا بـي شيئا, ولا تزنـيا فقال كعب: والذي نفس كعب بـيده ما استكملا يومهما الذي نزلا فـيه حتـى أتـيا ما حرّم الله علـيهما.

1271ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أنه كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا علـى أهل الأرض فـي أحكامهم, فقـيـل لهما: إنـي أعطيت ابن آدم عشرا من الشهوات فبها يعصوننـي. قال هاروت وماروت: ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لـحَكَمْنا بـالعدل. فقال لهما: انزل فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فـاحكما بـين الناس فنزلا ببـابل دُنْبـاوند, فكانا يحكمان, حتـى إذا أمسيا عرجا, فإذا أصبحا هبطا. فلـم يزالا كذلك حتـى أتتهما امرأة تـخاصم زوجها,

فأعجبهما حسنها واسمها بـالعربـية «الزّهَرَة», وبـالنبطية «بـيذخت», واسمها بـالفـارسية «أناهيذ», فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبنـي. فقال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فـاستـحيـيت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم, ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا نرجو رحمة الله. فلـما جاءت تـخاصم زوجها ذكرا إلـيها نفسها, فقالت: لا حتـى تقضيا لـي علـى زوجي, فقضيا لها علـى زوجها. ثم واعدتهما خربة من الـخرب يأتـيانها فـيها, فأتـياها لذلك, فلـما أراد الذي يواقعها, قالت: ما أنا بـالذي أفعل حتـى تـخبرانـي بأيّ كلام تصعدان إلـى السماء؟ وبأيّ كلام تنزلان منها؟ فأخبراها فتكلـمت فصعدت. فأنساها الله ما تنزل به فبقـيت مكانها, وجعلها الله كوكبـا فكان عبد الله بن عمر كلـما رآها لعنها وقال: هذه التـي فتنت هاروت وماروت فلـما كان اللـيـل أرادا أن يصعدا فلـم يستطيعا فعرفـا الهلك, فخُيرا بـين عذاب الدنـيا والآخرة, فـاختارا عذاب الدنـيا من عذاب الآخرة, فعلّقا ببـال فجعلا يكلـمان الناس كلامَهما وهو السحر.

1272ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: لـما وقع الناس من بعد آدم فـيـما وقعوا فـيه من الـمعاصي والكفر بـالله, قالت الـملائكة فـي السماء: أي ربّ هذا العالـم إنـما خـلقتهم لعبـادتك وطاعتك, وقد ركبوا الكفر وقتل النفس الـحرام وأكلِ الـمال الـحرام والسرقة والزنا وشرب الـخمر فجعلوا يدعون علـيهم ولا يعذرونهم. فقـيـل لهم: إنهم فـي غيب فلـم يعذروهم, فقـيـل لهم: اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمري, وأنهاهما عن معصيتـي فـاختاروا هاروت وماروت, فأهبطا إلـى الأرض, وجعل بهما شهوات بنـي آدم, وأُمرا أن يعبدا الله ولا يشركا به شيئا, ونُهيا عن قتل النفس الـحرام, وأكْل الـمال الـحرام, والسرقة والزنا وشرب الـخمر. فلبثا علـى ذلك فـي الأرض زمانا يحكمان بـين الناس بـالـحقّ, وذلك فـي زمان إدريس, وفـي ذلك الزمان امرأة حسنها فـي سائر الناس كحسن الزهرة فـي سائر الكواكب. وإنها أتت علـيهما فخضعا لها بـالقول, وأراداها علـى نفسها, وإنها أبت إلا أن يكونا علـى أمرها ودينها, وإنهما سألاها عن دينها التـي هي علـيه, فأخرجت لهما صنـما وقالت: هذا أعبد. فقالا: لا حاجة لنا فـي عبـادة هذا. فذهبـا فصبرا ما شاء الله, ثم أتـيا علـيها فخضعا لها بـالقول وأراداها علـى نفسها. فقالت: لا إلا أن تكونا علـى ما أنا علـيه. فقالا: لا حاجة لنا فـي عبـادة هذا. فلـما رأت أنهما أبـيا أن يعبدا الصنـم, قالت لهما: اختارا إحدى الـخلال الثلاث: إما أن تعبدا الصنـم, أو تقتلا النفس, أو تشربـا الـخمر. فقالا: كل هذا لا ينبغي, وأهْوَنُ الثلاثة شرب الـخمر. فسقتهما الـخمر, حتـى إذا أخذت الـخمر فـيهما وقعا بها, فمرّ بهما إنسان وهما فـي ذلك, فخشيا أن يفشي علـيهما فقتلاه. فلـما أن ذهب عنهما السكر عرفـا ما وقعا فـيه من الـخطيئة وأرادا أن يصعدا إلـى السماء فلـم يستطيعا, فَحِيـلَ بـينهما وبـين ذلك, وكشف الغطاء بـينهما وبـين أهل السماء. فنظرت الـملائكة إلـى ما وقعا فـيه من الذنب, فعجبوا كل العجب, وعلـموا أن من كان فـي غيب فهو أقلّ غشية, فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لـمن فـي الأرض. وإنهما لـما وقعا فـيـما وقعا فـيه من الـخطيئة, قـيـل لهما: اختارا عذاب الدنـيا أو

عذاب الآخرة فقالا: أما عذاب الدنـيا فإنه ينقطع وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فـاختارا عذاب الدنـيا, فجُعلا ببـابل, فهما يعذّبـان.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا فرج بن فضالة, عن معاوية بن صالـح, عن نافع, قال: سافرت مع ابن عمر, فلـما كان من آخر اللـيـل قال: يا نافع انظر طلعت الـحمراء قالها مرّتـين أو ثلاثا. ثم قلت: قد طلعت. قال: لا مرحبـا ولا أهلاً قلت: سبحان الله نـجم مسخر سامع مطيع؟ قال: ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قال لـي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الـمَلاَئِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبّ كَيْفَ صَبْرُكَ عَلَـى بَنِـي آدَمَ فِـي الـخَطايا والذّنُوبِ؟ قال: إنـي ابْتَلَـيْتُهُمْ وَعافَـيْتُكُمْ. قالُوا: لَوْ كُنّا مَكَانَهُمْ مَا عَصَيْنَاكَ. قالَ: فـاخْتارُوا مَلَكَيْنِ مِنْكُمْ قالَ: فَلَـمْ يألُوا أنْ يَخْتارُوا, فـاخْتارُوا هارُوتَ وَمارُوتَ».

1273ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وأما شأن هاروت وماروت, فإن الـملائكة عجبت من ظلـم بنـي آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبـينات, فقال لهم ربهم: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فـي الأرض بـين بنـي آدم فـاختاروا هاروت وماروت, فقال لهما حين أنزلهما: عجبتـما من بنـي آدم ومن ظلـمهم ومعصيتهم, وإنـما تأتـيهم الرسل والكتب من وراءَ وراءَ, وأنتـما لـيس بـينـي وبـينكما رسول, فـافعلا كذا وكذا, ودعا كذا وكذا فأمرهما بأمر ونهاهما. ثم نزلا علـى ذلك لـيس أحد لله أطوع منهما, فحكما فعدلا, فكانا يحكمان النهار بـين بنـي آدم, فإذا أمسيا عرجا وكانا مع الـملائكة, وينزلان حين يصبحان فـيحكمان فـيعدلان. حتـى أُنزلت علـيهما الزهرة فـي أحسن صورة امرأة تـخاصم, فقضيا علـيها. فلـما قامت وجد كل واحد منهما فـي نفسه, فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل ما وجدتُ؟ قال: نعم, فبعثا إلـيها أن ائتـينا نَقْضِ لك. فلـما رجعت قالا لها وقضيا لها: ائتـينا فأتتهما, فكشفـا لها عن عورتهما. وإنـما كانت شهوتهما فـي أنفسهما ولـم يكونا كبنـي آدم فـي شهوة النساء ولذّتها. فلـما بلغا ذلك واستـحلاّه وافتتنا, طارت الزهرة فرجعت حيث كانت. فلـما أمسيا عرجا فرُدّا ولـم يؤذن لهما ولـم تـحملهما أجنـحتهما فـاستغاثا برجل من بنـي آدم, فأتـياه فقالا: ادع لنا ربك فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: سمعنا ربك يذكرك بخير فـي السماء. فوعدهما يوما وغدا يدعو لهما. فدعا لهما فـاستـجيب له, فخُيّرا بـين عذاب الدنـيا وعذاب الآخرة. فنظر أحدهما إلـى صاحبه فقالا: نعلـم أن أنواع عذاب الله فـي الآخرة كذا وكذا فـي الـخـلد ومع الدنـيا سبع مرات مثلها. فـامرا أن ينزلا ببـابل, فثَمّ عذابهما. وزُعم أنهما معلقان فـي الـحديد مطويان يصفّقان بأجنـحتهما.

قال أبو جعفر: وحكي عن بعض القراء أنه كان يقرأ: «وَما أُنْزِلَ علـى الـمَلِكَيْنِ» يعنـي به رجلـين من بنـي آدم. وقد دللنا علـى خطأ القراءة بذلك من جهة الاستدلال فأما من جهة النقل فإجماع الـحجة علـى خطأ القراءة بها من الصحابة والتابعين وقرّاء الأمصار, وكفـى بذلك شاهدا علـى خطئها. وأما قوله بِبـابِلَ فإنه اسم قرية أو موضع من مواضع الأرض. وقد اختلف أهل التأويـل فـيها, فقال بعضهم: إنها بـابل دنبـاوند.

حدثنـي بذلك موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي.

وقال بعضهم: بل ذلك بـابل العراق. ذكر من قال ذلك:

1274ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن أبـي الزناد, عن هشام بن عروة, عن أبـيه, عن عائشة فـي قصة ذكرتها عن امرأة قدمت الـمدينة, فذكرت أنها صارت فـي العراق ببـابل, فأتت بها هاروت وماروت فتعلـمت منهما السحر.

واختلف فـي معنى السحر, فقال بعضهم: هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر, حتـى يخيـل إلـى الـمسحور الشيء أنه بخلاف ما هو به نظير الذي يرى السراب من بعيد, فـيخيـل إلـيه أنه ماء, ويرى الشيء من بعيد فـيثبته بخلاف ما هو علـى حقـيقته. وكراكب السفـينة السائرة سيرا حثـيثا يخيـل إلـيه أن ما عاين من الأشجار والـجبـال سائر معه. قالوا: فكذلك الـمسحور ذلك صفته, يحسب بعد الذي وصل إلـيه من سحر الساحر أن الذي يراه أو يفعله بخلاف الذي هو به علـى حقـيقته. كالذي:

1275ـ حدثنـي أحمد بن الولـيد, وسفـيان بن وكيع قالا: حدثنا يحيى بن سعيد, عن هشام بن عروة, عن أبـيه, عن عائشة: أن النبـيّ صلى الله عليه وسلم لـما سُحِرَ كان يُخَيّـلُ إلـيه أنه يفعل الشيء ولـم يفعله.

1276ـ حدثنا ابن وكيع, قال: اثنا ابن نـمير, عن هشام بن عروة, عن أبـيه, عن عائشة, قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بنـي زُرَيْق يقال له لبـيد بن الأعصم, حتـى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيـل إلـيه أنه يفعل الشيء وما يفعله.

1277ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: أخبرنـي يونس, عن ابن شهاب, قال: كان عروة بن الزبـير وسعيد بن الـمسيب يحدثان: أن يهود بنـي زريق عقدوا عُقَدَ سحر لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فجعلوها فـي بئر حزم حتـى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينكر بصره ودله الله علـى ما صنعوا. فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلـى بئر حزم التـي فـيها العقد فـانتزعها, فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سَحَرَتْنِـي يَهُودُ بَنِـي زُرَيْق».

وأنكر قائل هذه الـمقالة أن يكون الساحر يقدر بسحره علـى قلب شيء عن حقـيقته, واستسخار شيء من خـلق الله إلا نظير الذي يقدر علـيه من ذلك سائر بنـي آدم, أو إنشاء شيء من الأجسام سوى الـمخاريق والـخدع الـمتـخيـلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها التـي وصفنا. وقالوا: لو كان فـي وُسْع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لـحقائق الأعيان عما هي به من الهيئات, لـم يكن بـين الـحقّ والبـاطل فَصْل, ولـجاز أن تكون جميع الـمحسوسات مـما سحرته السحرة فقلبت أعيانها. قالوا: وفـي وصف الله جل وعزّ سحرة فرعون بقوله: فإذَا حِبَـالُهُمْ وَعِصِيّهُمْ يُخَيّـلُ إلَـيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أنّهَا تَسْعَى. وفـي خبر عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذ سحر يخيـل إلـيه أنه يفعل الشيء ولا يفعله, أوضح الدلالة علـى بطول دعوى الـمدعين: أن الساحر ينشىء أعيان الأشياء بسحره, ويستسخر ما يتعذّر استسخاره علـى غيره من بنـي آدم. كالـموات والـجماد والـحيوان, وصحة ما قلنا.

وقال آخرون: قد يقدر الساحر بسحره أن يحوّل الإنسان حمارا, وأن يسحر الإنسان والـحمار وينشىء أعيانا وأجساما. واعتلّوا فـي ذلك بـما:

1278ـ حدثنا به الربـيع بن سلـيـمان, قال: حدثنا ابن وهب, قال: أخبرنا ابن أبـي الزناد, قال: حدثنـي هشام بن عروة, عن أبـيه, عن عائشة زوج

النبـيّ صلى الله عليه وسلم أنها قالت: قدمت علـيّ امرأةٌ من أهل دومة الـجندل, جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حَدَاثة ذلك, تسأله عن شيء دخـلت فـيه من أمر السحر ولـم تعمل به. قالت عائشة لعروة: يا ابن أختـي, فرأيتها تبكي حين لـم تـجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فـيشفـيها, كانت تبكي حتـى إنـي لأرحمها, وتقول: إنـي لأخاف أن أكون قد هلكت, كان لـي زوج فغاب عنـي, فدخـلت علـيّ عجوز فشكوت ذلك إلـيها, فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتـيك, فلـما كان اللـيـل جاءتنـي بكلبـين أسودين, فركبت أحدهما وركبت الآخر, فلـم يكن كشيء حتـى وقـفنا ببـابل, فإذا برجلـين معلقـين بأرجلهما, فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلـم السحر؟ فقالا: إما نـحن فتنة فلا تكفري وارجعي, فأبـيت وقلت: لا, فقالا: اذهبـي إلـى ذلك التّنور فبُولـي فـيه فذهبت ففزعت فلـم أفعل, فرجعت إلـيهما, فقالا: أفعلت؟ قلت: نعم, فقالا: فهل رأيت شيئا؟ قلت: لـم أر شيئا, فقالا لـي: لـم تفعلـي, ارجعي إلـى بلادك ولا تكفري فأبـيت, فقالا: اذهبـي إلـى ذلك التنور فبولـي فـيه فذهبت, فـاقشعررت وخفت. ثم رجعت إلـيهما فقلت: قد فعلت, فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لـم أر شيئا, فقالا: كذبت لـم تفعلـي, ارجعي إلـى بلادك ولا تكفري, فإنك علـى رأس أمرك فأبـيت, فقالا: اذهبـي إلـى ذلك التنور فبولـي فـيه فذهبت إلـيه فبلت فـيه, فرأيت فـارسا متقنعا بحديد خرج منـي حتـى ذهب فـي السماء وغاب عنـي حتـى ما أراه, فجئتهما فقلت: قد فعلت, فقالا: ما رأيت؟ فقلت: فـارسا متقنعا خرج منـي فذهب فـي السماء حتـى ما أراه, فقالا: صدقت, ذلك إيـمانك خرج منك اذهبـي فقلت للـمرأة: والله ما أعلـم شيئا وما قالا لـي شيئا, فقالت: بلـى, لن تريدي شيئا إلا كان, خذي هذا القمـح فـابذري فبذرت, فقلت: أطلعي فأطلعت, وقلت: أحقلـي فأحقلت, ثم قلت: أفركي فأفركت, ثم قلت: أيبسي فأيبست, ثم قلت: أطحنـي فأطحنت, ثم قلت: أخبزي فأخبزت. فلـما رأيت أنـي لا أريد شيئا إلا كان سقط فـي يدي وندمت والله يا أمّ الـمؤمنـين, والله ما فعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا.

قال أهل هذه الـمقالة بـما وصفنا واعتلوا بـما ذكرنا, وقالوا: لولا أن الساحر يقدر علـى فعل ما ادّعى أنه يقدر علـى فعله ما قدر أن يفرّق بـين الـمرء وزوجه, قالوا: وقد أخبر الله تعالـى ذكره عنهم أنهم يتعلـمون من الـملكين ما يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه, وذلك لو كان علـى غير الـحقـيقة وكان علـى وجه التـخيـيـل والـحسبـان, لـم يكن تفريقا علـى صحة, وقد أخبر الله تعالـى ذكره عنهم أنهم يفرّقون علـى صحة. وقال آخرون: بل السحر أخذ بـالعين.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وما يُعَلّـمانِ مِنْ أحَدٍ حتـى يَقُولا إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ.

وتأويـل ذلك: وما يعلـم الـملكان أحدا من الناس الذي أنزل علـيهما من التفريق بـين الـمرء وزوجه حتـى يقولا له: إنـما نـحن بلاء وفتنة لبنـي آدم فلا تكفر بربك. كما:

1279ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: إذا أتاهما يعنـي هاروت وماروت إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له: لا تكفر إنـما نـحن فتنة. فإن أبى قالا له: ائت هذا الرماد فبُلْ

علـيه. فإذا بـال علـيه خرج منه نور يسطع حتـى يدخـل السماء, وذلك الإيـمان وقـيـل شيء أسود كهيئة الدخان حتـى يدخـل فـي مسامعه وكل شيء منه, فلذلك غضب الله, فإذا أخبرهما بذلك علـماه السحر. فذلك قول الله: وَما يُعَلِّـمَانِ مِنْ أحَدٍ حتـى يَقُولا إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ الآية.

1280ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة والـحسن: حتـى يَقُولا إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ قال: أخذ علـيهما أن لا يعلّـما أحدا حتـى يقولا: إنـما نـحن فتنة فلا تكفر.

1281ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, قال: قال قتادة: كانا يعلـمان الناس السحر, فأخذ علـيهما أن لا يعلـما أحدا حتـى يقولا: إنـما نـحن فتنة فلا تكفر.

1282ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا أبو سفـيان, عن معمر, قال: قال غير قتادة: أخذ علـيهما أن لا يعلـما أحدا حتـى يتقدما إلـيه فـيقولا: إنـما نـحن فتنة فلا تكفر.

حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا يحيى بن سعيد, عن عوف, عن الـحسن, قال: أخذ علـيهما أن يقولا ذلك.

1283ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: أخذ الـميثاق علـيهما أن لا يعلـما أحدا حتـى يقولا: إنـما نـحن فتنة فلا تكفر, لا يجترىء علـى السحر إلا كافر. وأما الفتنة فـي هذا الـموضع, فإن معناها الاختبـار والابتلاء, من ذلك قول الشاعر.

وَقَدْ فُتِنَ النّاسُ فـي دِينِهِمْوخَـلّـى ابنُ عَفّـانَ شَرّا طَوِيلاَ

ومنه قوله: فتنت الذهبَ فـي النار: إذا امتـحنتها لتعرف جودتها من رداءتها, أفتنه فتنة وفُتونا. كما:

1284ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة إنّـمَا نَـحْنُ فِتْنَةٌ أي بلاء.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَـيَتَعَلّـمُونَ مِنْهُمَا ما يُفَرّقُونَ بِهِ بَـيْنَ الـمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

قال أبو جعفر: وقوله جل ثناؤه: فَـيَتَعَلّـمُونَ مِنْهُمَا خبر مبتدأ عن الـمتعلـمين من الـملكين ما أنزل علـيهما, ولـيس بجواب لقوله: وَمَا يُعَلّـمَانِ مِنْ أحَدٍ بل هو خبر مستأنف ولذلك رُفع, فقـيـل: فـيتعلـمون.

فمعنى الكلام إذا: وما يعلـمان من أحد حتـى يقولا: إنـما نـحن فتنة. فـيأبون قبول ذلك منهما فـيتعلـمون منهما ما يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه.

وقد قـيـل: إن قوله: فَـيَتَعَلّـمُونَ خبر عن الـيهود معطوف علـى قوله: وَلَكِنّ الشّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلّـمُونَ النّاسَ السّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ بِبـابِلَ هارُوتَ وَمَارُوتَ فَـيَتَعَلّـمُونَ مِنْهُمَا ما يُفَرّقُونَ بِهِ بَـيْنَ الـمَرْءِ وَزَوْجِهِ وجعلوا ذلك من الـمؤخر الذي معناه التقديـم.

والذي قلنا أشبه بتأويـل الآية لأن إلـحاق ذلك بـالذي يـلـيه من الكلام ما كان للتأويـل وجه صحيح أوْلـى من إلـحاقه بـما قد حيـل بـينه وبـينه من معترض الكلام. والهاء والـميـم والألف من قوله: مِنْهُمَا من ذكر الـملكين. ومعنى ذلك: فـيتعلـم الناس من الـملكين الذي يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه. و«ما» التـي مع «يفرّقون» بـمعنى «الذي». وقـيـل معنى ذلك: السحر الذي يفرّقون به, وقـيـل: هو معنى غير السحر. وقد ذكرنا اختلافهم

فـي ذلك فـيـما مضى قبل. وأما الـمرء فإنه بـمعنى رجل من أسماء بنـي آدم, والأنثى منه الـمرأة يوحد ويثنى, ولا تـجمع ثلاثته علـى صورته, يقال منه: هذا امرؤ صالـح, وهذان امرآن صالـحان, ولا يقال: هؤلاء امرءو صدق, ولكن يقال: هؤلاء رجال صدق, وقوم صدق. وكذلك الـمرأة توحد وتثنى ولا تـجمع علـى صورتها, يقال: هذه امرأة وهاتان امرأتان, ولا يقال: هؤلاء امرآت, ولكن هؤلاء نسوة.

وأما الزوج, فإن أهل الـحجاز يقولون لامرأة الرجل: هي زوجه, بـمنزلة الزوج الذكر ومن ذلك قول الله تعالـى ذكره: أمْسِكْ عَلَـيْكَ زَوْجَكَ وتـميـم وكثـير من قـيس وأهل نـجد يقولون: هي زوجته, كما قال الشاعر:

وَإنّ الّذِي يَـمْشِي يُحَرّشُ زَوْجَتِـيكماشٍ إلـى أُسْدِ الشّرَى يَسْتَبِـيـلُها

فإن قال قائل: وكيف يفرّق الساحر بـين الـمرء وزوجه؟ قـيـل: قد دللنا فـيـما مضى علـى أن معنى السحر تـخيـيـل الشيء إلـى الـمرء بخلاف ما هو به فـي عينه وحقـيقته بـما فـيه الكفـاية لـمن وفق لفهمه. فإن كان ذلك صحيحا بـالذي استشهدنا علـيه, فتفريقه بـين الـمرء وزوجه تـخيـيـله بسحره إلـى كل واحد منهما شخصَ الآخر علـى خلاف ما هو به فـي حقـيقته من حُسْن وجمال حتـى يقبحه عنده فـينصرف بوجهه ويعرض عنه حتـى يحدث الزوج لامرأته فراقا, فـيكون الساحر مفرقا بـينهما بإحداثه السبب الذين كان منه فرقة ما بـينهما. وقد دللنا فـي غير موضع من كتابنا هذا علـى أن العرب تضيف الشيء إلـى مسببه من أجل تسببه وإن لـم يكن بـاشر فعل ما حدث عن السبب, بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع فكذلك تفريق الساحر بسحره بـين الـمرء وزوجه. وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك قاله عدد من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1285ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: فَـيَتَعَلّـمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَـيْنَ الـمَرْءِ وَزَوْجِهِ وتفريقهما أن يُؤَخّذ كل واحد منهما عن صاحبه, ويبغّض كلّ واحد منهما إلـى صاحبه.

وأما الذين أبوا أن يكون الـملكان يعلـمان الناس التفريق بـين الـمرء وزوجه, فإنهم وجهوا تأويـل قوله: فَـيَتَعَلّـمُونَ مِنْهُمَا إلـى «فـيتعلـمون» مكان ما علـماهم ما يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه, كقول القائل: لـيت لنا كذا من كذا, أي مكان كذا. كما قال الشاعر:

جَمَعْتَ مِنَ الـخَيْرَاتِ وَطْبـا وعُلْبَةًوَصرّا لأخلافِ الـمُزّمَـمة البُزْلِ
وَمِنْ كُلّ أخْلاقِ الكِرَامِ نَـمِيـمَةً
وَسَعْيا علـى الـجارِ الـمُجاوِرِ بـالنّجْلِ

يريد بقوله: «جمعت من الـخيرات», مكان خيرات الدنـيا هذه الأخلاق الرديئة والأفعال الدنـيئة. ومنه قول الآخر:

صَلَدَتْ صَفَـاتُكَ أنْ تَلِـينَ حُيُودُهاوَوَرِثْتَ مِنْ سَلَفِ الكِرَامِ عُقُوقَا

يعنـي ورثت مكان سلف الكرام عقوقا من والديك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَا هُمْ بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أحَدٍ إلاّ بـاذْنِ اللّهِ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وما هُمْ بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أحَدٍ إلاّ بإذْنِ اللّهِ وما الـمتعلـمون من الـملكين هاروت وماروت ما يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه, بضارّين بـالذي تعلـموه منهما من الـمعنى الذي يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه من أحد من الناس, إلاّ من قد قضى الله علـيه أن ذلك يضرّه فأما

من دفع الله عنه ضرّه وحفظه من مكروه السحر والنفث والرّقَـى, فإن ذلك غير ضارّه ولا نائله أذاه.
وللإذن فـي كلام العرب أوجه: منها الأمر علـى غير وجه الإلزام, وغير جائز أن يكون منه قوله: وَما هُمْ بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أحَدٍ إلا بإذْنِ اللّهِ لأن الله جل ثناؤه قد حرّم التفريق بـين الـمرء وحلـيـلته بغير سحر فكيف به علـى وجه السحر علـى لسان الأمة. ومنها التـخـلـية بـين الـمأذون له والـمخـلّ بـينه وبـينه. ومنها العلـم بـالشيء, يقال منه: قد أذنت بهذا الأمر, إذا علـمت به, آذنَ به إذْنا ومنه قول الـحطيئة:
ألا يا هِنْدُ إنْ جَدّدْتِ وَصْلاًوَإلاّ فأْذَنِـينِـي بـانْصِرَامِ
يعنـي فأعلـمينـي. ومنه قوله جل ثناؤه: فأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وهذا هو معنى الآية, كأنه قال جل ثناؤه: وَما هُمْ بِضَارّينَ بـالذي تعلـموا من الـملكين من أحد إلا بعلـم الله. يعنـي بـالذي سبق له فـي علـم الله أنه يضرّه. كما:
1286ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا سويد بن نصر, قال: أخبرنا ابن الـمبـارك, عن سفـيان فـي قوله: ومَا هُمْ بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أحَدٍ إلاّ بإذْنِ اللّهِ قال: بقضاء الله.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيَتَعَلّـمُونَ ما يَضُرّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ.
يعنـي بذلك جل ثناؤه: وَيَتَعَلّـمُونَ أي الناس الذين يتعلـمون من الـملكين, ما أنزل علـيهما من الـمعنى الذي يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه, يتعلـمون منهما السحر الذي يضرّهم فـي دينهم ولا ينفعهم فـي معادهم. فأما فـي العاجل فـي الدنـيا, فإنهم قد كانوا يكسبون به ويصيبون به معاشا.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لِـمَنِ اشْتَرَاهُ مالَهُ فـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ.
يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لِـمَنِ اشْتَرَاهُ مالَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ الفريق الذين لـما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لـما معهم, نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلـمون, واتّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمَانَ فقال جل ثناؤه: لقد علـم النابذون من يهود بنـي إسرائيـل كتابـي وراء ظهورهم تـجاهلاً منهم, التاركون العمل بـما فـيه, من اتّبـاعك يا مـحمد واتّبـاع ما جئت به, بعد إنزالـي إلـيك كتابـي مصدقا لـما معهم, وبعد إرسالك إلـيهم بـالإقرار بـما معهم وما فـي أيديهم, الـمؤثرون علـيه اتبـاع السحر الذي تلته الشياطين علـى عهد سلـيـمان, والذي أنزل علـى الـملكين ببـابل هاروت وماروت لـمن اشترى السحر بكتابـي الذي أنزلته علـى رسولـي فآثره علـيه ماله فـي الاَخرة من خلاق. كما:
1287ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ مالَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ يقول: قد علـم ذلك أهل الكتاب فـي عهد الله إلـيهم أن الساحر لا خَلاقَ له عند الله يوم القـيامة.
1288ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَن اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ يعنـي الـيهود, يقول: لقد علـمت الـيهود أن من تعلـمه أو اختاره ما له فـي الاَخرة من خلاق.
1289ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ مالَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ لـمن اشترى ما يفرّق به بـين الـمرء وزوجه.

1290ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ ما لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ قال: قد علـمت يهود أن فـي كتاب الله فـي التوراة أن من اشترى السحر وترك دين الله ما له فـي الاَخرة من خَلاق, فـالنار مثواه ومأواه.

وأما قوله: لَـمَنِ اشْتَرَاهُ فإن «من» فـي موضع رفع, ولـيس قوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا بعامل فـيها لأن قوله: عَلِـمُوا بـمعنى الـيـمين فلذلك كانت فـي موضع رفع, لأن الكلام بـمعنى: والله لـمن اشترى السحر ما له فـي الاَخرة من خلاق. ولكون قوله: قَدْ عَلِـمُوا بـمعنى الـيـمين حققت بلام الـيـمين, فقـيـل: لَـمَنِ اشْتَرَاهُ كما يقال: أقسم لَـمَنْ قام خير مـمن قعد, وكما يقال: قد علـمت لعمرو خير من أبـيك. وأما «من» فهو حرف جزاء. وإنـما قـيـل «اشتراه» ولـم يقل «يشتروه», لدخول لام القسم علـى «من», ومن شأن العرب إذا أحدثت علـى حرف الـجزاء لامِ القسم أن لا ينطقوا فـي الفعل معه إلا ب«فعل» دون «يفعل» إلا قلـيلاً كراهية أن يحدثوا علـى الـجزاء حادثا وهو مـجزوم, كما قال الله جل ثناؤه: لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يُخْرُجُونَ مَعَهُمْ وقد يجوز إظهار فعله بعده علـى «يفعل» مـجزوماً, كما قال الشاعر:

لَئِنْ تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَـيْكُمْ بُـيُوتِكُمْلَـيَعْلَـمُ ربـي أنّ بَـيْتِـيَ وَاسِعُ

واختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: ما لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ فقال بعضهم: الـخلاق فـي هذا الـموضع: النصيب. ذكر من قال ذلك:

1291ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: ما لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ يقول: من نصيب.

1292ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: مَا لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ من نصيب.

1293ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي إسحاق, قال: حدثنا وكيع, قال سفـيان: سمعنا فـي: وَمَا لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ أنه ما له فـي الاَخرة من نصيب.

وقال بعضهم: الـخَلاق ههنا: الـحجة. ذكر من قال ذلك:

1294ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: وَمَا لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ قال: لـيس له فـي الاَخرة حجة.

وقال آخرون: الـخلاق: الدين. ذكر من قال ذلك:

1295ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, قال: قال الـحسن: ما لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ قال: لـيس له دين.

وقال آخرون: الـخلاق ههنا: القِوَام. ذكر من قال ذلك:

1296ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: قال ابن عبـاس: مَا لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ قال: قِوَام.

وأولـى هذه الأقوال بـالصواب قول من قال: معنى الـخلاق فـي هذا الـموضع: النصيب وذلك أن ذلك معناه فـي كلام العرب. ومنه قول النبـيّ صلى الله عليه وسلم: «لَـيُؤَيّدَنّ اللّهُ هَذَا الدّينَ بأقْوَامٍ لا خَلاَقَ لَهُمْ» يعنـي لا نصيب لهم ولا حظّ فـي الإسلام والدين. ومنه قول أمية بن أبـي الصلت:

يَدْعُونَ بِـالوَيْـلِ فِـيها لا خَلاَقَ لَهُمْإلاّ سَرَابِـيـلَ مِنْ قِطْرٍ وأغْلالِ

يعنـي بذلك: لا نصيب لهم ولا حظّ إلا السرابـيـل والأغلال.

فكذل قوله: مَا لَهُ فِـي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ما له فـي الدار الآخرة حظّ من الـجنة من أجل أنه لـم يكن له إيـمان ولا دين ولا عمل صالـح يجازي به فـي الـجنة ويثاب علـيه, فـيكون له حظّ ونصيب من الـجنة. وإنـما قال جل ثناؤه: ما لَهُ فِـي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ فوصفه بأنه لا نصيب له فـي الآخرة, وهو يعنـي به لا نصيب له من جزاء وثواب وجنة دون نصيبه من النار. إذ كان قد دلّ ذمه جل ثناؤه أفعالهم التـي نفـى من أجلها أن يكون لهم فـي الآخرة نصيب علـى مراده من الـخير, وأنه إنـما يعنـي بذلك أنه لا نصيب لهم فـيها من الـخيرات, وأما من الشرور فإن لهم فـيها نصيبـا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ.

قال أبو جعفر رحمه الله: قد دللنا فـيـما مضى قبل علـى أن معنى شروا: بـاعوا فمعنى الكلام إذا: ولبئس ما بـاع به نفسه من تعلـم السحر لو كان يعلـم سوء عاقبته. كما:

1297ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ يقول: بئس ما بـاعوا به أنفسهم.

فإن قال لنا قائل: وكيف قال جل ثناؤه: وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ وقد قال قَبْلُ: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِـي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ فكيف يكونون عالـمين بأن من تعلـم السحر فلا خلاق لهم, وهم يجهلون أنهم بئس ما شروا بـالسحر أنفسهم؟ قـيـل: إن معنى ذلك علـى غير الوجه الذي توهمته من أنهم موصوفون بـالـجهل بـما هم موصوفون بـالعلـم به, ولكن ذلك من الـمؤخر الذي معناه التقديـم, وإنـما معنى الكلام: وما هم ضارّون به من أحد إلا بإذن الله, ويتعلـمون ما يضرّهم ولا ينفعهم, ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلـمون, ولقد علـموا لـمن اشتراه ما له فـي الآخرة من خلاق. فقوله: لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِه أنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ ذمّ من الله تعالـى ذكره فعل الـمتعلـمين من الـملكين التفريق بـين الـمرء وزوجه, وخبر منه جل ثناؤه عنهم أنهم بئس ما شروا به أنفسهم برضاهم بـالسحر عِوَضا عن دينهم الذي به نـجاة أنفسهم من الهلكة, جهلاً منهم بسوء عاقبة فعلهم وخسارة صفقة بـيعهم, إذ كان قد يتعلـم ذلك منهما من لا يعرف الله ولا يعرف حلاله وحرامه وأمره ونهيه. ثم عاد إلـى الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم نبذوا كتابه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلـمون: وَاتّبَعُوا مَا تَتْلُو الشّياطِينُ علـى مُلْكِ سُلَـيْـمانَ, وما أُنْزِلَ علـى الـمَلَكَيْنِ. فأخبر عنهم أنهم قد علـموا أن من اشترى السحر ما له فـي الآخرة من خلاق, ووصفهم بأنهم يركبون معاصي الله علـى علـم منهم بها, ويكفرون بـالله ورسله, ويؤثرون اتبـاع الشياطين, والعمل بـما أحدثته من السحر علـى العمل بكتابه ووحيه وتنزيـله, عنادا منهم وبغيا علـى رسله, وتعدّيًا منهم لـحدوده, علـى معرفة منهم بـما لـمن فعل ذلك عند الله من العقاب والعذاب, فذلك تأويـل قوله.

وقد زعم بعض الزاعمين أن قوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ ما لَهُ فِـي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ يعنـي به الشياطين, وأن قوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ يعنـي به الناس. وذلك قول لـجميع أهل التأويـل مخالف وذلك أنهم مـجمعون علـى أن قوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ معنـيّ به الـيهود دون الشياطين. ثم هو مع ذلك خلاف ما دلّ علـيه التنزيـل, لأن الآيات قبل قوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ

اشْتَرَاهُ وبعد قوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ جاءت من الله بذمّ الـيهود, وتوبـيخهم علـى ضلالهم, وذمّا لهم علـى نبذهم وحي الله وآيات كتابه وراء ظهورهم, مع علـمهم بخطأ فعلهم. فقوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لَـمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ أحد تلك الأخبـار عنهم.

وقال بعضهم: إن الذين وصف الله جل ثناؤه بقوله: وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ فنفـى عنهم العلـم هم الذين وصفهم الله بقوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لـمنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِـي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وإنـما نفـى عنهم جل ثناؤه العلـم بقوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ بعد وصفه إياهم بأنهم قد علـموا بقوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا من أجل أنهم لـم يعملوا بـما علـموا, وإنـما العالـم العامل بعلـمه, وأما إذا خالف عمله علـمه فهو فـي معانـي الـجهال. قال: وقد يقال للفـاعل الفعل بخلاف ما ينبغي أن يفعل وإن كان بفعله عالـما: لو علـمت لأقصرت كما قال كعب بن زهير الـمزنـي, وهو يصف ذئبـا وغرابـا تبعاه لـينالا من طعامه وزاده:

إذَا حَضَرَانِـي قُلْتُ لَوْ تَعْلَـمَا بِهِألـم تَعْلَـمَا أنـي مِنَ الزّادِ مُرْمِلُ

فأخبر أنه قال لهما: لو تعلـمانه, فنفـى عنهما العلـم. ثم استـخبرهما فقال: ألـم تعلـما. قالوا: فكذلك قوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا لـمنِ اشْتَرَاهُ و:لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ وهذا تأويـل وإن كان له مخرج ووجهٌ فإنه خلاف الظاهر الـمفهوم بنفس الـخطاب. أعنـي بقوله: وَلَقَدْ عَلِـمُوا وقوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ وإنـما هو استـخراج. وتأويـل القرآن علـى الـمفهوم الظاهر الـخطاب دون الـخفـيّ البـاطن منه, حتـى تأتـي دلالة من الوجه الذي يجب التسلـيـم له بـمعنى خلاف دلـيـله الظاهر الـمتعارف فـي أهل اللسان الذين بلسانهم نزل القرآن, أوْلَـى.

الآية : 103

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَوْ أَنّهُمْ آمَنُواْ واتّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مّنْ عِندِ اللّهِ خَيْرٌ لّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ }

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَلَوْ أنّهُمْ آمَنُوا وَاتّقُوا لو أن الذين يتعلـمون من الـملكين ما يفرّقون به بـين الـمرء وزوجه آمنوا, فصدّقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم, واتقوا ربهم فخافوه فخافوا عقابه, فأطاعوه بأداء فرائضه وتـجنبوا معاصيه لكان جزاء الله إياهم وثوابه لهم علـى إيـمانهم به وتقواهم إياه خيرا لهم من السحر وما اكتسبوا به لو كانوا يعلـمون أن ثواب الله إياهم علـى ذلك خير لهم من السحر ومـما اكتسبوا به. وإنـما نفـى بقوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَـمُونَ العلـم عنهم أن يكونوا عالـمين بـمبلغ ثواب الله وقدر جزائه علـى طاعته.

والـمثوبة فـي كلام العرب مصدرٌ من قول القائل: أثبتك إثابةً وثوابـا ومَثُوبة, فأصل ذلك من ثاب إلـيك الشيء بـمعنى رجع, ثم يقال: أثبته إلـيك: أي رجعته إلـيك وردته. فكان معنى إثابة الرجل الرجل علـى الهدية وغيرها: إرجاعه إلـيها منها بدلاً, وردّه علـيه منها عوضا. ثم جعل كلّ معوّض غيره من عمله أو هديته أويد له سلفت منه إلـيه مثـيبـا له. ومنه ثواب الله عزّ وجل عبـاده علـى أعمالهم, بـمعنى إعطائه إياهم العوض والـجزاء علـيه, حتـى يرجع إلـيهم بدل من عملهم الذي عملوا له. وقد زعم بعض نـحويـي البصرة أن قوله: وَلَوْ أنّهُمْ آمَنُوا وَاتّقَوا لَـمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ خَيْرٌ مـما اكتفـي بدلالة الكلام علـى معناه عن ذكر جوابه, وأن معناه: ولو أنهم

آمنوا واتقوا لاثيبوا ولكنه استغنى بدلالة الـخبر عن الـمثوبة عن قوله: لأثيبوا. وكان بعض نـحويـي أهل البصرة ينكر ذلك, ويرى أن جواب قوله: وَلَوْ أنّهُمْ آمَنُوا وَاتّقَوا لَـمَثُوبَةٌ وأن «لو» إنـما أجيبت بـالـمثوبة, وإن كانت أخبر عنها بـالـماضي من الفعل لتقارب معناه من معنى «لئن» فـي أنهما جزاءان, فإنهما جوابـان للإيـمان, فأدخـل جواب كلّ واحدة منهما علـى صاحبتها, فأجيبت «لو» بجواب «لئن», و«لئن» بجواب «لو» لذلك وإن اختلفت أجوبتهما فكانت «لو» من حكمها وحظها أن تـجاب بـالـماضي من الفعل, وكانت «لئن» من حكمها وحظها أن تـجاب بـالـمستقبل من الفعل لـما وصفنا من تقاربهما, فكان يتأوّل معنى قوله: وَلَوْ أنّهُمْ آمَنُوا وَاتّقَوا: ولئن آمنوا واتقوا لـمثوبة من عند الله خير.

وبـما قلنا فـي تأويـل الـمثوبة قال أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1298ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لَـمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ يقول: ثواب من عند الله.

1299ـ حدثنـي يونس, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَلَوْ أنّهُمْ آمَنُوا وَاتّقَوْا لَـمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ أما الـمثوبة, فهو الثواب.

1300ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَلَوْ أنّهُمْ آمَنُوا وَاتّقُوا لَـمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ خَيْرٌ يقول: لثواب من عند الله.

الآية : 104

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{يَاأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انْظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا فقال بعضهم: تأويـله لا تقولوا خلافـا. ذكر من قال ذلك:

1301ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا مؤمل, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن جريج, عن عطاء فـي قوله: لاَ تَقُولُوا رَاعِنا قال: لا تقولوا خلافـا.

1302ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, عن عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: لاَ تَقُولُوا رَاعِنا لا تقولوا خلافـا.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن رجل عن مـجاهد, مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, عن مـجاهد, مثله.

وقال آخرون: تأويـله: أرعنا سمعك: أي اسمع منا ونسمع منك. ذكر من قال ذلك:

1303ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي ابن إسحاق, عن مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة, أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس قوله: رَاعِنَا أي أرْعِنَا سمعك.

1304ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله جلّ وعزّ: يا أيّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنا لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك.

1305ـ وحدثت عن الـحسين بن الفرج, قال: سمعت أبـا معاذ يقول: أخبرنا عبـيد بن سلـيـمان, قال: سمعت الضحاك يقول فـي قوله: رَاعِنا قال: كان الرجل من الـمشركين يقول: أرْعنـي سمعك.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي السبب الذي من أجله نهى الله الـمؤمنـين أن يقولوا راعنا, فقال بعضهم: هي كلـمة كانت الـيهود تقولها علـى وجه الاستهزاء والـمسبّة, فنهى الله تعالـى ذكره الـمؤمنـين أن يقولوا ذلك للنبـيّ صلى الله عليه وسلم. ذكر من قال ذلك:

1306ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: يا أيّها الّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا قولٌ كانت تقوله الـيهود استهزاءً, فزجر الله الـمؤمنـين أن يقولوا كقولهم.

1307ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, عن فضيـل بن مرزوق, عن عطية: لا تَقُولُوا رَاعِنا قال: كان أناس من الـيهود يقولون: أرعنا سمعك, حتـى قالها أناس من الـمسلـمين. فكره الله لهم ما قالت الـيهود, فقال: يا أيّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنا كما قالت الـيهود والنصارى.

1308ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لا تَقُولوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا قال: كانوا يقولون راعنا سمعك, فكان الـيهود يأتون فـيقولون مثل ذلك مستهزئين, فقال الله: لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا.

1309ـ وحدثت عن الـمنـجاب, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: لاَ تَقُولُوا رَاعِنا قال: كانوا يقولون للنبـيّ صلى الله عليه وسلم: راعنا سمعك وإنـما راعنا كقولك عَاطِنَا.

1310ـ وحدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: يا أيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنَا قال: راعنا القول الذي قاله القوم قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا واسمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَـيّا بألسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فـي الدّينِ قال: قال هذا الراعن, والراعن: الـخطّاء. قال: فقال للـمؤمنـين: لا تقولوا خطاء كما قال القوم وقولوا انظرنا واسمعوا, قال: كانوا ينظرون إلـى النبـيّ صلى الله عليه وسلم ويكلـمونه ويسمع منهم, ويسألونه ويجيبهم.

وقال آخرون: بل هي كلـمة كانت الأنصار فـي الـجاهلـية تقولها, فنهاهم الله فـي الإسلام أن يقولوها لنبـيه صلى الله عليه وسلم. ذكر من قال ذلك:

1311ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنـي هشيـم, قال: أخبرنا عبد الرزاق, عن عطاء فـي قوله: لاَ تَقُولُوا رَاعِنا قال: كانت لغة فـي الأنصار فـي الـجاهلـية, فنزلت هذه الآية: لا تَقُولُوا رَاعِنا وَلكن قُولُوا انْظُرْنَا إلـى آخر الآية.

حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا هشيـم, عن عبد الـملك, عن عطاء قال: لاَ تَقُولُوا رَاعِنا قال: كانت لغة فـي الأنصار.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن عبد الـملك, عن عطاء, مثله.

1312ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, عن ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: لاَ تَقُولُوا رَاعِنا قال: إن مشركي العرب كانوا إذا حدّث بعضهم بعضا يقول أحدهم لصاحبه: أرْعنـي سمعك فنهوا عن ذلك.

1313ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, راعنا قول الساخر, فنهاهم أن يسخروا من قول مـحمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم: بل كان ذلك كلام يهودي من الـيهود بعينه يقال له رفـاعة بن زيد, كان يكلـم النبـيّ صلى الله عليه وسلم به علـى وجه السبّ له, وكان الـمسلـمون أخذوا ذلك عنه, فنهى الله الـمؤمنـين عن قـيـله للنبـي صلى الله عليه وسلم. ذكر من قال ذلك:

1314ـ حدثنـي موسى, قال حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: يا أيّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنَا كان رجل من الـيهود من قبـيـلة من الـيهود يقال لهم بنو قـينقاع كان يُدْعَى رفـاعة بن زيد بن السائب.

قال أبو جعفر: هذا خطأ إنـما هو ابن التابوت لـيس ابن السائب كان يأتـي النبـيّ صلى الله عليه وسلم, فإذا لقـيه فكلـمه قال: أرعنـي سمعك واسمع غير مسمع. فكان الـمسلـمون يحسبون أن الأنبـياء كانت تفخّم بهذا, فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع, كقولك اسمع غير صاغر, وهي التـي فـي النساء: مِنَ الّذِينَ هَادُوا يحَرّفُونَ الكَلِـمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَـيّا بألْسِنَتِهِمْ وَطَعْنا فِـي الدّينِ يقول: إنـما يريد بقوله: طَعْنا فِـي الدّينِ. ثم تقدم إلَـى الـمؤمنـين فقال: لا تقولوا راعنا.

والصواب من القول فـي نهي الله جل ثناؤه الـمؤمنـين أن يقولوا لنبـيه: راعنا, أن يقال إنها كلـمة كرهها الله لهم أن يقولوها لنبـيه صلى الله عليه وسلم, نظير الذي ذكر عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لاَ تَقُولُوا للعِنَبِ الكَرْمَ ولَكِنْ قُولُوا الـحَبلَة», و«لا تَقُولُوا عبْدِي وَلَكِنْ قُولُوا فَتَايَ» وما أشبه ذلك من الكلـمتـين اللتـين تكونان مستعملتـين بـمعنى واحد فـي كلام العرب, فتأتـي الكراهة أو النهي بـاستعمال إحداهما واختـيار الأخرى علـيها فـي الـمخاطبـات.

فإن قال لنا قائل: فإنا قد علـمنا معنى نهي النبـيّ صلى الله عليه وسلم فـي العنب أن يقال له كرم, وفـي العبد أن يقال له عبد, فما الـمعنى الذي فـي قوله: راعِنا حينئذٍ الذي من أجله كان النهي من الله جل ثناؤه للـمؤمنـين عن أن يقولوه, حتـى أمرهم أن يؤثروا قوله: انْظُرْنا؟ قـيـل: الذي فـيه من ذلك, نظير الذي فـي قول القائل الكرم للعنب, والعبد للـمملوك, وذلك أن قول القائل عبد, لـجميع عبـاد الله, فكره النبـيّ صلى الله عليه وسلم أن يضاف بعض عبـاد الله, بـمعنى العبودية إلـى غير الله, وأمر أن يضاف ذلك إلـى غيره بغير الـمعنى الذي يضاف إلـى الله عزّ وجل, فـيقال: فتاي. وكذلك وجه نهيه فـي العنب أن يقال كرما خوفـا من توهم وصفه بـالكرم, وإن كانت مسكّنة, فإن العرب قد تسكن بعض الـحركات إذا تتابعت علـى نوع واحد, فكره أن يتصف بذلك العنب. فكذلك نهى الله عزّ وجل الـمؤمنـين أن يقولوا «راعنا», لـما كان قول القائل «راعنا» مـحتـملاً أن يكون بـمعنى احفظنا ونـحفظك وارقبنا ونرقبك, من قول العرب بعضهم لبعض: رعاك الله بـمعنى حفظك الله وكلأك. ومـحتـملاً أن يكون بـمعنى أرعنا سمعك, من قولهم: أرعيت سمعي إرعاءً, أو راعيته سمعي رعاء أو مراعاة, بـمعنى: فرّغته لسماع كلامه. كما قال الأعشى ميـمون بن قـيس:

يَرْعَى إلـى قَوْلِ ساداتِ الرّجالِ إذَاأبْدَوْا لَهُ الـحَزْمَ أوْ مَا شَاءهُ ابْتَدعَا

يعنـي بقوله يرعى: يصغي بسمعه إلـيه مُفْرِغَهُ لذلك.

وكأن الله جل ثناؤه قد أمر الـمؤمنـين بتوقـير نبـيه صلى الله عليه وسلم وتعظيـمه, حتـى نهاهم جلّ ذكره فـيـما نهاهم عنه عن رفع أصواتهم فوق صوته وأن يجهروا له بـالقوْل كجهر بعضهم لبعض وخوّفهم علـى ذلك حبوط أعمالهم, فتقدّم إلـيهم بـالزجر لهم عن أن يقولوا له من القول ما فـيه جفـاء, وأمرهم أن يتـخيروا لـخطابه من الألفـاظ أحسنها, ومن الـمعانـي أرقها, فكان من ذلك قولهم: راعِنا لِـمَا فِـيهِ من احتـمال معنى ارعنا نرعاك, إذْ كانت الـمفـاعلة لا تكون إلا من اثنـين, كما يقول القائل: عاطنا وحادثنا وجالسنا, بـمعنى افعل بنا ونفعل بك. ومعنى أرعنا سمعك حتـى نفهمك وتفهم عنا. فنهى الله تعالـى ذكره أصحاب مـحمد أن يقولوا ذلك كذلك وأن يفردوا مسألته بـانتظارهم وإمهالهم لـيعقلوا عنه بتبجيـل منهم له وتعظيـم, وأن لا يسألوه ما سألوه من ذلك علـى وجه الـجفـاء والتـجهم منهم له, ولا بـالفظاظة والغلظة, تشبها منهم بـالـيهود فـي خطابهم نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم بقولهم له: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنا. يدلّ علـى صحة ما قلنا فـي ذلك قوله: مَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتابِ وَلاَ الـمُشْرِكِينَ أنْ يُنْزّلَ عَلَـيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبّكُمْ فدلّ بذلك أن الذي عاتبهم علـيه مـما يسرّ الـيهود والـمشركين.

فأما التأويـل الذي حكي عن مـجاهد فـي قوله: رَاعِنا أنه بـمعنى خلافـا, فمـما لا يعقل فـي كلام العرب لأن «راعيت» فـي كلام العرب إنـما هو علـى أحد وجهين: أحدهما بـمعنى فـاعلت من «الرّعْية», وهي الرّقْبة والكلاءة. والآخر بـمعنى إفراغ السمع, بـمعنى أرعيته سمعي. وأما «راعيت» بـمعنى «خالفت», فلا وجه له مفهوم فـي كلام العرب, إلا أن يكون قرأ ذلك بـالتنوين ثم وجهه إلـى معنى الرعونة والـجهل والـخطأ, علـى النـحو الذي قال فـي ذلك عبد الرحمن بن زيد, فـيكون لذلك وإن كان مخالفـا قراءة القراء معنى مفهوم حينئذٍ.

وأما القول الآخر الذي حكي عن عطية ومن حَكَى ذلك عنه, أن قوله: رَاعِنا كانت كلـمة للـيهود بـمعنى السبّ والسخرية, فـاستعملها الـمؤمنون أخذا منهم ذلك عنهم فإن ذلك غير جائز فـي صفة الـمؤمنـين أن يأخذوا من كلام أهل الشرك كلاما لا يعرفون معناه ثم يستعملونه بـينهم وفـي خطاب نبـيهم صلى الله عليه وسلم, ولكنه جائز أن يكون ذلك مـما روي عن قتادة أنها كانت كلـمة صحيحة مفهومة من كلام العرب وافقت كلـمة من كلام الـيهود بغير اللسان العربـي هي عند الـيهود سبّ, وهي عند العرب: أرْعِنِـي سمعك وفرّغه لتفهم عنـي. فعلـم الله جل ثناؤه معنى الـيهود فـي قـيـلهم ذلك للنبـيّ صلى الله عليه وسلم, وأن معناها منهم خلاف معناها فـي كلام العرب, فنهى الله عزّ وجلّ الـمؤمنـين عن قـيـلها للنبـيّ صلى الله عليه وسلم لئلا يجترىء من كان معناه فـي ذلك غير معنى الـمؤمنـين فـيه أن يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم به. وهذا تأويـل لـم يأت الـخبر بأنه كذلك من الوجه الذي تقوم به الـحجة. وإذْ كان ذلك كذلك فـالذي هو أولـى بتأويـل الآية ما وصفنا, إذْ كان ذلك هو الظاهر الـمفهوم بـالآية دون غيره.

وقد حكي عن الـحسن البصري أنه كان يقرؤه: «لا تَقُولُوا رَاعِنا» بـالتنوين, بـمعنى: لا تقولوا قولاً راعنا, من الرعونة وهي الـحمق والـجهل. وهذه قراءة الـمسلـمين مخالفة, فغير جائز لأحد القراءة بها لشذوذها وخروجها من قراءة الـمتقدمين والـمتأخرين وخلافها ما جاءت به الـحجة من الـمسلـمين. ومن نوّن «راعنا» نوّنه بقوله: لا تَقُولُوا لأنه حينئذٍ عامل فـيه. ومن لـم ينوّنه فإنه ترك تنوينه لأنه أمر مـحكيّ لأن القوم كأنهم كانوا يقولون للنبـيّ صلى الله عليه وسلم: راعِنا بـمعنى مسألته إما أن يرعيهم سمعه, وإما أن يرعاهم ويرقبهم علـى ما قد بـينت فـيـما قد مضى فقـيـل لهم: لا تقولوا فـي مسألتكم إياه راعنا. فتكون الدلالة علـى معنى الأمر فـي «راعنا» حينئذٍ سقوط الـياء التـي كانت تكون فـي «يراعيه». ويدلّ علـيها أعنـي علـى الـياء الساقطة كسرة العين من «راعنا». وقد ذكر أن قراءة ابن مسعود: «لا تقولوا راعونا» بـمعنى حكاية أمر صالـحة لـجماعة بـمراعاتهم. فإن كان ذلك من قراءته صحيحا وُجّه أن يكون القوم كأنهم نهوا عن استعمال ذلك بـينهم فـي خطاب بعضهم بعضا كان خطابهم للنبـيّ صلى الله عليه وسلم أو لغيره, ولا نعلـم ذلك صحيحا من الوجه الذي تصحّ منه الأخبـار.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَقُولُوا انْظُرْنا.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَقُولُوا انْظُرْنَا وقولوا يا أيها الـمؤمنون لنبـيكم صلى الله عليه وسلم: انتظرنا وارقبنا نفهم ونتبـين ما تقول لنا وتعلـمنا. كما:

1315ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَقُولُوا انْظُرْنَا فهّمْنا بـيّنْ لنا يا مـحمد.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَقُولُوا انْظُرْنَا فَهّمنا بـيّن لنا يا مـحمد.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد, مثله.

يقال منه: نظرت الرجل أنظره نظرة بـمعنى انتظرته ورقبته. ومنه قول الـحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ أعْشاءَ صَادِرَةٍللـخِمْسِ طالَ بِها حَوْزِي وتَنْسَاسي

ومنه قول الله عز وجل: يَوْمَ يَقُولُ الـمُنَافِقُونَ وَالـمُنَافِقَاتُ للّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ يعنـي به انتظرونا. وقد قرىءِ «أنْظِرنا» بقطع الألف فـي الـموضعين جميعا, فمن قرأ ذلك كذلك أراد أخّرنا, كما قال الله جل ثناؤه: قَالَ رَبّ فأنْظِرْنِـي إلـى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أي أخّرنـي. ولا وجه لقراءة ذلك كذلك فـي هذا الـموضع لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنـما أمروا بـالدنوّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستـماع منه وإلطاف الـخطاب له وخفض الـجناح, لا بـالتأخر عنه ولا بـمسألته تأخيرهم عنه. فـالصواب إن كان ذلك كذلك من القراءة قراءة من وصل الألف من قوله: انْظُرْنا ولـم يقطعها بـمعنى انتظرنا.

وقد قـيـل: إن معنى «أنْظِرنا» بقطع الألف بـمعنى «أمهلنا», حكي عن بعض العرب سماعا: أنظرنـي أكلـمك وذكر سامع ذلك من بعضهم أنه استثبته فـي معناه, فأخبره أنه أراد أمهلنـي. فإن يكن ذلك صحيحا عنهم ف«انْظُرْ» و«أنْظِرْنا» بقطع الألف ووصلها متقاربـا الـمعنى. غير أن الأمر

وإن كان كذلك, فإن القراءة التي أستـجيز غيرها قراءة من قرأ: وَقُولُوا انْظُرْنا بوصل الألف بـمعنى انتظرنا, لإجماع الـحجة علـى تصويبها ورفضهم غيرها من القراءات.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَاسمَعُوا ولِلْكافِرِينَ عَذَابٌ ألِـيـمٌ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: واسمَعُوا واسمعوا ما يقال لكم ويتلـى علـيكم من كتاب ربكم وعوه وافهموه. كما:

1316ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: واسمَعُوا اسمعوا ما يقال لكم.

فمعنى الآية إذا: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لنبـيكم راعنا سمعك وفرّغه لنا نفهمك وتفهم عنا ما نقول, ولكن قولوا انتظرنا وترقبنا حتـى نفهم عنك ما تعلـمنا وتبـينه لنا, واسمعوا منه ما يقول لكم فعوه واحفظوه وافهموه. ثم أخبرهم جل ثناؤه أن لـمن جحد منهم ومن غيرهم آياته وخالف أمره ونهيه وكذب رسوله العذاب الـموجع فـي الآخرة, فقال: وللكافرين بـي وبرسولـي عذاب ألـيـم, يعنـي بقوله الألـيـم: الـموجع. وقد ذكرنا الدلالة علـى ذلك فـيـما مضى قبل وما فـيه من الآثار.

الآية : 105

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{مّا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْكُمْ مّنْ خَيْرٍ مّن رّبّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

يعنـي بقوله: ما يَوَدّ ما يحبّ, أي لـيس يحبّ كثـير من أهل الكتاب, يقال منه: ودّ فلان كذا يَوَدّ وُدّا ووَدّا ومودّةً. وأما «الـمشركين» فإنهم فـي موضع خفض بـالعطف علـى أهل الكتاب.

ومعنى الكلام: ما يحبّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا الـمشركين أن ينزل علـيكم من خير من ربكم. وأما أنْ فـي قوله: أنْ يُنَزّلَ فنصب بقوله: يَودّ. وقد دللنا علـى وجه دخول «مِن» فـي قوله: مِنْ خَيْرٍ وما أشبه ذلك من الكلام الذي يكون فـي أوله جحد فـيـما مضى, فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـموضع.

فتأويـل الكلام: ما يحبّ الكافرون من أهل الكتاب ولا الـمشركين بـالله من عبدة الأوثان أن ينزل علـيكم من الـخير الذي كان عند الله فنزلهم علـيكم. فتـمنى الـمشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله علـيهم الفرقان وما أوحاه إلـى مـحمد صلى الله عليه وسلم من حكمه وآياته, وإنـما أحبت الـيهود وأتبـاعهم من الـمشركين ذلك حسدا وبغيا منهم علـى الـمؤمنـين.

وفـي هذه الآية دلالة بـيّنة علـى أن الله تبـارك وتعالـى نهى الـمؤمنـين عن الركون إلـى أعدائهم من أهل الكتاب والـمشركين, والاستـماع من قولهم وقبول شيء مـما يأتونهم به, علـى وجه النصيحة لهم منهم بإطلاعه جلّ ثناؤه إياهم علـى ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والـمشركون من الضغن والـحسد وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَاللّهُ يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيـمِ.

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَاللّهُ يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ والله يختصّ من يشاء بنبوّته ورسالته فـيرسله إلـى من يشاء من خـلقه, فـيتفضل بـالإيـمان علـى

من أحبّ فـيهديه له. واختصاصه إياهم بها إفرادهم بها دون غيرهم من خـلقه. وإنـما جعل الله رسالته إلـى من أرسل إلـيه من خـلقه وهدايته من هدى من عبـاده رحمة منه له لـيصيره بها إلـى رضاه ومـحبته, وفوزه بها بـالـجنة واستـحقاقه بها ثناءه وكل ذلك رحمة من الله له.

وأما قوله: وَاللّهُ ذو الفَضْلِ العَظِيـمِ فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عبـاده فـي دينهم ودنـياهم فإنه من عنده ابتداءً وتفضلاً منه علـيهم من غير استـحقاق منهم ذلك علـيه.

وفـي قوله: وَاللّهُ يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيـمِ تعريض من الله تعالـى ذكره بأهل الكتاب أن الذي آتـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم والـمؤمنـين به من الهداية تفضلاً منه, وأن نعمه لا تدرك بـالأمانـي ولكنها مواهب منه يختصّ بها من يشاء من خـلقه.

الآية : 106

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

يعنـي جل ثناؤه بقوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ إلـى غيره, فنبدله ونغيره. وذلك أن يحوّل الـحلال حراما والـحرام حلالاً, والـمبـاح مـحظورا والـمـحظور مبـاحا ولا يكون ذلك إلا فـي الأمر والنهي والـحظر والإطلاق والـمنع والإبـاحة, فأما الأخبـار فلا يكون فـيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من «نَسْخَ الكتاب» وهو نَقْلُه من نُسخة إلـى أخرى غيرها, فكذلك معنى نسخ الـحكم إلـى غيره إنـما هو تـحويـله ونقل عبـارته عنه إلـى غيره. فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية فسواء إذا نسخ حكمها فغُير وبُدّل فرضها ونقل فرض العبـاد عن اللازم كان لهم بها أوفر حَظها فتُرك, أو مُـحي أثرها, فُعفّـي ونُسي, إذ هي حينئذٍ فـي كلتا حالتـيها منسوخة. والـحكم الـحادث الـمبدل به الـحكم الأوّل والـمنقول إلـيه فرض العبـاد هو الناسخ, يقال منه: نسخ الله آية كذا وكذا ينسخه نسخا, والنسخة الاسم. وبـمثل الذي قلنا فـي ذلك كان الـحسن البصري يقول.

1317ـ حدثنا سوار بن عبد الله العنبري, قال: حدثنا خالد بن الـحارث, قال: حدثنا عوف, عن الـحسن أنه قال فـي قوله: مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِها نأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا قال: إن نبـيّكم صلى الله عليه وسلم أقرىء قرآنا ثم نسيه فلا يكن شيئا, ومن القرآن ما قد نسخ وأنتـم تقرءونه.

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: ما نَنْسَخْ فقال بعضهم بـما:

1318ـ حدثنـي به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن عمار, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أما نسخُها فقَبْضُها. وقال آخرون بـما:

1319ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ يقول: ما نبدّل من آية. وقال آخرون بـما:

1320ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن أصحاب عبد الله بن مسعود أنهم قالوا: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ نثبت خطها ونبدل حكمها.

وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: ما نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ نثبت خطها, ونبدل حكمها, حُدثت به عن أصحاب ابن مسعود.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنـي بكر بن شوذب, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, عن أصحاب ابن مسعود: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ نثبت خطها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أوْ نُنْسِها.

اختلفت القراءة فـي قوله ذلك, فقرأها قرّاء أهل الـمدينة والكوفة: أوْ نُنْسِها ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويـل, أحدهما: أن يكون تأويـله: ما ننسخ يا مـحمد من آية فنغير حكمها أو ننسها. وقد ذكر أنها فـي مصحف عبد الله: «ما نُنْسِكَ من آية أو ننسخها نـجيء بـمثلها», فذلك تأويـل النسيان. وبهذا التأويـل قال جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1321ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِها كان ينسخ الآية بـالآية بعدها, ويقرأ نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك ثم تُنسى وتُرفع.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِها قال: كان الله تعالـى ذكره ينسي نبـيه صلى الله عليه وسلم ما شاء وينسخ ما شاء.

1322ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: كان عبـيد بن عمير يقول: نُنْسِها نرفعها من عندكم.

1323ـ حدثنا سوار بن عبد الله, قال: حدثنا خالد بن الـحارث, قال: حدثنا عوف, عن الـحسن أنه قال فـي قوله: أوْ نُنْسِها قال: إن نبـيكم صلى الله عليه وسلم أقرىء قرآنا, ثم نسيه.

وكذلك كان سعد بن أبـي وقاص يتأوّل الآية إلا أنه كان يقروها: «أو تَنْسَها» بـمعنى الـخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم, كأنه عنـي أو تَنْسَها أنت يا مـحمد. ذكر الأخبـار بذلك:

1324ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا يعلـى بن عطاء, عن القاسم, قال: سمعت سعد بن أبـي وقاص يقول: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ تَنْسَها» قلت له: فإن سعيد بن الـمسيب يقرؤها: «أو تُنْسَها» قال: فقال سعد: إن القرآن لـم ينزل علـى الـمسيب ولا علـى آل الـمسيب, قال الله: سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى وَاذْكُرْ رَبّكَ إذَا نَسِيتَ.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا هشيـم, قال: حدثنا يعلـى بن عطاء, قال: حدثنا القاسم بن ربـيعة بن قانف الثقـفـي, قال: سمعت ابن أبـي وقاص يذكر نـحوه.

حدثنا مـحمد بن الـمثنى وآدم العسقلانـي قالا جميعا, عن شعبة, عن يعلـى بن عطاء, قال: سمعت القاسم بن ربـيعة الثقـفـي يقول: قلت لسعد بن أبـي وقاص: إنـي سمعت ابن الـمسيب يقرأ: «ما نَنَسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ تُنْسَها» فقال سعد: إن الله لـم ينزل القرآن علـى الـمسيب ولا علـى ابنه, إنـما هي: «ما ننسخ من آية أو تَنْسَها» يا مـحمد. ثم قرأ: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى وَاذْكُرْ رَبّكَ إذَا نَسِيتَ.

1325ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِها يقول: نُنسها: نرفعها وكان الله تبـارك وتعالـى أنزل أمورا من القرآن ثم رفعها.

والوجه الآخر منهما أن يكون بـمعنى الترك, من قول الله جل ثناؤه: نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ يعنـي به تركوا الله فتركهم. فـيكون تأويـل الآية حينئذٍ علـى هذا التأويـل: ما ننسخ من آية فنغير حكمها ونبدّل فرضها نأت بخير من التـي نسخناها أو مثلها. وعلـى هذا التأويـل تأوّل جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1326ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس فـي قوله: أوْ نُنْسِها يقول: أو نتركها لا نبدّلها.

1327ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي قوله: أوْ نُنْسِها نتركها لا ننسخها.

1328ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا جويبر, عن الضحاك فـي قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِها قال: الناسخ والـمنسوخ.

قال: وكان عبد الرحمن بن زيد يقول فـي ذلك ما:

1329ـ حدثنـي به يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: نُنْسِها نـمـحها. وقرأ ذلك آخرون: «أو ننسأها» بفتـح النون وهمزة بعد السين بـمعنى نؤخرها, من قولك: نسأت هذا الأمر أنسؤه نسأً ونساءً إذا أخرته, وهو من قولهم: بعته بنسَاءٍ, يعنـي بتأخير. ومن ذلك قول طَرَفَة بن العبد:

لعَمْرُكَ إنّ الـمَوْتَ ما أنْسأ الفَتـىلكالطّوَلِ الـمُرْخَى وثِنْـياهُ بـالـيَدِ

يعنـي بقوله أنسأ: أخّر.

ومـمن قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين, وقرأه جماعة من قرّاء الكوفـيـين والبصريـين, وتأوّله كذلك جماعة من أهل التأويـل ذكر من قال ذلك:

1330ـ حدثنا أبو كريب, ويعقوب بن إبراهيـم, قالا: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا عبد الـملك, عن عطاء فـي قوله: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نَنْسأها» قال نؤخرها.

1331ـ حدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, قال: سمعت ابن أبـي نـجيح, يقول فـي قول الله: «أوْ نَنْسأها» قال: نُرْجئها.

1332ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: «أوْ نَنْسأها» نرجئها ونؤخرها.

1333ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا فضيـل, عن عطية: «أوْ نَنْسأها» قال: نؤخرها فلا ننسخها.

1334ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: أخبرنـي عبد الله بن كثـير عن عبـيد الأزدي, عن عبـيد بن عمير «أوْ نَنْسأها» إرجاؤها وتأخيرها. هكذا حدثنا القاسم عن عبد الله بن كثـير, عن عبـيد الأزدي. وإنـما هو عن علـيّ الأزدي.

حدثنـي أحمد بن يوسف, قال: حدثنا القاسم بن سلام, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, عن عبد الله بن كثـير, عن علـيّ الأزدي, عن عبـيد بن عمير أنه قرأها: «نَنْسأها».

قال: فتأويـل من قرأ ذلك كذلك: ما نبدّل من آية أنزلناها إلـيك يا مـحمد, فنبطل حكمها ونثبت خطها, أو نؤخرها فنرجئها ونقرّها فلا نغيرها ولا نبطل حكمها نأت بخير منها أو مثلها.

وقد قرأ بعضهم ذلك: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو تُنْسَها» وتأويـل هذه القراءة نظير تأويـل قراءة من قرأ أوْ نُنْسِها إلا أن معنى «أو تُنْسَها» أنت يا مـحمد.

وقد قرأ بعضهم: «ما نُنْسِخْ مِنْ آيَةٍ» بضم النون وكسر السين, بـمعنى: ما نُنسخك يا مـحمد نـحن من آية, من أنسختك فأنا أنسخك. وذلك خطأ من القراءة عندنا لـخروجه عما جاءت به الـحجة من القراءة بـالنقل الـمستفـيض. وكذلك قراءة من قرأ «تُنسَها» أو «تَنْسَها» لشذوذها وخروجها عن القراءة التـي جاءت بها الـحجة من قرّاء الأمة. وأولـى القراءات فـي قوله: أوْ نُنْسِها بـالصواب من قرأ: أو نُنْسِها, بـمعنى نتركها لأن الله جل ثناؤه أخبر نبـيه صلى الله عليه وسلم أنه مهما بدّل حكما أو غيره أو لـم يبدّله ولـم يغيره, فهو آتـيه بخير منه أو بـمثله. فـالذي هو أولـى بـالآية إذ كان ذلك معناها, أن يكون إذ قدّم الـخبر عما هو صانع إذا هو غير وبدّل حكم آية أن يعقب ذلك بـالـخبر عما هو صانع, إذا هو لـم يبدّل ذلك ولـم يغير. فـالـخبر الذي يجب أن يكون عقـيب قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ قوله: أو نترك نسخها, إذ كان ذلك الـمعروف الـجاري فـي كلام الناس. مع أن ذلك إذا قرىء كذلك بـالـمعنى الذي وصفت, فهو يشتـمل علـى معنى الإنساء الذي هو بـمعنى الترك, ومعنى النّساء الذي هو بـمعنى التأخير, إذْ كان كل متروك فمؤخر علـى حال مّا هو متروك. وقد أنكر قوم قراءة من قرأ: «أوْ تُنْسَها» إذا عنـي به النسيان, وقالوا: غير جائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نسي من القرآن شيئا مـما لـم ينسخ إلا أن يكون نسي منه شيئا ثم ذكره. قالوا: وبعد, فإنه لو نسي منه شيئا لـم يكن الذين قرءوه وحفظوه من أصحابه بجائز علـى جميعهم أن ينسوه.

قالوا: وفـي قول الله جل ثناؤه: وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبنّ بِـالّذِي أوْحَيْنا إلَـيْكَ ما ينبىء عن أن الله تعالـى ذكره لـم يُنْسِ نبـيه شيئا مـما آتاه من العلـم.

قال أبو جعفر: وهذا قول يشهد علـى بطوله وفساده الأخبـار الـمتظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنـحو الذي قلنا.

1335ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: حدثنا أنس بن مالك: إن أولئك السبعين من الأنصار الذين قتلوا ببئر معونة قرأنا بهم وفـيهم كتابـا: «بلغوا عنا قومنا أنا لقـينا ربنا فرضي عنا وأرضانا». ثم إن ذلك رفع.

فـالذي ذكرنا عن أبـي موسى الأشعري أنهم كانوا يقرءون: «لو أن لابن آدم واديـين من مال لابتغى لهما ثالثا, ولا يـملأ جوف ابن آدم إلا التراب, ويتوب الله علـى من تاب» ثم رُفع وما أشبه ذلك من الأخبـار التـي يطول بإحصائها الكتاب. وغير مستـحيـل فـي فطرة ذي عقل صحيح ولا بحجة خبر أن ينسي الله نبـيه صلى الله عليه وسلم بعض ما قد كان أنزله إلـيه. فإذا كان ذلك غير مستـحيـل من أحد هذين الوجهين, فغير جائز لقائل أن يقول ذلك غير جائز.

وأما قوله: وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبنّ بـالّذِي أوْحَيْنا إلَـيْكَ فإنه جلّ ثناؤه لـم يخبر أنه لا يذهب بشيء منه, وإنـما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه, فلـم يذهب به والـحمد لله بل إنـما ذهب بـما لا حاجة بهم إلـيه منه, وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بـالعبـاد إلـيه, وقد قال الله تعالـى ذكره: سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى إلاّ ما شاءَ اللّهُ فأخبر أنه ينسي نبـيه منه ما شاء, فـالذي ذهب منه الذي استثناه الله. فأما نـحن فإنـما اخترنا ما اخترنا من التأويـل طلب اتساق الكلام علـى نظام فـي الـمعنى, لا إنكار أن يكون الله تعالـى ذكره قد كان أنسى نبـيه بعض ما نسخ من وحيه إلـيه وتنزيـله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: نأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِها.

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِها, فقال بعضهم بـما:

1336ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِها يقول: خير لكم فـي الـمنفعة وأرفق بكم. وقال آخرون بـما:

1337ـ حدثنـي به الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِها يقول: آية فـيها تـخفـيف, فـيها رحمة, فـيها أمر, فـيها نهي.

وقال آخرون: نأت بخير من التـي نسخناها, أو بخير من التـي تركناها فلـم ننسخها. ذكر من قال ذلك:

1338ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا يقول: نأت بخير من التـي نسخناها أو مثلها أو مثل التـي تركناها. فـالهاء والألف اللتان فـي قوله: مِنْهَا عائدتان علـى هذه الـمقالة علـى الآية فـي قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ والهاء والألف اللتان فـي قوله: أوْ مِثْلِها عائدتان علـى الهاء والألف اللتـين فـي قوله: أوْ نُنْسِها. وقال آخرون بـما:

1339ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, قال: كان عبـيد بن عمير يقول: نُنْسِها نرفعها من عندكم, نأت بـمثلها أو خير منها.

1340ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: أوْ نُنْسِها نرفعها نأت بخير منها أو بـمثلها.

1341ـ وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا بكر بن شوذب, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, عن أصحاب ابن مسعود, مثله.

والصواب من القول فـي معنى ذلك عندنا: ما نبدّل من حكم آية فنغيره أو نترك تبديـله فنقرّه بحاله, نأت بخير منها لكم من حكم الآية التـي نسخنا فغيرنا حكمها, إما فـي العاجل لـخفته علـيكم, من أجل أنه وضع فرض كان علـيكم فأسقط ثقله عنكم, وذلك كالذي كان علـى الـمؤمنـين من فرض قـيام اللـيـل, ثم نسخ ذلك فوضع عنهم, فكان ذلك خيرا لهم فـي عاجلهم لسقوط عبء ذلك وثقل حمله عنهم وإما فـي الآجل لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله وثقل عبئه علـى الأبدان, كالذي كان علـيهم من صيام أيام معدودات فـي السنة, فنُسخ وفرض علـيهم مكانه صوم شهر كامل فـي كلّ حَوْل, فكان فرض صوم شهر كامل كل سنة أثقل علـى الأبدان من صيام أيام معدودات. غير أن ذلك وإن كان كذلك, فـالثواب علـيه أجزل والأجر

علـيه أكثر, لفضل مشقته علـى مكلفـيه من صوم أيام معدودات, فذلك وإن كان علـى الأبدان أشقّ فهو خير من الأوّل فـي الآجل لفضل ثوابه وعظم أجره الذي لـم يكن مثله لصوم الأيام الـمعدودات. فذلك معنى قوله: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها لأنه إما بخير منها فـي العاجل لـخفته علـى من كلفه, أو فـي الآجل لعظم ثوابه وكثرة أجره. أو يكون مثلها فـي الـمشقة علـى البدن واستواء الأجر والثواب علـيه, نظير نسخ الله تعالـى ذكره فرض الصلاة شطر بـيت الـمقدس إلـى فرضها شطر الـمسجد الـحرام. فـالتوجه شطر بـيت الـمقدس, وإن خالف التوجه شطر الـمسجد, فكلفة التوجه شطر أيهما توجه شطره واحدة لأن الذي علـى الـمتوجه شطر البـيت الـمقدّس من مؤنة توجهه شطره, نظير الذي علـى بدنه مؤنة توجهه شطر الكعبة سواء. فذلك هو معنى الـمثل الذي قال جل ثناؤه: أوْ مِثْلِها.

وإنـما عنى جل ثناؤه بقوله: مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِها ما ننسخ من حكم آية أو نُنْسِه. غير أن الـمخاطبـين بـالآية لـما كان مفهوما عندهم معناها اكتفـي بدلالة ذكر الآية من ذكر حكمها. وذلك نظير سائر ما ذكرنا من نظائره فـيـما مضى من كتابنا هذا, كقوله: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بـمعنى حُبّ العجل ونـحو ذلك. فتأويـل الآية إذا: ما نغير من حكم آية فنبدّله أو نتركه فلا نبدّله, نأت بخير لكم أيها الـمؤمنون حكما منها, أو مثل حكمها فـي الـخفة والثقل والأجر والثواب.

فإن قال قائل: فإنا قد علـمنا أن العجل لا يُشْرَبُ فـي القلوب وأنه لا يـلتبس علـى من سمع قوله: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ أن معناه: وأشربوا فـي قلوبهم حُبّ العجل, فما الذي يدلّ علـى أن قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها لذلك نظير؟

قـيـل: الذي دلّ علـى أن ذلك كذلك قوله: نأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِها وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء لأن جميعه كلام الله, ولا يجوز فـي صفـات الله تعالـى ذكره أن يقال بعضها أفضل من بعض وبعضها خير من بعض.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ألَـمْ تَعْلَـمْ أنّ اللّهَ علـى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: ألَـمْ تَعْلَـمْ أنّ اللّهَ علـى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ألـم تعلـم يا مـحمد أنـي قادر علـى تعويضك مـما نسخت من أحكامي وغيرته من فرائضي التـي كنت افترضتها علـيك ما أشاء مـما هو خير لك ولعبـادي الـمؤمنـين معك وأنفع لك ولهم, إما عاجلاً فـي الدنـيا وإما آجلاً فـي الآخرة. أو بأن أبدّل لك ولهم مكانه مثله فـي النفع لهم عاجلاً فـي الدنـيا وآجلاً فـي الآخرة وشبـيهه فـي الـخفة علـيك وعلـيهم. فـاعلـم يا مـحمد أنـي علـى ذلك وعلـى كل شيء قدير. ومعنى قوله: قَدِير فـي هذا الـموضع: قويّ, يقال منه: «قد قَدَرْت علـى كذا وكذا». إذا قويت علـيه «أقدْرُ علـيه وأقْدُرُ علـيه قُدْرة وقِدْرانا ومَقْدِرةً». وبنو مُرّة من غطفـان تقول: «قَدِرْت علـيه» بكسر الدال. فأما من التقدير من قول القائل: «قَدَرْتُ الشيءء» فإنه يقال منه: «قَدَرْتُه أَقْدِرُه قَدْرا وقَدَرا».

الآية : 107

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا لَكُمْ مّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ }

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: أوَ لـم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلـم أن الله علـى كل شيء قدير وأنه له ملك السموات والأرض حتـى قـيـل له ذلك؟ قـيـل: بلـى, فقد كان بعضهم يقول: إنـما ذلك من الله جل ثناؤه خبر عن أن مـحمدا قد علـم ذلك ولكنه قد أخرج الكلام مخرج التقرير كما تفعل مثله العرب فـي خطاب بعضها بعضا, فـيقول أحدهما لصاحبه: ألـم أكرمك؟ ألـم أتفضل علـيك؟ بـمعنى إخبـاره أنه قد أكرمه وتفضل علـيه, يريد ألـيس قد أكرمتك؟ ألـيس قد تفضلت علـيك؟ بـمعنى قد علـمتَ ذلك.

قال: وهذا لا وجه له عندنا وذلك أن قوله جل ثناؤه أَلَـمْ تَعْلَـمْ إنـما معناه: أما علـمت. وهو حرف جحد أدخـل علـيه حرف استفهام, وحروف الاستفهام إنـما تدخـل فـي الكلام إما بـمعنى الاستثبـات, وإما بـمعنى النفـي. فأما بـمعنى الإثبـات فذلك غير معروف فـي كلام العرب, ولاسيـما إذا دخـلت علـى حروف الـجحد ولكن ذلك عندي وإن كان ظهر ظهور الـخطاب للنبـيّ صلى الله عليه وسلم, فإنـما هو معنّـي به أصحابه الذين قال الله جل ثناؤه: لا تَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسمَعُوا. والذي يدّل علـى أن ذلك كذلك قوله جل ثناؤه: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِـيّ وَلاَ نَصِيرٍ فعاد بـالـخطاب فـي آخر الآية إلـى جميعهم, وقد ابتدأ أوّلها بخطاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: أَلَـمْ تَعْلَـمْ أنّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ لأن الـمراد بذلك الذين وصفت أمرهم من أصحابه, وذلك من كلام العرب مستفـيض بـينهم فصيح. أن يخرج الـمتكلـم كلامه علـى وجه الـخطاب منه لبعض الناس وهو قاصد به غيره, وعلـى وجه الـخطاب لواحد وهو يقصد به جماعة غيره, أو جماعة والـمخاطب به أحدهم وعلـى هذا الـخطابُ للـجماعة والـمقصود به أحدهم, من ذلك قول الله جل ثناؤه: يا أيّهَا النّبِـيّ اتّقِ اللّهَ وَلاَ تُطِعِ الكافِرِينَ وَالـمُنَافِقِـينَ ثم قال: وَاتّبِعْ ما يُوحَى إلَـيْكَ مِنْ رَبّكَ إنّ اللّهَ كانَ بِـمَا تَعْمَلُونَ خَبِـيرا فرجع إلـى خطاب الـجماعة, وقد ابتدأ الكلام بخطاب النبـيّ صلى الله عليه وسلم. ونظير ذلك قول الكُميت بن زيد فـي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إلـى السّرَاجِ الـمُنـيرِ أحْمَدَ لايَعْدِلُنِـي رَغْبَةٌ وَلا رَهَبُ
عَنْهُ إلـى غيرِهِ وَلَوْ رَفَعَالنّاس إلـيّ العُيُونَ وَارْتَقَبُوا
فوقـيـلَ أفْرَطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْعَنّفَنِـي القائِلُونَ أوْ ثَلَبُوا
لـجّ بتَفْضِيـلِكَ اللّسانُ وَلَوْأُكْثِرَ فِـيكَ الضّجاجُ واللّـجَبُ
أنتَ الـمُصَفّـي الـمـحْضُ الـمهذّبُ فـي النّسْبَةِ إنْ نَصّ قَوْمَكَ النّسَبُ

فأخرج كلامه علـى وجه الـخطاب للنبـيّ صلى الله عليه وسلم وهو قاصد بذلك أهل بـيته, فكنـي عن وصفهم ومدحهم بذكر النبـيّ صلى الله عليه وسلم وعن بنـي أمية بـالقائلـين الـمعنفـين لأنه معلوم أنه لا أحد يوصف بتعنـيف مادح النبـيّ صلى الله عليه وسلم وتفضيـله, ولا بإكثار الضجاج واللـجب فـي إطناب القـيـل بفضله. وكما قال جميـل بن معمر:

ألا إنّ جِيرَانِـي العَشِيّةَ رَائِحُدَعَتْهُمْ دَوَاعٍ مِنْ هَوًى وَمَنَادِحُ

فقال: «ألا إن جيرانـي العشية» فـابتدأ الـخبر عن جماعة جيرانه, ثم قال: «رائح» لأن قصده فـي ابتدائه ما ابتدأ به من كلامه الـخبر عن واحد منهم دون جماعتهم. وكما قال جميـل أيضا فـي كلـمته الأخرى:

خَـلِـيـلَـيّ فِـيـما عِشْتُـما هَلْ رأيْتُـماقَتِـيلاً بَكَى مِنْ حُبّ قاتِلِهِ قَبْلِـي

وهو يريد قاتلته لأنه إنـما يصف امرأة فكنـي بـاسم الرجل عنها وهو يعنـيها. فكذلك قوله: أَلَـمْ تَعْلَـمْ أنّ اللّهَ علـى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَـمْ تَعْلَـمْ أنّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وإن كان ظاهر الكلام علـى وجه الـخطاب للنبـيّ صلى الله عليه وسلم, فإنه مقصود به قصد أصحابه وذلك بـيّنٌ بدلالة قوله: وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِـيّ وَلاَ نَصِيرٍ أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسْألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ الاَيات الثلاث بعدها علـى أن ذلك كذلك. أما قوله: لَهُ مُلْكُ السّمَوَاتِ والأرْضِ ولـم يقل ملك السموات, فإنه عنى بذلك مُلْك السلطان والـمملكة دون الـمِلْك, والعرب إذا أرادت الـخبر عن الـمملكة التـي هي مـملكة سلطان قالت: مَلَكَ الله الـخـلق مُلْكا, وإذا أرادت الـخبر عن الـملك قالت: مَلَكَ فلان هذا الشيء فهو يـملكه مِلْكا وَمَلِكَةً ومَلْكا.

فتأويـل الآية إذا: ألـم تعلـم يا مـحمد أن لـي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري أحكم فـيهما وفـيـما فـيهما ما أشاء وآمر فـيهما وفـيـما فـيهما بـما أشاء, وأنهي عما أشاء, وأنسخ وأبدّل وأغير من أحكامي التـي أحكم بها فـي عبـادي ما أشاء إذا أشاء, وأقرّ منها ما أشاء؟ هذا الـخبر وإن كان من الله عزّ وجلّ خطابـا لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى وجه الـخبر عن عظمته, فإنه منه جل ثناؤه تكذيب للـيهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوّة عيسى, وأنكروا مـحمدا صلى الله عليه وسلم, لـمـجيئهما بـما جاءا صلى الله عليه وسلم به من عند الله بتغيـير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما, فإن الـخـلق أهل مـملكته وطاعته, علـيهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه, وإن له أمرهم بـما شاء ونهيهم عما شاء, ونسخ ما شاء وإقرار ما شاء, وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه. ثم قال لنبـيه صلى الله عليه وسلم وللـمؤمنـين معه: انقادوا لأمري, وانتهوا إلـى طاعتـي فـيـما أنسخ وفـيـما أترك, فلا أنسخ من أحكامي وحدودي وفرائضي, ولا يهولنّكم خلاف مخالف لكم فـي أمري ونهيـي وناسخي ومنسوخي, فإنه لا قـيّـم بأمركم سواي, ولا ناصر لكم غيري, وأنا الـمنفرد بولايتكم والدفـاع عنكم, والـمتوحد بنصرتكم بعزّي وسلطانـي وقوّتـي علـى من ناوأكم وحادّكم ونصب حرب العداوة بـينه وبـينكم, حتـى أُعلـي حجتكم, وأجعلها علـيهم لكم. والولـيّ معناه «فعيـل», من قول القائل: ولـيت أمر فلان: إذا صرت قَـيّـما به فأنا إلـيه فهو ولـيه وقَـيّـمه ومن ذلك قـيـل: فلان ولـي عهد الـمسلـمين, يعنـي به: القائم بـما عهد إلـيه من أمر الـمسلـمين. وأما النصير فإنه فعيـل من قولك: نصرتك أنصرك فأنا ناصرك ونصيرك وهو الـمؤيد والـمقوّي.

وأما معنى قوله: مِنْ دُونِ اللّهِ فإنه سوى الله وبعد الله. ومنه قول أمية بن أبـي الصلت:

يا نَفْسُ مالَكِ دُونَ اللّهِ مِنْ وَاقِـيوَما عَلـى حَدَثانِ الدّهْرِ مِنْ بـاقِـي

يريد: ما لك سوى الله وبعد الله من يقـيك الـمكاره.

فمعنى الكلام إذا: ولـيس لكم أيها الـمؤمنون بعد الله من قـيـم بأمركم ولا نصير فـيؤيدكم ويقوّيكم فـيعينكم علـى أعدائكم.

الآية : 108

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىَ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلّ سَوَآءَ السّبِيلِ }

اختلف أهل التأويـل فـي السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية. فقال بعضهم بـما:

1342ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنـي يونس بن بكير, وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قالا: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة عن ابن عبـاس: قال رافع بن حريـملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتنا بكتاب تنزله علـينا من السماء نقرؤه وفجّرْ لنا أنهارا نتبعك ونصدّقك فأنزل الله فـي ذلك من قولهم: أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ الآية. وقال آخرون بـما:

1343ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وكان موسى يُسأل فقـيـل له: أرِنا الله جَهْرَةً.

1344ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ أن يريهم الله جهرة, فسألت العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتـيهم بـالله فـيروه جهرة. وقال آخرون بـما:

1345ـ حدثنـي به مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله الله: أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ أن يريهم الله جهرة. فسألت قريش مـحمدا صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له الصفـا ذهبـا, قال: «نَعَمْ, وَهُوَ لَكُمْ كمائِدَةِ بَنِـي إسْرَائِيـلَ إنْ كَفَرْتُـمْ». فأبوا ورجعوا.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد قال: سألت قريش مـحمدا أن يجعل لهم الصفـا ذهبـا, فقال: «نَعَمْ, وَهُوَ لَكُمْ كالـمَائِدَةِ لِبَنِـي إسْرَائِيـلَ إنْ كَفَرَتُـمْ. فأبوا ورجعوا, فأنزل الله أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ أن يريهم الله جهرة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله,

وقال آخرون بـما:

1346ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال:قال رجل: يا رسول الله لو كانت كفـاراتنا كفـارات بنـي إسرائيـل فقال النبـيّ صلى الله عليه وسلم: «اللّهُمّ لا نَبْغِيها ما أعْطاكُمُ اللّهُ خَيْرٌ مِـمّا أعْطَى بَنِـي إسْرَائِيـلَ فقال النبـيّ: كانت بَنُو إسْرَائِيـلَ إذَا فَعَلَ أحَدُهُمُ الـخَطِيئَةَ وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً علـى بـابِهِ وَكَفّـارَتَها, فإنْ كَفّرَها كانَتْ لَهُ خِزْيا فِـي الدّنْـيا, وإنْ لَـمْ يُكَفّرْهَا كانَتْ لَهُ خِزْيا فِـي الآخِرَةِ. وَقَدْ أعْطاكُمُ اللّهُ خَيْرا مِـمّا أعْطَى بَنِـي إسْرائِيـلَ, قالَ: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءا أوْ يَظْلِـمْ نَفْسَهُ ثُمّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورا رَحِيـما. قال: وقال: «الصّلَوَاتُ الـخَمْسُ وَالـجُمَعَةُ إلـى الـجُمُعَةِ كَفّـارَاتٌ لِـمَا بَـيْنَهُنّ». وقال: «مَنْ هَمّ بِحَسَنَةً فَلَـمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً, فإنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَ أمْثَالِهَا, وَلاَ يَهْلِكُ عَلَـى اللّهِ إلا هالِكٌ». فأنزل الله: أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ.

واختلف أهل العربـية فـي معنى أمْ التـي فـي قوله: أمْ تُرِيدُونَ.

فقال بعض البصريـين: هي بـمعنى الاستفهام, وتأويـل الكلام: أتريدون أن تسألوا رسولكم؟ وقال آخرون منهم: هي بـمعنى استفهام مستقبل منقطع من الكلام, كأنك تـميـل بها إلـى أوله كقول العرب: إنها لإبل يا قوم أم شاء, ولقد كان كذا وكذا أم حدس نفسي.

قال: ولـيس قوله: أمْ تُرِيدُونَ علـى الشك ولكنه قاله لـيقبح له صنـيعهم. واستشهد لقوله ذلك ببـيت الأخطل:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أمْ رأيْتَ بِوَاسِطٍغَلَسَ الظّلامِ مِنَ الرّبـابِ خَيَالاَ

وقال بعض نـحويـي الكوفـيـين: إن شئت جعلت قوله: أمْ تُرِيدُونَ استفهاما علـى كلام قد سبقه, كما قال جل ثناؤه: الـم تَنْزِيـلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِـيهِ مِنْ رَبّ العالَـمِينَ أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ فجاءت «أم» ولـيس قبلها استفهام. فكان ذلك عنده دلـيلاً علـى أنه استفهام مبتدأ علـى كلام سبقه.

وقال قائل هذه الـمقالة: «أم» فـي الـمعنى تكون ردّا علـى الاستفهام علـى جهتـين, إحداهما: أن تعرّف معنى «أيّ», والأخرى أن يستفهم بها, ويكون علـى جهة النسق, والذي ينوي به الابتداء إلا أنه ابتداء متصل بكلام, فلو ابتدأت كلاما لـيس قبله كلام ثم استفهمت لـم يكن إلا بـالألف أو ب«هَلْ». قال: وإن شئت قلت فـي قوله: أمْ تُرِيدُونَ قبله استفهام, فردّ علـيه وهو فـي قوله: ألَـمْ تَعْلَـمْ أنّ اللّهَ عَلـى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

والصواب من القول فـي ذلك عندي علـى ما جاءت به الآثار التـي ذكرناها عن أهل التأويـل أنه استفهام مبتدأ بـمعنى: أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم؟ وإنـما جاز أن يستفهم القوم ب«أمْ» وإن كانت «أم» أحد شروطها أن تكون نسقا فـي الاستفهام لتقدّم ما تقدّمها من الكلام لأنها تكون استفهاما مبتدأ إذا تقدمها سابق من الكلام, ولـم يسمع من العرب استفهام بها ولـم يتقدمها كلام. ونظيره قوله جل ثناؤه: الـم تَنْزِيـلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِـيهِ مِنْ رَبّ العالَـمِين أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ. وقد تكون «أم» بـمعنى «بل» إذا سبقها استفهام لا يصلـح فـيه «أيّ», فـيقولون: هل لك قِبَلَنا حق, أم أنت رجل معروف بـالظلـم؟ وقال الشاعر:

فَوَاللّهِ ما أدْرِي أسَلْـمَى تَغَوّلَتْأمِ القَوْم أمْ كُلّ إلـيّ حَبِـيبُ

يعنـي: بل كل إلـيّ حبـيب.

وقد كان بعضهم يقول منكرا قول من زعم أن «أم» فـي قوله: أمْ تُرِيدُونَ استفهام مستقبل منقطع من الكلام يـميـل بها إلـى أوله أن الأول خبر والثانـي استفهام, والاستفهام لا يكون فـي الـخبر, والـخبر لا يكون فـي الاستفهام ولكن أدركه الشك بزعمه بعد مضيّ الـخبر, فـاستفهم.

فإذا كان معنى «أم» ما وصفنا, فتأويـل الكلام: أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسى من قبلكم, فتكفروا إن منعتـموه فـي مسألتكم ما لا يجوز فـي حكمة الله إعطاؤكموه, أو أن تهلكوا, إن كان مـما يجوز فـي حكمته عطاؤكموه فأعطاكموه ثم كفرتـم من بعد ذلك, كما هلك من كان قبلكم من الأمـم التـي سألت أنبـياءها ما لـم يكن لها مسألتها إياهم, فلـما أعطيت كفرت, فعوجلت بـالعقوبـات لكفرها بعد إعطاء الله إياها سؤلها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَنْ يَتَبَدّلِ الكُفْرَ بـالإيـمَانِ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَمَنْ يَتَبَدّلِ ومن يستبدل الكفر ويعنـي بـالكفر: الـجحود بـالله وبآياته بـالإيـمان, يعنـي بـالتصديق بـالله وبآياته والإقرار به.

وقد قـيـل عنى بـالكفر فـي هذا الـموضع الشدة وبـالإيـمان الرخاء. ولا أعرف الشدة فـي معانـي الكفر, ولا الرخاء فـي معنى الإيـمان, إلا أن يكون قائل ذلك أراد بتأويـله الكفر بـمعنى الشدّة فـي هذا الـموضع وبتأويـله الإيـمان فـي معنى الرخاء ما أعدّ الله للكفـار فـي الآخرة من الشدائد, وما أعدّ الله لأهل الإيـمان فـيها من النعيـم, فـيكون ذلك وجها وإن كان بعيدا من الـمفهوم بظاهر الـخطاب. ذكر من قال ذلك:

1347ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن أبـي العالـية: وَمَنْ يَتَبَدّلِ الكُفْرَ بِـالإيـمَانِ يقول: يتبدّل الشدّة بـالرخاء.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسن, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن أبـي جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية بـمثله.

وفـي قوله: وَمَنْ يَتَبَدّلِ الكُفْرَ بـالإيـمَانِ فَقَدْ ضَلّ سَوَاءَ السّبِـيـلِ دلـيـل واضح علـى ما قلنا من أن هذه الاَيات من قوله: يا أيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا خطاب من الله جل ثناؤه الـمؤمنـين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعتاب منه لهم علـى أمر سلف منهم مـما سرّ به الـيهود وكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم, فكرهه الله لهم. فعاتبهم علـى ذلك, وأعلـمهم أن الـيهود أهل غشّ لهم وحسد وبغي, وأنهم يتـمنون لهم الـمكاره ويبغونهم الغوائل, ونهاهم أن ينتصحوهم, وأخبرهم أن من ارتدّ منهم عن دينه فـاستبدل بإيـمانه كفرا فقد أخطأ قصد السبـيـل.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَقَدْ ضَلّ سَوَاءَ السّبِـيـلِ.

أما قوله: فَقَدْ ضَلّ فإنه يعنـي به ذهب وحاد. وأصل الضلال عن الشيء: الذهاب عنه والـحَيْد. ثم يستعمل فـي الشيء الهالك والشيء الذي لا يؤبه له, كقولهم للرجل الـخامل الذي لا ذكر له ولا نبـاهة: ضلّ بن ضلّ, وقلّ بن قلّ كقول الأخطل فـي الشيء الهالك:

كُنْتَ القَذَى فِـي مَوْجِ أكْدَرَ مُزْبِدٍقَذَفَ ألاتِـيّ بِهِ فَضَلّ ضَلالاَ

يعنـي: هلك فذهب.

والذي عنى الله تعالـى ذكره بقوله: فَقَدْ ضَلّ سَوَاءَ السّبِـيـلِ فقد ذهب عن سواء السبـيـل وحاد عنه.

وأما تأويـل قوله: سَوَاءَ السّبِـيـلِ فإنه يعنـي بـالسواء: القصد والـمنهج, وأصل السواء: الوسط ذكر عن عيسى بن عمر النـحوي أنه قال: «ما زلت أكتب حتـى انقطع سَوَائي», يعنـي وسطي. وقال حسان بن ثابت:

يا وَيْحَ أنْصَار النّبِـيّ وَنَسْلِهِبَعدَ الـمُغَيّبِ فِـي سَوَاءِ الـمُلْـحَدِ

يعنـي بـالسواء الوسط. والعرب تقول: هو فـي سواء السبـيـل, يعنـي فـي مستوى السبـيـل. وسواءُ الأرض مستواها عندهم, وأما السبـيـل فإنها الطريق الـمسبول, صُرف من مسبول إلـى سبـيـل.

فتأويـل الكلام إذا: ومن يستبدل بـالإيـمان بـالله وبرسوله الكفر فـيرتدّ عن دينه, فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح الـمسبول. وهذا القول ظاهره الـخبر عن زوال الـمستبدل بـالإيـمان والكفر عن الطريق, والـمعنى به الـخبر عنه أنه ترك دين الله الذي ارتضاه لعبـاده وجعله لهم طريقا يسلكونه إلـى رضاه, وسبـيلاً يركبونها إلـى مـحبته والفوز بجناته. فجعل جل ثناؤه الطريق الذي إذا ركب مـحجته السائر فـيه ولزم وسطه الـمـجتاز فـيه, نـجا وبلغ حاجته وأدرك طلبته لدينه الذي دعا إلـيه عبـاده

مثلاً لإدراكهم بلزومه واتباعه إدراكهم طلباتهم في آخرتهم, كالذي يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها طلبته من النجاة منها, والوصول إلى الموضع الذي أمّه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه والحائد عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته في حياته ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته وينال به في معاده وذهابه عمّا أمل من ثواب عمله وبعده به من ربه, مثل الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل, الذي لا يزداد وُغولاً في الوجه الذي سلكه إلا ازداد من موضع حاجته بُعْدا, وعن المكان الذي أمّهُ وأراده نَأيا. وهذه السبيل التي أخبر الله عنها أن من يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواءها, هي الصراط المستقيم الذي أمرنا بمسألته الهداية له بقوله: اهْدِنا الصّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الّذِينَ أنعَمْتَ عَلَيْهِمْ.

الآية : 109

القول في تأويل قوله تعالى:

{وَدّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْحَقّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتّىَ يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قال أبو جعفر: وقد صرّح هذا القول من قول الله جل ثناؤه, بأن خطابه بجميع هذه الاَيات من قوله: يا أيّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقولوا رَاعِنا وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم, إنما هو خطاب منه للمؤمنين وأصحابه, وعتاب منه لهم, ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم, ودليل على أنهم كانوا استعملوا, أو من استعمل منهم في خطابه ومسألته رسول الله صلى الله عليه وسلم الجفاء, وما لم يكن له استعماله معه, تأسيا باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربهم ناهيا عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيكم صلى الله عليه وسلم كما تقول له اليهود: «راعنا» تأسيا منكم بهم, ولكن قولوا: «انظرنا واسمعوا», فإن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر بي وجحود لحقّي الواجب لي عليكم في تعظيمه وتوقيره, ولمن كفر بي عذاب أليم فإن اليهود والمشركين ما يودّون أن ينزل عليكم من خير من ربكم, ولكن كثيرا منهم ودّوا أنهم يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم, من بعدما تبين لهم الحقّ في أمر محمد وأنه نبيّ إليهم وإلى خلقي كافة. وقد قيل إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: وَدّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ كعب بن الأشرف.

1348ـ حدثنا الحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن الزهري في قوله: وَدّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ هو كعب بن الأشرف.

1349ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الحسين, قال: حدثنا أبو سفيان العمري, عن معمر, عن الزهري وقتادة: وَدّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ قال كعب بن الأشرف. وقال بعضهم بما:

1350ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلمة, قال: حدثني ابن إسحاق. وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قال: حدثنا محمد بن إسحاق, قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت, قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة, عن ابن عباس قال: كان حُيي بن أخطب وأبو ياسر

بن أخطب من أشدّ يهود للعرب حسدا, إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم, وكانا جاهدين فـي ردّ الناس عن الإسلام بـما استطاعا, فأنزل الله فـيهما: وَدّ كَثِـيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُدّونَكُمْ الآية.

ولـيس لقول القائل عَنَى بقوله: وَدَّ كَثِـيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ كعب بن الأشرف معنى مفهوم لأن كعب بن الأشرف واحد, وقد أخبر الله جلّ ثناؤه أن كثـيرا منهم يودّون لو يردّون الـمؤمنـين كفـارا بعد إيـمانهم. والواحد لا يقال له كثـير بـمعنى الكثرة فـي العدد, إلا أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة التـي وصف الله بها من وصفه بها فـي هذه الآية الكثرة فـي العزّ ورفعة الـمنزلة فـي قومه وعشيرته, كما يقال: فلان فـي الناس كثـير, يراد به كثرة الـمنزلة والقدر. فإن كان أراد ذلك فقد أخطأ, لأن الله جل ثناؤه قد وصفهم بصفة الـجماعة, فقال: لَوْ يَرُدّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيـمانِكُمْ كُفّـارا حَسَدا فذلك دلـيـل علـى أنه عنى الكثرة فـي العدد. أو يكون ظن أنه من الكلام الذي يخرج مخرج الـخبر عن الـجماعة, والـمقصود بـالـخبر عنه الواحد, نظير ما قلنا آنفـا فـي بـيت جميـل فـيكون ذلك أيضا خطأ, وذلك أن الكلام إذا كان بذلك الـمعنى فلا بد من دلالة فـيه تدلّ علـى أن ذلك معناه, ولا دلالة تدلّ فـي قوله: وَدّ كَثِـيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ أن الـمراد به واحد دون جماعة كثـيرة, فـيجوز صرف تأويـل الآية إلـى ذلك وإحالة دلـيـل ظاهره إلـى غير الغالب فـي الاستعمال.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: حَسَدا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ.

ويعنـي جل ثناؤه بقوله: حَسَدا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ أن كَثِـيرا من أهل الكتاب يودّون للـمؤمنـين ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم من الردّة عن إيـمانهم إلـى الكفر حسدا منهم وبغيا علـيهم. والـحسد إذا منصوب علـى غير النعت للكفـار, ولكن علـى وجه الـمصدر الذي يأتـي خارجا من معنى الكلام الذي يخالف لفظه لفظ الـمصدر, كقول القائل لغيره: تـمنـيت لك ما تـمنـيت من السوء حسدا منـي لك. فـيكون الـحسن مصدرا من معنى قوله: تـمنـيت من السوء لأن فـي قوله تـمنـيت لك ذلك, معنى حسدتك علـى ذلك. فعلـى هذا نصب الـحسد, لأن فـي قوله: وَدّ كَثِـير مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُدّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيـمَانكُمْ كُفّـارا يعنـي: حسدكم أهل الكتاب علـى ما أعطاكم الله من التوفـيق, ووهب لكم من الرشاد لدينه والإيـمان برسوله, وخصكم به من أن جعل رسوله إلـيكم رجلاً منكم رءوفـا بكم رحيـما, ولـم يجعله منهم, فتكونوا لهم تبعا. فكان قوله: حَسَدا مصدرا من ذلك الـمعنى.

وأما قوله: مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ فإنه يعنـي بذلك: من قِبَلِ أنفسهم, كما يقول القائل: لـي عندك كذا وكذا, بـمعنى: لـي قِبَلك. وكما:

1351ـ وحدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر (عن أبـيه, عن الربـيع بن أنس) قوله: مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ (قال: من قبل أنفسهم).

وإنـما أخبر الله جل ثناؤه عنهم الـمؤمنـين أنهم ودوا ذلك للـمؤمنـين من عند أنفسهم إعلاما منه لهم بأنهم لـم يؤمروا بذلك فـي كتابهم, وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك علـى علـم منهم بنهي الله إياهم عنه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لهُمُ الـحَقّ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: مِنْ بَعْدِ مَا تَبَـيّنَ لَهُمُ الـحَقّ أي من بعد ما تبـين لهؤلاء الكثـير من أهل الكتاب الذين يودّون أنهم يردونكم كفـارا من بعد

إيـمانكم الـحقّ فـي أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند ربه والـملة التـي دعا إلـيها فأضاء لهم أن ذلك الـحقّ الذي لا يـمترون فـيه. كما:

1352ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لَهُمُ الـحَقّ من بعد ما تبـين لهم أن مـحمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم, والإسلامَ دينُ الله.

1353ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, عن أبـي العالـية: مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لَهُمُ الـحَقّ يقول: تبـين لهم أن مـحمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة والإنـجيـل.

1354ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله وزاد فـيه: فكفروا به حسدا وبغيا, إذْ كان من غيرهم.

1355ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لَهُمُ الـحَقّ قال: الـحقّ: هو مـحمد صلى الله عليه وسلم فتبـين لهم أنه هو الرسول.

حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لَهُمُ الـحَقّ قال: قد تبـين لهم أنه رسول الله.

قال أبو جعفر: فدلّ بقوله ذلك أن كُفْرَ الذين قصّ قصتهم فـي هذه الآية بـالله وبرسوله عنادٌ, وعلـى علـم منهم ومعرفة, بأنهم علـى الله مفترون. كما:

1356ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عثمان بن سعيد, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: مِنْ بَعْدِ ما تَبَـيّنَ لَهُمُ الـحَقّ يقول الله تعالـى ذكره: من بعد ما أضاء لهم الـحقّ لـم يجهلوا منه شيئا, ولكن الـحسد حملهم علـى الـجحد. فعيرهم الله ولامهم ووبخهم أشدّ الـملامة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتـى يَأتِـيَ اللّهُ بِأمْرِهِ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: فـاعْفُوا فتـجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ فـي رأي أشاروا به علـيكم فـي دينكم, إرادةَ صَدّكم عنه, ومـحاولة ارتدادكم بعد إيـمانكم, وعما سلف منهم من قـيـلهم لنبـيكم صلى الله عليه وسلم: اسْمَعْ غَيْر مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَـيّا بألْسِنَتِهِمْ وَطَعْنا فِـي الدّينِ واصفحوا عما كان منهم من جهل فـي ذلك حتـى يأتـي الله بأمره, فـيحدث لكم من أمره فـيكم ما يشاء, ويقضي فـيهم ما يريد. فقضى فـيهم تعالـى ذكره, وأتـى بأمره, فقال لنبـيه صلى الله عليه وسلم وللـمؤمنـين به: قاتِلُوا الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بـاللّهِ وَلا بـالْـيَوْمِ الاَخِرِ وَلا يُحَرّمُونَ ما حَرّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الـحَقّ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكتاب حتـى يُعْطُوا الـجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. فنسخ الله جل ثناؤه العفو عنهم والصفح بفرض قتالهم علـى الـمؤمنـين حتـى تصير كلـمتهم وكلـمة الـمؤمنـين واحدة, أو يؤدّوا الـجزية عن يد صَغَارا. كما:

1357ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس قوله: فـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتـى يَأْتِـيَ اللّهُ بأمْرِهِ إنّ اللّهَ علـى كلّ شَيْءٍ قَدِير ونسخ ذلك قوله: فَـاقْتُلُوا الـمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُـمُوهُمْ.

1358ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: فَـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتـى يأتِـي للّهُ بأمْرِهِ فأتـى الله بأمره فقال: قَاتِلُوا الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِـاللّهِ وَالْـيَوْمِ الاَخِرِ حتـى بلغ: وهُمْ صَاغِرُونَ أي صَغَارا ونقمة لهم فنسخت هذه الآية ما كان قبلها: فَـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتـى يَأْتِـيَ اللّهُ بأمْرِهِ.

1359ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثناابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: فـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتـى يَأتِـيَ اللّهُ بأمْرِهِ قال: اعفوا عن أهل الكتاب حتـى يحدث الله أمرا. فأحدث الله بعد فقال: قَاتِلُوا الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بـاللّهِ وَلا بـالْـيَوْمِ الاَخِرِ إلـى: وهُمْ صَاغِرُونَ.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتـى يَأتِـيَ اللّهُ بِأمْرِهِ قال: نسختها: «اقْتُلُوا الـمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُـمُوهُمْ».

1360ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: فَـاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتـى يَأتِـيَ اللّهُ بأمْرِهِ قال: هذا منسوخ, نَسَخَه: قاتِلُوا الذين لا يُؤْمِنُونَ بـاللّهِ وَلا بـالْـيَوْمِ الاَخِرِ إلَـى قوله: وَهُمْ صَاغِرُونَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنّ اللهَ علـى كُلّ شيْءٍ قَدِير.

قال أبو جعفر: قد دللنا فـيـما مضى علـى معنى القدير وأنه القويّ. فمعنى الآية ههنا: أن الله علـى كل ما يشاء بـالذين وصفت لكم أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم قديرٌ, إن شاء الانتقام منهم بعنادهم ربهم وإن شاء هداهم لـما هداكم الله له من الإيـمان, لا يتعذّر علـيه شيء أراده ولا يتعذّر علـيه أمر شاء قضاءه لأن له الـخـلق والأمر.

الآية : 110

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَأَقِيمُواْ الصّلاَةَ وَآتُواْ الزّكَاةَ وَمَا تُقَدّمُواْ لأنْفُسِكُم مّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

قال أبو جعفر: قد دللنا فـيـما مضى علـى معنى إقامة الصلاة, وأنها أداؤها بحدودها وفروضها, وعلـى تأويـل الصلاة وما أصلها, وعلـى معنى إيتاء الزكاة, وأنه إعطاؤها بطيب نفس علـى ما فُرضت ووَجبت, وعلـى معنى الزكاة واختلاف الـمختلفـين فـيها, والشواهد الدالة علـى صحة القول الذي اخترنا فـي ذلك بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع.

وأما قوله: وَما تُقَدّمُوا لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَـجِدُوهُ عِنْدَ اللّهِ فإنه يعنـي جل ثناؤه بذلك: ومهما تعملوا من عمل صالـح فـي أيام حياتكم فتقدموه قبل وفـاتكم ذخرا لأنفسكم فـي معادكم, تـجدوا ثوابه عند ربكم يوم القـيامة, فـيجازيكم به. والـخير: هو العمل الذي يرضاه الله. وإنـما قال: تَـجِدُوهُ والـمعنى: تـجدوا ثوابه. كما:

1361ـ حُدثت عن عمار بن الـحسن. قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: تـجِدُوهُ يعنـي: تـجدوا ثوابه عند الله.

قال أبو جعفر: لاستغناء سامعي ذلك بدلـيـل ظاهر علـى معنى الـمراد منه, كما قال عمر بن لـجأ:

وَسَبّحَتِ الـمَدِينَةُ لا تَلُـمْهارأتْ قَمَرا بِسُوقِهِمُ نَهَارا

وإنـما أراد: وسبح أهل الـمدينة. وإنـما أمرهم جل ثناؤه فـي هذا الـموضع بـما أمرهم به من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديـم الـخيرات لأنفسم, لـيطهّروا بذلك من الـخطأ الذي سلف منهم فـي استنصاحهم الـيهود,

وركون من كان ركن منهم إلـيهم, وجفـاء من كان جفـا منهم فـي خطابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: راعِنا إذ كانت إقامة الصلوات كفـارة للذنوب, وإيتاء الزكاة تطهيرا للنفوس والأبدان من أدناس الآثام, وفـي تقديـم الـخيرات إدراك الفوز برضوان الله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنّ اللّهَ بِـمَا تَعْمَلُونَ بَصِير.

وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من الـمؤمنـين أنهم مهما فعلوا من خير وشرّ سِرّا وعلانـية, فهو به بصير لا يخفـى علـيه منه شيء, فـيجزيهم بـالإحسان جزاءه وبـالإساءة مثلها. وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الـخبر, فإن فـيه وعدا ووعيدا, وأمرا وزجرا وذلك أنه أعلـم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم لـيجدّوا فـي طاعته, إذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتـى يُثـيبهم علـيه, كما قال: وما تُقَدّمُوا لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَـجِدُوهُ عِنْدَ اللّهِ ولـيحذروا معصيته, إذ كان مطلعا علـى راكبها بعد تقدمه إلـيه فـيها بـالوعيد علـيها. وما أوعد علـيه ربنا جل ثناؤه فمنهيّ عنه, وما وعد علـيه فمأمور به.

وأما قوله: بَصِيرٌ فإنه مُبْصِر صرف إلـى بصير, كما صرف مُبْدِع إلـى بديع, ومُؤْلـم إلـى ألـيـم.

سورة البقرة

الآيات 111 - 190

الآية : 111

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنّةَ إِلاّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ تِلْكَ أَمَانِيّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَقالُوا وقالت الـيهود والنصارى: لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ.

فإن قال قائل: وكيف جمع الـيهود والنصارى فـي هذا الـخبر مع اختلاف مقالة الفريقـين, والـيهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فـي ثواب الله نصيب, والنصارى تدفع الـيهود عن مثل ذلك؟ قـيـل: إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبت إلـيه, وإنـما عنى به: وقالت الـيهود: لن يدخـل الـجنة إلا من كان هودا, وقالت النصارى: لن يدخـل الـجنة إلا النصارى. ولكن معنى الكلام لـما كان مفهوما عند الـمخاطبـين به معناه جمع الفريقان فـي الـخبر عنهما, فقـيـل: قالُوا لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلا مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى الآية, أي قالت الـيهود: لن يدخـل الـجنة إلا من كان يهوديّا, وقالت النصارى: لن يدخـل الـجنة إلا من كان نصرانـيّا. وأما قوله: مَنْ كانَ هُودا فإن فـي الهُودِ قولـين: أحدهما أن يكون جمع هائد, كما جاء عُوط جمع عائط, وعُوذ جمع عائذ, وحُول جمع حائل, فـيكون جمعا للـمذكر والـمؤنث بلفظ واحد والهائد: التائب الراجع إلـى الـحقّ. والآخر أن يكون مصدرا عن الـجميع, كما يقال: «رجل صَوْمٌ وقوم صَوْمٌ», و«رجل فِطْر وقوم فِطْر ونسوة فِطْر».

وقد قـيـل: إن قوله: إلا مَنْ كانَ هُودا إنـما هو قوله: إلا من كان يهودا ولكنه حذف الـياء الزائدة, ورجع إلـى الفعل من الـيهودية.

وقـيـل: إنه فـي قراءة أبـيّ: «إلا من كان يهوديّا أو نصرانـيّا». وقد بـينا فـيـما مضى معنى النصارى ولـم سُميت بذلك وجمعت كذلك بـما أغنى عن إعادته.

وأما قوله: تِلْكَ أمانِـيّهُمْ فإنه خبر من الله تعالـى ذكره عن قول الذين قالوا: لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلا مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى أنه أمانـيّ منهم يتـمنونها علـى الله بغير حقّ ولا حجة ولا برهان ولا يقـين علـم بصحة ما يدعون, ولكن بـادّعاء الأبـاطيـل وأمانـي النفوس الكاذبة. كما:

1362ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: تِلْكَ أمانِـيّهُمْ أمانـيّ يتـمنونها علـى الله كاذبة.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: تِلْكَ أمانِـيّهُمْ قال: أمانـيّ تـمنوا علـى الله بغير الـحقّ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُـمْ صَادِقِـينَ.

وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبـيه صلى الله عليه وسلم بدعاء الذين قالُوا لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلا مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى إلـى أمر عدل بـين جميع الفرق مسلـمها ويهودها ونصاراها, وهو إقامة الـحجة علـى دعواهم التـي ادعوا من أن الـجنة لا يدخـلها إلا من كان هودا أو نصارى. يقول الله لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم: يا مـحمد قل للزاعمين أن الـجنة لا يدخـلها إلا من كان هودا أو نصارى دون غيرهم من سائر البشر: هاتوا برهانكم علـى ما تزعمون من ذلك فنسلـم لكم دعواكم إن كنتـم فـي دعواكم من أن الـجنة لا يدخـلها إلا من كان هودا أو نصارى مـحقـين. والبرهان: هو البـيان والـحجة والبـينة. كما:

1363ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: هاتُوا بُرْهَانَكُمْ هاتوا بَـيّنتكم.

1364ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: هاتُوا بُرْهَانَكُمْ هاتُوا حجتكم.

1365ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: قُلْ هاتوا بُرْهَانَكُمْ قال: حجتكم.

1366ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ أي حجتكم.

وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلـين: لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلا مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى إلـى إحضار حجة علـى دعواهم ما ادّعوا من ذلك, فإنه بـمعنى تكذيب من الله لهم فـي دعواهم وقـيـلهم لأنهم لـم يكونوا قادرين علـى إحضار برهان علـى دعواهم تلك أبدا.

وقد أبـان قوله: بَلَـى مَنْ أسْلَـمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُـحْسِنٌ علـى أن الذي ذكرنا من الكلام بـمعنى التكذيب للـيهود والنصارى فـي دعواهم ما ذكر الله عنهم.

وأما تأويـل قوله: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ فإنه: أحضروا وأتوا به.

الآية : 112

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{بَلَىَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: بَلَـى مَنْ أسْلَـمَ أنه لـيس كما قال الزاعمون لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلا مَنْ كانَ هُودا أوْ نَصَارَى ولكن من أسلـم وجهه لله وهو مـحسن, فهو الذي يدخـلها وينعم فـيها. كما:

1367ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: أخبرهم أن من يدخـل الـجنة هو من أسلـم وجهه لله الآية.
وقد بـينا معنى بَلـى فـيـما مضى قبل.

وأما قوله: مَنْ أسْلَـمَ وَجْهَهُ لِلّهِ فإنه يعنـي بإسلام الوجه التذلل لطاعته والإذعان لأمره. وأصل الإسلام: الاستسلام لأنه من استسلـمت لأمره, وهو الـخضوع لأمره. وإنـما سُمي الـمسلـم مسلـما بخضوع جوارحه لطاعة ربه. كما:

1368ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: بَلَـى مَنْ أسْلَـمَ وَجْهَهُ لِلّهِ يقول: أخـلص لله. وكما قال زيد بن عمرو بن نُفَـيـل:

وأسْلَـمْتُ وَجْهِي لِـمَنْ أسْلَـمَتْلَهُ الـمُزْنُ تَـحْمِلُ عَذْبـا زُلالاَ

يعنـي بذلك: استسلـمت لطاعة من استسلـم لطاعته الـمزن وانقادت له.

وخصّ الله جل ثناؤه بـالـخبر عمن أخبر عنه بقوله: بَلَـى مَنْ أسْلَـمَ وَجْهَهُ لِلّهِ بإسلام وجهه له دون سائر جوراحه لأن أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه وجهه, وهو أعظمها علـيه حرمة وحقّا, فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده علـيه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له. ولذلك تذكر العرب فـي منطقها الـخبر عن الشيء فتضيفه إلـى وجهه وهي تعنـي بذلك نفس الشيء وعينه, كقول الأعشى:

أؤوّلُ الـحُكْمَ علـى وَجْهِهِلَـيْسَ قَضَائِي بـالهَوَى الـجائِرِ

يعنـي بقوله: «علـى وجهه»: علـى ما هو به من صحته وصوابه. وكما قال ذو الرّمة:

فَطَاوَعْتُ هَمّي وَأنْـجَلَـى وَجْهُ بَـازِلِمِنَ الأمْرِ لَـمْ يَتْرُكْ خِلاجا بُزُولُها

يريد: «وانـجلـى البـازل من الأمر فتبـين», وما أشبه ذلك, إذ كان حسنُ كل شيء وقبحُه فـي وجهه, وكان فـي وصفها من الشيء وجهه بـما تصفه به إبـانة عن عين الشيء ونفسه.

فكذلك معنى قوله جل ثناؤه: بَلَـى مَنْ أسْلَـمَ وَجْهَهُ لِلّهِ إنـما يعنـي: بلـى من أسلـم لله بدنه, فخضع له بـالطاعة جسده وهو مـحسن فـي إسلامه له جسده, فله أجره عند ربه. فـاكتفـى بذكر الوجه من ذكر جسده لدلالة الكلام علـى الـمعنى الذي أريد به بذكر الوجه.

وأما قوله: وَهُوَ مُـحْسِنَ فإنه يعنـي به فـي حال إحسانه. وتأويـل الكلام: بلـى من أخـلص طاعته لله وعبـادته له مـحسنا فـي فعله ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يعنـي بقوله جل ثناؤه: فَلَهُ أجْرهُ عِنْدَ رَبّهِ فللـمسلـمِ وجْهَهُ لله مـحسنا جزاؤه وثوابه علـى إسلامه وطاعته ربه عند الله فـي معاده.

ويعنـي بقوله: وَلا خَوْف عَلَـيْهِمْ علـى الـمسلـمين وجوههم لله وهم مـحسنون, الـمخـلصين له الدين فـي الآخرة من عقابه وعذاب جحيـمه, وما قدموا علـيه من أعمالهم.

ويعنـي بقوله: وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ولا هم يحزنون علـى ما خـلفوا وراءهم فـي الدنـيا, ولا أن يـمنعوا ما قدموا علـيه من نعيـم ما أعدّ الله لأهل طاعته.

وإنـما قال جل ثناؤه: وَلا خَوْف عَلَـيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وقد قال قبلُ: فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبّهِ لأن «من» التـي فـي قوله: بَلَـى مَنْ أسْلَـمَ وَجْهَهُ لِلّهِ فـي لفظ واحد ومعنى جميع, فـالتوحيد فـي قوله: فله أجره للّفظ, والـجمع فـي قوله: وَلاَ خَوْف عَلَـيْهِمْ للـمعنى.

الآية : 113

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النّصَارَىَ عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النّصَارَىَ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

قال أبو جعفر: ذكر أن هذه الآية نزلت فـي قوم من أهل الكتابـين تنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال بعضهم لبعض. ذكر من قال ذلك:

1369ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, وحدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قالا جميعا: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: لـما قدم أهل نـجران من النصارى علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم, أتتهم أحبـار يهود, فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال رافع بن حريـملة: ما أنتـم علـى شيء وكفر بعيسى ابن مريـم وبـالإنـجيـل. فقال رجل من أهل نـجران من النصارى: ما أنتـم علـى شيء وجحد نبوّة موسى وكفر بـالتوراة. فأنزل الله عزّ وجلّ فـي ذلك من قولهما: وَقالَتِ الـيَهودُ لَـيْسَتِ النّصَارَى علـى شَيْءٍ وَقالَتِ النّصارى لَـيْسَتِ الـيَهُودُ علـى شَيْءٍ إلـى قوله: فـيـما كانوا فـيه يختلفون 1370ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: وقالَتِ الـيَهُودُ لَـيْسَتِ النّصارَى علـى شيْءٍ وَقالَتِ النّصارَى لَـيْسَتِ الـيَهُودُ علـى شَيْءٍ قال: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا علـى عهد النبـيّ صلى الله عليه وسلم.

وأما تأويـل الآية, فإن قالت الـيهود: لـيست النصارى فـي دينها علـى صواب, وقالت النصارى: لـيست الـيهود فـي دينها علـى صواب.

وإنـما أخبر الله عنهم بقـيـلهم ذلك للـمؤمنـين إعلاما منه لهم بتضيـيع كل فريق منهم حكم الكتاب الذي يظهر الإقرار بصحته وبأنه من عند الله, وجحودهم مع ذلك ما أنزل الله فـيه من فروضه لأن الإنـجيـل الذي تدين بصحته وحقـيقته النصارى يحقق ما فـي التوراة من نبوّة موسى علـيه السلام وما فرض الله علـى بنـي إسرائيـل فـيها من الفرائض, وأن التوراة التـي تدين بصحتها وحقـيقتها الـيهود تـحقق نبوّة عيسى علـيه السلام وما جاء به من عند الله من الأحكام والفرائض. ثم قال كل فريق منهم للفريق الاَخر ما أخبر الله عنهم فـي قوله: وَقَالَتِ الـيَهُودُ لَـيْسَتِ النّصارَى علـى شَيْءٍ وقالت النّصَارَى لَـيْسَتِ الـيَهُودُ علـى شَيْءٍ مع تلاوة كل واحد من الفريقـين كتابه الذي يشهد علـى كذبه فـي قـيـله ذلك. فأخبر جل ثناؤه أن كل فريق منهم قال ما قال من ذلك علـى علـم منهم أنهم فـيـما قالوه مبطلون, وأتوا ما أتوا من كفرهم بـما كفروا به علـى معرفة منهم بأنهم فـيه ملـحدون.

فإن قال لنا قائل: أَوَ كانت الـيهود والنصارى بعد أن بعث الله رسوله علـى شيء, فـيكون الفريق القائل منهم ذلك للفريق الآخر مبطلاً فـي قـيـله ما قال من ذلك؟ قـيـل: قد روينا الـخبر الذي ذكرناه عن ابن عبـاس قَبْلُ, مِنْ أن إنكار كل فريق منهم إنـما كان إنكارا لنبوّة النبـيّ صلى الله عليه وسلم, الذي ينتـحل التصديق به, وبـما جاء به الفريق الآخر, لا دفعا منهم أن يكون الفريق الآخر فـي الـحال التـي بعث الله فـيها نبـينا صلى الله عليه وسلم علـى شيء من دينه, بسبب جحوده نبوّة نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم. وكيف يجوز أن يكون معنى ذلك إنكار كل فريق منهم أن يكون الفريق الآخر علـى شيء بعد بعثة نبـينا صلى الله عليه وسلم, وكلا الفريقـين كان جاحدا نبوّة نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم فـي الـحال التـي أنزل الله فـيها هذه الآية؟ ولكن معنى ذلك: وقالت الـيهود: لـيست النصارى علـى شيء من دينها منذ دانت دينها, وقالت النصارى: لـيست الـيهود علـى شيء منذ دانت دينها. وذلك هو معنى الـخبر الذي رويناه عن ابن عبـاس آنفـا. فكذّب الله الفريقـين فـي قـيـلهما ما قالا. كما:

1371ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَقَالَتِ الـيَهُودُ لَـيْسَتِ النّصَارَى علـى شَيْءٍ قال: بلـى قد كانت أوائل النصارى علـى شيء, ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا وقالت النصارى: لـيست الـيهود علـى شيء. ولكن القوم ابتدعوا وتفرّقوا.

1372ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج: وقالَتِ الـيَهُودُ لَـيْسَتِ النّصَارَى علـى شَيْءٍ وقَالَتِ النّصَارَى لَـيْسَتِ الـيَهُودُ عَلَـى شَيْءٍ قال: قال مـجاهد: قد كانت أوائل الـيهود والنصارى علـى شيء.

وأما قوله: وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتابَ فإنه يعنـي به كتاب الله التوراة والإنـجيـل, وهما شاهدان علـى فريقـي الـيهود والنصارى بـالكفر, وخلافهم أمر الله الذي أمرهم به فـيه. كما:

1373ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قالا جميعا: حدثنا ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتابَ كَذَلِكَ قالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُون مِثْلَ قَوْلِهِمُ, أي كل يتلو فـي كتابه تصديق ما كفر به: أي يكفر الـيهود بعيسى وعندهم التوراة فـيها ما أخذ الله علـيهم من الـميثاق علـى لسان موسى بـالتصديق بعيسى علـيه السلام, وفـي الإنـجيـل مـما جاء به عيسى تصديق موسى, وما جاء به من التوراة من عند الله وكل يكفر بـما فـي يد صاحبه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: كَذَلِكَ قالَ الّذِينَ لا يَعْلَـمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ.

اختلف أهل التأويـل فـي الذين عنى الله بقوله: كَذَلِكَ قالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ, فقال بعضهم بـما:

1374ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قال: وقالت النصارى مثل قول الـيهود قبلهم.

1375ـ حدثنا بشر بن سعيد, عن قتادة: قالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قال: قالت النصارى مثل قول الـيهود قبلهم. وقال آخرون بـما:

1376ـ حدثنا به القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلـمون؟ قال: أمـم كانت قبل الـيهود والنصارى, وقبل التوراة والإنـجيـل.

وقال بعضهم: عَنَى بذلك مشركي العرب, لأنهم لـم يكونوا أهل كتاب فنسبوا إلـى الـجهل, ونفـى عنهم من أجل ذلك العلـم. ذكر من قال ذلك:

1377ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: كَذَلِكَ قال الّذِينَ لا يَعْلَـمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فهم العرب, قالوا: لـيس مـحمد صلى الله عليه وسلم علـى شيء.

والصواب من القول فـي ذلك عندنا أن يقال: إن الله أخبر تبـارك وتعالـى عن قوم وصفهم بـالـجهل, ونفـى عنهم العلـم بـما كانت الـيهود والنصارى به عالـمين أنهم قالوا بجهلهم نظير ما قال الـيهود والنصارى بعضها لبعض مـما أخبر الله عنهم أنهم قالوه فـي قوله: وَقالَتِ الـيَهُودُ لَـيْسَتِ النّصَارَى علـى شَيْءٍ وَقالَتِ النّصَارَى لَـيْسَتِ الـيَهُودُ علـى شَيْءٍ. وجائز أن يكونوا هم الـمشركين من العرب, وجائز أن يكونوا أمة كانت قبل الـيهود والنصارى. ولا أمة أولـى أن يقال هي التـي عنـيت بذلك من أخرى, إذ لـم يكن فـي الآية دلالة علـى أيَ من أيَ, ولا خبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتت حجته من جهة نقل الواحد العدل ولا من جهة النقل الـمستفـيض.

وإنـما قصد الله جل ثناؤه بقوله: كَذَلِكَ قالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ إعلام الـمؤمنـين أن الـيهود والنصارى قد أتوا من قـيـل البـاطل, وافتراء الكذب علـى الله, وجحود نبوّة الأنبـياء والرسل, وهم أهل كتاب يعلـمون أنهم فـيـما يقولون مبطلون, وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون, وعلـى الله مفترون مثل الذي قاله أهل الـجهل بـالله وكتبه ورسله الذين لـم يبعث الله لهم رسولاً ولا أوحى إلـيهم كتابـا.

وهذه الآية تنبىء عن أن من أتـى شيئا من معاصي الله علـى علـم منه بنهي الله عنها, فمصيبته فـي دينه أعظم من مصيبة من أتـى ذلك جاهلاً به لأن الله تعالـى ذكره عظم توبـيخ الـيهود والنصارى بـما وبّخهم به فـي قـيـلهم ما أخبر عنهم بقوله: وَقَالَتِ الـيَهُودُ لَـيْسَتِ النّصَارَى علـى شَيْءٍ وَقَالَتِ النّصَارَى لَـيْسَتِ الـيَهُودُ علـى شَيْءٍ من أجل أنهم أهل كتاب قالوا ما قالوا من ذلك علـى علـم منهم أنهم مبطلون.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فـاللّهُ يَحْكُمُ بَـيْنَهُمْ يَوْمَ القِـيَامَةِ فِـيـما كانُوا فِـيهِ يَخْتَلِفُونَ.

يعنـي بذلك جل ثناءه: فـالله يقضي فـيفصل بـين هؤلاء الـمختلفـين القائل بعضهم لبعض: لستـم علـى شيء من دينكم يوم قـيام الـخـلق لربهم من قبورهم, فـيتبـين الـمـحقّ منهم من الـمبطل بإثابة الـمـحقّ ما وعد أهل طاعته علـى أعماله الصالـحة ومـجازاته الـمبطل منهم بـما أوعد أهل الكفر به علـى كفرهم به فـيـما كانوا فـيه يختلفون من أديانهم ومللهم فـي دار الدنـيا. وأما القـيامة فهي مصدر من قول القائل: قمت قـياما وقـيامةً, كما يقال: عدت فلانا عيادةً, وصنت هذا الأمر صيانةً. وإنـما عنى بـالقـيامة: قـيام الـخـلق من قبورهم لربهم, فمعنى يوم القـيامة: يوم قـيام الـخلائق من قبورهم لـمـحشرهم.

الآية : 114

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىَ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَـَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاّ خَآئِفِينَ لّهُمْ فِي الدّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الاَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

قد دللنا فـيـما مضى قَبْلُ علـى أن تأويـل الظلـم: وضع الشيء فـي غير موضعه. وتأويـل قوله: وَمَنْ أظْلَـمَ: وأيّ امرىء أشدّ تعدّيا وجراءة علـى الله وخلافـا لأمره مِن امرىء منع مساجد الله أن يعبد الله فـيها؟

والـمساجد جمع مسجد: وهو كل موضع عبد الله فـيه. وقد بـينا معنى السجود فـيـما مضى, فمعنى الـمسجد: الـموضع الذي يسجد لله فـيه, كما يقال للـموضع الذي يجلس فـيه: الـمـجلس, وللـموضع الذي ينزل فـيه: منزل, ثم يجمع منازل ومـجالس نظير مسجد ومساجد. وقد حكي سماعا من بعض العرب مساجد فـي واحد الـمساجد, وذلك كالـخطأ من قائله.

وأما قوله: أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ فإن فـيه وجهين من التأويـل, أحدهما: أن يكون معناه: ومن أظلـم مـمن منع مساجد الله من أن يذكر فـيها اسمه, فتكون «أن» حينئذ نصبـا من قول بعض أهل العربـية بفقد الـخافض وتعلق الفعل بها. والوجه الآخر أن يكون معناه: ومن أظلـم مـمن منع أن يذكر اسم الله فـي مساجده, فتكون «أن» حينئذ فـي موضع نصب تكريرا علـى موضع الـمساجد وردّا علـيه.

وأما قوله: وَسَعَى فـي خَرَابِها فإن معناه: ومن أظلـم مـمن منع مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه, ومـمن سعى فـي خراب مساجد الله. ف«سعى» إذا عطف علـى «منع».

فإن قال قائل: ومن الذي عنـي بقوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَر فـيها اسمُهُ وَسَعَى فِـي خَرَابِها وأيّ الـمساجد هي؟ قـيـل: إن أهل التأويـل فـي ذلك مختلفون, فقال بعضهم: الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه هم النصارى والـمسجد بـيت الـمقدس. ذكر من قال ذلك:

1378ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمْنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ أنهم النصارى.

1379ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسْمُهُ وَسَعَى فِـي خَرَابِها النصارى كانوا يطرحون فـي بـيت الـمقدس الأذى, ويـمنعون الناس أن يصلوا فـيه.

حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

وقال آخرون: هو بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى والـمسجد: مسجد بـيت الـمقدس. ذكر من قال ذلك:

1380ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ الآية, أولئك أعداء الله النصارى, حملهم بغض الـيهود علـى أن أعانوا بختنصر البـابلـي الـمـجوسي علـى تـخريب بـيت الـمقدس.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسْمُهُ

وَسَعَى فِـي خَرَابِها قال: هو بختنصر وأصحابه خرّب بـيت الـمقدس, وأعانه علـى ذلك النصارى.

1381ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ وَسَعَى فِـي خَرَابِها قال: الروم, كانوا ظاهروا بختنصر علـى خراب بـيت الـمقدس, حتـى خرّبه وأمر به أن تطرح فـيه الـجِيَف وإنـما أعانه الروم علـى خرابه من أجل أن بنـي إسرائيـل قتلوا يحيى بن زكريا.

وقال آخرون: بلـى عنى الله عزّ وجل بهذه الآية مشركي قريش, إذ منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الـمسجد الـحرام. ذكر من قال ذلك:

1382ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ وَسَعَى فِـي خَرَابِها قال: هؤلاء الـمشركون, حين حالوا بـين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الـحديبـية وبـين أن يدخـل مكة حتـى نـحر هدية بذي طُوًى وهادنهم, وقال لهم: «ما كَانَ أحَدٌ يُرَدّ عن هذا البَـيْتِ». وقد كان الرجل يـلقـى قاتل أبـيه أو أخيه فـيه فما يصدّه, وقالوا: لا يدخـل علـينا من قتل آبـاءنا يوم بدر وفـينا بـاقٍ. وفـي قوله: وَسَعَى فـي خَرَابِها قالوا: إذْ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتـيها للـحجّ والعمرة.

وأولـى التأويلات التـي ذكرتها بتأويـل الآية قول من قال: عنى الله عز وجل بقوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ النصارى وذلك أنهم هم الذين سعوا فـي خراب بـيت الـمقدس, وأعانوا بختنصر علـى ذلك, ومنعوا مؤمنـي بنـي إسرائيـل من الصلاة فـيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلـى بلاده.

والدلـيـل علـى صحة ما قلنا فـي ذلك: قـيام الـحجة بأن لا قوم فـي معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التـي ذكرناها, وأن لا مسجد عنى الله عزّ وجل بقوله: وَسَعَى فِـي خَرَابِها إلا أحد الـمسجدين, إما مسجد بـيت الـمقدس, وإما الـمسجد الـحرام. وإذْ كان ذلك كذلك, وكان معلوما أن مشركي قريش لـم يسعوا قط فـي تـخريب الـمسجد الـحرام, وإن كانوا قد منعوا فـي بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فـيه صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله عزّ وجل بـالسعي فـي خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتها, إذْ كان مشركو قريش بنوا الـمسجد الـحرام فـي الـجاهلـية, وبعمارته كان افتـخارهم, وإن كان بعض أفعالهم فـيه كان منهم علـى غير الوجه الذي يرضاه الله منهم. وأخرى, أن الآية التـي قبل قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسْمُهُ مضت بـالـخبر عن الـيهود والنصارى وذَمّ أفعالهم, والتـي بعدها نبهت بذمّ النصارى والـخبر عن افترائهم علـى ربهم, ولـم يَجْرِ لقريش ولا لـمشركي العرب ذكر, ولا للـمسجد الـحرام قبلها, فـيوجه الـخبر بقول الله عز وجل: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسْمُهُ إلـيهم وإلـى الـمسجد الـحرام. وإذْ كان ذلك كذلك, فـالذي هو أوْلـى بـالآية أن يوجه تأويـلها إلـيه, هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها, إذ كان خبرها لـخبرهما نظيرا وشكلاً, إلاّ أن تقوم حجة يجب التسلـيـم لها بخلاف ذلك وإن اتفقت قصصها فـاشتبهت.

فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا فـي ذلك لـيس كذلك, إذْ كان الـمسلـمون لـم يـلزمهم قط فرض الصلاة فـي الـمسجد الـمقدس, فمنعوا من الصلاة فـيه, فـيـلـجئون توجيه قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ إلـى أنه معنـيّ به مسجد بـيت الـمقدس فقد أخطأ فـيـما ظنّ من ذلك. وذلك أن الله جل ذكره إنـما ذكر ظلـم من منع من كان فرضه الصلاة فـي بـيت الـمقدس من مؤمنـي بنـي إسرائيـل, وإياهم قصد بـالـخبر عنهم بـالظلـم والسعي فـي خراب الـمسجد, وإن كان قد دلّ بعموم قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَرَ فِـيها اسمُهُ أن كل مانع مصلـيا فـي مسجد لله فرضا كانت صلاته فـيه أو تطوّعا, وكل ساع فـي إخرابه فهو من الـمعتدين الظالـمين.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أُولَئِكَ ما كان لَهُمْ أنْ يَدْخُـلُوها إلا خائِفِـينَ.

وهذا خبر من الله عزّ وجل عمن منع مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه, أنه قد حرّم علـيهم دخول الـمساجد التـي سعوا فـي تـخريبها ومنعوا عبـاد الله الـمؤمنـين من ذكر الله عز وجل فـيها ما داموا علـى مناصبة الـحرب إلا علـى خوف ووجل من العقوبة علـى دخولهموها. كالذي:

1383ـ حدثنا بشر, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: ما كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُـلُوها إلا خائِفِـينَ وهم الـيوم كذلك, لا يوجد نصرانـي فـي بـيت الـمقدس إلا نُهك ضربـا وأبلغ إلـيه فـي العقوبة.

حدثنا الـحسن, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, قال الله عزّ وجل: ما كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُـلُوهَا إلاّ خَائِفِـينَ وهم النصارى, فلا يدخـلون الـمسجد إلا مسارقة, إن قُدر علـيهم عوقبوا.

1384ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أُولَئِكَ ما كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُـلُوهَا إلا خَائِفِـينَ فلـيس فـي الأرض روميّ يدخـلها الـيوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه, أو قد أخيف بأداء الـجزية فهو يؤدّيها.

1385ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: أُولَئِكَ ما كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُـلُوهَا إلاّ خَائِفِـينَ قال: نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَحُجّ بَعْدَ العامِ مُشْرِك, ولا يَطُوفُ بـالبَـيْتِ عُرْيان» قال: فجعل الـمشركون يقولون: اللهم إنا منعنا أن ننزل.

وإنـما قـيـل: أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُـلُوهَا إلا خَائِفِـينَ فأخرج علـى وجه الـخبر عن الـجميع وهو خبر عمن منع مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه لأن «مَنْ» فـي معنى الـجميع, وإن كان لفظه واحدا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: لَهُمْ فِـي الدّنْـيَا خِزْي ولهُمْ فـي الاَخِرَةِ عَذَاب عَظِيـم.

فأما قوله عز وجل: لهم فإنه يعنـي الذين أخبر عنهم أنهم منعوا مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه.

وأما قوله: لَهُمْ فِـي الدّنْـيَا خِزْيٌ فإنه يعنـي بـالـخزي: العار والشرّ. والذلة إما القتل والسبـاء, وإما الذلة والصغار بأداء الـجزية. كما:

1386ـ حدثنا الـحسن, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: لَهُمْ فِـي الدّنْـيَا خِزْيٌ قال: يعطون الـجزية عن يد وهم صاغرون.

1387ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي قوله: لَهُمْ فِـي الدّنْـيَا خِزْيٌ أما خزيهم فـي الدنـيا: فإنهم إذا قام الـمهديّ

وفتـحت القسطنطيـنية قتلهم, فذلك الـخزي وأما العذاب العظيـم: فإنه عذاب جهنـم الذي لا يخفف عن أهله, ولا يُقْضَى علـيهم فـيها فـيـموتوا.
وتأويـل الآية: لهم فـي الدنـيا الذلة والهوان والقتل والسبـي, علـى منعهم مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه, وسعيهم فـي خرابها. ولهم علـى معصيتهم وكفرهم بربهم وسعيهم فـي الأرض فسادا عذابُ جهنـم, وهو العذاب العظيـم.

الآية : 115

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَللّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلّواْ فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ إِنّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }
يعنـي جل ثناؤه بقوله: وِلِلّهِ الـمَشْرِقُ وَالـمَغْرِبُ لله ملكهما وتدبـيرهما, كما يقال: لفلان هذه الدار, يعنـي بها أنها له ملكا, فذلك قوله: وِلِلّهِ الـمَشْرِقُ وَالـمَغْرِبُ يعنـي أنهما له ملكا وخـلقا. والـمشرق: هو موضع شروق الشمس, وهو موضع طلوعها, كما يقال لـموضع طلوعها منه مَطْلِع بكسر اللام, وكما بـينا فـي معنى الـمساجد آنفـا.
فإن قال قائل: أوَ ما كان لله إلا مشرق واحد ومغرب واحد حتـى قـيـل: وِلِلّهِ الـمَشْرِقُ والـمَغْرِبُ؟ قـيـل: إن معنى ذلك غير الذي ذهبت إلـيه, وإنـما معنى ذلك: ولله الـمشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم, والـمغرب الذي تغرب فـيه كل يوم. فتأويـله إذا كان ذلك معناه: ولله ما بـين قُطْرَي الـمشرق, وما بـين قُطري الـمغرب, إذ كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلـى الـحَوْلِ الذي بعده, وكذلك غروبها كل يوم.
فإن قال: أَوَ لـيس وإن كان تأويـل ذلك ما ذكرت فللّه كل ما دونه؟ الـخـلقُ خـلقُه قـيـل: بلـى.
فإن قال: فكيف خصّ الـمشارق والـمغارب بـالـخبر عنها أنها له فـي هذا الـموضع دون سائر الأشياء غيرها؟ قـيـل: قد اختلف أهل التأويـل فـي السبب الذي من أجله خَصّ الله ذكر ذلك بـما خصه به فـي هذا الـموضع, ونـحن مبـينو الذي هو أولـى بتأويـل الآية بعد ذكرنا أقوالهم فـي ذلك. فقال بعضهم: خصّ الله جل ثناؤه ذلك بـالـخبر من أجل أن الـيهود كانت توجه فـي صلاتها وجوهَها قِبَلَ بـيت الـمقدس, وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مدة, ثم حُوّلوا إلـى الكعبة, فـاستنكرت الـيهود ذلك من فعل النبـيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التـي كانُوا عَلَـيْهَا فقال الله تبـارك وتعالـى لهم: الـمشارق والـمغارب كلها لـي أصرّفُ وجوه عبـادي كيف أشاء منها, فحيثما تُوَلّوا فثم وجه الله. ذكر من قال ذلك:
1388ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ, عن ابن عبـاس, قال: كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة, وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لـما هاجر إلـى الـمدينة, وكان أكثر أهلها الـيهود, أمره الله عزّ وجلّ أن يستقبل بـيت الـمقدس, ففرحت الـيهود, فـاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا, فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ قبلة إبراهيـم علـيه السلام فكان يدعو وينظر إلـى السماء, فأنزل الله تبـارك وتعالـى: قَدْ نَرَى تَقَلّبَ وَجْهِكَ فِـي السّمَاءِ إلـى قوله: فَوَلّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ فـارتاب من

ذلك الـيهود, وقالوا: ما وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التـي كانُوا عَلَـيْهَا فأنزل الله عزّ وجلّ: قُلِ لِلّهِ الـمَشْرِقُ وَالـمَغْرِبُ وقال: «أيْنَـما تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ».

1389ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي نـحوه.

وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض علـى نبـيه صلى الله عليه وسلم وعلـى الـمؤمنـين به التوجه شطر الـمسجد الـحرام. وإنـما أنزلها علـيه معلـما نبـيه علـيه الصلاة والسلام بذلك وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي الـمشرق والـمغرب لأنهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية, إلا كان جل ثناؤه فـي ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له الـمشارق والـمغارب, وأنه لا يخـلو منه مكان, كما قال جل وعزّ: ولا أدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أيْنَـمَا كانُوا قالوا: ثم نسخ ذلك بـالفرض الذي فرض علـيهم فـي التوجه شطر الـمسجد الـحرام. ذكر من قال ذلك:

1390ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد عن قتادة: قوله جل وعز: وِلِلّهِ الـمَشْرِقُ والـمَغْرِبُ فَأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ ثم نسخ ذلك بعد ذلك, فقال الله: وِمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلّ وَجْهَكَ شَطْرَ الـمَسْجِدِ الـحَرَامِ.

1391ـ حدثت عن الـحسن قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ قال: هي القبلة, ثم نسختها القبلة إلـى الـمسجد الـحرام.

1392ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحجاج بن الـمنهال, قال: حدثنا همام, قال: حدثنا يحيى, قال: سمعت قتادة فـي قول الله: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ قال: كانوا يصلون نـحو بـيت الـمقدس ورسول الله صلى الله عليه وسلم بـمكة قبل الهجرة, وبعد ما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلـى نـحو بـيت الـمقدس ستة عشر شهرا, ثم وجه بعد ذلك نـحو الكعبة البـيت الـحرام, فنسخها الله فـي آية أخرى: فَلَنُوَلّـيَنّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها إلـى: وَحَيْثُمَا كُنْتُـمْ فَوَلّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ قال: فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر القبلة.

1393ـ حدثنا يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: سمعته يعنـي زيدا يقول: قال عز وجل لنبـيه صلى الله عليه وسلم: فَأينَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ إنّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِـيـم قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَوءُلاَءِ قَوْمُ يَهُود يَسْتَقْبِلُونَ بَـيْتا مِنْ بُـيُوتِ اللّهِ لَوْ أنّا اسْتَقْبَلْنَاهُ» فـاستقبله النبـيّ صلى الله عليه وسلم ستة عشر شهرا. فبلغه أن يهود تقول: والله ما دري مـحمد وأصحابه أين قبلتهم حتـى هديناهم فكره ذلك النبـيّ صلي الله عليه وسلم, ورفع وجهه إلـى السماء, فقال الله عز وجل: قَدْ نَرى تَقَلّبَ وَجْهِكَ فِـي السّمَاءِ الآية.

وقال آخرون: نزلت هذه الآية علـى النبـيّ صلى الله عليه وسلم إذنا من الله عز وجل له أن يصلـي التطوّع حيث توجه وجهه من شرق أو غرب, فـي مسيره فـي سفره, وفـي حال الـمسايفة, وفـي شدّة الـخوف, والتقاء الزحوف فـي الفرائض. وأعلـمه أنه حيث وجه وجهه فهو هنالك, بقوله: وِلِلّهِ الـمَشْرِقُ وَالـمَغْرِبُ فَأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ. ذكر من قال ذلك:

1394ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن إدريس, قال: حدثنا عبد الـملك, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عمر أنه كان يصلـي حيث توجهت به راحلته, ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك, ويتأول هذه الآية: أيْنَـمَا تُولّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ.

1395ـ حدثنـي أبو السائب, قال: حدثنا ابن فضيـل, عن عبد الـملك بن أبـي سلـيـمان, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عمر أنه قال: «إنـما نزلت هذه الآية: «أيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ» أن تصلـي حيثما توجهتْ بك راحلتك فـي السفر تطوعا, كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجع من مكة يصلـي علـى راحلته تطوّعا يومىء برأسه نـحو الـمدينة».

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية فـي قوم عميت علـيهم القبلة فلـم يعرفوا شَطْرَها, فصلوا علـى أنـحاء مختلفة, فقال الله عزّ وجلّ لهم: لـي الـمشارق والـمغارب, فأنّى ولـيتـم وجوهكم فهنالك وجهي, وهو قِبْلَتُكم معلـمهم بذلك أن صلاتهم ماضية. ذكر من قال ذلك:

1396ـ حدثنا أحمد, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا أبو الربـيع السمان, عن عاصم بن عبـيد الله, عن عبد الله بن عامر بن ربـيعة, عن أبـيه, قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فـي لـيـلة سوداء مظلـمة, فنزلنا منزلاً, فجعل الرجل يأخذ الأحجار فـيعمل مسجدا يصلـي فـيه. فلـما أصبحنا, إذا نـحن قد صلـينا علـى غير القبلة, فقلنا: يا رسول الله لقد صلـينا لـيـلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله عز وجل: وِللّهِ الـمَشْرِقُ وَالـمَغْرِبُ فَأيْنَـما تُولّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ إنّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِـيـمٌ».

1397ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي الـحجاج, قال: حدثنا حماد, قال: قلت للنـخعي: إنـي كنت استـيقظت أو قال أُوقِظْتُ, شكّ الطبري فكان فـي السماء سحاب, فصلـيت لغير القبلة. قال: مضت صلاتك, يقول الله عزّ وجلّ: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ.

حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنا أبـي عن أشعث السمان, عن عاصم بن عبـيد الله, عن عبد الله بن عامر بن ربـيعة, عن أبـيه, قال: كنا مع النبـيّ صلى الله عليه وسلم فـي لـيـلة مظلـمة فـي سفر, فلـم ندر أين القبلة فصلـينا, فصلـى كل واحد منا علـى حياله. ثم أصبحنا فذكرنا للنبـيّ صلى الله عليه وسلم, فأنزل الله عزّ وجلّ: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية فـي سبب النـجاشي لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تنازعوا فـي أمره من أجل أنه مات قبل أن يصلـي إلـى القبلة, فقال الله عز وجل: الـمشارق والـمغارب كلها لـي, فمن وجّه وَجْهَه نـحو شيء منها يريدنـي به ويبتغي به طاعتـي, وجدنـي هنالك. يعنـي بذلك أن النـجاشي وإن لـم يكن صلـى إلـى القبلة, فإنه قد كان يوجه إلـى بعض وجوه الـمشارق والـمغارب وجهه, يبتغي بذلك رضا الله عزّ وجل فـي صلاته. ذكر من قال ذلك:

1398ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا هشام بن معاذ, قال: حدثنـي أبـي, عن قتادة أن النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ أخاكُمْ النّـجاشِيّ قَدْ ماتَ فَصَلّوا عَلَـيْهِ» قالوا: نصلـي علـى رجل لـيس بـمسلـم قال: فنزلت: وَإنّ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَـمَنْ يُؤْمِنُ بِـاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَـيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إلَـيْهِمْ خاشعِينَ لِلّهِ قال قتادة: فقالوا إنه كان لا يصلـي إلـى القبلة, فأنزل الله عزّ وجل: وِللّهِ الـمَشْرِقُ وَالـمَغْرِبُ فَأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ.

قال أبو جعفر: والصواب من القول فـي ذلك: أن الله تعالـى ذكره إنـما خصّ الـخبر عن الـمشرق والـمغرب فـي هذه الآية بأنهما له ملكا وإن كان لا شيء إلا وهو له ملك إعلاما منه عبـاده الـمؤمنـين أن له ملكهما وملك ما بـينهما من الـخـلق, وأن علـى جميعهم إذْ كان له ملكهم طاعته فـيـما أمرهم ونهاهم, وفـيـما فرض علـيهم من الفرائض, والتوجه نـحو الوجه الذي وجهوا إلـيه, إذْ كان من حكم الـمـمالـيك طاعة مالكهم. فأخرج الـخبر عن الـمشرق والـمغرب, والـمراد به من بـينهما من الـخـلق, علـى النـحو الذي قد بـينت من الاكتفـاء بـالـخبر عن سبب الشيء من ذكره والـخبر عنه, كما قـيـل: وأُشْرِبُوا فِـي قُلُوبِهِمُ العِجْل وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية إذا: ولله ملك الـخـلق الذي بـين الـمشرق والـمغرب يتعبدهم بـما شاء, ويحكم فـيهم ما يريد علـيهم طاعته فولّوا وجوهكم أيها الـمؤمنون نـحو وجهي, فإنكم أينـما تولوا وجوهكم فهنالك وجهي.

فأما القول فـي هذه الآية ناسخة أم منسوخة, أم لا هي ناسخة ولا منسوخة؟ فـالصواب فـيه من القول أن يقال: إنها جاءت مـجيء العموم, والـمراد الـخاص وذلك أن قوله: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ مـحتـمل: أينـما تولوا فـي حال سيركم فـي أسفـاركم, فـي صلاتكم التطوّع, وفـي حال مسايفتكم عدوّكم, فـي تطوّعكم ومكتوبتكم, فَثمّ وجه الله كما قال ابن عمر والنـخعي ومن قال ذلك مـمن ذكرنا عنه آنفـا.

ومـحتـمل: فأينـما تُولّوا من أرض الله فتكونوا بها فَثَمّ قِبْلَةُ الله التـي توجهون وجوهكم إلـيها لأن الكعبة مـمكن لكم التوجه إلـيها منها. كما قال أبو كريب:

1399ـ قال ثنا وكيع, عن أبـي سنان, عن الضحاك, والنضر بن عربـي, عن مـجاهد فـي قول الله عزّ وجل: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ قال: قبلة الله, فأينـما كنت من شرق أو غرب فـاستقبلها.

1400ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, قال: أخبرنـي إبراهيـم, عن ابن أبـي بكر, عن مـجاهد, قال: حيثما كنتـم فلكم قبلة تستقبلونها, قال: الكعبة.

ومـحتـمل: فأينـما تولوا وجوهكم فـي دعائكم فهنالك وجهي أستـجيب لكم دعاءكم. كما:

1401ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج, قال مـجاهد: لـمّا نزلت: ادْعُونـي أسْتَـجِبْ لَكُمْ قالوا: إلـى أين؟ فنزلت: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ.

فإذ كان قوله عز وجل: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ مـحتـملاً ما ذكرنا من الأوجه, لـم يكن لأحد أن يزعم أنها ناسخة أو منسوخة إلا بحجة يجب التسلـيـم لها لأن الناس لا يكون إلا بـمنسوخ, ولـم تقم حجة يجب التسلـيـم لها بأن قوله: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثَمّ وجْهُ اللّه معنـيّ به: فأينـما توجهوا وجوهكم فـي صلاتكم فثم قبلتكم. ولا أنها نزلت بعد صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نـحو بـيت الـمقدس أمرا من الله عز وجل لهم بها أن يتوجهوا نـحو الكعبة, فـيجوز أن يقال: هي ناسخة الصلاة نـحو بـيت الـمقدس إذْ كان من أهل العلـم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة التابعين, من ينكر أن تكون نزلت فـي ذلك الـمعنى. ولا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتٌ بأنها نزلت فـيه, وكان الاختلاف

فـي أمرها موجودا علـى ما وصفت. ولا هي إذْ لـم تكن ناسخة لـما وصفنا قامت حجتها بأنها منسوخة, إذ كانت مـحتـملة ما وصفنا بأن تكون جاءت بعموم, ومعناها: فـي حال دون حال إن كان عنـي بها التوجه فـي الصلاة, وفـي كل حال إن كان عنـي بها الدعاء, وغير ذلك من الـمعانـي التـي ذكرنا.

وقد دللنا فـي كتابنا: «كتاب البـيان عن أصول الأحكام», علـى أن لا ناسخ من آي القرآن وأخبـار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ ما نفـي حكما ثابتا, وألزم العبـاد فرضه غير مـحتـمل بظاهره وبـاطنة غير ذلك. فأما إذا ما احتـمل غير ذلك من أن يكون بـمعنى الاستثناء أو الـخصوص والعموم, أو الـمـجمل, أو الـمفسر, فمن الناسخ والـمنسوخ بـمعزل, بـما أغنى عن تكريره فـي هذا الـموضع. ولا منسوخ إلا الـمنفـي الذي كان قد ثبت حكمه وفرضه, ولـم يصحّ واحد من هذين الـمعنـيـين لقوله: فأيْنَـمَا تُوَلّوا فَثمّ وَجْهُ اللّهِ بحجة يجب التسلـيـم لها, فـيقال فـيه: هو ناسخ أو منسوخ.

وأما قوله: فأينـما فإن معناه: حيثما.

وأما قوله: تُوَلّوا فإن الذي هو أولـى بتأويـله أن يكون تولون نـحوه وإلـيه, كما يقول القائل: ولّـيت وجهي (نـحوه) وولـيته إلـيه, بـمعنى: قابلته وواجهته. وإنـما قلنا ذلك أولـى بتأويـل الآية لإجماع الـحجة علـى أن ذلك تأويـله وشذوذ من تأوله بـمعنى: تولون عنه فتستدبرونه, فـالذي تتوجهون إلـيه وجه الله, بـمعنى قبلة الله.

وأما قوله: فَثَمّ فإنه بـمعنى: هنالك.

واختلف فـي تأويـل قوله: فَثَمّ (وجه الله) فقال بعضهم: تأويـل ذلك: فثم قبلة الله, يعنـي بذلك: وجهه الذي وجههم إلـيه. ذكر من قال ذلك:

1402ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن النضر بن عربـي, عن مـجاهد: فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ قال: قبلة الله.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: أخبرنـي إبراهيـم, عن مـجاهد, قال: حيثما كنتـم فلكم قبلة تستقبلونها.

وقال آخرون: معنى قول الله عز وجل فثم وجه الله فثم الله تبـارك وتعالـى.

وقال آخرون: معنى قوله: فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ فثم تدركون بـالتوجه إلـيه رضا الله الذي له الوجه الكريـم.

وقال آخرون: عنى بـالوجه: ذا الوجه, وقال قائلوا هذه الـمقالة: وجهُ الله صفةٌ له.

فإن قال قائل: وما هذه الآية من التـي قبلها؟ قـيـل: هي لها مواصلة, وإنـما معنى ذلك: ومن أظلـم من النصارى الذين منعوا عبـاد الله مساجده أن يذكر فـيها اسمه, وَسَعْوا فـي خرابها, ولله الـمشرق والـمغرب, فأينـما تُوجهوا وجوهَكم فـاذكروه, فإن وجهه هنالك يَسَعُكم فضله وأرضه وبلاده, ويعلـم ما تعملون, ولا يـمنعكم تـخريب من خرّب مسجد بـيت الـمقدس, ومنعهم من منعوا من ذكر الله فـيه أن تذكروا الله حيث كنتـم من أرض الله تبتغون به وجهه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إِنّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِـيـم.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَاسِعٌ يسع خَـلْقَه كلهم بـالكفـاية والأفضال والـجود والتدبـير.

وأما قوله: عَلِـيـم فإنه يعنـي أنه علـيـم بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علـمه, بل هو بجميعها علـيـم.

الآية : 116

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَقَالُواْ اتّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ كُلّ لّهُ قَانِتُونَ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَقَالُوا اتّـخَذَ اللّهُ وَلَدا الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه, وقالوا معطوف علـى قوله: وَسَعَى فـي خَرَابِها.

وتأويـل الآية: ومن أظلـم مـمن منع مساجد الله أن يذكر فـيها اسمه وسعى فـي خرابها, وقالوا اتـخذ الله ولدا وهم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله؟ فقال الله جل ثناؤه مكذّبـا قِـيـلَهم ما قالوا من ذلك ومنتفـيا مـما نـحلوه وأضافوا إلـيه بكذبهم وفريتهم. سبحانه يعنـي بها: تنزيها وتبريئا من أن يكون له ولد, وعلوّا وارتفـاعا عن ذلك. وقد دللنا فـيـما مضى علـى معنى قول القائل: «سبحان الله» بـما أغنى عن إعادته فـي هذا الـموضع. ثم أخبر جل ثناؤه أن له ما فـي السموات والأرض مِلْكا وخـلقا, ومعنى ذلك: وكيف يكون الـمسيح لله ولدا, وهو لا يخـلو إما أن يكون فـي بعض هذه الأماكن إما فـي السموات, وإما فـي الأرض, ولله ملك ما فـيهما؟ ولو كان الـمسيح ابنا كما زعمتـم لـم يكن كسائر ما فـي السموات والأرض من خـلقه وعبـيده فـي ظهور آيات الصنعة فـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ.

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك, فقال بعضهم: معنى ذلك: مطيعون. ذكر من قال ذلك:

1403ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ: مطيعون.

1404ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله عز وجل: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ قال: مطيعون, قال: طاعة الكافر فـي سجود ظله.

1405ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد بـمثله, إلا أنه زاد: بسجود ظله وهو كاره.

1406ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ يقول: كل له مطيعون يوم القـيامة.

1407ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنـي يحيى بن سعيد, عمن ذكره, عن عكرمة: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ قال: الطاعة.

1408ـ حدثت عن الـمنـجاب بن الـحارث, قال: حدثنا بشر بن عمارة, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس: قانِتون: مطيعون.

وقال آخرون: معنى ذلك كلّ له مُقرّون بـالعبودية. ذكر من قال ذلك:

1409ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يحيى بن واضح, قال: حدثنا الـحسين بن واقد, عن يزيد النـحوي, عن عكرمة: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ كل مقّر له بـالعبودية. وقال آخرون بـما:

1410ـ حدثنـي به الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ قال: كل له قائم يوم القـيامة.

والقنوت فـي كلام العرب معان: أحدها الطاعة, والآخر القـيام, والثالث الكفّ عن الكلام والإمساك عنه.
وأولـى معانـي القنوت فـي قوله: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ الطاعة والإقرار لله عز وجل بـالعبودية بشهادة أجسامهم بـما فـيها من آثار الصنعة, والدلالة علـى وحدانـية الله عز وجل, وأن الله تعالـى ذكره بـارئها وخالقها. وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن لله ولدا بقوله: بل له ما فـي السموات والأرض ملكا وخـلقا. ثم أخبر عن جميع ما فـي السموات والأرض أنها مقرّة بدلالتها علـى ربها وخالقها, وأن الله تعالـى بـارئها وصانعها. وإنْ جحد ذلك بعضهم فألسنتهم مذعنة له بـالطاعة بشهادتها له بآثار الصنعة التـي فـيها بذلك, وأن الـمسيح أحدهم, فأنى يكون لله ولدا وهذه صفته؟ وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وجهته أن قوله: كُلّ لَهُ قَانِتُونَ خاصة لأهل الطاعة ولـيست بعامة. وغير جائز ادّعاء خصوص فـي آية عام ظاهرها إلا بحجة يجب التسلـيـم لها لـما قد بـينا فـي كتابنا: «كتاب البـيان عن أصول الأحكام».
وهذا خبر من الله جلّ وعزّ عن أن الـمسيح الذي زعمت النصارى أنه ابن الله مُكَذّبهم هو والسموات والأرض وما فـيها, إما بـاللسان, وإما بـالدلالة وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم بطاعتهم إياه وإقرارهم له بـالعبودية عقـيب قوله: وَقَالُوا اتّخَذَ اللّهُ وَلَدا فدلّ ذلك علـى صحة ما قلنا.

الآية : 117

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{بَدِيعُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَإِذَا قَضَىَ أَمْراً فَإِنّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }
يعنـي جل ثناؤه بقوله: بَدِيعُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ مبدعها. وإنـما هو «مُفْعل» صرّف إلـى «فَعِيـل», كما صرّف الـمؤلـم إلـى ألـيـم, والـمسمع إلـى سميع. ومعنى الـمبدع: الـمنشىء والـمـحدث ما لـم يسبقه إلـى إنشاء مثله وإحداثه أحد ولذلك سمي الـمبتدع فـي الدين مبتدعا, لإحداثه فـيه ما لـم يسبقه إلـيه غيره. وكذلك كل مـحدث فعلاً أو قولاً لـم يتقدّمه فـيه متقدّم, فإن العرب تسميه مبتدعا. ومن ذلك قول أعشى بنـي ثعلبة فـي مدح هوذة بن علـيّ الـحنفـي:
يَرْعَى إلـى قَوْلِ سادَاتِ الرّجالِ إذَاأبْدَوْا لَهُ الـحَزْمَ أوْ ما شَاءَهُ ابْتَدَعا
أي يحدث ما شاء. ومنه قول رؤبة بن العجّاج:
فأيّها الغاشِي القِذَافَ الأتْـيَعاإنْ كُنْتَ لِلّهِ التّقِـيّ ألاطْوَعا
فَلَـيْسَ وَجْهُ الـحَقّ أنْ تَبَدّعا
يعنـي: أن تـحدث فـي الدين ما لـم يكن فـيه.
فمعنى الكلام: سبحان الله أنى يكون له ولد وهو مالك ما فـي السموات والأرض, تشهد له جميعا بدلالتها علـيه بـالوحدانـية, وتقرّ له بـالطاعة وهو بـارئها وخالقها, وموجدها من غير أصل, ولا مثال احتذاها علـيه وهذا إعلام من الله جل ثناؤه عبـاده, أن مـما يشهد له بذلك الـمسيح الذي أضافوا إلـى الله جل ثناؤه بنوّته, وإخبـار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلـى غير مثال, هو الذي ابتدع الـمسيح من غير والد بقدرته.
وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك قال جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1411ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: بَدِيعُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ يقول: ابتدع خـلقها, ولـم يشركه فـي خـلقها أحد.
1412ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: بَدِيعُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ يقول: ابتدعها فخـلقها, ولـم يخـلق مثلها شيئا فتتـمثل به.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإِذَا قَضَى أمْرا فَـانّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ.
يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَإِذَا قَضَى أمْرا وإذا أحكم أمرا وحَتَـمه. وأَصْلُ كل قضاء أمرٍ الإحكامُ والفراغ منه ومن ذلك قـيـل للـحاكم بـين الناس: القاضي بـينهم, لفَصله القضاء بـين الـخصوم, وقَطْعه الـحكم بـينهم وفراغه منه. ومنه قـيـل للـميت: قد قَضَى, يراد به قد فرغ من الدنـيا, وفصل منها. ومنه قـيـل: ما ينقضي عجبـي من فلان, يراد: ما ينقطع. ومنه قـيـل: تَقَضّى النهارُ: إذا انصرم. ومنه قول الله عز وجل: وَقَضَى رَبّكَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ أي فصل الـحكم فـيه بـين عبـاده بأمره إياهم بذلك, وكذلك قوله: وَقَضَيْنَا إلـى بَنِـي إسْرَائِيـلَ فِـي الكِتابِ أي أعلـمناهم بذلك وأخبرناهم به, ففرغنا إلـيهم منه. ومنه قول أبـي ذؤيب:

وَعَلَـيْهِما مَسْرُودَتانِ قَضَاهُمادَاوُدُ أوْ صَنَعَ السّوَابِغِ تُبّعُ

ويُروى: «وتَعاوَرَا مَسْرُودَتـينِ قَضَاهُما».
ويعنـي بقوله: قضاهما: أحكمهما. ومنه قول الآخر فـي مدح عمر بن الـخطاب رضي الله عنه:

قَضَيْتُ أُمُورا ثُمّ غَادَرْتَ بَعْدَهابِوَائِقَ فـي أكْمَامِها لَـمْ تَفَتُّقِ

ويروى: «بوائج».
وأما قوله: فَـانّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ فإنه يعنـي بذلك: وإذا أحكم أمرا فحتـمه, فإنـما يقول لذلك الأمر «كُنْ», فـيكون ذلك الأمر علـى ما أمره الله أن يكون وأراده.
فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: وَإِذَا قَضَى أمْرا فَـانّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ؟ وفـي أيّ حال يقول للأمر الذي يقضيه كُنْ؟ أفـي حال عدمه, وتلك حال لا يجوز فـيها أمره, إذ كان مـحالاً أن يأمر إلا الـمأمور, فإذا لـم يكن الـمأموم استـحال الأمر وكما مـحال الأمر من غير آمر, فكذلك مـحال الأمر من آمر إلا لـمأمور. أم يقول له ذلك فـي حال وجوده, وتلك حال لا يجوز أمره فـيها بـالـحدوث, لأنه حادث موجود, ولا يقال للـموجود: كن موجودا إلا بغير معنى الأمر بحدوث عينه؟ قـيـل: قد تنازع الـمتأوّلون فـي معنى ذلك ونـحن مخبرون بـما قالوا فـيه, والعلل التـي اعتلّ بها كل فريق منهم لقوله فـي ذلك:
قال بعضهم: ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن أمره الـمـحتوم علـى وجه القضاء لـمن قضى علـيه قضاء من خـلقه الـموجودين أنه إذا أمره بأمر نفذ فـيه قضاؤه, ومضى فـيه أمره, نظير أمْرِهِ من أمَرَ من بنـي إسرائيـل بأن يكونوا قردة خاسئين, وهم موجودون فـي حال أمره إياهم بذلك, وحتـم قضائه علـيهم بـما قضى فـيهم, وكالذي خسف به وبداره الأرض, وما أشبه ذلك من أمره وقضائه فـيـمن كان موجودا من خـلقه فـي حال أمره

الـمـحتوم علـيه. فوجه قائلوا هذا القول قوله: وَإِذَا قَضَى أمْرا فَـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ إلـى الـخصوص دون العموم.

وقال آخرون: بل الآية عام ظاهرها, فلـيس لأحد أن يحيـلها إلـى بـاطن بغير حجة يجب التسلـيـم لها, وقال: إن الله عالـم بكل ما هو كائن قبل كونه. فلـما كان ذلك كذلك كانت الأشياء التـي لـم تكن وهي كائنة لعلـمه بها قبل كونها, نظائر التـي هي موجودة, فجاز أن يقول لها: «كونـي», ويأمرها بـالـخروج من حال العدم إلـى حال الوجود, لتصوّر جميعها له, ولعلـمه بها فـي حال العدم.

وقال آخرون: بل الآية وإن كان ظاهرها ظاهر عموم, فتأويـلها الـخصوص لأن الأمر غير جائز إلا لـمأمور علـى ما وصفت قبل.

قالوا: وإذا كان ذلك كذلك, فـالآية تأويـلها: وإذا قضى أمرا من إحياء ميت, أو إماتة حيّ, ونـحو ذلك, فإنـما يقول لـحيّ كُنْ ميتا, أو لـميت كُنْ حيا, وما أشبه ذلك من الأمر.

وقال آخرون: بل ذلك من الله عزّ وجل خبر عن جميع ما ينشئه ويكوّنه أنه إذا قضاه وخـلقه وأنشأه كان ووُجِدَ. ولا قول هنالك عند قائلـي هذه الـمقالة إلا وجود الـمخـلوق, وحدوث الـمقضي وقالوا: إنـما قول الله عزّ وجل: وَإِذَا قَضَى أمْرا فَـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ نظير قول القائل: قال فلان برأسه, وقال بـيده إذا حرّك رأسه أو أومأ بـيده ولـم يقل شيئا. وكما قال أبو النـجم:

وقَالَتِ الأنْسَاعُ للبَطْنِ الـحَقِقِدْما فآضَتْ كالفَنِـيقِ الـمُـحْنِق

ولا قول هنالك, وإنـما عنى أن الظهر قد لـحق بـالبطن. وكما قال عمرو بن حُمـمة الدوسي:

فأصْبَحْتُ مِثْلَ النّسْرِ طارَتْ فِرَاخُهُإذَا رَامَ تَطْيارا يُقال لَهُ قَعِ

ولا قول هناك, وإنـما معناه: إذا رام طيرانا ووقع, وكما قال الآخر:

امْتَلأ الـحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِـيسَيْلاً رُوَيْدا قَدْ مَلأتُ بَطْنِـي

وأولـى الأقوال بـالصواب فـي قوله: وَإِذَا قَضَى أمْرا فـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ أن يقال: هو عامّ فـي كل ما قضاه الله وبرأه, لأن ظاهر ذلك ظاهر عموم, وغير جائز إحالة الظاهر إلـى البـاطن من التأويـل بغير برهان لـما قد بـينا فـي كتابنا: «كتاب البـيان عن أصول الأحكام». وإذْ كان ذلك كذلك, فأمر الله جل وعز لشيء إذا أراد تكوينه موجودا بقوله: كُنْ فـي حال إرادته إياه مكوّنا, لا يتقدّم وجودَ الذي أراد إيجاده وتكوينه إرادته إياه, ولا أمره بـالكون والوجود, ولا يتأخر عنه. فغير جائز أن يكون الشيء مأمورا بـالوجود مرادا كذلك إلا وهو موجود, ولا أن يكون موجودا إلا وهو مأمور بـالوجود مراد كذلك. ونظير قوله: وَإِذَا قَضَى أمْرا فَـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ قوله: وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ تَقُومَ السمّاءُ والأرْض بأمْرِهِ ثُمّ إذَا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إذَا أنْتُـمْ تَـخْرُجُونَ بأن خروج القوم من قبورهم لا يتقدّم دعاء الله, ولا يتأخر عنه.

ويسأل من زعم أن قوله: وَإِذَا قَضَى أمْرا فَـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ خاصّ فـي التأويـل اعتلالاً بأن أمر غير الـموجود غير جائز, عن دعوة أهل القبور قبل خروجهم من قبورهم, أم بعده؟ أم هي فـي خاصّ من الـخـلق؟ فلن يقول فـي ذلك قولاً إلا ألزم فـي الآخر مثله.

ويسأل الذين زعموا أن معنى قوله جل ثناؤه: فَـاِنّـمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ نظير قول القائل: قال فلان برأسه أو بـيده, إذا حرّكه وأومأ, ونظير قول الشاعر:

تَقُولُ إذَا دَرأتُ لَهَا وَضِينِـيأهَذَا دِينُهُ أبَدا وَدِينِـي

وما أشبه ذلك؟ فإنهم لا صواب اللغة أصابوا ولا كتاب الله, وما دلت علـى صحته الأدلة اتبعوا. فـيقال لقائلـي ذلك: إن الله تعالـى ذكره أخبر عن نفسه أنه إذا قضى أمرا قال له: «كُنْ», أفتنكرون أن يكون قائلاً ذلك؟ فإن أنكروه كذّبوا بـالقرآن, وخرجوا من الـملة, وإن قالوا: بل نقرّ به, ولكنا نزعم أن ذلك نظير قول القائل: قال الـحائط فمال ولا قول هنالك, وإنـما ذلك خبر عن ميـل الـحائط. قـيـل لهم: أفتـجيزون للـمخبر عن الـحائط بـالـميـل أن يقول: إنـما قول الـحائط إذا أراد أن يـميـل أن يقول هكذا فـيـميـل؟

فإن أجازوا ذلك خرجوا من معروف كلام العرب, وخالفوا منطقها وما يعرف فـي لسانها. وإن قالوا: ذلك غير جائز, قـيـل لهم: إن الله تعالـى ذكره أخبرهم عن نفسه أن قوله للشيء إذا أراده أن يقول له كُنْ فـيكون, فأعلـم عبـاده قوله الذي يكون به الشيء وَوَصَفَه ووَكّده. وذلك عندكم غير جائز فـي العبـارة عما لا كلام له ولا بـيان فـي مثل قول القائل: قال الـحائط فمال. فكيف لـم يعلـموا بذلك فَرْقَ ما بـين معنى قول الله: وَإذَا قَضَى أمْرا فـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونَ وقول القائل: قال الـحائط فمال؟ وللبـيان عن فساد هذه الـمقالة موضع غير هذا نأتـي فـيه علـى القول بـما فـيه الكفـاية إن شاء الله.

وإذا كان الأمر فـي قوله جل ثناؤه: وَإذَا قَضَى أمْرا فَـاِنّـمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ هو ما وصفنا من أن حال أمره الشيء بـالوجود حال وجود الـمأمور بـالوجود, فتبـين بذلك أن الذي هو أولـى بقوله: فَـيَكُونُ رفع علـى العطف علـى قوله: يقول لأن القول والكون حالهما واحد. وهو نظير قول القائل: تاب فلان فـاهتدى, واهتدى فلان فتاب لأنه لا يكون تائبـا إلا وهو مهتد, ولا مهتديا إلا وهو تائب. فكذلك لا يـمكن أن يكون الله آمرا شيئا بـالوجود إلا وهو موجود, ولا موجودا إلا وهو آمره بـالوجود ولذلك استـجاز من استـجاز نَصْبَ «فَـيَكُونَ» مَنْ قَرأ: إنّـمَا قَوْلُنَا لِشَيْءِ إذَا أرَدْنَاهُ أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَـيَكُونَ بـالـمعنى الذي وصفنا علـى معنى: أن نقول فـيكون.

وأما رَفْعُ من رَفَعَ ذلك, فإنه رأى أن الـخبر قد تـمّ عند قوله: إذَا أَرَدْنَاهُ أنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ إذ كان معلوما أن الله إذا حتـم قضاءه علـى شيء كان الـمحتوم علـيه موجودا, ثم ابتدأ بقوله: «فـيكون, كما قال جل ثناؤه: لِنُبَـيّنَ لَكُمْ وَنُقِرّ فِـي الأرْحَامِ مَا نَشَاءُ, وكما قال ابن أحمر:

يُعالِـجُ عاقِرا أعْيَتْ عَلَـيْهِ لِـيُـلْقِحَها فَـيَنْتِـجُها حُوَارَا

يريد: فإذا هو ينتـجها حُوَارا.

فمعنى الآية إذا: وقالوا اتـخذ الله ولدا, سبحانه أن يكون له ولد بل هو مالك السموات والأرض وما فـيهما, كل ذلك مقرّ له بـالعبودية بدلالته علـى وحدانـيته. وأنّى يكون له ولد, وهو الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل, كالذي ابتدع الـمسيح من غير والد بقدرته وسلطانه, الذي لا يتعذّر علـيه به شيء أراده بل إنـما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه: «كُنْ»,

فـيكون موجودا كما أراده وشاءه. فكذلك كان ابتداعه الـمسيح وإنشاءه إذْ أراد خـلقه من غير والد.

الآية : 118

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَآ آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيّنّا الاَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }

اختلف أهل التأويـل فـيـمن عنى الله بقوله: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ فقال بعضهم: عنى بذلك النصارى. ذكر من قال ذلك:

1413ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله جل وعز: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ لَوْلا يُكَلّـمُنا اللّهُ أوْ تَأتِـينا آيَةٌ قال: النصارى تقوله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله وزاد فـيه وَقَالَ الّذِينَ لا يَعْلَـمُونَ: النّصَارَى.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك الـيهود الذين كانوا فـي زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذكر من قال ذلك:

1414ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير. وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة بن الفضل, قالا جميعا: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قال رافع بن حريـملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت رسولاً من عند الله كما تقول, فقل لله عز وجلّ فلـيكلـمنا حتـى نسمع كلامه فأنزل الله عز وجل فـي ذلك من قوله: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ أوْ تَأتِـينَا آيَةٌ الآية كلها.

وقال آخرون: بل عنى بذلك مشركي العرب. ذكر من قال ذلك:

1415ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ أوْ تَأتِـينا آيَةٌ وهم كفـار العرب.

1416ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ قال: هم كفـار العرب.

1417ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ أما الذين لا يعلـمون: فهم العرب.

وأولـى هذه الأقوال بـالصحة والصواب قول القائل: إن الله تعالـى عنى بقوله: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ النصارى دون غيرهم لأن ذلك فـي سياق خبر الله عنهم, وعن افترائهم علـيه وادّعائهم له ولدا. فقال جل ثناؤه, مخبرا عنهم فـيـما أخبر عنهم من ضلالتهم أنهم مع افترائهم علـى الله الكذب بقوله: اتّـخَذَ اللّهُ وَلَدا تـمنوا علـى الله الأبـاطيـل, فقالوا جهلاً منهم بـالله وبـمنزلتهم عنده وهم بـالله مشركون: لولا يكلـمنا الله كما يكلـم رسوله وأنبـياءه, أو تأتـينا آية كما أتتهم ولا ينبغي الله أن يكلـم إلا أولـياءه, ولا يؤتـي آيةً معجزةً علـى دعوى مدّع إلا لـمن كان مـحقّا فـي دعواه وداعيا إلـى الله وتوحيده. فأما من كان كاذبـا فـي دعواه وداعيا إلـى الفرية علـيه وادّعاء البنـين والبنات له, فغير جائز أن يكلـمه الله جل ثناؤه, أو يؤتـيه آية

معجزة تكون مؤيدة كذبه وفريته علـيه. وقال الزاعم: إن الله عنى بقوله: وَقَالَ الّذِينَ لاَ يَعْلَـمُونَ العرب, فإنه قائل قولاً لا خبر بصحته ولا برهان علـى حقـيقته فـي ظاهر الكتاب. والقول إذا صار إلـى ذلك كان واضحا خطؤه, لأنه ادّعى ما لا برهان علـى صحته, وادّعاءُ مثل ذلك لن يتعذّر علـى أحد.

وأما معنى قوله: لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ فإنه بـمعنى: هلاّ يكلـمنا الله كما قال الأشهب بن رميـلة:

تَعُدّونَ عَقْرَ النّـيبِ أفْضَلَ مَـجْدِكُمْبَنِـي ضَوْطَرَي لَوْلاَ الكَميّ الـمُقَنّعا

بـمعنى: فهلاّ تعدّون الكمي الـمقنع؟ كما:

1418ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لَوْلا يُكَلّـمُنَا اللّهُ قال: فهلاّ يكلـمنا الله.

قال أبو جعفر: فأما الآية فقد ثبت فـيـما قبل معنى الآية أنها العلامة. وإنـما أخبر الله عنهم أنهم قالوا: هلاّ تأتـينا آية علـى ما نريده ونسأل, كما أتت الأنبـياء والرسل فقال عز وجلّ: كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ.

اختلف أهل التأويـل فـيـمن عنى الله بقوله: كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ, فقال بعضهم فـي ذلك بـما:

1419ـ حدثنـي به مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِثْلَ قَوْلِهِمْ هم الـيهود.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الـيهود.

وقال آخرون: هم الـيهود والنصارى, لأن الذين لا يعلـمون هم العرب. ذكر من قال ذلك:

1420ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة: قالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يعنـي الـيهود والنصارى وغيرهم.

1421ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: قالوا يعنـي العرب, كما قالت الـيهود والنصارى من قبلهم.

1422ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ يعنـي الـيهود والنصارى.

قال أبو جعفر: قد دللنا علـى أن الذين عنى الله تعالـى ذكره بقوله: وقَالَ الّذِينَ لا يَعْلَـمُونَ لَوْلاَ يُكَلّـمُنَا اللّهُ هم النصارى, والذين قالت مثل قولهم هم الـيهود, وسألت موسى صلى الله عليه وسلم أن يريهم ربهم جهرة, وأن يسمعهم كلام ربهم, كما قد بـينا فـيـما مضى من كتابنا هذا, وسألوا من الاَيات ما لـيس لهم مسألته تـحكّما منهم علـى ربهم, وكذلك تـمنت النصارى علـى ربها تـحكما منها علـيه أن يسمعهم كلامه ويريهم ما أرادوا من الاَيات. فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا من القول فـي ذلك مثل الذي قالته الـيهود وتـمنت علـى ربها مثل أمانـيها, وأن قولهم الذي قالوه من ذلك إنـما يشابه قول الـيهود من أجل تشابه قلوبهم فـي الضلالة والكفر بـالله. فهم وإن اختلفت مذاهبهم فـي كذبهم علـى الله وافترائهم علـيه,

فقلوبهم متشابهة فـي الكفر بربهم والفِرْيَة علـيه, وتـحكمهم علـى أنبـياء الله ورسله علـيهم السلام. وبنـحو ما قلنا فـي ذلك قال مـجاهد.

1423ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قلوب النصارى والـيهود.

وقال غيره: معنى ذلك تشابهت قلوب كفـار العرب والـيهود والنصارى وغيرهم. ذكر من قال ذلك:

1424ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: تَشَابَهت قلوبُهم يعنـي العرب والـيهود والنصارى وغيرهم.

1425ـ حدثنـي الـمثنى, حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ يعنـي العرب والـيهود والنصارى وغيرهم.

وغير جائز فـي قوله: تَشَابَهَتْ التثقـيـل, لأن التاء التـي فـي أوّلها زائدة أدخـلت فـي قوله: «تفـاعل», وإن ثقلت صارت تاءين ولا يجوز إدخال تاءين زائدتـين علامة لـمعنى واحد, وإنـما يجوز ذلك فـي الاستقبـال لاختلاف معنى دخولهما, لأن إحداهما تدخـل علـما للاستقبـال, والأخرى منها التـي فـي «تفـاعل», ثم تدغم إحداهما فـي الأخرى فتثقل فـيقال: تشابه بعد الـيوم قلوبنا. فمعنى الآية: وقالت النصارى الـجهال بـالله وبعظمته: هلاّ يكلـمنا الله ربنا كما كلـم أنبـياءه ورسله, أو تـجيئنا علامة من الله نعرف بها صدق ما نـحن علـيه علـى ما نسأل ونريد؟ قال الله جل ثناؤه: فكما قال هؤلاء الـجهال من النصارى وتـمنوا علـى ربهم. قال مَنْ قبلهم من الـيهود, فسألوا ربهم أن يريهم الله نفسه جهرة, ويؤتـيهم آية, واحتكموا علـيه وعلـى رسله, وتـمنوا الأمانـي. فـاشتبهت قلوب الـيهود والنصارى فـي تـمرّدهم علـى الله وقلة معرفتهم بعظمته وجرأتهم علـى أنبـيائه ورسله, كما اشتبهت أقوالهم التـي قالوها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قَدْ بَـيّنا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: قَدْ بَـيّنّا الاَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ قد بـينا العلامات التـي من أجلها غضب الله علـى الـيهود وجعل منهم القردة والـخنازير, وأعدّ لهم العذاب الـمهين فـي معادهم, والتـي من أجلها أخزى الله النصارى فـي الدنـيا, وأعدّ لهم الـخزي والعذاب الألـيـم فـي الاَخرة, والتـي من أجلها جعل سكان الـجنان الذين أسلـموا وجوههم لله وهم مـحسنون فـي هذه السورة وغيرها. فـاعْلِـموا الأسبـاب التـي من أجلها استـحقّ كل فريق منهم من الله ما فعل به من ذلك, وخصّ الله بذلك القوم الذين يوقنون لأنهم أهل التثبت فـي الأمور, والطالبون معرفة حقائق الأشياء علـى يقـين وصحة. فأخبر الله جل ثناؤه أنه بـيّن لـمن كانت هذه الصفة صفته ما بـيّن من ذلك لـيزول شكه, ويعلـم حقـيقة الأمر إذْ كان ذلك خبرا من الله جل ثناؤه, وخبر الله الـخبر الذي لا يعذر سامعه بـالشكّ فـيه. وقد يحتـمل غيره من الأخبـار ما يحتـمل من الأسبـاب العارضة فـيه من السهو والغلط والكذب, وذلك منفـيّ عن خبر الله عز وجل.

الآية : 119

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{إِنّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }

ومعنى قوله جلّ ثناؤه: إنّا أرْسَلْناكَ بـالـحَقّ بَشِيرا وَنَذِيرا إنا أرسلناك يا مـحمد بـالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان وهو الـحقّ مبشرا

من اتبعك فأطاعك وقَبِلَ منك ما دعوته إلـيه من الـحقّ, بـالنصر فـي الدنـيا, والظفر بـالثواب فـي الآخرة, والنعيـم الـمقـيـم فـيها ومنذرا من عصاك فخالفك وردّ علـيك ما دعوته إلـيه من الـحقّ بـالـخزي فـي الدنـيا, والذلّ فـيها, والعذاب الـمهين فـي الآخرة.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلا تُسْألُ عَنْ أصْحَاب الـجَحِيـمِ وقال أبو جعفر: قرأت عامة القراء: وَلا تُسألُ عَنْ أصْحَابِ الـجَحِيـم بضم التاء من «تُسأل» ورفع اللام منها علـى الـخبر, بـمعنى: يا مـحمد إنا أرسلناك بـالـحقّ بشيرا ونذيرا, فبلغت ما أرسلت به, وإنـما علـيك البلاغ والإنذار, ولست مسئولاً عمن كفر بـما أتـيته به من الـحقّ وكان من أهل الـجحيـم.

وقرأ ذلك بعض أهل الـمدينة: «وَلا تَسْألْ» جزما بـمعنى النهي مفتوح التاء من «تَسأل», وجَزْم اللام منها. ومعنى ذلك علـى قراءة هؤلاء: إنا أرسلناك بـالـحقّ بشيرا ونذيرا لتبلغ ما أرسلت به, لا لتسأل عن أصحاب الـجحيـم, فلا تسألْ عن حالهم. وتأوّل الذين قرءوا هذه القراءة ما:

1426ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن موسى بن عبـيدة, عن مـحمد بن كعب, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَـيْتَ شِعْرِي ما فَعَلَ أبَوَايَ» فنزلت وَلا تُسألُ عَنْ أصْحابِ الـجَحِيـمِ.

1427ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا الثوري, عن موسى بن عبـيدة عن مـحمد بن كعب القرظي, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَـيْتَ شِعْرِي ما فَعَلَ أبَوَايَ لَـيْتَ شِعْرِي ما فَعَلَ أبَوَايَ لَـيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أبَوايَ»» ثلاثا, فنزلت: إنّا أرْسَلْنَاكَ بـالـحَقّ بَشِيرا وَنَذِيرا وَلاَ تُسألُ عَنْ أصْحابِ الـجَحِيـمِ فما ذكرهما حتـى توفـاه الله.

1428ـ حدثنا القاسم قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, عن ابن جريج, قال: أخبرنـي داود بن أبـي عاصم, أن النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: «لَـيْتَ شِعْرِي أيْنَ أبَوَايَ؟» فنزلت: إنّا أرْسَلْنَاكَ بـالـحَقّ بَشِيرا وَنَذِيرا وَلا تُسألُ عَنْ أصْحابِ الـجَحِيـمِ.

والصواب عندي من القراءة فـي ذلك قراءة من قرأ بـالرفع علـى الـخبر لأن الله جل ثناؤه قصّ قصص أقوام من الـيهود والنصارى, وذكر ضلالتهم, وكُفْرَهم بـالله, وجراءَتهم علـى أنبـيائه, ثم قال لنبـيه صلى الله عليه وسلم: إنا أرسلناك يا مـحمد بشيرا من آمن بك واتبعك مـمن قصصت علـيك أنبـاءه ومن لـم أقصص علـيك أنبـاءه, ونذيرا من كفر بك وخالفك, فبلّغ رسالتـي, فلـيس علـيك من أعمال من كفر بك بعد إبلاغك إياه رسالتـي تبعة, ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك. ولـم يجر لـمسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عن أصحاب الـجحيـم ذكر, فـيكون لقوله: وَلا تُسألُ عَنْ أصْحَابِ الـجَحِيـم وجهٌ يوجّه إلـيه.

وإنـما الكلام موجه معناه إلـى ما دلّ علـيه ظاهره الـمفهوم, حتـى تأتـي دلالة بـيّنة تقوم بها الـحجة علـى أن الـمراد به غير ما دلّ علـيه ظاهره فـيكون حينئذ مسلـما للـحجة الثابتة بذلك. ولا خبر تقوم به الـحجة علـى أن النبـيّ صلى الله عليه وسلم نُهي عن أن يسأل فـي هذه الآية عن أصحاب الـجحيـم, ولا دلالة تدلّ علـى أن ذلك كذلك فـي ظاهر التنزيـل.

والواجب أن يكون تأويـل ذلك الـخبر علـى ما مضي ذكره قبل هذه الآية وعمن ذكر بعدها من الـيهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر, دون النهي عن الـمسألة عنهم.

فإن ظنّ ظانّ أن الـخبر الذي رُوي عن مـحمد بن كعب صحيح, فإن فـي استـحالة الشكّ من الرسول علـيه السلام فـي أن أهل الشرك من أهل الـجحيـم, وأن أبويه كانا منهم, ما يدفع صحة ما قاله مـحمد بن كعب إن كان الـخبر عنه صحيحا, مع أن ابتداء الله الـخبر بعد قوله: إنّا أرْسَلْنَاكَ بـالـحَقّ بَشِيرا وَنَذِيرا بـالواو بقوله: ولا تسأل عن أصحاب الـجحيـم, وتركه وصل ذلك بأوله بـالفـاء, وأن يكون: «إنا أرسلناك بـالـحقّ بشيرا ونذيرا», ولا تسأل عن أصحاب الـجحيـم, أوضح الدلائل علـى أن الـخبر بقوله: «ولا تسأل», أولـى من النهي, والرفع به أولـى من الـجزم.

وقد ذكر أنها فـي قراءة أبـيّ: «وَما تُسْألُ» وفـي قراءة ابن مسعود: «وَلَنْ تُسْألَ» وكلتا هاتـين القراءتـين تشهد بـالرفع والـخبر فـيه دون النهي.

وقد كان بعض نـحويـي البصرة يوجه قوله: وَلا تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الـجَحِيـمِ إلـى الـحال, كأنه كان يرى أن معناه: إنا أرسلناك بـالـحقّ بشيرا ونذيرا غير مسئول عن أصحاب الـجحيـم. وذلك إذا ضم التاء, وقرأه علـى معنى الـخبر, وكان يجيز علـى ذلك قراءته: «ولا تَسْألُ», بفتـح التاء وضم اللام علـى وجه الـخبر بـمعنى: إنا أرسلناك بـالـحقّ بشيرا ونذيرا, غير سائل عن أصحاب الـجحيـم. وقد بـينا الصواب عندنا فـي ذلك.

وهذان القولان اللذان ذكرتهما عن البصري فـي ذلك يرفعهما ما رُوي عن ابن مسعود وأبـيّ من القراءة لأن إدخالهما ما أدخلا من ذلك من ما, ولن يدلّ علـى انقطاع الكلام عن أوله وابتداء قوله: وَلا تُسْألُ وإذا كان ابتداءً لـم يكن حالاً. وأما أصحاب الـجحيـم, فـالـجحيـم هي النار بعينها إذا شبّت وقودها, ومنه قول أمية بن أبـي الصلت:

إذا شُبّتْ جَهَنّـمُ ثُمّ دَارَتْوأعْرَضَ عَنْ قَوَابِسِها الـجَحِيـمُ

الآية : 120

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَلَنْ تَرْضَىَ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النّصَارَىَ حَتّىَ تَتّبِعَ مِلّتَهُمْ قُلْ إِنّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَلَئِنِ اتّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ الّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ }

يعنـي بقوله جل ثناؤه: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الـيَهُودُ وَلا النّصَارَى حتـى تَتّبِعَ مِلّتَهُمْ: ولـيست الـيهودُ يا مـحمد ولا النصارى براضية عنك أبدا, فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم, وأقبل علـى طلب رضا الله فـي دعائهم إلـى ما بعثك الله به من الـحقّ فإن الذي تدعوهم إلـيه من ذلك لهو السبـيـل إلـى الاجتـماع فـيه معك علـى الألفة والدين القـيـم. ولا سبـيـل لك إلـى إرضائهم بـاتبـاع ملتهم لأن الـيهودية ضد النصرانـية, والنصرانـية ضد الـيهودية, ولا تـجتـمع النصرانـية والـيهودية فـي شخص واحد فـي حال واحدة, والـيهود والنصارى لا تـجتـمع علـى الرضا بك, إلا أن تكون يهوديا نصرانـيا, وذلك مـما لا يكون منك أبدا, لأنك شخص واحد, ولن يجتـمع فـيك دينان متضادّان فـي حال واحدة. وإذا لـم يكن إلـى اجتـماعهما فـيك فـي وقت واحد سبـيـل, لـم يكن لك إلـى إرضاء الفريقـين سبـيـل. وإذا لـم يكن

لك إلـى ذلك سبـيـل, فـالزم هدى الله الذي لـجمع الـخـلق إلـى الألفة علـيه سبـيـل, وأما الـملة فإنها الدين وجمعها الـملل.
ثم قال جل ثناؤه لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا مـحمد لهؤلاء النصارى والـيهود الذين قالوا: «لَنْ يَدْخُـلَ الـجَنّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُودا أو نَصَارَى: إنّ هُدَى اللّهِ هُوَ الهُدَى يعنـي أن بـيان الله هو البـيان الـمقنع والقضاء الفـاصل بـيننا, فهلـمّوا إلـى كتاب الله وبـيانه الذي بـيّن فـيه لعبـاده ما اختلفوا فـيه, وهو التوراة التـي تقرّون جميعا بأنها من عند الله, يتضح لكم فـيها الـمـحقّ منا من الـمبطل, وأيّنا أهل الـجنة, وأينا أهل النار, وأينا علـى الصواب, وأينا علـى الـخطأ وإنـما أمر الله نبـيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلـى هدى الله وبـيانه, لأن فـيه تكذيب الـيهود والنصارى فـيـما قالوا من أن الـجنة لن يدخـلها إلا من كان هودا أو نصارى, وبـيان أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم, وأن الـمكذّب به من أهل النار دون الـمصدّق به.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَئِنْ اتّبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الّذِي جاءَكَ مِنَ العِلْـمِ ما لَكَ مِنَ اللّهِ مِنْ وَلِـيّ وَلا نَصِيرٍ.
يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَلَئِنْ اتّبَعْتَ يا مـحمد هوى هؤلاء الـيهود والنصارى, فـيـما يرضيهم عنك من تهوّد وتنصّر, فصرت من ذلك إلـى إرضائهم, ووافقت فـيه مـحبتهم من بعد الذي جاءك من العلـم بضلالتهم وكفرهم بربهم, ومن بعد الذي اقتصصت علـيك من نبئهم فـي هذه السورة, ما لك من الله من ولـيّ. يعنـي بذلك: لـيس لك يا مـحمد من ولـيّ يـلـي أمرك, وقَـيّـم يقوم به, ولا نصير ينصرك من الله, فـيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته, ويـمنعك من ذلك إن أحلّ بك ذلك ربك. وقد بـينا معنى الولـيّ والنصير فـيـما مضى قبل.
وقد قـيـل إن الله تعالـى ذكره أنزل هذه الآية علـى نبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم لأن الـيهود والنصارى دعته إلـى أديانها, وقال كل حزب منهم: إن الهدى هو ما نـحن علـيه دون ما علـيه غيرنا من سائر الـملل. فوعظه الله أن يفعل ذلك, وعلّـمه الـحجة الفـاصلة بـينهم فـيـما ادّعى كل فريق منهم.

الآية : 121

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
اختلف أهل التأويـل فـي الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله: الّذِينَ آتَـيْنَاهُمُ الكِتابَ فقال بعضهم: هم الـمؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم, وبـما جاء به من أصحابه: ذكر من قال ذلك:
1429ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, عن سعيد, عن قتادة قوله: الّذِينَ آتَـيْنَاهُمُ الكِتابَ هؤلاء أصحاب نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم, آمنوا بكتاب الله وصدّقوا به.
وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علـماء بنـي إسرائيـل الذين آمنوا بـالله وصدّقوا رُسُلَه, فأقرّوا بحكم التوراة, فعملوا بـما أمر الله فـيها من اتّبـاع مـحمد صلى الله عليه وسلم, والإيـمان به, والتصديق بـما جاء به من عند الله. ذكر من قال ذلك:

1430ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: الّذِينَ آتَـيْنَاهُمُ الكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ فـاولَئِكَ هُمُ الـخاسِرُونَ قال: من كفر بـالنبـيّ صلى الله عليه وسلم من يهود فأولئك هم الـخاسرون.

وهذا القول أولـى بـالصواب من القول الذي قاله قتادة لأن الاَيات قبلها مضت بأخبـار أهل الكتابـين, وتبديـل من بدل منهم كتاب الله, وتأوّلهم إياه علـى غير تأويـله, وادّعائهم علـى الله الأبـاطيـل. ولـم يَجْرِ لأصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم فـي الآية التـي قبلها ذكر, فـيكون قوله: الّذِينَ آتَـيْنَاهُمُ الكِتابَ موجها إلـى الـخبر عنهم, ولا لهم بعدها ذكر فـي الآية التـي تتلوها, فـيكون موجها ذلك إلـى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء قصص غيرهم, ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسلـيـم له. فإذا كان ذلك كذلك, فـالذي هو أولـى بـمعنى الآية أن يكون موجها إلـى أنه خبر عمن قَصّ الله جل ثناؤه فـي الآية قبلها والآية بعدها, وهم أهل الكتابـين: التوراة والإنـجيـل. وإذا كان ذلك كذلك, فتأويـل الآية: الذين آتـيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا مـحمد, وهو التوراة, فقرءوه واتبعوا ما فـيه, فصدّقوك وآمنوا بك, وبـما جئت به من عندي, أولئك يتلونه حقّ تلاوته. وإنـما أدخـلت الألف واللام فـي «الكتاب» لأنه معرفة, وقد كان النبـيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عرفوا أيّ الكتب عنى به.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ.

اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله عزّ وجل: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ فقال بعضهم: معنى ذلك يتبعونه حقّ اتبـاعه. ذكر من قال ذلك:

1431ـ حدثنـي مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنـي ابن أبـي عديّ, وعبد الأعلـى, وحدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا ابن أبـي عديّ جميعا, عن داود, عن عكرمة, عن ابن عبـاس: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ يتبعونه حَقّ اتبـاعه.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الوهاب, قال: حدثنا داود, عن عكرمة بـمثله.

وحدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا داود بن أبـي هند, عن عكرمة بـمثله.

1432ـ حدثنـي الـحسن بن عمرو العنقزي, قال: حدثنـي أبـي, عن أسبـاط, عن السدي, عن أبـي مالك, عن ابن عبـاس فـي قول الله عز وجل: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يحلون حلاله ويحرّمون حرامه ولا يحرفون.

حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: قال أبو مالك: إن ابن عبـاس قال فـي: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ فذكر مثله إلا أنه قال: ولا يحرّفونه عن مواضعه.

1433ـ حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا الـمؤمل, قال: حدثنا سفـيان قال: حدثنا يزيد, عن مرّة, عن عبد الله فـي قول الله عز وجل: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه.

1434ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, عن أبـي العالـية, قال: قال عبد الله بن مسعود: والذي نفسي بـيده إن حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه, ويقرأه كما أنزله الله, ولا يحرّف الكلـم عن مواضعه, ولا يتأول منه شيئا علـى غير تأويـله.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة ومنصور بن الـمعتـمر, عن ابن مسعود فـي قوله: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ أن يحلّ حلاله ويحرّم حرامه, ولا يحرّفه عن مواضعه.

حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا الزبـيري, قال: حدثنا عبـاد بن العوّام عمن ذكره, عن عكرمة, عن ابن عبـاس: يَتْلُونَهُ حَق تِلاوَتِهِ يتبعونه حقّ اتبـاعه.

1435ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا عبـاد بن العوّام, عن الـحجاح, عن عطاء, بـمثله.

1436ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان, عن منصور, عن أبـي رزين فـي قوله: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه.

حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا مؤمل, قال: حدثنا سفـيان, وحدثنـي الـمثنى, قال: حدثنـي أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, وحدثنـي نصر بن عبد الرحمن الأزدي, قال: حدثنا يحيى بن إبراهيـم, عن سفـيان قالوا جميعا: عن منصور, عن أبـي رزين, مثله.

1437ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن مغيرة, عن مـجاهد: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ قال: عَمَلاً به.

1438ـ حدثنـي يعقوب, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا عبد الـملك, عن قـيس بن سعد: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه ألـم تر إلـى قوله: وَالقَمَرِ إذَا تَلاها يعنـي الشمس إذا تبعها القمر.

1439ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا سويد بن نصر, قال: أخبرنا ابن الـمبـارك, عن عبد الـملك بن أبـي سلـيـمان, عن عطاء وقـيس بن سعد, عن مـجاهد فـي قوله: يَتْلُونَهُ حَق تِلاَوَتِهِ قال: يعملون به حق عمله.

1440ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عمرو بن عون, قال: أخبرنا هشيـم, عن عبد الـملك, عن قـيس بن سعد, عن مـجاهد, قال: يتبعونه حق اتبـاعه.

حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ يعملون به حقّ عمله.

حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا مؤمل بن إسماعيـل, قال: حدثنا حماد بن زيد, عن أيوب, عن مـجاهد فـي قوله: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه.

حدثنـي عمرو, قال: حدثنا أبو قتـيبة, قال: حدثنا الـحسن بن أبـي جعفر, عن أبـي أيوب, عن أبـي الـخـلـيـل, عن مـجاهد: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه.

حدثنا عمرو, قال: حدثنا يحيى القطان, عن عبد الـملك, عن عطاء قوله: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه, يعملون به حقّ عمله.

1441ـ حدثنا سفـيان بن وكيع, قال: حدثنـي أبـي, عن الـمبـارك, عن الـحسن: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ قال: يعملون بـمـحكمه ويؤمنون بـمُتشابهه, ويكلون ما أشكل علـيهم إلـى عالـمه.

1442ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ قال: أحلوا حلاله, وحرّموا حرامه, وعملوا بـما

فـيه ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: إن حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله, ويحرّم حرامه, وأن يقرأه كما أنزله الله عز وجل, ولا يحرّفه عن مواضعه.

حدثنا عمرو, قال: حدثنا أبو داود, قال: حدثنا الـحكم بن عطية, سمعت قتادة يقول: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه, قال: اتبـاعه يحلون حلاله, ويحرّمون حرامه, ويقرءونه كما أنزل.

1443ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا عمرو بن عون, قال: أخبرنا هشيـم عن داود, عن عكرمة فـي قوله: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ قال: يتبعونه حقّ اتبـاعه, أما سمعت قول الله عز وجل: وَالقَمَرِ إذَا تَلاهَا؟ قال: إذا تبعها.

وقال آخرون يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاَوَتِهِ: يقرءونه حقّ قراءته.

والصواب من القول فـي تأويـل ذلك أنه بـمعنى: يتبعونه حقّ اتبـاعه, من قول القائل: ما زلت أتلو أثَره, إذا اتبع أثره لإجماع الـحجة من أهل التأويـل علـى أن ذلك تأويـله. وإذا كان ذلك تأويـله, فمعنى الكلام: الذين آتـيناهم الكتاب يا مـحمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبـما جئتهم به من الـحقّ من عندي, يتبعون كتابـي آتـيناهم الكتاب يا مـحمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبـما جئتهم به من الـحقّ من عندي, يتبعون كتابـي الذي أنزلته علـى رسولـي موسى صلوات الله علـيه, فـيؤمنون به, ويقرّون بـما فـيه من نعتك وصفتك, وأنك رسولـي فُرض علـيهم طاعتـي فـي الإيـمان بك والتصديق بـما جئتهم به من عندي, ويعملون بـما أحللتُ لهم, ويجتنبون ما حرّمت علـيهم فـيه, ولا يحرّفونه عن مواضعه ولا يبدّلونه ولا يغيرونه كما أنزلته علـيهم بتأويـل ولا غيره.

أما قوله: حَقّ تِلاَوَتِهِ فمبـالغة فـي صفة اتبـاعهم الكتاب ولزومهم العمل به, كما يقال: إن فلانا لعالـم حَقّ عالـم, وكما يقال: إن فلانا لفـاضلٌ كلّ فـاضل.

وقد اختلف أهل العربـية فـي إضافة «حقّ» إلـى الـمعرفة, فقال بعض نـحويـي الكوفة: غير جائزة إضافته إلـى معرفة لأنه بـمعنى «أيّ», وبـمعنى قولك: «أفضل رجل فلان», و«أفعل» لا يضاف إلـى واحد معرفة لأنه مبعض, ولا يكون الواحد الـمبعض معرفة. فأحالوا أن يقال: «مررت بـالرجل حقّ الرجل, ومررت بـالرجل جدّ الرجل», كما أحالوا «مررت بـالرجل أيّ الرجل», وأجازوا ذلك فـي «كل الرجل» و«عين الرجل» و«نفس الرجل», وقالوا: إنـما أجزنا ذلك لأن هذه الـحروف كانت فـي الأصل توكيدا, فلـما صِرْن مُدوحا تُركن مدوحا علـى أصولهن فـي الـمعرفة. وزعموا أن قوله: يَتْلُونَهُ حَقّ تِلاوَتِهِ إنـما جازت إضافته إلـى التلاوة, وهي مضافة إلـى معرفة لأن العرب تعتدّ بـالهاء إذا عادت إلـى نكرة بـالنكرة, فـيقولون: «مررت برجل واحد أمّه, ونسيج وحده, وسيد قومه». قالوا: فكذلك قوله: حَقّ تلاوَته إنـما جازت إضافة «حقّ» إلـى التلاوة وهي مضافة إلـى «الهاء», لاعتداد العرب ب«الهاء» التـي فـي نظائرها فـي عداد النكرات. قالوا: ولو كان ذلك حق التلاوة لوجب أن يكون جائزا: «مررت بـالرجل حقّ الرجل», فعلـى هذا القول تأويـل الكلام: الذين آتـيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوة.

وقال بعض نـحويـي البصرة: جائزةٌ إضافةُ حقّ إلـى النكرات مع النكرات, ومع الـمعارف إلـى الـمعارف وإنـما ذلك نظير قول القائل: مررت بـالرجل

غلام الرجل, وبرجل غلام رجل. فتأويـل الآية علـى قول هؤلاء: الذين آتـيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته.

وأولـى ذلك بـالصواب عندنا القول الأول لأن معنى قوله: حَقّ تِلاَوَتِهِ أيّ تلاوة, بـمعنى مدح التلاوة التـي تلوها وتفضيـلها. «وأيّ» غير جائزة إضافتها إلـى واحد معرفة عند جميعهم, وكذلك «حقّ» غير جائزة إضافتها إلـى واحد معرفة, وإنـما أضيف فـي حقّ تلاوته إلـى ما فـيه الهاء لـما وصفت من العلة التـي تقدم بـيانها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: أولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.

قال أبو جعفر: يعنـي جل ثناءه بقوله: أُولَئِكَ هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته.

وأما قوله: يُؤْمِنُونَ بِهِ فإنه يعنـي يصدّقون به. والهاء التـي فـي قوله «به» عائدة علـى الهاء التـي فـي «تلاوته», وهما جميعا من ذكر الكتاب الذي قاله الله: الّذِينَ آتَـيْنَاهُم الكِتابَ فأخبر الله جل ثناؤه أن الـمؤمن بـالتوراة هو الـمتبع ما فـيها من حلالها وحرامها, والعامل بـما فـيها من فرائض الله التـي فرضها فـيها علـى أهلها, وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته دون من كان مـحرّفـا لها مبدلاً تأويـلها مغيرا سننها تاركا ما فرض الله فـيها علـيه.

وإنـما وصف جل ثناؤه من وصف بـما وصف به من متبعي التوراة, وأثنى علـيهم بـما أثنى به علـيهم لأن فـي اتبـاعها اتبـاع مـحمد نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم وتصديقه, لأن التوراة تأمر أهلها بذلك وتـخبرهم عن الله تعالـى ذكره بنبوّته وفرض طاعته علـى جميع خـلق الله من بنـي آدم, وإن فـي التكذيب بـمـحمد التكذيب لها. فأخبر جل ثناؤه أن متبعي التوراة هم الـمؤمنون بـمـحمد صلى الله عليه وسلم, وهم العاملون بـما فـيها. كما:

1444ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قال: من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من بنـي إسرائيـل, وبـالتوراة, وأن الكافر بـمـحمد صلى الله عليه وسلم هو الكافر بها الـخاسر, كما قال جل ثناؤه: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فـاولَئِكَ هُمُ الـخاسِرُونَ.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَـاولَئِكَ هُمُ الـخَاسِرُونَ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ومن يكفر بـالكتاب الذي أخبر أنه يتلوه من آتاه من الـمؤمنـين حقّ تلاوته. ويعنـي بقوله جل ثناؤه: يَكْفُرْ يجحد ما فـيه من فرائض الله ونبوّة مـحمد صلى الله عليه وسلم, وتصديقه, ويبدّله, فـيحرّف تأويـله أولئك هم الذين خسروا علـمهم وعملهم فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله واستبدلوا بها سخط الله وغضبه.

وقال ابن زيد فـي قوله بـما:

1445ـ حدثنـي به يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فـاولَئِكَ هُمُ الـخَاسِرُونَ قال: من كفر بـالنبـي صلى الله عليه وسلم من يهود, فَـاولَئِكَ هُمُ الـخَاسِرُونَ.

الآية : 122

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنّي فَضّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }

وهذه الآية عظة من الله تعالـى ذكره للـيهود الذين كانوا بـين ظهرانـي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم, وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إلـيهم فـي صنعه بأوائلهم استعطافـا منه لهم علـى دينه, وتصديق رسوله مـحمد صلى الله عليه وسلم فقال: يا بنـي إسرائيـل اذكروا أياديّ لديكم, وصنائعي عندكم, واستنقاذي إياكم من أيدي عدوّكم فرعون وقومه, وإنزالـي علـيكم الـمنّ والسلوى فـي تِـيهكم, وتـمكينـي لكم فـي البلاد, بعد أن كنتـم مذلّلـين مقهورين, واختصاصي الرسل منكم, وتفضيلـي إياكم علـى عالـم من كنت بـين ظهرانـيه, أيام أنتـم فـي طاعتـي بـاتبـاع رسولـي إلـيكم, وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي, ودعوا التـمادي فـي الضلال والغيّ.

وقد ذكرنا فـيـما مضى النعم التـي أنعم اللّهُ بها علـى بنـي إسرائيـل, والـمعانـي التـي ذكرّهم جل ثناءه من آلائه عندهم, والعالـم الذي فضلوا علـيه فـيـما مضى قَبْلُ, بـالروايات والشواهد, فكرهنا تطويـل الكتاب بإعادته, إذ كان الـمعنى فـي ذلك فـي هذا الـموضع وهنالك واحدا.

الآية : 123

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَاتّقُواْ يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }

وهذه الآية ترهيب من الله جل ثناؤه للذين سلفت عظته إياهم بـما وعظهم به فـي الآية قبلها. يقول الله لهم: واتقوا يا معشر بنـي إسرائيـل الـمبدّلـين كتابـي وتنزيـلـي, الـمـحرّفـين تأويـله عن وجهه, الـمكذّبـين برسولـي مـحمد صلى الله عليه وسلم, عذابَ يوم لا تقضي فـيه نفس عن نفس شيئا, ولا تغنـي عنها غناءً, أن تهلكوا علـى ما أنتـم علـيه من كفركم بـي, وتكذيبكم رسولـي, فتـموتوا علـيه فإنه يوم لا يقبل من نفس فـيـما لزمها فدية, ولا يشفع فـيـما وجب علـيها من حقّ لها شافع, ولا هم ينصرهم ناصر من الله إذا انتقم منها بـمعصيتها إياه.

وقد مضى البـيان عن كل معانـي هذه الآية فـي نظيرتها قبل, فأغنى ذلك عن إعادته فـي هذا الـموضع.

الآية : 124

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذِ ابْتَلَىَ إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرّيّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ }

يعنـي جل ثناؤه بقوله: وَإذِ ابْتَلَـي وإذا اختبر, يقال منه: ابتلـيت فلانا ابتلـيه ابتلاءً. ومنه قول الله عزّ وجل وابْتَلُوا الـيَتامَى يعنـي به: اختبروهم. وكان اختبـار الله تعالـى ذكره إبراهيـم اختبـارا بفرائض فرضها علـيه, وأمْرٍ أمَرَه به, وذلك هو الكلـمات التـي أوحاهنّ إلـيه وكلفه العمل بهنّ امتـحانا منه له واختبـارا.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي صفة الكلـمات التـي ابتلـى اللّهُ بها إبراهيـمَ نبـيّه وخـلـيـلَهُ صلوات الله علـيه, فقال بعضهم: هي شرائع الإسلام, وهي ثلاثون سهما. ذكر من قال ذلك:

1446ـ حدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا عبد الأعلـى, قال: حدثنا داود, عن عكرمة, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَإذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـماتٍ

قال: قال ابن عبـاس: لـم يُبْتَلَ أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيـم, ابتلاه الله بكلـمات فأتـمهنّ قال: فكتب الله له البراءة, فقال: وَإِبْرَاهِيـمَ الّذِي وَفّـى قال: عشر منها فـي الأحزاب, وعشر منها فـي براءة, وعشر منها فـي الـمؤمنـين وسأل سائل وقال: إن هذا الإسلام ثلاثون سهما.

1447ـ حدثنا إسحاق بن شاهين, قال: حدثنا خالد الطحان, عن داود, عن عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: ما ابْتُلـي أحد بهذا الدين فقام به كله غير إبراهيـم ابتلـي بـالإسلام فأتـمه, فكتب الله له البراءة, فقال: وَإِبْرَاهِيـمَ الّذِي وَفّـى فذكر عشرا فـي براءة, فقال: التّائِبُونَ العَابِدُونَ الـحَامِدُونَ إلـى آخرِ الآيات, وعشرا فـي الأحزاب: إنّ الـمُسْلِـمينَ وَالـمُسلِـمات, وعشرا فـي سورة الـمؤمنـين, إلـى قوله: وَالّذِينَ هُمْ علـى صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ, وعشرا فـي سأل سائل: وَالّذِينَ هُمْ علـى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ.

1448ـ حدثنا عبـيد الله بن أحمد بن شبرمة, قال: حدثنا علـيّ بن الـحسن, قال: حدثنا خارجة بن مصعب, عن داود بن أبـي هند, عن عكرمة, عن ابن عبـاس قال: الإسلام ثلاثون سهما, وما ابتُلـي بهذا الدين أحدٌ فأقامه إلا إبراهيـم, قال الله وَإِبْرَهِيـمَ الّذِي وَفّـى فكتب الله له براءة من النار.

وقال آخرون: هي خصال عشرٌ من سنن الإسلام. ذكر من قال ذلك:

1449ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن ابن طاوس, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: ابتلاه الله بـالطهارة: خمس فـي الرأس, وخمس فـي الـجسد. فـي الرأس: قصّ الشارب, والـمضمضة, والاستنشاق, والسواك, وفرق الرأس. وفـي الـجسد: تقلـيـم الأظفـار, وحلق العانة, والـختان, ونتف الإبط, وغسل أثر الغائط والبول بـالـماء.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الرزاق, عن معمر, عن الـحكم بن أبـان, عن القاسم بن أبـي بزة, عن ابن عبـاس بـمثله, ولـم يذكر أثر البول.

1450ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا سلـيـمان, قال: حدثنا أبو هلال. قال: حدثنا قتادة فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: ابتلاه بـالـختان, وحلق العانة, وغسل القبل والدبر, والسواك, وقصّ الشارب, وتقلـيـم الأظافر, ونتف الإبط. قال أبو هلال: ونسيت خصلة.

1451ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن مطر, عن أبـي الـخـلد قال: ابتُلـي إبراهيـم بعشرة أشياء هنّ فـي الإنسان: سنة الاستنشاق, وقصّ الشارب, والسواك, ونتف الإبط, وقَلْـم الأظفـار, وغسل البراجم, والـختان, وحلق العانة, وغسل الدّبُرُ والفَرْج.

وقال بعضهم: بل الكلـمات التـي ابتلـي بهن عشر خلال بعضهنّ فـي تطهير الـجسد, وبعضهنّ فـي مناسك الـحجّ. ذكر من قال ذلك:

1452ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا مـحمد بن حرب, قال: حدثنا ابن لهيعة, عن ابن هبـيرة, عن حن 5 عن ابن عبـاس فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـماتٍ فأتَـمّهُنّ قال: ستة فـي الإنسان, وأربعة فـي الـمشاعر فـالتـي فـي الإنسان: حلق العانة, والـختان, ونتف الإبط, وتقلـيـم الأظفـار, وقصّ الشارب, والغسل يوم الـجمعة. وأربعة فـي الـمشاعر: الطواف, والسعي بـين الصفـا والـمروة, ورمي الـجمار, والإفـاضة.

وقال آخرون: بل ذلك: إنـي جاعلك للناس إماما فـي مناسك الـحجّ. ذكر من قال ذلك:

1453ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا ابن إدريس, قال: سمعت إسماعيـل بن أبـي خالد, عتن أبـي صالـح فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـماتٍ فأتَـمّهُنّ فمنهن: إنّـي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إماما وآيات النسك.

حدثنا أبو السائب, قال: حدثنا ابن إدريس, قال: سمعت إسماعيـل بن أبـي خالد, عن أبـي صالـح مولـى أم هانىء فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال منهن: إنـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما ومنهن آيات النسك: وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ.

1454ـ حدثنا مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ فَأتَـمّهُنّ قال الله لإبراهيـم: إنـي مبتلـيك بأمر, فما هو؟ قال: تـجعلنـي للناس إماما. قال: نعم. قال: ومن ذريتـي؟ قال: لا ينال عهدي الظالـمين. قال: تـجعل البـيت مثابة للناس قال: نعم. وأمْنا قال: نعم. وتـجعلنا مسلـمين لك, ومن ذرّيتنا أمة مسلـمة لك قال: نعم. وترينا مناسكنا وتتوب علـينا قال: نعم. قال: وتـجعل هذا البلد آمنا قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم قال: نعم.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح أخبره به عن عكرمة فعرضته علـى مـجاهد فلـم ينكره.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد بنـحوه. قال ابن جريج: فـاجتـمع علـى هذا القول مـجاهد وعكرمة جميعا.

1455ـ حدثنا سفـيان, قال: حدثنـي أبـي, عن سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ فأتَـمّهُنّ قال: ابتلـي بـالآيات التـي بعدها: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما قال وَمِنْ ذُرّيّتِـي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ.

1456ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَإذْ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتَ فأتَـمّهُن فـالكلـمات: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما وقوله: وَإذ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثابَةً للنّاسِ وقوله: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقام إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى وقوله: وَعَهِدْنا إلـى إبْرَاهِيـمَ وَإسْمَاعِيـلَ الآية, وقوله: وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيـمَ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ الآية قال: فذلك كلـمة من الكلـمات التـي ابتلـي بهنّ إبراهيـم.

1457ـ حدثنـي مـحمد بن سعيد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ فَأتَـمّهُنّ فمنهنّ: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما ومنهن: وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ ومنهن الآيات فـي شأن النسك, والـمقام الذي جعل لإبراهيـم, والرزق الذي رزق ساكنوا البـيت ومـحمد صلى الله عليه وسلم فـي ذرّيتهما علـيهما السلام.

وقال آخرون: بل ذلك مناسك الـحجّ خاصة. ذكر من قال ذلك:

1458ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا سلـم بن قتـيبة, قال: حدثنا عمرو بن نبهان, عن قتادة, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: مناسك الـحج.
حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: كان ابن عبـاس يقول فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: الـمناسك.
حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, قال: قال ابن عبـاس: ابتلاه بـالـمناسك.
حدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, قال: بلغنا عن ابن عبـاس أنه قال: إن الكلـمات التـي ابتلـي بها إبراهيـم: الـمناسك.
حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا شريك, عن أبـي إسحاق, عن التـميـمي, عن ابن عبـاس قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ ربّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: مناسك الـحجّ.
حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا الـحمانـي, قال: حدثنا شريك, عن أبـي إسحاق, عن التـميـمي, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: منهن مناسك الـحجّ.
وقال آخرون: هي أمور منهن الـختان. ذكر من قال ذلك:
1459ـ حدثنـي مـحمد بن بشار, قال: حدثنا سلـم بن قتـيبة عن يونس بن أبـي إسحاق, عن الشعبـي: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـماتٍ قال: منهن الـختان.
حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يحيى بن واضح, قال: حدثنا يونس بن أبـي إسحاق, قال: سمعت الشعبـي يقول: فذكر مثله.
حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا يونس بن أبـي إسحاق, قال: سمعت الشعبـي, وسأله أبو إسحاق عن قول الله: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: منهن الـختان يا أبـا إسحاق.
وقال آخرون: بل ذلك الـخلال الستّ: الكوكب, والقمر, والشمس, والنار, والهجرة, والـختان, التـي ابتلـي بهنّ فصبر علـيهنّ. ذكر من قال ذلك:
1460ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا ابن علـية, عن أبـي رجاء, قال: قلت للـحسن: وإذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتَ فأتَـمّهُنّ قال: ابتلاه بـالكوكب فرضي عنه, وابتلاه بـالقمر فرضي عنه, وابتلاه بـالشمس فرضي عنه, وابتلاه بـالنار فرضي عنه, وابتلاه بـالهجرة, وابتلاه بـالـختان.
1461ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: كان الـحسن يقول: إي والله ابتلاه بأمر فصبر علـيه, ابتلاه بـالكوكب, والشمس, والقمر, فأحسن فـي ذلك, وعرف أن ربه دائم لا يزول, فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنـيفـا وما كان من الـمشركين, ثم ابتلاه بـالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتـى لـحق بـالشام مهاجرا إلـى الله, ثم ابتلاه بـالنار قبل الهجرة فصبر علـى ذلك, فـابتلاه الله بذبح ابنه وبـالـختان فصبر علـى ذلك.
1462ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عمن سمع الـحسن يقول فـي قوله: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: ابتلاه الله بذبح ولده, وبـالنار, وبـالكوكب, والشمس, والقمر.

1463ـ حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا سلـم بن قتـيبة, قال: حدثنا أبو هلال, عن الـحسن: وَإذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ قال: ابتلاه بـالكوكب, وبـالشمس, والقمر, فوجده صابرا.

وقال آخرون بـما:

1464ـ حدثنا به موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: الكلـمات التـي ابتلـى بهنّ إبراهيـم ربه: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا إنّكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ رَبّنا وَاجْعَلْنَا مُسْلِـمِينَ لكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنا أُمّةً مُسْلِـمَةً لَكَ وأرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَـيْنَا إنّكَ أنْتَ التّوّابُ الرّحِيـمُ رَبّنا وَابْعَثْ فِـيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ.

والصواب من القول فـي ذلك عندنا أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عبـاده أنه اختبر إبراهيـم خـلـيـله بكلـمات أوحاهن إلـيه, وأمره أن يعمل بهنّ وأتـمهنّ, كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل. وجائز أن تكون تلك الكلـمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله فـي تأويـل الكلـمات, وجائز أن تكون بعضه لأن إبراهيـم صلوات الله علـيه قد كان امتُـحن فـيـما بلغنا بكل ذلك, فعمل به وقام فـيه بطاعة الله وأمْره الواجب علـيه فـيه. وإذ كان ذلك كذلك, فغير جائز لأحد أن يقول: عنى الله بـالكلـمات التـي ابتلـي بهنّ إبراهيـم شيئا من ذلك بعينه دون شيء, ولا عنى به كل ذلك إلا بحجة يجب التسلـيـم لها من خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم, أو إجماع من الـحجة ولـم يصحّ فـيه شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد, ولا بنقل الـجماعة التـي يجب التسلـيـم لـما نقلته. غير أنه روي عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم فـي نظير معنى ذلك خبران لو ثبتا, أو أحدهما, كان القول به فـي تأويـل ذلك هو الصواب. أحدهما ما:

1465ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا راشد بن سعد, قال: حدثنـي ريان بن فـائد, عن سهل بن معاذ بن أنس, عن أبـيه, قال: كان النبـيّ صلى الله عليه وسلم يقول: «ألاَ أُخْبِرُكُمْ لِـمَ سَمّى اللّهُ إبْرَاهِيـمَ خَـلِـيـلَهُ الّذِي وَفّـى؟ لأنّهُ كانَ يَقُولُ كُلّـما أصبَحَ وَكُلّـما أمْسَى: فَسُبْحانَ اللّهِ حِينَ تُـمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ حتـى يختـم الآية».

والآخر منهما ما:

1466ـ حدثنا به أبو كريب, قال: حدثنا الـحسن بن عطية. قال: حدثنا إسرائيـل, عن جعفر بن الزبـير, عن القاسم, عن أبـي أمامة, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وَإبْرَاهِيـمَ الّذِي وَفّـى قال: «أتَدْرُونَ مَا وفّـى»؟ قالوا: الله ورسوله أعلـم, قال: «وَفّـى عَمَلَ يَوْمِهِ أرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِـي النّهَارِ». فلو كان خبر سهل بن معاذ عن أبـيه صحيحا سنده. كان بـيّنا أن الكلـمات التـي ابتلـي بهنّ إبراهيـم فقام بهن هو قوله كُلّـما أصْبَحَ وأمْسَى: فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُـمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الـحَمْدُ فِـي السّمَوَاتِ وَالأرْض وَعَشِيّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ. أو كان خبر أبـي أمامة عدولاً نقلته, كان معلوما أن الكلـمات التـي أوحين إلـى إبراهيـم فـابتلـي بـالعمل بهنّ أن يصلـي كل يوم أربع ركعات. غير أنهما خبران فـي أسانـيدهما نظر.

والصواب من القول فـي معنى الكلـمات التـي أخبر الله أنه ابتلـي بهنّ إبراهيـم ما بـينا آنفـا.

ولو قال قائل فـي ذلك: إن الذي قاله مـجاهد وأبو صالـح والربـيع بن أنس أولـى بـالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهبـا, لأن قوله: إنّـي

جاعِلُكَ للنّاسِ إماما وقوله: وَعَهْدِنا إلـى إبْرَاهِيـمَ وَإسْمَاعِيـلَ أنْ طَهّرَا بَـيْتِـي للطّائِفِـينَ وسائر الآيات التـي هي نظير ذلك كالبـيان عن الكلـمات التـي ذكر الله أنه ابتلـي بهنّ إبراهيـم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَأتَـمّهُنّ.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: فَأتَـمّهُنّ فأتـمّ إبراهيـم الكلـمات, وإتـمامه إياهنّ إكماله إياهنّ بـالقـيام لله بـما أوجب علـيه فـيهنّ وهو الوفـاء الذي قال الله جل ثناؤه: وَإبْرَاهِيـمَ الّذِي وَفّـى يعنـي وفّـى بـما عهد إلـيه بـالكلـمات, فأمره به من فرائضه ومـحنة فـيها. كما:

1467ـ حدثنـي مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا عبد الأعلـى, قال: حدثنا داود, عن عكرمة, عن ابن عبـاس: فأتَـمّهُنّ أي فأدّاهنّ.

1468ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: فأتَـمّهُنّ أي عمل بهنّ, فأتـمهنّ.

1469ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: فأتَـمّهُنّ أي عمل بهنّ فأتـمهنّ. القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

قالَ إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما.

يعنـي جل ثناؤه بقوله: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما فقال الله: يا إبراهيـم إنـي مُصَيّرك للناس إماما يؤتـمّ به ويقتدي به. كما:

1470ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما لـيؤتـمّ به, ويقتدي به يقال منه: أمـمت القوم فأنا أؤمهم أمّا وإمامةً إذا كنت إمامهم.

وإنـما أراد جل ثناؤه بقوله لإبراهيـم: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما إنـي مصيرك تؤمّ مَنْ بَعْدَكَ من أهل الإيـمان بـي وبرسلـي, فتقدمهم أنت, ويتبعون هديك, ويستنّون بسنتك التـي تعمل بها بأمري إياك ووحيـي إلـيك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قالَ وَمِنْ ذُرّيّتِـي.

يعنـي جل ثناؤه بذلك, قال إبراهِيـمُ لـما رفع الله منزلته وكرّمه, فأعلـمه ما هو صانع به من تصيـيره إماما فـي الـخيرات لـمن فـي عصره ولـمن جاء بعده من ذرّيته وسائر الناس غيرهم يهتدي بهديه ويقتدي بأفعاله وأخلاقه: يا ربّ ومن ذرّيتـي فـاجعل أئمة يقتدي بهم كالذي جعلتنـي إماما يؤتـمّ به ويتقدى بـي مسألة من إبراهيـم ربه سأله إياها. كما:

1471ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: قال إبراهيـم: وَمِنْ ذُرّيّتِـي يقول: فـاجعل من ذرّيتـي من يؤتـمّ به ويقتدي به.

وقد زعم بعض الناس أن قول إبراهيـم: وَمِنْ ذُرّيّتِـي مسألة منه ربّه لعقبه أن يكونوا علـى عهده ودينه, كما قال: وَاجْنُبْنِـي وَبَنِـيّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ فأخبر الله جل ثناؤه أن فـي عقبه الظالـم الـمخالف له فـي دينه بقوله: لا يَنَالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ.

والظاهر من التنزيـل يدلّ علـى غير الذي قاله صاحب هذه الـمقالة لأن قول إبراهيـم صلوات الله علـيه: وَمِنْ ذُرّيّتِـي فـي إثر قول الله جل ثناؤه: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما فمعلوم أن الذي سأله إبراهيـم لذرّيته لو كان غير الذي أخبر ربه أنه أعطاه إياه لكان مبـينا ولكن الـمسألة لـما كانت مـما جرى ذكره, اكتفـى بـالذكر الذي قد مضى من تكريره وإعادته, فقال: وَمِنْ

ذُرّيّتِـي بـمعنى: ومن ذرّيتـي فـاجعل مثل الذي جعلتنـي به من الإمامة للناس.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ.

هذا خبر من الله جل ثناؤه عن أن الظالـم لا يكون إماما يقتدي به أهل الـخير, وهو من الله جل ثناؤه جواب لـما توهم فـي مسألته إياه أن يجعل من ذرّيته أئمة مثله, فأخبر أنه فـاعل ذلك إلا بـمن كان من أهل الظلـم منهم, فإنه غير مصيّره كذلك, ولا جاعله فـي مـحل أولـيائه عنده بـالتكرمة بـالإمامة لأن الإمامة إنـما هي لأولـيائه وأهل طاعته دون أعدائه والكافرين به.

واختلف أهل التأويـل فـي العهد الذي حرّم الله جل ثناؤه الظالـمين أن ينالوه, فقال بعضهم: ذلك العهد هو النبوّة. ذكر من قال ذلك:

1472ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ يقول: عهدي, نبوّتـي. فمعنى قائل هذا القول فـي تأويـل الآية: لا ينال النبّوة أهل الظلـم والشرك.

وقال آخرون: معنـي العهد عهد الإمامة, فتأويـل الآية علـى قولهم: لا أجعل من كان من ذرّيتك بأسرهم ظالـما إماما لعبـادي يقتدي به. ذكر من قال ذلك:

1473ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا يكون إمامٌ ظالـما.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: قال الله: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا يكون إمامٌ ظالـما.

1474ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن عكرمة بـمثله.

حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا سفـيان, عن منصور, عن مـجاهد فـي قوله قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا يكون إمامٌ ظالـم يقتدي به.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن منصور, عن مـجاهد, مثله.

حدثنا مسروق بن أبـان الـحطاب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان, عن خصيف, عن مـجاهد فـي قوله: لا يَنَالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا أجعل إماما ظالـما يقتدي به.

حدثنا مـحمد بن عبـيد الـمـحاربـي, قال: حدثنا مسلـم بن خالد الزنـجي, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: لا يَنَالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا أجعل إماما ظالـما يقتدي به.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا يكون إماما ظالـمٌ.

قال ابن جريج: وأما عطاء فإنه قال: إنّـي جاعِلُكَ للنّاسِ إماما قالَ وَمِنْ ذُرّيّتِـي فأبى أن يجعل من ذرّيته ظالـما إماما قلت لعطاء: ما عَهْدُه؟ قال: أمْرُه.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنه لا عهد علـيك لظالـم أن تطيعه فـي ظلـمه. ذكر من قال ذلك:

1475ـ حدثنا مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: لا يَنالُ عَهْدِي الظالِـمِينَ يعنـي لا عهد لظالـم علـيك فـي ظلـمه أن تطيعه فـيه.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله, عن إسرائيـل, عن مسلـم الأعور, عن مـجاهد, عن ابن عبـاس: قالَ لاَ يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لـيس للظالـمين عهد, وإن عاهدته فـانقضه.

حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن سفـيان, عن هارون بن عنترة, عن أبـيه, عن ابن عبـاس, قال: لـيس لظالـم عهد.

وقال آخرون: معنى العهد فـي هذا الـموضع: الأمان.

فتأويـل الكلام علـى معنى قولهم, قال الله: لا ينال أمانـي أعدائي, وأهل الظلـم لعبـادي أي لا أؤمنهم من عذابـي فـي الاَخرة. ذكر من قال ذلك:

1476ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ ذلكم عند الله يوم القـيامة لا ينال عهده ظالـم, فأما فـي الدنـيا فقد نالوا عهد الله, فوارثوا به الـمسلـمين وعادوهم وناكحوهم به, فلـما كان يوم القـيامة قصر الله عهده وكرامته علـى أولـيائه.

1477ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا ينال عهدَ الله فـي الاَخرة الظالـمون, فأما فـي الدنـيا فقد ناله الظالـم وأكل به وعاش.

1478ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الرحمن, عن إسرائيـل, عن منصور, عن إبراهيـم: قالَ لاَ يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا ينال عهد الله فـي الاَخرة الظالـمون, فأما فـي الدنـيا فقد ناله الظالـم فأمن به وأكل وأبصر وعاش.

وقال آخرون: بل العهد الذي ذكره الله فـي هذا الـموضع: دِينُ الله. ذكر من قال ذلك:

1479ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: قال الله لإبراهيـم: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ فقال: فَعَهْدُ الله الذي عهد إلـى عبـاده: دينه. يقول: لا ينال دينه الظالـمين, ألا ترى أنه قال: وَبَـارَكْنا عَلَـيْهِ وَعلـى إسْحَاقَ وَمِنْ ذُرّيتهما مُـحْسِنٌ وَظَالِـمٌ لِنَفْسِهِ مُبِـينٌ يقول: لـيس كل ذرّيتك يا إبراهيـم علـى الـحقّ.

1480ـ حدثنـي يحيى بن جعفر, قال: أخبرنا يزيد, قال: أخبرنا جويبر, عن الضحاك فـي قوله: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: لا ينال عهدي عدوّ لـي يعصينـي, ولا أنـحلها إلا وَلـيّا يطيعنـي.

وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهِرَ خبرٍ عن أنه لا ينال من ولد إبراهيـم صلوات الله علـيه عهد الله الذي هو النبوّة والإمامة لأهل الـخير, بـمعنى الاقتداء به فـي الدنـيا, والعهد الذي بـالوفـاء به ينـجو فـي الاَخرة, من وفـي لله به فـي الدنـيا, من كان منهم ظالـما متعدّيا جائرا عن قصد سبـيـل الـحقّ. فهو إعلام من الله تعالـى ذكره لإبراهيـم أن من ولده من يشرك به, ويجوز عن قصد السبـيـل, ويظلـم نفسه وعبـاده. كالذي:

1481ـ حدثنـي إسحاق بن إبراهيـم بن حبـيب بن الشهيد, قال: حدثنا عتاب بن بشر, عن خصيف, عن مـجاهد فـي قوله: لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمِينَ قال: إنه سيكون فـي ذرّيتك ظالـمون.

وأما نصب الظالـمين, فلأن العهد هو الذي لا ينال الظالـمين. وذُكر أنه فـي قراءة ابن مسعود: «لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِـمُونَ» بـمعنى أن الظالـمين هم الذين لا ينالون عهد الله. وإنـما جاز الرفع فـي الظالـمين والنصب, وكذلك فـي العهد لأن كل ما نال الـمرء فقد ناله الـمرء, كما يقال: نالنـي خيرُ فلان ونلت خَيْرَهُ, فـيوجه الفعل مرّة إلـى الـخير ومرّة إلـى نفسه. وقد بـينا معنى الظلـم فـيـما مضى فكرهنا إعادته.

الآية : 125

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لّلنّاسِ وَأَمْناً وَاتّخِذُواْ مِن مّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّى وَعَهِدْنَآ إِلَىَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهّرَا بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرّكّعِ السّجُودِ }

أما قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً فإنه عطف ب«إذْ» علـى قوله: وَإذِ ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ. وقوله: وَإذِا ابْتَلَـى إبْرَاهِيـمَ معطوف علـى قوله: يا بَنِـي إسْرَائِيـلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِـي واذكروا إذا ابتلـى إبراهيـمَ ربّه, وإذ جعلنا البـيت مثابة. والبـيت الذي جعله الله مثابة للناس هو البـيت الـحرام.

وأما الـمثابة فإن أهل العربـية مختلفون فـي معناها, والسبب الذي من أجله أنثت فقال بعض نـحويـي البصرة: ألـحقت الهاء فـي الـمثابة لـما كثر من يثوب إلـيه, كما يقال سيارة لـمن يكثر ذلك ونَسّابة.

وقال بعض نـحويـي الكوفة: بل الـمَثَابُ والـمثابة بـمعنى واحد, نظيرة الـمقام والـمقامة والـمقام, ذُكّر علـى قوله لأنه يريد به الـموضع الذي يقام فـيه, وأنثت الـمقامة لأنه أريد بها البقعة. وأنكر هؤلاء أن تكون الـمثابة كالسّيارة والنّسابة, وقالوا: إنـما أدخـلت الهاء فـي السيارة والنسابة تشبـيها لها بـالداعية والـمثابة مفعلة من ثاب القوم إلـى الـموضع: إذا رجعوا إلـيهم فهم يثوبون إلـيه مَثَابـا وَمَثَابَةً وَثَوَابـا.

فمعنى قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ وإذ جعلنا البـيت مرجعا للناس ومعاذا يأتونه كل عام ويرجعون إلـيه, فلا يقضون منه وطرا. ومن الـمثاب قول ورقة بن نوفل فـي صفة الـحرم:

مَثابٌ ءَلافْنَاء القَبَـائِلِ كُلّهاتَـخُبّ إلَـيْهِ الـيَعْمَلاتُ الصّلاَئِحُ

ومنه قـيـل: ثاب إلـيه عقله, إذا رجع إلـيه بعد عزوبه عنه.

وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك قال أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1482ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله الله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: لا يقضون منه وَطَرا.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَإذْ جَعَلْنا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: يثوبون إلـيه, لا يقضون منه وَطَرا.

1483ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: أما الـمثابةُ فهو الذي يثوبون إلـيه كل سنة لاَ يَدَعُهُ الإنسان إذا أتاه مرّة أن يعود إلـيه.

1484ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي عن أبـيه, عن ابن عبـاس قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: لا يقضون منه وطرا, يأتونه ثم يرجعون إلـى أهلـيهم ثم يعودون إلـيه.

1485ـ وحدثنـي عبد الكريـم بن أبـي عمير, قال: حدثنـي الولـيد بن مسلـم, قال: قال أبو عمرو, حدثنـي عبدة بن أبـي لبـابة فـي قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: لا يَنْصرِف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطرا.

1486ـ حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا عبد الـملك عن عطاء فـي قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: يثوبون إلـيه من كل مكان, ولا يقضون منه وطرا.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا جرير, عن عبد الـملك, عن عطاء, مثله.

1487ـ حدثنـي مـحمد بن عمار الأسدي, قال: حدثنا سهل بن عامر, قال: حدثنا مالك بن مغول, عن عطية فـي قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: لا يقضون منه وَطَرا.

1488ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن, قال: حدثنا سفـيان, عن أبـي الهذيـل, قال: سمعت سعيد بن جبـير يقول: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: يحجّون ويثوبون.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا الثوري, عن أبـي الهذيـل, عن سعيد بن جبـير فـي قوله: مَثَابَةً للنّاسِ قال: يحجون, ثم يحجون, ولا يقضون منه وطرا.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا ابن بكير, قال: حدثنا مسعر, عن غالب, عن سعيد بن جبـير: مَثابَةً للنّاسِ قال: يثوبون إلـيه.

1489ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ وأمْنا قال: مـجمعا.

1490ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: مَثَابَةً للنّاسِ قال: يثوبون إلـيه.

1491ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: مَثَابَةً للنّاسِ قال: يثوبون إلـيه.

1492ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَإذْ جَعَلْنَا البَـيْتَ مَثَابَةً للنّاسِ قال: يثوبون إلـيه من البلدان كلها ويأتونه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأمْنا.

والأمن: مصدر من قول القائل أمِنَ يَأْمَنُ أَمْنا. وإنـما سماه الله أمنا لأنه كان فـي الـجاهلـية مَعَاذا لـمن استعاذ به, وكان الرجل منهم لو لقـي به قاتل أبـيه أو أخيه لـم يهجه ولـم يعرض له حتـى يخرج منه, وكان كما قال الله جل ثناؤه: أوَ لَـمْ يَرَوْا أنّا جَعَلْنَا حَرَما آمِنا وَيُتَـخَطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ.

1493ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وأمْنا قال: من أمّ إلـيه فهو آمن كان الرجل يـلقـى قاتل أبـيه أو أخيه فلا يعرض له.

1494ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أما أمْنا فمن دخـله كان آمنا.

1495ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله الله: وأمْنا قال: تـحريـمه لا يخاف فـيه من دخـله.

ذكر من قال ذلك:

1496ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: وَأمْنا يقول: أمنا من العدوّ أن يحمل فـيه السلاح, وقد كان فـي الـجاهلـية يتـخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْنَ.

1497ـ حدثت عن الـمنـجاب, قال: أخبرنا بشر, عن أبـي روق, عن الضحاك, عن ابن عبـاس فـي قوله: وأمْنا قال: أمنا للناس.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, عن مـجاهد فـي قوله: وَأمْنا قال: تـحريـمه لا يخاف فـيه من دخـله.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى.

اختلف القراء فـي قراءة ذلك, فقرأه بعضهم: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى بكسر الـخاء علـى وجه الأمر بـاتـخاذه مصلّـى وهي قراءة عامة الـمصرين الكوفة والبصرة, وقراءة عامة قرّاء أهل مكة وبعض قرّاء أهل الـمدينة. وذهب إلـيه الذين قرءوه كذلك من الـخبر الذي:

1498ـ حدثنا أبو كريب ويعقوب بن إبراهيـم, قالا: حدثنا هشيـم, قال: أخبرنا حميد, عن أنس بن مالك, قال: قال عمر بن الـخطاب: قلت: يا رسول الله, لو اتـخذت الـمقام مصلّـى؟ فأنزل الله: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى.

حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا ابن أبـي عديّ, وحدثنـي يعقوب, قال: حدثنا ابن علـية جميعا, عن حميد, عن أنس, عن عمر, عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم مثله.

حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا حميد, عن أنس, قال: قال عمر بن الـخطاب: قلت: يا رسول الله, فذكر مثله.

قالوا: فإنـما أنزل الله تعالـى ذكره هذه الآية أمرا منه نبـيّهُ صلى الله عليه وسلم بـاتـخاذ مقام إبراهيـم مصلّـى فغير جائز قراءتها وهي أمرٌ علـى وجه الـخبر.

وقد زعم بعض نـحويـي البصرة أن قوله: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى معطوف علـى قوله: يَا بَنِـي إسْرَائِيـلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِـيَ وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى فكان الأمر بهذه الآية وبـاتـخاذ الـمصلـى من مقام إبراهيـم علـى قول هذا القائل للـيهود من بنـي إسرائيـل الذين كانوا علـى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما:

1499ـ حدثنا الربـيع بن أنس بـما حُدثت عن عمار بن الـحسن, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, قال: من الكلـمات التـي ابتلـي بهنّ إبراهيـم قوله: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى فأمرهم أن يتـخذوا من مقام إبراهيـم مصلّـى, فهم يصلون خـلف الـمقام.

فتأويـل قائل هذا القول: وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْرَاهِيـمَ رَبّهُ بِكَلِـمَاتٍ فَأتَـمّهُنّ قالَ إِنّـي جَاعِلُكَ للنّاسِ إماما وقال: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَام إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى. والـخبر الذي ذكرناه عن عمر بن الـخطاب, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل, يدلّ علـى خلاف الذي قاله هؤلاء, وأنه أمر من الله تعالـى ذكره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والـمؤمنـين به وجميع الـخـلق الـمكلفـين.

وقرأه بعض قرّاء أهل الـمدينة والشام: «وَاتّـخَذُوا» بفتـح الـخاء علـى وجه الـخبر.

ثم اختلف فـي الذي عطف علـيه بقوله: «وَاتّـخَذُوا» إذا قرىء كذلك علـى وجه الـخبر, فقال بعض نـحويـي البصرة: تأويـله إذا قرىء كذلك: وإذ جعلنا البـيت مثابة للناس وأمنا وإذِ اتـخذوا من مقام إبْرَاهِيـمَ مصلّـى.

وقال بعض نـحويـي الكوفة: بل ذلك معطوف علـى قوله: جَعَلْنَا فكان معنى الكلام علـى قوله: وإذ جعلنا البـيت مثابة للناس واتّـخَذُوه مصلـى.

والصواب من القول والقراءة فـي ذلك عندنا: وَاتّـخِذُوا بكسر الـخاء, علـى تأويـل الأمر بـاتـخاذ مقام إبراهيـم مصلـى للـخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه آنفـا, وأن عمرو بن علـيّ:

1500ـ حدثنا قال: حدثنا يحيى بن سعيد, قال: حدثنا جعفر بن مـحمد, قال: حدثنـي أبـي, عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي تأويـل قوله: وَاتّـخِذُوا مِن مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى وفـي مقام إبراهيـم.

فقال بعضهم: مقام إبراهيـم: هو الـحجّ كله. ذكر من قال ذلك:

1501ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن جريج, عن عطاء, عن ابن عبـاس فـي قوله: مَقامِ إبْرَاهِيـمَ قال: الـحجّ كله مقام إبراهيـم.

1502ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى قال: الـحجّ كله.

1503ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن سفـيان. عن ابن جريج, عن عطاء, قال: الـحجّ كله مقام إبراهيـم. وقال آخرون: مقام إبراهيـم عرفة والـمزدلفة والـجمار. ذكر من قال ذلك:

1504ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن عطاء بن أبـي رياح: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى قال: لأنـي قد جعلْتُه إماما فمقامه عرفة والـمزدلفة والـجمار.

1505ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى قال: مقامه جمع وعرفة ومِنًى لا أعلـمه إلا وقد ذكر مكة.

1506ـ حدثنا عمرو بن علـيّ, قال حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن عطاء, عن ابن عبـاس فـي قوله: وَاتـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى قال: مقامه عرفة.

1507ـ حدثنا عمرو بن علـيّ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا داود, عن الشعبـي قال: نزلت علـيه وهو واقـف بعرفة مقام إبراهيـم: الـيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الآية.

حدثنا عمرو قال: حدثنا بشر بن الـمفضل, قال: حدثنا داود, عن الشعبـي, مثله.

وقال آخرون: مقام إبراهيـم: الـحرم. ذكر من قال ذلك:

1508ـ حدثت عن حماد بن زيد, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى قال: الـحرم كله مقام إبراهيـم.

وقال آخرون: مقام إبراهيـم: الـحجر الذي قام علـيه إبراهيـم حين ارتفع بناؤه, وضعف عن رفع الـحجارة. ذكر من قال ذلك:

1509ـ حدثنا سنان القزاز, قال: حدثنا عبـيد الله بن عبد الـمـجيد الـحنفـي, قال: حدثنا إبراهيـم بن نافع, قال: سمعت كثـير بن كثـير يحدّث عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: جعل إبراهيـم يبنـيه, وإسماعيـل يناوله الـحجارة, ويقولان: رَبنا تَقَبّلْ مِنّا إنّكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ فلـما ارتفع البنـيان وضعف الشيخ عن رفع الـحجارة قام علـى حجر, فهو مقام إبراهيـم.

وقال آخرون: بل مقام إبراهيـم, هو مقامه الذي هو فـي الـمسجد الـحرام. ذكر من قال ذلك:

1510ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلـى إنـما أمروا أن يصلوا عنده ولـم يؤمروا بـمسحه, ولقد تكلفت هذه الأمة شيئا مـما تكلفته الأمـم قبلها, ولقد ذكرَ لنا بعض من رأى عقبه وأصابعه, فما زالت هذه الأمـم يـمسحونه حتـى اخْـلَوْلق وانـمـحى.

1511ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى فهم يصلون خـلف الـمقام.

1512ـ حدثنـي يونس, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى وهو الصلاة عند مقامه فـي الـحجّ. والـمقام: هو الـحجر الذي كانت زوجة إسماعيـل وضعته تـحت قدم إبراهيـم حين غسلت رأسه, فوضع إبراهيـم رجله علـيه وهو راكب, فغسلت شقه ثم دفعته من تـحته وقد غابت رجله فـي الـحجر, فوضعته تـحت الشقّ الاَخر فغسلته, فغابت رجله أيضا فـيه, فجعلها الله من شعائره, فقال: وَاتّـخِذوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى.

وأولـى هذه الأقوال بـالصواب عندنا ما قاله القائلون إن مقام إبراهيـم: هو الـمقام الـمعروف بهذا الاسم, الذي هو فـي الـمسجد الـحرام لـما روينا آنفـا عن عمر بن الـخطاب, ولـما:

1513ـ حدثنا يوسف بن سلـيـمان, قال: حدثنا حاتـم بن إسماعيـل, قال: حدثنا جعفر بن مـحمد, عن أبـيه, عن جابر قال: استلـم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن, فرمل ثلاثا ومشى أربعا, ثم تقدم إلـى مقام إبراهيـم فقرأ: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى فجعل الـمقام بـينه وبـين البـيت فصلـى ركعتـين. فهذان الـخبران ينبئان أن الله تعالـى ذكره إنـما عنى بـمقام إبراهيـم الذي أمرنا الله بـاتـخاذه مصلـى هو الذي وصفنا. ولو لـم يكن علـى صحة ما اخترنا فـي تأويـل ذلك خبر عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم, لكان الواجب فـيه من القول ما قلنا وذلك أن الكلام مـحمول معناه علـى ظاهره الـمعروف دون بـاطنه الـمـجهول, حتـى يأتـي ما يدلّ علـى خلاف ذلك مـما يجب التسلـيـم له.

ولا شكّ أن الـمعروف فـي الناس بـمقام إبراهيـم هو الـمصلـى الذي قال الله تعالـى ذكره: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى فإن أهل التأويـل مختلفون فـي معناه, فقال بعضهم: هو الـمُدّعَى. ذكر من قال ذلك:

1514ـ حدثنـي الـمثنى قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا سفـيان بن عيـينة, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَاتّـخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيـمَ مُصَلّـى قال: مصلـى إبراهيـم مُدّعًى.

وقال آخرون: معنى ذلك: اتـخذوا مصلـى تصلون عنده. ذكر من قال ذلك:

1515ـ حدثنـي بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: أمروا أن يصلوا عنده.

1516ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: هو الصلاة عنده. فكأن الذين قالوا تأويـل الـمصلـى ههنا الـمدعَى, وجهوا الـمصلـى إلـى أنه مفعّل من قول القائل: صلـيت بـمعنى دعوت. وقائلوا هذه الـمقالة هم الذين قالوا: إن مقام إبراهيـم هو الـحجّ كله.

فكان معناه فـي تأويـل هذه الآية: واتـخذوا عرفة والـمزدلفة والـمشعر والـجمار وسائر أماكن الـحجّ التـي كان إبراهيـم يقوم بها مداعي تدعوننـي عندها, وتأتـمون بإبراهيـم خـلـيـلـي علـيه السلام فـيها, فإنـي قد جعلته لـمن بعده من أولـيائي وأهل طاعتـي إماما يقتدون به وبآثاره, فـاقتدوا به.

وأما تأويـل القائلـين القول الآخر, فإنه: اتـخذوا أيها الناس من مقام إبراهيـم مصلـى تصلون عنده, عبـادة منكم, وتكرمة منـي لإبراهيـم. وهذا القول هو أولـى بـالصواب لـما ذكرنا من الـخبر عن عمر بن الـخطاب وجابر بن عبد الله, عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وعَهِدْنَا إِلَـى إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيـلَ أنْ طَهّرَا بَـيْتِـي.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَعَهِدْنَا وأمرنا. كما:

1517ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

1518ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنـي ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَعَهِدْنَا إِلَـى إِبْرَاهِيـمَ قال: أمرناه.

فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيـم وإسماعيـل بتطهير بـيتـي للطائفـين. والتطهير الذي أمرهما الله به فـي البـيت, هو تطهيره من الأصنام وعبـادة الأوثان فـيه ومن الشرك بـالله.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: وَعَهِدْنَا إِلَـى إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيـلَ أنْ طَهّرَا بَـيْتِـيَ لِلطائِفِـينَ وهل كان أيام إبراهيـم قبل بنائه البـيت بـيت يطهر من الشرك وعبـادة الأوثان فـي الـحرم, فـيجوز أن يكونا أمِرا بتطهيره؟ قـيـل: لذلك وجهان من التأويـل, قد كان لكل واحد من الوجهين جماعة من أهل التأويـل, أحدهما: أن يكون معناه: وعهدنا إلـى إبراهيـم وإسماعيـل أن ابنـيا بـيتـي مُطهّرا من الشرك والريب, كما قال تعالـى ذكره: أفَمَنْ أسّسَ بُنْـيَانَهُ علـى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أمْ مَنْ أسّسَ بُنْـيَانَهُ علـى شَفَـا جُرُفٍ

هارٍ, فكذلك قوله: وَعَهِدْنَا إِلَـى إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيـلَ أنْ طَهّرَا بَـيْتِـيَ أي ابنـيا بـيتـي علـى طهر من الشرك بـي والريب. كما:

1519ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط عن السدي: وَعَهِدْنَا إِلَـى إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيـلَ أنْ طَهّرَا بَـيْتِـيَ يقول: ابنـيا بـيتـي. فهذا أحد وجهيه, والوجه الآخر منهما أن يكونا أُمرا بأن يطهرا مكان البـيت قبل بنـيانه والبـيت بعد بنـيانه مـما كان أهل الشرك بـالله يجعلونه فـيه علـى عهد نوح ومن قبله من الأوثان, لـيكون ذلك سنة لـمن بعدهما, إذ كان الله تعالـى ذكره قد جعل إبراهيـم إماما يقتدي به مَنْ بعده. كما:

1520ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: أنْ طَهّرَا قال: من الأصنام التـي يعبدون التـي كان الـمشركون يعظمونها.

1521ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن عطاء, عن عبـيد بن عمير: أنْ طَهّرَا بَـيتِـيَ للطّائِفِـينَ قال: من الأوثان والريب.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن جريج, عن عطاء, عن عبـيد بن عمير, مثله.

1522ـ حدثنـي أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا سفـيان, عن لـيث, عن مـجاهد, قال: من الشرك.

1523ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا أبو إسرائيـل, عن أبـي حصين, عن مـجاهد: طَهّرَا بَـيْتِـيَ للطّائَفِـينَ قال: من الأوثان.

1524ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة فـي قوله: طَهّرَا بَـيْتِـيَ للطّائِفِـينَ قال: من الشرك وعبـادة الأوثان.

1525ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة بـمثله, وزاد فـيه: وقول الزور.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: للطّائِفِـينَ.

اختلف أهل التأويـل فـي معنى الطائفـين فـي هذا الـموضع, فقال بعضهم: هم الغربـاء الذين يأتون البـيت الـحرام من غربة. ذكر من قال ذلك:

1526ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا أبو بكر بن عياش, قال: حدثنا أبو حصين, عن سعيد بن جبـير فـي قوله: للطّائِفِـينَ قال: من أتاه من غربة.

وقال آخرون: بل الطائفون هم الذين يطوفون به غربـاء كانوا أو من أهله. ذكر من قال ذلك:

1527ـ حدثنا مـحمد بن العلاء, قال: حدثنا وكيع, عن أبـي بكر الهذلـي, عن عطاء: للطّائِفِـينَ قال: إذا كان طائفـا بـالبـيت, فهو من الطائفـين.

وأولـى التأويـلـين بـالآية ما قاله عطاء لأن الطائف هو الذي يطوف بـالشيء دون غيره, والطارىء من غربة لا يستـحقّ اسم طائف بـالبـيت إن لـم يطف به.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: والعاكِفِـينَ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَالعاكِفِـينَ والـمقـيمين به, والعاكف علـى الشيء: هو الـمقـيـم علـيه, كما قال نابغة بنـي ذبـيان:

عُكُوفـا لَدَى أبْـياتِهِمْ يَثْمِدُونَهُمْرمى اللّهُ فِـي تِلْكَ الأكُفّ الكوَانِعِ
وإنـما قـيـل لـلـمعتكف معتكف من أجل مقامه فـي الـموضع الذي حبس فـيه نفسه لله تعالـى.
ثم اختلف أهل التأويـل فـيـمن عنى الله بقوله: وَالعاكِفِـينَ فقال بعضهم: عنى به الـجالس فـي البـيت الـحرام بغير طواف ولا صلاة. ذكر من قال ذلك:
1528ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن أبـي بكر الهذلـي, عن عطاء, قال: إذا كان طائفـا بـالبـيت فهو من الطائفـين, وإذا كان جالسا فهو من العاكفـين.
وقال بعضهم: العاكفون هم الـمعتكفون الـمـجاورون. ذكر من قال ذلك:
1529ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا شريك, عن جابر, عن مـجاهد وعكرمة: طَهّرَا بَـيْتِـيَ للطائِفِـينَ وَالعاكِفِـينَ قال: الـمـجاورون.
وقال بعضهم: العاكفون هم أهل البلد الـحرام. ذكر من قال ذلك:
1530ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا أبو بكر بن عياش, قال: حدثنا أبو حصين, عن سعيد بن جبـير فـي قوله: وَالعاكِفِـينَ قال: أهل البلد.
1531ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَالعاكِفِـينَ قال: العاكفون: أهله.
وقال آخرون: العاكفون: هم الـمصلون. ذكر من قال ذلك:
1532ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال ابن عبـاس فـي قوله: طَهّرَا بَـيْتِـي للطّائِفِـينَ وَالعاكِفِـينَ قال: العاكفون: الـمصلون.
وأولـى هذه التأويلات بـالصواب ما قاله عطاء, وهو أن العاكف فـي هذا الـموضع: الـمقـيـم فـي البـيت مـجاورا فـيه بغير طواف ولا صلاة, لأن صفة العكوف ما وصفنا من الإقامة بـالـمكان. والـمقـيـم بـالـمكان قد يكون مقـيـما به وهو جالس ومصلَ وطائف وقائم, وعلـى غير ذلك من الأحوال فلـما كان تعالـى ذكره قد ذكر فـي قوله: أنْ طَهّرَا بَـيْتِـيَ للطّائِفِـينَ والعاكِفِـينَ والرّكّعِ السّجُودِ الـمصلـين والطائفـين, علـم بذلك أن الـحال التـي عنى الله تعالـى ذكره من العاكف غير حال الـمصلـي والطائف, وأن التـي عنى من أحواله هو العكوف بـالبـيت علـى سبـيـل الـحوار فـيه, وإن لـم يكن مصلـيا فـيه ولا راكعا ولا ساجدا.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَالرّكّعِ السّجودِ.
يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَالرّكّعِ جماعة القوم الراكعين فـيه له, واحدهم راكع. وكذلك السجود هم جماعة القوم الساجدين فـيه له واحدهم ساجد, كما يقال رجل قاعد ورجال قعود ورجل جالس ورجال جلوس فكذلك رجل ساجد ورجال سجود. وقـيـل: بل عنى بـالركّع السجود: الـمصلـين. ذكر من قال ذلك:
1533ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن أبـي بكر الهذلـي, عن عطاء: وَالرّكّعِ السّجُودِ قال: إذا كان يصلـي فهو من الركّع السجود.
1534ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: وَالرّكّعِ السجّودِ أهل الصلاة. وقد بـينا فـيـما مضى بـيان معنى الركوع والسجود, فأغنى ذلك عن إعادته ههنا.

الآية : 126

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتّعُهُ قَلِيلاً ثُمّ أَضْطَرّهُ إِلَىَ عَذَابِ النّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيـمُ رَبّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدَا آمِنا: واذكروا إذ قال إبراهيـم: ربّ اجعل هذا البلد بلدا آمنا, يعنـي بقوله: آمنا: آمنا من الـجبـابرة وغيرهم أن يسلطوا علـيه, ومن عقوبة الله أن تناله, كما تنال سائر البلدان, من خسف, وانتقال, وغرق, وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التـي تصيب سائر البلاد غيره. كما:

1535ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, قال: ذكر لنا أن الـحرم حُرّم بحياله إلـى العرش, وذكر لنا أن البـيت هبط مع آدم حين هبط, قال الله له: أهبط معك بـيتـي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي فطاف حوله آدم ومن كان بعده من الـمؤمنـين, حتـى إذا كان زمان الطوفـان حين أغرق الله قوم نوح رفعه وطهّره ولـم تصبه عقوبة أهل الأرض, فتتبع منه إبراهيـم أثرا فبناه علـى أساس قديـم كان قبله.

فإن قال لنا قائل: أوَ ما كان الـحرم آمنا إلا بعد أن سأل إبراهيـم ربه له الأمان؟

قـيـل له: لقد اختُلِف فـي ذلك, فقال بعضهم: لـم يزل الـحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبـابرة خـلقه, منذ خـلقت السموات والأرض. واعتلوا فـي ذلك بـما:

1536ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, عن مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي سعيد بن أبـي سعيد الـمقبري, قال: سمعت أبـا شريح الـخزاعي يقول: لـما افتتـحت مكة قتلت خزاعة رجلاً من هُذيـل, فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبـا فقال: «يا أيّها النّاسُ إنّ اللّهَ حَرّمَ مَكّةَ يَوْمَ خَـلَقَ السّمَوَاتِ وَالأرْض, فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللّهِ إلـى يَوْمِ القِـيَامَةِ لا يَحِلّ لامْرِىءٍ يُؤْمِنُ بـاللّهِ وَالـيَوْمِ الآخِرِ أنْ يَسْفِكَ بِها دَما, أوْ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرا. ألا وَإنّها لا تَـحِلّ ءَلاحَدٍ بَعْدِي وَلَـمْ تَـحِلّ لِـي إلاّ هَذِهِ السّاعَةَ غَضَبـا علـيّ أهْلُها. ألا فَهِيَ قَدْ رَجَعَتْ علـى حالِهَا بـالأمْسِ. ألا لِـيُبَلّغِ الشّاهِدُ الغَائِبَ, فمن قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل بها, فقولوا: إنّ الله قَدْ أحَلّهَا لرسولِهِ ولـم يُحِلّها لكَ».

1537ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا عبد الرحيـم بن سلـيـمان, وحدثنا ابن حميد وابن وكيع, قالا: حدثنا جرير جميعا, عن يزيد بن أبـي زياد, عن مـجاهد, عن ابن عبـاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لـمكة حين افتتـحها: «هَذِهِ حَرَمٌ حَرّمَهَا اللّهُ يَوْمَ خَـلَقَ السّمَوَاتِ وَالأرْضَ وَخَـلَقَ الشّمْسَ وَالقَمَرَ وَوَضَعَ هَذَيْنِ الأخْشَبَـيْنِ, لَـمْ تَـحِلّ ءَلاحَدٍ قَبْلِـي, وَلاَ تَـحِلّ ءَلاحَدٍ بَعْدِي, أُحِلّتْ لِـي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ».

قالوا: فمكة منذ خـلقت حَرَمٌ آمن من عقوبة الله وعقوبة الـجبـابرة.

قالوا: وقد أخبرَت عن صحة ما قلنا من ذلك الرواية الثانـية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التـي ذكرناها.

قالوا: ولـم يسأل إبراهيـم ربه أن يؤمنه من عقوبته وعقوبة الـجبـابرة, ولكنه سأله أن يؤمن أهله من الـجُدوب والقحُوط, وأن يرزق ساكنه من

الثمرات, كما أخبر ربه عنه أنه سأله بقوله: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيـمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدا آمِنا وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بـاللّهِ وَالـيَوْمِ الاَخِرِ.

قالوا: وإنـما سأل ربه ذلك, لأنه أسكن فـيه ذرّيته, وهو غير ذي زَرْعٍ ولا ضَرْع, فـاستعاذ ربه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشا, فسأله أن يؤمنهم مـما حذر علـيهم منه.

قالوا: وكيف يجوز أن يكون إبراهيـم سأل ربه تـحريـم الـحرم, وأن يؤمنه من عقوبته وعقوبة جبـابرة خـلقه, وهو القائل حين حله, ونزله بأهله وولده: رَبّنا إنـي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرّيّتِـي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَـيْتِكَ الـمُـحَرّمِ؟ قالوا: فلو كان إبراهيـم هو الذي حرّم الـحرم أو سأل ربه تـحريـمه لـما قال: «عند بـيتك الـمـحرّم», عند نزوله به, ولكنه حرّم قبله, وحرّم بعده.

وقال آخرون: كان الـحرم حلالاً قبل دعوة إبراهيـم كسائر البلاد غيره, وإنـما صار حراما بتـحريـم إبراهيـم إياه, كما كانت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالاً قبل تـحريـم رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها.

قالوا: والدلـيـل علـى ما قلنا من ذلك ما:

1538ـ حدثنا به ابن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, عن أبـي الزبـير, عن جابر بن عبد الله, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ إبْرَاهِيـمَ حَرّمَ بَـيْتَ اللّهِ وأمّنَهُ, وإنـي حَرّمْتُ الـمَدِينَةَ ما بَـيْنَ لابَتَـيْها لا يُصَادُ صَيْدُها وَلا تُقْطَعُ عِضَاهُها».

1539ـ حدثنا أبو كريب وأبو السائب, قالا: حدثنا عبد الرحيـم الرازي, سمعت أشعث, عن نافع, عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ إبْرَاهِيـمَ كَانَ عَبْدَ اللّهِ وَخَـلِـيـلَهُ, وإنـي عَبْدُ اللّهِ وَرَسُولُهُ, وَإِنّ إبْرَاهِيـمَ حَرّمَ مَكّةَ وإنـي حَرّمْتُ الـمَدِينَةَ مَا بَـيْنَ لاَبَتَـيْهَا عِضَاهَا وَصَيْدَها, وَلاَ يُحْمَلُ فِـيها سِلاحٌ لِقِتالٍ, وَلا يُقْطَعُ مِنْها شَجَرٌ إلا لعَلَفِ بَعِيرٍ».

1540ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا قتـيبة بن سعيد, قال: حدثنا بكر بن مضر, عن ابن الهاد, عن أبـي بكر بن مـحمد, عن عبد الله بن عمرو بن عثمان, عن رافع بن خديج, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ إبْرَاهِيـمَ حَرّمَ مَكّةَ, وإنـي أُحَرّمُ الـمَدِينَةَ مَا بَـيْتَ لاَبَتَـيْها». وأما أشبه ذلك من الأخبـار التـي يطول بـاستـيعابها الكتاب.

قالوا: وقد أخبر الله تعالـى ذكره فـي كتابه أن إبراهيـم قال: رَبّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدا آمِنا ولـم يخبر عنه أنه سأل أن يجعله آمنا من بعض الأشياء دون بعض, فلـيس لأحد أن يدّعي أن الذي سأله من ذلك الأمان له من بعض الأشياء دون بعض إلا بحجة يجب التسلـيـم لها.

قالوا: وأما خبر أبـي شريح وابن عبـاس فخبران لا تثبت بهما حجة لـما فـي أسانـيدهما من الأسبـاب التـي لا يجب التسلـيـم فـيها من أجلها.

والصواب من القول فـي ذلك عندنا: أن الله تعالـى ذكره جعل مكة حرما حين خـلقها وأنشأها, كما أخبر النبـيّ صلى الله عليه وسلم أنه حرّمها يوم خـلق السموات والأرض بغير تـحريـم منه لها علـى لسان أحد من أنبـيائه ورسله, ولكن بـمنعه من أرادها بسوء, وبدفعه عنها من الآفـات والعقوبـات, وعن ساكنـيها ما أحلّ بغيرها وغير ساكنـيها من النقمات فلـم يزل ذلك أمرها حتـى بوأها الله إبراهيـم خـلـيـله, وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيـل, فسأل حينئذٍ إبراهيـم ربه إيجاد فرض تـحريـمها علـى عبـاده علـى لسانه, لـيكون ذلك سنة لـمن بعده من خـلقه, يستنّون بها فـيها, إذ

كان تعالـى ذكره قد اتـخذه خـلـيلاً, وأخبره أنه جاعله للناس إماما يقتدي به, فأجابه ربه إلـى ما سأله, وألزم عبـاده حينئذٍ فرض تـحريـمه علـى لسانه, فصارت مكة بعد أن كانت مـمنوعة بـمنع الله إياها بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها علـى عبـاده, ومـحرّمة بدفع الله عنها بغير تـحريـمه إياها علـى لسان أحد من رسله فرض تـحريـمها علـى خـلقه علـى لسان خـلـيـله إبراهيـم علـيه السلام, وواجب علـى عبـاده الامتناع من استـحلالها, واستـحلال صيدها وعضاهها, بإيجابه الامتناع من ذلك ببلاغ إبراهيـم رسالة الله إلـيك بذلك إلـيه فلذلك أضيف تـحريـمها إلـى إبراهيـم, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنّ اللّهَ حَرّمَ مَكّةَ» لأن فرض تـحريـمها الذي ألزم الله عبـاده علـى وجه العبـادة له به, دون التـحريـم الذي لـم يزل متعبدا لها به علـى وجه الكِلاءة والـحفظ لها قبل ذلك كان عن مسألة إبراهيـم ربه إيجاب فرض ذلك علـى لسانه, لزم العبـاد فرضه دون غيره.

فقد تبـين إذا بـما قلنا صحة معنى الـخبرين, أعنـي خبر أبـي شريح وابن عبـاس عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنّ اللّهَ حَرّمَ مَكّةَ يَوْمَ خَـلَقَ الشّمْسَ وَالقَمَرَ». وخبر جابر وأبـي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم, أن النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال: «اللّهُمّ إِنّ إبْرَاهِيـمَ حَرّمَ مَكّةَ» وأن لـيس أحدهما دافعا صحة معنى الآخر كما ظنه بعض الـجهال.

وغير جائز فـي أخبـار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بعضها دافعا بعضا إذا ثبت صحتها, وقد جاء الـخبران اللذان رُويا فـي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مـجيئا ظاهرا مستفـيضا يقطع عذر من بلغه.

وقول إبراهيـم علـيه السلام: رَبّنا إنـي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرّيّتِـي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَـيْتِكَ الـمُـحَرّمِ فإنه إن يكن قال قبل إيجاب الله فرض تـحريـمه علـى لسانه علـى خـلقه, فإنـما عنى بذلك تـحريـم الله إياه الذي حرّمه بحياطته إياه وكلاءته من غير تـحريـمه إياه علـى خـلقه علـى وجه التعبد لهم بذلك. وإن يكن قال ذلك بعد تـحريـم الله إياه علـى لسانه علـى خـلقه علـى وجه التعبد, فلا مسألة لأحد علـينا فـي ذلك.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِـاللّهِ وَالـيَوْمِ الاَخِرِ.

وهذه مسألة من إبراهيـم ربه أن يرزق مؤمنـي أهل مكة من الثمرات دون كافريهم. وخصّ بـمسألة ذلك للـمؤمنـين دون الكافرين لـما أعلـمه الله عند مسألته إياه أن يجعل من ذرّيته أئمة يقتدي بهم أن منهم الكافر الذي لا ينال عهده, والظالـم الذي لا يدرك ولايته. فلـما أعلـم أن من ذرّيته الظالـم والكافر, خصّ بـمسألته ربه أن يرزق من الثمرات من سكان مكة الـمؤمن منهم دون الكافر, وقال الله له: إنـي قد أجبت دعاءك, وسأرزق مع مؤمنـي أهل هذا البلد كافرهم, فأمتعه به قلـيلاً. وأما «مَنْ» فـي قوله: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بـاللّهِ فوَالـيَوْمِ الاَخِرِ فإنه نصب علـى الترجمة, والبـيان عن الأهل, كما قال تعالـى: يَسْألُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الـحَرَامِ قِتَالٍ فِـيهِ بـمعنى: يسألونك عن قتال فـي الشهر الـحرام, وكما قال تعالـى ذكره: وِلِلّهِ علـى النّاسِ حِجّ البَـيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَـيْهِ سَبِـيلاً بـمعنى: ولله حجّ البـيت علـى من استطاع إلـيه سبـيلاً.

وإنـما سأل إبراهيـم ربه ما سأل من ذلك لأنه حلّ بواد غير ذي زرع ولا ماء ولا أهل, فسأل أن يرزق أهله ثمرا, وأنه يجعل أفئدة الناس تهوي إلـيهم, فذكر أن إبراهيـم لـما سأل ذلك ربه نقل الله الطائف من فلسطين.

1541ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق بن الـحجاج, قال: حدثنا هشام, قال: قرأت علـى مـحمد بن مسلـم أن إبراهيـم لـما دعا للـحرم وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ نقل الله الطائف من فلسطين.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَـامَتّعُهُ قَلِـيلاً.

اختلف أهل التأويـل فـي قائل هذا القول وفـي وجه قراءته, فقال بعضهم: قائل هذا القول ربنا تعالـى ذكره, وتأويـله علـى قولهم: قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَـامَتّعُهُ قَلِـيلاً برزقـي من الثمرات فـي الدنـيا إلـى أن يأتـيه أجله. وقرأ قائل هذه الـمقالة ذلك: فَـامَتّعُهُ قَلِـيلاً بتشديد التاء ورفع العين. ذكر من قال ذلك:

1542ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: حدثنـي أبو العالـية, عن أُبـيّ بن كعب فـي قوله: وَمَنْ كَفَرَ فَـامَتّعُهُ قَلِـيلاً ثُمّ اضْطَرّهُ إلَـى عَذَابِ النّارِ قال: هو قول الربّ تعالـى ذكره.

1543ـ حدثنا بن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: قال ابن إسحاق لـما قال إبراهيـم: رَبّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدا آمِنا وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِـاللّهِ وَالـيَوْمِ الاَخِرِ وعدل الدعوة عمن أبى الله أن يجعل له الولاية, انقطاعا إلـى الله ومـحبة وفراقا لـمن خالف أمره, وإن كانوا من ذريته حين عرف أنه كان منهم ظالـم لا ينال عهده, بخبره عن ذلك حين أخبره فقال الله: وَمَنْ كَفَرَ فإنـي أرزق البرّ والفـاجر فَـامَتّعُهُ قَلِـيلاً.

وقال آخرون: بل قال ذلك إبراهيـم خـلـيـل الرحمَن علـى وجه الـمسألة منه ربه أن يرزق الكافر أيضا من الثمرات بـالبلد الـحرام, مثل الذي يرزق به الـمؤمن ويـمتعه بذلك قلـيلاً, ثم اضْطَرّهُ إلـى عذاب النار بتـخفـيف «التاء» وجزم «العين» وفتـح «الراء» من اضْطَرّه, وفصل «ثم اضطره» بغير قطع ألفها, علـى وجه الدعاء من إبراهيـم ربه لهم والـمسألة. ذكر من قال ذلك:

1544ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: قال أبو العالـية: كان ابن عبـاس يقول: ذلك قول إبراهيـم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قلـيلاً.

1545ـ حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن لـيث, عن مـجاهد: وَمَنْ كَفَرَ فَـامَتّعُهُ قَلِـيلاً يقول: ومن كفر فأرزقه أيضا ثم اضطره إلـى عذاب النار.

والصواب من القراءة فـي ذلك عندنا والتأويـل, ما قاله أُبـيّ بن كعب وقراءته, لقـيام الـحجة بـالنقل الـمستفـيض دراية بتصويب ذلك, وشذوذ ما خالفه من القراءة. وغير جائز الاعتراض بـمن كان جائزا علـيه فـي نقله الـخطأ والسهُو, علـى من كان ذلك غير جائز علـيه فـي نقله.

وإذ كان ذلك كذلك, فتأويـل الآية: قال الله: يا إبراهيـم قد أجبت دعوتك, ورزقت مؤمنـي أهل هذا البلد من الثمرات وكفـارهم متاعا لهم إلـى بلوغ آجالهم, ثم اضطرّ كفـارهم بعد ذلك إلـى النار.

وأما قوله: فَـأُمَتّعُهُ قَلِـيلاً يعنـي: فأجعل ما أرزقه من ذلك فـي حياته متاعا يتـمتع به إلـى وقت مـماته.

وإنـما قلنا إن ذلك كذلك لأن الله تعالـى ذكره إنـما قال ذلك لإبراهيـم جوابـا لـمسألته ما سأل من رزق الثمرات لـمؤمنـي أهل مكة, فكان معلوما بذلك أن الـجواب إنـما هو فـيـما سأله إبراهيـم لا فـي غيره. وبـالذي قلنا فـي ذلك قال مـجاهد, وقد ذكرنا الرواية بذلك عنه.

وقال بعضهم: تأويـله: فأمتعه بـالبقاء فـي الدنـيا. وقال غيره: فأمتعه قلـيلاً فـي كفره ما أقام بـمكة, حتـى أبعث مـحمدا صلى الله عليه وسلم فـيقتله إن أقام علـى كفره أو يجلـيه عنها. وذلك وإن كان وجها يحتـمله الكلام فإن دلـيـل ظاهر الكلام علـى خلافه لـما وصفنا.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ثُمّ أضْطَرّهُ إلـى عَذَابِ النّارِ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: ثُمّ أضْطَرّهُ إلـى عَذَابِ النّارِ ثم أدفعه إلـى عذاب النار وأسوقه إلـيها, كما قال تعالـى ذكره: يَوْمَ يُدَعّونَ إلـى نارِ جَهَنّـمَ دَعّا ومعنى الاضطرار: الإكراه, يقال: اضطررت فلانا إلـى هذا الأمر: إذا ألـجأته إلـيه وحملته علـيه. فذلك معنى قوله: ثُمّ اضْطَرّهُ إلـى عَذَابِ النّارِ أدفعه إلـيها, وأسوقه سحبـا وجرّا علـى وجهه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَبِئْسَ الـمَصِير.

قد دللنا علـى أن «بِئْس» أصله «بَئِس» من البؤس, سُكّن ثانـيه ونقلت حركة ثانـية إلـى أوله, كما قـيـل للكَبِد كِبْدٌ, وما أشبه ذلك. ومعنى الكلام: وساء الـمصير عذاب النار, بعد الذي كانوا فـيه من متاع الدنـيا الذي متعتهم فـيها. وأما الـمصير فإنه مفعل من قول القائل: صرت مصيرا صالـحا, وهو الـموضع الذي يصير إلـيه الكافر بـالله من عذاب النار.

الآية : 127

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبّنَا تَقَبّلْ مِنّآ إِنّكَ أَنتَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِـيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ واذكروا إذ يرفع إبراهيـم القواعد من البـيت. والقواعد جمع قاعدة, يقال للواحدة من قواعد البـيت قاعدة, وللواحدة من قواعد النساء وعجائزهن قاعد, فتلغى هاء التأنـيث لأنها فـاعل من قول القائل: قعدت عن الـحيض, ولا حظّ فـيه للذكورة, كما يقال: امرأة طاهر وطامث, لأنه لا حظّ فـي ذلك للذكور. ولو عنى به القعود الذي هو خلاف القـيام لقـيـل قاعدة, ولـم يجز حينئذٍ إسقاط هاء التأنـيث. وقواعد البـيت: إساسه.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي القواعد التـي رفعها إبراهيـم وإسماعيـل من البـيت, أهما أحدثا ذلك, أم هي قواعد كانت له قبلهما؟ فقال قوم: هي قواعد بـيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك, ثم درس مكانه وتعفـى أثره بعده حتـى بوأه الله إبراهيـم علـيه السلام, فبناه. ذكر من قال ذلك:

1546ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن جريج, عن عطاء, قال: قال آدم: يا ربّ إنـي لا أسمع أصوات الـملائكة قال: بخطيئتك, ولكن اهبط إلـى الأرض وابن لـي بـيتا, ثم احْفُفْ به كما رأيت الـملائكة تـحفّ ببـيتـي الذي فـي السماء. فـيزعم الناس أنه بناه من خمسة

أَجْبُل: من حراء, وطور زَيْتا, وطور سِينا, وجبل لبنان, والـجودي, وكان رَبَضُه من حراء فكان هذا بناء آدم حتـى بناه إبراهيـم بعد.
1547ـ حدثنا الـحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن أيوب, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ قال: القواعد التـي كانت قواعد البـيت قبل ذلك.
وقال آخرون: بل هي قواعد بـيت كان الله أهبطه لآدم من السماء إلـى الأرض, يطوف به كما كان يطوف بعرشه فـي السماء, ثم رفعه إلـى السماء أيام الطوفـان, فرفع إبراهيـم قواعد ذلك البـيت. ذكر من قال ذلك:
1548ـ حدثنـي مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الوهاب, قال: حدثنا أيوب, عن أبـي قلابة, عن عبد الله بن عمرو قال: لـما أهبط الله آدم من الـجنة قال: إنـي مهبط معك أو منزل معك بـيتا يطاف حوله, كما يطاف حول عرشي, ويصلّـى عنده, كما يصلّـى عند عرشي. فلـما كان زمن الطوفـان رفع, فكانت الأنبـياء يحجّونه ولا يعلـمون مكانه, حتـى بوأه الله إبراهيـم وأعلـمه مكانه, فبناه من خمسة أجبل: من حراء, وثبـير, ولبنان, وجبل الطور, وجبل الـخمر.
حدثنـي يعقوب بن إبراهيـم, قال: حدثنا إسماعيـل بن علـية, قال: حدثنا أيوب, عن أبـي قلابة, قال: لـما أهبط آدم, ثم ذكر نـحوه.
1549ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا هشام بن حسان, عن سوار, عن عطاء بن أبـي ربـاح, قال: لـما أهبط الله آدم من الـجنة كان رجلاه فـي الأرض ورأسه فـي السماء, يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم, يأنس إلـيهم, فهابته الـملائكة حتـى شكت إلـى الله فـي دعائها وفـي صلاتها, فخفضه إلـى الأرض فلـما فَقد ما كان يسمع منهم, استوحش حتـى شكا ذلك إلـى الله فـي دعائه وفـي صلاته, فوُجّه إلـى مكة, فكان موضع قدمه قرية وخطوه مفـازةً, حتـى انتهى إلـى مكة. وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الـجنة, فكانت علـى موضع البـيت الآن, فلـم يزل يطوف به حتـى أنزل الله الطوفـان, فرفعت تلك الـياقوتة, حتـى بعث الله إبراهيـم فبناه, فذلك قول الله: وَإِذْ بَوّأْنا لابْرَاهِيـمَ مَكَانَ البَـيْتِ.
1550ـ حدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة, قال: وضع الله البـيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلـى الأرض, وكان مهبطه بأرض الهند, وكان رأسه فـي السماء ورجلاه فـي الأرض, فكانت الـملائكة تهابه, فنقص إلـى ستـين ذراعا. فحزن آدم إذ فقد أصوات الـملائكة وتسبـيحهم فشكا ذلك إلـى الله تعالـى فقال الله: يا آدم إنـي قد أهبت إلـيك بـيتا تطوف به كما يطاف حول عرشي, وتصلّـي عنده كما يصلّـى عند عرشي. فـانطلق إلـيه آدم فخرج, ومُدّ له فـي خطوه, فكان بـين كل خطوتـين مفـازة, فلـم تزل تلك الـمفـاوز بعد ذلك, فأتـى آدم البـيت وطاف به ومن بعده من الأنبـياء.
1551ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن أبـان: أن البـيت أُهبط ياقوتة واحدة أو درّة واحدة, حتـى إذا أغرق الله قوم نوح رفعه وبقـي أساسه, فبوأه الله لإبراهيـم, فبناه بعد ذلك.
وقال آخرون: بل كان موضع البـيت ربوة حمراء كهيئة القبة. وذلك أن الله لـما أراد خـلق الأرض علا الـماءَ زَبْدَةٌ حمراءُ أو بـيضاءُ, وذلك فـي موضع

البـيت الـحرام. ثم دحا الأرض من تـحتها, فلـم يزل ذلك كذلك حتـى بوأه الله إبراهيـم, فبناه علـى أساسه. وقالوا: علـى أركان أربعة فـي الأرض السابعة. ذكر من قال ذلك:

1552ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال جرير بن حازم, حدثنـي حميد بن قـيس, عن مـجاهد, قال: كان موضع البـيت علـى الـماء قبل أن يخـلق الله السموات والأرض, مثل الزّبْدَةِ البـيضاء, ومن تـحته دُحيت الأرض.

1553ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن جريج, قال: قال عطاء وعمرو بن دينار: بعث الله رياحا فصفّقَت الـماء, فأبرزت فـي موضع البـيت عن حَشَفَةٍ كأنها القبة, فهذا البـيت منها فلذلك هي أمّ القرى. قال ابن جريج: قال عطاء: ثم وَتَدَها بـالـجبـال كي لا تُكْفأ بـمَيْدٍ, فكان أول جبل «أبو قبـيس».

1554ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يعقوب القمي, عن حفص بن حميد, عن عكرمة, عن ابن عبـاس قال: وضع البـيت علـى أركان الـماء علـى أربعة أركان قبل أن تـخـلق الدنـيا بألفـي عام, ثم دُحيت الأرض من تـحت البـيت.

1555ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا يعقوب, عن هارون بن عنترة, عن عطاء بن أبـي ربـاح, قال: وجدوا بـمكة حجرا مكتوبـا علـيه: «إنـي أنا الله ذو بَكّة بنـيته يوم صنعت الشمس والقمر, وحففته بسبعة أملاك حَفّـا».

1556ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, قال: حدثنـي عبد الله بن أبـي نـجيح, عن مـجاهد وغيره من أهل العلـم: أن الله لـما بَوّأ إبراهيـم مكان البـيت, خرج إلـيه من الشام, وخرج معه بإسماعيـل وأمه هَاجَر, وإسماعيـلُ طفلٌ صغير يرضع, وحُملوا فـيـما حدثنـي علـى البُراق ومعه جبريـل يدله علـى موضع البـيت ومعالـم الـحرم. فخرج وخرج معه جبريـل, فقال: كان لا يـمرّ بقرية إلا قال: أبهذه أُمرت يا جبريـل؟ فـيقول جبريـل: امْضِهْ حتـى قدم به مكة, وهي إذ ذاك عِضَاهُ سلَـم وسَمُر يربّها أناس يقال لهم العمالـيق خارج مكة وما حولها, والبـيت يومئذٍ ربوة حمراء مَدِرَة, فقال إبراهيـم لـجبريـل: أهاهنا أمرت أن أضعهما؟ قـال: نعم فعمد بهما إلـى موضع الـحجر فأنزلهما فـيه, وأمر هاجر أم إسماعيـل أن تتـخذ فـيه عريشا, فقال: رَبِّ إنّـي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرّيّتِـي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَـيْتِكَ الـمُـحَرّمِ إلـى قوله: لَعَلّهُمْ يَشْكُرُونَ.

قال ابن حميد: قال سلـمة: قال ابن إسحاق: ويزعمون والله أعلـم أن ملكا من الـملائكة أتـى هاجر أمّ إسماعيـل, حين أنزلهما إبراهيـم مكة قبل أن يرفع إبراهيـم وإسماعيـل القواعد من البـيت, فأشار لهما إلـى البـيت, وهو ربوة حمراء مَدِرَة, فقال لهما: هذا أول بـيت وضع فـي الأرض, وهو بـيت الله العتـيق, واعلـمي أن إبراهيـم وإسماعيـل هما يرفعانه. فـالله أعلـم.

1557ـ حدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا هشام بن حسان, قال: أخبرنـي حميد, عن مـجاهد, قال: خـلق الله موضع هذا البـيت قبل أن يخـلق شيئا من الأرض بألفـي سنة, وأركانه فـي الأرض السابعة.

1558ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن عيـينة, قال: أخبرنـي بشر بن عاصم, عن ابن الـمسيب, قال: حدثنا كعب أن البـيت كان غُثَاءَةً علـى الـماء قبل أن يخـلق الله الأرض بأربعين سنة, ومنه دُحيت الأرض. قال: وحدثنا عن علـيّ بن أبـي طالب أن إبراهيـم أقبل من أرمينـية معه السكينة, تدله علـى تبوّىء البـيت كما تتبوأ العنكبوت بـيتها. قال: فرفعت عن أحجار تطيقه أو لا تطيقه ثلاثون رجلاً. قال: قلت يا أبـا مـحمد, فإن الله يقول: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ قال: كان ذاك بعد.

والصواب من القول فـي ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالـى ذكره أخبر عن إبراهيـم خـلـيـله أنه وابنه إسماعيـل رفعا القواعد من البـيت الـحرام.

وجائز أن يكون ذلك قواعد بـيت كان أهبطه مع آدم, فجعله مكان البـيت الـحرام الذي بـمكة. وجائز أن يكون ذلك كان القبة التـي ذكرها عطاء مـما أنشأه الله من زَبَد الـماء. وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درّة أهبطا من السماء. وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم حتـى رفع قواعده إبراهيـم وإسماعيـل. ولا علـم عندنا بأيّ ذلك كان من أيَ لأن حقـيقة ذلك لا تُدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم بـالنقل الـمستفـيض, ولا خبر بذلك تقوم به الـحجة فـيجب التسلـيـم لها, ولا هو إذ لـم يكن به خبر علـى ما وصفنا مـما يدل علـيه بـالاستدلال والـمقايـيس فـيـمثل بغيره, ويستنبط علـمه من جهة الاجتهاد, فلا قول فـي ذلك هو أولـى بـالصواب ما قلنا. والله تعالـى أعلـم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا.

يعنـي تعالـى ذكره بذلك: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ وَإِسْمَاعِيـلُ يقولان: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا وذكر أن ذلك كذلك فـي قراءة ابن مسعود, وهو قول جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1559ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: يبنـيان وهما يدعوان الكلـمات التـي ابتلـى بها إبراهيـمَ ربّه, قال: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا إِنّكَ أنْتَ السّميعُ العَلِـيـمُ رَبّنا وَاجْعَلْنَا مُسْلِـمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنَا أُمّةً مُسْلِـمَةً لَكَ رَبّنا وَابْعَثْ فِـيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ.

1560ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج عن ابن جريج, قال: أخبرنـي ابن كثـير, قال: حدثنا سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ وإسْمَاعِيـلُ قال: هما يرفعان القواعد من البـيت, ويقولان: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا إِنّكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ قال: وإسماعيـل يحمل الـحجارة علـى رقبته والشيخ يبنـي.

فتأويـل الآية علـى هذا القول: وإذ يرفع إبراهيـم القواعد من البـيت وإسماعيـل قائلَـيْنِ: ربنا تقبل منا.

وقال آخرون: بل قائل ذلك كان إسماعيـل.

فتأويـل الآية علـى هذا القول: وإذ يرفع إبراهيـم القواعد من البـيت, وإذ يقول إسماعيـل: ربنا تقبل منا. فـيصير حيئنذٍ إسماعيـل مرفوعا بـالـجملة التـي بعده, و«يقول» حينئذٍ خبر له دون إبراهيـم.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي الذي رفع القواعد بعد إجماعهم علـى أن إبراهيـم كان مـمن رفعها, فقال بعضهم: رفعها إبراهيـم وإسماعيـل جميعا. ذكر من قال ذلك:

1561ـ حدثنـي موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَعَهِدْنَا إلـى إبْرَاهِيـمَ وَإسْمَاعِيـلَ أنْ طَهّرَا بَـيْتِـيَ للطّائِفِـينَ قال: فـانطلق إبراهيـم حتـى أتـى مكة, فقام هو وإسماعيـل وأخذا الـمعاول لا يدريان أين البـيت, فبعث الله ريحا يقال لها ريح الـخَجُوج, لها جناحان ورأس فـي صورة حية. فكنست لهما ما حول الكعبة, وعن أساس البـيت الأول, واتبعاها بـالـمعاول يحفران حتـى وضعا الأساس فذلك حين يقول: وَإذْ بَوّأنا لابْرَاهِيـمَ مَكانَ البَـيْتِ. فلـما بنـيا القواعد فبلغا مكان الركن قال إبراهيـم لإسماعيـل: يا بنـي اطلب لـي حجرا حسنا أضعه ههنا قال: يا أبت إنـي كسلان تعب قال: علـيّ بذلك فـانطلق فطلب له حجرا فجاءه بحجر, فلـم يرضه, فقال: ائتنـي بحجر أحسن من هذا فـانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريـل بـالـحجر الأسود من الهند, وكان أبـيض ياقوتة بـيضاء مثل الثّغامة, وكان آدم هبط به من الـجنة فـاسودّ من خطايا الناس, فجاءه إسماعيـل بحجر فوجده عند الركن, فقال: يا أبت من جاء بهذا؟ فقال: من هو أنشط منك. فبنـياه.

1562ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن ابن إسحاق, عن عمرو بن عبد الله بن عتبة, عن عبـيد بن عمير اللـيثـي, قال: بلغنـي أن إبراهيـم وإسماعيـل هما رفعا قواعد البـيت.

وقال آخرون: بل رفع قواعد البـيت إبراهيـم, وكان إسماعيـل يناوله الـحجارة. ذكر من قال ذلك:

1563ـ حدثنا أحمد بن ثابت الرازي, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن أيوب, وكثـير بن كثـير بن الـمطلب بن أبـي وداعة, يزيد أحدهما علـى الآخر, عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: جاء إبراهيـم وإسماعيـل يبري نَبْلاً قريبـا من زمزم. فلـما رآه قام إلـيه, فصنعا كما يصنع الوالد بـالولد, والولد بـالوالد, ثم قال: يا إسماعيـل إن الله أمرنـي بأمر, قال: فـاصنع ما أمرك ربك قال: وتعيننـي؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنـي أن أبنـي ههنا بـيتا وأشار إلـى الكعبة, والكعبة مرتفعة علـى ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البـيت. قال: فجعل إسماعيـل يأتـي بـالـحجارة, وإبراهيـم يبنـي, حتـى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الـحجر فوضعه له, فقام علـيه وهو يبنـي, وإسماعيـل يناوله الـحجارة وهما يقولان: رَبّنا تَقَبلْ مِنّا إنّكَ أنْتَ السمِيعُ العَلِـيـمُ حتـى دَوّرَ حول البـيت.

1564ـ حدثنا ابن بشار القزاز, قال: حدثنا عبـيد الله بن عبد الـمـجيد أبو علـيّ الـحنفـي, قال: حدثنا إبراهيـم بن نافع قال: سمعت كثـير بن كثـير يحدّث عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس قال: جاء يعنـي إبراهيـم فوجد إسماعيـل يصلـح نَبْلاً من وراء زمزم, قال إبراهيـم: يا إسماعيـل إن الله ربك قد أمرنـي أن أبنـي له بـيتا فقال له إسماعيـل: فأطِعْ ربك فـيـما أمرك فقال له إبراهيـم: قد أمرك أن تعيننـي علـيه. قال: إذا أفعل. قال: فقام معه, فجعل إبراهيـم يبنـيه وإسماعيـل يناوله الـحجارة, ويقولان: رَبنا تَقَبّلْ مِنا إنكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ فلـما ارتفع البنـيان وضعف الشيخ عن رفع الـحجارة, قام علـى حجر فهو مقام إبراهيـم فجعل يناوله ويقولان: رَبنا تَقَبلْ مِنّا إنكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ.

وقال آخرون: بل الذي رفع قواعد البـيت إبراهيـم وحده وإسماعيـل يومئذ طفل صغير. ذكر من قال ذلك:

1565ـ حدثنا مـحمد بن بشار ومـحمد بن الـمثنى, قالا: حدثنا مؤمل, قال: حدثنا سفـيان, عن أبـي إسحاق, عن حارثة بن مصرف, عن علـيّ, قال: لـما أمر إبراهيـم ببناء البـيت, خرج معه إسماعيـل وهاجر. قال: فلـما قدم مكة رأى علـى رأسه فـي موضع البـيت مثل الغمامة فـيه مثل الرأس, فكلّـمه فقال: يا إبراهيـم ابْنِ علـى ظلـي أو علـى قَدْري ولا تزد ولا تنقص فلـما بنى (خرج) وخـلف إسماعيـل وهاجر, فقالت هاجر: يا إبراهيـم إلـى من تَكِلُنا؟ قال: إلـى الله. قالت: انطلق فإنه لا يضيعنا. قال: فعطش إسماعيـل عطشا شديدا. قال: فصعدت هاجر الصفـا فنظرت فلـم تر شيئا, ثم أتت الـمروة فنظرت فلـم تر شيئا, ثم رجعت إلـى الصفـا فنظرت فلـم تر شيئا, حتـى فعلت ذلك سبع مرّات فقالت: يا إسماعيـل مُتْ حيث لا أراك فأتته وهو يَفْحَص برجله من العطش. فناداها جبريـل, فقال لها: من أنت؟ فقالت: أنا هاجر أمّ ولد إبراهيـم. قال: إلـى من وكلكما؟ قالت: وكلنا إلـى الله. قال: وكلكما إلـى كافٍ. قال: ففَحَص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم, فجعلت تـحبس الـماء. فقال: دَعِيهِ فإنها رَوَاءٌ.

1566ـ حدثنا عبـاد, قال: حدثنا أبو الأحوص, عن سماك, عن خالد بن عرعرة أن رجلاً قام إلـى علـيّ فقال: ألا تـخبرنـي عن البـيت؟ أهو أول بـيت وضع فـي الأرض؟ فقال: لا, ولكن هو أول بـيت وضع فـي البركة مقامُ إبراهيـم, ومن دخـله كان آمنا, وإن شئت أنبأتك كيف بنـي إن الله أوحى إلـى إبراهيـم أن ابْنِ لـي بـيتا فـي الأرض, قال: فضاق إبراهيـم بذلك ذرعا, فأرسل الله السكينة وهي ريح خَجُوجٌ, ولها رأسان, فأتبع أحدهما صاحبه حتـى انتهت إلـى مكة, فتطوّتْ علـى موضع البـيت كتَطَوّي الـحَجَفَة, وأمر إبراهيـم أن يبنـي حيث تستقرّ السكينة. فبنى إبراهيـم وبقـي حجر, فذهب الغلام يبغي شيئا, فقال إبراهيـم: لا, ابغي حجرا كما آمرك قال: فـانطلق الغلام يـلتـمس له حجرا, فأتاه فوجده قد ركّب الـحجر الأسود فـي مكانه فقال: يا أبت من أتاك بهذا الـحجر؟ قال: أتانـي به من لـم يتّكل علـى بنائك جاء به جبريـل من السماء. فأتـماه.

حدثنا مـحمد بن الـمثنى, قال: حدثنا مـحمد بن جعفر, قال: حدثنا سعيد, عن سماك, سمعت خالد بن عرعرة يحدّث عن علـيّ بنـحوه.

حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو داود, قال: حدثنا شعبة وحماد بن سلـمة وأبو الأحوص كلهم عن سماك, عن خالد بن عرعرة, عن علـيّ بنـحوه.

فمن قال: رفع القواعد إبراهيـم وإسماعيـل, أو قال رفعها إبراهيـم وكان إسماعيـل يناوله الـحجارة. فـالصواب فـي قوله أن يكون الـمضمر من القول لإبراهيـم وإسماعيـل, ويكون الكلام حينئذٍ: وَإذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ وَإسْمَاعِيـلُ يقولان: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا.

وقد كان يحتـمل علـى هذا التأويـل أن يكون الـمضمر من القول لإسماعيـل خاصة دون إبراهيـم, ولإبراهيـم خاصة دون إسماعيـل لولا ما علـيه عامة أهل التأويـل من أن الـمضمر من القول لإبراهيـم وإسماعيـل جميعا.

وأما علـى التأويـل الذي روي عن علـيّ أن إبراهيـم هو الذي رفع القواعد دون إسماعيـل, فلا يجوز أن يكون الـمضمر من القول عند ذلك إلا لإسماعيـل خاصة.

والصواب من القول عندنا فـي ذلك أن الـمضمر من القول لإبراهيـم وإسماعيـل, وأن قواعد البـيت رفعها إبراهيـم وإسماعيـل جميعا وذلك أن إبراهيـم وإسماعيـل إن كانا هما بنـياهما ورفعاها فهو ما قلنا, وإن كان إبراهيـم تفرّد ببنائها, وكان إسماعيـل يناوله, فهما أيضا رفعاها لأن رفعها كان بهما من أحدهما البناء من الاَخر نَقْلُ الـحجارة إلـيها ومعونة وضع الأحجار مواضعها. ولا تـمتنع العرب من نسبة البناء إلـى من كان بسببه البناء ومعونته. وإنـما قلنا ما قلنا من ذلك لإجماع جميع أهل التأويـل علـى أن إسماعيـل معنـيّ بـالـخبر الذي أخبر الله عنه وعن أبـيه أنهما كانا يقولانه, وذلك قولهما: رَبّنَا تَقَبّلْ مِنّا إِنّكَ أَنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ فمعلوم أن إسماعيـل لـم يكن لـيقول ذلك إلا وهو إما رجل كامل, وإما غلام قد فهم مواضع الضرّ من النفع, ولزمته فرائض الله وأحكامه. وإذا كان فـي حال بناء أبـيه, ما أمره الله ببنائه ورفعه قواعد بـيت الله كذلك, فمعلوم أنه لـم يكن تاركا معونة أبـيه, إما علـى البناء, وإما علـى نقل الـحجارة. وأيّ ذلك كان منه فقد دخـل فـي معنى من رفع قواعد البـيت, وثبت أن القول الـمضمر خبر عنه وعن والده إبراهيـم علـيهما السلام.

فتأويـل الكلام: وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيـمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَـيْتِ وَإسْمَاعِيـلُ يقولان: ربنا تقبل منا عملنا وطاعتنا إياك وعبـادتنا لك فـي انتهائنا إلـى أمرك الذي أمرتنا به فـي بناء بـيتك الذي أمرتنا ببنائه إنك أنت السميع العلـيـم. وفـي إخبـار الله تعالـى ذكره أنهما رفعا القواعد من البـيت وهما يقولان: رَبّنا تَقَبّلْ مِنّا إِنّكَ أَنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ دلـيـل واضح علـى أن بناءهما ذلك لـم يكن مسكنا يسكنانه ولا منزلاً ينزلانه, بل هو دلـيـل علـى أنهما بنـياه ورفعا قواعده لكل من أراد أن يعبد الله تقرّبـا منهما إلـى الله بذلك ولذلك قالا: رَبّنا تَقَبّلْ منّا. ولو كانا بنـياه مسكنا لأنفسهما لـم يكن لقولهما: تقبل منا وجه مفهوم, لأنه كانا يكونان لو كان الأمر كذلك سائلـين أن يتقبل منهما ما لا قربة فـيه إلـيه, ولـيس موضعهما مسألة الله قبول, ما لا قربة إلـيه فـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنّكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ.

وتأويـل قوله: إنّكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ إنك أنت السميع دعاءنا ومسألتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا من طاعتك فـي بناء بـيتك الذي أمرتنا ببنائه, العلـيـم بـما فـي ضمائر نفوسنا من الإذعان لك فـي الطاعة والـمصير إلـى ما فـيه لك الرضا والـمـحبة, وما نُبدي ونُـخفـي من أعمالنا. كما:

1567ـ حدثنـي القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, قال: قال ابن جريج: أخبرنـي أبو كثـير, قال: حدثنا سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس: تَقَبّلْ مِنّا إنّكَ أنْتَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ يقول: تقبل منا إنك سميع الدعاء.

الآية : 128

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{رَبّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرّيّتِنَآ أُمّةً مّسْلِمَةً لّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنّكَ أَنتَ التّوّابُ الرّحِيمُ }

وهذا أيضا خبر من الله تعالـى ذكره عن إبراهيـم وإسماعيـل أنهما كانا يرفعان القواعد من البـيت وهما يقولان: رَبّنا وَاجْعَلْنَا مُسْلِـمَيْنِ لَكَ يعنـيان بذلك: واجعلنا مستسلـمين لأمرك خاضعين لطاعتك, لا نُشْرِكَ معك فـي

الطاعة أحدا سواك, ولا فـي العبـادة غيرك. وقد دللنا فـيـما مضى علـى أن معنى الإسلام الـخضوع لله بـالطاعة.
وأما قوله: وَمِنْ ذَرّيّتِنَا أُمّةً مُسْلِـمَةً لَكَ فإنهما خَصّا بذلك بعض الذرية لأن الله تعالـى ذكره قد كان أعلـم إبراهيـم خـلـيـله صلى الله عليه وسلم قبل مسألته هذه أن من ذرّيته من لا ينال عهده لظلـمه وفجوره, فخصا بـالدعوة بعض ذرّيتهما. وقد قـيـل إنهما عنـيا بذلك العرب. ذكر من قال ذلك:
1568ـ حدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَمِنْ ذُرّيَتِنَا أمّةً مُسْلِـمَةً لَكَ يعنـيان العرب. وهذا قول يدلّ ظاهر الكتاب علـى خلافه لأن ظاهره يدل علـى أنهما دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته والـمستـجيبـين لأمره, وقد كان فـي ولد إبراهيـم العرب وغير العرب, والـمستـجيب لأمر الله والـخاضع له بـالطاعة من الفريقـين فلا وجه لقول من قال: عنى إبراهيـم بدعائه ذلك فريقا من ولده بأعيانهم دون غيرهم إلا التـحكم الذي لا يعجز عنه أحد. وأما الأمة فـي هذا الـموضع, فإنه يعنـي بها الـجماعة من الناس, من قول الله: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمّةٌ يهْدُونَ بـالـحقّ.
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وأرِنا مَناسِكَنا.
اختلفت القراء فـي قراءة ذلك, فقرأه بعضهم: وأرنا مَناسِكَنا بـمعنى رؤية العين, أي أظهرها لأعيننا حتـى نراها. وذلك قراءة عامة أهل الـحجاز والكوفة, وكان بعض من يوجّه تأويـل ذلك إلـى هذا التأويـل يسكن الراء من «أرْنا», غير أنه يُشِمّها كسرة.
واختلف قائل هذه الـمقالة وقراء هذه القراءة فـي تأويـل قوله: مَناسِكَنا فقال بعضهم: هي مناسك الـحجّ ومعالـمه. ذكر من قال ذلك:
1569ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وأرِنا مَناسِكَنا فأراهما الله مناسكهما الطواف بـالبـيت, والسعي بـين الصفـا والـمروة, والإفـاضة من عرفـات, والإفـاضة من جمع, ورمي الـجمار, حتـى أكمل الله الدين أو دينه.
1570ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر عن قتادة فـي قوله: وأرِنا مَناسِكَنا قال: أرنا نُسكنا وحَجّنا.
1571ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي, قال: لـما فرغ إبراهيـم وإسماعيـل من بنـيان البـيت أمره الله أن ينادي فقال: وأذّنْ فِـي النّاسِ بـالـحَجّ فنادى بـين أخشبـي مكة: يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تـحجوا بـيته. قال: فوقرت فـي قلب كل مؤمن, فأجابه كل من سمعه من جبل أو شجر أو دابة: لبـيك لبـيك فأجابوه بـالتلبـية: لبـيك اللهمّ لبـيك وأتاه من أتاه. فأمره الله أن يخرج إلـى عرفـات ونَعَتَها فخرج فلـما بلغ الشجرة عند العقبة استقبله الشيطان, فرماه بسبع حَصَيَاتٍ يكبر مع كل حصاة, فطار فوقع علـى الـجمرة الثانـية أيضا, فصدّه فرماه وكبر, فطار فوقع علـى الـجمرة الثالثة, فرماه وكبر. فلـما رأى أنه لا يُطيقه, ولـم يدر إبراهيـم أين يذهب, انطلق حتـى أتـى ذا الـمجاز, فلـما نظر إلـيه فلـم يعرفه جاز فلذلك سمي ذا الـمجاز. ثم انطلق حتـى وقع بعرفـات, فلـما نظر إلـيها عرف النعت, قال: قد عرفتُ فسميت عرفـات. فوقـف إبراهيـم بعرفـات. حتـى إذا أمسى ازدلف إلـى جمع, فسميت الـمزدلفة. فوقـف بجمع. ثم أقبل حتـى أتـى الشيطان حيث لقـيه أوّل مرّة فرماه بسبع

حصيات سبع مرّات, ثم أقام بـمنى حتـى فرغ من الـحجّ وأمرِه. وذلك قوله: وأرنَا مَناسِكَنا.

وقال آخرون مـمن قرأ هذه القراءة: الـمناسك الـمذابح. فكان تأويـل هذه الآية علـى قول من قال ذلك: وأرنا كيف نَنْسُكُ لك يا ربنا نسائكنا فنذبحها لك. ذكر من قال ذلك:

1572ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن جريج, عن عطاء: وأرِنا مَناسِكَنا قال: ذَبْحَنا.

حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا الثوري, عن ابن جريج, عن عطاء, قال: مذابحنا.

1573ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

حدثنا الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد مثله.

1574ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال عطاء: سمعت عبـيد بن عمير يقول: وأرِنا مَنَاسِكَنَا قال: أرنا مذابحنا.

وقال آخرون: «وأرْنا مَناسِكَنا» بتسكين الراء. وزعموا أن معنى ذلك: وعلّـمنا ودُلَّنا علـيها, لا أن معناها أرناها بـالأبصار. وزعموا أن ذلك نظير قول حُطائط بن يَعْفر أخي الأسود بن يعفر:

أرِينِـي جَوَادا ماتَ هُزْلاً لأنّنِـيأرَى ما تَرَينَ أوْ بَخِيلاً مُخَـلّدا

يعنـي بقوله أرينـي: دلـينـي علـيه وعرّفـينـي مكانه, ولـم يَعْنِ به رؤية العين. وهذه قراءة رُويت عن بعض الـمتقدّمين. ذكر من قال ذلك:

1575ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال: قال عطاء: أرِنا مَناسِكَنا أخرجها لنا, علـمناها.

1576ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن جريج, قال: قال ابن الـمسيب: قال علـيّ بن أبـي طالب: لـما فرغ إبراهيـم من بناء البـيت, قال: فعلت أي ربّ فأرنا مناسكنا, أبرزها لنا, علـمناها فبعث الله جبريـل فحجّ به.

والقول واحد, فمن كسر الراء جعل علامة الـجزم سقوط الـياء التـي فـي قول القائل أرنـيه, وأقرّ الراء مكسورة كما كانت قبل الـجزم. ومن سكن الراء من «أرْنا» توهم أن إعراب الـحرف فـي الراء فسكنها فـي الـجزم كما فعلوا ذلك فـي لـم يكن ولـم يَكُ. وسواء كان ذلك من رؤية العين, أو من رؤية القلب. ولا معنى لفَرْقِ من فَرَق بـين رؤية العين فـي ذلك ورؤية القلب.

وأما الـمناسك فإنها جمع «مَنْسِك», وهو الـموضع الذي ينسك لله فـيه, ويتقرّب إلـيه فـيه بـما يرضيه من عمل صالـح إما بذبح ذبـيحة له, وإما بصلاة أو طواف أو سعي, وغير ذلك من الأعمال الصالـحة ولذلك قـيـل لـمشاعر الـحجّ مناسكه, لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس, ويتردّدون إلـيها. وأصل الـمَنْسِك فـي كلام العرب: الـموضع الـمعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه, يقال: لفلان منسك, وذلك إذا كان له موضع يعتاده لـخير أو شرّ ولذلك سميت الـمناسك مناسك, لأنها تُعتاد ويتردّد إلـيها بـالـحجّ والعمرة, وبـالأعمال التـي يتقرّب بها إلـى الله. وقد قـيـل: إن معنى

النسك: عبـادة الله, وأن الناسك إنـما سمي ناسكا بعبـادة ربه, فتأوّل قائل هذه الـمقالة قوله: وأرِنا مَناسِكَنا وعَلّـمْنا عبـادتك كيف نعبدك, وأين نعبدك, وما يرضيك عنا فنفعله. وهذا القول وإن كان مذهبـا يحتـمله الكلام, فإن الغالب علـى معنى الـمناسك ما وصفنا قبل من أنها مناسك الـحجّ التـي ذكرنا معناها. وخرج هذا الكلام من قول إبراهيـم وإسماعيـل علـى وجه الـمسألة منهما ربهما لأنفسهما, وإنـما ذلك منهما مسألة ربهما لأنفسهما وذرّيتهما الـمسلـمين, فلـما ضما ذريتهما الـمسلـمين إلـى أنفسهما صارا كالـمخبرين عن أنفسهم بذلك. وإنـما قلنا إن ذلك كذلك لتقدم الدعاء منهما للـمسلـمين من ذريتهما قَبْلُ فـي أوّل الآية, وتأخره بعد فـي الآية الأخرى.

فأما الذي فـي أول الآية فقولهما: رَبّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِـمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنَا أُمّةً مُسْلِـمَةً لَكَ. ثم جمعا أنفسهما والأمة الـمسلـمة من ذريتهما فـي مسألتهما ربهما أن يريهم مناسكهم فقالا: وأرِنا مَناسِكَنا.

وأما التـي فـي الآية التـي بعدها: رَبّنا وَابْعَثْ فِـيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ فجعلا الـمسألة لذريتهما خاصة. وقد ذكر أنها فـي قراءة ابن مسعود: «وأرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ», يعنـي بذلك: وأر ذريتنا الـمسلـمة مناسكهم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَتُبْ عَلَـيْنَا إِنّكَ أنْتَ التّوابُ الرّحِيـمُ.

أما التوبة فأصلها الأوبة من مكروه إلـى مـحبوب, فتوبة العبد إلـى ربه: أوبته مـما يكرهه الله منه بـالندم علـيه والإقلاع عنه, والعزم علـى ترك العود فـيه. وتوبة الربّ علـى عبده: عوده علـيه بـالعفو له عن جُرْمه والصفح له عن عقوبة ذنبه, مغفرةً له منه, وتفضلاً علـيه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فـاحتاجا إلـى مسألة ربهما التوبة؟ قـيـل: إنه لـيس أحد من خـلق الله إلا وله من العمل فـيـما بـينه وبـين ربه ما يجب علـيه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك, وإنـما خَصّا به الـحال التـي كانا علـيها من رفع قواعد البـيت, لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستـجيب الله فـيها دعاءهما, ولـيجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدي بها بعدهما, وتتـخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تَنَصّل من الذنوب إلـى الله. وجائز أن يكونا عنـيا بقولهما: وتب علـينا وتب علـى الظلـمة من أولادنا وذريتنا, الذين أعلـمتنا أمرهم من ظلـمهم وشركهم, حتـى ينـيبوا إلـى طاعتك. فـيكون ظاهر الكلام علـى الدعاء لأنفسهما, والـمعنـيّ به ذريتهما, كما يقال: أكرمنـي فلان فـي ولدي وأهلـي, وبرّنـي فلان: إذا برّ ولده.

وأما قوله: إنّكَ أنْتَ التواب الرّحِيـمُ فإنه يعنـي به: إنك أنت العائد علـى عبـادك بـالفضل والـمتفضل علـيهم بـالعفو والغفران, الرحيـم بهم, الـمستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته, الـمنـجي من تريد نـجاته منهم برأفتك من سخطك.

الآية : 129

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{رَبّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكّيهِمْ إِنّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }

وهذه دعوة إبراهيـم وإسماعيـل لنبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم خاصة, وهي الدعوة التـي كان نبـينا صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا دعوة أبـي إبراهيـم وبشرى عيسى».

1577ـ حدثنا بذلك ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, عن مـحمد بن إسحاق, عن ثور بن يزيد, عن خالد بن معدان الكلاعي: أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال «نعم, أنا دَعْوَةُ أبـي إبْرَاهِيـمَ, وبُشْرَى عِيسَى صلى الله عليه وسلم».

1578ـ حدثنـي عمران بن بكار الكلاعي, قال: حدثنا أبو الـيـمان, قال: حدثنا أبو كريب, عن أبـي مريـم, عن سعيد بن سويد, عن العربـاض بن سارية السلـمي, قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّـي عِنْدَ اللّهِ فِـي أُمّ الكِتابِ خَاتِـمُ النّبِـيّـينَ وَإنّ آدَمَ لَـمُنْـجَدِلٌ فِـي طِينَتِه, وَسَوْفَ أُنَبّئُكُمْ بِتَـأوِيـلِ ذَلِكَ: أنا دَعْوَة أبـي إبْرَاهِيـمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى قَوْمَه وَرُءْويا أُمي».

حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: حدثنا ابن وهب, قال: أخبرنـي معاوية, وحدثنـي عبـيد بن آدم بن أبـي إياس العسقلانـي, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنا اللـيث بن سعد, عن معاوية بن صالـح, قالا جميعا, عن سعيد بن سويد, عن عبد الله بن هلال السلـمي, عن عربـاض بن سارية السلـمي, عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم بنـحوه.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو صالـح, قال: حدثنا معاوية, عن سعيد بن سويد, عن عبد الأعلـى بن هلال السلـمي, عن عربـاض بن سارية أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر نـحوه.

وبـالذي قلنا فـي ذلك قال جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1579ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: رَبّنا وَابْعَثْ فِـيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ففعل الله ذلك, فبعث فـيهم رسولاً من أنفسهم يعرفون وجهه ونسبه, يخرجهم من الظلـمات إلـى النور, ويهديهم إلـى صراط العزيز الـحميد.

1580ـ حدثنا موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: رَبنا وَابْعَثْ فِـيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هو مـحمد صلى الله عليه وسلم.

1581ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه عن الربـيع: رَبّنَا وَابْعَثْ فِـيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمُ هو مـحمد صلى الله عليه وسلم, فقـيـل له: قد استـجيب ذلك, وهو فـي آخر الزمان. ويعنـي تعالـى ذكره بقوله: يَتْلُوا عَلَـيْهِمْ آيَاتِكَ يقرأ علـيهم كتابك الذي توحيه إلـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيُعَلّـمهُم الكِتابَ وَالـحِكْمَةَ.

ويعنـي بـالكتاب القرآن. وقد بـينت فـيـما مضى لـم سمي القرآن كتابـا وما تأويـله. وهو قول جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1582ـ حدثنـي يونس قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: ويعلـمهم الكتاب: القرآن.

ثم اختلف أهل التأويـل فـي معنى الـحكمة التـي ذكرها الله فـي هذا الـموضع, فقال بعضهم: هي السنة. ذكر من قال ذلك:

1583ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة, والـحكمة: أي السنة.

وقال بعضهم: الـحكمة هي الـمعرفة بـالدين والفقه فـيه. ذكر من قال ذلك:

1584ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قلت لـمالك: ما الـحكمة؟ قال: الـمعرفة بـالدين, والفقه فـي الدين, والاتبـاع له.

1585ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَالـحكْمَةَ قال: الـحكمة: الدين الذي لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم يعلـمهم إياها. قال: والـحكمة: العقل فـي الدين وقرأ: وَمَنْ يُؤْتَ الـحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِـيَ خَيْرا كَثِـيرا. وقال لعيسى: وَيُعَلّـمُهُ الكِتابَ وَالـحِكْمَةَ وَالتّوْرَاةَ وَإلانْـجِيـلَ. قال: وقرأ ابن زيد: وَاتْلُ عَلَـيْهِمْ نَبأ الّذِي آتَـيْنَاهُ آياتِنا فـانْسَلَـخَ مِنْهَا. قال: لـم ينتفع بـالآيات حيث لـم تكن معها حكمة. قال: والـحكمة شيء يجعله الله فـي القلب ينوّر له به.

والصواب من القول عندنا فـي الـحكمة, أنها العلـم بأحكام الله التـي لا يدرك علـمها إلا ببـيان الرسول صلى الله عليه وسلم والـمعرفة بها, وما دلّ علـيه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذ من «الـحُكْمِ» الذي بـمعنى الفصل بـين الـحقّ والبـاطل بـمنزلة «الـجِلسة والقِعدة» من «الـجلوس والقعود», يقال منه: إن فلانا لـحكيـم بـيّنُ الـحكمة, يعنـي به أنه لبـيّن الإصابة فـي القول والفعل. وإذ كان ذلك كذلك, فتأويـل الآية: ربنا وابعث فـيهم رسولاً منهم يتلو علـيهم آياتك, ويعلـمهم كتابك الذي تنزله علـيهم, وفصل قضائك, وأحكامك التـي تعلـمه إياها.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَيُزَكّيهِمْ.

قد دللنا فـيـما مضى قَبْلُ علـى أن معنى التزكية: التطهير, وأن معنى الزكاة: النـماء والزيادة. فمعنى قوله: ويُزكيهِمْ فـي هذا الـموضع: ويطهرهم من الشرك بـالله وعبـادة الأوثان وينـميهم ويكثرهم بطاعة الله. كما:

1586ـ حدثنـي الـمثنى بن إبراهيـم, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة, عن ابن عبـاس: يَتْلُوا عَلَـيْهِمْ آياتِكَ وَيُزَكّيهِمْ قال: يعنـي بـالزكاة, طاعة الله والإخلاص.

1587ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج, قال: قال ابن جريج: قوله: وَيُزَكّيهِمْ قال: يطهرهم من الشرك ويخـلصهم منه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إنّكَ أنْتَ العَزِيزُ الـحَكِيـمُ.

يعنـي تعالـى ذكره بذلك: إنك يا ربّ أنت العزيز القويّ الذي لا يعجزه شيء أراده, فـافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك. والـحكيـم: الذي لا يدخـل تدبـيره خَـلَلٌ ولا زَلَلٌ, فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا, ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك.

الآية : 130

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَمَن يَرْغَبُ عَن مّلّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدّنْيَا وَإِنّهُ فِي الاَخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلّةِ إبْرَاهِيـمَ وأيّ الناس يزهد فـي ملة إبراهيـم ويتركها رغبة عنها إلـى غيرها. وإنـما عنى الله بذلك الـيهود والنصارى لاختيارهم ما اختاروا من الـيهودية والنصرانـية علـى الإسلام لأن ملة إبراهيـم هي الـحنـيفـية الـمسلـمة, كما قال تعالـى ذكره: مَا كَانَ إبْرَاهِيـمُ يَهُودِيّا وَلاَ نَصْرَانِـيّا وَلَكِنْ كانَ حَنِـيفـا مُسْلِـما فقال تعالـى ذكره لهم: ومن يزهد عن ملة إبراهيـم الـحنـيفـية الـمسلـمة إلا من سَفِهَ نَفْسَه. كما:

1588ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَمَنْ يَرْغب عَن مِلّةِ إِبْرَاهِيـمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه رغب عن ملته الـيهود والنصارى, واتـخذوا الـيهودية والنصرانـية بدعة لـيست من الله, وتركوا ملة إبراهيـم يعنـي الإسلام حنـيفـا, كذلك بعث الله نبـيه مـحمدا صلى الله عليه وسلم بـملة إبراهيـم.

1589ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع فـي قوله: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلّةِ إِبْرَاهِيـمَ إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ قال: رغبت الـيهود والنصارى عن ملة إبراهيـم وابتدعوا الـيهودية والنصرانـية ولـيست من الله, وتركوا ملة إبراهيـم الإسلام.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ إلا من سَفِهتْ نفسُه, وقد بـينا فـيـما مضى أن معنى السفه: الـجهل. فمعنى الكلام: وما يرغب عن ملة إبراهيـم الـحنـيفـية إلا سفـيهٌ جاهلٌ بـموضع حظّ نفسه فـيـما ينفعها ويضرّها فـي معادها. كما:

1590ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ قال: إلا من أخطأ حظه.

وإنـما نصب «النفس» علـى معنى الـمفسر ذلك أن السفه فـي الأصل للنفس, فلـما نقل إلـى «مَنْ» نصبت «النفس» بـمعنى التفسير, كما يقال: هو أوسعكم دارا, فتدخـل «الدار» فـي الكلام علـى أن السعة فـيه لا فـي الرجل. فكذلك النفس أدخـلت, لأن السفه للنفس لا ل«مَنْ» ولذلك لـم يجز أن يقال سفه أخوك, وإنـما جاز أن يفسر بـالنفس وهي مضافة إلـى معرفة لأنها فـي تأويـل نكرة.

وقال بعض نـحويـي البصرة: إن قوله: سَفِهَ نَفْسَهُ جرت مـجرى «سَفِهَ» إذا كان الفعل غير متعدّ. وإنـما عدّاه إلـى «نفسه» و«رأيه» وأشبـاه ذلك مـما هو فـي الـمعنى نـحو سفه, إذا هو لـم يتعدّ. فأما «غبن» و«خسر» فقد يتعدّى إلـى غيره, يقال: غبن خمسين, وخسر خمسين.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَلَقَدِ اصطَفَـيْنَاهُ فِـي الدنْـيَا.

يعنـي تعال ذكره بقوله: وَلَقَدِ اصْطَفَـيْنَاهُ فِـي الدّنْـيَا ولقد اصطفـينا إبراهيـم, والهاء التـي فـي قوله: اصْطَفَـيْنَاهُ من ذكر إبراهيـم. والاصطفـاء: الافتعال من الصفوة, وكذلك اصطفـينا افتعلنا منه, صيرت تاؤها طاءً لقرب مخرجها من مخرج الصاد.

ويعنـي بقوله: اصْطَفَـيْنَاهُ اخترناه واجتبـيناه للـخُـلّة, ونُصَيّره فـي الدنـيا لـمن بعده إماما. وهذا خبر من الله تعالـى ذكره عن أن من خالف إبراهيـم فـيـما سنّ لـمن بعده فهو لله مخالف, وإعلام منه خـلقه أن من خالف ما جاء به مـحمد صلى الله عليه وسلم فهو لإبراهيـم مخالف وذلك أن الله تعالـى ذكره أخبر أنه اصطفـاه لـخُـلّته, وجعله للناس إماما, وأخبر أن دينه كان الـحنـيفـية الـمسلـمة. ففـي ذلك أوضح البـيان من الله تعالـى ذكره عن أنّ من خالفه فهو لله عدوّ لـمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعبـاده.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَإِنّهُ فِـي الاَخِرَةِ لَـمِنَ الصالِـحِينَ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَإِنّهُ فِـي الاَخِرَةِ لَـمِنَ الصّالِـحِينَ وإن إبراهيـم فـي الدار الاَخرة لـمن الصالـحين. والصالـح من بنـي آدم هو الـمؤدّي حقوق

الله علـيه. فأخبر تعالـى ذكره عن إبراهيـم خـلـيـلـه أنه فـي الدنـيا له صفـيّ, وفـي الاَخرة ولـيّ, وإنه وارد موارد أولـيائه الـموفّـين بعهده.

الآية : 131

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{إِذْ قَالَ لَهُ رَبّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبّ الْعَالَمِينَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: إذْ قَالَ لَهُ رَبّهُ أسْلِـمْ إذ قال له ربه: أخـلص لـي العبـادة, واخضع لـي بـالطاعة, وقد دللنا فـيـما مضى علـى معنى الإسلام فـي كلام العرب, فأغنى عن إعادته.

وأما معنى قوله: قَالَ أسْلَـمْت لِرَبّ العَالَـمِينَ فإنه يعنـي تعالـى ذكره: قال إبراهيـم مـجيبـا لربه: خضعت بـالطاعة, وأخـلصت بـالعبـادة لـمالك جميع الـخلائق ومدبرها دون غيره.

فإن قال قائل: قد علـمت أن «إذْ» وقت فما الذي وُقّت به, وما الذي صلة؟ قـيـل: هو صلة لقوله: وَلَقَدِ اصْطَفَـيْنَاهُ فِـي الدّنْـيَا. وتأويـل الكلام: ولقد اصطفـيناه فـي الدنـيا حين قال له ربه أسلـم, قال: أسلـمت لربّ العالـمين. فأظهر اسم «الله» فـي قوله: إذْ قَالَ لَهُ رَبّهُ أسْلِـمْ علـى وجه الـخبر عن غائب, وقد جرى ذكره قبل علـى وجه الـخبر عن نفسه, كما قال خُفـاف بن ندبة:

أقُول لَهُ وَالرّمْـحُ يأطُرُ مَتْنُهُتأمّلْ خُفـافـا إنّنِـي أنا ذَالِكَا

فإن قال لنا قائل: وهل دعا الله إبراهيـم إلـى الإسلام؟ قـيـل له: نعم, قد دعاه إلـيه. فإن قال: وفـي أيّ حال دعاه إلـيه؟ قـيـل: حين قال: يا قَوْمِ إنِـي بَرِيءٌ مِـمّا تُشْرِكُونَ إنّـي وَجّهْتُ وجْهيَ لِلّذِي فَطَرَ السّمَوَاتِ وَالأرْضَ حَنِـيفـاً وَمَا أنَا مِنَ الـمُشْرِكِينَ وذلك هو الوقت الذي قال له ربه أسلـم من بعد ما امتـحنه بـالكواكب والقمر والشمس.

الآية : 132

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{وَوَصّىَ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيّ إِنّ اللّهَ اصْطَفَىَ لَكُمُ الدّينَ فَلاَ تَمُوتُنّ إَلاّ وَأَنْتُم مّسْلِمُونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَوَصّى بِهَا ووصى بهذه الكلـمة أعنـي بـالكلـمة قوله: أسْلَـمْتُ لِرَبّ العالَـمِينَ وهي الإسلام الذي أمر به نبـيه صلى الله عليه وسلم, وهو إخلاص العبـادة والتوحيد لله, وخضوع القلب والـجوارح له.

ويعنـي بقوله: وَوَصّى بها إبْرَاهِيـمَ بَنِـيه عهد إلـيهم بذلك وأمرهم به. وأما قوله: وَيَعْقُوبُ فإنه يعنـي: ووصى بذلك أيضا يعقوبُ بنـيه. كما:

1591ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد بن زريع, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: وَوَصَى بِها إبْرَاهِيـمَ بَنِـيه وَيَعْقُوبُ يقول: ووصى بها يعقوبُ بنـيه بعد إبراهيـم.

1592ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: وَوَصّى بِها إبْرَاهِيـمَ بَنِـيـهِ وصاهم بـالإسلام, ووصى يعقوبُ بـمثل ذلك.

وقال بعضهم: قوله: وَوَصى بِها إبْرَاهِيـمَ بَنِـيهِ خبر مُنْقَضٍ, وقوله: وَيَعْقُوبُ خبر مبتدأ, فإنه قال: ووصى بها إبراهيـم بنـيه بأن يقولوا: أسلـمنا لرب العالـمين, ووصى يعقوب بنـيه أن: يا بنـيّ إنّ اللّهَ اصْطَفَـى لَكُم الدّينَ فَلاَ تَـمُوتُن إلا وأنْتُـمْ مُسْلِـمُونَ. ولا معنى لقول من قال ذلك لأن الذي أوصى به

يعقوبُ بنـيه نظير الذي أوصى به إبراهيـم بنـيه من الـحثّ علـى طاعة الله والـخضوع له والإسلام.

فإن قال قائل: فإن كان الأمر علـى ما وصفت من أن معناه: ووصى بها إبراهيـم بنـيه ويعقوبُ أن يا بنـيّ, فما بـال «أنْ» مـحذوفة من الكلام؟ قـيـل: لأن الوصية قول فحملت علـى معناها, وذلك أن ذلك لو جاء بلفظ القول لـم تـحسن معه «أن», وإنـما كان يقال: وقال إبراهيـم لبنـيه ويعقوب: «يا بنـيّ», فلـما كانت الوصية قولاً حملت علـى معناها دون قولها, فحذفت «أن» التـي تـحسن معها, كما قال تعالـى ذكره: يُوصِيكُمْ الله فِـي أوْلاَدِكُمْ للذّكَرِ مِثْلُ حَظّ ألانْثَـيَـيْنِ وكما قال الشاعر:

إنّـي سابْدِي لَكَ فِـيـمَا أبْدِيلِـي شَجَنانِ شَجَنٌ بِنَـجْدِ
وَشَجَنٌ لِـي ببلادِ السّنْدِ

فحذفت «أن» إذ كان الإبداء بـاللسان فـي الـمعنى قولاً, فحمله علـى معناه دون لفظه. وقد قال بعض أهل العربـية: إنـما حذفت «أن» من قوله: وَوَصّى بِهَا إِبْرَاهِيـمُ بَنِـيهِ وَيَعْقُوبُ بـاكتفـاء النداء, يعنـي بـالنداء قوله: «يا بنـيّ», وزعم أن علته فـي ذلك أن من شأن العرب الاكتفـاء بـالأدوات عن «أن» كقولهم: ناديت هل قمت؟ وناديت أين زيد؟ قال: وربـما أدخـلوها مع الأدوات فقالوا: ناديت أن هل قمت؟ وقد قرأ عهد إلـيهم عهدا بعد عهد, وأوصى وصية بعد وصية.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: يا بَنِـيّ إنّ اللّهَ اصْطَفَـى لَكُم الدّينَ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: إنّ اللّهَ اصْطَفَـى لَكُم الدّينَ إن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إلـيكم فـيه واجتبـاه لكم. وإنـما أدخـل الألف واللام فـي «الدين», لأن الذين خوطبوا من ولدهما وبنـيهما بذلك كانوا قد عرفوه بوصيتهما إياهم به وعهدهما إلـيهم فـيه, ثم قالا لهم بعد أن عَرّفَـاهُمُوه: إن الله اصطفـى لكم هذا الدين الذي قد عهد إلـيكم فـيه, فـاتقوا الله أن تـموتوا إلا وأنتـم علـيه.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَلاَ تَـمُوتُنّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِـمُونَ.

إن قال لنا قائل: أوَ إلـى بنـي آدم الـموت والـحياة فـينهى أحدهم أن يـموت إلا علـى حالة دون حالة؟ قـيـل له: إن معنى ذلك علـى غير الوجه الذي ظننت, وإنـما معناه: فَلاَ تَـمُوتُنّ إلاّ وَأنْتُـمْ مُسْلِـمُونَ أي فلا تفـارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم وذلك أن أحدا لا يدري متـى تأتـيه منـيته, فلذلك قالا لهم: فَلاَ تَـمُوتُنّ إلاّ وأنْتُـمْ مُسلِـمُونَ لأنكم لا تدرون متـى تأتـيكم مناياكم من لـيـل أو نهار, فلا تفـارقوا الإسلام فتأتـيكم مناياكم وأنتـم علـى غير الدين الذي اصطفـاه لكم ربكم فتـموتوا وربكم ساخط علـيكم فتهلكوا.)

الآية : 133

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: أمْ كُنْتُـمْ شهَدَاءَ أكنتـم, ولكنه استفهم بـ«أمْ» إذ كان استفهاما مستأنفـا علـى كلام قد سبقه, كما قـيـل: الـم تَنْزِيـلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِـيهِ مِنْ رَبّ العَالَـمِينَ أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ, وكذلك تفعل

العرب فـي كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه تستفهم فـيه ب«أمْ», والشهداء جمع شهيد كما الشركاء جمع شريك, والـخصماء جمع خصيـم.

وتأويـل الكلام: أكنتـم يا معشر الـيهود والنصارى الـمكذّبـين بـمـحمد صلى الله علیه وسلم, الـجاحدين نبوّته, حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الـموت, أي أنكم لـم تـحضروا ذلك. فلا تدّعوا علـى أنبـيائي ورسلـي الأبـاطيـل, وتنـحلوهم الـيهودية والنصرانـية, فإنـي ابتعثت خـلـيـلـي إبراهيـم وولده إسحاق وإسماعيـل وذرّيتهم بـالـحنـيفـية الـمسلـمة, وبذلك وصوا بنـيهم وبه عهدوا إلـى أولادهم من بعدهم, فلو حضرتـموهم فسمعتـم منهم علـمتـم أنهم علـى غير ما تنـحلوهم من الأديان والـملل من بعدهم.

وهذه آيات نزلت تكذيبـا من الله تعالـى للـيهود والنصارى فـي دعواهم فـي إبراهيـم وولده يعقوب أنهم كانوا علـى ملتهم, فقال لهم فـي هذه الآية: أمْ كُنْتُـمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ الـمَوْتُ فتعلـموا ما قال لولده وقال له ولده. ثم أعلـمهم ما قال لهم وما قالوا له. وبنـحو الذي قلنا فـي ذلك قال أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1593ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: أمْ كُنْتُـمْ شُهَدَاءَ يعنـي أهل الكتاب.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: إذْ قَالَ لِبَنِـيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَـائِكَ إبْرَاهِيـمَ وَإِسْماعِيـلَ وإسْحَاقَ إلَها وَاحِدا وَنَـحْنُ لَهُ مُسْلِـمُونَ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: إذْ قالَ لِبَنِـيهِ إذ قال يعقوب لبنـيه. و«إذ» هذه مكرّرة إبدالاً من «إذْ» الأولـى بـمعنى: أم كنتـم شهداء يعقوب إذ قال يعقوب لبنـيه حين حضور موته.

ويعنـي بقوله: ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي أيّ شيء تعبدون من بعدي, أي من بعد وفـاتـي. قَالُوا نَعبدُ إلهَكَ يعنـي به: قال بنوه له: نعبد معبودك الذي تعبده, ومعبود آبـائك إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق إلها واحدا, أي نـخـلص له العبـادة ونوحد له الربوبـية فلا نشرك به شيئا ولا نتـخذ دونه ربـا.

ويعنـي بقوله: وَنَـحْنُ لَهُ مُسْلِـمُونَ ونـحن له خاضعون بـالعبودية والطاعة. ويحتـمل قوله: وَنَـحْن لَه مُسْلِـمُونَ أن تكون بـمعنى الـحال, كأنهم قالوا: نعبد إلهك مسلـمين له بطاعتنا وعبـادتنا إياه. ويحتـمل أن يكون خبرا مستأنفـا, فـيكون بـمعنى: نعبد إلهك بعدك, ونـحن له الآن وفـي كل حال مسلـمون. وأحسن هذين الوجهين فـي تأويـل ذلك أن يكون بـمعنى الـحال, وأن يكون بـمعنى: نعبد إلهك وإله آبـائك إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق مسلـمين لعبـادته.

وقـيـل: إنـما قدم ذكر إسماعيـل علـى إسحاق لأن إسماعيـل كان أسنّ من إسحاق. ذكر من قال ذلك:

1594ـ حدثنـي يونس بن عبد الأعلـى, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: قَالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وَإِلَهَ آبَـائِكَ إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسحَاقَ قال: يقال بدأ بإسماعيـل لأنه أكبر.

وقرأ بعض الـمتقدمين: «وَإله أبِـيكَ إبْرَاهِيـمَ» ظنّا منه أن إسماعيـل إذ كان عمّا لـيعقوب, فلا يجوز أن يكون فـيـمن تُرْجم به عن الآبـاء وداخلاً فـي عدادهم. وذلك من قارئه كذلك قلة علـم منه بـمـجاري كلام العرب.

والعرب لا تـمتنع من أن تـجعل الأعمام بـمعنى الآبـاء, والأخوال بـمعنى

الأمهات, فلذلك دخـل إسماعيـل فـيـمن ترجم به عن الآبـاء. وإبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ترجمة عن الآبـاء فـي موضع جرّ, ولكنهم نصبوا بأنهم لا يجرّون. والصواب من القراءة عندنا فـي ذلك: وَإِلَهَ آبَـائِكَ لإجماع القرّاء علـى تصويب ذلك وشذوذ من خالفه من القراء مـمن قرأ خلاف ذلك, ونصب قوله إلها علـى الـحال من قوله إلهك.

الآية : 134

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَـلَتْ إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب وولدهم. يقول للـيهود والنصارى: يا معشر الـيهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والـمسلـمين من أولادهم بغير ما هم أهله ولا تنـحلوهم كفر الـيهودية والنصرانـية فتضيفوها إلـيهم, فإنهم أمة ويعنـي بـالأمة فـي هذا الـموضع الـجماعة, والقرن من الناس قد خـلت: مضت لسبـيـلها. وإنـما قـيـل للذي قد مات فذهب: قد خلا, لتـخـلّـيه من الدنـيا, وانفراده بـما كان من الأنس بأهله وقرنائه فـي دنـياه, وأصله من قولهم: خلا الرجل, إذا صار بـالـمكان الذي لا أنـيس له فـيه وانفرد من الناس, فـاستعمل ذلك فـي الذي يـموت علـى ذلك الوجه. ثم قال تعالـى ذكره للـيهود والنصارى: إنّ لـمن نـحلتـموه بضلالكم وكفركم الذي أنتـم علـيه من أنبـيائي ورسلـي ما كسبت. والهاء والألف فـي قوله: لَهَا عائدة إن شئت علـى «تلك», وإن شئت علـى «الأمة».

ويعنـي بقوله: لَهَا مَا كَسَبَتْ أي ما عملت من خير, ولكم يا معشر الـيهود والنصارى مثل ذلك ما عملتـم. ولا تؤاخذون أنتـم أيها الناحلون ما نـحلتـموهم من الـملل, فتُسألوا عما كان إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب وولدهم يعملون فـيكسبون من خير وشرّ لأن لكل نفس ما كسبت, وعلـيها ما اكتسبت. فدعوا انتـحالهم وانتـحال مللهم, فإن الدعاوى غير مغنـيتكم عند الله, وإنـما يغنـي عنكم عنده ما سلف لكم من صالـح أعمالكم إن كنتـم عملتـموها وقدمتـموها.

الآية : 135

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:
{وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: وَقالُوا كُونُوا هُودا أوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا وقالت الـيهود لـمـحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الـمؤمنـين: كونوا هودا تهتدوا, وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا. تعنـي بقولها تهتدوا: أي تصيبوا طريق الـحقّ. كما:

1595ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير وحدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة جميعا, عن ابن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الهدى إلا ما نـحن علـيه, فـاتبعنا يا مـحمد تَهْتَدِ وقالت النصارى

مثل ذلك. فأنزل الله عزّ وجل فـيهم: وَقَالُوا كُونُوا هُودا أوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلّةَ إبْرَاهِيـمَ حَنِـيفـا وَما كانَ مِنَ الـمُشْرِكِينَ.

احتـجّ الله لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم أبلغ حجة وأوجزها وأكملها, وعلـمها مـحمدا نبـيه صلى الله عليه وسلم فقال: يا مـحمد قل للقائلـين لك من الـيهود والنصارى ولأصحابك: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا, بل تعالوا نتبع ملة إبراهيـم التـي تـجمع جميعنا علـى الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتبـاه وأمر به, فإن دينه كان الـحنـيفـية الـمسلـمة, وندع سائر الـملل التـي نـختلف فـيها فـينكرها بعضنا ويقرّ بها بعضنا, فإن ذلك علـى اختلافه لا سبـيـل لنا علـى الاجتـماع علـيه كما لنا السبـيـل إلا الاجتـماع علـى ملة إبراهيـم.

وفـي نصب قوله: بَلْ مِلّةَ إبْرَاهِيـمَ أوجه ثلاثة: أحدها أن يوجه معنى قوله: وَقَالُوا كُونُوا هُودا أوْ نَصَارَى إلـى معنى: وقالوا اتبعوا الـيهودية والنصرانـية, لأنهم إذ قالوا: كونوا هودا أو نصارى إلـى الـيهودية والنصرانـية دعوهم, ثم يعطف علـى ذلك الـمعنى بـالـملة, فـيكون معنى الكلام حينئذ: قل يا مـحمد لا نتبع الـيهودية والنصرانـية, ولا نتـخذها ملة, بل نتبع ملة إبراهيـم حنـيفـا, ثم يحذف «نتبع» الثانـية, ويعطف بـالـملة علـى إعراب الـيهوية والنصرانـية. والآخر أن يكون نصبه بفعل مضمر بـمعنى نتبع. والثالث أن يكون أُرِيدَ: بل نكون أصحاب ملة إبراهيـم, أو أهل ملة إبراهيـم ثم حدف «الأهل» و«الأصحاب», وأقـيـمت «الـملة» مقامهم, إذ كانت مؤدّية عن معنى الكلام, كما قال الشاعر:

حَسِبْتُ بُغامَ رَاحِلَتِـي عَنَاقاومَا هِيَ وَيْبَ غَيْرِكَ بـالعَنَاقِ

يعنـي صوت عناق, فتكون الـملة حينئذ منصوبة عطفـا فـي الإعراب علـى الـيهود والنصارى. وقد يجوز أن يكون منصوبـا علـى وجه الإغراء, بـاتبـاع ملة إبراهيـم. وقرأ بعض القرّاء ذلك رفعا, فتأويـله علـى قراءة من قرأ رفعا: بل الهدى ملة إبراهيـم.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: بَلْ مِلّةَ إبْرَاهِيـمَ حَنِـيفـا وَما كانَ مِنَ الـمُشْرِكِينَ.

والـملَة: الدين. وأما الـحنـيف: فإنه الـمستقـيـم من كل شيء. وقد قـيـل: إن الرجل الذي تُقْبل إحدى قدميه علـى الأخرى إنـما قـيـل له أحنف نظرا له إلـى السلامة, كما قـيـل للـمهلكة من البلاد: الـمفـازة, بـمعنى الفوز بـالنـجاة منها والسلامة وكما قـيـل للّديغ: السلـيـم, تفـاؤلاً له بـالسلامة من الهلاك, وما أشبه ذلك.

فمعنى الكلام إذا: قل يا مـحمد بل نتبع ملة إبراهيـم مستقـيـما. فـيكون الـحنـيف حينئذ حالاً من إبراهيـم.

وأما أهل التأويـل فإنهم اختلفوا فـي تأويـل ذلك, فقال بعضهم: الـحنـيف: الـحاجّ. وقـيـل: إنـما سمي دين إبراهيـم الإسلام الـحنـيفـية, لأنه أوّل إمام لزم العبـادَ الذين كانوا فـي عصره والذين جاءوا بعده إلـى يوم القـيامة اتّبـاعُه فـي مناسك الـحجّ, والائتـمام به فـيه. قالوا: فكلّ من حجّ البـيت فنسك مناسك إبراهيـم علـى ملته, فهو حنـيف مسلـم علـى دين إبراهيـم. ذكر من قال ذلك:

1596ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي, قال: حدثنا القاسم بن الفضل, عن كثـير أبـي سهل, قال: سألت الـحسن عن الـحنـيفـية, قال: حجّ البـيت.

1597ـ حدثنـي مـحمد بن عبـادة الأسدي, قال: حدثنا عبد الله بن موسى, قال: أخبرنا فضيـل, عن عطية فـي قوله: حَنِـيفـا قال: الـحنـيف: الـحاجّ.

حدثنـي الـحسين بن علـيّ الصدائي, قال: حدثنا أبـي, عن الفضيـل, عن عطية مثله.

1598ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا حكام بن سالـم, عن عنبسة, عن مـحمد بن عبد الرحمن, عن القاسم بن أبـي بزة, عن مـجاهد, قال: الـحنـيف: الـحاجّ.

1599ـ حدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا ابن التـيـمي, عن كثـير بن زياد, قال: سألت الـحسن عن الـحنـيفـية, قال: هو حجّ هذا البـيت قال ابن التـيـمي: وأخبرنـي جويبر, عن الضحاك بن مزاحم مثله.

حدثنا ابن بشار, قال: حدثنا ابن مهدي, قال: حدثنا سفـيان, عن السدي, عن مـجاهد: حُنَفَـاءَ قال: حجاجا.

1600ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا عبد الله بن صالـح, قال: حدثنـي معاوية بن صالـح, عن علـيّ بن أبـي طلـحة عن ابن عبـاس قوله: حَنِـيفـا قال: حاجّا.

1601ـ حدثت عن وكيع, عن فضيـل بن غزوان عن عبد الله بن القاسم, قال: كان الناس من مُضَر يحجون البـيت فـي الـجاهلـية يسمون حنفـاء, فأنزل الله تعالـى ذكره: حُنَفَـاءَ لِلّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ.

وقال آخرون: الـحنـيف: الـمتبع, كما وصفنا قَبْلُ من قول الذين قالوا: إن معناه الاستقامة. ذكر من قال ذلك:

1602ـ حدثنا مـحمد بن بشار, قال: حدثنا عبد الرحمن, قال: حدثنا سفـيان, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: حُنَفَـاءَ قال: متبعين.

وقال آخرون: إنـما سمي دين إبراهيـم الـحنـيفـية, لأنه أوّل إمام سنّ للعبـاد الـختان, فـاتبعه من بعده علـيه. قالوا: فكل من اختتن علـى سبـيـل اختتان إبراهيـم, فهو علـى ما كان علـيه إبراهيـم من الإسلام, فهو حنـيف علـى ملة إبراهيـم.

وقال آخرون: بل ملة إبراهيـم حنـيفـا, بل ملة إبراهيـم مخـلصا, فـالـحنـيف علـى قولهم: الـمخـلص دِينَهُ لله وحده. ذكر من قال ذلك:

1603ـ حدثنا مـحمد بن الـحسين, قال: حدثنا أحمد بن الـمفضل, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: وَاتّبِعْ مِلّةَ إبْرَاهِيـمَ حَنِـيفـا يقول: مخـلصا.

وقال آخرون: بل الـحنـيفـية الإسلام, فكل من ائتـمّ بإبراهيـم فـي ملته فـاستقام علـيها فهو حنـيف.

قال أبو جعفر: الـحنـيف عندي هو الاستقامة علـى دين إبراهيـم واتبـاعه علـى ملته. وذلك أن الـحنـيفـية لو كانت حجّ البـيت, لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه فـي الـجاهلـية من أهل الشرك كانوا حنفـاء, وقد نفـى الله أن يكون ذلك تـحنفـا بقوله: وَلَكِنْ كَانَ حَنِـيفـا مُسْلِـما وَما كَانَ مِنَ الـمُشْرِكِينَ فكذلك القول فـي الـختان لأن الـحنـيفـية لو كانت هي الـختان لوجب أن يكون الـيهود حنفـاء, وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله: ما كَانَ إبْرَاهِيـمُ

يَهُودِيّا وَلا نَصْرَانِـيّا وَلَكِنْ كانَ حَنِـيفـا مُسْلِـما. فقد صحّ إذا أن الـحنـيفـية لـيست الـختان وحده, ولا حجّ البـيت وحده, ولكنه هو ما وصفنا من الاستقامة علـى ملة إبراهيـم واتبـاعه علـيها والائتـمام به فـيها.

فإن قال قائل: فكيف أضيف «الـحنـيفـية» إلـى إبراهيـم وأتبـاعه علـى ملته خاصة دون سائر الأنبـياء قبله وأتبـاعهم؟ قـيـل: إن كل من كان قبل إبراهيـم من الأنبـياء كان حنـيفـا متبعا طاعة الله, ولكن الله تعالـى ذكره لـم يجعل أحدا منهم إماما لـمن بعده من عبـاده إلـى قـيام الساعة, كالذي فعل من ذلك بإبراهيـم, فجعله إماما فـيـما بـينه من مناسك الـحجّ والـختان, وغير ذلك من شرائع الإسلام, تعبدا به أبدا إلـى قـيام الساعة, وجعل ما سنّ من ذلك عَلَـما مـميزا بـين مؤمنـي عبـاده وكفـارهم والـمطيع منهم له والعاصي, فسمي الـحنـيف من الناس حنـيفـا بـاتبـاعه ملته واستقامته علـى هديه ومنهاجه, وسمي الضالّ عن ملته بسائر أسماء الـملل, فقـيـل: يهودي ونصرانـي ومـجوسي, وغير ذلك من صنوف الـملل.

وأما قوله: وَما كانَ مِنَ الـمُشْرِكِينَ يقول: إنه لـم يكن مـمن يدين بعبـادة الأوثان والأصنام, ولا كان من الـيهود, ولا من النصارى, بل كان حنـيفـا مسلـما.

الآية : 136

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{قُولُوَاْ آمَنّا بِاللّهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىَ وَعِيسَىَ وَمَآ أُوتِيَ النّبِيّونَ مِن رّبّهِمْ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بذلك: قولوا أيها الـمؤمنون لهؤلاء الـيهود والنصارى الذين قالوا لكم: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا: آمنّا, أي صدّقنا بـالله.

وقد دللنا فـيـما مضى أن معنى الإيـمان التصديق بـما أغنى عن إعادته.

وما أنزل إلـينا يقول أيضا: صدّقنا بـالكتاب الذي أنزل الله إلـى نبـينا مـحمد صلى الله عليه وسلم. فأضاف الـخطاب بـالتنزيـل إلـيهم إذْ كانوا مُتّبعيه ومأمورين منهيـين به, فكان وإن كان تنزيلاً إلـى رسول الله صلى الله عليه وسلم بـمعنى التنزيـل إلـيهم للذي لهم فـيه من الـمعانـي التـي وصفت.

ويعنـي بقوله: وَما أُنْزِلَ إلـى إبْرَاهِيـمَ صدّقنا أيضا وآمنّا بـما أنزل إلـى إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط, وهم الأنبـياء من ولد يعقوب.

وقوله: وَما أوتـيَ مُوسَى وعِيسَى يعنـي: وآمنّا أيضا بـالتوارة التـي آتاها الله موسى, وبـالإنـجيـل الذي آتاه الله عيسى, والكتب التـي آتـى النبـيـين كلهم, وأقررنا وصدّقنا أن ذلك كله حقّ وهدى ونور من عند الله. وأن جميع من ذكر الله من أنبـيائه كانوا علـى حقّ وهدى يصدّق بعضهم بعضا علـى منهاج واحد فـي الدعاء إلـى توحيد الله والعمل بطاعته, لا نُفَرّق بَـيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ يقول: لا نؤمن ببعض الأنبـياء ونكفر ببعض, ونتبرأ من بعض, ونتولّـى بعضا, كما تبرأت الـيهود من عيسى ومـحمد علـيهما السلام وأقرّت بغيرهما من الأنبـياء, وكما تبرأت النصارى من مـحمد صلى الله عليه وسلم وأقرّت بغيره من الأنبـياء بل نشهد لـجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبـياءه, بعثوا بـالـحقّ والهدى.

وأما قوله: وَنَـحْنُ لَهُ مُسْلِـمُونَ فإنه يعني تعالـي ذكره: ونـحن له خاضعون بـالطاعة, مذعنون له بـالعبودية. فذُكر أن نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك للـيهود, فكفروا بعيسى وبـمن يؤمن به. كما:

1604ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا يونس بن بكير, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, مولـى زيد بن ثابت, قال: حدثنـي سعيد بن جبـير أو عكرمة, عن ابن عبـاس, قال: أتـى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نفرٌ من الـيهود فـيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبـي رافع وعازر وخالد وزيد وأزار بن أبـي أزار وأشيع, فسألوه عمن يؤمن به من الرسل, فقال: «أؤمنُ بـالله وَما أُنْزِلَ إلَـيْنَا, وَما أُنْزِلَ إلـى إبْرَاهِيـمَ وإسمَاعِيـلَ وَإسحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسبْـاطِ, وَما أوتِـى مُوسَى وَعِيسَى, وَما أوتِـى النّبِـيّونَ مِنْ رَبّهِمْ, لا نُفَرّق بَـيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ وَنَـحْنُ لَهُ مُسْلِـمُونَ». فلـما ذكر عيسى جحدوا نبوّته وقالوا: لا نؤمن بعيسى, ولا نؤمن بـمن آمن به. فأنزل الله فـيهم: قُلْ يا أهْلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إلاّ أنْ آمَنّا بِـاللّهِ وَما أُنْزِلَ إلَـيْنَا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وأنّ أكثرَكُمْ فـاسِقُونَ.

حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنا مـحمد بن إسحاق, قال: حدثنـي مـحمد بن أبـي مـحمد, عن عكرمة أو عن سعيد بن جبـير, عن ابن عبـاس, قال: أتـى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فذكر نـحوه, إلا أنه قال: ونافع بن أبـي نافع, مكان رافع بن أبـي رافع.

وقال قتادة: أنزلت هذه الآية أمرا من الله تعالـى ذكره للـمؤمنـين بتصديق رسله كلهم.

1605ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: قُولُوا آمَنّا بِـاللّهِ وَما أُنْزِلَ إلَـيْنَا وَما أُنْزِلَ إلـى إبْرَاهِيـمَ إلـى قوله: وَنَـحْنُ لَهُ مُسْلِـمُونَ أمر الله الـمؤمنـين أن يؤمنوا ويصدّقوا بأنبـيائه ورسله كلهم, ولا يفرّقوا بـين أحد منهم.

وأما الأسبـاط الذين ذكرهم فهم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيـم, ولد كل رجل منهم أمة من الناس, فسُموا أسبـاطا. كما:

1606ـ حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قال: الأسبـاط: يوسف وإخوته بنو يعقوب, ولد اثنـي عشر رجلاً, فولد كل رجل منهم أمة من الناس, فسموا أسبـاطا.

1607ـ حدثنـي موسى, قال: حدثنا عمرو, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: أما الأسبـاط فهم بنو يعقوب: يوسف, وبنـيامين, وروبـيـل, ويهوذا, وشمعون, ولاوي, ودان, وقهاث.

1608ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, قال: الأسبـاط: يوسف وإخوته بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً, فولد لكل رجل منهم أمة من الناس, فسموا الأسبـاط.

1609ـ حدثنا ابن حميد, قال: حدثنا سلـمة, قال: حدثنـي مـحمد بن إسحاق, قال: نكح يعقوب بن إسحاق وهو إسرائيـل ابنة خاله لـيا ابنة لـيان بن توبـيـل بن إلـياس, فولدت له روبـيـل بن يعقوب, وكان أكبر ولده, وشمعون بن يعقوب, ولاوي بن يعقوب, ويهوذا بن يعقوب, وريالون بن يعقوب, ويشجر بن يعقوب ودينة بنت يعقوب. ثم توفـيت لـيا بنت لـيان, فخـلف يعقوب علـى أختها راحيـل بنت لـيان بن توبـيـل بن إلـياس, فولدت له يوسف بن يعقوب وبنـيامين, وهو بـالعربـية أسد, وولد له من سريّتـين له

اسم إحداهما زلفة, واسم الأخرى بلهية أربعة نفر: دان بن يعقوب, ونفثالي بن يعقوب, وجاد بن يعقوب, وإشرب بن يعقوب. فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً, نشر الله منه اثني عشر سبطا لا يحصى عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله, يقول الله تعالى: وَقَطّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ أسْباطا أُمَما.

الآية : 137

القول في تأويل قوله تعالى:

{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وّإِن تَوَلّوْاْ فَإِنّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ }

يعني تعالى ذكره بقوله: فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فإن صدق اليهود والنصارى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط, وما أوتي موسى وعيسى, وما أوتي النبيون من ربهم, وأقرّوا بذلك مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم, فقد وُفّقوا ورَشِدُوا ولزموا طريق الحقّ واهتدوا, وهم حينئذ منكم وأنتم منهم بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك. فدلّ تعالى ذكره بهذه الآية على أنه لم يقبل من أحد عملاً إلا بالإيمان بهذه المعاني التي عدها قبلها. كما:

1610ـ حدثنا المثنى, قال: حدثنا أبو صالح, قال: حدثنا معاوية بن صالح, عن عليّ بن أبي طلحة, عن ابن عباس قوله: فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدُوا ونحو هذا, قال: أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى, وأنه لا يقبل عملاً إلا به, ولا تَحْرُمُ الجنة إلا على من تركه.

وقد روي عن ابن عباس في ذلك قراءة جاءت مصاحف المسلمين بخلافها, وأجمعت قرّاء القرآن على تركها. وذلك ما:

1611ـ حدثنا به محمد بن المثنى, قال: حدثنا محمد بن جعفر, قال: حدثنا شعبة, عن أبي حمزة, قال: قال ابن عباس: لا تقولوا: فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا فإنه ليس لله مثل, ولكن قولوا: «فإن آمنوا بالذين آمنتم به فقد اهتدوا», أو قال: «فإن آمنوا بما آمنتم به». فكأن ابن عباس في هذه الرواية إن كانت صحيحة عنه يوجه تأويل قراءة من قرأ: فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ: فإن آمنوا بمثل الله, وبمثل ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وذلك إذا صرف إلى هذا الوجه شرك لا شكّ بالله العظيم, لأنه لا مثل لله تعالى ذكره, فنؤمن أو نكفر به. ولكن تأويل ذلك على غير المعنى الذي وجه إليه تأويله, وإنما معناه ما وصفنا, وهو: فإن صدّقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه, فقد اهتدوا. فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء, كقول القائل: مرّ عمرو بأخيك مثل ما مررت به, يعني بذلك مرّ عمرو بأخيك مثل مروري به, والتمثيل إنما دخل تمثيلاً بين المروريين, لا بين عمرو وبين المتكلم فكذلك قوله: فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المُؤْمنَ به.

القول في تأويل قوله تعالى: وَإنْ تَوَلّوْا فإنّمَا هُمْ فِي شِقاقٍ.

يعني تعالى ذكر بقوله: وَإنْ تَوَلّوْا وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه كونوا هودا أو نصارى, فأعرضوا, فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله, وبما جاءت به الأنبياء, وابتعثت به

الرسل, وفرقوا بـين رسل الله, وبـين الله ورسله, فصدّقوا ببعض وكفروا ببعض, فـاعلـموا أيها الـمؤمنون أنهم إنـما هم فـي عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم. كما:

1612ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن قتادة: فَإنّـمَا هُمْ فِـي شِقَاقٍ أي فـي فراق.

1613ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع: فإنـمَا هُمْ فِـي شِقَاقٍ يعنـي فراق.

1614ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: وَإنْ تَوَلّوْا فَإنّـمَا هُمْ فِـي شِقَاقٍ قال: الشقاق: الفراق والـمـحاربة, إذا شاقّ فقد حارب, وإذا حارب فقد شاقّ, وهما واحد فـي كلام العرب. وقرأ: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسُولَ.

وأصل الشقاق عندنا والله أعلـم مأخوذ من قول القائل: «شقّ علـيه هذا الأمر» إذا كَرَ به وآذاه, ثم قـيـل: «شاق فلان فلانا» بـمعنى: نال كل واحد منهما من صاحبه ما كَرَ به وآذاه وأثقلته مساءته, ومنه قول الله تعالـى ذكره: وَإنْ خِفْتُـمْ شِقَاقَ بَـيْنِهِمَا بـمعنى فراق بـينهما.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: فَسَيَكْفِـيكَهُم الله وَهُوَ السّمِيعُ العَلِـيـمُ.

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: فَسَيَكْفِـيكَهُمُ اللّهُ فسيكفـيك الله يا مـحمد هؤلاء الذين قالوا لك لأصحابك: «كونوا هودا أو نصارى تهتدوا» من الـيهود والنصارى, إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بـمثل إيـمان أصحابك بـالله, وبـما أنزل إلـيك, وما أنزل إلـى إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق وسائر الأنبـياء غيرهم, وفرقوا بـين الله ورسله, إما بقتل السيف, وإما بجلاء عن جوارك, وغير ذلك من العقوبـات, فإن الله هو السميع لـما يقولون لك بألسنتهم ويبدون لك بأفواههم من الـجهل والدعاء إلـى الكفر والـملل الضالة, العلـيـم بـما يبطنون لك ولأصحابك الـمؤمنـين فـي أنفسهم من الـحسد والبغضاء. ففعل الله بهم ذلك عاجلاً وأنـجز وعده, فكفـي نبـيه صلى الله عليه وسلم بتسلـيطه إياه علـيهم حتـى قتل بعضهم وأجلـى بعضا وأذلّ بعضا وأخزاه بـالـجزية والصّغار.

الآية : 138

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بـالصبغة: صبغة الإسلام, وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تُنَصّر أطفـالهم جعلتهم فـي ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس بـمنزلة غسل الـجنابة لأهل الإسلام, وأنه صبغة لهم فـي النصرانـية, فقال الله تعالـى ذكره إذ قالوا لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الـمؤمنـين به: كُونُوا هُودا أوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا: قل لهم يا مـحمد: أيها الـيهود والنصارى, بل اتبعوا ملة إبراهيـم صبغة الله التـي هي أحسن الصبغ, فإنها هي الـحنـيفـية الـمسلـمة, ودعوا الشرك بـالله والضلال عن مـحجة هداه.

ونصب «الصبغة» من قرأها نصبـا علـى الردّ علـى «الـملة», وكذلك رفع «الصبغة» من رفع الـملة علـى ردّها علـيها. وقد يجوز رفعها علـى غير هذا الوجه, وذلك علـى الابتداء, بـمعنى: هي صبغة الله. وقد يجوز نصبها علـى غير وجه الردّ علـى «الـملة», ولكن علـى قوله: قُولُوا آمَنّا بِـالله إلـى قوله: وَنَـحْنُ لَهُ مُسْلِـمُونَ صبغةَ الله, بـمعنى: آمنّا هذا الإيـمان, فـيكون الإيـمان

حينئذ هو صبغة الله. وبـمثل الذي قلنا فـي تأويـل الصبغة قال جماعة من أهل التأويـل. ذكر من قال ذلك:

1615ـ حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة قوله: صَبْغَةَ الله وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً إن الـيهود تصبغ أبناءها يهود, والنصارى تصبغ أبناءها نصارى, وإن صبغة الله الإسلام, فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر, وهو دين الله بعث به نوحا والأنبـياء بعده.

1616ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي حجاج, عن ابن جريج, قال عطاء: صِبْغَةَ اللّهِ صبغت الـيهود أبناءهم خالفوا الفطرة.

واختلفوا أهل التأويـل فـي تأويـل قوله صِبْغَةَ الله فقال بعضهم: دين الله. ذكر من قال ذلك:

1617ـ حدثنـي الـحسن بن يحيى, قال: أخبرنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة: صِبْغَةَ اللّهِ قال: دين الله.

1618ـ حدثنا أبو كريب, قال: حدثنا وكيع, عن أبـي جعفر, عن الربـيع, عن أبـي العالـية فـي قوله: صِبْغَةَ اللّهِ قال: دين الله. وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً: ومن أحسن من الله دينا.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, مثله.

1619ـ حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي, قال: حدثنا أبو أحمد الزبـيري, قال: حدثنا سفـيان, عن رجل, عن مـجاهد, مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو نعيـم, قال: حدثنا سفـيان, عن مـجاهد, مثله.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد, مثله.

1620ـ حدثنا أحمد بن إسحاق, قال: حدثنا أبو أحمد, قال: حدثنا فضيـل بن مرزوق, عن عطية قوله: صبْغَةَ اللّهِ قال: دين الله.

1621ـ حدثنا موسى بن هارون, قال: حدثنا عمرو بن حماد, قال: حدثنا أسبـاط, عن السدي: صِبْغَةَ الله وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً يقول: دين الله, ومن أحسن من الله دينا.

1622ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي عن أبـيه, عن ابن عبـاس: صِبْغَةَ اللّهِ قال: دين الله.

1623ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قول الله: صِبْغَةَ اللّهِ قال: دين الله.

حدثنـي ابن البرقـي, قال: حدثنا عمرو بن أبـي سلـمة, قال: سألت ابن زيد عن قول الله: صبْغَةَ اللّهِ فذكر مثله.

وقال آخرون: صِبْغَةَ اللّهِ فطرة الله. ذكر من قال ذلك:

1624ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قول الله: صِبْغَةَ اللّهِ قال: فطرة الله التـي فطر الناس علـيها.

حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا مـحمد بن حرب, قال: حدثنا ابن لهيعة, عن جعفر بن ربـيعة, عن مـجاهد: وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً قال: الصبغة: الفطرة.

حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج, عن مـجاهد, قال: صِبْغَةَ اللّهِ الإسلام, فطرة الله التـي فطر الناس علـيها. قال ابن جريج: قال لـي عبد الله بن كثـير صِبْغَةَ اللّهِ قال: دين الله وَمَنْ أحسن من الله دينا. قال: هي فطر الله.

ومن قال هذا القول, فوجه الصبغة إلـى الفطرة, فمعناه: بل نتبع فطرة الله وملته التـي خـلق علـيها خـلقه, وذلك الدين القـيـم. من قول الله تعالـى ذكره: فَـاطِرِ السّمَوَاتِ وَالأرْض بـمعنى خالق السموات والأرض.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: وَنَـحنُ لَهُ عابِدُونَ.

وقوله تعالـى ذكره: وَنَـحْنُ لَهُ عابِدُونَ أمر من الله تعالـى ذكره نبـيه صلى الله عليه وسلم أن يقوله لـلـيهود والنصارى الذين قالوا له ولـمن تبعه من أصحابه: كُونُوا هُودا أوْ نَصَارَى فقال لنبـيه مـحمدِ صلى الله عليه وسلم: قل بل نتبع ملة إبْرَاهِيـمَ حَنِـيفـا, صِبْغَةَ اللّهِ, وَنَـحْنُ لَهُ عابِدُونَ. يعنـي ملة الـخاضعين لله الـمستكينـين له فـي اتبـاعنا ملة إبراهيـم ودينونتنا له بذلك, غير مستكبرين فـي اتبـاع أمره والإقرار برسالته رسلَه, كما استكبرت الـيهود والنصارى, فكفروا بـمـحمد صلى الله عليه وسلم استكبـارا وبغيا وحسدا.

الآية : 139

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{قُلْ أَتُحَآجّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبّنَا وَرَبّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: قُلْ أتُـحَاجّونَنا فِـي اللّهِ قل يا مـحمد لـمعاشر الـيهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك كونوا هودا أو نصارى تهتدوا, وزعموا أن دينهم خير من دينكم, وكتابهم خير من كتابكم لأنه كان قبل كتابكم, وزعموا أنهم من أجل ذلك أولـى بـالله منك: أتـحاجوننا فـي الله, وهو ربنا وربكم, بـيده الـخيرات, وإلـيه الثواب والعقاب, والـجزاء علـى الأعمال الـحسنات منها والسيئات, فتزعمون أنكم بـالله أولـى منّا من أجل أن نبـيكم قبل نبـينا, وكتابكم قبل كتابنا, وربكم وربنا واحد, وأن لكل فريق منا ما عمل واكتسب من صالـح الأعمال وسيئها, ويجازي فـيثاب أو يعاقب لا علـى الأنساب وقدم الدين والكتاب.

ويعنـي بقوله: قل أتـحاجّوننا قل أتـخاصموننا وتـجادلوننا. كما:

1625ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: قُلْ أتُـحَاجّونَنَا فِـي اللّهِ قل أتـخاصموننا.

1626ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد: قُلْ أتـحاجّونَنا أتـخاصموننا.

1627ـ حدثنـي مـحمد بن سعد, قال: حدثنـي أبـي, قال: حدثنـي عمي, قال: حدثنـي أبـي, عن أبـيه, عن ابن عبـاس: أتـحاجّونَنا أتـجادلوننا.

فأما قوله: وَنَـحْنُ لَهُ مُخْـلِصُونَ فإنه يعنـي: ونـحن لله مخـلصو العبـادة والطاعة لا نشرك به شيئا, ولا نعبد غيره أحدا, كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان, وأصحاب العجل معه العجل. وهذا من الله تعالـى ذكره توبـيخ لـلـيهود واحتـجاج لأهل الإيـمان, بقوله تعالـى ذكره لـلـمؤمنـين من أصحاب مـحمد صلى الله عليه وسلم: قولوا أيها الـمؤمنون لـلـيهود والنصارى الذين

قالوا لكم: «كونوا هودا أو نصارى تهتدوا». أتُحاجّونَنا فـي الله يعنـي بقوله: فِـي اللّهِ فـي دين الله الذي أمرنا أن ندينه به, وربنا وربكم واحد عدل لا يجوز, وإنـما يجازي العبـاد علـى ما اكتسبوا. وتزعمون أنكم أولـى بـالله منا لقدم دينكم وكتابكم ونبـيكم, ونـحن مخـلصون له العبـادة لـم نشرك به شيئا, وقد أشركتـم فـي عبـادتكم إياه, فعبد بعضكم العجل وبعضكم الـمسيح. فأنّى تكونوا خيرا منا, وأولـى بـالله منّا.

الآية : 140

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{أَمْ تَقُولُونَ إِنّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ }

قال أبو جعفر: فـي قراءة ذلك وجهان أحدهما: أمْ تَقُولُونَ بـالتاء, فمن قرأ كذلك فتأويـله: قل يا مـحمد للقائلـين لك من الـيهود والنصارى «كونوا هودا أو نَصارى تهتدوا»: أتـجادلوننا فِـي اللّهِ أمْ تَقُولُونَ إن إبْرَاهِيـمَ؟ فـيكون ذلك معطوفـا علـى قوله: أتُـحاجّونَنَا فـي اللّهِ. والوجه الاَخر منهما «أمْ يَقُولُونَ» بـالـياء. ومن قرأ ذلك كذلك وجه قوله: «أمْ يَقُولُونَ» إلـى أنه استفهام مستأنف, كقوله: أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاه وكما يقال: إنها لإبل أم شاء. وإنـما جعله استفهاما مستأنفـا لـمـجيء خبر مستأنف, كما يقال: أتقوم أم يقوم أخوك؟ فـيصير قوله: «أم يقوم أخوك» خبرا مستأنفـا لـجملة لـيست من الأول واستفهاما مبتدأ. ولو كان نسقا علـى الاستفهام الأوّل لكان خبرا عن الأوّل, فقـيـل: أتقوم أم تقعد. وقد زعم بعض أهل العربـية أن ذلك إذا قرىء كذلك بـالـياء, فإن كان الذي بعد أم جملة تامة فهو عطف علـى الاستفهام الأول لأن معنى الكلام: قـيـل أيّ هذين الأمرين كائن, هذا أم هذا؟.

والصواب من القراءة عندنا فـي ذلك: أمْ تَقُولُونَ بـالتاء دون الـياء عطفـا علـى قوله: قُلْ أتُـحاجّونَنَا بـمعنى: أيّ هذين الأمرين تفعلون؟ أتـجادلوننا فـي دين الله, فتزعمون أنكم أولـى منا, وأهدى منا سبـيلاً, وأمرنا وأمركم ما وصفنا علـى ما قد بـيناه أيضا, أم تزعمون أن إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب ومن سمى الله كانوا هودا أو نصارى علـى ملتكم, فـيصحّ للناس بَهْتكم وكذبكم لأن الـيهودية والنصرانـية حدثت بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبـيائه, وغير جائزة قراءة ذلك بـالـياء لشذوذها عن قراءة القراء.

وهذه الآية أيضا احتـجاج من الله تعالـى ذكره لنبـيه صلى الله عليه وسلم علـى الـيهود والنصارى الذين ذكر الله قصصهم. يقول الله لنبـيه مـحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا مـحمد لهؤلاء الـيهود والنصارى: أتـحاجوننا فـي الله, وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا, وأنكم علـى هدى ونـحن علـى ضلالة ببرهان من الله تعالـى ذكره فتدعوننا إلـى دينكم؟ فهاتوا برهانكم علـى ذلك فنتبعكم علـيه أم تقولون إن إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط كانوا هودا أو نصارى علـى دينكم؟ فهاتوا علـى دعواكم ما ادّعيتـم من ذلك برهانا فنصدّقكم فإن الله قد جعلهم أئمة يقتدى بهم. ثم قال تعالـى ذكره لنبـيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم يا مـحمد إن ادّعوا أن

إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط كانوا هودا أو نصارى: أأنتـم أعلـم بهم وبـما كانوا علـيه من الأديان أم الله؟
القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {وَمَنْ أظْلَـمَ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ}.
يعنـي: فإن زَعَمَتْ يا مـحمد الـيهودُ والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك كونوا هودا أو نصارى, أن إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط كانوا هودا أو نصارى, فمن أظلـم منهم؟ يقول: وأيّ امرىء أظلـم منهم وقد كتـموا شهادة عندهم من الله بأن إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط كانوا مسلـمين, فكتـموا ذلك ونـحلوهم الـيهودية والنصرانـية.
واختلف أهل التأويـل فـي تأويـل ذلك:
1628ـ حدثنـي مـحمد بن عمرو, قال: حدثنا أبو عاصم, قال: حدثنا عيسى, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد فـي قوله: وَمَنْ أظْلَـمَ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ قال: فـي قول يهود لإبراهيـم وإسماعيـل ومن ذكر معهما إنهم كانوا يهودا أو نصارى. فـيقول الله: لا تكتـموا منـي شهادة إن كانت عندكم فـيهم. وقد علـم أنهم كاذبون.
حدثنـي الـمثنى قال: أبو حذيفة, قال: حدثنا شبل, عن ابن أبـي نـجيح, عن مـجاهد: وَمَنْ أظْلَـمَ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ فـي قول الـيهود لإبراهيـم وإسماعيـل ومن ذكر معهما إنهم كانوا يهودا أو نصارى. فقال الله لهم: لا تكتـموا منـي الشهادة فـيهم إن كانت عندكم فـيهم. وقد علـم الله أنهم كانوا كاذبـين.
1629ـ حدثنا القاسم, قال: حدثنا الـحسين, قال: حدثنـي إسحاق, عن أبـي الأشهب, عن الـحسن أنه تلا هذه الآية: أمْ تَقُولُونَ إنْ إبْرَاهِيـمَ وَإسْمَاعِيـلَ إلـى قوله: قُلْ أأنْتُـمْ أعْلَـم أم الله وَمَنْ أظْلَـمَ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ الله قال الـحسن: والله لقد كان عند القوم من الله شهادة أن أنبـياء بُرَآء من الـيهودية والنصرانـية, كما أن عند القوم من الله شهادة أن أموالكم ودماءكم بـينكم حرام, فبـم استـحلوها؟.
1630ـ حدثت عن عمار, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع قوله: وَمَنْ أظْلَـمَ مِـمنْ كَتَـمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ أهل الكتاب, كتـموا الإسلام وهم يعلـمون أنه دين الله, وهم يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة والإنـجيـل: أنهم لـم يكونوا يهود ولا نصارى, وكانت الـيهودية والنصرانـية بعد هؤلاء بزمان. وأنه عنى تعالـى ذكره بذلك أن الـيهود والنصارى إن ادّعوا أن إبراهيـم ومن سُمي معه فـي هذه الآية كانوا هودا أو نصارى, تبـيّن لأهل الشرك الذين هم نصراؤهم كذبهم وادّعاءهم علـى أنبـياء الله البـاطلَ لأن الـيهودية والنصرانـية حدثت بعدهم, وإن هم نفوا عنهم الـيهودية والنصرانـية, قـيـل لهم: فهلـموا إلـى ما كانوا علـيه من الدين, فإنّا وأنتـم مقرّون جميعا بأنهم كانوا علـى حقّ, ونـحن مختلفون فـيـما خالف الدين الذي كانوا علـيه.
وقال آخرون: بل عنى تعالـى ذكره بقوله: وَمَنْ أظْلَـمَ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ الـيهود فـي كتـمانهم أمر مـحمد صلى الله عليه وسلم ونبوّته, وهم يعلـمون ذلك ويجدونه فـي كتبهم. ذكر من قال ذلك:
1631ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, قال: حدثنا سعيد, عن قتادة: أمْ تَقُولُونَ إنّ إبْرَاهِيـمَ وإسمَاعِيـلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبـاطَ كانُوا هُودا

أوْ نَصَارَى أولئك أهل الكتاب كتـموا الإسلام وهم يعلـمون أنه دين الله, واتـخذوا الـيهودية والنصرانـية, وكتـموا مـحمدا صلى الله عليه وسلم وهم يعلـمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم, يجدونه مكتوبـا عندهم فـي التوراة والإنـجيـل.

1632ـ حدثنا الـحسن بن يحيى, قال: حدثنا عبد الرزاق, قال: أخبرنا معمر, عن قتادة قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ قال: الشهادة النبـيّ صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم, وهو الذي كتـموا.

1633ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا ابن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع, نـحو حديث بشر بن معاذ عن يزيد.

1634ـ حدثنـي يونس, قال: أخبرنا ابن وهب, قال: قال ابن زيد فـي قوله: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ قال:ٌهم يهودُ يسألون عن النبـيّ صلى الله عليه وسلم وعن صفته فـي كتاب الله عندهم, فـيكتـمون الصفة.

وإنـما اخترنا القول الذي قلناه فـي تأويـل ذلك لأن قوله تعالـى ذكره: وَمَنْ أظْلَـمُ مِـمّنْ كَتَـمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ الله فـي أثر قصة من سمى الله من أنبـيائه, وأمام قصته لهم. فأولـى بـالذي هو بـين ذلك أن يكون من قصصهم دون غيره.

فإن قال قائل: وأية شهادة عند الـيهود والنصارى من الله فـي أمر إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط؟ قـيـل: الشهادة التـي عندهم من الله فـي أمرهم, ما أنزل الله إلـيهم فـي التوراة والإنـجيـل, وأمرهم فـيها بـالاستنان بسنّتهم واتبـاع ملتهم, وأنهم كانوا حنفـاء مسلـمين. وهي الشهادة التـي عندهم من الله التـي كتـموها حين دعاهم نبـيّ الله صلى الله عليه وسلم إلـى الإسلام, فقالوا له: لن يدخـل الـجنة إلا من كان هودا أو نصارى وقالوا له ولأصحابه: كُونوا هودا أو نصارى تهتدوا. فأنزل الله فـيهم هذه الاَيات فـي تكذيبهم وكتـمانهم الـحقّ, وافترائهم علـى أنبـياء الله البـاطل والزور.

القول فـي تأويـل قوله تعالـى: {وَمَا اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ}.

يعنـي تعالـى ذكره بذلك: وقل لهؤلاء الـيهود والنصار الذين يحاجونك يا مـحمد: وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ من كتـمانكم الـحقّ فـيـما ألزمكم فـي كتابه بـيانه للناس, من أمر إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط فـي أمر الإسلام, وأنهم كانوا مسلـمين, وأن الـحنـيفـية الـمسلـمة دينُ الله الذي علـى جميع الـخـلق الدينونة به دون الـيهودية والنصرانـية وغيرهما من الـملل. ولا هو ساهٍ عن عقابكم علـى فعلكم ذلك, بل هو مُـحْصٍ علـيكم حتـى يجازيكم به من الـجزاء ما أنتـم له أهل فـي عاجل الدنـيا وآجل الاَخرة. فجازاهم عاجلاً فـي الدنـيا بقتل بعضهم وإجلائه عن وطنه وداره, وهو مـجازيهم فـي الاَخرة العذابَ الـمهين.

الآية : 141

القول فـي تأويـل قوله تعالـى:

{تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

يعنـي تعالـى ذكره بقوله: تَلْكَ أُمّةٌ إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط. كما:

1635ـ حدثنا بشر بن معاذ, قال: حدثنا يزيد, عن سعيد, عن قتادة قوله تعالـى: تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَـلَتْ يعنـي إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط.

1636ـ حدثنـي الـمثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا عبد الله بن أبـي جعفر, عن أبـيه, عن الربـيع بـمثله.

وقد بـينا فـيـما مضى أن الأمة: الـجماعة. فمعنى الآية إذا: قل يا مـحمد لهؤلاء الذين يجادلونك فـي الله من الـيهود والنصارى إن كتـموا ما عندهم من الشهادة فـي أمر إبراهيـم ومن سمينا معه, وأنهم كانوا مسلـمين, وزعموا أنهم كانوا هودا أو نصارى فكذبوا أن إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط أمة قد خـلت أي مضت لسبـيـلها, فصارت إلـى ربها, وخـلت بأعمالها وآمالها, لها عند الله ما كسبت من خير فـي أيام حياتها, وعلـيها ما اكتسبت من شرّ لا ينفعها غير صالـح أعمالها, ولا يضرّها إلا سيئها. فـاعلـموا أيها الـيهود والنصارى ذلك, فإنكم إن كان هؤلاء هم الذين بهم تفتـخرون وتزعمون أن بهم ترجون النـجاة من عذاب ربكم مع سيئاتكم, وعظيـم خطيئاتكم, لا ينفعهم عند الله غير ما قدّموا من صالـح الأعمال, ولا يضرّهم غير سيئها فأنتـم كذلك أحرى أن لا ينفعكم عند الله غير ما قدمتـم من صالـح الأعمال, ولا يضرّكم غير سيئها. فـاحذروا علـى أنفسكم وبـادروا خروجها بـالتوبة والإنابة إلـى الله مـما أنتـم علـيه من الكفر والضلالة والفرية علـى الله وعلـى أنبـيائه ورسله, ودعوا الاتّكال علـى فضائل الآبـاء والأجداد, فإنـما لكم ما كسبتـم, وعلـيكم ما اكتسبتـم, ولا تُسألون عما كان إبراهيـم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط يعملون من الأعمال, لأن كل نفس قدمت علـى الله يوم القـيامة, فإنـما تُسأل عما كسبت وأسلفت. دون ما أسلف غيرها.